غابرييل غارسيا ماركيز

عشتُ لأروي

ترجمة: صالح علماني



إلى ماريا

الحياة ليست ما يعيشه أحدنا ،
وإنما هي ما يتذكره ، وكيف يتذكره ليرويه .

١

طلبت مني أمي أن أرافقها من أجل بيع البيت. كانت قد وصلت في ذلك الصباح إلى بارانكيا قادمة من القرية النائية حيث تعيش الأسرة، دون أن تكون لديها أدنى فكرة عن كيفية العثور عليّ. فراحت تسأل هنا وهناك بين المعارف، فأشاروا عليها بأن تبحث عني في مكتبة "موندو" أو في المقاهي المجاورة، حيث أذهب مرتين في اليوم لتبادل الحديث مع أصدقائي الكتّاب. ومَنْ أخبرها بذلك حذرها قائلاً: "كوني متيقظة، لأنهم مجانين تماماً". وصلتْ في الثانية عشرة تماماً. شقت طريقها بمشيتها الخفيفة بين مناضد الكتب المعروضة، ووقفت أمامي، تنظر إلى عيني مباشرة بابتسامة ماكرة من ابتسامات أفضل أيامها، وقالت لي قبل أن أتمكن من الإتيان بأي رد فعل:

- أنا أمك.

ثمة شيء قد تغيَّر فيها منعني من التعرف عليها للوهلة الأولى. كانت في الخامسة والأربعين. وإذا ما أضفنا إلى سنوات عمرها ولاداتها الإحدى عشرة، تكون قد أمضت عشر سنوات تقريباً وهي حبلى، ومثلها على الأقل وهي تُرضع أبناءها. كانت قد شابت تماماً قبل الأوان، وبدت عيناها كبيرتين جداً وذاهلتين وراء نظارتها الأولى ثنائية البؤرة، وهي

تلتزم حِداداً كاملاً وجدياً على موت أمها، ولكنها ما زالت تحتفظ بالجمال الروماني الذي تبدو عليه في صورة من حفل زفافها، وقد اكتسبت الآن جلال نسمة خريفية. قالت لي قبل أي شيء آخر، وحتى قبل أن تعانقني، بأسلوبها الاحتفالي المعهود:

– جئتُ أطلب منك معروفاً بمرافقتي لبيع البيت.

ولم تكن مضطرة لأن تقول أي بيت هو، ولا أين، لأنه لم يكن لنا سوى بيت واحد في هذا العالم: بيت الجدين القديم في آراكاتاكا، الذي حالفني الحظ بالولادة فيه، ولم أعد للعيش هناك منذ بلوغي السنة الثامنة من عمري. كنتُ آنذاك قد هجرت كلية الحقوق بعد ستة فصول دراسية، أمضيتها، قبل أي شيء آخر، في قراءة كل ما يقع تحت يدي، وفي ترديد أشعار العصر الذهبي الإسباني الفريدة من الذاكرة. كنت قد قرأت، مترجمة وفي طبعات مستعارة، كل الكتب التي تكفيني لتعلم تقنية قص الروايات؛ وكنت قد نشرت ست قصص قصيرة في ملاحق صحفية، استحقت حماس أصدقائي واهتمام بعض النقاد. وكنت سأكمل الثالثة والعشرين من عمري في الشهر التالي؛ وكنت متخلفاً عن الخدمة العسكرية، ومُجرباً في حالتي سيلان زهري، وأدخن كل يوم، دون هواجس، ستين سيجارة من صنف تبغ رهيب. وأقضي بطالتي بالتناوب بين بارانكيّا وكارتخينا دي إندياس، على ساحل الكاريبي الكولومبي، بالبقاء حياً على أحسن وجه بما يدفعونه لي مقابل ملاحظاتي الصحفية اليومية في جريدة "الهيرالدو"، وهو أقل من لا شيء تقريباً، وأنام مع أفضل رفقة ممكنة حيثما يفاجئني الليل. وكما لو أن عدم اليقين بأمر طموحاتي وفوضى حياتي لم يكونا كافيين، فقد كنا نعدّ العدة، أنا

وجماعة من الأصدقاء الحميمين، لإصدار مجلة جريئة، ودون موارد، خطط ألفونسو فوينمايور لها منذ ثلاث سنوات. ما الذي يمكنني أن أرغب فيه أكثر من ذلك؟

وبسبب القلة، أكثر مما هو بدافع الإعجاب، سبقتُ الموضة بعشرين سنة: شارب كثيف خشن، وشعر مشعث. بنطال رعاة بقر، وقمصان مزركشة بأزهار غير مناسبة، وصندل حاج. وفي ظلمة إحدى دور السينما، كان أحد أصدقاء ذلك الزمن يقول لأحدهم، دون أن يدري أنني قريب منه: "يا لغابيتو المسكين، إنه حالة ميئوس منها". وهكذا، حين طلبت مني أمي أن أذهب معها لبيع البيت لم أجد أي عائق يمنعني من أن أقول لها نعم. أخبرتني أنها لا تملك ما يكفي من النقود، فقلتُ لها، بدافع الكرامة، إنني سأتولى دفع نفقاتي.

لم يكن ممكناً حلّ الأمر في الصحيفة التي أعمل فيها. فقد كانوا يدفعون لي ثلاثة بيزوات مقابل زاويتي اليومية وأربعة بيزوات عن كل افتتاحية أكتبها، حين يتغيب أحد المحررين الثابتين. ولكن ذلك كان يكاد لا يكفيني. حاولت الحصول على سلفة، غير أن المدير ذكّرني بأن ديوني الأصلية تزيد على خمسين بيزو. وفي ذلك المساء، اقترفت تجاوزاً لا يمكن لأي واحد من أصدقائي أن يُقدم عليه؛ فعند مخرج مقهى كولومبيا، الملاصق للمكتبة، التقيت بدون رامون فينيِّس، المعلم والمكتبي الكتلاني العجوز، وطلبت منه عشرة بيزوات ديناً. فكان لديه ستة فقط.

لم يكن بإمكان أمي ولا بإمكاني طبعاً، أن نتصور، مجرد تصور، أن تلك الرحلة البريئة التي استمرت يومين فقط، ستكون حاسمة إلى ذلك الحد بالنسبة لي، حتى إنه لا يمكن لأطول حياة وأكثرها اجتهاداً، أن

تكون كافية لروايتها. والآن، وقد تجاوزتُ الخامسة والسبعين، أعرف أن ذلك القرار كان الأهم بين كل القرارات التي توجب عليَّ اتخاذها في حياتي ككاتب. هذا يعني: في حياتي كلها.

حتى سن المراهقة، يكون اهتمام الذاكرة منصباً على المستقبل، أكثر من الماضي. ولهذا لم يكن الحنين قد حوّل ذكرياتي عن القرية إلى المثالية. كنت أتذكرها مثلما كانت عليه: مكان جيد للعيش، حيث يعرف الجميع بعضهم بعضاً، على ضفة نهر ذي مياه صافية تنساب فوق فرشة من حصى مصقولة، بيضاء وكبيرة مثل بيوض خرافية. وعند الغروب، وخاصة في شهر كانون الأول، بعد أن تنقضي الأمطار ويصير الهواء ألماساً، تبدو سلسلة جبال سييرا نيفادا في سانتا مارتا كأنها تدنو بقممها البيضاء حتى مزارع الموز على الضفة المقابلة. ومن هناك يظهر الهنود الأروهاكون مهرولين في أرتال نمل على دروب سلسلة الجبال الضيقة، وهم يحملون أكياس الزنجبيل على كواهلهم، ويمضغون كرات من أوراق الكوكا، ليتحملوا الحياة. وكنا نحن الأطفال نحلم آنذاك بأن نصنع كرات من تلك الثلوج الدائمة، وبأن نلعب لعبة الحرب في الشوارع الملتهبة. لقد كان الحر غير معقول، ولا سيما خلال القيلولة، إلى حد أن الكبار يشكون منه كما لو أنه مفاجأة جديدة في كل يوم. كنت أسمع منذ مولدي، باستمرار ودون هوادة، أن خط سكة الحديد ومعسكرات اليونايتد فروت كومباني بُنيت في الليل، لأنه من المستحيل إمساك المعدات المعدنية المسخّنة تحت الشمس.

الطريقة الوحيدة للوصول إلى آراكاتاكا، للقادم من بارانكيّا، هي في مركب مخلع ذي محرك، عبر ممر مائي حفرته أذرع العبيد في العهد

الاستعماري، ثم بعد ذلك عبر مستنقع فسيح، مياهه عكرة وكئيبة، حتى بلوغ بلدة ثييناغا الغامضة. ومن هناك يُركب القطار العادي الذي كان، في أيام عزه، الأفضل في البلاد، وفيه تُقطع المسافة الأخيرة عبر مزارع الموز الشاسعة، مع مواقف كثيرة عابرة في ضياع معفرة وملتهبة، ومحطات متوحدة. كان هذا هو الطريق الذي انطلقنا فيه أنا وأمي في الساعة السابعة ليلاً من يوم السبت، الثامن عشر من شباط سنة ١٩٥٠ - عشية الكرنفال - تحت وابل طوفاني في غير أوانه، ودون أن يكون معنا سوى اثنين وثلاثين بيزو نقداً تكفينا بمشقة للعودة إذا لم يُبع البيت في الظروف المتوقعة.

كانت رياح الصابيات الشمالية قوية جداً في تلك الليلة، فتكلفتُ جهداً كبيراً في المرسى النهري لإقناع أمي بالصعود إلى المركب. وقد كانت على حق. فتلك المراكب هي تقليد مُصغَّر لسفن نيو أورليانز البخارية، ولكن بمحركات تعمل بالبنزين، تبعث رجفة حمى خبيثة في كل من هو على متنها. وكانت في المركب قاعة صغيرة فيها حلقات من الحبال على مستويات متعددة، لتعليق أراجيح النوم، ومقاعد خشبية يمكن لكل واحد أن يرتاح عليها، مزاحماً بالمناكب، كيفما يستطيع مع أمتعته المفرطة، وحزم البضائع، وأقفاص الدجاج، وحتى الخنازير الحية. وكان هناك عدد ضئيل من القمرات الخانقة، في كل واحدة منها سريران عسكريان، وتشغل تلك القمرات، على الدوام تقريباً، عاهرات بائسات يرثى لهن، يقدمن خدمات مستعجلة خلال الرحلة. وبما أننا لم نجد في نهاية الأمر أي قمرة فارغة، ولم نكن نحمل كذلك أراجيح نوم، فقد هجمنا، أنا وأمي، على كرسيين معدنيين في الممر الأوسط، وتهيأنا لقضاء الليل هناك.

ومثلما حدست أمي، فقد ضربت العاصفة المركب المتهور بينما نحن نعبر نهر مجدلينا، الذي يتحول إلى مزاج محيطي عند مصبه. كنت قد اشتريت في المرفأ مؤونة جيدة من أرخص أصناف السجائر، مصنوعة من تبغ أسود، وبورق ينقصه القليل ليصبح أسمر. وبدأت أدخن على طريقتي آنذاك، بإشعال سيجارة من عقب أخرى، بينما أنا أعيد قراءة رواية وليم فوكنر "نور في آب". وكان فوكنر آنذاك أوفى شياطيني الأوصياء. تشبثت أمي بمسبحتها، وكأنها تتمسك بملفاف رافعة رحوية يمكنها أن تسحب جراراً أو أن تحمل طائرة في الجو. وكما هي عادتها، لم تطلب شيئاً لنفسها، وإنما الازدهار والحياة المديدة لأيتامها الأحد عشر. ولا بد أن صلاتها قد وصلت إلى حيث يجب أن تصل، لأن المطر تحول إلى الوداعة، عندما دخلنا القنال. وتحرك الهواء بخفة تكفي فقط لإبعاد البعوض. خبأت أمي عندئذ المسبحة وراحت تراقب، مطولاً وبصمت، جلبة الحياة التي تدور في ما حولنا.

كانت قد ولدت في بيت متواضع، ولكنها ترعرعت في الازدهار العابر الذي وفرته شركة الموز. وقد بقي لها من كل ذلك، على الأقل، التربية الجيدة التي تلقتها كطفلة غنية في مدرسة تقدمة العذراء المقدسة، في سانتا مارتا. وكانت، خلال عطلات عيد الميلاد، تطرز على الطارة مع صديقاتها، وتعزف على الكلافيكورديو في الأسواق الخيرية، وتحضر مع عمة مرافقة، أشد حفلات الرقص انتقائية من تلك التي تقيمها الأرستقراطية المحلية الورعة. ولكن أحداً لم يكن يعرف لها أي خطيب عندما تزوجت، رغم إرادة أبويها، من عامل التلغراف في القرية. وكانت أبرز مزاياها منذ ذلك الحين هي حس السخرية والصحة الحديدية

التي لم تستطع مكايد الرزايا والشدائد أن تهزمها خلال حياتها المديدة. أما أكثر مزاياها مفاجأة، وأقلها منذ ذلك الحين إثارة للشبهة أيضاً، فهي موهبة رقتها التي أتاحت لها إخفاء قوة طبعها الرهيب: إنها برج أسد مكتمل. وقد وفر لها ذلك فرض سلطة أمومية تصل سيطرتها إلى أبعد الأقارب المقيمين في أماكن لا تخطر على بال، مثل نظام كوكبي تتحكم به من مطبخها، بصوت خافت، ودون أن يرف لها جفن تقريباً، بينما هي تسلق قدر فاصولياء.

لدى رؤيتها تتحمل تلك الرحلة القاسية، دون أن يطرأ عليها أي تبدل، تساءلتُ كيف استطاعت الإذعان لمظالم الفقر بكل تلك السرعة، وكل ذلك التحكم بالنفس. ولم يكن هناك مثل تلك الليلة للتأكد من ذلك. فالبعوض الضاري، والحر الكثيف المقزز، بسبب وحل القنوات الذي كان المركب يحركه في مروره، وجلبة المسافرين المؤرقين الذين لا يجدون راحة ضمن جلودهم. كان كل شيء يبدو وكأنه معدّ عمداً لزعزعة أشد الطباع فولذة. كانت أمي تتحمل كل ذلك، وهي ثابتة في كرسيها. بينما فتيات الاستئجار يجنين حصاد كرنفال في القمرات القريبة، متنكرات كرجال أو "مانولات"[1]. كانت إحداهن قد دخلت وخرجت من قمرتها عدة مرات، وفي كل مرة مع زبون مختلف، بجوار مقعد أمي بالضبط. وقد ظننتُ أنها لم تلحظ ذلك. ولكنها بعد المرة الرابعة أو الخامسة لدخول الفتاة وخروجها، لاحقتها بنظرة رثاء حتى نهاية الممر، وتنهدت قائلة:

---

(١) مانولا manola: صيغة تلاعب باسم مانويلا الشائع، وهي تسمية كانت تطلق في أواخر القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر، على نساء بعض الأحياء الشعبية اللواتي يرتدين ملابس تتميز بالتأنق. وتحول استخدام الكلمة فيها بعد لتصبح تسمية مهذبة، مع لمسة سخرية، للعاهرات.

– يا للفتيات البائسات! ما عليهن عمله لكي يعشن أسوأ من الشغل.

بقيت أمي على تلك الحال حتى منتصف الليل، عندما تعبتُ من القراءة مع الاهتزاز الذي لا يطاق وشح أنوار الممر، فجلست أدخن بجانبها، محاولاً الخروج من ورطة رمال كونتية يوكناباتافا[1]. كنتُ قد هجرت الجامعة في السنة السابقة، معللاً النفس بالوهم الجريء في العيش من الصحافة والأدب دون حاجة إلى تعلمهما، متحمساً لعبارة أظن أنني قرأتها لبرنارد شو: "منذ طفولتي المبكرة اضطررت إلى قطع تعلمي لكي أذهب إلى المدرسة". ولم أجرؤ على مناقشة الأمر مع أحد، لأنني كنت أشعر، دون أن أتمكن من تفسير ذلك، بأن مسوغاتي لن تكون نافعة إلا لي أنا بالذات.

محاولة إقناع أبوي بمثل ذلك التصرف الجنوني، بعد أن عقدا عليّ آمالاً كبيرة وأنفقا نقوداً كثيرة لم يكونا يملكانها، هو إضاعة للوقت. ولا سيما أبي الذي يمكن له أن يغفر لي أي شيء، باستثناء عدم تعليق شهادة جامعية، لم يستطع هو الحصول عليها، على الجدار. انقطع الاتصال بيننا. وبعد مرور سنة تقريباً، كنت ما أزال أفكر في زيارته لأقدم له مبرراتي، عندما ظهرت أمي لتطلب مني مرافقتها لبيع البيت. ومع ذلك، لم تأتِ هي على أي ذكر للمسألة إلى ما بعد منتصف الليل، في المركب، عندما أحست، كوحي خارق، بأنها وجدت أخيراً الفرصة المناسبة لتقول لي ما كان، دون ريب، السبب الحقيقي لرحلتها. وبدأت بالطريقة والنبرة والكلمات الموزونة بدقة، والتي لا بد أنها قد أنضجتها في وحدة أرقها، قبل وقت طويل من بدئها الرحلة.

(١) المكان الذي تدور فيه أحداث رواية فوكنر "نور في آب".

– أبوك حزين جداً – قالت.

ها هو ذا إذاً الجحيم المرهوب. بدأت كعادتها، في وقت لا يخطر على بال، وبصوت هادئ لا يمكن لأي شيء أن يبدله، لمجرد أن تستكمل الطقوس، لأنها كانت تعرف جوابي جيداً، فسألتها:

– ولماذا هو حزين؟

– لأنكَ تركت الدراسة.

– لم أتركها – قلت لها – وإنما غيّرت الدراسة فقط.

– أبوك يقول إنه الشيء نفسه.

فقلت لها، وأنا أعرف أن ما أقوله زائف:

– وهو نفسه ترك الدراسة أيضاً ليعزف الكمان.

– الأمر ليس مماثلاً – ردت بحدة كبيرة – لقد كان يعزف الكمان في الحفلات والسيرنادات فقط. وإذا كان قد ترك دراسته، فلأنه لم يكن يملك ما يأكله. ولكنه في أقل من شهر، تعلم مهنة التلغراف، وهي مهنة جيدة آنذاك، ولا سيما في آراكاتاكا.

– وأنا أيضاً أعيش من الكتابة للصحف – قلتُ لها.

– أنت تقول هذا كي لا تعذبني. ولكن سوء حالك يظهر عليك من بعيد. وإلا كيف لم أتعرف عليك عندما رأيتك في المكتبة.

– وأنا أيضاً لم أتعرف عليك.

– ولكن ليس للسبب نفسه. لقد ظننت أنك متسول صدقات. – ونظرت إلى صندلي، وأضافت:– ودون جورب.

فقلت لها:

– هذا مريح أكثر. قميصان وسروالان داخليان: واحد أرتديه وآخر يجف. ما الذي أحتاجه أكثر من هذا؟

– قليل من الكرامة – قالت هي. ولكنها لطّفت ذلك على الفور بنبرة أخرى: – أقول لك هذا لأننا نحبك كثيراً.

– أعرف ذلك. ولكن أخبريني، لو أنكِ مكاني، أما كنت ستفعلين الشيء نفسه؟

– ما كنت لأفعله – قالت – إذا كنت سأخالف أبويّ بذلك.

تذكرتُ عنادها الذي تمكنت به من كسر معارضة أسرتها للزواج، فقلت لها ضاحكاً:

– تجرّئي على النظر في عيني.

ولكنها تحاشتني بجدية، لأنها كانت تعرف تماماً ما الذي أفكر فيه. وقالت:

– لم أتزوج إلا بعد أن حصلتُ على مباركة أبوي. بالقوة، أجل، ولكنني حصلت عليها.

قطعتُ النقاش، ليس لأن حججي أقنعتها، وإنما لأنها أرادت الذهاب إلى المرحاض وهي لا تثق بظروفه الصحية. فتحدثتُ إلى معاون الربان، لأسأله إذا ما كان هناك مكان أكثر نظافة، لكنه أوضح لي أنه هو نفسه يستخدم المرحاض العمومي. ثم قال، كما لو أنه قد انتهى تواً من قراءة كونراد: "جميعنا متساوون في البحر". وهكذا خضعت أمي إلى قانون الجميع. وعندما خرجت، وعلى عكس ما كنتُ أخشاه، لم تستطع منع نفسها من الضحك إلا بصعوبة وهي تقول لي:

– تصور، ما الذي سيظنه أبوك بي إذا ما رجعت إليه مصابة بأحد أمراض الحياة الخبيثة؟

بعد انقضاء منتصف الليل، تعرضنا لتأخير دام ثلاث ساعات، ذلك

أن تشابك الزنبقيات والأعشاب المائية في القنال عطل مراوح الدفع، فحاد المركب إلى منبت أشجار مانغي وكان على مسافرين كثيرين أن يسحبوه من الضفاف، بحبال أراجيح النوم. صار الحر والبعوض لا يطاقان. ولكن أمي تخلصت منهما، بوميض إغفاءات آنية ومتقطعة. وهي حالة مشهورة في الأسرة، أتاحت لها الاستراحة دون أن تفقد خيط المحادثة. وعندما استؤنفت الرحلة وهبت النسمة الباردة، استعادت صحوها كاملاً. وتنهدت:

– لا بد لي، على كل حال، من أن أحمل جواباً إلى أبيك.

فقلتُ لها بالبراءة نفسها:

– من الأفضل ألا تقلقي. في شهر كانون الأول سأذهب بنفسي، وعندئذ سأوضح له كل شيء.

– ما زالت هناك عشرة شهور.

– لا يمكن في نهاية المطاف إصلاح أي شيء بشأن الجامعة هذه السنة – قلتُ لها.

– هل تعني حقاً أنك ستذهب؟

– أعدك – قلت لها، ولمحتُ لأول مرة، شيئاً من الجزع في صوتها:

– هل يمكنني أن أقول لأبيك إنك ستقول له نعم؟

فأجبتها بحزم:

– لا. هذا لا.

بدا جلياً أنها تبحث عن مخرج آخر. ولكنني لم أمنحها إياه.

– من الأفضل إذاً أن أقول له الحقيقة كلها منذ الآن. وهكذا لن يبدو أن هناك خدعة.

فقلت لها براحة:

– حسناً، أخبريه.

اتفقنا على ذلك. ويمكن لمن لا يعرفها أن يفكر في أن كل شيء قد انتهى عند ذلك الحد، ولكنني كنت أعرف أنها مجرد هدنة لاستعادة الأنفاس. بعد قليل نامت بعمق. هبت نسمة خفيفة أبعدت البعوض وأفعمت الهواء الجديد برائحة أزهار، وعندئذ اكتسب المركب رشاقة سفينة شراعية.

كنا في ثيناغا غراندي[1] (المستنقع الكبير)، وهو أسطورة أخرى من أساطير طفولتي. فقد أبحرتُ فيه عدة مرات، عندما كان جدي الكولونيل نيكولاس ريكاردو ماركيز ميخيا – الذي كنا، نحن أحفاده، نسميه بابايلو – يأخذني من أراكاتاكا إلى بارانكيا لزيارة أبوي. "يجب عدم الخوف من الثيناغا (المستنقع)، وإنما احترامه"، كان قد قال لي، متحدثاً عن نزوات مياهه غير المتوقعة، فهي قد تتصرف مثل مستنقع راكد أو مثل محيط هائج. في فصل الأمطار يكون تحت رحمة عواصف سلسلة الجبال. ومنذ كانون الأول حتى نيسان، عندما يفترض أن يكون الطقس هادئاً، تفسده الروائح الكريهة وريح الشمال بهبات قوية، تجعل كل ليلة فيه مغامرة. لم تكن جدتي لأمي، ترانكيلينا إغواران – مينا – تتجرأ على اجتيازه، إلا في الحالات المستعجلة والطارئة الكبرى، بعد ما حدث، إثر رحلة مرعبة اضطروا خلالها إلى البحث عن ملجأ حتى الفجر في مصب نهر ريوفريو.

---

(١) Cìenaga Grandr نوع من البحيرات أو المستنقعات الشاطئية، تتشكل في المنطقة المعروفة باسم ثياناغاس، تفصلها عن البحر كثبان رملية ضيقة.

لحسن الحظ أن المستنقع كان هادئاً في تلك الليلة. فمن نوافذ مقدمة المركب، حيث خرجتُ للتنفس، قبل الفجر بقليل، كنت أرى أنوار مراكب الصيد التي لا يُحصى عددها، تطفو مثل نجوم على سطح الماء. وكان الصيادون غير المرئيين يتبادلون الحديث كما في الزيارات، إذ كان للأصوات وقع خاص في جو الثيناغا. وبينما أنا متكئ على الحاجز، أحاول أن أتبين شبح سلسلة الجبال، فاجأتني، على حين غرة، ضربة مخلب الحنين الأولى.

في فجر يوم آخر مثل هذا، بينما كنت أجتاز ثيناغا غراندي، تركني بابايلو نائماً في القمرة، وذهب إلى حانة المركب. لست أدري كم كانت الساعة، عندما أيقظتني جلبة أناس كثر من خلال أزيز المروحة الصدئة واهتزاز صفائح القمرة. لم أكن، على ما أظن، قد تجاوزت الخامسة من عمري. وأحسست برعب شديد، ولكن الهدوء، ما لبث أن ساد من جديد. وفكرت في أنه قد يكون حلماً. وفي الصباح، وكنا قد وصلنا مرسى ثيناغا، كان جدي يحلق ذقنه بموسى حلاقة، والباب مفتوح والمرآة معلقة في إطاره. الذكرى دقيقة: لم يكن قد ارتدى قميصه بعد، ولكنه كان يضع فوق قميصه الداخلي حمالتي بنطاله المطاطيتين الأبديتين، العريضتين الموشاتين بخطوط خضراء. وبينما هو يحلق، كان يواصل الحديث مع رجل، ما زال بإمكاني، حتى اليوم، التعرف عليه من النظرة الأولى. كان له بروفيل غراب، لا يمكن الخطأ فيه؛ ووشم بحار على اليد اليمنى، ويعلق حول عنقه عدة سلاسل ذهبية ثقيلة، وأساور وسلاسل أخرى، من الذهب أيضاً، في معصميه كليهما. كنتُ قد انتهيت من ارتداء ملابسي، وجلست على السرير لأنتعل حذائي، عندما قال الرجل لجدي:

– لا تشك في ذلك أيها الكولونيل. ما كانوا يريدون فعله بك، هو إلقاؤك إلى الماء.

فابتسم جدي دون أن يتوقف عن الحلاقة، ورد بترفع هو من خصاله الخاصة جداً:

– لحسن حظهم أنهم لم يتجرؤوا.

عندئذ فهمت فضيحة الليلة السابقة، وأحسست بالتأثر لفكرة أن هناك من كان يمكن له أن يلقي بجدي إلى البحيرة.

ذكرى هذه الحادثة التي لم تتضح أبداً، فاجأتني في ذلك الصباح الذي ذهبت فيه مع أمي لبيع البيت، بينما أنا أتأمل ثلوج سلسلة الجبال التي تبدو، في الفجر، زرقاء مع أول خيوط الشمس. التأخير في القنوات، أتاح لنا أن نرى في وضح النهار، حاجز الرمال المشعة التي تفصل البحر عن البحيرة، حيث توجد قرى صيادين، الشّباك فيها معلقة لتجف على الشاطئ، والأطفال المتسخون والضامرون يلعبون كرة القدم، بكرة من الخرق. كان من المؤثر رؤية صيادين كثيرين في الشوارع، مبتوري الأذرع، لأنهم لم يلقوا قطع الديناميت في الوقت المناسب. ولدى مرور المركب، راح الأطفال يغوصون في الماء، بحثاً عن القطع النقدية التي يلقي بها المسافرون.

كانت الساعة توشك على بلوغ السابعة، عندما بدأنا الرسو في مستنقع منتن على مقربة من بلدة ثييناغا. تلقفتنا جماعات من الحمالين الغائصين في الوحل حتى ركبهم، وحملونا حتى رصيف المرسى، وسط زحام نسور رخمة تتنازع قذارات المستنقع الموحل. كنا نجلس إلى إحدى موائد المرفأ، نتناول بتمهل، فطوراً من أسماك البحيرة اللذيذة وشرائح

موز أخضر مقلية، عندما جددت أمي هجوم حربها الشخصية. فقالت دون أن ترفع بصرها:

– قل إذن مرة واحدة، ما الذي سأقوله لأبيك؟

حاولتُ كسب وقت للتفكير.

– حول أي شيء؟

فقالت بشيء من النزق:

– حول الشيء الوحيد الذي يهمه، دراستك.

وقد حالفني الحظ بوجود زبون فضولي، مشدود إلى حدة الحوار، أراد أن يعرف مبرراتي. وجواب أمي الفوري لم يخفني قليلاً فقط، وإنما فاجأني إقدامها عليه، وهي الغيورة جداً على حياتها الخاصة. قالت:

– المسألة أنه يريد أن يصير كاتباً.

فردّ الرجل بجدية:

– يمكن للكاتب الجيد أن يكسب مالاً وفيراً، ولا سيما إذا كان يعمل مع الحكومة.

ولا أدري إذا ما كانت أمي قد تحاشت الموضوع بدافع الحذر والتحفظ، أم خوفاً من حجج محاورها الطارئ. ولكنهما انتهيا إلى التأسي لحالة التردد التي يعيشها أبناء جيلي، وتبادل الحنين إلى الماضي. وأخيراً، جرجرا أسماء معارف مشتركين، وانتهى بهما الأمر إلى اكتشاف أننا أقرباء من ناحيتين، من ناحية آل كوتيس، وناحية آل إغواران. وكان ذلك يحدث لنا في تلك الحقبة، مع كل شخصين من كل ثلاثة أشخاص نلتقي بهم في منطقة ساحل الكاريبي. وكانت أمي تحتفل بذلك في كل مرة، كحدث فريد.

ذهبنا إلى محطة القطار، في عربة من طراز فيكتوريا، يجرها حصان واحد، ربما هو الأخير من سلالة منقرضة في بقية العالم. كانت أمي تمضي ساهمة، تنظر إلى السهب القاحل والمتكلس بملح البارود الذي يبدأ من موحلة المرفأ ويضيع في المدى. لقد كان المكان تاريخياً بالنسبة إليّ: ففي الثالثة أو الرابعة من عمري، في أثناء رحلتي الأولى إلى باراتكيا، أخذني الجد من يدي، عبر ذلك القفر الملتهب، سائراً بسرعة ودون أن يقول لي لماذا. وفجأة وجدنا نفسينا قبالة امتداد شاسع من الماء الأخضر فيه تجشؤات زبد، ويطفو فيه عالم كامل من الدجاج الغارق. وقال لي:

– هذا هو البحر.

فسألته، وقد خاب أملي، عما يوجد في الضفة الأخرى، فأجابني دون أن يتردد في الأمر:

– في الجانب الآخر، لا توجد ضفة.

اليوم، بعد رؤيتي لبحار كثيرة من الوجه والقفا، ما زلت أفكر بأن ذلك الجواب هو إحدى إجاباته العظيمة. وعلى أي حال، لم يكن أي من تخيلاتي المسبقة، يتفق مع ذلك البحر الوسخ، الذي يستحيل المشي على شاطئه النيتراتي، ما بين أغصان أشجار المانغلي المتعفنة وشظايا فتات الأصداف: لقد كان رهيباً.

لا بد أن أمي كانت تحمل الفكرة نفسها عن بحر ثيناغا، لأنها، ما إن رأته يظهر إلى يسار العربة، حتى تنهدت:

– ليس هناك بحر مثل بحر ريوهاتشا!

رويتُ لها، في تلك المناسبة، ذكراي عن الدجاجات الغارقة، فبدا

لها ذلك، مثل جميع الكبار، أنه من تهيؤات الطفولة. ثم واصلتُ بعد ذلك تأمل كل مكان نصادفه في طريقنا، وكنتُ أعرف، من تبدلات صمتها، ما الذي تفكر فيه، وهي ترى كل مكان. مررنا قبالة "حي التسامح" على الجهة الأخرى من خط القطار، ببيوته الصغيرة الملونة ذات السقوف الصدئة، وببغاواته الهرمة من باراماريبو التي تدعو الزبائن بالبرتغالية، من الحلقات المعلقة بأفاريز الأسطح. مررنا بمنهل القاطرات، ذي القبة الحديدية الهائلة التي تأوي إلى النوم فيها الطيورُ المهاجرة والنوارسُ التائهة. مررنا بمحاذاة المدينة، دون أن ندخل إليها، ولكننا رأينا الشوارع الفسيحة والكئيبة، وبيوت الازدهار الغابر، المؤلفة من طابق واحد وذات النوافذ الكبيرة، حيث كانت التمارين على البيانو، تتوالى دون توقف منذ الفجر. وفجأة أشارت أمي بإصبعها، وقالت لي:

– انظر. هناك انتهى العالم.

تابعت الاتجاه الذي أشارت إليه، ورأيت المحطة: بناء من أخشاب متهالكة، بسقف من التوتياء المموج، وشرفات ناتئة، وأمامها ساحة صغيرة مقفرة لا يمكن لها أن تتسع لأكثر من مئتي شخص. لقد قتل الجيش هناك في سنة ١٩٢٨، كما أكدت لي أمي في ذلك اليوم، عدداً لم يتم تحديده قط من عمال مزارع الموز المياومين. وكنت أعرف ذلك الحدث، كما لو أني قد عشته، بعد أن سمعت جدي يحكيه ويكرره ألف مرة، منذ أن صار لي ذاكرة: الضابط يقرأ القرار الذي اعتُبر فيه العمال المضربون عصبة من الأشرار؛ والثلاثة آلاف رجل وامرأة وطفل ظلوا ثابتين في أماكنهم، تحت الشمس الرهيبة، بعد أن منحهم الضابط مهلة خمس دقائق لإخلاء الساحة؛ أمر إطلاق النار، أزيز زخات الرصاص

المتأججة، أصيب الحشد المحاصر بالهلع، بينما هم يقلصونه شبراً فشبراً بمقص الرشاشات المنهجي والنهم.

يصل القطار، عادة إلى ثيناغا في التاسعة صباحاً، فيحمل ركاب المركب ومن ينزلون من سلسلة الجبال، ويواصل طريقه، متوغلاً داخل منطقة مزارع الموز، بعد ربع ساعة من ذلك. وصلنا أنا وأمي إلى المحطة، بعد الساعة الثامنة، لكن القطار تأخر. ومع ذلك، فقد كنا الراكبين الوحيدين، وقد انتبهت هي إلى ذلك، مذ دخلنا العربة الخاوية، فهتفت بمزاج احتفالي:

– يا للترف! القطار بكامله لنا وحدنا!

لقد فكرتُ على الدوام في أنه كان ابتهاجاً متكلفاً تواري به خيبة أملها. فضروف الزمن كانت بادية للعيان بكل وضوح في حالة العربات. إنها عربات الدرجة الثانية القديمة، ولكن دون مقاعد الخيزران، ودون الزجاج الذي يمكن رفعه وإنزاله في النوافذ، وإنما بمقاعد خشبية دبغتها مؤخرات الفقراء الملساء والدافئة. وقد بدا القطار بكامله، وليس تلك العربة وحدها، شبحاً لنفسه بالمقارنة مع ما كان عليه في الماضي. لقد كانت فيه من قبل ثلاث درجات. الدرجة الثالثة التي يسافر فيها أفقر الناس، وعرباتها هي الأقفاص نفسها، المصنوعة من ألواح خشبية، لنقل الموز أو مواشي الذبح، وقد كُيِّفت للمسافرين بمقاعد طولانية من الخشب الخام. والدرجة الثانية، فيها مقاعد من الخيزران وإطارات برونزية. أما الدرجة الأولى التي يسافر فيها أناس الحكومة وكبار موظفي شركة الموز، فهناك سجاد في ممرها ومقاعد فارهة مغلفة بقطيفة حمراء، يمكن تبديل أماكنها. وعندما يسافر مراقب الشركة الأعلى أو أسرته، أو

ضيوفه البارزون، تُشبك في آخر القطار، عربة فاخرة ذات نوافذ من البلور الشمسي وأفاريز مذهبة، وشرفة مكشوفة فيها مناضد صغيرة من أجل تناول الشاي، أثناء السفر. ولم أتعرف على كائن فانٍ رأى عربة الأحلام تلك من الداخل. لقد كان جدي عمدة مرتين، ولديه فوق ذلك مفهوم سعيد عن النقود. ولكنه لم يكن يسافر في الدرجة الثانية، إلا إذا كانت ترافقه إحدى نساء الأسرة. وعندما يسألونه لماذا يسافر في الدرجة الثالثة، يجيب: "لأنه لا وجود لرابعة". ومع ذلك، فإن أهم ما يُذكر من القطار، في أزمنة أخرى، هو دقة مواعيده. فساعات القرى كانت تُضبط على صفيره.

في ذلك اليوم، لسبب أو لآخر، انطلق القطار متأخراً ساعة ونصف الساعة. وعندما بدأ انطلاقه، ببطء شديد وصرير كئيب، رسمت أمي إشارة الصليب. ولكنها عادت على الفور إلى الواقع، وقالت:

– هذا القطار بحاجة إلى زيت في توابضه.

كنا المسافرين الوحيدين، ربما في القطار كله، ولم يكن هناك حتى تلك اللحظة، أي شيء يثير فيَّ اهتماماً حقيقياً. غرقتُ في سبات "نور في آب"، مدخناً دون توقف، مع نظرات سريعة ألقيها بين حين وآخر للتعرف على الأماكن التي نخلّفها وراءنا. اجتاز القطار، بصفير طويل، مستنقعات ثيناغا، ودخل بسرعة قصوى في ممر مترجرج من صخور مائلة إلى الحمرة. فصارت قرقعة العربات لا تطاق. ولكن السرعة خفّت بعد نحو خمس عشرة دقيقة، ودخل في لهاث مكتوم، إلى ظلال برودة المزارع، وصار الطقس أشد كثافة، وتلاشى الإحساس بنسيم البحر. لم أكن مضطراً إلى قطع القراءة، لأعرف أننا قد دخلنا مملكة مناطق الموز الكئيبة والغامضة.

تبدل العالم. فعلى جانبي سكة الحديد، راحت تمتد دروب المزارع المتناسقة وغير المتناهية، حيث كانت تمضي عربات تجرها الجواميس، محملة بقطوف الموز الخضراء. وفجأة، وفي فراغات مباغتة خالية من الزرع، تظهر هناك معسكرات من الآجر الأحمر، ومكاتب لنوافذها زوائد ملحقة، فيها مراوح ذات أذرع معلقة في السقوف، ومستشفى متوحد في حقل شقائق نعمان. كل نهر وله قريته وجسره الحديدي، حيث يمر القطار مطلقاً ولولاته، فتقفز الفتيات اللواتي يستحممن في المياه الجليدية، مثل أسماك شابل، لدى مروره، ليشوشن المسافرين بنهودهن العابرة.

في قرية ريوفريو، صعدت عدة أسر من هنود أروهاكو، محملين بحقائب ظهر مترعة بثمار الأغواكاتي الجبلية، وهي الأشهى مذاقاً في البلاد. ذرعوا العربة متقافزين في كلا الاتجاهين، باحثين عن مكان يجلسون فيه. ولكن لم يبق في العربة، عندما استأنف القطار سيره، سوى امرأتين بيضاوين، معهما طفل حديث الولادة، وخوري شاب. لم يتوقف الطفل عن البكاء، طوال بقية الرحلة. أما الخوري فكان ينتعل جزمة ويعتمر قبعة كشاف، مثل شراع، وكان يتكلم، في الوقت الذي كان فيه الطفل يبكي، ودائماً، كما لو أنه على منبر الكنيسة. وموضوع موعظته هو احتمال عودة شركة الموز. منذ غادرت هذه الشركة لم يكن هناك حديث آخر في المنطقة، وكانت وجهات النظر منقسمة بين من يريدون أن تعود، ومن لا يريدون، ولكن الجميع يعتبرون عودتها أمراً مؤكداً. الخوري كان ضد عودتها، وقد فسر ذلك بسبب شخصي جداً، إلى حد بدا معه جنونياً للمرأتين:

- الشركة تخلف الخراب أينما مرّت.

كان هذا هو الشيء الأصيل الوحيد الذي قاله. ولكنه لم يتمكن من شرحه. وقد انتهى الأمر بالمرأة التي تحمل الطفل إلى تخطئته، بحجة أنه لا يمكن للرب أن يكون متفقاً معه.

لقد محا الحنين، كالعادة، الذكريات السيئة، وضخّم الطيبة. ليس هناك من ينجو من آثاره المخربة. كان الرجال الجالسون عند أبواب بيوتهم، يظهرون من نافذة العربة، وكانت رؤية وجوههم كافية لمعرفة ما ينتظرونه. والغسالات على الشواطئ النيترانية ينظرن إلى مرور القطار بالأمل نفسه. فهم جميعهم يرون في كل غريب يأتي حاملاً حقيبة رجلِ أعمال، رجلَ اليونايتد فروت كومباني العائد لإعادة إقرار الماضي. في كل لقاء، وفي كل زيارة، وفي كل رسالة، تُطل عاجلاً أو آجلاً، الجملة القدسية: "يقولون إن الشركة راجعة". ليس هناك من يعرف من قال ذلك، ولا متى، ولا لماذا قاله؛ إنما لم يكن هناك من يشك فيه.

كانت أمي تظن أنها قد شفيت من كل ذعر مفاجئ؛ فبعد موت أبويها قطعت كل علاقة لها بآراكاتاكا. ومع ذلك، كانت أحلامها تخونها. فعلى الأقل، عندما يكون لديها حلم، يهمها كثيراً أن ترويه أثناء الفطور، يكون مرتبطاً دوماً بحنينها إلى منطقة الموز. كانت قد تجاوزت بمشقة أقسى فترات حياتها، دون أن تبيع البيت، بوهم الحصول، مقابله، على مبلغ يزيد أربعة أضعاف، عندما ترجع الشركة. وأخيراً هزمها ضغط الواقع الذي لا يطاق. ولكنها حين سمعت الخوري يقول في القطار إن الشركة على وشك الرجوع، أومأت بحركة مكروبة، وقالت لي في أذني:

- من المؤسف أننا لا نستطيع الانتظار لوقت آخر قصير، كي نبيع البيت بسعر أعلى.

بينما الخوري يتكلم، مررنا، عَرَضاً، بقرية يجتمع في ساحتها حشد من الناس، وفرقة موسيقية تعزف لحناً مرحاً، تحت الشمس الملتهبة. جميع تلك القرى كانت تبدو لي متشابهة على الدوام. وعندما كان باباليلو يأخذني إلى سينما أولمبيا التي يملكها دون أنطونيو داكونتي، كنتُ ألاحظ أن محطات القطارات، في أفلام رعاة البقر، تشبه محطات قطارنا. وفيما بعد، عندما بدأتُ بقراءة فوكنر، وجدت أيضاً أن قرى رواياته تبدو مماثلة لقرانا. ولم يكن ذلك مفاجئاً، لأن هذه الأخيرة بُنيت تحت الإشراف المُخلص لليونايتد فروت كومباني، وبأسلوبها المؤقت نفسه، في بناء معسكرات عابرة. إنني أتذكر تلك القرى جميعها، بكنيستها التي في الساحة، وبيوتها الصغيرة، كما في قصص الحوريات، المطلية بألوان أولية. أتذكر فرق المياومين السود، وهم يغنون عند الغروب، وغالبونات[1] المزارع، حيث يجلس العمال لرؤية مرور قطارات الشحن، والحدود بين المزارع، حيث كان يطلع الصباح على عمال القطاف بمناجل المتشيتي مقطوعي الرؤوس في عريدات السكر، أيام السبت. أتذكر المدن الخاصة بالغرينغيين في آراكاتاكا، وفي سيبيا، على الجانب الآخر من سكة الحديد، مسيجة بشباك معدنية كأنها أقفاص دجاج هائلة مكهربة، يطلع عليها الصباح في أيام الصيف الباردة وقد اسودّت بعصافير السنونو المحروقة. أتذكر مروجها البطيئة المزرقة بالطواويس وطيور السُّماني، ومساكنها ذات السقوف الحمراء والنوافذ المشبّكة، والمناضد المستديرة، مع كراس قابلة للطي من أجل تناول

(١) غالبون galpon : عنبر كبير لمبيت العبيد في المزارع ، وقد يكون مسقوفاً فقط ، ودون جدران في أغلب الأحيان .

الطعام على الشرفة، بين أشجار نخيل وشجيرات ورد معفرة. وأحياناً، تظهر من خلال سياج الأسلاك، نساء جميلات وضامرات، بفساتين من الموسلين وقبعات كبيرة من الشف، يقطفن أزهار حدائقهن بمقصات ذهبية.

منذ طفولتي، لم يكن سهلاً تمييز بعض القرى عن غيرها. وبعد مرور عشرين سنة، كان الأمر أصعب؛ فقد سقطت، عن بوابات المحطات، اللوحات الخشبية التي تحمل الأسماء الشاعرية - توكورينكا، غاماتشيتو، نيرلانديا، غواكامايال - وجميعها كانت أكثر وحشة وخراباً مما هي عليه في الذاكرة. توقف القطار في سيبيّا في حوالي الحادية عشرة والنصف صباحاً، لاستبدال القاطرة والتزود بالماء، خلال خمس عشرة دقيقة بدت لانهائية. وهناك بدأ الحر. وعندما تجدد المسير، كانت القاطرة الجديدة تقذفنا عند كل منعطف بدفقة من هباب الفحم، تدخل من النافذة التي لا زجاج لها، وتغطينا بثلج أسود. كان الخوري والمرأتان قد نزلوا في إحدى القرى، دون أن ننتبه إلى نزولهم، فزاد ذلك من إحساسي بأنني أنا وأمي نسافر وحيدين في قطار لا أحد. وبينما هي جالسة قبالتي، تنظر من النافذة، أزاحت عنها إغفاءتين أو ثلاثاً، ولكنها تنشطت فجأة، وأفلتت مرة أخرى السؤال المرهوب:

- والآنَ، ما الذي سأقوله لأبيك؟

كنت أفكر في أنها لن تستسلم أبداً، وستواصل البحث عن خاصرة ضعيفة تكسر من خلالها قراري. كانت قبل قليل من ذلك قد اقترحت بعض صيغ الالتزام التي استبعدتها دون تقديم حجج. ولكنني كنت أعرف أن تراجعها لن يكون طويلاً. ومع ذلك، فقد أخذتني على حين غرة

في هذه المحاولة الجديدة. فأجبتها بهدوء أكبر من المرات السابقة، وأنا أعدّ نفسي لمعركة عقيمة أخرى:

– قولي له إن الشيء الوحيد الذي أريده في الحياة، هو أن أكون كاتباً. وسوف أصير كذلك.

فقالت:

– هو لا يعترض على أن تكون ما تشاء، على أن تنال شهادة في أي شيء.

كانت تتكلم دون أن تنظر إليّ، متظاهرة بأنها مهتمة بمحادثتنا، أقل من اهتمامها بالحياة التي تمر من خلال النافذة.

– لا أدري لماذا تلحين إلى هذا الحد، مع أنك تعرفين جيداً أنني لن أستسلم – قلت لها.

فنظرت إلى عيني على الفور وسألتني مبهورة:

– ولماذا تظن أنني أعرف؟

– لأننا أنا وأنت متشابهان.

توقف القطار في محطة دون قرية. وبعد قليل من ذلك، مرّ قبالة مزرعة الموز الوحيدة على الطريق التي يظهر اسمها مكتوباً على البوابة: ماكوندو. لقد استرعت هذه الكلمة اهتمامي منذ الرحلات الأولى مع جدي، ولكنني لم أنتبه، إلا بعد أن كبرت، إلى أن إيقاعها الشعري يروقني. لم أكن قد سمعت أحداً ينطق الكلمة، حتى إنني لم أسأل عن معناها. وكنت قد استخدمتها في ثلاثة كتب كاسم قرية متخيلة، عندما عرفت من موسوعة مصادفة أن الكلمة هي اسم شجرة استوائية تشبه شجرة السيبيا، وأنها لا تنتج أزهاراً ولا ثماراً، وخشبها الإسفنجي ينفع

في صنع زوارق الكانوا[1] وفي نحت أدوات مطبخية. وقد اكتشفتُ فيما بعد، في الموسوعة البريطانية، أنه توجد في تنجانيقا قبيلة الماكوندو (makondos) الرحالة، وفكرت في أن ذلك قد يكون أصل الكلمة. ولكنني لم أتقصَّ الأمر قط، ولم أتعرف على الشجرة، فقد سألت عنها كثيراً في منطقة الموز، ولم يستطع أحد إخباري بشيء عنها. ربما ليس لها وجود على الإطلاق.

القطار يمر في الساعة الحادية عشرة بمزرعة ماكوندو، وبعد عشر دقائق من ذلك، يتوقف في آراكاتاكا. أما في اليوم الذي ذهبت فيه مع أمي لبيع البيت، فمر متأخراً ساعة ونصف الساعة. كنتُ في المرحاض عندما بدأ يسرع، ودخلتْ من النافذة المكسورة ريحٌ لافحة وجافة، مختلطة بضجيج العربات العتيقة، وصفير القاطرة المفزع. كان قلبي يدوي في صدري، وجمّد غثيان جليدي أحشائي. خرجتُ بأقصى سرعة، مدفوعاً برعب مشابه لما يشعر به المرء لدى حدوث هزة أرضية، فوجدت أمي مستقرة بثبات في مكانها، تعدد بصوت عالٍ الأماكن التي ترى مرورها من خلال النافذة، مثل ومضات آنية وسريعة من الحياة التي كانت، ولن تعود مطلقاً وإلى الأبد. وقالت:

– هذه هي الأراضي التي باعوها لأبي، بخديعة أن فيها ذهباً.

مرّ، مثل نيزك، بيتُ المعلمين المجيئيين[2]، بحديقته المزهرة واللوحة التي على البوابة: The sun shines for all. فقالت أمي:

– كان هذا هو أول ما تعلمتهُ بالإنكليزية.

(١) الكانوا canoa: نوع من الزوارق كان يستخدمه السكان الأصليون قبل مجيء الإسبان. وهو يصنع من قطعة واحدة بنحت جذع شجرة.

(٢) المجيئية adventismo: مذهب يقول إن مجيء المسيح صار قريباً.

فقلت لها:

– ليس الأول، بل الوحيد.

مرَّ الجسر الإسمنتي والساقية بمياهها العكرة، منذ أن حوَّل الغرينغيون النهر، لإيصاله إلى المزارع. وقالت هي:

– هذا هو حي نساء الحياة، حيث كان الصباح يطلع على الرجال، وهم يرقصون رقصة الكومبيامبا حاملين رزماً من الأوراق النقدية المشتعلة بدل الشموع.

مصاطب مورد الأبقار، أشجار اللوز الصدئة بفعل الشمس، حديقة مدرسة مونتيسوريانا الصغيرة حيث تعلمتُ القراءة. ولبرهة، ومضت من النافذة صورة شاملة للقرية، في ذلك الأحد المشع من شباط.

– المحطة! – هتفت أمي، ثم قالت:– لقد تغير العالم إلى حد لم يعد فيه من ينتظر القطار.

عندئذ انتهت القاطرة من الصفير، وخففت سرعتها، وتوقفت بأنّة طويلة.

أولّ ما أثر فيَّ هو الصمت. صمت مادي كان بمقدوري التعرف عليه، وأنا معصوب العينين، بين أصناف صمت العالم الأخرى. كان وهج الحر كثيفاً إلى حد يُرى معه كل شيء، وكأنه وراء زجاج متموج. لم تكن هناك أي ذاكرة لحياة بشرية، على المدى الذي يصل إليه النظر، ولا لأي شيء غير مغطى بندى خفيف من غبار ملتهب. بقيت أمي محتفظة بالصمت لبضع دقائق، تنظر إلى القرية الميتة والممدّدة في الشوارع المقفرة، وأخيراً هتفت مرعوبة:

– رباه!

كان ذلك هو الشيء الوحيد الذي قالته قبل أن تنزل.

في أثناء وقوف القطار هناك، راودني إحساس بأننا لم نكن وحيدين تماماً. ولكنه عندما تحرك، مبتعداً، وهو يطلق صفيراً خاطفاً ومؤثراً، بقيت أنا وأمي مهجورين تحت الشمس الجهنمية، وقد انهالت علينا كل كآبة القرية. ولكن أياً منا لم يقل شيئاً للآخر. المحطة القديمة المبنية من الخشب، وبسقف من التوتياء، وشرفة بارزة، كانت نسخة مدارية للمحطات التي عرفناها في أفلام رعاة البقر. اجتزنا المحطة المهجورة التي بدأ بلاطها يتشقق، بفعل ضغط الأعشاب، وغرقنا في ركود القيلولة، باحثين طوال الوقت عن حماية أشجار اللوز.

كنتُ أمقت، منذ طفولتي، تلك القيلولات الخاملة؛ لأننا لم نكن نعرف ما يمكننا عمله. "اصمتوا، فنحن نائمون"، كان النائمون يهمسون لنا. وكانت المتاجر، والمكاتب العامة، والمدارس، تُغلق منذ الساعة الثانية عشرة ظهراً ولا تفتح أبوابها إلى ما قبل الثالثة بقليل. ويبقى البيت من الداخل طافياً في ليمبوس[1] السبات. وكان الحر في بعض البيوت لا يطاق، إلى حد أنهم يعلقون أراجيح النوم في الفناء، أو يضعون كراسي بلا مسند في ظل أشجار اللوز، وينامون جالسين في وسط الشارع. ولا يبقى مفتوحاً سوى الفندق المقابل للمحطة، وحانته وصالة البلياردو فيه، ومكتب التلغراف وراء الكنيسة. كل شيء كان مطابقاً للذكريات، ولكنه أكثر اقتضاباً وفقراً، عاثت به زوبعة ريح قدرية: البيوت المتآكلة نفسها، سقوف التوتياء التي نخرها الصدأ، مورد

(١) الليمبوس Limbo، منطقة بين الفردوس والجحيم، تستقر فيها أرواح الموتى من الأطفال الذين لم يُعمّدوا، ومن كانوا أبرياء، وأتقياء قبل مجيء المسيح.

الماشية مع أنقاض مقاعد الغرانيت وأشجار اللوز الكئيبة، وكل شيء متغير بذلك الغبار غير المرئي والملتهب الذي يخدع البصر ويُكلّس الجلد.

أما فردوس شركة الفواكه الخاص، في الجانب الآخر من سكة القطار، وقد صار بلا سياج الأسلاك المكهرب، فكان دغلاً فسيحاً بلا أشجار نخيل، بيوته متداعية بين شقائق النعمان وأنقاض المستشفى المحترق. لم يكن هناك باب، أو صدع في جدار، أو أثر إنساني إلا له في أعماقي صدى خارق للطبيعة.

كانت أمي تمشي منتصبة جداً، بخطواتها الخفيفة، متعرقة بصورة تكاد لا تُلحظ في فستانها الحدادي، وبصمت مطلق. ولكن شحوبها القاتل وبروفيل وجهها الحاد كانا يشيان بما يحدث لها من الداخل. في نهاية الطريق، رأينا أول كائن بشري: امرأة ضئيلة، ذات مظهر مترد، ظهرت من ناصية جاكوبو براكاتا، ومرت بجانبنا حاملة قدراً من القصدير، غطاؤها، غير المحكم جيداً، يهتز مسجلاً إيقاع خطواتها. فهمست لي أمي دون النظر إليها:

– إنها فيتا.

كنت قد تعرفت عليها. فقد عملت منذ طفولتها في مطبخ جديّ. ومهما تكن التغيرات التي طرأت علينا، فإنها كانت ستتعرف علينا لو أنها تنازلت ونظرت إلينا. ولكن لا: لقد مرت في عالم آخر. وما زلتُ حتى هذا اليوم أتساءل إذا ما كانت فيتا قد ماتت قبل وقت طويل من ذلك اليوم.

حين انعطفنا عند الزاوية، كان الغبار يلتهب في قدمي، بين نسيج الصندل. وصار إحساسي بالخذلان لا يطاق. عندئذ رأيت نفسي ورأيت

أمي، تماماً مثلما رأيت في طفولتي أم وأخت اللص الذي كانت ماريا كونسويغرا قد قتلته برصاصة قبل أسبوع، وهو يحاول خلع باب بيتها.

كانت، قد أيقظتها في الساعة الثالثة فجراً، خشخشة أحدهم وهو يحاول، من الخارج، خلع الباب المؤدي إلى الشارع. نهضت دون أن تشعل الضوء، وبحثت، بالتلمس، في الخزانة عن مسدس عتيق لم يطلق النار منه أحد منذ حرب الألف يوم، وحددت في الظلام، ليس موقع الباب وحسب، وإنما كذلك مستوى ارتفاع القفل بالضبط. وعندئذ سددت السلاح بكلتا يديها، وأغمضت عينيها وضغطت على الزناد. لم تكن قد أطلقت النار من قبل قط، ولكن الرصاصة أصابت الهدف، عبر الباب.

كان ذلك هو أول ميت أراه. فعندما مررت في طريقي إلى المدرسة، في الساعة السابعة صباحاً، كان الجسد لا يزال ممدداً على الرصيف، فوق بقعة من الدم الناشف، بوجه مهشم من رصاص الطلقة التي حطمت الأنف وخرجت من الأذن. كان يرتدي قميص بحار من الفانيلة، مقلماً بخطوط ملونة، وبنطالاً عادياً بتكة بدل الحزام، وكان حافياً. وإلى جانبه، على الأرض، وجدوا الخطاف الذي حاول أن يفتح به قفل الباب.

هرع أعيان القرية إلى بيت ماريا كونسويغرا ليقدموا لها التعازي، لأنها قتلت اللص. ذهبتُ في تلك الليلة مع باباليلو، ووجدناها جالسة على متكأ من قماش المانيلا، تبدو مثل طاووس هائل من الخيزران، وسط حماس الأصدقاء، الذين يستمعون إلى القصة المعادة ألف مرة. الجميع كانوا متفقين معها بأنها أطلقت النار بدافع الخوف المحض. وكان أن سألها جدي عندئذ، عما إذا كانت قد سمعت شيئاً بعد أن أطلقت النار. فردت عليه بأنها سمعت في أول الأمر صمتاً كبيراً، ثم رنّة

الخطاف المعدنية، وهو يسقط على الأرضية الاسمنتية، وبعد ذلك صوتاً خافتاً ومتألماً: "آي، يا أماه!". ويبدو أن ماريا كونسويغرا لم تعِ تلك الآنّة المؤثرة، إلى أن وجّه إليها جدي السؤال. لأنها عندئذ فقط انفجرت في البكاء.

حدث ذلك في يوم اثنين. وفي يوم الثلاثاء من الأسبوع التالي، في ساعة القيلولة، كنتُ ألعب بالحدروف، مع لويس كارميلو كوريّا، أقدم أصدقائي في الحياة، عندما فوجئنا بأن النائمين يستيقظون قبل الموعد، ويطلون من النوافذ. وحينئذ رأينا في الشارع المقفر، امرأة بملابس الحداد الكامل، ومعها طفلة في حوالى الثانية عشرة من عمرها، تحمل باقة أزهار ذابلة ملفوفة بورقة صحيفة. وكانتا تحتميان من الشمس الحارقة بمظلة سوداء، غير عابئتين مطلقاً بوقاحة الناس الذين يراقبون مرورهما. لقد كانتا أم اللص وأخته الصغرى، تحملان زهوراً إلى قبره.

لقد لاحقتني تلك الرؤيا لسنوات طويلة، مثل حلم جماعي شهدت القرية كلها مروره من خلال النوافذ، إلى أن استطعت التطهر منها في قصة قصيرة. ولكنني لم أعِ، في الحقيقة، مأساة المرأة والطفلة، ولا عزة نفسيهما الراسخة حتى اليوم الذي ذهبت فيه مع أمي لبيع البيت وفاجأتُ نفسي أمشي في الشارع المقفر نفسه وفي الساعة القاتلة نفسها، فقلت:

- أشعر كما لو أنني أنا اللص.

لم تفهم أمي ما أعنيه. بل أكثر من ذلك: فعندما مررنا قبالة بيت ماريا كونسويغرا، لم تلقِ مجرد نظرة على الباب الذي تظهر عليه رقعة

الخشب، في موضع ثقب الرصاصة. وبعد مرور سنوات، بينما أنا أتذكر معها تلك الرحلة، تأكدتُ من أنها تتذكر المأساة. ولكنها كانت مستعدة لأن تقدم روحها مقابل نسيانها. وقد بدا ذلك أكثر جلاء، عندما مررنا قبالة البيت الذي عاش فيه دون إميليو، المشهور بلقب البلجيكي، وهو محارب قديم شارك في الحرب العالمية الأولى، وفقد القدرة على استخدام ساقيه الاثنتين، في حقل ألغام في النورماندي، وفي يوم أحد العَنصَرة من إحدى السنوات نجا بنفسه من عذابات الذاكرة، باستنشاق أبخرة سيانور الذهب. لم أكن قد تجاوزت آنذاك السادسة من عمري، وكانت واقعة لا تُنسى إلى حد أن أمي، عندما عدنا إلى القرية، لبيع البيت، قطعت أخيراً صمتها الذي استمر عشرين دقيقة، وتنهدت قائلة:

- يا للبلجيكي المسكين! فهو، مثلما قلتَ أنت، لم يعد مطلقاً إلى لعب الشطرنج.

كنا ننوي الذهاب مباشرة إلى البيت. ومع ذلك، عندما صرنا على بعد كوادرا[1] واحدة عنه، توقفت أمي فجأة وانعطفت من الزاوية السابقة.

- من الأفضل أن نذهب من هنا - قالت لي. وعندما أردت أن أعرف السبب، ردّت علي: - لأنني خائفة.

وهكذا عرفتُ سبب جزعي: لقد كان خوفاً، ليس من مواجهة أشباحي وحسب، وإنما خوف من كل شيء. وهكذا واصلنا تقدمنا عبر شارع مواز لنقوم بالتفافة، كان الهدف الوحيد منها هو عدم المرور ببيتنا. وقد قالت لي أمي فيما بعد: "ما كنتُ لأتجرأ على رؤيته دون التحدث،

(١) الكوادرا cuadra : وحدة لقياس الأبعاد ، تساوي ١٢٥ متراً .

قبل ذلك مع أحد". وكان هذا هو ما حدث. فقد اقتادتني بما يشبه الجرجرة، ودخلت دون أي تنبيه إلى صيدلية الدكتور ألفريدو باربوثا، وهو بيت على الناصية على بُعد أقل من مئة خطوة من بيتنا.

كانت أدريانا بيردوغو، زوجة الدكتور، مستغرقة تماماً في الخياطة على آلتها اليدوية البدائية، فلم تشعر بنا إلا عندما وصلت أمي إليها، وقالت لها بصوت هامس تقريباً:

– صديقتي.

رفعت أدريانا بصرها المشوش عبر زجاجتي نظارة قصور البصر السميكتين، ثم خلعت النظارة، وترددت هنيهة، ثمّ نهضت قافزة وهي تفتح ذراعيها وتئن:

– آي، صديقتي!

كانت أمي قد صارت وراء منضدة الكونتوار. ودون أن تقولا شيئاً آخر تعانقتا لتبكيا. بقيتُ أراقبهما من خارج حاجز الكونتوار، دون أن أدري ما أفعل، يهزني اليقين بأن ذلك العناق الطويل ذا الدموع الصامتة، هو أمر لا مفر منه كان يحدث على الدوام في حياتي نفسها.

لقد كانت الصيدلية هي الأفضل في أزمنة شركة الموز. غير أنه لم يبق من قوارير العقاقير القديمة، في الخزائن المتقلقلة، سوى بعض القوارير الخزفية المعلّمة بحروف مذهبة. أما ماكينة الخياطة، وصولجان هيرمس[1]، وساعة البندول التي ما زالت حية، ورقعة القَسَم الأبوقراطي، والكرسيان الهزازان المخلعان، وكل الأشياء التي رأيتها وأنا طفل، ما

(١) صولجان هيرمس caduceo، قضيب ينتهي بجناحين في أعلاه، وتلتف عليه حيتان. وهو شعار الطب.

زالت هي نفسها. وكانت لا تزال في الأماكن نفسها، ولكن صدأ الزمن بدّل هيئاتها.

أدريانا نفسها كانت ضحية. فمع أنها ترتدي، كما في السابق، فستاناً مزيناً بأزهار تروبيكالية كبيرة، إلا أنه يكاد لا يظهر عليها شيء من الاندفاع والشيطنة اللذين اشتهرت بهما، حتى وقت متقدم من نضجها. الشيء الوحيد الذي بقي دون تغير في ما حولها هو رائحة الناردين التي تبعث الجنون في القطط، والتي سأبقى أتذكرها بإحساس بالغرق، طوال ما تبقى من حياتي.

عندما استنفدت أدريانا وأمي الدموع، سُمعت سعلة قوية وقصيرة من وراء الحائط الخشبي الذي يفصلنا عن الحجرة الخلفية. استعادت أدريانا بعض ظرفها الذي كانت عليه، في زمن آخر، وتكلمت ليُسمع صوتها، عبر الحائط الخشبي، قائلة:

– خمّن من لدينا هنا يا دكتور؟

وجاء صوت حُبيبي لرجل صلب يسأل من الجانب الآخر دون اكتراث:

– من؟

لم ترد عليه أدريانا، وإنما أومأت لنا للانتقال إلى الحجرة الخلفية. شلّني رعب طفولي مفاجئ وغمر فمي لعاب داكن. ولكنني دخلت مع أمي إلى الحيز المشعث الذي كان فيما مضى، مخبراً للصيدلية، وجرى تكييفه كغرفة نوم للطوارئ. وهناك كان الدكتور ألفريدو باربوثا، أكثر هرماً من كل الرجال وكل الحيوانات الهرمة في البر والماء، مستلقياً على ظهره في أرجوحة نومه الأبدية المهترئة، دون حذاء، وببيجامته العتيقة التي من القطن الخام، والتي تبدو أقرب إلى عباءة تكفير. كان نظره

موجهاً إلى السقف. ولكنه أدار رأسه عندما أحس بدخولنا، وحدّق فينا بعينيه الصفراوين الشفافتين، إلى أن تعرّف على أمي، فهتف:

– لويسا سانتياغا!

جلس في أرجوحة النوم بإنهاك قطعة أثاث قديمة، وتأنسن بالكامل، وحيانا بمصافحة سريعة بيده المتوقدة. انتبه هو إلى انبهاري، وقال لي: "منذ سنة وأنا أعاني من حمى أساسية[1]". عندئذ غادر أرجوحة النوم، وجلس على السرير، وقال لنا بنفس واحد:

– لا يمكن لكما أن تتصورا ما عانته هذه القرية.

تلك الجملة وحدها، التي لخصت حياة بكاملها، ربما كانت كافية لأن أراه مثلما كان على الدوام: رجلاً متوحداً وحزيناً. كان طويل القامة، نحيلاً، له شعر معدني بديع مقصوص كيفما اتفق، وعينان صفراوان وكشيفتان هما أرهب رعب في طفولتي. فعند عودتنا من المدرسة في المساء، كنا نصعد إلى نافذة حجرة نومه، يجتذبنا الافتتان بالخوف. وهناك نراه يتأرجح في أرجوحة النوم بهزات قوية ليخفف الحر عن نفسه. وكانت اللعبة تتمثل في النظر إليه بثبات، إلى أن ينتبه ويلتفت لينظر إلينا فجأة، بعينيه المتوقدتين.

لقد رأيته أول مرة، وأنا في الخامسة أو السادسة من عمري، في صباح يوم تسللتُ فيه إلى الفناء الخلفي لبيته، مع رفاق آخرين، لنسرق ثمار المانجا الضخمة من أشجاره. وفجأة انفتح باب المرحاض المشيد من ألواح خشبية في أحد أركان الفناء، وخرج وهو يربط سرواله الداخلي الذي من الكتان. رأيته مثل رؤيا من العالم الآخر، بقميص داخلي أبيض

(١) الحمى الأساسية: نوع نادر من الحمى لا يعرف له أصل.

بياض مستشفى، شاحباً وعظمياً، ونظرتْ إليّ عيناه الصفراوان مثل عيني كلب من جهنم، نظرة استمرت إلى الأبد. هرب الآخرون من الفتحات الصغيرة في السياج. أما أنا فبقيت متحجراً بنظرته الثابتة. صوّب بصره إلى ثمار المانجا التي كنت قد قطفتها من الأشجار، ومدّ يده باتجاهي.

– هاتها! – قال لي آمراً. ثم أضاف وهو ينظر إلى كامل قامتي بازدراء:– لص فناء صغير.

ألقيت بالثمار عند قدميه، وهربت مذعوراً.

لقد كان شبحي الخاص. فإذا ما مشيتُ وحيداً، أقوم بالالتفاف في جولة طويلة، كيلا أمر ببيته. وإذا ما كنت أمضي مع أشخاص بالغين، فإنني أكاد لا أتجرأ على أكثر من إلقاء نظرة مختلسة باتجاه الصيدلية. كنت أرى أدريانا محكومة بالمؤبد إلى ماكينة الخياطة، وراء الكونتوار. وأراه هو من نافذة غرفة النوم، يتأرجح في اهتزازات كبيرة في أرجوحة النوم. وتكون تلك النظرة كافية لبعث القشعريرة في بدني.

لقد أتى إلى القرية في أوائل القرن، بين ما لا يُحصى من الفنزويليين الذين تمكنوا من الفرار عبر حدود إقليم غواخيرا، هرباً من استبدادية خوان فيثنته غوميث الشرسة. وكان الدكتور أحد أول من جرجرتهم قوتان متناقضتان: شراسة المستبد في بلاده، ووهم رخاء الموز في بلادنا. وقد اشتهر منذ مجيئه بعينه الطبية – مثلما كان يقال آنذاك – وبأساليب روحه الطيبة. كان أحد أكثر الأصدقاء المواظبين في بيت جدي، حيث كانت المائدة مجهزة على الدوام دون معرفة من سيصل في القطار. لقد كانت أمي عرابة ابنه الأكبر. وجدي هو الذي علمه كيف

يُحلّق بأجنحته الأولى. وقد كبرتُ بين أولئك الفنزويليين، مثلما واصلت النمو بعد ذلك، بين منفيي الحرب الأهلية الإسبانية.

آخر آثار الخوف الذي كان يسببه لي ذلك المنبوذ المنسي، وأنا طفل، تلاشت فجأة، بينما كنت جالساً، مع أمي، بجوار سريره، نستمع إلى تفاصيل المأساة التي ضربت البلدة. كان يتمتع بقدرة تذكّر واستحضار شديدة الزخم، يبدو معها أن كل شيء يرويه، يصبح مرئياً في الحجرة المخلخلة بفعل الحر. أصل كل النكبات، بالطبع، هي مذبحة العمال على يد قوى الأمن العام. ولكن الشكوك ما زالت قائمة حول الحقيقة التاريخية: ثلاثة قتلى أم ثلاثة آلاف؟ ربما لم يكونوا بهذه الكثرة، قال هو، ولكن كل واحد يزيد الرقم وفق ألمه الخاص. والشركة قد رحلت الآن، وإلى الأبد. وانتهى إلى القول:

- الغرينغيون لن يرجعوا مطلقاً.

الشيء الوحيد المؤكد هو أنهم أخذوا كل شيء: المال، نسمات كانون الأول، سكين تقطيع الخبز، رعد الساعة الثالثة مساء، أريج الياسمين، الحب. ولم يبق سوى أشجار اللوز المغبرة، والشوارع المتوهجة، والبيوت الخشبية ذات سقوف التوتياء الصدئة، بأناسها المكفهرين الذين فتكت بهم الذكريات.

المرة الأولى التي التفت فيها الدكتور إليّ، في ذلك المساء، كانت عندما رآني متفاجئاً بقرقعة كأنها قطرات مطر متفرقة على سطح التوتياء. فقال لي: "إنها نسور الرخمة، فهي تقضي النهار في المشي على الأسطح" ثم أشار بإصبع إبهام نحيلة، نحو الباب المغلق، وأضاف:

- في الليل تكون الحال أسوأ، لأننا نشعر بالأموات يمضون طليقين في هذه الشوارع.

دعانا لتناول الغداء، ولم يكن هناك أي مانع، فصفقة البيت لا تحتاج إلا إلى تثبيتها رسمياً. فالمستأجرون أنفسهم هم الذي سيشترونه، وقد تم الاتفاق على التفاصيل عبر الهاتف. هل سيكون لدينا متسع من الوقت؟

- بل فائض منه - قالت أدريانا، وأضافت: - فالآن لم يعد معروفاً متى يعود القطار.

وهكذا تقاسمنا معهما وجبة كريولية، لا علاقة لبساطتها بالفقر، وإنما بنظام غذائي قنوع يمارسه الدكتور ويعظ بممارسته، ليس على المائدة وحسب، وإنما في كل شؤون الحياة. منذ أن تذوقت الحساء راودني إحساس بأن عالماً بكامله كان نائماً، راح يستيقظ في ذاكرتي. طعوم كانت لي في الطفولة وضاعت منذ أن غادرت القرية، عادت إليّ كاملة مع كل ملعقة، وأخذت تضغط على قلبي.

منذ بدء المحادثة، أحسست في مواجهة الدكتور بأنني في السن نفسها التي كنت عليها، وأنا أسخر منه عبر النافذة، ولهذا أخافني عندما توجه إليّ بالجدية والتأثر نفسيهما اللذين كان يتحدث بهما إلى أمي. لقد كنتُ في طفولتي، عندما أتعرض لمواقف صعبة، أحاول أن أخفي انبهاري برَمْش سريع ومتواصل من عيني. وقد عاد إليّ ذلك الفعل الانعكاسي فجأة، عندما نظر الدكتور إليّ. صار الحر لا يطاق. بقيت على هامش المحادثة لبعض الوقت، متسائلاً كيف أمكن لذلك العجوز البشوش والغارق في الحنين، أن يكون رعب طفولتي. وفجأة، بعد توقف طويل، وبإحالة تافهة لا تعني له شيئاً، نظر إليّ بابتسامة جد، وقال:

-أنت غابيتو إذن. ماذا تدرس الآن؟

واريتُ اضطرابي بسرد غائم لدراساتي: إنهاء الثانوية بتقدير جيد في مدرسة داخلية رسمية. قضاء سنتين وبضعة شهور في دراسة الحقوق دون انتظام. صحافة تجريبية. استمعتْ أمي إلى ما أقوله، وبحثت على الفور عن دعم الدكتور، قائلة:

– تصور أيها الجار، إنه يريد أن يصير كاتباً.

أشرقت عينا الدكتور في وجهه، وقال:

– يا للروعة يا جارتنا! إنها هدية من السماء – ثم التفت إليّ:- شعر؟

– رواية وقصة – قلت له وروحي معلقة بطرف خيط.

فتحمس هو:

– هل قرأت "دونيا باربارا"؟

– طبعاً – أجبته – وقرأت أعمال رومولو غييغوس[1] كلها تقريباً.

وكما لو أنه ينبعث في حماسة مفاجئة، روى لنا أنه قد تعرف عليه في محاضرة ألقاها في ماركايبو. وبدا له أنه كاتب جدير بكتبه. والحقيقة أنني في تلك اللحظة، وبحمى الأربعين درجة ملاحم الميسيسيبي الفوكنرية، كنت قد بدأت ألحظ مواطن ضعف الرواية المحلية. ولكن التواصل السهل والودود مع الرجل الذي شكّل رعب طفولتي، بدا لي معجزة. وفضلت التوافق مع حماسه. فحدثته عن "الزرافة" – عمودي

(١) رومولو غييغوس، كاتب وسياسي فنزولي (١٨٨٦-١٩٦٩)، انتخب رئيساً للجمهورية عام ١٩٤٧، ولكن حركة عسكرية أطاحت به في العام التالي. يعتبر أحد أبرز روائيي أمريكا اللاتينية في النصف الأول من القرن العشرين. وأهم أعماله رواية "دونيا باربارا" التي ترجمها إلى العربية الدكتور محمود علي مكي.

اليومي في صحيفة الهيرالدو – وأطلعته على خبر أننا ننوي، عما قريب، إصدار مجلة نبني عليها آمالاً كبيرة. وأخبرته كذلك، وقد ازددت ثقة بنفسي، بتفاصيل المشروع، وحتى اسم المجلة: كرونيكا.

أمعن النظر إليّ من أعلى إلى أسفل، وقال:

– لا أدري كيف تكتب، ولكنك تتكلم ككاتب منذ الآن.

وسارعت أمي إلى توضيح الحقيقة: فلا أحد يعارض أن أصير كاتباً، ولكن يجب عليّ أن أنهي أولاً دراسةً جامعية تمنحني أرضاً صلبة أقف عليها. قلل الدكتور من شأن كل شيء، وتكلم عن مهنة الكاتب. فقد كان هو أيضاً راغباً في أن يصير كاتباً، ولكن أبويه، وبحجج أمي نفسها، أجبراه على دراسة الطب عندما عجزا عن إدخاله سلك الجيش ليكون ضابطاً. وانتهى إلى القول:

– وانظري يا جارتي. إنني طبيب، وها أنذا هنا، دون أن أدري كم من مرضاي ماتوا بمشيئة الرب. وكم منهم ماتوا بسبب أدويتي.

أحست أمي بالضياع، وقالت:

– وأسوأ ما في الأمر هو أنه ترك دراسة الحقوق، بعد تضحيات كثيرة قدمناها لمساعدته.

ولكن ذلك بدا للدكتور، على العكس منها، دليلاً دامغاً على ميل جارف: القوة الوحيدة القادرة على منازعة الحب امتيازاته. وبخاصة الميل الفني، أكثر الميول سرية وغموضاً، لأن المرء يكرس له حياته كاملة دون أن يأمل منه شيئاً.

– إنه شيء يُحمل في الداخل، منذ الولادة، ومعاكسته هي أسوأ ضرر للصحة – قال ذلك، واختتم بابتسامة ماسونية لا خلاص له:- إنه مثل ميل الكاهن.

أصابني الانبهار من الطريقة التي أوضح بها، ما لم أستطع توضيحه قط. ولا بد أن أمي شاركتني ذلك الانبهار، لأنها تأملتني بصمت بطيء، واستسلمت لقدرها.

- ما أفضل طريقة لقول كل هذا لأبيك؟ - سألتني.

فقلت لها:

- بالطريقة التي سمعناه بها للتو، بالضبط.

- لا، فهذا لن يعطي نتيجة - قالت ذلك، ثم أضافت بعد تأمل آخر: - ولكن لا تقلق، سأجد طريقة مناسبة لأخبره.

لستُ أدري إذا ما أخبرته بهذه الطريقة أم بطريقة أخرى. ولكن الجدال توقف عند ذلك الحد. أعلنت الساعة الوقت برنتين كأنهما قطرتا بلور. فانتفضت أمي قائلة: "رباه. لقد نسيت سبب مجيئنا." ونهضت واقفة:

- يجب علينا أن نذهب.

الرؤية الأولى للبيت، على الرصيف المقابل، كانت مرتبطة إلى حد ما بذكرياتي، دون أي علاقة بحنيني. فقد قُطعت، من الجذور، شجرتا اللوز الحاميتان اللتان شكلتا، طوال سنوات، هوية مميزة. وصار البيت مكشوفاً في العراء. ما بقي منه تحت الشمس النارية لا يزيد على ثلاثين متراً من الواجهة: نصفه من مواد بناء وسقف قرميد تدفع إلى التفكير في أنه بيت دمى. والنصف الآخر من أخشاب غير مسحوجة. طرقت أمي الباب المغلق برفق شديد، ثم بقوة أكبر، وسألت من خلال النافذة:

- ألا يوجد أحد؟

فُتح الباب مواربة وببطء شديد. وسألت امرأة من شبه الظلمة الداخلية:

- ماذا يمكنني أن أقدم لكِ؟

فردت أمي بتسلط ربما غير واعٍ:

- أنا لويسا ماركيز.

كان الباب المؤدي إلى الشارع قد فُتح عندئذ تماماً، وظهرت امرأة ترتدي ملابس الحداد، معروقة وشاحبة. نظرت إلينا من حياة أخرى. وفي عمق الصالة، كان هناك رجل متقدم في السن، يهتز على كرسي مُقعد. إنهما المستأجران، وقد اقترحا بعد سنوات طويلة شراء البيت. ولكن لم يكن يبدو عليهما مظهر المشترين، ولم يكن البيت في حالة تثير اهتمام أحد ليشتريه. وفقاً للبرقية التي تلقتها أمي، فإن المستأجرين يوافقان على أن يدفعا، نقداً، نصف الثمن مقابل إيصال موقّع منها، ثم يدفعان الباقي عندما تُبرم عقود البيع خلال السنة. ولكن أحداً لم يكن يتذكر أن هناك زيارة منتظرة. وبعد محادثة طرشان طويلة، كان الشيء الوحيد الذي ظهر بوضوح، هو أنه لا وجود لأي اتفاق. وعندئذ التفتت أمي المتضايقة من تلك البلاهة، ومن الحر المُذِل، وألقت نظرة على ما حولها، وأفلت منها مع الزفرة:

- هذا البيت البائس، في آخر نفس.

فقال الرجل:

- بل هو أسوأ. وإذا كان لم يسقط على رؤوسنا، فبفضل ما أنفقناه، للحفاظ عليه.

كانت لديهم قائمة بالإصلاحات التي يجب النظر فيها، إضافة إلى

أخرى اقتطعوها من الإيجار، إلى حد أننا كنا نحن المدينين لهم بالمال. ولكن أمي المعروفة بدمعتها السهلة، كانت قادرة كذلك على إظهار حزم مخيف لمواجهة مكايد الحياة. ناقشتْ الأمر بصورة جيدة. أما أنا فلم أتدخل لأنني أدركتُ، منذ العقبة الأولى، أن المشترين على حق. فليس هناك شيء واضح في البرقية حول، تاريخ وطريقة البيع، ويُفهم منها بالمقابل أنه لا بد من أن يجري الاتفاق على ذلك. لقد كان موقفاً تقليدياً من ميول الأسرة الحدسية. ويمكن لي أن أتصور كيف جرى اتخاذ القرار، حول مائدة الغداء، في اللحظة نفسها التي وصلت بها البرقية. فقد كانوا عشرة أخوة، دون أن أحسب نفسي، لهم الحقوق نفسها. وأخيراً جمعت أمي بعض البيزوات من هنا، وبيزوات أخرى من هناك، وأعدّت حقيبتها التي كحقائب التلاميذ، وسافرت دون أي موارد أخرى سوى تذكرة العودة.

راجعت أمي مع المستأجرة، مرة أخرى، كل شيء من البداية، وخلال أقل من نصف ساعة توصلنا إلى أنه ليست هناك أي صفقة. فنحن لم نتذكر، إضافة إلى أسباب أخرى لا يمكن تجاوزها، رهناً عقارياً يُثقل على البيت، ولم يجر فكه إلا بعد سنوات طويلة من ذلك، عندما تم بيع البيت قطعياً. ولهذا، حين حاولت المستأجرة أن تكرر مرة أخرى حجج الحلقة المفرغة نفسها، أوقفتها أمي بالحسنى، وبحزم لا يقبل الاستئناف:

– البيت لن يباع. ولنضع في حسابنا أننا جميعنا ولدنا هنا، وسنموت هنا.

أمضينا بقية فترة المساء، ونحن ننتظر مجيء قطار العودة، في جمع فتات الحنين، في البيت الشبحي. لقد كان البيت بكامله لنا، ولكن

لم يكن صالحاً منه سوى القسم المؤجر الذي يطل على الشارع، حيث كانت مكاتب الجد. وما تبقى، مجرد هيكل من الجدران الخشبية المنخورة، وسقوف التوتياء الصدئة تحت رحمة الحراذين. أطلقت أمي الواقفة عند العتبة، صرخة قاطعة:

– ليس هذا هو البيت!

ولكنها لم تقل أي بيت تعني، فخلال طفولتها كلها، كانوا يصفونه بطرق متعددة، بحيث كان ثلاثة بيوت على الأقل، تتبدل شكلاً ومعنى، حسب من يروي. البيت الأصلي، مثلما سمعت من جدي بطريقته المزدرية، كان كوخ هنود. وأما الثاني الذي بناه الجدان، فكان جدراناً من القصب والطين وسقوفاً من جريد النخيل، مؤلفاً من صالة فسيحة وجيدة الإنارة، وغرفة طعام على شكل شرفة مع أزهار ذات ألوان بهيجة، وحجرتي نوم، وفناء فيه شجرة كستناء عملاقة، وبستان مزروع جيداً وزريبة يعيش فيها الماعز، في مجتمع سلمي، مع الخنازير والدجاج. وحسب الرواية الأكثر تواتراً، فإن هذا البيت قد تحول إلى رماد، بفعل مفرقعة ألعاب نارية سقطت على السقف الذي من سعف النخيل، خلال الاحتفالات بيوم ٢٠ تموز، عيد الاستقلال، في سنة لا يذكرها أحد من سنوات حروبنا الكثيرة. الشيء الوحيد الذي تبقى منه هو الأرضيات الإسمنتية وكتلة غرفتين مع باب يطل على الشارع، حيث كانت المكاتب التي عمل فيها بابا ليلو، عدة مرات، موظفاً عمومياً.

وفوق الأنقاض التي كانت لا تزال ساخنة، شيدت الأسرة ملجأها النهائي. بيتاً من ثماني حجرات متتالية في صف واحد، على امتداد ممر له حاجز من أزهار البيجونيا، حيث تجلس نساء الأسرة، للتطريز على

الطارة، وتبادل الحديث في برودة المساء. الغرف بسيطة ولا يمكن التمييز بينها. غير أن نظرة واحدة كانت كافية لأن أنتبه إلى أنه في كل تفصيل من تفاصيلها الكثيرة، هناك لحظة حاسمة من حياتي.

الحجرة الأولى كانت تستخدم كقاعة لاستقبال الزيارات، ومكتب رسمي للجد. وكانت فيها منضدة مكتب بستارة، ومقعد كبير دوار بنوابض، ومروحة كهربائية، وخزانة كتب فارغة ليس فيها سوى كتاب واحد ضخم ومفكك: معجم اللغة. ويليها مباشرة مشغل الصياغة، حيث كان الجد يمضي أفضل ساعات وقته في صنع أسماك ذهبية صغيرة ذات أجساد متمفصلة، وعيون دقيقة من الزمرد، كانت توفر له المتعة أكثر مما تؤمن من الطعام. وهناك جرى استقبال بعض الشخصيات البارزة، ولا سيما السياسيين، وكبار الموظفين المتقاعدين، ومشاركين قدماء في الحروب. وكان بين تلك الزيارات، في مناسبتين مختلفتين، زيارتان تاريخيتان: الجنرال أوريبي أوريبي، والجنرال بينخامين هيريرا، اللذان تناولا الغداء مع الأسرة. ومع ذلك، فإن ما سيتذكره جدي طوال حياته، من أوريبي أوريبي، هو قناعته على المائدة: "إنه يأكل مثل عصفور".

حيز المكتب ومشغل الصياغة المشترك كان محظوراً على النساء، بتأثير ثقافتنا الكاريبية، مثلما كانت حانات القرية محظورة عليهن بأمر القانون. ومع ذلك، فقد تحول المكان مع مرور الزمن إلى حجرة مستشفى، توفيت فيها العمة بيترا. وتحملت فيها وينفريدا ماركيز، شقيقة بابالبلو، آخر شهور مرضها الطويل. وبدءاً من هناك، يبدأ الفردوس المعزول للنساء الكثيرات، المقيمات والعابرات، اللواتي مررن بالبيت خلال طفولتي. وقد كنت أنا الذكر الوحيد الذي تمتع بامتيازات العالمين كليهما.

غرفة الطعام لم تكن أكثر من توسع في الممر مع الشرفة التي تجلس عليها نساء البيت للخياطة. وكانت فيها مائدة تتسع لستة عشر مدعواً طارئاً أو غير متوقع ممن يأتون يومياً في قطار الظهيرة. تأملت أمي من هناك أصص البيجونيا، وأصول النباتات المتعفنة، وجذع الياسمينة التي نخرها النمل، واستعادت أنفاسها:

- لم نكن نستطيع التنفس أحياناً من عبق الياسمين الحار - قالت وهي تنظر إلى السماء المبهرة، وتنهدت من أعماق روحها وهي تضيف:- لكن ما أفتقده، منذ ذلك الحين، هو رعد الساعة الثالثة مساء.

لقد أذهلتني، لأنني كنت أتذكر كذلك الدوي الوحيد الذي كان يوقظنا من القيلولة، وكأنه تدحرج أحجار. ولكنني لم أنتبه قط إلى أنه لا يحدث إلا في الساعة الثالثة.

بعد الممر، هناك قاعة استقبال محجوزة للمناسبات الخاصة. ذلك أنه كان يُقدَّم للزيارات اليومية العادية، بيرة مثلجة في حجرة المكتب، إذا كان الزائر رجلاً. وفي ممر البيجونيا، إذا كان الزائر امرأة. وهناك يبدأ عالم حجرات النوم الأسطوري. أولاً مخدع الجدين، مع بوابة كبيرة تؤدي إلى الحديقة، ولوحة حفر أزهار خشبية تحمل تاريخ البناء: ١٩٢٥. وهناك، دون أي إشعار مسبق، قدمت لي أمي، بتفخيم انتصاري، مفاجأة لم تخطر لي على بال:

- وهنا وُلدت أنت!

لم أكن أعرف ذلك من قبل، أو أنني نسيته. ولكننا وجدنا، في الغرفة التالية، المهد الذي كنت أنام فيه حتى الرابعة من عمري، وقد احتفظت به جدتي إلى الأبد. كنت قد نسيته، ولكنني ما إن رأيته حتى

تذكرت نفسي، بأفرهول نوم مزين بأزهار زرقاء، كنت قد دشنته للتو، وأنا أبكي صارخاً لكي يأتي إلى أحدهم وينزع عني الأقمطة الملوثة بالبراز. كنت أقف على قدمي بصعوبة، وأنا أتشبث بقضبان المهد الصغير والهش، كأنه سلة موسى. وكانت تلك الحادثة سبب مجادلات وسخريات بين الأقارب والأصدقاء، ممن بدا لهم غمي في ذلك اليوم، عقلانياً جداً بالمقارنة مع سني المبكرة. وخاصة عندما أصررت على أن سبب جزعي لم يكن القرف من بؤسي نفسه، وإنما خوفاً من تلويث الأفرهول الجديد. هذا يعني أنه لم تكن للأمر علاقة بأحكام النظافة، وإنما هي مشكلة جمالية. وأظن، من الطريقة التي حُفظت بها الحادثة في ذاكرتي، أنها كانت معايشتي الأولى ككاتب.

كان هناك في تلك الغرفة كذلك، مذبح عليه تماثيل قديسين بالحجم البشري، وهم أكثر واقعية وغموضاً من قديسي الكنيسة. وهناك كانت تنام على الدوام، العمة فرانثيسكا سيمودوسيا ميخيا، وهي ابنة عمة لجدي، كنا ندعوها العمة ماما، وكانت تعيش في البيت كمالكة وسيدة، منذ وفاة أبويها. أما أنا فكنت أنام في أرجوحة النوم المجاورة، مرعوباً من ارتعاش القديسين الذي يسببه المصباح القدسي الذي لم ينطفئ إلا بعد موت الجميع. وهناك أيضاً كانت تنام أمي وهي عازبة، معذبة من رهبة القديسين.

وكانت في أقصى الممر، غرفتان محرمتان عليّ. في الأولى تعيش ابنة خالي سارا إميليو ماركيز، وهي ابنة الخال خوان دي ديوس قبل زواجه، وقد تولى الجدان تربيتها. وكانت، فضلاً عن مهابتها الطبيعية منذ طفولتها، تتمتع بشخصية قوية فتحت شهيتي الأدبية الأولى،

بمجموعتها البديعة من حكايات كاييخا، المزينة برسوم ملونة. ولم تكن تسمح لي بالاقتراب منها، مخافة أن أفسد ترتيبها. وقد كان ذلك هو إحباطي الأول والمرير ككاتب.

الحجرة الأخيرة هي مستودع أمتعة قديمة وصناديق متقاعدة، أبقت فضولي متيقظاً طوال سنوات، ولكنهم لم يسمحوا لي باستكشافها قط. وقد علمت فيما بعد، أنه كانت هناك أيضاً السبعون مبولة التي اشتراها جداي، عندما دعت أمي زميلاتها في صفها المدرسي، لقضاء إجازة في البيت.

قبالة هاتين الحجرتين، وفي الممر نفسه، كان المطبخ الكبير، بمواقده البدائية التي من أحجار كلسية، والفرن الكبير الذي بنته الجدة، وهي صانعة خبز وحلوى محترفة. كانت حيوانات السكاكر الصغيرة التي تصنعها، تفعم الفجر برائحتها الشذية. وقد كان المطبخ مملكة النساء اللواتي يعشن أو يخدمن في البيت، وكن يغنين في كورال مع الجدة، وهن يساعدنها في أعمالها المتنوعة. وكان الصوت المختلف هناك هو صوت لورينثو العظيم، الببغاء، ذي المئة سنة الموروث عن جديَ أمي، الذي يصرخ بشعارات مناهضة لإسبانيا ويغني أغنيات حرب الاستقلال. وكان ضعيف البصر إلى حد أنه سقط يوماً في قدر السانكوتشو[1] ونجا بأعجوبة، لأن الماء في القدر لم يكن قد سخن كثيراً بعد. وفي العشرين من تموز من إحدى السنوات، في الساعة الثالثة بعد الظهر، ملأ البيت صخباً بصرخات رعب:

(١) سانكوتشو sancocho، صنف طعام شائع في معظم بلدان أميركا الجنوبية، يتألف من جذور اليكة واللحم والموز الأخضر وخضار متنوعة أخرى، تسلق معاً على نار هادئة لوقت طويل.

– الثور، الثور! لقد جاء الثور!

لم يكن في البيت سوى النساء، إذ كان الرجال قد ذهبوا إلى موقع الاحتفال بالعيد الوطني. فظنن أن صرخات الببغاء ليست سوى هذيانات خرف شيخوخته. ولكن نساء البيت، اللواتي يعرفن التكلم معه، لم يفهمن صرخاته إلا عندما اندفع ثورٌ هائج، هارب من زرائب الساحة، إلى المطبخ بجؤار سفينة، وراح ينطح عشوائياً أثاث المخبز، والقدور على المواقد. كنت أمضي بالاتجاه المعاكس لزوبعة النساء المذعورات اللواتي حملنني في طريقهن وحبسنني معهن في حجرة المؤونة. كان خوار الثور التائه في المطبخ، ووقع حوافره على إسمنت الممر، يهزان البيت هزاً. وفجأة أطلَّ من كوة تهوية، فجمّد نخير أنفاسه الناري واحتقان عينيه الكبيرتين، الدم في عروقي. وعندما تمكن الرماحون من اقتياده إلى الزريبة، كانت قد بدأت في البيت جوقة رواية الدراما التي امتدت أكثر من أسبوع، تتخلله قدور لا نهائية من القهوة وحلوى الزفاف، لمرافقة قصة الناجيات الصاخبات المعادة ألف مرة، وفي كل مرة، ببطولية أكثر.

لم يكن الفناء كبيراً جداً، ولكنه يضم تشكيلة متنوعة من الأشجار، وحماماً مشتركاً دون سقف، وبركة من الإسمنت لتجميع ماء المطر، ومصطبة مرتفعة يُصعد إليها بسلم هش، ارتفاعه نحو ثلاثة أمتار. وهناك كان البرميلان الكبيران اللذان يملؤهما الجد عند الفجر، بمضخة يدوية. وإلى الوراء إسطبل الخيول المشيد من أخشاب دون سحج، وغرف الخدم. وأخيراً الفناء الخلفي الفسيح المزروع بأشجار مثمرة، وفيه المرحاض الوحيد الذي تُفرغ فيه الخادمات الهنديات، طوال النهار

والليل، مبولات البيت. وكانت أضخم الأشجار وأكثرها كثافة، هي شجرة كستناء على هامش العالم والزمن. ولا بد أنه مات متبولاً على نفسه، تحت أغصانها المتشابكة، أكثر من كولونيلين اثنين من كولونيلات الحروب الأهلية الكثيرة، في القرن السابق.

كانت الأسرة قد جاءت إلى اراكاتاكا، قبل سبع عشرة سنة من مولدي، عندما بدأت جلبة احتكار اليونايتد فروت كومباني للموز. وأحضرت الأسرة معها ابنها خوان دي ديوس، وهو في الحادية والعشرين، وابنتيها، مارغريتا ماريا مينياتا دي ألاكوكي، في التاسعة عشرة، ولويسا سانتياغا، أمي، في الخامسة. وكانت الأسرة قد فقدت قبلها توءمي إناث في حادث إجهاض، بعد أربعة شهور من الحمل. وعندما ولدت أمي، أعلنت الجدة أنه سيكون حملها الأخير. وكانت قد أكملت الثانية والأربعين من عمرها. وبعد نصف قرن تقريباً، وفي السن نفسها، وفي ظروف مطابقة، قالت أمي الشيء نفسه، عندما ولد إليخيو غابرييل، ابنها رقم أحد عشر.

الانتقال إلى آراكاتاكا كان مقرراً من قبل الجدين، على أنه رحلة نسيان. وقد أخذا لخدمتهما، هنديين غواخيريين -أليريو وأبولينار- وهندية – ميمي – اشتروهم في موطنهم، بمئة بيزو لكل واحد، بعد إلغاء الرق. وكان الكولونيل يحمل معه كل ما هو ضروري ليخلّف الماضي، أبعد ما يمكن عن ذكرياته السيئة، يلاحقه عذاب الضمير المشؤوم، لقتله رجلاً في مبارزة شرف. كان يعرف المنطقة سابقاً منذ وقت طويل، عندما كان يمضي باتجاه ثيناغا في حملة حربية، وحضر بوصفه رئيس إدارة التموين العام، توقيع معاهدة نيرلانديا.

لم يُعد البيت الجديد الطمأنينة وراحة البال إلى الأسرة، لأن تأنيب الضمير كان وبيلاً، حتى إن آثاره ستصل إلى حفيد ضال من الجيل الثالث. كانت أكثر الذكريات تواتراً وزخماً، والتي شكّلنا منها رواية مرتبة لما حدث، هي تلك التي قدمتها الجدة مينا، وكانت قد صارت عمياء، ونصف مخبولة، على الرغم من أنها، وسط الشائعات المتواصلة عن المأساة الوشيكة، كانت هي الوحيدة التي لم تعلم بخبر المبارزة، إلا بعد وقوعها.

حدثت المأساة في بارانكيا، وهي قرية مسالمة ومزدهرة بمحاذاة جبال سييرا نيفادا، حيث تعلّم الكولونيل من أبيه وجده، مهنة صياغة الذهب، وحيث رجع ليستقر، بعد توقيع اتفاقيات السلام. أما الخصم فكان مارداً يصغره بست عشرة سنة، ليبرالياً ذا عظم أحمر، مثله، وكاثوليكياً ممارساً، ومزارعاً فقيراً، تزوج حديثاً وله ابنان، ويحمل اسم رجل طيب: ميداردو باتشيكو. ولا بد أن أكثر ما أحزن الكولونيل هو أن خصمه لم يكن أي واحد من الأعداء، الذين لا يعرف وجوههم ممن واجههم في ميادين المعارك. وإنما هو صديق قديم، ومحازب له، وجندي عنده في حرب الألف يوم. وعليه أن يواجهه حتى الموت، في الوقت الذي كان الاثنان يظنان أنهما قد كسبا السلام.

كانت تلك هي الحالة الأولى من الحياة الحقيقية التي استثارت غرائز الكاتب لديّ، ولم أستطع أن أتطهر منها حتى الآن. لقد أدركت، منذ أن بدأت الوعي، ضخامة حجم وثقل تلك المأساة في بيتنا. ولكن تفاصيلها بقيت غائمة. فأمي التي لم تكن قد بلغت الثالثة من عمرها، تذكرتها على الدوام، كحلم غير محتمل. وكان الكبار يشوشونها أمامي،

لتختلط الأمور عليّ، ولم أستطع قط، أن أعيد تركيب اللغز كاملاً، لأن كل واحد من كلا الفريقين، يركب كل قطعة على طريقته. والرواية الأكثر ثقة هي أن أم ميداردو باتشيكو حثته على الثأر لشرفها، لأنها أهينت بتعليق شائن نسبته إلى جدي. فنّد هذا الأخير الأمر باعتباره إشاعة كاذبة، واعتذر علناً ممن لحقت بهم الإهانة، ولكن ميداردو باتشيكو أصر على العداء، وانتهى به المطاف إلى التحول من مُسَاء إليه إلى مُسيء، بتوجيه شتائم خطيرة إلى الجد حول سلوكه كليبرالي. ولم أعرف بصورة مؤكدة قط، فحوى تلك الشتائم. فتحداه الجد الذي جُرحت كبرياؤه بدعوته إلى مبارزة حتى الموت ودون تحديد موعد ثابت.

المثال النموذجي لطبيعة الكولونيل، هو الوقت الذي تركه يمر، منذ التحدي، حتى المبارزة. رتب أموره بتكتم مطلق، ليضمن أمان أسرته في الخيار الوحيد الذي يوفره له القدر: الموت أو السجن. بدأ، دون أدنى تسرع، ببيع القليل المتبقي له للمعيشة بعد الحرب الأخيرة: ورشة الصياغة ومزرعة صغيرة ورثها عن أبيه، كان يربي فيها تيوس أضاحٍ، ويزرع قطعة من أرضها بقصب السكر. وبعد ستة شهور من ذلك، خبأ في قاع إحدى الخزائن، ما تجمع لديه من المال، وانتظر بصمت، اليوم الذي حدده هو نفسه: الثاني عشر من تشرين الأول ١٩٠٨، ذكرى اكتشاف أميركا.

كان ميداردو باتشيكو يعيش خارج القرية، ولكن الجد كان يعرف أنه لا يمكن له أن يتخلف في ذلك المساء، عن موكب عذراء البيلار. وقبل أن يخرج بحثاً عنه، كتب رسالة موجزة ورقيقة إلى امرأته، يقول لها فيها أين خبأ نقوده، وقدم لها بعض التعليمات الأخيرة حول مستقبل الأبناء. تركها

تحت الوسادة المشتركة، حيث ستجدها امرأته دون شك، عندما تستلقي لتنام. وخرج دون أي نوع من الوداع، لمواجهة ساعة نحسه.

وتتفق حتى أقل الروايات صلاحية، على أنه كان يوم اثنين، تقليدياً، من تشرين خريفي، بمطر كئيب من غيوم منخفضة وريح مأتمية. وكان ميداردو باتشيكو يرتدي بدلة يوم الأحد. وقد انتهى لتوه من دخول زقاق مسدود، عندما اعترض الكولونيل ماركيز طريقه. كلاهما كان مسلحاً. بعد سنوات من ذلك، وفي هذيانات جنونها، كان من عادة جدتي القول: "لقد منح الرب نيكولاسيتو فرصة العفو عن حياة ذلك الرجل البائس، ولكنه لم يعرف كيف يستغلها". ربما كانت تفكر في ذلك لأن الكولونيل قال لها إنه رأى وميض أسف في عيني الخصم الذي أخذ على حين غرة. وقال لها كذلك إنه عندما هوى الجسد الضخم كجذع شجرة سيبيا، على النباتات القصيرة، أصدر أنّة دون كلمات، "مثل أنّة هرّ مبلل". ونسبت التقاليد الشعبية إلى باباليلو، عبارة بليغة في اللحظة التي سلّم فيها نفسه إلى العمدة: "طلقة الشرف سبقت طلقة السلطة". وهي عبارة وفية للأسلوب الليبرالي في ذلك العهد، ولكنني لم أستطع مواءمتها مع أسلوب الجد. الحقيقة أنه لم يكن هناك شهود. وكان يمكن للرواية القضائية التي قدمها الجد ومعاصروه، من كلا الجانبين، أن تكون الرواية المرجعية. ولكن لم يبق من ملف القضية، إذا كان قد وجد أصلاً، أي ملمح نور. ومن الروايات العديدة التي سمعتها حتى اليوم، لم أجد اثنتين متطابقتين.

شقت الواقعة أسر القرية، بمن في ذلك أسرة الميت. فقد دعا قسم منها إلى الثأر للميت، بينما آوى آخرون في بيوتهم الجدة ترانكيلينا

إغواران وأبناءها، إلى أن هدأت مخاطر الثأر. لقد أثرت فيّ هذه التفاصيل في طفولتي، إلى حد لم أتحمل وزر خطيئة سلفي كما لو أنها خطيئتي وحسب، وإنما شعرت، مثلما أشعر الآن، وأنا أكتب عن ذلك، بالتعاطف مع أسرة الميت، أكثر من تعاطفي مع أسرتي.

نقلوا باباليلو إلى ريوهاتشا من أجل مزيد من الأمن، ثم إلى سانتا مارتا بعد ذلك، حيث حكموا عليه سنة: يقضي نصفها في السجن ونصفها الآخر في نظام مفتوح. وفور إطلاق سراحه، سافر مع الأسرة لبعض الوقت، إلى بلدة ثيناغا، ثم إلى بنما، حيث أنجب ابناً آخر من علاقة غرامية عابرة. ثم انتقل أخيراً إلى بلدية آراكاتاكا الوبيلة والمتجهمة، بوظيفة محصل مالية في الإقليم. ولم يعد يخرج منذ ذلك الحين مسلحاً إلى الشارع، حتى في أسوأ أزمنة العنف التي رافقت فورة الموز، بل كان يُبقي المسدس تحت وسادته، من أجل الدفاع عن البيت فقط.

كانت آراكاتاكا آنذاك أبعد ما تكون عن الملاذ الهادئ والراكد الذي حلم به، بعد كابوس ميداردو باتشيكو. فقد ولدت كدسكرة لهنود تشيميلا، ودخلت التاريخ بقدمها اليسرى، كبلديّة نائية، دون رب ودون قانون، في ناحية ثيناغا، أذلّتها حمى الموز أكثر مما أثرتها. واسمها ليس اسم قرية، وإنما اسم نهر. إذ يقال للنهر "آرا" في لغة هنود تشيميلا. أما كاتاكا فهي الكلمة التي تطلقها القبيلة الهندية على من يأمر. ولهذا لم نكن نسمي القرية آراكاتاكا، عند التحدث مع السكان الأصليين، وإنما يجب أن يكون الاسم: كاتاكا.

وعندما حاول الجد تشجيع الأسرة، بأوهام أن النقود تتدفق هناك

في الشوارع، قالت له مينا: "المال هو روث الشيطان". أما بالنسبة إلى أمي، فكانت تلك هي مملكة كل الأراضي، وأقدم ما تتذكره فيها هي جائحة الجراد التي عاثت خراباً في الزروع، عندما كانت لا تزال صغيرة جداً. "لقد كان يسمع مرور أسراب الجراد، وكأنه ريح أحجار"، هكذا قالت لي عندما ذهبنا لبيع البيت. وكان على السكان المرعوبين، أن يتحصنوا في غرفهم، ولم يتم إلحاق الهزيمة بتلك الآفة إلا بفنون الشعوذة.

في كل وقت، كانت تباغتنا أعاصير جافة تقتلع سقوف الأكواخ، وتنقض على الموز الجديد، وتخلّف القرية مغطاة بغبار كوكبي. وفي الصيف، تنكل بالمواشي فترات جفاف رهيبة، أو تهطل في الشتاء أمطار كونية عاتية تحوّل الشوارع إلى أنهار مائجة. فكان المهندسون الغرينغيون يبحرون في قوارب من المطاط، بين حزم فراش غارقة وأبقار ميتة. واليونايتد فروت كومباني، التي كانت أنظمة ريها الاصطناعية مسؤولة عن فوضى المياه، حولت مسار النهر، عندما نبش أخطر تلك الفيضانات جثامين الموتى في المقبرة.

ولكن أسوأ الجائحات وأشدها شؤماً، مع ذلك، هي الجائحة البشرية. فقد قذف قطارٌ، يبدو مثل دمية، على رمال القرية المتوقدة، حثالة مغامرين من كل أنحاء العالم، استولوا بقوة السلاح على السلطة في الشارع. فازدهار القرية الطائش حمل معه نمواً سكانياً، وفوضى اجتماعية، تجاوزت كل الحدود. كانت آراكاتاكا تبعد مئة فرسخ فقط، عن مستوطنة-سجن بوينس آيرس، على نهر فونداثيون، التي اعتاد سجناؤها على الهرب في نهاية الأسبوع، ليلعبوا لعبة الرعب في

القرية. لم تكن تشبه شيئاً إلى حد كبير مثلما تشبه القرى الناشئة في أفلام الغرب، منذ أن بدأت تحلّ، في آراكاتاكا، محل أكواخ هنود التشيميلا التي من السعف والقصب، بيوتُ اليونايتد فروت كومباني الخشبية، ذات السقوف الصفيحية المموجة، والنوافذ البارزة والشرفات المسقوفة المزينة بنباتات معرشة ذات أزهار معفرة. وسط تلك العاصفة الهوجاء، من الوجوه غير المعروفة، ومن الخيام المرتجلة على قارعة الطريق العام، ومن رجال يبدلون ملابسهم في الشارع، ونساء جالسات على صناديق الأمتعة، ومظلاتهن مفتوحة، وبغال وبغال وبغال تحتضر من الجوع، في زرائب الفندق. كان من وصلوا أولاً هم الأخيرون. فقد صرنا الغرباء الدائمين.. الدخلاء.

لم تكن المذابح تقتصر على مشاجرات أيام السبت وحسب. ففي مساء أحد الأيام، سمعنا صراخاً في الشارع، ورأينا مرور رجل دون رأس، ممتطياً حماراً. لقد جرى قطع رأسه بضربة متشيتي في تصفية حسابات، في مزارع الموز. وقد جرف تيار الساقية المتجمد الرأس. وفي تلك الليلة سمعتُ من جدي التفسير الدائم: "أمر بمثل هذه الفظاعة، لا يمكن أن يقدم عليه سوى كاتشاكو".

والكاتشاكو هم أهالي الهضبة، الذين لم نكن نميزهم عن بقية البشرية، بأساليبهم الفاترة الواهية، ونطقهم الفاسد وحسب، وإنما كذلك بغرورهم بأنهم مبعوثو العناية الإلهية. وقد كانت تلك الصورة مكروهة إلى حد أنه على إثر أعمال القمع الشرسة لإضرابات عمال الموز، على يد عسكريّي الداخل، لم نكن نسمي رجال القوة العسكرية جنوداً، وإنما كاتشاكو. كنا ننظر إليهم باعتبارهم المتنفعين الوحيدين من السلطة

السياسية. وكثيرون منهم كانوا يتصرفون على أنهم كذلك. هكذا فقط، يمكن تفسير "ليلة آراكاتاكا السوداء"، وهي مذبحة أسطورية لها أثر غائم في الذاكرة الشعبية، ولا وجود لدليل واضح على أنها قد حدثت فعلاً.

بدأ ذلك في يوم سبت أسوأ من سواه، عندما دخل شخص محترم من أبناء المنطقة، لم يحفظ التاريخ هويته، إلى حانة ليطلب كأس ماء لطفل يمسك بيده. فأراد غريب كان يشرب وحيداً، على الكونتوار، أن يجبر الطفل على شرب خمرة "الرُّوم" بدلاً من الماء. حاول الأب منعه، ولكن الغريب أصر على طلبه، إلى أن هدر الطفل المذعور، دون أن يريد ذلك، كأس الشراب، بحركة من يده. عندئذ أقدم الغريب، دون مزيد من الجدال، على قتل الصغير، بطلق ناري.

لقد كان شبحاً آخر من أشباح طفولتي. وكان باباليلو يذكرني به، كلما دخلنا معاً لتناول مرطِّب في إحدى الحانات، ولكن بطريقة خيالية يبدو معها هو نفسه، غير مصدق لما يرويه. لا بد أن ذلك حدث بعد وقت قصير من وصوله إلى آراكاتاكا، لأن أمي تتذكره، من خلال الرعب الذي كانت تثيره الواقعة في كبار أسرتها. لم يُعرف عن المعتدي إلا أنه يتكلم بلهجة أهل مرتفعات الأنديز المتكلفة، ولهذا لم ينفلت انتقام القرية ضده وحسب، وإنما ضد أي واحد من الغرباء، الكثيرين والمكروهين الذين يتكلمون لهجته. اندفعت، في الليل إلى الشوارع، زمر من الأهالي المسلحين بمناجل متشبثين قطع قصب، وكانوا يمسكون الكتلة غير واضحة المعالم التي يفاجئونها في الظلام، ويأمرونها:

– تكلم!

وبسبب اللهجة وحدها، كانوا يمزقونه بضربات المتشيتي، دون أن تهمهم عدالة تصرفهم، وسط أساليب التكلم المختلفة. وقد قُدِّر لدون رافائيل كينتيرو أورتيغا، زوج خالتي وينفريدا ماركيز، الكاتشاكو القح والمحبوب، أن يعيش ويوشك أن يحتفل بعيد ميلاده المئوي في الحياة، لأن جدي حبسه يومذاك في حجرة مؤونة، إلى أن هدأت الخواطر.

بلغ شقاء الأسرة ذروته، بعد سنتين من العيش في آراكاتاكا، بموت مرغريتا ماريا مينياتا التي كانت نور البيت. وقد بقيت صورتها الملتقطة بآلة دغريتيب، معروضة في الصالة لسنوات طويلة. وبقي اسمها يتردد من جيل إلى آخر، كعلامة أخرى من العلامات المميزة للهوية الأسرية. الأجيال الحديثة لا تبدي تأثراً بتلك الفتاة ذات التنورة المجعدة، والجزمة البيضاء، والجديلة الطويلة حتى الخصر، والتي لا يستطيعون مطابقتها أبداً مع الصورة البلاغية لجدة جدتهم. ولكن لديّ انطباعاً بأنه تحت وطأة تأنيب الضمير، والأحلام المحبطة بعالم أفضل، كانت حالة الاستنفار الدائمة تلك، في نظر جديّ، هي أقرب ما تكون إلى السلام. فحتى موتهما، بقيا يشعران بأنهما غريبان في أي مكان يحلان فيه.

لقد كانا كذلك، في الواقع. ولكن التمييز الفوري كان صعباً، وسط حشود القطار التي جاءتنا من العالم أجمع. وبالاندفاع الذي جاء به جَدّاي وذريتهما، وصل كذلك آل فيرغوسا، وآل دوران، وآل بيراكاتا، وداكوتي، وكوريا، بحثاً عن حياة أفضل. ومع اضطرابات الشعب، جاء الإيطاليون، والكناريون، والسوريون – وكنا نسميهم توركو – متسللين من حدود بروبينثيا، بحثاً عن الحرية، وطرق أخرى في العيش افتقدوها في بلادهم. كان هناك أناس من كل الألوان والمستويات. بعضهم من

الهاربين من جزيرة الشيطان – مستوطنة السجن الفرنسية في غوايانا – وكانت أفكارهم، أكثرَ من جرائمهم العادية، هي السبب في ملاحقتهم. أحدهم هو رينيه بلفينو، وكان صحفياً فرنسياً محكوماً لأسباب سياسية، انتقل هارباً إلى منطقة الموز، وكشف في كتاب بارع الأهوال التي عرفها في سجنه. وبفضلهم جميعاً – الطيبين منهم والسيئين – كانت آراكاتا منذ نشوئها، بلاداً بلا حدود.

ولكن الجالية التي لا تُنسى بالنسبة إلينا هي الفنزويلية، وفي أحد بيوتها كان يستحم بدلاء ماء من البرك المتجمدة، عند الفجر، طالبان مراهقان في إجازة: رومولو بتانكور، وراؤول لبوني، اللذان سيصيران بعد نصف قرن من ذلك رئيسين لبلاديهما على التوالي. أما أقرب الفنزويليين إلينا فكانت السيدة خوانا دي فريتيس، وهي امرأة مهيبة وباهرة، تمتلك موهبة توراتية في قصّ الحكايات. فأول قصة رسمية عرفتها هي جينوفيفا دي برابانتي، وقد سمعتها منها، مع قصص أخرى من أبرز أعمال الأدب العالمي التي كانت توجزها إلى حكايات أطفال: الأوديسة، أورلاند الغاضب، دون كيخوته، الكونت دي مونتكريستو، وقصص كثيرة من الكتاب المقدس.

لقد كانت ذرية الجد إحدى أكثر الأسر احتراماً، ولكن أقلها نفوذاً في الوقت نفسه. وتميزت مع ذلك بجدارتها بالاحترام المعترف به حتى من المسؤولين المحليين في شركة الموز. فهي من أسر المحاربين الليبراليين السابقين في الحروب الأهلية، ممن استقروا هناك، بعد الاتفاقيتين الأخيرتين، ونموذجهم الجيد هو الجنرال بيخامين هيريرا، الذي كانت تُسمع في الأمسيات، من مزرعته في نيرلانديا، موسيقى فالسات كئيبة، من بوقه السلمي.

صارت أمي امرأة في ذلك المكان البائس، واحتلت حيز كل الغراميات، منذ أن قضى التيفوس على مرغريتا ماريا مينياتا. وكانت هي نفسها أيضاً عليلة كثيرة المرض. فقد عاشت طفولة قلقة عانت فيها من نوبات الحمى الثلاثية. ولكنها عندما شفيت من آخرها، كان الشفاء نهائياً، وإلى الأبد، وتمتعت بصحة أتاحت لها الاحتفال بعيد ميلادها السابع والتسعين، مع أبنائها الأحد عشر، وأبناء زوجها الأربعة، وخمسة وستين حفيداً، وثمانية وثمانين ابن حفيد، وأربعة عشر من أحفاد أحفادها. دون عدّ من لم يُعرفوا قط. وقد ماتت ميتة طبيعية، يوم التاسع من حزيران ٢٠٠٢ في الساعة الثامنة والنصف ليلاً، عندما كنا نعدّ العدة للاحتفال بقرنها الأول في الحياة. وكانت وفاتها في اليوم نفسه، وفي الساعة نفسها تقريباً التي وضعتُ فيها نقطة النهاية لهذه المذكرات.

كانت قد ولدت في بارانكاس، في الخامس والعشرين من تموز ١٩٠٥، حين بدأت الأسرة تستعيد عافيتها من كارثة الحروب الأهلية. أطلقوا عليها أسمها الأول، تكريماً لذكرى لويسا ميخيّا بيدال، أم الكولونيل، التي انقضى في ذلك اليوم، شهر على وفاتها. أما الاسم الثاني، فوقع عليها مصادفة، لتوافق يوم ميلادها مع عيد الرسول سانتياغو الأكبر[١]، الذي قُطع رأسه في أورشليم. وقد أخفت هي هذا الاسم الثاني طوال نصف حياتها، لأنه بدا لها اسماً ذكورياً وصاخباً، إلى أن جاء ابن عاق وكشفه في رواية[٢].

(١) سنتياغو الأكبر Santiago el Mayor: هو يعقوب بن زبدي، أحد حواريي المسيح، قتله هيرودس الملك.

(٢) الإشارة هنا إلى رواية المؤلف نفسه "قصة موت معلن"، حيث يذكر اسمها في نهاية الفصل الأول.

كانت تلميذة مجتهدة، باستثناء درس البيانو، الذي فرضته عليها أمها التي لم تكن قادرة على تصور آنسة محترمة لا تكون عازفة بيانو بارعة. وقد درست لويسا سانتياغا العزف، بدافع الطاعة والانصياع، طوال ثلاث سنوات، ثم هجرته يوماً بسبب الضجر من التمارين اليومية، في قيظ القيلولة. ومع ذلك، فإن الميزة الوحيدة التي أفادتها، في زهرة العشرين من عمرها، هي قوة شخصيتها، حين اكتشفت الأسرة أنها مفتونة بحب عامل التلغراف الشاب والمتكبر في آراكاتاكا.

لقد كانت قصة تلك الغراميات المقموعة، واحدة أخرى من دهشات شبابي. فلكثرة ما سمعتُ روايتها من أبويّ، كل منهما على حدة، صارت القصة مكتملة لدي تقريباً عندما كتبتُ روايتي الأولى، "الأوراق الذابلة"، وأنا في الثالثة والعشرين، ولكنني كنتُ واعياً أنه ما زال عليّ أن أتعلم الكثير حول فن القص الروائي. كلاهما كان راوياً ممتازاً، ولديه ذاكرة الحب السعيدة، ولكنهما بلغا في روايتيهما حدوداً من الشغف العاطفي، لم أستطع معها تبين الحدود بين الحياة والشعر. عندما قررت، أخيراً، بعد أن تجاوزت الخمسين، استخدام قصة حبهما في رواية "الحب في زمن الكوليرا".

لقد التقيا أول مرة، حسب رواية أمي، في مأتم طفل، لم يتمكن أي منهما تحديده لي. وكانت يومذاك تغني في الفناء، مع صديقاتها، وفق العادة الشعبية في قضاء ليالي الأربعاء التسع، في إنشاد أغنيات الحب. وفجأة انضم صوت رجولي إلى الكورال. فالتفتن جميعهن لرؤيته وأصابهن الارتباك حيال حسن مظهره. "سنتزوج منه". غنين هذه العبارة في قفلة المقطع، على إيقاع أكفهن. ولكن رؤيته لم تؤثر في أمي، وهذا

ما قالته: "لقد بدا لي أنه غريب آخر". وكان كذلك بالفعل. فقد وصل لتوه من كارتاخينا دي إندياس، بعد أن قطع دراسة الطب والصيدلة، بسبب شح الموارد، وانطلق في حياة أقرب إلى الابتذال والسوقية، في عدد من قرى المنطقة، ممارساً مهنة عامل التلغراف المحدثة. إحدى صوره في تلك الأيام، تبديه بالمظهر الخاطئ لمتأنق فقير. فهو يرتدي قميصاً قاتماً من حرير التفتا، مع سترة ذات أربعة أزرار، ضيقة جداً، على موضة تلك الأيام، وياقة قاسية، وربطة عنق عريضة، وقبعة من القش. وكان يضع كذلك نظارة من النوع الدارج، عدستاها مستديرتان من زجاج طبيعي وإطارها رفيع. من عرفوه في تلك الفترة، كانوا يرون فيه بوهيمياً محباً للسهر، وزيرَ نساء، ولكنه لم يشرب مع ذلك قطرة خمر واحدة، ولم يدخن سيجارة واحدة طوال حياته المديدة.

كانت تلك هي أول مرة تراه فيها أمي. أما هو بالمقابل، فكان قد رآها في قداس الساعة الثامنة، يوم الأحد السابق، وهي بحراسة العمة فرانثيسكا سيمودوسيا التي كانت وصيفتها المرافقة، منذ أن عادت من المدرسة. ثم رآهما مرة أخرى يوم الثلاثاء التالي، تخيطان تحت أشجار اللوز، عند بوابة البيت، وهكذا كان يعرف في ليلة المأتم أنها ابنة الكولونيل نيكولاس ماركيز الذي جاء حاملاً له عدة رسائل توصية. وعرفت هي أيضاً، منذ ذلك الحين، أنه عازب ومتقلب الغراميات، وأنه يصيب نجاحاً فورياً لطلاوة لسانه، وتدفق شاعريته، ورقصه الظّريف على وقع الموسيقى الدارجة، وعاطفيته المدروسة مسبقاً التي يعزف بها الكمان. وقد روت لي أمي أن من كان يسمعه يعزف فجراً، لا يتمكن من كبح رغبته في البكاء. وكانت بطاقة تقديمه لنفسه في المجتمع هي

معزوفة "عندما انتهت الرقصة"، وهي مقطوعة فالس ذات رومنطيقية مستَنزِفة، ضمها إلى قائمة معزوفاته وصارت لحناً لا بد منه في جولات العزف الليلية (السيرنادات). جوازات المرور الحميمة هذه، وجاذبيته الشخصية، فتحت له أبواب البيت، وأتاحت له التردد بكثرة على مائدة الغداء العائلية. وقد تبنته العمة فرانثيسكا، المتحدرة من قرية كارمن دي بوليفار، دون تحفظ، عندما علمت أنه مولود في سينثي، وهي قرية قريبة من قريتها. وكانت لويسا سانتياغا تستمتع في الحفلات الاجتماعية، بحيله في الإغواء، ولكن لم يدر في خلدها قط أنه يسعى إلى ما هو أكثر من ذلك. بل على العكس؛ فقد كانت علاقاتهما الطيبة تستند، قبل كل شيء، إلى أنها كانت تشكل واجهة لغرامياته الخفية مع إحدى زميلاتها في المدرسة. وقد وافقت على أن تكون اشبينته في زفافه. وصار منذ ذلك الحين يدعوها اشبينتي، بينما تدعوه هي فليوني[1]. ومن السهل، في مثل هذا الوضع، تصور مدى دهشة لويسا سانتياغا في إحدى ليالي حفلات الرقص، عندما أقدم عامل التلغراف الجريء، على انتزاع الوردة المعلقة في عروة ياقته، وقال لها:

– أسلمك حياتي في هذه الوردة.

لم تكن حركة مرتجلة، هذا ما قاله مرات كثيرة، وإنما جاءت بعد أن تعرف عليهن جميعاً، وتوصل إلى أن لويسا سانتياغا قد خُلقت له. أما هي ففهمت حركة تقديمه الوردة، على أنها دعابة أخرى من مزاحه التوددي الذي اعتاد ممارسته مع صديقاتها. وكانت مقتنعة بذلك، إلى

(١) الفليون: هي التسمية التي يطلقها العراب على ابنه بالعماد، أو الاشبين على العريس الذي يكفله.

حد أنها تركت الوردة منسية هناك، أينما اتفق. وانتبه هو إلى ذلك. لم تكن قد عرفت قبل ذلك سوى متودد سري واحد، وهو شاعر غير محظوظ، وصديق طيب لم يتمكن من الوصول قط إلى قلبها بأشعاره الملتهبة. ومع ذلك، فقد عكرت وردة غابرييل إليخيو أحلامها، بغضب لا تفسير له. في محادثتنا الرسمية الأولى عن غرامياتها، وكانت مثقلة بالأبناء، اعترفت لي: "لم أستطع النوم لغضبي من كوني أفكر فيه، ولكن ما كان يغضبني أكثر، هو أنني كلما ازددت غضباً، كان تفكيري فيه يزداد". وتحملت خلال بقية الأسبوع بمشقة رعب رؤيته وعذاب عدم التمكن من رؤيته. وتحولا من اشبينة وفليون، كما كانا، إلى التعامل كمن لا يعرف أحدهما الآخر. وفي إحدى تلك الأمسيات، بينما كانتا تخيطان تحت أشجار اللوز، وخزت العمة فرانثيسكا ابنة أخيها بخبثها الهندي:

– قيل لي إن هناك من قدم لك وردة.

ومثلما يحدث عادة، كانت لويسا سانتياغا هي آخر من يعلم بأن عواصف قلبها قد صارت موضوعاً متداولاً بين الجميع. وفي المحادثات الكثيرة التي أجريتها معها ومع أبي، كانا متفقين على أن الحب الصاعق مرّ بثلاث مناسبات حاسمة. الأولى كانت في القداس الكبير، في يوم أحد الشعانين. وكانت هي تجلس مع العمة فرانثيسكا على مقعد من جهة المنشدين، عندما تعرفت على وقع خطوات كعبيه الفلامنكيين على آجر الأرضية، ثم رأته يمر قريباً جداً إلى حد أنها شمت رائحة عطره الفاتر كعريس. لم يبد على العمة فرانثيسكا أنها رأته، وبدا أنه هو أيضاً لم يرهما. ولكنه في الحقيقة كان قد دبر كل شيء مسبقاً. فقد لحق بهما عندما مرتا على مكتب التلغراف. وبقي واقفاً إلى جوار أقرب الأعمدة

من البوابة، بحيث يستطيع رؤيتها مديرة ظهرها، بينما لا تستطيع هي رؤيته. وبعد عدة دقائق متوترة، لم تستطع لويسا سانتياغا كبح لهفتها. ونظرت نحو الباب من فوق كتفها، وأحست عندئذ بأنها تموت من الغيظ، فقد كان ينظر إليها، وتقاطعت نظراتهما. "كان هذا هو ما خططتُ له بالضبط"، اعتاد أبي أن يقول ذلك، بسعادة، كلما أعاد قص الحكاية لي في شيخوخته. أما أمي بالمقابل، فلم تمل من ترديد القول بأنها لم تستطع، طوال ثلاثة أيام، السيطرة على غضبها، لوقوعها في الفخ الذي نصبه لها.

المناسبة الثانية كانت رسالة كتبها إليها. لم تكن الرسالة التي انتظرتها، من شاعر وعازف كمان في ساعات الفجر المستترة، وإنما رسالة آمرة، تطالبها بالرد، قبل أن يسافر إلى سانتا مارتا، في الأسبوع التالي. لم تردّ عليه. وحبست نفسها في حجرتها، مصممة على قتل تلك الدودة التي لا تبقي لها أنفاساً للعيش، إلى أن حاولت العمة فرانثيسكا أن تقنعها بأن تستسلم دفعة واحدة، قبل أن يفوت الأوان. وفي محاولة منها للتغلب على مقاومتها، روت لها القصة النموذجية لخوفينتينو تريبو، ذلك العاشق الذي كان يرابط تحت شرفة محبوبته المستحيلة كل ليلة، منذ الساعة السادسة حتى العاشرة. فكافأته بكل أشكال الصد التي خطرت لها، وانتهى بها الأمر إلى أن تُفرغ عليه، من الشرفة، ليلة بعد ليلة، مبولة صغيرة ممتلئة بالبول. ولكنها لم تستطع إبعاده. وبعد كل أشكال تلك الاعتداءات التعميدية - ومتأثرة بتفاني ذلك الحب الذي لا يُهزم - تزوجت منه. ولكن قصة حب أبويّ لم تصل إلى تلك الحدود.

مناسبة الحصار الثالثة، كانت حفلة زفاف شديدة الأبهة، دعي إليها كلاهما كإشبيني شرف. لم تجد لويسا سانتياغا ذريعة للتملص من التزام شديد القرب من الأسرة. ولكن غابرييل إليخيو كان قد فكر بذلك أيضاً، وذهب إلى الحفلة، وهو مستعد لكل شيء. لم تستطع هي كبح جماح قلبها عندما رأته يجتاز القاعة بتصميم بالغ الوضوح، ويدعوها إلى الرقصة الأولى. وقد قالت لي: "كان الدم يفور بقوة في جسدي، ولم أعد أعرف إذا ما كان السبب هو الغضب أم الخوف". وانتبه هو إلى ذلك، ووجه ضربة قاسية: "لم تعودي مضطرة إلى أن تقولي لي نعم، لأن قلبك يقولها لي".

تركته هي دون مزيد من اللف والدوران، وخلّفته مسمراً في القاعة، في منتصف الرقصة. ولكن أبي فهم الأمر على طريقته.

- بقيت سعيداً - هذا ما قال لي.

لم تستطع لويسا سانتياغا كبح الضغينة التي أحست بها، ضد نفسها، عندما أيقظتها في الفجر مغازلات الفالس المسموم: "عندما انتهى الرقص قبيل الفجر". وفي أولى ساعات صباح اليوم التالي، أعادت إلى غابرييل إليخيو كل هداياه. هذا الصد المجحف، والأقاويل عن تركها له في حلبة الرقص، أثناء حفلة الزفاف، كانت أشبه برياش ألقيت في الهواء، ولم تعد هناك ريح قادرة على إرجاعها. اعتبر الجميع أن تلك هي النهاية غير المجيدة لعاصفة صيفية. وقد تعزز الانطباع لدى إصابة لويسا سانتياغا بنكسة الحمى الثلاثية التي كانت تعاني منها في طفولتها، فأخذتها أمها لتخفف عنها إلى قرية مانوري، وهي ركن فردوسي متاخم لسلسلة جبال سييرا نيفادا. وقد أنكر كلاهما على الدوام

وجود أي اتصال بينهما، خلال تلك الشهور، ولكن لا يمكن تصديق ذلك بسهولة. فعندما رجعت، وقد تعافت من علتها،صارا يبدوان وكأنهما قد تعافيا كذلك من شكوكهما. ويقول أبي إنه ذهب لانتظارها في المحطة، لأنه قرأ البرقية التي أرسلتها مينا معلنة عودتها إلى البيت. وقد أحس، من الطريقة التي شدت بها لويسا سانتياغا على يده لدى المصافحة، بما يشبه إشارة مشفرة ماسونية، فسرها هو على أنها رسالة حب. وقد أنكرت هي ذلك دوماً، بالخفر والحياء اللذين تستحضر بهما ذكريات تلك السنوات. ولكن الحقيقة أنهما صارا منذ ذلك الحين، يظهران معاً بقدر أقل من التكتم. ولم يكن ينقص إلا النهاية التي وفرتها العمة فرانثيسكا، في الأسبوع التالي، بينما هما تخيطان في ممر أزهار البيجونيا:

– لقد علمت مينا بالأمر.

وقد قالت لويسا سانتياغا، على الدوام، إن معارضة الأسرة كانت السبب في تجاوز حواجز السيل الذي كانت تكبحه في قلبها، منذ الليلة التي تركت فيها المتودد إليها، مسمراً في منتصف حلبة الرقص. كانت حرباً ضارية. وقد حاول الكولونيل البقاء، على هامشها، ولكنه لم يستطع تجنب الشعور بالذنب الذي واجهته به مينا، عندما انتبهت إلى أنه لم يكن هو نفسه بريئاً كذلك، بالقدر الذي يُظهره. كان واضحاً للجميع أن عدم التسامح لم يكن منه، وإنما منها، مع أن عدم التسامح كان مدرجاً، في الحقيقة، في قانون القبيلة التي ترى أن أي عريس هو شخص دخيل. هذا التحامل المسبق المتوارث الذي ما زالت جذواته موجودة تحت الرماد، جعلت منا جمعية نساء عازبات ورجالاً بسراويل دون فتحات مع أعداد كبيرة من أبناء الأزقة غير الشرعيين.

انقسم الأصدقاء، حسب السن، مع العاشقين أو ضدهما. ومن لم يكن لهم موقف جذري، جاءت الأحداث لتفرضه عليهم. الشباب اتخذوا موقف المؤيدين المتواطئين بابتهاج. وخاصة معه، إذ تمتع متلذذاً بشرطه كضحية تكفير عن تحامل الأفكار الاجتماعية المسبقة. أما غالبية الكبار بالمقابل، فكانت ترى في لويسا سانتياغا، أثمن جوهرة في أسرة ثرية ومتنفذة، لا يمكن لعامل تلغراف وصولي وغريب أن يتودد إليها بدافع الحب، وإنما بدافع المصلحة. وقد تصدت هي نفسها لمعارضيها، رغم ما عُرف عنها من انصياع وخضوع، بضراوة لبوة نُفَساء. وفي أحد أشد نزاعاتها البيتية الكثيرة جفاء، فقدت مينا السيطرة على نفسها، ورفعت في وجه ابنتها سكين تقطيع الخبز. فواجهتها لويسا سانتياغا برباطة جأش. ولكن مينا انتبهت فوراً إلى فورة غضبها الإجرامي، فأفلتت السكين وصرخت مذعورة: "رباه!". ووضعت يدها على جمر الموقد، في حركة تكفير فظة.

إحدى الحجج القوية ضد غابرييل إليخيو، هي وضعه كابن طبيعي لأم عازبة أنجبته وهي في سن الرابعة عشرة المتواضعة، من عثرة عابرة مع معلم مدرسة. كان اسمها أرخيمينا غارثيا باتيمينا، وهي بيضاء ممشوقة القوام، ذات روح حرة، أنجبت ستة أبناء آخرين وابنتين من ثلاثة آباء مختلفين، لم تتزوج أباً منهم أو تسكن معه تحت سقف مشترك. وكانت تعيش في قرية سينثي، حيث ولدت، وتربي ذريتها بالأظفار وبمزاج مستقل وسعيد كنا نتمناه، نحن أحفادها، ليوم أحد شعانين.

كان غابرييل إليخيو نموذجاً متميزاً لتلك السلالة الرثة. فقد عاشر، منذ بلوغه السابعة عشرة، خمس عشيقات عذراوات، حسب ما كشف

عنه لأمي، كفعل توبة، في ليلة زفافهما على متن سفينة ريوهاتشا الشراعية التي في حالة يرثى لها والمصفوعة بالعاصفة. اعترف لها بأنه في علاقته بإحداهن، وهو عامل تلغراف في قرية آتشي، في الثامنة عشرة من عمره، أنجب منها ابناً، يدعى ابيلاردو، يوشك أن يتم الثالثة من عمره. وفي علاقته بواحدة أخرى، وهو عامل تلغراف في آبابيل، وكان في العشرين من عمره، أنجب ابنة عمرها شهور، وهو لا يعرفها، وتدعى كارمن روسا. وقد وعد أم الطفلة بالعودة إليها للزواج منها، وكان لا يزال يحافظ على وعده حياً عندما انحرف مسار حياته بحب لويسا سانتياغا. كان قد اعترف بابنه الأكبر، أمام كاتب بالعدل، وسيفعل ذلك في ما بعد مع ابنته. ولكن ذلك الاعتراف لم يكن سوى شكليات بيزنطية لا قيمة لها أمام القانون، ومن المفاجئ أن يسبب ذلك السلوك الشاذ مخاوف أخلاقية للكولونيل ماركيز الذي أنجب، فضلاً عن أبنائه الثلاثة الرسميين، تسعة أبناء آخرين من أمهات مختلفات، قبل زواجه وبعده، وكانت زوجته تستقبلهم جميعهم، كما لو أنهم أبناؤها.

ليس بإمكاني أن أحدد متى علمت بأول أخبار تلك الوقائع. ولكن تهتكات أسلافي لم تكن تهمني على أي حال. أما أسماء الأسرة بالمقابل، فكانت تشد انتباهي، لأنها تبدو لي فريدة. أولاً أسماء أسرتي من جهة أمي: ترانكيلينا، وينفرايدا، فرانثيسكا سيمودوسيا. وفيما بعد، اسم جدتي لأبي أرخيميرا، واسما أبويها، لوثانا واميناداب. وربما من هنا يأتيني اليقين الراسخ بأن شخصيات رواياتي لن يسيروا على أقدامهم بالذات، ما داموا لا يمتلكون اسماً يتطابق مع طريقتهم في العيش.

وقد تفاقمت الحجج ضد غابرييل إليخيو لكونه عضواً نشيطاً في الحزب المحافظ الذي خاض الكولونيل ماركيز حروبه ضده. كان السلام قد استتب جزئياً فقط، منذ توقيع اتفاقيتي نيرلانديا وويسكونسين. ذلك أن المركزية المتقوقعة كانت لا تزال في السلطة، وكان لا بد من مرور زمن طويل قبل أن يتخلى النبلاء والليبراليون عن التكشير عن أنيابهم. ربما كانت ميول العاشق المحافظة، ناشئة عن عدوى أسرية أكثر مما هي قناعة فكرية، ولكنهم كانوا يأخذون الأمر بالحسبان أكثر من اهتمامهم بسمات أخرى في طبيعته الطيبة، مثل ذكائه المتيقظ على الدوام، ونزاهته المجربة.

كان أبي رجلاً يصعب استشفافه وإرضاؤه. وكان دائماً أفقر مما يبدو عليه. وقد اعتبر الفقر عدواً بغيضاً لم يستسلم له قط ولم يتمكن كذلك من هزيمته. وبعزة النفس والشجاعة نفسها، تحمل عواقب غرامياته مع لويسا سانتياغا، في الحجرة الخلفية من مكتب التلغراف في آراكاتاكا، حيث كانت لديه أرجوحة نوم معلقة على الدوام، ينام عليها وحيداً. ومع ذلك، كان هناك، إلى جواره، سرير عازب ضيق أيضاً، نوابضه مزيتة جيداً، تحسباً لما يمكن أن يوفره له الليل. في إحدى الفترات، شعرتُ بميل إلى عاداته كصياد متخف. ولكن الحياة علمتني بأنها أشد حالات العزلة قحلاً، وأحسست بشفقة كبيرة عليه.

وإلى ما قبل موته بقليل، كنت أسمعه يروي كيف أنه اضطر في أحد تلك الأيام العصيبة إلى الذهاب مع بعض الأصدقاء إلى بيت الكولونيل. فدعوا الجميع للجلوس باستثنائه هو. ولكن أسرتها أنكرت ذلك دوماً، وعزته إلى جذوة الاستياء الكامنة في نفس أبي، أو إلى ذكرى زائفة على الأقل. ولكن في إحدى المرات، عندما كانت جدتي في

حوالي المئة من عمرها، أفلت منها في هذياناتها الدراماتيكية التي لم تكن تبدو استذكاراً لأحداث، وإنما عودة لعيشها من جديد.

– ها هو هناك، ذلك الرجل المسكين، واقفاً عند باب الصالة. ونيكولاسيتو لم يدعه للجلوس – قالت ذلك متألمة حقاً.

وكنتُ متيقظاً على الدوام لمثل هذه الإيحاءات المبهرة، فسألتها من هو الرجل. وردت علي بجفاء:

– إنه غارسيا، ذو الكمان.

وسط كل تلك الحماقات الكثيرة، كان أقل ما يشبه طريقة والدي في الحياة، هو شراؤه مسدساً تحسباً لما يمكن أن يحدث مع محارب في استراحة، مثل الكولونيل ماركيز. كان مسدساً معتبراً من نوع سميث أند ويسن ٣٨ طويل. لا أحد يدري كم عدد الذين امتلكوه سابقاً، وكم هناك من القتلى على كاهله. الشيء المؤكد الوحيد هو أنه لم يطلق النار منه قط ولو على سبيل الاحتياط أو الفضول. وقد وجدنا نحن أبناءه الكبار، المسدس، بعد سنوات من ذلك، وفيه رصاصاته الخمس الأصلية، في خزانة أمتعة غير مجدية، إلى جانب كمان السيرنادات.

لم تثبط صرامة الأسرة من عزيمة غابرييل إليخيو ولويسا سانتياغا. وكان بإمكانهما اللقاء خفية، في أول الأمر، في بيوت الأصدقاء، ولكن عندما أطبق الحصار عليهما تماماً، صارت وسيلة التواصل الوحيدة هي الرسائل التي يجري تلقيها وإرسالها بأساليب مبتكرة. وكان كل منهما يرى الآخر من بعيد، عندما منعها ذووها من حضور الحفلات التي يدعى إليها. ولكن القمع بلغ حدوداً صارمة، بحيث لم يعد هناك من يتجرأ على تحدي نوبات غضب ترانكيلينا إغواران. ولم يعد العاشقان

للظهور أمام الناس. وعندما لم تبق هناك أي ثغرة لتبادل الرسائل الخفية، ابتدع الخطيبان أساليب تشبه أساليب الناجين من الغرق. فقد تمكنت هي من إخفاء رسالة تهنئة في قالب حلوى (بودين) أوصى عليه أحدهم من أجل عيد ميلاد غابرييل إليخيو. ولم يكن هو بدوره يفوت فرصة ليرسل إليها برقيات مزيفة وبريئة مع الرسالة الحقيقية المشفرة أو المكتوبة بحبر سرّي. صار تواطؤ العمة فرانثيسكا عندئذ جلياً جداً، على الرغم من إنكارها الحاسم، مما أثر لأول مرة على سلطتها في البيت، ولم يعد يسمح لها بمرافقة ابنة أخيها، إلا وهي تخيط في ظل أشجار اللوز. وعندئذ صار غابرييل إليخيو يبعث رسائل حب من نافذة الدكتور ألفريدو باربوثا، على الرصيف المقابل، بإشارات الصم والبكم اليدوية. وقد أتقنت هي تلك الإشارات، على أحسن وجه، إلى حدٍّ أنها كانت تتمكن، في لحظات سهو العمة، من تبادل أحاديث حميمة مع خطيبها. وقد كانت تلك واحدة من الحيل العديدة التي ابتدعتها أدريانا بيردوغو، صديقة لويسا سانتياغا الروحية، وأشد المتواطئات معها عوناً وجرأة.

مناورات المواساة تلك، كانت تكفيهما للبقاء، حيين على نار هادئة، إلى أن تلقى غابرييل إليخيو رسالة من لويسا سانتياغا تنذره بالخطر، مما اضطره إلى إعادة نظر حاسمة. كانت قد كتبتها بسرعة، على ورق تواليت، وأودعتها الخبر المشؤوم بأن أبويها قررا أخذها إلى باراتكاس، بالتنقل من قرية إلى قرية، كعلاج قاس من داء غرامياتها. ولن تكون رحلة نظامية في ليلة نحس تقضيها في سفينة ريوهاتشا، وإنما عبر طريق الجبال الرهيب، في سلسلة سييرا نيفادا، على متن البغال، وفي العربات، لاجتياز مقاطعة باديا الفسيحة.

"كنتُ أفضل الموت على تلك الرحلة"، هذا ما قالته لي أمي يوم ذهبنا لبيع البيت. وقد حاولت الموت فعلاً، بحبس نفسها وراء باب غرفتها المقفل، والعيش على الخبز والماء، طوال ثلاثة أيام، إلى أن تغلب عليها الخوف التوقيري الذي كانت تشعر به تجاه أبيها. أدرك غابرييل إليخيو أن التوتر قد بلغ أقصى حدوده، واتخذ قراراً متطرفاً أيضاً، ولكنه مرن. فاجتاز الشارع بخطوات واسعة، من بيت الدكتور باربوثا، إلى ظل شجرات اللوز، ووقف أمام المرأتين اللتين انتظرتاه مرعوبتين، وشغل الخياطة في حضنيهما.

– اعملي معروفاً بتركي وحيداً للحظة مع الآنسة – قال للعمة فرانثيسكا – لدي شيء مهم أريد قوله لها على انفراد.

فردت عليه العمة:

– وقح! ليس هناك ما يعنيها ولا يمكنني سماعه.

فقال:

– لن أقوله إذاً. ولكنني أحذرك من أنك ستكونين مسؤولة عما سيحدث.

توسلت لويسا سانتياغا إلى عمتها لتتركهما وحيدين، وجازفت بتحمل المسؤولية. عندئذ أعرب لها غابرييل إليخيو عن موافقته على قيامها بالرحلة مع أبويها، مهما كانت الطريقة والمدة. ولكن شريطة أن تعاهده تحت القسم بأنها ستتزوج منه. وفعلت هي ذلك راضية، وأضافت على حسابها ومسؤوليتها أنه لا يمكن إلا للموت وحده، أن يحول دون ذلك.

وقد كانت تلك السنة فرصة لكليهما، كي يثبتا جدية عهودهما. ولكن أياً منهما لم يكن يتصور كم سيكلفهما ذلك. استمر الجزء الأول

من الرحلة في قافلة بغالين، مدة أسبوعين، على متن البغال، عبر الدروب الجبلية الضيقة في سلسلة سييرا نيفادا. وكانت ترافقهم تشون – تصغير تحبب لاسم إنكارناثيون – خادمة وينفريدا، والتي انضمت إلى الأسرة منذ مغادرتها باراتكاس. كان الكولونيل يعرف جيداً ذلك الطريق الوعر، حيث خلّف سلسلة من الأبناء، في ليالي حروبه المبددة. ولكن زوجته فضلت سلوك ذلك الطريق، دون أن تعرفه، بسبب ذكرياتها السيئة عن الرحلة في السفينة الشراعية. أما أمي التي كانت تمتطي بغلة لأول مرة، فكانت الرحلة بالنسبة لها كابوس شموس عارية وأمطاراً ضارية، وكانت تمضي وروحها معلقة بخيط، بسبب بخار الوديان السحيقة المنوِّم. وكان تفكيرها بخطيبٍ غير مؤكد، ببدلات منتصف الليل التي يرتديها، وكمان الفجر، يبدو إحدى سخريات المخيلة. في اليوم الرابع من الرحلة، عندما أحست بأنها عاجزة عن البقاء على قيد الحياة، هددت أمها بإلقاء نفسها إلى الهاوية ما لم يعودوا إلى البيت. وقررت مينا، الخائفة أكثر منها، العودة. ولكن رئيس القافلة بيّن لها على الخريطة بأنه لم يعد هناك فرق بين العودة ومواصلة الرحلة. وقد جاءتهم الراحة في اليوم الحادي عشر، عندما لمحوا من آخر منعطف جبلي سهل بابيدوبار المشرق.

قبل أن تنتهي المرحلة الأولى، كان غابرييل إليخيو قد أمّن اتصالاً دائماً مع الخطيبة الجوالة، بفضل تواطؤ عاملي التلغراف في القرى السبع التي ستتوقف فيها هي وأمها، قبل الوصول إلى باراتكاس. وساهمت لويسا سانتياغا أيضاً بما هو مترتب عليها. فقد كانت أنحاء بروبينثيا كلها تغص بأناس من آل إغواران وكوتيس، يمتلك وعيهم لأصول سلالتهم قوة شبكة معقدة وكتيمة. وقد نجحت هي في استمالتهم إلى

جانبها. فأتاح لها ذلك الحفاظ على مراسلات محمومة مع غابرييل إليخيو، ابتداء من بابيدويار، حيث قضت مدة ثلاثة أشهر، وحتى نهاية الرحلة بعد سنة من ذلك تقريباً. كان يكفيها أن تمر على مكتب التلغراف في كل قرية، بالتواطؤ مع قريبة شابة ومتحمسة، لكي تتلقى رسائله وترد عليها. وقد لعبت تشون، كاتمة الأسرار الصموت، دوراً لا يثمن، لأنها كانت تخبئ الرسائل بين ثيابها، دون أن تثير قلق لويسا سانتياغا أو تخدش حياءها، لأنها لم تكن تعرف القراءة ولا الكتابة، ويمكنها أن تتحمل الموت حفاظاً على السر.

بعد ستين سنة من ذلك تقريباً، عندما كنتُ أحاول إنقاذ تلك الذكريات، من أجل "الحب في زمن الكوليرا"، روايتي الخامسة، سألت أبي إذا ما كانت هناك ضمن مصطلحات موظفي التلغراف، كلمة محددة لعملية وصل مكتب بآخر. ولم يكن عليه أن يفكر بالجواب، بل قال على الفور: "تعشيق". هذه الكلمة موجودة في المعاجم، ليس للاستخدام المحدد الذي أحتاجه، ولكنها بدت لي دقيقة وتفي تماماً بما أريد. فالاتصال بمختلف المكاتب يتحقق من خلال ربط توصيلة في لوحة خطوط الأطراف التلغرافية. لم أناقش الأمر مع أبي قط. ومع ذلك، وقبل موته بقليل سألوه، في مقابلة صحفية، إذا ما كان قد رغب يوماً في كتابة رواية. فأجاب بنعم، وأضاف أنه تخلى عن الفكرة، عندما سألته يوماً عن كلمة "تعشيق الخطوط"، لأنه اكتشف عندئذ أنني كنتُ أكتب ما كان يفكر هو في كتابته.

وقد تذكر في تلك المناسبة أيضاً، معلومة خفية كان يمكن لها أن تبدل مسار حياتنا. فبعد ستة شهور من الترحال، عندما كانت أمي في

سان خوان دل ثيسر، وصلت إلى غابرييل إليخيو، وشاية سرية بأن مينا قد كُلِّفت بالإعداد لعودة الأسرة نهائياً إلى بارانكاس، بعد أن التأمت جراح الضغينة التي خلّفها موت ميداردو باتشيكو. بدا له ذلك التصرف غير معقول، لا سيما بعد انقضاء الأزمنة السيئة، وبعد أن بدأت سيطرة شركة الموز المطلقة في تحقيق ما بدا أنه حلم الأرض الموعودة. ولكن كان معقولاً كذلك أن يقود العناد آل ماركيز إغواران إلى التضحية بسعادتهم، مقابل تخليص ابنتهم من مخالب ذلك الباشق. وكان قرار غابرييل إليخيو الفوري هو بذل المساعي لنقله إلى مكتب تلغراف ريوهاتشا، على بعد عشرين فرسخاً من بارانكاس. لم تكن هناك وظيفة شاغرة، ولكنهم وعدوه بأخذ طلبه في الاعتبار.

لم تستطع لويسا سانتياغا أن تكتشف نوايا أمها السرية. ولكنها لم تتجرأ كذلك على نفيها. وقد لفت انتباهها أنهم كلما اقتربوا أكثر من بارانكاس، كانت أمها تبدو أكثر تنهداً ووداعة. ولم تقدم لها تشون، حافظة أسرار الجميع، أي إشارة موحية كذلك. ومن أجل استخلاص الحقائق، قالت لويسا سانتياغا لأمها إنه يسعدها البقاء للعيش في بارانكاس. ترددت الأم لحظة، ولكنها لم تحسم أمرها بقول أي شيء. وأحست الابنة بأنها قد اقتربت كثيراً جداً من السر. ودفعها القلق إلى عقد آمالها على التنجيم مع غجرية متجولة، لم تقدم لها أي إشارة حول مستقبلها في بارانكاس. ولكنها بشّرتها بالمقابل، بأنها لن تواجه أية عقبات في عيش حياة طويلة وسعيدة، مع رجل بعيد لا تكاد تعرفه، ولكنه سيحبها إلى أن يموت. وقد أعاد الوصف الذي قدمته الغجرية الروح إلى جسدها، لأنها وجدت فيه ملامح مشتركة مع خطيبها، ولا

سيما طريقته في الحياة. وأخيراً، تنبأت لها الغجرية، دون قطرة واحدة من الشك، بأنها ستنجب ستة أبناء منه. "لقد متُّ هلعاً"، هذا ما قالت لي أمي عندما روت لي ذلك أول مرة، دون أن تتصور أن العدد الحقيقي لأبنائها سيزيد خمسة على ذلك العدد. تلقف كلاهما تلك النبوءة بحماس شديد، إلى حد أن المراسلات التلغرافية لم تعد عندئذ كونشيرتو نوايا حالمة، وتحولت إلى مراسلات منهجية وعملية، وأكثر كثافة من أي وقت آخر. فحددا التواريخ، وأقرا الوسائل، ورهنا حياتهما بقرارهما المشترك بالزواج، دون استشارة أحد، أينما كان وكيفما كان، عندما يعودان للقاء.

وكانت لويسا سانتياغا شديدة الوفاء للوعد الذي قطعته على نفسها، إلى حد أنها رأت، حين كانت في قرية فونسيكا، أنه ليس من الصواب الذهاب لحضور حفلة راقصة، دون الحصول على موافقة خطيبها. كان غابرييل إليخيو في أرجوحة النوم، يتعرق حمى أربعين درجة مئوية عندما رنت إشارة نداء تلغرافي مستعجل. وكان المتصل هو زميله عامل تلغراف فونسيكا. ومن أجل الأمان التام، سألت هي عمن يدير جهاز البرق في نهاية السلسلة. فأرسل الخطيب المشوش أكثر مما هو مغازلاً، جملة تعرّف بهويته: "قل لها إنني فليونها". تعرفت أمي على كلمة السر، وذهبت إلى حفلة الرقص، وظلت هناك حتى السابعة صباحاً، عندما كان عليها أن تعود لتستبدل ثيابها على جناح السرعة، كيلا تصل متأخرة إلى القداس.

لم يجدوا في بارانكاس أدنى أثر للحقد على الأسرة. بل على العكس، فقد كان يسود بين ذوي ميداردو باتشيكو مزاج مسيحي من

الصفح والنسيان، بعد مرور سبعة عشر عاماً على الحدث المشؤوم. وكان استقبال الأقرباء، حميماً جداً، حتى أن لويسا سانتياغا هي من فكرت في إمكانية عودة الأسرة إلى ذلك الملاذ الجبلي الهادئ والمختلف تماماً عن الحر والغبار، والسبوت الدامية، والأشباح مقطوعة الرؤوس في آراكاتاكا. وقد تمكنت من الإيحاء بتلك الرغبة إلى غابرييل إليخيو، شريطة أن يتمكن من الانتقال إلى ريوهاتشا. وأبدى هو موافقته.ومع ذلك، فقد عُرف في تلك الأيام، أخيراً، أن رواية الانتقال ليست بلا أساس وحسب، وإنما ليس هناك كذلك من يرغب فيها سوى مينا. وهذا ما اتضح من رسالة جوابية أرسلتها إلى ابنها خوان دي ديوس، عندما كتب إليها هذا الأخير، خائفاً من العودة إلى بارانكاس، دون أن تكون قد انقضت عشرون سنة على موت ميداردو باتشيكا. فقد كان مقتنعاً على الدوام بقدرية قانون غواخيرا، حتى إنه عارض أداء ابنه إدواردو للخدمة الطبية الاجتماعية في بارانكاس، بعد مرور نصف قرن على ذلك.

وخلافاً لكل المخاوف، حدث أن حُلّت هناك عُقد الوضع كلها. ففي يوم الأربعاء نفسه الذي أكدت فيه لويسا سانتياغا لغابرييل إليخيو، أن مينا لا تفكر في الانتقال إلى بارانكاس، أعلموه في العمل بأن مكتب تلغراف ريوهاتشا صار تحت تصرفه، بعد موت موظف المركز بصورة مفاجئة. وفي اليوم التالي أفرغت مينا أدراج حجرة المؤونة، بحثاً عن مقص تقطيع اللحم وفتحت، دون أي مبرر، غطاء علبة البسكويت الإنكليزي التي تخبئ فيها ابنتها برقيات غرامها. وقد بلغ غيظها حداً لم تستطع معه أن تقول سوى أحد الأمثال المشهورة التي اعتادت

ارتجالها في لحظات تحسها: "الله يغفر كل شيء إلا العقوق". في نهاية ذلك الأسبوع، سافرتا إلى ريوهاتشا لكي تدركا السفينة الشراعية المتوجهة إلى سانتا مارتا يوم الأحد. ولم تنتبه أي منهما إلى الليلة الرهيبة المسفوعة بعاصفة شباط: فقد كانت الأم خامدة بسبب هزيمتها، وكانت الابنة مذعورة، إنما سعيدة.

أعاد النزول إلى اليابسة، إلى الأم توازنها الذي طاح به العثور على الرسائل. وفي اليوم التالي واصلت السفر، وحدها، إلى آراكاتاكا، وتركت لويسا سانتياغا في سانتا مارتا، تحت رعاية ابنها خوان دي ديوس، واثقة بذلك من أنها تضعها بمنجى من شياطين الحب. ولكن ما جرى هو العكس: كان غابرييل إليخيو يسافر في أثناء ذلك من آراكاتاكا إلى سانتا مارتا، لكي يراها، كلما وجد إلى ذلك سبيلاً. في حين أن الخال خوانيتو الذي عانى سابقاً من تشدد أبويه نفسه في غرامياته مع ديليا كابايرو، كان قد صمم على عدم التدخل إلى جانب أي طرف في غراميات أخته، ولكنه عندما حانت ساعة الحقيقة، وجد نفسه موزعاً بين حبه لأخته لويسا سانتياغا، واحترامه لمشيئة أبويه. فلجأ إلى صيغة تعبر عن طيبته التي يضرب بها المثل: وافق على أن يلتقي الخطيبان خارج البيت، إنما دون أن يكونا وحيدين، ودون أن يعلم هو بذلك. ودبرت زوجته ديليا كابايرو، التي تغفر ولكنها لا تنسى، لشقيقة زوجها، المصادفات المؤكدة والحيل البارعة نفسها التي كانت تتملص بها من رقابة حمويها. بدأ غابرييل ولويسا اللقاء في بيوت الأصدقاء، ولكنهما راحا يجازفان، شيئاً فشيئاً في الذهاب إلى أماكن عامة قليلة الارتياد. ثم تجرأا أخيراً على تبادل الحديث، عبر النافذة،

عندما يكون الخال خوانيتو غير موجود. الخطيبة في الصالة، والخطيب في الشارع. وفيين لالتزامهما بعدم اللقاء داخل البيت. كانت النافذة تبدو كأنها صُنعت عمداً للغراميات الممنوعة، عبر حاجز قضبان معدنية من الطراز الأندلسي، بحجم قامة كاملة، وبإطار عريشة نباتات متسلقة، لا تغيب عنها أحياناً رائحة الياسمين في هدأة الليل. وكانت ديليا تحتاط لكل شيء، بما في ذلك تواطؤ بعض الجيران الذين يطلقون صفيراً مشفّراً لتنبيه الخطيبين إلى خطر وشيك. ومع ذلك، فقد أخفقت، في إحدى الليالي، كل احتياطات الأمن، ولم يجد خوان دي ديوس بدأ من الاستسلام أمام الحقيقة. فانتهزت ديليا الفرصة لتدعو الخطيبين ليجلسا في الصالة، مع إبقاء كل النوافذ مفتوحة، ليشاركا العالم بحبهما. ولم تنس أمي قط زفرة أخيها: "يا للراحة!".

في تلك الأيام تلقى غابرييل إيلخيو التعيين الرسمي في مكتب تلغراف ريوهاتشا. فلجأت عندئذ أمي، الخائفة من فراق جديد، إلى المونسنيور بيدرو إسبيخو، أسقف الأبرشية الحالي، وهي تأمل أن يزوجها دون إذن أبويها. كان وقار المونسنيور قد حقق قوة كبيرة. حتى إن كثيرين من رعيته كانوا يخلطون بين ذلك الوقار والقداسة. وكان بعضهم يذهب إلى القداس الذي يترأسه للتأكد فقط، من حقيقة أنه يرتفع عدة سنتمترات عن مستوى الأرض، في لحظة صلاة الصعود. وعندما طلبت لويسا سانتياغا مساعدته، قدم هو دليلاً آخر على أن الذكاء هو إحدى ميزات القداسة. فقد رفض التدخل في الشؤون الداخلية، لأسرة شديدة الحرص على خصوصياتها الحميمة. ولكنه اختار المبادرة إلى الحصول سراً، على معلومات عن حال أسرة أبي من خلال الكنيسة. وقد غض

خوري سينثي النظر عن تساهل آرخيميرا غارسيا، ورد على الأسقف بصيغة مترفقة: "إنها أسرة محترمة، وإن كانت قليلة التقوى". عندئذ تحدث مونسنيور إلى الخطيبين معاً، ومع كل منهما على انفراد، وكتب رسالة إلى نيكولاس وترانكيلينا أعرب لهما فيها عن تأثره ويقينه بأنه لا وجود لسلطة بشرية قادرة على هزم ذلك الحب العنيد. فوافق جداي، المهزومان بسلطة الرب، على قلب تلك الصفحة المؤلمة، ومنحا خوان دي ديوس كل الصلاحيات لإقامة العرس في سانتا مارتا. ولكنهما لم يحضرا، وإنما أرسلا فرانثيسكا سيمودوسيا كإشبينة.

تزوجا في الحادي عشر من حزيران ١٩٢٦ في كاتدرائية سانتا مارتا، وبتأخير دام أربعين دقيقة، لأن العروس نسيت تاريخ اليوم، واضطروا إلى إيقاظها بعد الساعة الثامنة صباحاً. وفي تلك الليلة بالذات، استقلا السفينة الشراعية المرعبة، لكي يتسلم غابرييل إليخيو وظيفته في مكتب تلغراف ريوهاتشا، وأمضيا ليلتهما الأولى بعد الزفاف، منهارين من دوار الإبحار.

كانت أمي تحن كثيراً إلى البيت الذي أمضت فيه شهر العسل، حتى إنه كان بمقدورنا، نحن أبناءها الكبار، أن نصفه حجرة حجرة، كما لو أننا قد عشنا فيه، وهو لا يزال حتى اليوم إحدى ذكرياتي الزائفة. ومع ذلك، عندما ذهبت أول مرة إلى شبه جزيرة غواخيرا، قبل قليل من بلوغي الستين من عمري، فوجئت بأن البيت الملحق بمكتب التلغراف، لا علاقة له بذكرياتي. وريوهاتشا الحالمة التي كنت أحملها، منذ طفولتي في قلبي، بشوارعها النيترائية التي تنحدر باتجاه بحر موحل، لم تكن سوى أضغاث أحلام مستعارة من جديّ. بل أكثر من ذلك: فالآن وقد

صرت أعرف ريوهاتشا، لا أتوصل إلى رؤيتها مثلما هي عليه، وإنما مثلما شُيِّدت حجراً حجراً في مخيلتي.

بعد شهرين من الزفاف، تلقى خوان دي ديوس برقية من أبي يخبره فيها بأن لويسا سانتياغا حبلى. هز الخبر البيت في آراكاتاكا من أساساته، حيث لم تكن مينا قد شفيت بعد من المرارة، ولكنها هي والكولونيل على السواء، ألقيا سلاحهما لكي يعود العريسان للعيش معهما. لم يكن ذلك بالأمر السهل. وبعد معارضة عزة نفس وعقلانية استمرت عدة شهور، وافق غابرييل إليخيو على أن تضع زوجته مولودها في بيت أبويها.

بعد قليل من ذلك، استقبله جدي في محطة القطار، بجملة بقيت في إطار من الذهب، في السجل التاريخي للأسرة: "إنني مستعد لأن أقدم إليك كل الرضى الضروري". جددت الجدة غرفة النوم التي كانت لها حتى ذلك الحين، واستقر أبواي فيها. وخلال تلك السنة، استقال أبي من مهنته الجيدة كعامل تلغراف، وكرس موهبته في التعلم الذاتي، لعلم آخذ في الانحدار: الطب التجانسي. وبذل الجد المساعي لدى السلطات، بدافع الاعتراف بالجميل أو تأنيب الضمير، لكي يُطلق على الشارع الذي كنا نعيش فيه في آراكاتاكا، الاسم الذي ما زال يحمله حتى اليوم: جادة مونسنيور إسبيخو.

هكذا وهناك ولد الابن الأول من سبعة ذكور وأربع إناث، يوم الأحد، السادس من آذار ١٩٢٧، في الساعة التاسعة صباحاً، خلال هطل وابل مطر طوفاني في غير موسمه. وكان الوليد على وشك أن يموت اختناقاً بحبل السرة، لأن قابلة الأسرة، سانتوس بيّرو، فقدت

السيطرة على فنها في أسوأ لحظة. ولكن من فقدته أكثر هي العمة فرانثيسكا التي ركضت حتى الباب الخارجي، وهي تطلق صرخات من يعلن عن حريق:

- ذكر! إنه ذكر! – وتضيف على الفور، كمن يدق ناقوس الخطر:- هاتوا الرُّوم، فهو يختنق!

وافترضت الأسرة أن الروم لم يكن للاحتفال، وإنما لإنعاش الوليد بتدليكه به. وروت لي السيدة خوانا دي فريبتيس عدة مرات، وكانت العناية الإلهية قد أدخلتها الحجرة في تلك اللحظة، أن الخطر الأكبر لم يكن الحبل السري، وإنما وضعية أمي غير الصحيحة في السرير. وقد أصلحت هي وضعها في الوقت المناسب، ولكن لم يكن من السهل إنعاشي، وهكذا رشتني العمة فرانثيسكا بماء العماد، بتعجل. كان عليهم أن يسموني أوليغاريو، وهو اسم القديس الذي يصادف عيده يوم مولدي. إلا أن أحداً لم يكن يملك سجل القديسين في متناول يده، ولهذا أطلقوا علي، بصورة عاجلة، الاسم الأول لأبي (غابرييل) يليه اسم خوسيه، نسبة إلى يوسف النجار، لأنه شفيع آراكاتاكا، ولأن الولادة جرت في شهر آذار الذي هو شهره. واقترحت السيدة خوانا فريبتيس إضافة اسم ثالث هو كونكورديا (الوفاق) احتفاء بالمصالحة العامة التي تمت بين الأسرة والأصدقاء بمجيئي إلى الدنيا، ولكنهم نسوا إضافته في وثيقة التعميد الرسمية التي صدرت بعد ثلاث سنوات: غابرييل خوسيه دي لا كونكورديا.

٢

في اليوم الذي ذهبت فيه مع أمي لبيع البيت، كنت أتذكر كل ما أثر في طفولتي، ولكنني لم أكن متأكداً مما هو سابق وما هو لاحق، أو ما الذي يعنيه كل ذلك في حياتي. وكنت أكاد لا أعي أنه وسط ازدهار شركة الموز الزائف، كان زواج أبويّ مقدراً، ضمن التحولات التي ستشكل الضربة القاضية لانحدار آراكاتاكا. فمنذ أن بدأتُ التذكر، كنتُ أسمع – أولاً بهمس شديد، وبعد ذلك بصوت عالٍ وبذعر – ترديد العبارة القدرية: "يقولون إن الشركة سترحل". ومع ذلك، إما أن أحداً لم يكن يصدق الأمر، وإمّا أن أحداً لم يكن يجرؤ على التفكير في آثاره المدمرة.

رواية أمي كانت تتضمن أرقاماً زهيدة ومشهداً فقيراً جداً، بالنسبة للمأساة الضخمة التي تصورتها أنا؛ مما سبب لي إحساساً بالإحباط. وقد تحدثتُ فيما بعد، إلى أحياء، وشهود عيان، ونبشت في مجموعات صحف ووثائق رسمية، وتبين لي أن الحقيقة لم تكن في أي جانب. فالموالون يقولون إنه لم يكن هناك، في الواقع، قتلى. ومن هم في الجانب الآخر يؤكدون، دون أي ارتعاش في الصوت، أنه سقط أكثر من مئة قتيل، وأنهم رأوهم ينزفون في الساحة، وأنهم حُملوا في قطار شحن

لرميهم في البحر، مثل الموز المرفوض. وهكذا ظلت حقيقتي ضائعة إلى الأبد في نقطة غير محتملة بين الطرفين. ولكنها كانت تُلح عليّ، حتى إنني أشرت في إحدى رواياتي، إلى المذبحة بالدقة والهول اللذين احتضنتها بهما، طوال سنوات في مخيلتي. وهكذا أبقيت الرقم عند ثلاثة آلاف، لكي أحافظ على الأبعاد الملحمية للمأساة. وقد انتهت الحياة الواقعية إلى منحي العدالة: فمنذ وقت قريب، وفي أحد أيام الذكرى السنوية للمأساة، طالب أحد المتكلمين في مجلس الشيوخ، بالوقوف دقيقة صمت، إحياء لذكرى الشهداء الثلاثة آلاف المجهولين الذين قتلتهم قوى الأمن العام.

لقد كانت مذبحة مزارع الموز، ذروة مذابح أخرى سابقة. ولكن مع ذريعة إضافية تشير إلى أن زعماء الإضراب هم من الشيوعيين. وربما كانوا كذلك. وقد تعرفتُ، مصادفة، على إدواردو ماهيتشا، أكثرهم بروزاً وشهرة، في سجن بارانكيا النموذجي، خلال تلك الفترة التي ذهبت فيها مع أمي لبيع البيت؛ وعقدت معه صداقة جيدة، منذ أن قدمت نفسي على أنني حفيد نيكولاس ماركيز. وكان هو من كشف لي أن جدي لم يكن محايداً، وإنما وسيطاً في إضراب عام ١٩٢٨ . وكان يعتبره رجلاً منصفاً. وهكذا استكمل لي الفكرة التي كانت لدي دوماً عن المجزرة، وكوّنتُ تصوراً أكثر موضوعية عن النزاع الاجتماعي. لقد كان الاختلاف الوحيد بين ذكريات الجميع، هو حول عدد القتلى. ولن يكون هذا هو اللغز الوحيد في تاريخنا.

كانت الروايات الكثيرة هي السبب في ذكرياتي الزائفة. وأكثر واحدة من تلك الذكريات إلحاحاً وثباتاً، هي عني أنا بالذات: أتذكر

نفسي واقفاً عند باب البيت، بقبعة نمساوية وبندقية لعبة، أشاهد استعراض كتيبة من الجنود الكاتشاكو المتعرقين تحت أشجار اللوز. وقد حياني أحد الضباط الذين يقودونهم في زي المراسم، لدى مروره:

– وداعاً يا نقيب غابي.

الذكرى واضحة، ولكن لا وجود لأي احتمال بأن تكون صحيحة. البدلة العسكرية، والقبعة، والبندقية وُجدت جميعها معاً، ولكن بعد حوالى سنتين من الإضراب، عندما لم تكن هناك قوات عسكرية في كاتاكا. أشياء كثيرة مثل هذه ولّدت لي في البيت، السمعة بأن لدي ذكريات من داخل الرحم، وأحلاماً تستبق الأحداث.

كانت تلك هي حال الدنيا عندما بدأتُ أعي جوي الأسري. ولا يمكنني استحضاره بطريقة أخرى: كروب، حنين، ارتياب، في عزلة بيت فسيح. لقد بدا لي، طوال سنوات، أن تلك الفترة قد تحولت بالنسبة لي، إلى كابوس يتواتر كل ليلة تقريباً، لأنني كنت أستيقظ بالرعب نفسه الذي كان يسيطر عليّ في حجرة القديسين. فخلال المراهقة، حين كنت تلميذاً داخلياً في مدرسة جليدية، في جبال الأنديز، كنت أستيقظ باكياً في منتصف الليل. وقد احتجت إلى هذه الشيخوخة الحالية من تأنيب الضمير، لكي أفهم أن تعاسة الجدين، في بيت كاتاكا، تتلخص في أنهما كانا طوال الوقت متورطين في حنينهم، وبصورة أكثر حدة، كلما سعوا للتطهر منه.

بل إن الأمر أكثر بساطة: لقد كانا يقيمان في كاتاكا، ولكنهما يواصلان العيش في مقاطعة بادييا، التي ما زلنا نسميها المقاطعة (بروبينثيا)، دون أية إضافات أخرى، كما لو أنه لا وجود لمقاطعة سواها

في العالم. وقد بنيا البيت في كاتاكا، ربما دون أن يفكرا في ذلك، كنسخة احتفالية من بيت باراتكيا الذي تظهر من نوافذه، في الجهة الأخرى من الشارع، المقبرة الكئيبة، حيث يرقد ميداردو باتشيكو. كانا محبوبين وراضيين في كاتاكا. ولكن حياتهما كانت خاضعة لعبودية مسقط رأسيهما. لقد تخندقا في أذواقهما، ومعتقداتهما، وأحكامهما المسبقة، وأغلقا الأبواب أمام كل ما هو مختلف.

أقرب صداقاتهما كانت قبل أي شيء، هي التي تأتي من المقاطعة. واللغة البيتية السائدة هي تلك التي جاء بها آباؤهما من إسبانيا، عبر فنزويلا، في القرن السابق، وأضفوا عليها الحيوية بكلمات وعبارات محلية كاريبية، وأفريقية من العبيد، ونتف من لغة غواخيرا التي كانت تتسرب قطرة فقطرة إلى لغتنا. وكانت الجدة تستخدم تلك العبارات لكي تضللني، دون أن تدري أنني أفهمها بصورة أفضل، بسبب تعاملي المباشر مع الخدم. وما زلت أتذكر الكثير من تلك العبارات: أتونكشي، أنا نعس؛ خاموسايتشي تايا، أنا جائع؛ إيبوتوس، المرأة الحبلى؛ آريخوانو: الغريب. وهذه الكلمة الأخيرة اعتادت جدتي أن تستخدمها للإشارة بطريقة ما، إلى الإسباني، والرجل الأبيض، وإلى العدو في نهاية المطاف. وكان الغواخيريون من جانبهم، يتكلمون دائماً نوعاً من القشتالية الخالية من العظام، مع ومضات مشعة، مثل لهجة الخادمة تشون، التي تتميز بدقة في التحديد إلى حد معيب، مما دفع جدتي إلى منعها، لأنها تحيل السامع، دون مفر، إلى تخيل مغالط، كقولها: "شفتا الفم"، مثلاً.

لم يكن اليوم يكتمل ما لم تصل الأخبار عمن ولد في بارانكاس،

وكم من الأشخاص قتل الثور في حظائر فونسيكا، ومن تزوج في ماناوري أو توفي في ريوهاتشا، وكيف طلع الصباح على الجنرال سوكاراس الذي كان بحالة خطرة في سان خوان دي ثيسر. لقد كان يباع في مخزن شركة الموز، بأسعار الأوكازيون، تفاح كاليفورنيا ملفوفاً بورق حرير، وأسماكٌ متحجرة في الثلج، وجامبون غاليسيا، وزيتون اليونان. ومع ذلك، لم يكن هناك ما يؤكل في البيت، ما لم يكن متبلاً بمرق الحنين: فقلقاس الحساء يجب أن يكون من ريوهاتشا، وذرة خبز الفطور يجب أن تكون من فونسيكا، والجديان يجب أن تكون قد رُبيت على ملح غواخيرا، والسلاحف وجراد البحر تأتي حية من ديبويا.

وهكذا فإن معظم الزائرين الذين يأتون يومياً، في القطار، يكونون قادمين من بروبينثيا (المقاطعة) أو مبعوثين من أحدٍ هناك. وتكون لهم على الدوام الكنى نفسها: آل رياسكو، آل نوغيرا، آل أوفايّه، مع تقاطع زيجات مع آل كوتيس أو آل إغواران. يأتون عابرين، وليس معهم سوى حقيبة معلقة بالكتف. وبالرغم من أنهم لا يعلنون مسبقاً عن زيارتهم، إلا أنه كان معروفاً أنهم سيبقون لتناول الغداء. ولم أنس قط، العبارة شبه الطقوسية التي كانت ترددها الجدة لدى الدخول إلى المطبخ: "يجب تحضير كل شيء، لأننا لا نعرف ما الذي يروق لمن سيأتون".

كانت روح الهروب الدائم تلك، تستند إلى واقع جغرافي. فقد كانت بروبينثيا تتمتع باستقلالية عالم خاص، وبوحدة ثقافية متماسكة وقديمة، في وادٍ خصيب بين جبلي سييرا نيفادا دي سانتا مارتا وسييرا دل بيريخا، في منطقة الكاريبي الكولومبية. وكان اتصالها بالعالم أسهل من اتصالها ببقية أنحاء البلاد، ذلك أن حياتها اليومية تتحدد

بصورة أفضل، من خلال حركة التجارة السهلة مع جامايكا وكوراساو. وتكاد تختلط بفنزويلا عبر حدود بوابات مفتوحة، لا تميز فيها بين المقامات الاجتماعية أو الألوان. أما من داخل البلاد التي كانت تُطهى على نار هادئة في مرقها بالذات، فلا يكاد يصل سوى صدأ السلطة: القوانين، الضرائب، الجنود، الأخبار السيئة التي تفرّخ على ارتفاع ألفين وخمسمئة متر، وعلى بعد ثمانية أيام من الإبحار، عبر نهر مجدلينا، في سفينة بخارية تتغذى على الحطب.

تلك الطبيعة الجزيرية المعزولة، أنجبت ثقافة راكدة ذات طبيعة خاصة، فرضها الجدان في كاتاكا. فالبيت كان قرية أكثر مما هو منزل. إذ هناك على الدوام عدة ورديات على المائدة. ولكن دور أول شخصين كان مقدساً، منذ بلغتُ الثالثة من عمري: الكولونيل على رأس المائدة وأنا على الزاوية التي إلى يمينه. وبقية الأماكن يشغلها الرجال أولاً، ثم النساء بعد ذلك، ولكن منفصلين بعضهم عن بعض. وكانت هذه القواعد تُكسر خلال احتفالات العيد الوطني في العشرين من تموز. وتستمر ورديات تناول الغداء إلى أن يأكل الجميع. أما في الليل فلا يجري إعداد المائدة، وإنما توزع فناجين قهوة بالحليب في المطبخ، مع حلويات الجدة الشهية. وعندما تُغلق الأبواب، يعلق كل واحد أرجوحة نومه أينما استطاع، على مستويات متعددة، وحتى بين أشجار الفناء.

إحدى أكثر فانتازيات تلك السنوات جموحاً، عشتها يوم حضرت إلى البيت جماعة رجال، بملابس وطماقات ومهاميز فرسان متشابهة، وقد رُسم على جباههم جميعاً صليب بالرماد. إنهم الأبناء الذين أنجبهم الكولونيل على امتداد أراضي بروبنشيا، خلال حرب الألف يوم. وقد

جاؤوا من قراهم لتهنئته بعيد ميلاده، متأخرين أكثر من شهر على الموعد. وقبل أن يحضروا إلى البيت كانوا قد استمعوا إلى قداس أربعاء الرماد، وبدا لي الصليب الذي رسمه الأب آنغاريتا على جباههم شعاراً خارقاً سيلاحقني غموضه طوال سنوات، حتى بعد أن تآلفت مع طقوس أسبوع الآلام المقدس.

لقد ولد معظمهم بعد زواج جديّ. فكانت الجدة مينا تسجل أسماءهم وكنياتهم في دفتر ملاحظات، منذ أن تعلم بميلادهم، وتنتهي بتسامح سهل إلى ضمهم، من كل قلبها، إلى عداد الأسرة. ولكن لم يكن بإمكانها أو بإمكان أي شخص آخر، أن يميز بينهم قبل تلك الزيارة الصاخبة التي كشف فيها كل واحد منهم عن طريقته في التميز. كانوا جديين ومجتهدين، أرباب بيوت، وأناساً مسالمين، ولكنهم لا يخشون مع ذلك فقدان رؤوسهم في دوار حفلات اللهو والسكر. كسروا الأطباق، ونتفوا الورود وهم يطاردون عجلاً للعب معه بوشاح المصارعة، وقتلوا الدجاجات بالرصاص من أجل طهو السانكوتشو، وأطلقوا خنزيراً مكتنزاً بالشحم اصطدم بالنساء اللواتي يطرزن في الممر. ولكن أحداً لم يأسف لتلك الأضرار، بسبب عاصفة السعادة التي حملوها معهم.

واصلتُ اللقاء بكثرة مع استيبان كاريّو، توءم العمة إلفيرا البارع في فنون الحرف البدوية، الذي كان يسافر ومعه صندوق عدة ليصنع المعروف بإصلاح أي عطل في البيوت التي يزورها. وقد ملأ بمزاجه المرح وذاكرته الجيدة، فراغات كثيرة من تاريخ الأسرة بدا لي الحصول عليها عصياً. وترددتُ بكثرة في مراهقتي كذلك، على خالي نيكولاس غوميث، ذي الشُقرة الكثيفة والنمش الأحمر. وقد حافظ على أحسن

وجه على مهنته الجيدة، كصاحب حانوت في مستوطنة سجن فونداثيون القديمة. ولتأثره بسمعتي كحالة ضائعة وميئوس منها، كان يحمّلني عند الوداع، كيس سوق يتضمن مؤونة جيدة من أجل مواصلة الرحلة. وكان رافائيل آرياس يأتي دوماً بصورة عابرة، ومستعجلة، على متن بغلة وبملابس ركوب الخيل. ويكاد لا يبقى لوقت أطول من تناول القهوة، وهو واقف في المطبخ. أما الآخرون فالتقيت بهم متفرقين، في رحلات الحنين التي قمت بها في ما بعد في قرى بروبينثيا، لكي أكتب رواياتي الأولى. وكنت أحن دوماً إلى صليب الرماد على جباههم، كعلامة فارقة مؤكدة لهويتهم الأسرية.

بعد سنوات من موت الجدين وهجر البيت الفخم، ذهبتُ إلى فونداثيون في قطار الليل، وجلست في محل بيع المأكولات الوحيد المفتوح في تلك الساعة في المحطة. لم يكن قد تبقى لديهم إلا القليل لتقديمه. ولكن صاحبة المحل أعدّت على عجل طبقاً جيداً على شرفي. كانت امرأة مرحة وخدوماً، وفي مركز تلك الفضائل الأليفة، لمحتُ طبع نساء قبيلتنا القوي. وقد تأكدتُ من ذلك بعد سنوات: فصاحبة المطعم الجميلة هي سارا نوريغا، خالة أخرى من خالاتي المجهولات.

أبولينار، العبد الصغير القديم، ومتين البنية الذي تذكرته على الدوام كخال لي، اختفى من البيت طوال سنوات عديدة. وفي مساء أحد الأيام، عاد للظهور دون سبب، مرتدياً ملابس حِداد: بذلة من الجوخ الأسود وقبعة ضخمة، سوداء اللون أيضاً، وغاطسة في رأسه حتى عينيه الصموتين. وقد قال لدى مروره في المطبخ إنه آتٍ من أجل الجنازة. لكن أحداً لم يفهمه حتى اليوم التالي، عندما وصل الخبر بأن

الجد قد مات للتو، في سانتا مارتا. وكان قد نُقل إليها بصورة مستعجلة ومتكتمة.

الشخص الوحيد منهم الذي حقق شهرة عامة، هو أكبرهم جميعاً والمحافظ الوحيد بينهم، خوسيه ماريا بالديبلانكيث، الذي صار عضواً في مجلس شيوخ الجمهورية، خلال حرب الألف يوم، وحضر بصفته هذه توقيع استسلام الليبراليين في مزرعة نيرلانديا القريبة. ومقابله، في جانب المهزومين، كان يجلس أبوه.

أظن أنني مدين بجوهر طريقتي في الحياة والتفكير، لنساء الأسرة ونساء الخدمة الكثيرات اللواتي رعين طفولتي. لقد كن يتمتعن بقوة الشخصية وطيبة القلب. وكن يعاملنني بتلقائية الفردوس الأرضي. وبين الكثيرات اللواتي أتذكرهن، كانت لوثيا هي الوحيدة التي فاجأتني بخبثها الصبياني، عندما أخذتني إلى زقاق الضفادع، ورفعت ثوبها حتى الخصر لتكشف لي عن شعر عانتها النحاسي المنفوش. غير أن ما شدّ انتباهي هو لطخة القُوباء، ذات البقع الحمراء الممتدة على بطنها مثل خريطة العالم، بكثبان بنفسجية ومحيطات صفراء. أما الأخريات فكن يبدون ملائكة طهارة: فقد كن يبدلن ملابسهن أمامي، ويحممنني بينما هن يستحممن، ويُجلسنني على مبولتي ويجلسن على مباولهن قبالتي، لكي يفضين بأسرارهن، وأحزانهن، وأحقادهن، كما لو أنني لا أفهم، ودون أن ينتبهن إلى أنني أعرف كل شيء، لأني كنت أربط أطراف الخيوط التي يتركنها لي هن أنفسهن مفلتة.

كانت تشون واحدة من الخدم ومن الشارع. جاءت من بارانكاس مع الجدين، وهي لا تزال طفلة، وقد ترعرعت في المطبخ، ولكن مندمجة في

الأسرة، وكانت المعاملة التي تلقاها، هي معاملة خالة ووصيفة مرافقة، منذ أن قامت بالرحلة إلى بروينثيا مع أمي العاشقة. وقد انتقلت في سنواتها الأخيرة إلى حجرة خاصة بها، في أفقر أحياء القرية، برغبة حقيقية منها. وكانت تعيش هناك على بيع كرات من الذرة المطحونة لصنع الخبز. وتفعل ذلك في الشارع، منذ الفجر، وبنداء صار مألوفاً في صمت الصباح الباكر: "كرات عجين العجوز تشون المثلجة..."

كان لها لون هندية جميل. وقد بدت على الدوام كما لو أنها مجرد عظام. وكانت تمضي حافية القدمين، معتمرة عمامة بيضاء وملتحفة بملاءات منشاة. تمشي ببطء شديد في وسط الشارع، يرافقها موكب كلاب وديعة وصامتة، تدور من حولها في تقدمها. وقد انتهى الأمر بضمها إلى فولكلور القرية. وظهر في أحد الكرنفالات من تنكر في هيئة مطابقة لها، بملاءاتها ونداءاتها. ولكنه لم يتمكن من ترويض كوكبة كلاب مثل كلابها. وقد صار نداؤها على العجين المثلج شعبياً، إلى حد التحول إلى موضوع أغنية لعازفي الأكورديونات الجوالين. وفي صباح يوم مشؤوم، هاجم كلبان مسعوران كلابها، فدافعت تلك الكلاب عن نفسها بضراوة، وقعت معها تشون أرضاً، وكُسر عمودها الفقري. ولم تستطع تجاوز إصابتها تلك، على الرغم من الإمكانيات الطبية الكثيرة التي وفرها لها جدي.

ذكرى كاشفة أخرى من تلك الأزمنة، هي ولادة ماتيلدي أرمينتا، الغسالة التي اشتغلت في البيت عندما كنتُ في حوالي السادسة من عمري. فقد دخلتُ خطأً إلى غرفتها ووجدتها عارية ومنفرجة الساقين، على سرير من الكتان، تولول من الألم وسط عُصبة من القابلات، توزعن

حول جسدها دون نظام أو دراية لمساعدتها على الولادة بإطلاق الصرخات. كانت إحداهن تمسح العرق عن وجهها بمنشفة مبللة، وأخريات يثبتن ذراعيها وساقيها ويدلكن بطنها لتعجيل المخاض. وكانت سانتوس بييّرو تغمغم، وسط تلك الفوضى، بصلوات تتمنى بحراً هادئاً، بينما هي تنبش، بعينين مغمضتين، بين فخذي الوالدة. كان الحر لا يطاق في الحجرة المفعمة بالبخار المتصاعد من قدور الماء المغلي التي يؤتى بها من المطبخ. بقيتُ منزوياً في أحد الأركان، موزعاً بين الذعر والفضول، إلى أن أخرجت القابلة كتلة لحم حية ممسوكة من كاحليها، مثل عجل وليد، ومعها مصران دام يتدلى من السرة. عندئذ اكتشفت إحدى النساء وجودي في الركن، وسحبتني خارج الحجرة.

- إنك في خطيئة مميتة - قالت لي ذلك، وأمرتني وهي تهز إصبعاً متوعداً: - لا تعد إلى تذكر ما رأيته.

أما المرأة التي انتزعت براءتي حقاً، بالمقابل، فلم تتعمّد ذلك، ولم تعرف به قط. كانت تدعى ترينيداد، وهي ابنة أحد العاملين في البيت، وقد بدأت تتفتح في ربيع قاتل. لقد كانت في الثالثة عشرة من عمرها، ولكنها لا تزال ترتدي ملابسها التي كانت لها وهي في التاسعة، فكانت ضيقة على جسدها إلى حد تبدو معه عارية أكثر مما لو كانت دون ملابس. وفي إحدى الليالي التي كنا فيها وحيدين في الفناء، انطلقت فجأة موسيقى جوقة في البيت المجاور، فسحبتني ترينيداد للرقص بعناق قوي افتقدتُ معه النفس. لست أدري ما الذي حلّ بها. ولكنني ما زلت حتى اليوم، أستيقظ في منتصف الليل مضطرباً من الانفعال، وأنا أعرف أنه يمكنني التعرف عليها في الظلام،

من تلمس كل بوصة في بشرتها، ومن رائحتها الحيوانية. وفي لحظة واحدة، وعيتُ جسدي، ببصيرة الغرائز التي لم أعد إلى الشعور بمثلها قط، وإلى الأبد، وأجرأ على تذكرها كحالة موت لذيذ. منذ ذلك الحين، علمتُ بصورة غائمة وغير واقعية، بأن هناك سراً بعيد الغور لا أعرفه أنا، ولكنه يقلقني كما لو أنني أعرفه. أما نساء الأسرة، وعلى العكس من ذلك، فكنّ يقدنني على الدوام إلى وجهة العفة القاحلة.

وقد علمني فقدان البراءة، في الوقت نفسه، أن من يأتي لنا بالهدايا في عيد الميلاد، ليس الطفل يسوع، ولكنني كنتُ حذراً من قول ذلك. وعندما صار عمري عشر سنوات، كشف لي أبي الأمر، كسرٍّ من أسرار الكبار، ولكنه كان يعتبر معرفتي له أمراً واقعاً. وقد أخذني إلى متاجر ليلة الميلاد، لأختار ألعاباً ودمى لأخوتي. وحدث لي الشيء نفسه مع سرّ الولادة، قبل أن أحضر ولادة ماتيلدي أرمينتا: كنت أختنق بالضحك عندما يقولون إن طائر اللقلق هو الذي يأتي بالأطفال من باريس. إلا أنه لا بد لي من الاعتراف بأنني لم أتوصل، سواء الآن أو في الماضي، إلى ربط الولادة بالجنس. وعلى أي حال، أعتقدُ أنه يمكن لعلاقتي الحميمة بالخدم، أن تكون الأصل في خيط تواصل سري، أظن أنني أمتلكه مع النساء، أتاح لي على امتداد حياتي الشعور بالراحة والأمان بينهن أكثر مما أشعر بهما بين الرجال. ويمكن أن تكون قد أتت من هناك أيضاً قناعتي بأنهن هنّ عماد حماية العالم، بينما نشيع، نحن الرجال، فيه الفوضى بهمجيتنا التاريخية.

لقد كان لسارا إميليو ماركيز، دون أن تدري ذلك، بعض العلاقة بقدري. فمنذ صباها، كان المترددون يلاحقونها دون أن تتنازل بالنظر

إليهم. ثم حسمت أمرها مع أول شخص بدا لها مناسباً، وإلى الأبد. كان هناك شيء مشترك بين الرجل المختار وأبي؛ فهو غريب لا يعرف أحد من أين جاء، ولا كيف جاء، بسجل حياة نظيف، ولكن بلا موارد معروفة. كان اسمه خوسيه دل كارمن أوريبي بيرخيل، ولكنه يقصر توقيعه أحياناً على "خ. دل ك." وقد مرّ بعض الوقت، قبل أن نعرف من هو في الحقيقة، ومن أين أتى، إلى أن عُرف ذلك من خلال الخطابات التي يُكلف بكتابتها للموظفين الحكوميين، ومن خلال أشعار الحب التي ينشرها في مجلته الثقافية الخاصة، التي كان صدورها يعتمد على مشيئة الرب. منذ أن ظهر في البيت، أحسست بتقدير كبير لشهرته ككاتب. وهو أول كاتب تعرفت عليه في حياتي. وقد رغبت على الفور في أن أكون مثله. ولم أشعر بالرضى إلا بعد أن تعلمت الخالة ميمي تسريح شعري، على طريقته.

كنت أول شخص في الأسرة يعرف بأمر غرامياته السرية، عندما دخل في إحدى الليالي إلى البيت المقابل، حيث كنتُ ألعب مع بعض الأصدقاء. فاستدعاني جانباً، وهو في حالة من التوتر الواضح، وأعطاني رسالة موجهة إلى سارا إميليا. كنتُ أعرف أنها جالسة عند باب بيتنا، تتبادل الحديث مع صديقة زائرة. اجتزت الشارع، واختبأت وراء إحدى أشجار اللوز، وقذفت الرسالة بدقة سقطت معها في حضنها. رفعت يديها مذعورة، ولكن الصرخة بقيت مكتومة في حنجرتها، عندما تعرفت على الخط المكتوب على المغلف. وقد صارت سارا إميليا و "خ. دل ك." صديقيّ، منذ ذلك اليوم.

كانت إلفيرا كاريّو، الشقيقة التوم للخال إستيبان، تلوي وتعصر

عود قصب سكر بيديها، وتستخرج عصارته بقوة معصرة زيت. وكانت مشهورة بصراحتها الفظة، أكثر من شهرة رقتها في تسلية الأطفال، وبخاصة أخي لويس إنريكي، الذي يصغرني بسنة. فكانت المتواطئة معه وسيدته في الوقت نفسه، وقد عمّدها باسم الخالة "با" الذي لا يمكن سبر أغواره. كانت متخصصة على الدوام، بالمشكلات المستحيلة. وكانت هي وإستيبان، أول من جاء إلى البيت في كاتاكا. ولكن بينما وجد هو طريقه في كل أنواع المهن والصفقات المثمرة، ظلت هي الخالة التي لا غنى عنها في الأسرة، دون أن تدرك قط أنها كذلك. كانت تختفي عندما لا تكون ثمة حاجة إليها. أما عند الحاجة إليها، فلا يعرف أحد أبداً كيف، ولا من أين تخرج. في لحظات نحسها، تتكلم وحدها، بينما هي تحرك القدر. وتكشف بصوت عال، أين هي الأشياء التي اعتُبرت ضائعة. بقيت في البيت، بعد أن انتهت من دفن الكبار، بينما الأجمة تلتهم المكان شبراً فشبراً، والحيوانات تطوف في حجرات النوم، مشوشة منذ منتصف الليل بسعال مما وراء القبر في الحجرة المجاورة.

فرانثيسكا سيمودوسيا - العمة ماما -، جنرالة القبيلة التي ماتت عذراء، وهي في التاسعة والسبعين، كانت مختلفة عن الجميع بعاداتها ولغتها. فثقافتها لم تكن ثقافة بروبينثيا، وإنما ثقافة الفردوس الإقطاعي في سهول مقاطعة بوليفار، حيث كان أبوها خوسيه ماريا ميخيا بيدال، قد هاجر منذ شبابه المبكر آتياً من ريوهاتشا بفنونه في الصياغة. تركت شعرها السميك الداكن، الذي قاوم الشيب بعد تقدمها في الشيخوخة، ينمو حتى عرقوبيها. وكانت تغسله مرة كل أسبوع بماء خلاصات الأعشاب، ثم تجلس لتسرحه عند باب حجرتها، في طقس

مقدس يستمر عدة ساعات، مستهلكة دون توقف، لفائف تبغ خشن، تدخنها معكوسة، بوضع الطرف المشتعل داخل فمها، مثلما كان يفعل رجال جيوش التحرير، كيلا يكتشف العدو وجودهم في ظلام الليل. كما أن طريقتها في اللبس كانت مختلفة أيضاً. فهي ترتدي تنورات، وصدارات دون أكمام من الكتان الخالص، وتنتعل أخفافاً من المخمل.

وعلى خلاف تعفف الجدة الاصطفائي في الكلام، كان لسان العمة ماما هو الأكثر طلاقة في رطانة اللهجة الشعبية. ولم تكن تخفي ذلك أمام أي كان أو في أية ظروف، فهي تعلن الحقائق لكل واحد في وجهه. بمن في ذلك إحدى الراهبات، وهي معلمة أمي في مدرسة سانتا مارتا الداخلية. فقد أوقفتها عند حدها بوقاحة سوقية: "أنت ممن يخلطون بين طيزهم ومواسم الصيام". ومع ذلك، كانت تتدبر الأمور على الدوام، بحيث لا تبدو فظة ولا مهينة.

كانت خلال نصف حياتها، أمينة مفاتيح المقبرة. تقيِّد وتصدر شهادات الوفاة، وتصنع في البيت خبز القربان من أجل القداس. وكانت الشخص الوحيد، من أي جنس، في الأسرة، التي لم يخترق قلبها، كما يبدو، أسى غرام مرفوض. وقد وعينا ذلك في إحدى الليالي، عندما كان الطبيب يعد العدة ليفحصها بالتسمع إلى نبضها، فمنعته بمبرر لم أفهمه آنذاك: "أريد أن أنبهك يا دكتور إلى أنني لم أعرف رجلاً قط".

وقد بقيتُ أسمعها، منذ ذلك الحين، تقول ذلك بكثرة، ولكنني لم ألحظ قط أنها تشعر بالفخر أو الندم، وإنما تقوله كأمر واقع لم يخلّف أي أثر في حياتها. وكانت بالمقابل، خطّابة وساعية زواج داهية، لا بد أنها عانت من لعبتها المزدوجة بإعداد مخدع والديّ، دون أن تتخلى عن وفائها للجدة مينا.

لدي انطباع بأنها كانت تتفاهم مع الأطفال، أكثر من تفاهمها مع الكبار. وكانت هي من تولت أمر سارا إيميليا، إلى أن انتقلت هذه إلى غرفة كتيبات قصص كاييخا المصورة. عندئذ احتضنتني أنا ومرغريتا بدلاً منها، مع أن الجدة واصلت الاهتمام بأمر نظافتي الشخصية، وتولى الجد أمر تكويني كرجل.

أكثر ذكرياتي إثارة للقلق، في ذلك الزمن، هي ذكرى العمة بيترا، أخت الجد الكبرى، التي جاءت من ريوهاتشا لتعيش مع الجدين عندما فقدت بصرها. كانت تقيم في الحجرة الملاصقة لغرفة المكتب، حيث أقيمت ورشة الصياغة فيما بعد، وقد طوّرت مهارة سحرية لكي تتحرك في ظلماتها دون مساعدة من أحد. مازلت أتذكرها كما لو أن ذلك حدث بالأمس، تمشي دون عكاز وكأنها تمشي بعينيها، بطيئة ولكن دون تردد، وتقود نفسها عن طريق مختلف الروائح وحسب. فهي تعرف حجرتها من رائحة حمض الهيدروكلوريك في ورشة الصياغة المجاورة، والممر من عطر ياسمين الحديقة، ومخدع الجدين من رائحة كحول الخشب الذي يستخدمه كلاهما لتدليك جسديهما قبل النوم، وحجرة العمة ماما من رائحة الزيت في مصابيح المذبح، وفي نهاية الممر، هناك رائحة المطبخ اللذيذة. كانت ممشوقة القوام وقليلة الكلام، لها بشرة أزهار سوسن ذاوية، وشعر مشع بلون الصدف تتركه منسدلاً حتى خصرها، وتتولى هي نفسها العناية به. حدقتاها الخضراوان والصافيتان كعيني مراهقة، يتبدل ضوءهما مع تبدل حالتها المعنوية. ولكن خروجها كان عابراً وعرضياً على أي حال، ذلك أنها كانت تبقى طوال اليوم، في حجرتها ببابها الموارب، ووحيدة على الدوام تقريباً. كانت تغني لنفسها

همساً في بعض الأحيان. ويمكن الخلط عندئذ بين صوتها وصوت الجدة مينا، ولكن أغنياتها كانت مختلفة وأشد حزناً. وقد سمعتها تقول لأحدهم إنها أغنيات حب من ريوهاتشا. ولكنني عندما كبرت فقط، عرفت أنها كانت ترتجلها، هي نفسها في الواقع هناك بالذات، بينما هي تغنيها. لم أستطع كبح نفسي في مناسبتين أو ثلاث من الانقياد لإغراء الدخول إلى حجرتها دون أن ينتبه إليّ أحد، ولكنني لم أجدها. بعد سنوات من ذلك، خلال إحدى إجازاتي، في مرحلة الدراسة الثانوية، رويت تلك الذكريات لأمي، فسارعت إلى إقناعي بخطئي. وقد كانت حجتها مطلقة الصحة، واستطعتُ التأكد منها، دون أي رماد شك: فالعمة بترا ماتت قبل أن أكمل السنة الثانية من عمري.

كنا نطلق على العمة وينفريدا اسم نانا، وكانت أكثر نساء القبيلة مرحاً ولطفاً. ولكنني لا أستطيع تذكرها، إلا وهي على فراش مرضها. كانت متزوجة من رافائيل كينتيرو أورتيغا - العم كينتي - محامي فقراء، مولود في تشيا، على بعد حوالي خمسة عشر فرسخاً عن بوغوتا، وعلى الارتفاع نفسه عن سطح البحر. ولكنه تكيّف على أحسن وجه مع منطقة الكاريبي، حتى إنه كان يحتاج في جحيم كاتاكا، إلى زجاجات ماء ساخن عند قدميه، لكي ينام في برودة كانون الأول. كانت الأسرة قد استعادت توازنها من محنة ميداردو باتشيكو، عندما اضطر العم كينتي إلى تحمل معاناة محنته، بعد إقدامه على قتل محامي الخصم في نزاع قضائي. كانت له هيئة رجل طيب ومسالم، ولكن الخصم ضايقه دون هوادة، ولم يعد أمامه من مفرّ سوى التسلح. لقد كان ضئيلاً جداً وعظمياً نحيلاً، ينتعل أحذية طفل، وأصدقاؤه يسخرون منه بمودة، لأن

المسدس كان يبرز منه كما لو أنه يحمل مدفعاً تحت قميصه. وقد حذره الجدُّ جدياً بعبارته الشهيرة: "أنت لا تعرف ثقل الغم الذي يخلّفه قتيل". ولكن العم كينتي لم يجد الوقت الكافي للتفكير في ذلك عندما اعترض العدو طريقه بصرخات هستيرية، في قاعة الانتظار في المحكمة، ثم انقض عليه بجسده الضخم. "لم أدرِ كيف أخرجتُ المسدس وأطلقت النار في الهواء، بكلتا يديّ، وبعينين مغمضتين". هذا ما قاله لي العم كينتي، قبل قليل من موته عن مئة سنة. وروى لي: "عندما فتحت عيني، رأيته لا يزال منتصباً على ساقيه، ضخماً وشاحباً؛ ورأيت كيف راح يهوي ببطء شديد، إلى أن خرّ جالساً على الأرض." لم يكن العم كينتي قد أدرك، حتى تلك اللحظة، أنه قد أصابه في منتصف جبهته. سألته عما أحس به عندما رآه يهوي، وقد فاجأتني صراحته:

– أحسست براحة عظيمة!

ذكراي الأخيرة عن زوجته وينفريدا، هي في ليلة أمطار عظيمة، عزَمت عليها فيها امرأة مشعوذة. لم تكن ساحرة عادية، وإنما امرأة لطيفة، حسنة المظهر وترتدي ملابس دارجة، تطرد بعرق من نبات القُرّاص العلل من الجسد، بينما هي تغني رقية تشبه أغنيات المهد. وفجأة، تلوّت نانا بتشنج اختلاجة عميقة، وأفلت من بين ملاءات سريرها عصفورٌ بحجم فرخ دجاج له ريش لامع. التقطته المرأة من الهواء بضربة بارعة من يدها، ولفته بخرقة سوداء جاهزة معها. ثم أمرت بإشعال محرقة في الفناء الخلفي، وألقت بالعصفور بين ألسنة اللهب، دون أي طقوس أخرى. ولكن نانا لم تشف من عللها.

بعد قليل من ذلك، أعيد إشعال محرقة الفناء، عندما وضعت

دجاجةٌ بيضة عجيبة تشبه كرة بنغ بونغ، لها زائدة مثل التي في أعلى قبعة الثورة الفرنسية. وقد تعرفت عليها جدتي فوراً: "إنها بيضة أفعى صناجة"[١]. وألقت بها بنفسها إلى النار وهي تغمغم بتراتيل رقية.

لا أستطيع أن أتخيل جديّ في سن غير تلك التي هما عليها، في ذكرياتي عن تلك المرحلة. وهي الحقبة نفسها التي التُقطت لهما فيها صور في مستهل شيخوختهما. وقد جرى تناقل نُسَخِها التي تزداد شحوباً عبر أربعة أجيال من ذريتهما، كطقس قبلي. وبخاصة صور الجدة ترانكيلينا، أسرع النساء اللواتي عرفتهن تصديقاً وقابلية للتأثر، بسبب الذعر الذي كانت تسببه لها أسرار الحياة اليومية الغامضة. لقد كانت تحاول بعث البهجة في أعمالها، بالغناء، بأعلى صوتها الهرم، أغنيات عاشقين. ولكنها تقطعها فجأة بصرخة الحرب التي تطلقها ضد القدر:

– يا قديسة مريم الطاهرة!

فقد كانت ترى أن الكراسي الهزازة تهتز وحدها، وأن شبح حمى النفاس، قد تسلل إلى حجرات الولادات، وأن رائحة شجيرات ياسمين الحديقة هي شبح غير مرئي، وأن حبلاً ملقى على الأرض كيفما اتفق، له شكل أرقام يمكن أن تربح الجائزة الكبرى في اليانصيب، وأن طائراً بلا عيون، قد ضلّ داخل غرفة الطعام ولن يستطيعوا إخراجه إلا بترتيل التعظيمة[٢] مغناة. وتعتقد بأنها تحل برموز سرية هوية أبطال وأماكن الأغنيات التي تصل من بروفينشيا. كانت تتصور كوارث ستقع عاجلاً أو

(١) أفعى صناجة basilisco، أفعى خرافية يُعتقد بأنها تميت بنظرتها.
(٢) التعظيمة Magnificat، نشيد توجهت به مريم العذراء إلى الرب عندما زارت نسيبتها إيزابيل، ويغنى هذا النشيد عادة في صلاة المساء عشية عيد الميلاد، وهو وارد في الإصحاح الأول من إنجيل لوقا (الآيات ٤٦ حتى ٥٥).

آجلاً، وتحدس من الذي سيأتي من ريوهاتشا بقبعة بيضاء، أو من مانأوري، مصاباً بمغص لن يشفى منه إلا بمرارة نسر رخمة، إذ إنها كانت مداوية سرية، فضلاً عن كونها متنبئة في المهنة.

كان لديها نظام خاص جداً لتفسير أحلامها وأحلام الآخرين التي تحكم السلوك اليومي، لكل واحد منا، وتقرر مسار حياة البيت. ومع ذلك، فقد أوشكت أن تموت دون نبوءات أو نذر، عندما أزاحت جانباً في أحد الأيام ملاءات سريرها دفعة واحدة، وأطلقت رصاصة من المسدس الذي كان الكولونيل يخبئه تحت الوسادة، ليكون في متناول يده، وهو نائم. ومن خلال مسار الطلقة التي انغرست في السقف، تبين أنها قد مرت قريباً جداً من وجه الجدة.

لقد عانيتُ، منذ صارت لي ذاكرة، من التعذيب الصباحي الذي كانت تُفرِّشُ به مينا أسناني، بينما هي تتمتع بالامتياز السحري بنزع أسنانها، لتغسلها وتضعها في كأس ماء، في أثناء نومها. ولقناعتي بأنها أسنانها الطبيعية التي تنزعها وتضعها، متى شاءت، بفنون سحر غواخيرية، طلبت منها أن تريني جوف فمها، لكي أرى كيف هو من الداخل قفا العينين، والدماغ، والأنف، والأذنين. وعانيت خيبة أمل عدم رؤية أي شيء سوى سقف الحلق. ولكن أحداً لم يفسر لي أعجوبة الأسنان. وقد ألححتُ لوقت طويل على أن يفعل لي طبيب الأسنان مثل الجدة، لكي تُفَرِّش لي أسناني بينما أنا ألعب في الشارع.

كان لدينا نوع من الشيفرة السرية، نتواصل كلانا بوساطتها مع كون غير مرئي. في النهار، يبدو لي عالمها السحري أخاذاً، ولكنه في الليل يسبب لي رعباً خالصاً وبسيطاً: الخوف من الظلمة، السابق

لوجودنا، الذي طاردني طوال الحياة، في الدروب المقفرة، وحتى في أوكار الرقص في العالم بأسره. لقد كان لكل قديس في بيت الجدين حجرته، وكل حجرة لها ميتها. ولكن البيت الوحيد المعروف باسم "بيت الميت" هو المجاور لبيتنا. وميته هو الوحيد الذي عرَّف بنفسه، في إحدى جلسات استحضار الأرواح، باسمه الآدمي: ألفونسو مورا. وقد كلف أحد القريبين منه نفسه مشقة التقصي عنه في سجلات التعميد والوفيات، فوجد عديدين بهذا الاسم نفسه. ولكن أياً منهم لم يكشف عما يشير إلى أنه رجلنا. لقد كان ذلك البيت خلال سنوات منزلاً للخوري، وقد ازدهرت الإشاعة القائلة إن الشبح هو الأب أنغاريتا نفسه، يظهر لكي يُبعد الفضوليين الذين يتجسسون عليه في جولاته الليلية.

لم أتوصل إلى التعرف على ميمي، الجارية الغواخيرية التي جاءت بها الأسرة من باراتكاس، وهربت في ليلة عاصفة مع أليريو، أخيها المراهق. ولكنني كنت أسمع على الدوام أنهما من لطخا كلام البيت بمفردات من لغة السكان المحليين. لقد كانت قشتاليتها العويصة مثار دهشة الشعراء، منذ ذلك اليوم التاريخي الذي وجدت فيه علبة الكبريت التي أضاعها الخال خوان دي ديوس، فأعادتها إليه برطانة انتصارية:

– هاأنذا، كبريتك.

من الصعب تصديق أن الجدة مينا، مع نسائها الساهيات، كن عماد اقتصاد البيت عندما بدأت الموارد تنضب. كان الكولونيل يملك أراضي متفرقة احتلها مستوطنون من الكاتشاكو، ورفض هو طردهم منها. واضطر في لحظة ضيق، من أجل إنقاذ شرف أحد أبنائه، إلى رهن البيت في كاتاكا. وكلفه عدم فقدانه ثروة كبيرة. وعندما لم يعد هناك أي

شيء، واصلت مينا إعالة الأسرة بقوة عملها في المخبز، وبحيوانات السكاكر التي كانت تباع في القرية كلها، والدجاجات متعددة الألوان، وبيض البط، وخضار الفناء الخلفي. قامت بتقليص جذري في عدد الخدم واستبقت أكثرهم فائدة. وانتهى الأمر بالمال نقداً إلى فقدان معناه، في تقاليد البيت الشفوية. حتى إنهم عندما أرادوا شراء جهاز بيانو لأمي، بعد عودتها من المدرسة، أجرت العمة "با" الحساب الدقيق بالنقد المنزلي: "ثمن البيانو خمسمئة بيضة".

وسط تلك الكتيبة من النساء الانجيليات، كان الجد هو الأمان الكامل لي. فمعه فقط يتلاشى القلق، وأشعر بأن قدمي على الأرض، وأنني مستقر تماماً في الحياة الواقعية. والغريب، وأنا أفكر في الأمر الآن، هو أنني كنت أرغب في أن أصير مثله، واقعياً، شجاعاً، واثقاً بنفسي. ولكنني لم أستطع قط أن أقاوم الإغراء الدائم في الإطلال على عالم الجدة. إنني أتذكره بديناً ومتورداً، مع قليل من الشيب في رأسه اللامع، بشارب كأنه فرشاة، حسن التشذيب، ونظارة مدورة ذات إطار ذهبي. كان متمهلاً في كلامه، متفهماً، ومصالحاً في أوقات السلم، ولكن أصدقاء المحافظين يتذكرونه كعدو مرهوب في النزاعات الحربية.

لم يستخدم زياً عسكرياً قط، لأن رتبته كانت ثورية، وليست أكاديمية. ولكنه إلى ما بعد الحرب بكثير، ظلّ يرتدي السترة متعددة الجيوب، التي شاع استخدامها بين محاربي الكاريبي القدماء. ومنذ صدور قانون متقاعدي الحرب، ملأ الاستمارات اللازمة ليحصل على تقاعده، وبقي هو وزوجته وورثته المقربون ينتظرون ذلك التقاعد حتى الموت. جدتي ترانكيلينا التي ماتت بعيداً عن ذلك البيت، عمياء،

وهرمة ونصف مجنونة، قالت لي في آخر لحظات صحوها: "سأموت مطمئنة، لأنني أعرف أنكم ستتلقون راتب نيكولاسيتو التقاعدي".

وكانت تلك هي المرة الأولى التي أسمع فيها الكلمة الأسطورية التي زرعت، في الأسرة، بذرة الأوهام الأبدية: التقاعُد. لقد دخلت الكلمة إلى البيت قبل مولدي، عندما أقرت الحكومة تقاعد قدماء مقاتلي حرب الألف يوم. والجد شخصياً هو الذي أعدّ الملف، مع إفراط في الشهادات المحلفة ووثائق الإثبات. وحملها بنفسه إلى سانتا مارتا لتوقيع بروتوكول الاستلام. ووفق أقل الحسابات تفاؤلاً، كان المبلغ كافياً له ولذريته حتى الجيل الثاني. وكان الجد يقول لنا: "لا تقلقوا، فأموال التقاعد ستكفي الجميع." والبريد الذي لم يكن مستعجلاً قط في الأسرة، تحول منذ ذلك الحين إلى مبعوث العناية الإلهية.

أنا نفسي لم أتمكن من تجنب الأمر، على الرغم من شحنة الارتياب التي أحملها بداخلي. ومع ذلك، كانت ترانكيلينا تبدي، في بعض المناسبات، مزاجاً لا يتناسب مع اسمها أبداً[1]. ففي حرب الألف يوم، سُجن جدي في ريوهاتشا، على يد ابن عم لها كان ضابطاً في جيش المحافظين. وقد فهم الأقرباء الليبراليون، وهي نفسها، الأمر على أنه عمل حربي لا نفع حياله لأي سلطة أسرية. ولكن عندما علمت الجدة بأن زوجها يعامل في السجن كمجرم عادي، واجهت ابن عمها بغضب، وأجبرته على تسليمها إياه، سليماً معافى.

عالم الجد كان مختلفاً إلى حد كبير. فحتى في سنواته الأخيرة، كان يبدو وافر النشاط، وهو يتنقل من مكان إلى آخر، حاملاً صندوق

(١) اسمها ترانكيلينا يعني هادئة .

عدّته لإصلاح الأعطال في البيت؛ أو عندما يرفع ماء الحمام، طوال ساعات، إلى البراميل، بوساطة المضخة اليدوية في الفناء الخلفي؛ أو عندما يتسلق السلم الشاهق ليتأكد من كمية الماء في البراميل. ولكنه كان يطلب مني، بالمقابل، أن أعقد له رباط، حذائه لأنه يفقد أنفاسه عندما يحاول عمل ذلك بنفسه. وقد نجا من الموت بأعجوبة، في صباح اليوم الذي حاول فيه أن يمسك الببغاء العمياء التي صعدت حتى البراميل. كان قد تمكن من الإمساك بخناقها، عندما زلت قدمه فجأة، فانزلق عن الجسر الصغير، وهوى على الأرض، عن ارتفاع أربعة أمتار. لم يستطع أحد أن يفسر كيف استطاع النجاة، بالتسعين كيلوغراماً التي يزنها، وسنوات عمره التي تزيد على الخمسين. وكان ذلك اليوم هو يومي التاريخي الذي فحصه فيه الطبيب، شبراً شبراً، وهو عار في السرير، وسأله عن ندبة قديمة بطول نصف بوصة تقريباً، اكتشفها في أصل الفخذ. فقال الجد:

– إنه أثر رصاصة في الحرب.

حتى الآن لم أشفَ من التأثر. مثلما لم أشفَ، بعد، من اليوم الذي أطل فيه إلى الشارع، من نافذة مكتبه، ليرى مرور حصان مشهور يريدون بيعه، وفجأة أحس بامتلاء عينه ماءً. حاول حمايتها بيده فبقيت في راحته بضع قطرات من سائل شفاف. لم يفقد عينه اليمنى وحسب، وإنما لم تسمح له جدتي كذلك بشراء الحصان المسكون بالشيطان. استخدم لوقت قصير عصابة قرصان فوق محجر عينه الغائمة، إلى أن استبدلها له طبيب العيون بنظارة حسنة المقاس، ووصف له عكازاً انتهى لأن يكون علامة مميزة له، مثل ساعة الجيب ذات السلسلة الذهبية، التي

كان غطاؤها يُفتح بطفرة موسيقية. وقد كان معروفاً للملأ، على الدوام، أن غدر السنوات الذي بدأ يقلقه، لم يخلّف أي تأثير على نزواته، كمغرٍ سري وعاشق جيد.

في طقوس حمّام الساعة السادسة صباحاً، الذي صار يستحمه معي على الدوام في سنواته الأخيرة، كنا نسكب الماء من الحوض على جسدينا بقرعة مفرغة، وننتهي إلى تضميخ نفسينا بماء عطر "فلوريدا دي لانمان وكمبس" الذي كان يبيعه مهربو كوراساو، ويوصلونه في صناديق إلى البيوت، مثل البراندي وقمصان الحرير الصينية. وقد سُمع، في إحدى المرات، يقول إنه العطر الوحيد الذي يستخدمه، لأن لا أحد يشمه سوى من استخدمه. ولكنه لم يعد يصدق ذلك، عندما تعرّف أحدهم رائحته على وسادة غريبة. وقصة أخرى سمعته يكررها، خلال سنوات، هي قصة الليلة التي انقطع فيها النور، فسكب الجد على رأسه زجاجة حبر معتقداً أنه ماء عطر فلوريدا.

من أجل الأعمال اليومية في البيت، كان يرتدي بنطالاً من القطن الخام، مع حمالتي المطاط الدائمتين، وحذاء خفيفاً وقبعة من المخمل ذات واقية. ومن أجل قداس يوم الأحد، الذي لم يتغيب عنه سوى مرات قليلة، ولأسباب قاهرة؛ أو في أيام المناسبات المهمة والتاريخية، كان يرتدي بدلة كاملة من الكتان الأبيض، مع ياقة من السيلولويد وربطة عنق سوداء. وهذه المناسبات القليلة هي السبب في شهرته بأنه مبذر ومزهو. الانطباع الذي أحتفظ به اليوم هو أن البيت، بكل ما فيه، كان موجوداً من أجله فقط؛ فقد كانت علاقة زواجه من النوع الذكوري النموذجي، في مجتمع أمومي، حيث الرجل هو الملك المطلق في بيته، ولكن من

تحكمه هي المرأة. ويمكن القول دون مزيد من اللف والدوران، إنه كان الذكر. هذا يعني: أنه رجل عذب الحنان في جلساته الحميمة، ولكنه يخجل من ذلك الحنان أمام الملأ، بينما تحرق هي نفسها، لتجعله سعيداً.

قام الجدان برحلة أخرى إلى بارانكيا، في الأيام التي جرى فيها الاحتفال بالمئوية الأولى لموت سيمون بوليفار، في شهر كانون الأول ١٩٣٠، من أجل حضور ميلاد أختي عايدا روسا، الرابعة في الأسرة. ولدى عودتهما إلى كاتاكا، أحضرا معهما مارغوت، وكان عمرها أكثر من سنة بقليل. وبقي مع أبوي لويس إنريكي، والوليدة الجديدة. وقد تكلّفتُ مشقة كبيرة للاعتياد على التغيير، لأن مارغوت جاءت إلى البيت ككائن من حياة أخرى، رخوة وبرية، وذات عالم داخلي مغلق. عندما رأتها أبيغايل – والدة لويس كارميلو كوريا – لم تفهم لماذا تحمّل جداي مثل ذلك الالتزام، وقالت: "هذه الطفلة محتضرة". ولكنهم كانوا يقولون الشيء نفسه عني، لأنني كنت قليل الأكل، ولأنني كنت أرمش، ولأن الأشياء التي كنتُ أرويها، تبدو هائلة، فيظنونها كذباً، دون أن يفكروا في أن معظمها كان صحيحاً بطريقة أخرى. ولم أعلم إلا بعد سنوات طويلة أن الدكتور باربوثا هو الوحيد الذي دافع عني بحجة حكيمة: "أكاذيب الأطفال هي علامة موهبة كبيرة".

مرّ وقت طويل، قبل أن تستسلم مارغوت لأسلوب الحياة الأسرية. كانت تجلس في الكرسي الهزاز لتمص إصبعها، في ركن لا يخطر على بال. لم يكن هناك ما يشد انتباهها، باستثناء دقات الساعة التي تبحث عنها كل ساعة، بعينيها الكبيرتين، كمهووسة. لم يتمكنوا من جعلها تأكل، طوال عدة أيام. فهي ترفض الطعام دون دراماتيكية، أو ترمي به

أحياناً في الأركان. ولم يفهم أحد كيف تبقى حية دون أكل، إلى أن انتبهوا إلى أنها لا تحب سوى تراب الحديقة الرطب، ورقائق الكلس التي تنتزعها عن الجدران بأظفارها. وعندما اكتشفت الجدة ذلك وضعت مرارة بقر في أشهى أركان الحديقة، وخبأت فلفلاً حاراً في أصص الأزهار. لقد عمّدها الأب أنغاريتا في الطقوس نفسها التي صادق فيها على التعميد المتعجّل الذي أجروه لي عند مولدي. وقد تلقيتُ مراسم العماد وأنا أقف على كرسي، وتحمّلت، بشجاعة مهذبة، ملح الطعام الذي وضعه على لساني، وإبريق الماء الذي سكبه فوق رأسي. أما مارغوت، بالمقابل، فقد تمردت على الاثنين بصرخة وحش جريح، وبعصيان اجتاح جسدها بكامله. حتى إن العرابين والعرابتين لم يتمكنوا من إبقائها عند حوض التعميد، إلا بشق الأنفس.

إنني أفكر اليوم في أنها كانت، في علاقتها معي، أعقل من الكبار، فيما بينهم. وقد كان تواطؤنا غريباً، حتى إن كل واحد منا كان يحدس، في مناسبات عديدة، أفكار الآخر. ففي أحد الأيام، كنت ألعب وإياها في الحديقة، عندما دوى صفير القطار، كما في كل يوم، في الساعة الحادية عشرة. ولكنني في ذلك اليوم أحسست، لدى سماعه، بهاجس لا تفسير له، بأن طبيب شركة الموز الذي كان قد أعطاني، قبل شهور، شراباً سمكياً سبب لي نوبة تقيؤ، آت في القطار. ركضتُ في كل أنحاء البيت، وأنا أصرخ منبهاً، ولكن أحداً لم يصدق ذلك. باستثناء شقيقتي مارغوت التي ظلت مختبئة معي إلى أن انتهى الطبيب من تناول الغداء، وغادر في قطار العودة. وقد هتفت جدتي، عندما وجدونا مختبئين تحت سريرها: "يا قديسة مريم الطاهرة! بوجود هذين الطفلين، لا حاجة إلى التلغراف".

لم أستطع، قط، تجاوز الخوف من البقاء وحيداً، ولا سيما في الظلام. وأظن أن هناك منشأ محدداً لذلك. ففي الليل، تتجسد أشباح ونُذُر الجدة. حتى الآن، وأنا في السبعين، أرى في أحلامي حدَّة الياسمين في الممر، وأشباح غرف النوم المعتمة؛ ودائماً بالإحساس الذي أفسد طفولتي: الرعب من الليل. لقد توجست مرات كثيرة، في ليالي أرقي التي تساوي أرق العالم بأسره، أنني أنا أيضاً أجرجر لعنة ذلك البيت الخرافي، في عالم سعيد، حيث كنا نموت في كل ليلة.

أغرب ما في الأمر، أن الجدة كانت تقيم أود البيت بحسها غير الواقعي. كيف كان بالإمكان إعالة قطار الحياة ذاك، بموارد على ذلك القدر من الشح؟ الحسابات لا تضبط. كان الكولونيل قد تعلم مهنة أبيه الذي تعلمها بدوره من أبيه. وعلى الرغم من شهرة أسماكه الذهبية الصغيرة التي يراها المرء في كل مكان، إلا أنها لم تكن بالتجارة الرابحة. بل اكثر من ذلك: فعندما كنت طفلاً، كان يراودني إحساس بأنه لا يصنعها إلا في فترات قصيرة أو عندما يهيئ هدية زفاف. وكانت الجدة تقول إنه لا يشتغل إلا ليقدم الهدايا. ومع ذلك، فإن شهرته كموظف، توطدت تماماً عندما كسب الحزب الليبرالي السلطة، وكان خازناً لعدة سنوات ومدير مالية، عدة مرات.

لا يمكنني تخيل وسط أسريّ أكثر ملاءمة لميلي، من ذلك البيت الجنوني، ولا سيما بفعل طبع النساء الكثيرات اللواتي تولين تنشئتي. الذكران الوحيدان كنّا جدي وأنا، وكان هو من بدأ بإدخالي في واقع الكبار الحزين، بحكايات عن معارك دامية وشروحات مدرسية عن طيران الطيور، ورعود الغروب. وشجعني في هواية الرسم. في البدء، كنت

أرسم على الجدران، إلى أن أطلقت نساء البيت الصوت حتى السماء، قائلات: الجدار والسور هما ورقة الوغد. فغضب جدي، وأمر بطلاء أحد جدران مشغل الصياغة بالأبيض، واشترى لي أقلام ألوان، ثم اشترى لي فيما بعد، علبة ألوان مائية، لكي أرسم على هواي، بينما هو يصنع أسماكه الذهبية الصغيرة المشهورة. وقد سمعته في أحد الأيام يقول إن حفيده سيصير رساماً. ولم يشدّ ذلك اهتمامي، لأنني كنت أظن أن الرسامين هم من يدهنون الأبواب فقط[١].

من عرفوني، وأنا في الرابعة من عمري، يقولون إنني كنت شاحباً ومستغرقاً في التأمل، وإنني لم أكن أتكلم إلا لأروي هذيانات. ولكن حكاياتي، في معظمها، كانت أحداثاً بسيطة من الحياة اليومية، أجعلها أنا أكثر جاذبية بتفاصيل متخيلة، لكي يصغي إليّ الكبار. وكانت أفضل مصادر إلهامي، هي الأحاديث التي يتبادلها الكبار أمامي، لأنهم يظنون أنني لا أفهمها، أو التي يشفّرونها عمداً، كيلا أفهمها. لكن الأمر كان خلاف ذلك: فقد كنت أمتصها مثل إسفنجة، وأفككها إلى أجزاء، وأقلبها لكي أخفي الأصل؛ وعندما أرويها للأشخاص أنفسهم الذين رووها، تتملكهم الحيرة للتوافق الغريب بين ما أقوله، وما يفكرون فيه.

في بعض الأحيان، لم أكن أعرف ما أفعله بضميري؛ وأحاول مواراته بطرف عيني طرفاً سريعاً. وكان ذلك يتكرر إلى حد أن شخصاً عقلانياً في الأسرة، قرر أن يعرضني على طبيب عيون، فعزا هذا الأخير

(١) الالتباس هو في إطلاق التسمية نفسها على الرسام الفنان والنقاش الدهان، فكلاهما يدعى pintor.

طرْفَ عيني إلى علة في اللوزتين، ووصف لي شراباً من لفت مَيْوَدَن، كان مفعوله جيداً لطمأنة الجدين. وتوصلت الجدة من جهتها إلى النتيجة القدرية، بأن حفيدها متنبئ؛ فجعل ذلك منها ضحيتي المفضلة، حتى اليوم الذي أغمي عليها فيه لأنني حلمت، فعلاً، بأن عصفوراً حياً قد خرج من فم الجد. وكان الرعب من أن أكون السبب في موت الجد، هو العنصر المهدئ الوحيد لاندفاعي المبكر. وأنا أفكر الآن في أن كل ذلك لم يكن خبث طفل، كما يمكن أن يُظن، وإنما التقنيات البدائية لراوٍ في بداياته، من أجل جعل الواقع اكثر متعة وقابلية للفهم.

خطوتي الأولى في الحياة الواقعية، كانت اكتشافي كرة القدم، في وسط الشارع أو في بعض البساتين المجاورة. كان معلمي هو لويس كارميلو كوريّا الذي ولد مزوداً بغريزة خاصة بألعاب الرياضة، وبموهبة خِلقية في الرياضيات. كنت أكبره بخمسة شهور، ولكنه كان يسخر مني، لأنه ينمو أكثر وأسرع. بدأنا اللعب بكرة من الخرق. وتوصلت إلى أن أكون حارس مرمى جيداً، ولكننا عندما انتقلنا إلى اللعب بالكرة النظامية، عانيت من ضربة على المعدة، بتسديدة قوية منه؛ ولم أمضِ إلى ما هو أبعد من ذلك. وخلال المرات التي التقينا فيها ونحن كبار، تبين لي بسعادة كبيرة أننا ما زلنا نتعامل، مثلما كنا ونحن طفلان. ومع ذلك، فإن الذكرى الأكثر تأثيراً من تلك الحقبة، هي المرور السريع العابر لنائب مدير تموين شركة الموز، في سيارته الفخمة المكشوفة، وإلى جانبه امرأة ذات شعر ذهبي طويل، مفلت للريح، وكلب حراسة ألماني جالس كملك في مقعد الشرف. لقد كانوا رؤيا سريعة عابرة من عالم ناءٍ وبعيد الاحتمال، محظور علينا، نحن البشر الفانين.

بدأتُ المساعدة في القداس دون إيمان كبير، ولكن بصرامة، ربما كانوا يحتسبونها لي كعنصر جوهري من الإيمان. ولا بد أن تلك المزايا الحميدة هي السبب في أنهم أخذوني، وأنا في السادسة من عمري، إلى الأب آنغاريتا لتلقيني أسرار المناولة الأولى. لقد تبدلت حياتي. فقد بدؤوا يعاملونني كراشد، وعلمني القندلفت كيف أساعد القس في القداس. وكانت مشكلتي الوحيدة هي أنني لم أكن أعرف، في أي لحظة عليّ قرعُ الناقوس؛ فكنت أقرعه عندما يخطر لي ذلك، بإلهام محض وبسيط. وفي المرة الثالثة، التفت الأب نحوي وأمرني، بنبرة جافة، بألا أقرع الجرس مجدداً. الجزء الجيد من الخدمة الدينية، كان يأتي عند بقائي مع خادم الكاهن الآخر والقندلفت وحيدين لترتيب حجرة المقدسات؛ فكنا نأكل ما يفيض من خبز القربان، مع كأس من النبيذ.

عشية مناولتي الأولى، أخذ الأب اعترافاتي دون مقدمات، وهو جالس مثل بابا حقيقي على المتكأ الذي كعرش، بينما أنا جاثٍ قبالته، على وسادة من المخمل. كان وعيي للخير والشر بسيطاً جداً. ولكن الأب ساعدني بمعجم من الخطايا. لكي أقول له أيّها اقترفت، وأيّها لم أقترفه. أظن أنني أجبت جيداً، إلى أن سألني إذا ما كنت قد مارست أفعالاً منكرة مع حيوانات. كانت لدي فكرة عامة غامضة عن أن بعض الكبار يقترفون مع الحمير خطيئة، لم أكن أفهم حقيقتها، ولكنني في تلك الليلة فقط، تعلمت أن فعل ذلك ممكن أيضاً مع الدجاجات. وهكذا كانت خطوتي الأولى، إلى المناولة الأولى، قفزة كبيرة أخرى على طريق فقداني البراءة. ولم أعد أجد دافعاً مشجعاً لمواصلة المساعدة في القداس.

اختباري بالنار، كان يوم انتقل أبواي إلى كاتاكا، مع لويس

إنريكي وعايدا، أخويّ الآخرين. أما مارغوت التي تكاد لا تعرف أباها، فقد كانت ترتعب منه. وأنا أيضاً، ولكنه كان أشد حذراً معي. في مناسبة واحدة فقط، نزع الحزام ليجلدني، فوقفتُ متأهباً، وعضضت على شفتي كيلا أبكي. فأنزل ذراعه، وبدأ يعيد وضع الحزام حول خصره، بينما هو يؤنبني من بين أسنانه، على ما فعلته. وقد اعترف لي، في حواراتنا الطويلة كراشدين، بأنه كان يتألم كثيراً لجلدنا؛ ولكنه ربما كان يفعل ذلك، لخوفه من أن نخرج منحرفين. لقد كان مسلياً في لحظات صفائه. وكان يسعده أن يروي دعابات على المائدة، بعضها جيدة. ولكنه يكررها كثيراً حتى أن لويس إنريكي نهض يوماً وهو يقول:

– أخبروني عندما تنتهون من الضحك.

ومع ذلك، فإن الجَلدة التاريخية هي تلك التي نالها لويس إنريكي، في الليلة التي لم يظهر فيها في بيت أبويه، ولا في بيت جدّيه، فبحثوا عنه في نصف القرية، إلى أن عثروا عليه في السينما. كان ثيلسو دازا، بائع المرطبات، قد قدم إليه كأس شراب مرطب في الساعة الثامنة ليلاً. وقد اختفى، دون أن يدفع، وأخذ الكأس معه. وباعته صانعة المعجنات المقلية قطيرة، ورأته يتحدث بعد ذلك بقليل، مع بوّاب السينما الذي سمح له بالدخول مجاناً، لأنه قال له إن أباه ينتظره في الداخل. كان الفيلم هو دراكولا، من تمثيل كارلوس فيلارياس ولوبيتا توفار، وإخراج جورج ميلفورد. ولقد حدثني لويس إنريكي، بعد سنوات، عن رعبه في اللحظة التي أضيئت فيها أنوار الصالة، حين كان الكونت دراكولا على وشك أن يغرس أنيابه كمصاص دماء، في رقبة الحسناء. كان يجلس في أكثر مكان متوارٍ وجده شاغراً في الصالة. ومن هناك

رأى أبي وجدي يبحثان عنه، صفاً فصفاً، في المقاعد؛ ومعهما صاحب السينما وشرطيان. كان على وشك الاستسلام، عندما اكتشفه باباليلو في الصف الأخير من القاعة، وأشار إليه بعكازه:

– إنه هناك!

سحبه أبي من شعره، وجلده في البيت بالحزام جلداً ظل عبرة أسطورية في تاريخ الأسرة. الرعب والتقدير اللذان شعرت بهما تجاه سلوك أخي الاستقلالي ذاك، ظلا حيين إلى الأبد في ذاكرتي. أما هو فكان يبدو كأنه يتجاوز كل شيء، ليصبح أكثر بطولية، في كل مرة. ومع ذلك، فإنني أصاب بالذهول اليوم، من أنّ تمرده لم يكن يتبدى في الفترات النادرة التي يكون فيها أبي غائباً عن البيت.

التجأتُ، أكثر من أي وقت آخر، إلى ظل الجد. لقد كنا معاً على الدوام، في فترات الصباح في مشغل الصياغة أو في مكتبه كموظف مالية، حيث خصني بوظيفة سعيدة: رسم علامات وسم الأبقار التي ستُذبح. وكان يأخذ الأمر بجدية، إلى حد يتخلى لي معه عن موقعه على منضدة المكتب. وفي موعد الغداء، بوجود كل المدعوين، نجلس معاً على رأس المائدة، هو مع إبريقه الألمنيوم الكبير المملوء بالماء المثلج، وأنا مع ملعقة فضية أستخدمها في كل شيء. ومما كان يلفت النظر، أنني إذا أردت قطعة من الثلج، أمد يدي في الإبريق لأخذها، فتتشكل على سطح الماء، طبقة من الدهن. وكان جدي يدافع عني: "إنه يتمتع بكل الحقوق".

في الساعة الحادية عشرة، نذهب إلى المحطة، عند وصول القطار؛ فابنه خوان دي ديوس الذي ظل يعيش في سانتا مارتا، كان يبعث إليه

رسالة في كل يوم، مع سائق القطار المناوب الذي يتقاضى، مقابل ذلك، خمسة سنتات. وكان الجد يرد عليه بخمسة سنتات أخرى، في قطار العودة. وفي المساء، عندما تميل الشمس، يأخذني من يدي، ليقوم بمساعيه وشؤونه الشخصية. كنا نذهب إلى محل الحلاقة – وهي أطول ربع ساعة في الطفولة –؛ ولرؤية الألعاب النارية – كانت تخيفني – في الأعياد الوطنية؛ وإلى مواكب أسبوع الآلام – حيث تمثال المسيح الميت الذي كان يبدو لي أنه من لحم وعظم –. وكنت أستخدم آنذاك برنيطة ذات مربعات اسكتلندية، مثل واحدة للجد، اشترتها لي مينا لكي أصير أكثر شبهاً به. وقد توصلت إلى ذلك على أحسن وجه، حتى إن العم كينتي كان يرانا كشخص واحد، بعمرين مختلفين.

في أي ساعة من ساعات النهار، كان الجد يأخذني للشراء من متجر شركة الموز المترع بالطيبات. وهناك عرفتُ أسماك البارغو، ووضعت للمرة الأولى، يدي على الجليد؛ وهزني اكتشاف أنه بارد. كنت سعيداً بأكل ما يخطر لي. ولكنني كنتُ أملّ أدوار الشطرنج التي يلعبها جدي مع البلجيكي، والأحاديث السياسية. ومع ذلك، فإنني ألاحظ الآن أننا، في تلك الجولات الطويلة، كنا نرى عالمين مختلفين. جدي يرى عالمه على مستوى أفقه، وأنا أرى عالمي على مستوى عيني. كان يحيي أصدقاءه على الشرفات، وأنا أتشوق إلى ألعاب بائعي الشوارع المعروضة على الأرصفة.

وفي بداية الليل، كنا نتأخر في صخب "الأركان الأربعة" الكوني، حيث كان يتبادل الحديث مع دون أنطونيو داكونتي، الذي يستقبله واقفاً عند باب متجره المزركش، وبينما أقف أنا مذهولاً بالمستجدات الآتية من

العالم بأسره. كنتُ مفتوناً بسَحَرة المهرجان الشعبي الذين يُخرجون أرانب من قبعاتهم، وآكلي النار، والمتكلمين من بطونهم الذين يجعلون الحيوانات تتكلم، وعازفي الأكورديونات الذين يغنون بأعلى أصواتهم، ناقلين الأحداث التي تقع في بروبينثيا. وقد انتبهت اليوم إلى أن أحدهم، وكان عجوزاً جداً وله لحية بيضاء، يمكن له أن يكون فرانثيسكو الإنسان الأسطوري.

كلما بدا لدون أنطونيو داكونتي أن الفيلم ملائم، كان يدعونا إلى العرض المبكر في صالته أولمبيا، مثيراً بذلك ذعر الجدة التي ترى في السينما، خلاعة لا تليق بحفيد بريء. ولكن باباليلو كان يصر على أخذي معه. وفي اليوم التالي يطلب مني رواية الفيلم على المائدة، ويصحح نسياني وأخطائي، ويساعدني على إعادة بناء المقاطع الصعبة. كانت تلك ومضات فن درامي أفادتني دون أدنى شك؛ ولا سيما عندما بدأت رسم قصص مسلسلة، قبل أن أتعلم الكتابة. في البدء كانوا يحتفون بها كظرافات صبيانية. ولكن استحسان الكبار السهل كان يروقني، حتى انتهى بهم الأمر إلى الهرب عندما يشعرون بقدومي. وقد حدث لي الشيء نفسه، فيما بعد، مع الأغنيات التي كانوا يجبرونني على غنائها، في حفلات الزفاف وأعياد الميلاد.

قبل الذهاب للنوم، كنا نمر لبعض الوقت على مشغل البلجيكي؛ وهو عجوز مرعب ظهر في آراكاتاكا، بعد الحرب العالمية الأولى. ولا أشكُ في كونه بلجيكياً، بسبب الذكرى التي أحتفظ بها عن لكنته الطائشة وحنينه كبحار. وكان الكائن الحي الآخر في بيته كلباً دغركياً ضخماً، أصمّ ولوطياً، اسمه مثل اسم رئيس الولايات المتحدة: وودرو

ويلسون. لقد تعرفت على البلجيكي وأنا في الرابعة من عمري، عندما كان جدي يذهب ليلعب معه بضعة أدوار شطرنج بكما، ولانهائية. منذ الليلة الأولى، أثار دهشتي أنه لم يكن هناك في بيته شيء أستطيع أن أعرف فائدته واستخدامه. فقد كان فناناً في كل شيء؛ يعيش وسط فوضى أعماله: مناظر بحرية بالباستيل، صور فوتوغرافية لأطفال يحتفلون بأعياد ميلادهم أو بمناولتهم الأولى، مستنسخات لمجوهرات أسيوية، وجوه منحوتة على قرون أبقار، أثاث من عصور وطُرُز متنوعة مكومة، بعضها فوق بعض.

شدَّ انتباهي جلده الملتصق بعظامه، وهو بلون شعره الأصفر الشمسي نفسه الذي تتهدل خصلة منه على وجهه، وتضايقه عند التكلم. كان يدخن بغليون ذنب بحر، لا يشعله إلا من أجل الشطرنج. وكان جدي يقول إنها حيلة لإرباك الخصم. وكانت له عين زجاجية زائغة تبدو أكثر انتباهاً إلى محدثه من العين السليمة. وكان مشلولاً من خاصرته إلى أسفل، منحنياً إلى أمام وملتوياً إلى اليسار. ولكنه يبحر مثل سمكة بين عوائق مشغله، متعلقاً على عكازيه الخشبيين، أكثر مما هو مستند إليهما. لم أسمعه يتكلم قط، عن مغامرات إبحاره. وكانت على ما يبدو كثيرة وجريئة. أما الوله الوحيد المعروف عنه خارج بيته، فهو السينما. لم يكن يتخلف عن أي فيلم، من أي نوع، في نهاية كل أسبوع.

لم أحبه قط. وأقل من ذلك، خلال جولات الشطرنج التي يتأخر فيها ساعات، لكي يحرك قطعة، بينما أنا أتهالك من النعاس. في إحدى الليالي رأيته شاحباً جداً، وداهمتني النبوءة المنذرة بأنه سيموت عما قريب؛ فأحسست بالشفقة عليه. ولكنه مع مرور الزمن، صار

يستغرق وقتاً طويلاً، في التفكير في كل نقلة، إلى حد انتهيتُ معه إلى تمني موته، من كل قلبي.

في تلك الفترة، علّق الجد في غرفة الطعام، لوحة تمثل بطل التحرير سيمون بوليفار، وهو مسجى بعد موته. ولم أفهم لماذا هو بلا الكفن الذي كنت قد رأيته في طقوس السهر على موتى آخرين، وإنما ممدداً على منضدة مكتب، بالزي العسكري الذي كان يرتديه في أيام مجده. وقد أخرجني جدي من تلك الشكوك، بجملة حاسمة:

- لقد كان مختلفاً.

ثم قرأ لي، بصوت مرتعش لا يشبه صوته، قصيدة طويلة معلقة إلى جانب اللوحة، أتذكر منها إلى الأبد، الأبيات الأخيرة فقط: "أنتِ يا سانتا مارتا، كنت كريمة مضيافة. فأنت، في أحضانك، منحته قطعة الأرض الصغيرة تلك على الشاطئ، لكي يموت فيها". منذ ذلك الحين، ولسنوات طويلة، ظلت راسخة، في ذهني، فكرة أنهم عثروا على بوليفار ميتاً على الشاطئ. وكان جدي هو من علمني وطلب مني ألا أنسى أن ذلك الرجل هو أعظم مَنْ ولد في تاريخ العالم. وقد اختلط عليّ الأمر، لتناقض عبارته تلك مع عبارة أخرى كانت الجدة قد قالتها لي بتفخيم مائل. فسألت الجد عما إذا كان بوليفار أعظم من يسوع المسيح. فرد عليّ وهو يهز رأسه، دون قناعته الراسخة السابقة:

- لا علاقة لهذا بذاك.

لقد صرت أعرف الآن، أن الجدة هي التي فرضت على زوجها أن يأخذني معه في جولاته المسائية، لأنها كانت واثقة بأن جولاته تلك، ليست سوى ذريعة لزيارة عشيقاته الحقيقيات أو المفترضات. من

المحتمل أنه كان يستغلها كستارة، ولكن الحقيقة أنه لم يذهب معي قط، إلى أي مكان غير مقرر في جولته، مسبقاً. ومع ذلك، لدي في ذاكرتي صورة واضحة لليلة، مررت فيها مصادفة وأنا أمسك بيد أحدهم، قبالة بيت مجهول، ورأيت الجد جالساً كالسيد والمالك في الصالة. ولم أستطع قط، أن أفهم لماذا هزني الإحساس بأنه يجب عليَّ عدم إخبار أحد بذلك، حتى شمس هذا اليوم.

وكان الجد أيضاً هو من حقق اتصالي الأول بالحرف المكتوب، وأنا في الخامسة من عمري، في مساء يوم أخذني فيه للتعرف على حيوانات سيرك مرّ من كاتاكا، تحت خيمة كبيرة، مثل كنيسة. وكان أكثر حيوان شدّ انتباهي هو مجتر مكتئب، وفي حالة مزرية، له ملامح أم مرعبة. وقال لي الجد:

– إنه جمل.

فاعترض شخص يقف قريباً منا بالقول:

– المعذرة يا كولونيل، ولكن هذا وحيد سنام[1].

ويمكنني أن أتخيل الآن، كيف كان إحساس الجد، لأن أحدهم صحح له ما قاله، بحضور حفيده. ودون أن يحاول التفكير في الأمر، تجاوزه بسؤال وجيه:

– وما الفرق؟

فقال له الآخر:

– لا أدري، ولكن هذا وحيد السنام.

---

(١) تطلق تسمية camello على جمال آسيا الوسطى ذات السنامين ، أما جمل الصحراء العربية وحيد السنام فيسمى dromedario .

لم يكن الجد بالرجل المثقف، ولم يكن يحاول أن يكونه؛ فقد هرب من المدرسة العامة، في ريوهاتشا، كي يذهب ليطلق النار في واحدة من حروب منطقة الكاريبي الأهلية التي لا حصر لها. لم يعد إلى الدراسة، ولكنه بقي واعياً طوال الحياة لخوائه، وكان به نهم إلى المعارف المباشرة التي تعوض نقصه. وفي مساء يوم السيرك ذاك، رجع إلى مكتبه، مثبط العزيمة، وبحث في المعجم باهتمام طفولي. وعندئذ عرف هو، وعرفتُ أنا إلى الأبد، الفرق بين وحيد السنام والجمل. ثم وضع، بعد ذلك، المجلد الضخم في حضني وقال لي:

– هذا الكتاب لا يعرف كل شيء، وحسب، وإنما هو الكتاب الوحيد الذي لا يخطئ أبداً.

كان مجلداً ضخماً مصوراً، وعلى كعبه رسم تمثال تستقر على كتفيه قبة الكون. لم أكن أعرف القراءة ولا الكتابة، ولكنني كنت قادراً على تصور مدى صحة ما قاله الكولونيل، ما دمت أرى ما يقارب ألفي صفحة كبيرة، موشومة ومزينة برسوم بديعة. كان حجم كتاب الصلوات في الكنيسة قد أذهلني، ولكن المعجم كان أسمك منه. وبدا لي ذلك، كما لو أنني أطل على العالم بأسره، لأول مرة. فسألتُ:

– كم كلمة فيه؟

– كل الكلمات – قال الجد.

الحقيقة، أنني لم أكن بحاجة آنذاك إلى الكلمة المكتوبة؛ لأنني كنت قادراً على التعبير بالرسوم عن كل ما يؤثر فيَّ. ففي الرابعة من عمري، رسمت ساحراً يقطع رأس امرأته، ويعيد إلصاقه في مكانه، مثلما فعل الساحر ريشاردين، لدى مروره في صالة سينما أولمبيا.

المشهد المرسوم يبدأ بقطع الرأس بمنشار، يتلوه عرض انتصاري للرأس الدامي، وينتهي بالمرأة، وهي ترد على تصفيق الجمهور محيية برأسها الذي أعيد إلى مكانه. كانت القصص المصورة قد اختُرعت آنذاك. ولكنني لم أتعرف عليها، إلا فيما بعد، في الملاحق الملونة لصحف يوم الأحد. وقد بدأت عندئذ باختراع حكايات مرسومة دون حوارات. ومع ذلك، عندما أهدى إليّ الجد المعجم، أيقظ في نفسي فضولاً نحو الكلمات، إلى أن صرت أقرؤه كرواية، وفق التسلسل الأبجدي، ودون أن أفهمه تقريباً. هكذا كان اتصالي الأول مع ما سيكون الكتاب الأساسي في قدري ككاتب.

في الواقع، أنه عندما تُروى للأطفال أول قصة تشد اهتمامهم، يصعب بعد ذلك، أن يرغبوا في سماع قصة أخرى. أظن أن هذه ليست حالة الأطفال القصاصين، ولم تكن حالتي. فقد كنت أريد المزيد. فالنهم الذي كنتُ أستمع به إلى القصص، يدفعني على الدوام، إلى انتظار قصة أفضل في اليوم التالي، وبخاصة تلك التي لها علاقة بأسرار وغرائب التاريخ المقدس.

كل ما يحدث لي في الشارع، كان له وقع هائل في البيت. ترويه نساء المطبخ للغرباء الذين يأتون في القطار – ويأتي هؤلاء بدورهم ولديهم ما يروونه – ويندمج كل ذلك في سيل التقاليد الشفوية. بعض الأحداث تعرف أولاً، من خلال عازفي الأكورديونات الذين يغنونها في المهرجانات، فيعيد المسافرون روايتها ويغنونها. ومع ذلك، فإن الحدث الأعظم تأثيراً في طفولتي، خرج لي في يوم أحد، باكراً، عندما كنا سنذهب إلى القداس، وبدأ بعبارة عابرة قالتها جدتي:

– سيتخلف نيكولاسيتو المسكين عن قداس العَنصرة اليوم.

أسعدني ذلك، لأن قداس يوم الأحد طويل جداً بالنسبة إلى سني؛ ومواعظ الأب أنغاريتا الذي طالما أحببته في طفولتي، تبدو لي منوِّمة. ولكنه كان وهماً دون طائل؛ فقد اقتادني الجد بما يشبه الجرجرة، وأخذني إلى مشغل البلجيكي، ببدلة المخمل الخضراء التي أرتديها للذهاب إلى القداس، وكانت تضغط ما بين ساقي. تعرّف شرطيو الحراسة على الجد من بعيد، ففتحوا له الباب، مع العبارة التقليدية:

– تفضل أيها الكولونيل.

عندئذ فقط عرفت أن البلجيكي قد استنشق أبخرة سيانور الذهب – تقاسمها مع كلبه – بعد أن شاهد فيلم "لا جديد على الجبهة" من إخراج لويس مايلستون، عن رواية إريك ماريا رِمارك. الحدس الشعبي الذي يجد الحقيقة دائماً، حتى حيث لا يكون ذلك ممكناً، تفهم الأمر، وأعلن أن البلجيكي لم يعد يتحمل هزة الانفعال لرؤيته نفسه يتمرغ مع كتيبته الممزقة أشلاء في أحد مستنقعات النورماندي.

كانت صالة الاستقبال الضيقة في شبه ظلمة، بسبب النافذة المغلقة. ولكن نور الصباح الباكر في الفناء، كان يضيء غرفة النوم، حيث كان العمدة وشرطيان آخران ينتظرون الجد. وهناك كانت الجثة مغطاة ببطانية، على سرير عسكري ضيق؛ والعكازان في متناول اليد، حيث تركهما صاحبهما قبل أن يستلقي ليموت. وإلى جانبهما، على مقعد خشبي صغير، الطست الذي بخّر فيه السيانور، وورقة عليها حروف كبيرة مرسومة بريشة رسام: "لا تتهموا أحداً، لقد قتلت نفسي لأنني أحمق". لم تدم الإجراءات القانونية وتفاصيل الدفن التي أجراها الجد أكثر من

عشر دقائق. ولكنها كانت بالنسبة لي عشر الدقائق الأشد تأثيراً التي سأتذكرها في حياتي.

أول ما هزني، منذ الدخول، هي رائحة غرفة النوم. ولم أعرف إلا بعد وقت طويل من ذلك، أنها كانت رائحة اللوز المر المنطلقة من السيانور الذي استنشقه البلجيكي ليموت. ولكن لن يكون هذا الانطباع، ولا أي انطباع آخر سواه، أشد أثراً وديمومة من رؤية الجثة، عندما أزاح العمدة البطانية عنها ليريها للجد. كان عارياً، متيبساً، معوجاً. بشرته الخشنة مغطاة بشعر أصفر. والعينان راكدتا الماء تنظران إلينا وكأنهما حيتان. هذا الرعب من الإحساس بأنني مراقب من الموت، هزني طوال سنوات كلما كنتُ أمر إلى جوار القبور التي بلا صلبان، المخصصة للمنتحرين المدفونين خارج المقبرة، بترتيب من الكنيسة. ومع ذلك، فإن ما عاد إلى ذاكرتي مع شحنة قوية من الرعب، لدى رؤية الجثة، هو الملل الذي كنتُ أشعر به في الليالي التي نذهب فيها إلى بيته. وربما لهذا السبب، قلتُ لجدي عندما غادرنا البيت:

– لن يعود البلجيكي إلى لعب الشطرنج، بعد اليوم.

كانت فكرة بسيطة، ولكن جدي رواها في الأسرة كخاطرة عبقرية. ونشرتها النساء بحماس كبير، حتى إنني كنت أهرب في إحدى الفترات من الزائرين، خوفاً من أن يرووا لهم ذلك أمامي، أو أن يجبروني على إعادته. وقد كشف لي ذلك أيضاً أحد شروط الكبار الذي سيكون ذا فائدة كبيرة لي ككاتب: فكل واحد منهم يروي القصة مع تفاصيل جديدة، يضيفها من عنده؛ إلى حد تصبح معه الروايات المتعددة في النهاية، مختلفة عن الأصلية. لا يمكن لأحد أن يتصور الشفقة التي

أشعر بها، منذ ذلك الحين، على الأطفال المساكين الذين يعتبرهم آباؤهم عباقرة، فيجعلونهم يغنون أمام ضيوفهم، ويقلدون أصوات الطيور أو يدفعونهم حتى إلى أن يكذبوا للتسلية. وقد أدركت اليوم، مع ذلك، أن تلك الجملة البسيطة كانت نجاحي الأدبي الأول.

كانت هذه هي حياتي في العام ١٩٣٢، عندما أعلن أن البيرو، تحت النظام العسكري للجنرال لويس ميغيل سانتشيث ثيرو، قد احتلت بلدة ليتيثيا، التي بلا حامية، على ضفاف نهر الأمازون، في أقصى جنوبي كولومبيا. دوى الخبر في أجواء البلاد. وأعلنت الحكومة التعبئة الوطنية، وحملة تبرعات عامة لجمع المجوهرات الأسرية ذات القيمة من بيت إلى بيت. حدّة الوطنية المتزايدة بسبب هجوم قوات البيرو الغادر استثارت استجابة شعبية لا سابق لها. ولم يكن جامعو التبرعات يتوانون عن تحصيل تلك الضرائب الطوعية، من بيت إلى بيت، وبخاصة خواتم الزفاف، المرغوبة لقيمتها الحقيقية، وقيمتها الرمزية على السواء.

أما بالنسبة لي بالمقابل، فكانت واحدة من أسعد الفترات، لما تخللها من فوضى. فقد كُسر نظام الصرامة العقيم في المدارس، وحل محله الإبداع الشعبي في الشوارع والبيوت. تشكل فوج مدني من صفوة الشبيبة، دون تمييز في الطبقة الاجتماعية أو اللون، وأنشئت كتائب الصليب الأحمر النسائية، وألفت على عجل أناشيد تدعو إلى الحرب حتى الموت، ضد المعتدي الزنيم، ودوت في أجواء الوطن الصرخة الجماعية: "فلتعش كولومبيا، ولتسقط البيرو".

لم أعرف قط إلى ما انتهت تلك المأثرة، لأن الخواطر هدأت بعد وقت قصير، دون تفسيرات كافية. وترسخ السلام على إثر اغتيال

الجنرال سانتشيث ثيرو، على يد أحد المعارضين لحكمه الدموي، وتحولت صرخة الحرب إلى روتين للاحتفال بانتصارات كرة القدم المدرسية. ولكن أبوي اللذين ساهما بخاتمي زفافهما من أجل الحرب، لم يشفيا أبداً من سذاجتهما.

وفق ما تصل إليه ذاكرتي، فإن ميلي إلى الموسيقى، تكشف في تلك السنوات، من الانبهار الذي أثاره في نفسي، عازفو الأكورديونات بأغنيات الجوالين. كنت أعرف بعض تلك الأغاني عن ظهر قلب، مثل تلك التي تغنيها النساء، في المطبخ خفية، لأن جدتي تعتبرها أغنيات وضيعة. ومع ذلك، فإن حاجتي الملحة إلى الغناء، لكي أشعر بأنني حي، بثتها في نفسي أغنيات التانغو التي يغنيها كارلوس غارديل، وأصابت بعدواها نصف العالم. كنت أطلب أن يُلبسوني مثله، مع قبعة من اللبد ولفاع من الحرير. ولم أكن بحاجة إلى من يتوسل إليّ كثيراً لكي أطلق أغنية تانغو بملء صدري. حتى صباح النحس الذي أيقظتني فيه العمة ماما لتخبرني بأن غارديل قد مات في تصادم طائرتين في ميدلين. قبل شهور من ذلك، كنتُ قد غنيت "الانحدار إلى الهاوية" في سهرة خيرية، ترافقني على البيانو الأختان إتشيفيري، البوغوتيتان الصافيتان، اللتان كانتا معلمتيّ معلمين، وروح كل سهرة خيرية وحفلة ذكرى وطنية تقام في كاتاكا. وقد غنيتُ يومذاك بتفرد شديد حتى إن أمي لم تتجرأ على معارضتي، عندما قلتُ لها إنني أريد تعلم العزف على البيانو، بدل الأكورديون الذي تمقته الجدة.

في تلك الليلة بالذات، أخذتني إلى الآنستين إتشيفيري لكي تعلماني. وبينما هن يتكلمن، كنت أنظر إلى البيانو من طرف الصالة

الآخر بورع كلب بلا سيد، وأقدر إذا ما كانت ساقاي ستصلان إلى الدواسات، وأتشكك إذا ما كان إصبعاي، الإبهام والخنصر، يصلان إلى الفواصل المتباعدة جداً، أو إذا ما كنتُ سأتمكن من فك هيروغليفيات المدرج الموسيقي. كانت زيارة آمال زاهية استمرت ساعتين. ولكن دون طائل؛ فقد قالت لنا المعلمتان في النهاية، إن البيانو معطل، ولا تعرفان إلى متى سيبقى كذلك. فتأجلت الفكرة إلى أن يعود المُدوزِن في جولته السنوية القادمة. ولم يعد أحد إلى الحديث عن تلك الفكرة إلا بعد مرور نصف حياة، عندما ذكّرتُ أمي في حديث عابر، بالألم الذي أحسست به لأنني لم أتعلم العزف على البيانو. فتنهدت هي قائلة:

– وأسوأ ما في الأمر، أنه لم يكن معطلاً.

وعندئذ، علمتُ أنها اتفقت مع المعلمتين على التعلل بحجة البيانو المعطل، لكي تجنبني العذاب الذي عانت منه هي نفسها، طوال خمس سنوات من التمارين البلهاء، في مدرسة التقدمة. وكان العزاء في أنه قد افتتحت، في كاتاكا تلك السنوات، مدرسة مونتسوري. وكانت معلماتها يحفزن الحواس الخمس من خلال تمارين عملية، ويعلمن الغناء. وبفضل موهبة وجمال المديرة روسا إيلينا فيرغوسون، كانت الدراسة شيئاً رائعاً، أشبه بمن يلعب لعبة أنه حي. تعلمت تقدير حاسة الشم التي تتمتع بقدرة استحضار نوستالجي ساحقة. وشحذتُ حاسة التذوق إلى حد تذوق مشروبات لها طعم نافذة، وخبز قديم له طعم صندوق خشبي، وأشربة مغلية لها طعم قداس. من الصعب نظرياً فهم هذه المتع الذاتية، ولكن من عاشوها سيفهمونها فوراً.

لا أظن أن هناك منهجاً أفضل من أسلوب مدرسة مونتسوري،

لشحذ حساسية الأطفال، تجاه جماليات العالم وإيقاظ فضولهم نحو أسرار الحياة. لقد أخذ عليها أنها تشجع حس الاستقلالية والفردية – وربما كان ذلك صحيحاً في حالتي –. ولكنني لم أتعلم قط، بالمقابل، القسمة أو استخراج الجذر التكعيبي، ولا التعامل مع أفكار مجردة. كنا صغاراً إلى حد لا أتذكر معه سوى تلميذين: أولهما هي خوانيتا ميندوثا التي توفيت بالتيفوس، وهي في السابعة من عمرها، بعد وقت قصير من افتتاح المدرسة. وقد أثرت فيّ كثيراً، حتى إنني لم أستطع نسيانها قط، وهي بإكليل وطرحة العروس في التابوت. والآخر هو غييرمو بالينثيا أبدالا، صديقي منذ الفسحة الأولى، وطبيبي الذي لا يخطئ في تشخيص وهن صباحات أيام الاثنين.

لا بد أن أختي مارغوت كانت تعسة جداً في تلك المدرسة، مع أنني لا أذكر أنها قالت ذلك يوماً. كانت تجلس على كرسيها في صفها التحضيري، وتظل هناك صامتة – حتى في أوقات الاستراحة – دون أن تحوّل بصرها عن نقطة غير محددة، إلى أن يُقرع الجرس الأخير. لم أعرف في الوقت المناسب قط أنها، حين تبقى وحيدة في القاعة الخاوية، تمضغ تراباً من حديقة البيت، تحمله معها في جيب مريلتها.

لقد تكلّفتُ مشقة كبيرة في تعلم القراءة. إذ لم يكن يبدو لي منطقياً أن حرف "م" يسمى "ميم"، ومع ذلك فإنه، بإضافة حرف "ا" الصوتي إليه، لا يلفظ "ميما" وإنما "ما". كان من المستحيل عليّ القراءة على هذا النحو. وأخيراً، عندما وصلت إلى مدرسة مونتيسوري، لم تعلمني المعلمة أسماء الحروف، وإنما منطوقها. وهكذا استطعت أن أقرأ أول كتاب وجدته في خزانة مغبرة في مستودع البيت. كان مفككاً

وغير مكتمل، ولكنه اجتذبني بشدة حتى إن خطيب سارا أطلق لدى مروره إنذاراً رهيباً: "يا للعنة! هذا الطفل سيصير كاتباً".

ولأنه هو، الذي يعيش من الكتابة، من قال ذلك، فقد سبب لي انفعالاً عظيماً. وقد مرت عدة سنوات قبل أن أعرف أن ذلك الكتاب هو "ألف ليلة وليلة". وأكثر قصة أعجبتني فيه – إحدى أقصر القصص التي قرأتها وأبسطها – ستبقى تبدو لي الأفضل طوال ما تبقى من حياتي، مع أنني غير متأكد الآن مما إذا كنت قد قرأتها هناك. ولم يستطع أحد أن يوضح لي ذلك. والقصة هي التالية: صياد يعد جارته بأن يهدي إليها أول سمكة يصطادها، إذا ما قدمت له قطعة رصاص من أجل شبكته. وعندما تشق المرأة السمكة لكي تقليها، تجد في داخلها ماسة بحجم حبة لوز.

لقد ارتبطت حرب البيرو، في ذاكرتي، بانحدار كاتاكا؛ لأنه ما إن أعلن السلام حتى تاه والدي في متاهة من عدم اليقين، انتهت أخيراً بانتقال الأسرة إلى مسقط رأسه، في قرية سينثي. وكان ذلك الانتقال في الواقع، بالنسبة لي وللويس إنريكي، وقد رافقناه في رحلة الاستطلاع، مدرسة جديدة في الحياة، وثقافة شديدة الاختلاف عن ثقافتنا بحيث تبدوان وكأنهما كوكبان مختلفان. منذ اليوم التالي لوصولنا، أخذونا إلى البساتين المجاورة، وهناك تعلمنا امتطاء الحمار، وحلب الأبقار، وخصي العجول، ونصب أفخاخ للتدرج، والصيد بالشص، وفهم سبب بقاء الكلاب ملتحمة بإناثها. كان لويس إنريكي يمضي دوماً، متقدماً عليّ كثيراً، في اكتشاف العالم الذي كانت الجدة مينا تحظره علينا؛ بينما كانت الجدة أرخيميرا تحدثنا عنه في سينثي دون أدنى

تستر. الكثير من الأعمام والعمات، والكثير من أبناء العمومة مختلفي الألوان، والكثير من الأقارب ذوي الكنى الغريبة، يتكلمون رطانة لهجات شديدة التنوع، كانت تثير فينا أول الأمر من البلبلة، أكثر مما تثيره من التعرف على الجديد. إلى أن فهمنا ذلك على أنه طريقة أخرى في المحبة. والد أبي، دون غابرييل مارتينيث، وهو معلم مدرسة أسطوري، استقبلني أنا ولويس إنريكي، في فناء بيته المزروع بأضخم أشجار تحمل أشهر ثمار المانجا، بطعمها وحجمها، في البلدة. كان يحصي الثمار واحدة واحدة، كل يوم منذ بدء المحصول السنوي، ويقطفها واحدة فواحدة بيده، في لحظة بيعها بثمن مغرٍ هو خمسة سنتات لكل واحدة. وعندما ودّعنا، بعد محادثة ودية عن ذكرياته كمعلم جيد، قطف ثمرة مانجا، من أكثر الأشجار ضخامة، وقدمها إلينا، نحن الاثنين.

كان أبي قد سوّق لنا تلك الرحلة باعتبارها خطوة مهمة على طريق لمّ شمل الأسرة. ولكننا أدركنا منذ وصولنا، أن هدفه السري هو فتح صيدلية في الساحة الرئيسية الكبرى. وقد جرى تسجيلي، أنا وأخي، في مدرسة المعلم لويس غابرييل ميسا، حيث شعرنا بأننا أكثر حرية وأفضل اندماجاً بالمجتمع الجديد. استأجرنا بيتاً فسيحاً جداً، عند أفضل ناصية في القرية، مؤلفاً من طابقين وشرفة بارزة فوق الساحة. يتردد طوال الليل، في غرف نومه الكئيبة، تغريدُ شبح كروان غير مرئي.

كان كل شيء جاهزاً من أجل قدوم أمي وأخواتي السعيد، عندما وصلتنا برقية تحمل خبر موت الجد نيكولاس ماركيز. لقد أصيب باعتلال مفاجئ في حنجرته، جرى تشخيصه على أنه سرطان في آخر مراحله. ولم يكد يتسع الوقت لأكثر من أخذه إلى سانتا مارتا، ليموت

هناك. والوحيد منا الذي رآه الجد، في احتضاره، هو أخي غوستافو. وكان قد ولد قبل ستة شهور، فوضعه أحدهم في سرير الجد لكي يودعه. فداعبه الجد المحتضر مداعبة وداع. وقد احتجت لسنوات طويلة، كي أعي ما تعنيه بالنسبة لي، تلك الميتة غير المتوقعة.

جرى الانتقال إلى سينثي على كل حال، ليس مع الأبناء وحدهم، وإنما كذلك مع الجدة مينا، والعمة ماما؛ وكانت مريضة، وكلتاهما تحت الرعاية الطبية للعمة با. ولكن سعادة التجديد وفشل المشروع، حدثا في الوقت نفسه تقريباً. فعدنا جميعنا، خلال أقل من سنة، إلى البيت القديم في كاتاكا "ونحن نهز القبعة"، مثلما كانت تقول أمي، في المواقف التي لا علاج لها. ظل أبي في بارانكيا، يدرس طريقة لفتح صيدليته الرابعة.

آخر ذكرياتي عن بيت كاتاكا، في تلك الأيام المريعة، هي ذكرى محرقة الفناء، التي أحرقوا فيها ملابس الجد. كانت سترته ذات الجيوب الحربية، وبدلاته الكتانية البيضاء ككولونيل مدني، تشبهه كما لو أنه لا يزال حياً فيها، بينما هي تحترق. وبخاصة قبعاته المخملية الكثيرة متعددة الألوان التي كانت أفضل سمة فارقة تميزه من بعيد. وقد تعرفتُ، بينها، على قبعتي ذات المربعات الاسكتلندية التي أحرقت بسبب السهو. وقد هزني إحساس بأن طقوس الإبادة تلك، تمنحني دور بطولة مؤكدة في موت الجد. اليوم أرى ذلك بوضوح: هناك شيء خاص بي قد مات معه. ولكنني أعتقد أيضاً، دون أي شك، أنني كنت منذ تلك اللحظة، كاتباً لا يزال في المدرسة الابتدائية. لا ينقصه إلا تعلم الكتابة.

وكانت هذه الحالة المعنوية نفسها هي التي شجعتني على مواصلة

عيش الحياة، حين خرجت مع أمي من البيت الذي لم تستطع بيعه. وبما أنه يمكن لقطار العودة أن يأتي في أي وقت، فقد ذهبنا إلى المحطة دون أن نفكر حتى في أن نحيي أي شخص آخر. "سنعود مرة أخرى لوقت أطول"، قالت هي ذلك، بالعبارة الملطفة الوحيدة التي خطرت لها، لتشير إلى أنها لن تعود مطلقاً. أما أنا من جهتي، فكنت أعرف حينئذ أنني لن أتوقف أبداً طوال حياتي، عن الحنين إلى رعد الساعة الثالثة.

كنا الشبحين الوحيدين في المحطة، عدا الموظف ذي الأفرهول الذي يبيع التذاكر، ويقوم بالأعمال التي كانت تتطلب في أزمنتنا عشرين أو ثلاثين رجلاً متعجلين. كان الحر رهيباً. وعلى الجانب الآخر من سكة القطار، لم تكن هناك سوى بقايا المدينة المحرمة التي أقامتها شركة الموز، ببيوتها القديمة دون القرميد الأحمر، وأشجار النخيل الذاوية بين الآجام، وأنقاض المستشفى. وفي أقصى التل الترابي، بيت المونتسوري، مهجوراً بين أشجار لوز هرمة. وساحة ملح البارود الصغيرة، قبالة المحطة، دون أدنى أثر من عظمتها التاريخية.

كان كل شيء، بمجرد النظر إليه، يستثير في نفسي لهفة جامحة إلى الكتابة، كيلا أموت. لقد عانيت ذلك الشعور من قبل، ولكنني في ذلك الصباح فقط، تعرفت عليه، على أنه اللحظة السابقة للإلهام. هذه الكلمة البغيضة، إنما الواقعية إلى حدّ جَرْفِ كل ما تصادفه في طريقها، لكي تصل في الموعد، إلى رمادها.

لا أتذكر أننا تحدثنا شيئاً، حتى في قطار العودة. وعندما صرنا في المركب، في فجر يوم الاثنين، مع النسمة الباردة في ثيناغا الهاجعة، انتبهت أمي إلى أنني، أنا أيضاً لم أنم. فسألتني:

- بمَ تفكر؟

- إنني أكتب - أجبتها، ثم أسرعت في محاولة الظهور بمظهر أكثر لطفاً:- أعني أنني أفكر في ما سوف أكتبه، عندما أصل إلى المكتب.

- ألا تخاف أن يموت أبوك من الأسى؟

فتملصت بالتفافة طويلة.

- كانت لديه أسباب كثيرة للموت، وهذا أقلها إماتة.

لم يكن الوقت المناسب لأغامر في كتابة رواية ثانية، بعد أن غصت في وحل الأولى، وبعد أن حاولت، بحسن الحظ أو من دونه، أشكالاً أخرى من القص المتخيل. ولكنني أنا نفسي، فرضت الأمر على نفسي في تلك الليلة، كالتزام حربي: إما أن أكتب هذه الرواية وإمّا أموت. أو مثلما قال ريلكه: "إذا كنتَ تظن أنك قادر على العيش دون كتابة، فلا تكتب".

من سيارة التكسي التي نقلتنا حتى مرفأ المراكب، بدت لي مدينتي القديمة بارانكيّا، غريبة وكئيبة، على أول أنوار ذلك اليوم القدري من شباط. دعاني قبطان السفينة "إيلينا ميرثيدس" لمرافقة أمي حتى بلدة سوكري، حيث كانت تقيم الأسرة، منذ نحو عشر سنوات. ولكني لم أفكر في الأمر مجرد تفكير. ودّعتها بقبلة، ونظرت هي إلى عينيّ، وابتسمت لي لأول مرة، منذ المساء السابق، وسألتني بمكرها الدائم:

- إذاً ماذا سأقول لأبيك؟

فأجبتها، وقلبي في يدي:

- قولي له إنني أحبه كثيراً، وإنني بفضله سأصير كاتباً.- ثم سارعتُ إلى قطع الطريق على أية خيارات أخرى، دون شفقة:- كاتب ولا شيء آخر.

كنتُ أحب قول ذلك، في بعض المرات مازحاً، وفي مرات أخرى بجد. ولكنني لم أقله بكل تلك القناعة، كما في ذلك اليوم. بقيت في المرفأ، أرد على تلويحات الوداع البطيئة التي تقوم بها أمي من شرفة المركب. ثم مضيت بعد ذلك مسرعاً إلى مكتب جريدة الهيرالدو، منفعلاً باللهفة التي تنهشني من الداخل. وبدأت، دون أن ألتقط أنفاسي، كتابة الرواية الجديدة بالجملة التي قالتها أمي: "جئت أطلب منك معروفاً بأن ترافقني لبيع البيت".

كان منهجي آنذاك مختلفاً عن الذي تبنيته فيما بعد، ككاتب محترف. كنت أكتب بالسبابتين فقط - مثلما ظللت أفعل حتى الآن - ولكنني لم أكن أمزّق كل فقرة، إلى أن تصير وفق ذوقي - مثلما أفعل الآن -، وإنما كنت أطلق العنان لإفراغ كل المادة الخام التي أحملها في أعماقي. أظن أن ذلك النظام فرض نفسه علي، بسبب مقاسات الورق الذي كان على شكل أشرطة عمودية مقصوصة من لفافة المطبعة، يمكن لكل شريط منها أن يكون بطول خمسة أمتار. وكانت المحصلة أصولاً طويلة وضيقة مثل أوراق بردي تخرج كشلال من الآلة الكاتبة، وتمتد على الأرض، كلما تقدم أحدنا في الكتابة. لم يكن رئيس التحرير يقدر المقالات التي يكلفنا بكتابتها، بعدد الصفحات أو الكلمات أو الحروف، وإنما بالسنتيمترات الورقية. فكان يقول: "أريد ريبورتاجاً بطول متر ونصف". لقد عاودني الحنين إلى ذلك القطع، وأنا في أوج النضوج، عندما انتبهت إلى أنه يشبه، عملياً، شاشة الكمبيوتر.

الاندفاع الذي بدأت به الرواية، كان بلا كابح، إلى حد فقدت معه الإحساس بالوقت. وفي الساعة العاشرة صباحاً، كنت قد كتبت أكثر من

متر، عندما فتح ألفونسو فوينمايور الباب الرئيسي فجأة، وبقي متجمداً، والمفتاح في القفل، كما لو أنه أخطأ وفتح الحمام. إلى أن تعرف عليّ.

- وأنت، أي لعنة تفعلها هنا، في هذه الساعة! - قال لي متفاجئاً.

فقلت له:

- إنني أكتب رواية حياتي.

- واحدة أخرى؟ - قال ألفونسو بسخريته الجاحدة، وأضاف:- يبدو أن لك، من الحيوات، أكثر ممّا لقط.

- إنها الرواية نفسها، ولكن بطريقة أخرى - قلت ذلك، كيلا أقدم له تفسيرات غير مجدية.

لم نكن نتخاطب برفع الكلفة، كما هي العادة الكولومبية الغريبة، منذ التحية الأولى، ثم الانتقال بعد ذلك إلى التخاطب بتوقير، عندما يتم التوصل إلى قدر كبير من الثقة المتبادلة - مثلما يحدث بين الأزواج.

أخرج كتباً وأوراقاً من الحقيبة المهترئة، ووضعها على المنضدة. وفي أثناء ذلك، استمع بفضوله الذي لا يرتوي إلى الانقلاب الانفعالي الذي حاولت نقله إليه، بالقصة الجامحة عن رحلتي. وأخيراً، وعلى سبيل الإيجاز، لم أستطع تفادي نكبتي في أن ألخص، في جملة واحدة، ما لم أستطع تفسيره. فقلت له:

- هذا أعظم ما حدث لي، في الحياة.

فقال ألفونسو:

- لحسن الحظ، أنه لن يكون الأخير.

بدا كأنه لم يفكر، وهو يقول ذلك، لأنه هو نفسه لم يكن قادراً على تقبل فكرة دون اختزالها، قبل ذلك، إلى حجمها المضبوط. ولكنني كنتُ أعرفه بما يكفي، لألاحظ أن انفعالي بالرحلة، ربما لم يؤثر فيه كثيراً، مثلما كنتُ أنتظر. ولكنه أدهشه دون ريب. وهكذا كان: فمنذ اليوم التالي، بدأ يوجه إليّ كل أنواع الأسئلة العارضة، إنما البارعة، حول سير الكتابة. وكانت أي إيماءة بسيطة منه، كافية لدفعي إلى التفكير في أن هناك شيئاً لا بد من تصحيحه.

وبينما نحن نتكلم، كنتُ قد جمعت أوراقي، لكي أخلي المنضدة. إذ كان يتوجب على ألفونسو أن يكتب في ذلك الصباح، الافتتاحية الأولى لمجلة كرونيكا. ولكن الخبر الذي حمله إليّ أسعد نهاري: فالعدد الأول، المقرر صدوره في الأسبوع التالي، سيتأجل، للمرة الخامسة، بسبب عدم التقيد في موعد تسليم الورق. وقال ألفونسو: إذا حالفنا الحظ، ستصدر المجلة، خلال ثلاثة أسابيع.

فكرت في أن تلك المهلة التي وفرها لي القدر، ستكون كافية لكي أحدد بداية الكتاب؛ فقد كنت ما أزال مبتدئاً جداً لكي ألاحظ أن الروايات لا تبدأ مثلما يريد أحدنا، وإنما مثلما تريد هي. إلى حد أنني، بعد ستة شهور من ذلك، عندما كنت أظن أنني أمضي نحو النهاية السوية، اضطررت إلى إعادة كتابة معمقة للصفحات العشر الأولى، كي يصدقها القارئ. وهي ما زالت تبدو لي حتى اليوم، غير نافعة. ولا بد أن التأجيل كان مواتياً لألفونسو كذلك. لأنه بدل أن يتحسر، خلع سترته وجلس إلى المنضدة، ليواصل تصحيح الطبعة الجديدة، من معجم الأكاديمية الملكية الذي وصلنا في تلك الأيام. لقد كانت تلك، هي

تسليته المفضلة، منذ أن وجد خطأ عارضاً في معجم إنكليزي. وأرسل التصحيح موثقاً إلى ناشري ذلك المعجم في لندن. وربما دون السعي إلى مكافأة أخرى أكثر من إرفاق رسالة التصحيح تلك، بواحدة من دعاباتنا: "أخيراً صارت إنكلترا مدينة للكولومبيين بجميل". وقد ردّ عليه الناشرون برسالة لطيفة جداً، يعترفون فيها بالخطأ، ويطلبون منه مواصلة التعاون معهم. وقد فعل ذلك، لعدة سنوات. ولم يجد عثرات أخرى في المعجم نفسه وحسب، بل في معاجم أخرى بلغات مختلفة. وعندما شاخت العلاقة، كان قد أدمن عادته الفريدة، في تصحيح معاجم بالإسبانية، والإنكليزية، والفرنسية. فإذا كان عليه الجلوس في قاعة انتظار، أو الانتظار في الحافلات، أو في أية صفوف انتظار أخرى في الحياة، كان يشغل نفسه في المهمة المليمترية الدقيقة: تَصيُّد الأخطاء المطبعية، في أدغال اللغات.

كان الحر لا يطاق في الساعة الثانية عشرة. وكان دخان سجائرنا، نحن الاثنين، قد غيّم الضوء الشحيح الذي يدخل من النافذتين الوحيدتين. ولكن أياً منا لم يكلّف نفسه مشقة تهوية الغرفة. ربما بسبب الإدمان الثانوي، بمواصلة تدخين الدخان نفسه حتى الموت. أما الحر، فكانت حالي معه مختلفة. فقد كنتُ أحظى، خَلْقياً، بالقدرة على تجاهله حتى الثلاثين درجة مئوية في الظل. أما ألفونسو، بالمقابل، فراح يخلع ملابسه، قطعة بعد أخرى، مع اشتداد الحر، دون أن يقطع عمله: بدأ بربطة العنق، ثم القميص، ثم القميص الداخلي. وكان في سلوكه ذاك، فائدة أخرى هي أن ثيابه تظل جافة، بينما هو يذوب في العرق، ويستطيع ارتداءها من جديد، عندما تميل الشمس، مكوية جيداً،

وطازجة، مثلما كانت عند الفطور. ولا بد أن هذا هو السر في ظهوره المتأنق دائماً، وفي أي مكان، ببدلاته الكتانية البيضاء، وربطات عنقه ذات العقدة الملوية، وشعره الهندي القاسي والمفروق في منتصف رأسه بخط رياضي متقن. وهكذا كان مرة أخرى، في الساعة الواحدة بعد الظهر، عندما خرج من الحمام، كما لو أنه قد استيقظ من إغفاءة مريحة. وسألني عندما مرّ بجانبي:

– ألا نتغدى؟

فقلت له:

– ليس هناك جوع يا معلم.

كان الرد مباشراً في قانون القبيلة: فلو قلت نعم، فإن ذلك يعني أنني في ضيق شديد، ربما منذ يومين على الخبز والماء. وفي هذه الحالة، أذهب معه دون مزيد من التعليقات. ويكون واضحاً أن عليه تدبر الأمر ليدعوني. أما الرد – ليس هناك جوع – فيمكن أن يعني أي شيء. ولكنها كانت طريقتي في القول له إنني لا أجد مشكلة في تدبر الغداء. اتفقنا على اللقاء في المساء، كما هي العادة، في مكتبة موندو.

بعد الظهر بقليل، جاء رجل شاب يبدو كأنه ممثل سينمائي. كان شديد الشقرة، وبشرة مدبوغة بقسوة المناخ. له عينان زرقاوان غامضتان، وصوت موسيقي دافئ. وبينما نحن نتحدث عن المجلة وشيكة الصدور، رسم على غطاء المنضدة بروفيل ثور هائج بستة خطوط سريعة متقنة، ووقّع على الرسم، مع ملاحظة موجهة إلى فوينمايور. ثم ألقى قلم الرصاص على الطاولة، وودّع بصفق الباب بقوة. كنتُ مستغرقاً في الكتابة، حتى إنني لم أنظر إلى الاسم الذي وقّع به على

الرسم. وهكذا واصلت الكتابة، طوال ما تبقى من النهار، دون أن آكل أو أشرب. وعندما نفد ضوء المساء، اضطررت إلى الخروج متلمساً طريقي، ومعي المخططات الأولى للرواية الجديدة، سعيداً باليقين بأنني وجدت أخيراً، طريقاً مختلفاً لشيء كنتُ أكتبه، دون أمل منذ أكثر من سنة.

في تلك الليلة فقط، عرفت أن زائر بعد الظهر، هو الرسام أليخاندرو أوبريغون. وكان قد رجع حديثاً من واحدة أخرى من رحلاته الكثيرة إلى أوروبا. لم يكن، منذ ذلك الحين، واحداً من أعظم رسامي كولومبيا وحسب، وإنما أحد أكثر الرجال المحبوبين من أصدقائه كذلك. وكان قد استبق عودته بالإخبار بأنه سيشارك في إطلاق مجلة كرونيكا. وجدته مع أصدقائه المقربين في حانة بلا اسم في زقاق النور، في وسط الحي السفلي. وكان ألفونسو فوينمايور قد عمّد تلك الحانة بعنوان كتاب حديث لغراهام غرين: "الرجل الثالث". كانت عَودَاتُ أليخاندرو أوبريغون، تاريخية على الدوام. وبلغت عودته ذروتها في تلك الليلة، في استعراض جدجد مروّض يطيع، مثل كائن بشري، أوامر سيده. يقف على قائمتين، يمد جناحيه، يغني بصفير إيقاعي موزون، ويحيي المصفقين بانحناءات توقير مسرحية. وفي النهاية، وأمام المروّض النشوان بعاصفة التصفيق، أمسك أوبريغون الجدجد من جناحيه، بأطراف أصابعه، ودسه في فمه أمام ذهول الجميع، ومضغه حياً بتلذذ حسي. لم يكن من السهل إرضاء المروّض اليائس بأي نوع من المديح والعطاءات. وقد علمتُ فيما بعد، أنه لم يكن الجدجد الأول الذي يأكله أوبريغون حياً، في استعراضات عامة، ولن يكون الأخير.

لم أشعر قط، مثلما شعرت في تلك الأيام، باندماجي في أجواء تلك المدينة، ونصف دزينة الأصدقاء الذين بدأت سمعتهم بالانتشار في الأوساط الصحفية، باسم جماعة بارانكيا. كانوا كتاباً وفنانين شباباً يمارسون نوعاً من الزعامة على حياة المدينة الثقافية. تقودهم يد المعلم الكتلاني دون رامون فينيس، المسرحي والمكتبي الأسطوري، والمكرس في موسوعة إسبانيا منذ العام ١٩٢٤.

كنتُ قد تعرفت عليهم في شهر أيلول من السنة السابقة، عندما جئت من كارتاخينا – حيث كنتُ أعيش في ذلك الحين – بتوصية مستعجلة من كليمنتي مانويل ثيبالا، رئيس تحرير صحيفة الأونيفرسال، التي كتبت فيها أولى مقالاتي الصحفية. أمضينا ليلة في الحديث عن كل شيء، وبقينا على اتصال متحمس ودائم، نتبادل الكتب والغمزات الأدبية. وانتهى بي الأمر إلى العمل معهم. كان هناك ثلاثة من الجماعة الأصلية، يتميزون باستقلاليتهم وميولهم الطبيعية: خيرمان بارغاس، وألفونسو فوينمايور، وألفارو سيبيدا ساموديو. وكانت تجمع بيننا أشياء كثيرة مشتركة حتى كان يقال، بسوء نية، إننا أبناء الأب نفسه. ولكننا كنا معروفين، وكانوا يحبوننا قليلاً في بعض الأوساط بسبب استقلاليتنا، وميلنا الجامح، والتصميم الخلاق الذي يشق طريقه بالمناكب، وحياء يحلّ أمره كل واحد منا على طريقته، دون أن يوفق في ذلك دائماً.

كان ألفونسو فوينمايور كاتباً وصحفياً بارعاً، في الثامنة والعشرين من عمره. واظب لوقت طويل، على كتابة عمود يومي عن الوقائع الراهنة في جريدة الهيرالدو بعنوان "جو اليوم"، وبالاسم

الشكسبيري المستعار "بوك". وكلما ازداد تعرفنا على استهتاره وحسه الساخر، كان فهمنا يتضاءل حول أنه قرأ الكثير من الكتب، بأربع لغات، وفي كل الموضوعات التي يمكن تخيلها. وقد كانت تجربته الحيوية الأخيرة، حين صار في الخمسين من عمره تقريباً، هي سيارة هائلة في حالة يرثى لها، كان يقودها بكل مجازفة بسرعة عشرين كيلومتراً في الساعة. وكان سائقو سيارات التاكسي، أصدقاؤه الحميمون وأكثر قُرّائه حكمة، يتعرفون عليه من بعيد، فيقفون جانباً، ليفسحوا له الطريق.

أما خيرمان بارغاس كانتيُو، فكان كاتب عمود في مسائية "إلناسيونال". ناقد أدبي دقيق ولاذع، وصاحب نثر خدوم يمكن له أن يقنع القارئ بأن الوقائع تحدث، لأنه هو الذي يرويها فقط. كان أحد أفضل مذيعي الإذاعة، وأوسعهم ثقافة، دون شك، في أزمنة المهن الجديدة الطيبة تلك، ونموذجاً جيداً لكاتب التحقيقات الطبيعي الذي كنتُ أرغب في أن أكونه. أشقر وذو عظم قاس، وعينين زرقاوين زرقة خطرة. ولم يكن بالإمكان، فهم متى أمكن له الاطلاع لحظة بلحظة، على كل ما هو جدير بأن يُقرأ. لم يتوانَ لحظة واحدة عن هوسه المبكر في اكتشاف قيم أدبية خفية في أنحاء بروبينثيا القصية المنسية، ليعرضها أمام الملأ. ومن حسن الحظ، أنه لم يتعلم قيادة السيارات قط، في جمعية الساهين تلك، لأننا كنا نخشى ألا يتمكن من مقاومة إغراء القراءة، وهو يسوق.

أما ألفارو سيبيدا ساموديو، بالمقابل، فكان سائقاً مهووساً قبل أي شيء آخر – سائق سيارات وآداب على السواء –؛ فهو قصاص من

الجيدين، عندما كان يمتلك إرادة الجلوس لكتابة قصصه؛ وناقد سينمائي بارع، والأوسع ثقافة دون ريب، ومنشط المناظرات الجريئة. كان يبدو غجرياً من ثيناغا غراندي، ذا بشرة مدبوغة ورأس بديع تغطيه خصلات شعر سوداء مشعثة؛ وله عينا مجنون لا تخفيان سهولة الوصول إلى قلبه. نعله المفضل كان صندلاً قماشياً من أرخص الأنواع. ويعض بأسنانه على سيجار ضخم، ومطفأ في أغلب الأحيان. كتب حروفه الأولى، كصحفي، في جريدة "إلناسيونال"، وفيها نشر قصصه الأولى. وفي تلك السنة، كان في نيويورك ينهي دورة متقدمة في الصحافة بجامعة كولومبيا.

عضو مرافق آخر في الجماعة، هو، مع دون رامون، الأكثر تميزاً ومعزة. إنه خوسيه فيلكس فوينمايور، والد ألفونسو. صحفي تاريخي وقصاص من أكبر الكبار. نشر ديوان شعر بعنوان "ربات شعر المدار" سنة ١٩١٠، وروايتين: "كوسمي" سنة ١٩٢٧، و"مغامرة حزينة لأربعة عشر حكيماً"، في سنة ١٩٢٨ . لم يحقق أي من كتبه نجاحاً في المكتبات. ولكن النقد المتخصص اعتبر خوسيه فيلكس، على الدوام، أحد أفضل القصاصين، والمختنق بسرخس بروبيتيا.

لم أكن قد سمعت به قط، عندما تعرفت عليه. وحين تصادف وجودنا وحدنا في ظهيرة أحد الأيام، في مقهى جابي، بهرني على الفور بحكمته وبساطة محادثته. كان محارباً سابقاً وناجياً من سجن مشؤوم في حرب الألف يوم. لم يكن يملك تكوين رامون فينيس. ولكنه كان أقرب إلى نفسي، لطريقته في الحياة، وثقافته الكاريبية. غير أن أكثر ما كان يعجبني فيه، هي فضيلته الغريبة في نقل حكمته، كما لو أنها

مسألة خياطة وغناء. كان محدثاً لا يُهزم، ومعلماً في الحياة. وطريقته في التفكير مختلفة عن كل من عرفتهم، حتى ذلك الحين. كنا أنا وألفارو سيبيدا نقضي ساعات، ونحن نستمع إليه. ولا سيما حول مبدئه الأساسي، بأن الفرق الرئيسي بين الحياة والأدب، هو مجرد خطأ بسيط في الشكل. فيما بعد، لست أدري أين، كتب ألفارو ومضة صائبة: "جميعنا خرجنا من خوسيه فيلكس".

تشكلت الجماعة بطريقة عفوية، بقوة الجاذبية تقريباً، وبمقتضى تآلف راسخ، إنما يصعب فهمه للوهلة الأولى. لقد سُئلنا مرات كثيرة، كيف بقينا متوافقين على الدوام، رغم الاختلاف الكبير فيما بيننا. وكان علينا أن نرتجل أية إجابة، لكي لا نقول الحقيقة: فنحن لم نكن متوافقين دوماً، ولكننا كنا نعرف الأسباب. كنا واعين أنه، خارج إطارنا، تسود عنا صورة المقتدرين، النرجسيين، الفوضويين. ولا سيما بسبب اختلافاتنا السياسية. فكان يُنظر إلى الفونسو على أنه ليبرالي متعصب، وإلى خيرمان على أنه مفكر حر بالإكراه، وإلى ألفارو كفوضوي متعسف، وأنا على أنني شيوعي غير مؤمن وانتحاري كامن. ومع ذلك، فإنني أعتقد دون أدنى تردد، بأن حسن حظنا الأكبر هو أنه كان يمكن لنا، في أشد المآزق حرجاً، أن نفقد صبرنا. ولكن دون أن نفقد مطلقاً حس السخرية.

خلافاتنا القليلة الجدية، كنا نناقشها فيما بيننا. وقد تصل أحياناً إلى درجات حرارة خطرة ولكنها تُنسى مع ذلك فور نهوضنا عن المائدة، أو إذا ما حضر صديق من خارج الجماعة. الدرس الأقل عرضة للنسيان، تعلمته إلى الأبد، في بار "لوس ألميندروس"، في ليلة قريبة العهد

بمجيئي إلى المدينة، دخلت فيها أنا وألفارو في جدال عويص حول فوكنر. وكان الشاهدان الوحيدان على المنضدة هما خيرمان وألفونسو، وقد بقيا على الهامش، صامتين صمت الرخام الذي بلغ حدوداً لا تطاق. لا أذكر في أي لحظة، وأنا مترع بالغضب والخمر الرخيص، تحديت ألفارو لحل النقاش باللكمات. بدأنا كلانا بالنهوض عن المائدة للخروج إلى الشارع، عندما أوقفنا فجأة، صوت خيرمان بارغاس الهادئ بدرس سيبقى إلى الأبد:

– من ينهض أولاً هو الخاسر.

لم يكن أي منا قد بلغ آنذاك الثلاثين من العمر. أنا كنت قد أكملت الثالثة والعشرين. وكنت أصغر الجماعة سناً. وقد تبنوني منذ مجيئي إلى المدينة لأبقى فيها، في شهر كانون الأول السابق. ولكننا عندما نكون على طاولة دون رامون فينيس، نتصرف نحن الأربعة كدعاة الإيمان وطالبيه، معاً على الدوام، متبادلين الحديث في الموضوع نفسه، وساخرين من كل شيء، ومتفقين تماماً على المعارضة، حتى صار يُنظر إلينا في النهاية، كما لو أننا شخص واحد.

المرأة الوحيدة التي كنا نعتبرها جزءاً من الجماعة، هي ماريا ديلمار. وكانت قد بدأت اندفاعها الشعري، ولكننا لم نكن نتحدث معها إلا في المناسبات القليلة التي نخرج فيها من مدار عاداتنا السيئة. لقد كانت جلسات السمر في بيتها، مع الكتاب والفنانين المشهورين الذين يمرّون بالمدينة، تاريخية. صديقة أخرى لوقت أقصر وتواتر أقل، هي الرسامة سيسيليا بوراس التي كانت تأتي من كارتاخينا، بين حين وآخر، وترافقنا في جولاتنا الليليّة، ولم تكن تهمها

في شيء، نظرة عدم الاحترام التي يُنظر بها إلى النساء، في مقاهي السكارى وبيوت الضياع.

كنا نحن، أفراد الجماعة، نلتقي مرتين في اليوم، في مكتبة موندو، التي تحولت في النهاية إلى مركز اجتماعات أدبية. لقد كانت ملاذ سلام وسط ضجيج شارع سان بلاس، الشريان التجاري الصاخب والملتهب الذي يُفرَّغ من خلاله مركز المدينة، في الساعة السادسة مساء. كنا أنا وألفونسو نكتب حتى بداية الليل، في مكتبنا الملاصق لقاعة التحرير، في جريدة الهيرالدو، مثل تلميذين مجتهدين. هو يكتب افتتاحياته العقلانية الرصينة، وأنا ملاحظاتي الصحفية المشعثة. وكثيراً ما كنا نتبادل أفكاراً من آلة كاتبة إلى أخرى، ونقترض نعوتاً، ونستفسر عن معلومات غادية ورائحة، إلى حد لا نعود نعرف معه، في بعض الحالات، لمن منا هي إحدى الفقرات.

كانت حياتنا اليومية دوماً معروفة المسار مسبقاً. اللهم إلا في ليالي الجمعة التي نكون فيها تحت رحمة الإلهام، ونواصلها أحياناً حتى فطور يوم الاثنين. وإذا ما أطبق علينا الاهتمام، تبدأ نحن الأربعة، حجاً أدبياً دون كابح أو مقاس. يبدأ في حانة "الرجل الثالث" مع حرفيي الحي وميكانيكيي ورشة سيارات، إضافة إلى موظفين عموميين ضالين، وآخرين مثلهم، ولكن بدرجة أقل. وكان أقل أولئك الزبائن غرابة، هو لص بيوت يأتي قبل منتصف الليل بقليل بزي العمل: بنطال راقص باليه، حذاء تنس، قبعة لاقط كرات، وحقيبة أدوات وعدةٌ خفيفة. لقد فاجأه أحدهم، وهو يسرق في بيته، وتمكن من تصويره ونشر الصورة في الصحافة، لعل أحداً يتمكن من التعرف عليه. والشيء الوحيد الذي تم

التوصل إليه هو عدة رسائل من قراء ساخطين، يستنكرون مثل هذه الألعاب القذرة، مع لصوص البيوت اليائسين.

كان اللص صاحب ميول أدبية مسؤولة، لا يضيع كلمة من المحادثات التي تدور حول الفن والأدب، وكنا نعرف أنه المؤلف الخجول لقصائد حب يلقيها على الزبائن، عندما نكون غير موجودين. وكان ينصرف بعد منتصف الليل، للسطو على بيوت المنطقة الغنية، كما لو أنه ذاهب إلى وظيفة. وبعد ثلاث أو أربع ساعات، يأتينا بهدية ضئيلة القيمة، يخرجها من الغنيمة الكبرى قائلاً: "هذا للأطفال"، دون أن يسأل عما إذا كان لدينا أطفال. وعندما يجتذب كتابٌ اهتمامه يهديه إلينا. فإذا كان الكتاب جديراً بالاقتناء، نتبرع به إلى مكتبة الحي العامة التي تديرها ميريا ديلمار.

تلك الجامعات الشوارعية، أشاعت عنا سمعة عكرة، بين النساء الثرثارات اللواتي نلتقي بهن لدى خروجهن من قداس الساعة الخامسة فجراً، فينتقلن إلى الرصيف الآخر، كيلا يصطدمن بمخمورين طلع عليهم الفجر. ولكن لم يكن هناك في الحقيقة، عربدة أكثر نزاهة وخصباً من عربدتنا. وإذا كان هناك من أدرك ذلك فوراً فهو أنا، الذي كنت أرافقهم في صراخهم، في المواخير حول أعمال جون دوس باسوس أو حول الأهداف التي بددها فريق جونيور الرياضي. حتى إن إحدى المومسات في ماخور "القط الأسود"، ضجرت من ليلة كاملة من نقاشاتنا الصاخبة المجانية، فصرخت بنا لدى مرورنا:

– لو أنكم تضاجعون مثلما تصرخون، لكنا نستحم في الذهب!

في أحيان كثيرة كنا نذهب لرؤية شروق شمس اليوم الجديد، في

ماخور بلا اسم، في الحي الصيني، حيث عاش أورلاندو ريفيرا، الملقب "فيغوريتا"، طوال سنوات، بينما هو يرسم جدارية كانت رمزاً لمرحلة. لا أتذكر أحداً خارجاً عن المألوف أكثر منه، بنظرته الغريبة، ولحيته التي كلحية المعزى، وطيبة قلب اليتيم التي يتمتع بها. مذ كان في المدرسة الابتدائية لسعه هوى أن يكون كوبياً. وانتهى به الأمر لأن يكون كوبياً أكثر وأفضل مما لو كانه فعلاً. كان يتكلم، ويأكل، ويرسم، ويلبس، ويحب، ويرقص، ويعيش حياته ككوبي، ومات كوبياً دون أن يعرف كوبا.

لم يكن ينام. وعندما كنا نزوره في الفجر، ينزل قافزاً عن السقالات، وهو أكثر تلطخاً بالألوان من الجدارية التي يرسمها، ويجدف ويشتم بلغة المامبيسيين[1] بتأثير ما تعاطاه من الماريجوانا. كنا أنا وألفونسو نأخذ إليه مقالات وقصصاً لكي يرسم لها رسوماً توضيحية، فنضطر إلى أن نحكيها له بصوت عال، لأنه لا يطيق صبراً على فهمها مقروءة. وكان ينجز الرسوم المطلوبة في هنيهة بتقنيات الكاريكاتير، وهي التقنيات الوحيدة التي يؤمن بها. وتأتي رسومه جيدة على الدوام تقريباً، مع أن خيرمان بارغاس كان يقول، دون خبث، إنها تكون أفضل بكثير، عندما تخرج منه سيئة.

هكذا كانت بارانكيا، مدينة لا تشبه سواها، وبخاصة منذ كانون الأول حتى آذار، عندما تعوّض رياح الصابيات الشمالية عن الأيام الجهنمية، بهبات ليلية نزوية في أفناء البيوت، وتحمل الدجاجات في الجو. فلا يبقى حياً سوى فنادق العابرين، وحانات ملاحي السفن

(١) المامبيسيون mambises: رجال الجيش الثوري الذي أسسه بطل تحرير كوبا، خوسيه مارتي، لخوض حرب التحرر من النير الإسباني. وكانوا في الغالب من الفلاحين والعبيد.

البخارية، حول المرفأ. بعض العصفورات الليليات ينتظرن، ليالي بطولها، زبائن غير مؤكدين، يأتون في السفن النهرية. فرقة موسيقى نحاسية تعزف لحن فالس خامد في طريق أشجار الحور، ولكن لا أحد يستمع إليها، بسبب صراخ السائقين الذين يتجادلون حول كرة القدم بين سيارات التاكسي المتوقفة عند رصيف جادة بوليفار. المكان المحتمل الوحيد هو مقهى روما. وهو مطعم شعبي يؤمه لاجئون إسبان ولا يغلق أبداً لسبب بسيط، هو عدم وجود أبواب له. كما أنه بلا سقف، في مدينة يهطل فيها وابل من الأمطار الطقوسية. ولكن لم يُسمع قط أن هناك من توقف عن تناول عجة بطاطا، أو تخلى عن عقد صفقة بسبب المطر. لقد كان المقهى مكاناً راكداً في العراء العاصف، فيه موائد مستديرة مطلية بالأبيض، وكراسيُ حديدية تحت أشجار أكاسيا وارفة ومزهرة. في الساعة الحادية عشرة، عندما تغلق الصحف الصباحية - الهيرالدو ولابرنسا - أبوابها، يجتمع المحررون الليليون لتناول الطعام. ويكون اللاجئون الإسبان موجودين منذ الساعة السابعة، بعد سماعهم، في البيت، نشرة الأخبار المحكية من البروفيسور خوان خوسيه بيرث دومينيش الذي ما زال يقدم أخباراً عن الحرب الأهلية الإسبانية بعد اثنتي عشرة سنة من خسارته لها.

في ليلة حظ طيب حط هناك الكاتب إدواردو ثالاميا وهو في طريق عودته من غواخيرا، وأطلق رصاصة مسدس على صدره، دون أن تؤدي إلى نتائج خطرة. بقيت المنضدة كلقية أثرية تاريخية يعرضها النُدل على السائحين، دون السماح لهم بالجلوس إليها. بعد سنوات من ذلك، نشر ثالاميا شهادة عن مغامرته في "أربع سنوات على متن نفسي"، الرواية التي فتحت آفاقاً لا ريب فيها أمام جيلنا.

كنتُ أنا الأكثر عوزاً بين أفراد الرابطة. وكنت ألجأ في أحيان كثيرة إلى مقهى روما، لكي أكتب حتى الفجر في ركن منعزل. ذلك أنه كانت لوظيفتيّ كلتيهما مزية التناقض بين كونهما مهمتين وسيئتي الأجر. وهناك كان يفاجئني الفجر، وأنا أقرأ دون رحمة، فإذا ما اشتد عليّ الجوع، أتناول فنجاناً من الشوكولاته الكثيفة مع سندويتش جامبون إسباني جيد، وأتمشى مع أول أنوار الفجر، تحت الأشجار المزهرة في جادة بوليفار. في الأسابيع الأولى كنت أكتب حتى ساعة متأخرة في قاعة تحرير الجريدة، وأنام بضع ساعات في صالة التحرير المقفرة، أو فوق لفائف ورق المطبعة. ولكنني وجدت نفسي مضطراً، مع مرور الوقت، إلى البحث عن مكان أقل أصالة.

وكان من قدم لي الحل، كما في مرات تالية كثيرة أخرى، هم سائقو سيارات التكسي المرحون في جادة بوليفار. إذ اقترحوا عليّ فندق عابرين على بعد كوادرا واحدة عن الكاتدرائية، حيث يمكنني النوم وحيداً، أو مع رفيقة، مقابل بيزو ونصف البيزو. كان البناء قديماً جداً ولكن مُحتَفَظ به في حالة جيدة، على نفقة العاهرات المعدمات اللواتي يتجولن في جادة بوليفار، منذ السادسة مساء، مترصدات غراميات ضالة. كان البواب يدعى لوثيديس. له عين زجاجية زائغة المحور، ويتلعثم حياء. وما زلت أتذكره بامتنان كبير، منذ الليلة الأولى التي ذهبت فيها إلى هناك. ألقى البيزو وخمسين سنتافو في درج منضدة الكونتوار، الممتلئة بالأوراق النقدية المبعثرة والمجعدة، لليلة الأولى، وقدم لي مفتاح الغرفة رقم ستة.

لم أعش أبداً في مكان أكثر هدوءاً. إذ لم يكن يُسمع أكثر من وقع خطوات خامدة، أو دمدمة غير مفهومة. وبين حين وآخر، صرير نوابض

سرير صدئة. ولكن دون سماع همسة أو تنهيدة واحدة: لا شيء. الأمر الشاق الوحيد هو حر الفرن السائد بسبب النوافذ المسمرة بصليب خشبي. ومع ذلك، فقد قرأت منذ الليلة الأولى ويليام إيريش، على خير ما يرام، حتى الفجر تقريباً.

كان البناء منزلاً لمالكي سفن، فيه أعمدة مُلبَّسة بالمرمر وأفاريز من النحاس اللمّاع، تحيط بفناء داخلي مسقوف بزجاج ملون يُشع ببريق دفيئة زراعية. في الطابق السفلي، كانت مكاتب توثيق العقود في المدينة. وفي كل واحد من طوابق البيت الأصلي الثلاثة، ست حجرات كبيرة من المرمر، حُوِّلت بالورق المقوى إلى حجيرات صغيرة – مثل حجرتي – تجمع فيها فتيات الليل السريات محصولهن. وكان محل دق الأعناق السعيد ذاك، قد حمل ذات يوم اسم فندق نيويورك. وقد أطلق عليه ألفونسو فوينمايور، فيما بعد، تسمية ناطحة السحاب، تكريماً للمنتحرين الذين كانوا يلقون بأنفسهم، في تلك السنوات، من الإمباير ستيت بيلدنغ.

ولكن محور حياتنا على كل حال، كان يتركز في مكتبة "موندو"، حيث كنا نذهب في الساعة الثانية عشرة نهاراً، ثم في السادسة مساء. وكان موقع المكتبة في أكثر قطاعات شارع سان بلاس ارتياداً. وقد كان خيرمان بارغاس، الصديق الحميم لصاحب المحل دون خورخي روندون، هو من أقنعه بإنشاء تلك المكتبة التي تحولت، بعد وقت قصير، إلى مركز اجتماع الصحفيين والكتّاب والسياسيين الشباب. لم تكن لدى روندون، خبرة في هذا النوع من التجارة، ولكنه تعلم بسرعة، وبحماس وأريحية حولاه إلى نصير للآداب والعلوم لا يُنسى. لقد كان خيرمان

وألفارو وألفونسو، هم مستشاروه في طلبيات الكتب، ولا سيما الإصدارات الجديدة من بوينس آيرس التي بدأ الناشرون فيها، بعد الحرب العالمية الثانية، بترجمة الجديد في الآداب، من كل أنحاء العالم، وطباعته وتوزيعه بالجملة. وبفضلهم صار بإمكاننا أن نقرأ في حينه، الكتب التي ما كان يمكن لها أن تصل إلى المدينة بطريقة أخرى. وكانوا هم أنفسهم يشجعون الزبائن. واستطاعوا أن يعيدوا تحويل بارانكيا إلى مركز القراءة الذي انحدر في سنوات سابقة، عندما اختفت من الوجود، مكتبة دون رامون التاريخية.

لم يكن قد انقضى وقت طويل على مجيئي إلى المدينة، عندما انضممت إلى تلك الجماعة الأخوية التي تنتظر بائعي كتب دور النشر الأرجنتينية الجوالين، كمبعوثين من السماء. وصرنا بفضلهم، من المعجبين المبكرين بخورخي لويس بورخيس، وخوليو كورتاثار، وفيلسبيرتو هيرنانديث، والروائيين الإنكليز والأمريكيين، في ترجمات جيدة تنجزها عصابة فيكتوريا أوكامبو. وكانت "فولذة ثائر" لأرتورو باريا، هي أول رسالة تحمل الأمل من إسبانيا النائية ومغيبة الصوت، بعد حربين متتاليتين. أحد أولئك الباعة الجوالين، وهو غييرمو دافالو، الدقيق في موعده، كان يتميز بعادته الحميدة في المشاركة في حفلاتنا الليلية، ويهدي إلينا نسخ النماذج من الكتب الجديدة بعد أن ينجز صفقاته في المدينة.

من كانوا يعيشون بعيداً عن مركز المدينة، لم يكونوا يذهبون ليلاً إلى مقهى روما، ما لم يكن هناك سبب محدد. أما أنا، فكان المقهى هو البيت الذي لا أملكه. كنتُ أعمل في الصباح في قاعة تحرير "الهيرالدو" الهادئة، وأتغذى كيفما أستطيع، وعندما أستطيع، وأينما

أستطيع. ولكن، مدعواً على الدوام تقريباً من جماعة الأصدقاء الطيبين والسياسيين ذوي المصالح. وفي المساء، أكتب زاويتي الصحفية اليومية "الزرافة"، وأي نص عابر آخر. وفي الساعة الثانية عشرة ظهراً والسادسة مساء، كنت الأكثر دقة وانتظاماً في الذهاب إلى مكتبة موندو. أما مقبلات ما قبل الغداء التي ظلت الجماعة تتناولها طوال سنوات، في مقهى كولومبيا، فقد انتقلت فيما بعد، إلى "مقهى جابي"، على الرصيف المقابل، لأنه أكثر الأماكن المطلة على شارع سان بلاس، تهوية ومرحاً. وكنا نستقبل فيه الزيارات، ونستخدمه كمكتب، ومكان لعقد الصفقات، وإجراء المقابلات، ونقطة التقاء سهلة.

كان لمنضدة دون رامون، في مقهى جابي، قوانين فرضتها العادة ولا سبيل إلى خرقها. فهو أول من يصل، لأن دوام عمله كمعلم ينتهي في الرابعة مساء، ولم تكن الطاولة تتسع لأكثر من ستة منا. وقد اخترنا أماكننا انطلاقاً من العلاقة بمكانه. وكانت إضافة كرسي جديد، لا متسع له، تعتبر تصرفاً غير لائق. وبسبب قدم الصداقة ومستواها، جلس خيرمان إلى يمينه، منذ اليوم الأول. وكان المسؤول عن شؤونه المادية. فهو يحلها له حتى لو لم يطلب منه ذلك، لأنه لم يكن بمقدور العلامة، بميل طبيعي خلقي، التفاهم مع الحياة العملية. وقد كانت المسألة الأساسية في تلك الأيام، هي بيع كتبه إلى مكتبة الحي العامة، وتصفية أشياء أخرى قبل سفره إلى برشلونة. وكان خيرمان يبدو أشبه بابن بار أكثر منه سكرتيراً.

أما علاقة دون رامون بألفونسو، فكانت ترتكز بالمقابل على مسائل أدبية وسياسية أكثر صعوبة. في حين كان ألفارو، يبدو لي دوماً معطل

الإرادة، عندما يجد نفسه وحيداً على الطاولة، مع دون رامون، ويحتاج إلى حضور آخرين لكي يبدأ الإبحار. الكائن البشري الوحيد الذي كان يتمتع بحرية اختيار المكان على المنضدة، هو خوسيه فيلكس. وفي الليل، لم يكن دون رامون يذهب إلى "جابي"، وإنما إلى مقهى روما مع أصدقاء منفاه الإسبان.

آخر من انضم إلى منضدته هو أنا. ومنذ اليوم الأول جلستُ، دون أي حق، على كرسي ألفارو سيبيدا الذي كان في نيويورك. وقد استقبلني دون رامون كتلميذ آخر له، لأنه كان قد قرأ قصصي القصيرة في جريدة الاسبكتادور. ولكنه لم يكن ليتصور قط، مع ذلك، أنني سأصل في الثقة معه إلى حد الطلب منه أن يقرضني النقود، من أجل رحلتي إلى آراكاتاكا مع أمي. بعد وقت قصير من ذلك، وبمصادفة لا يمكن تصورها، أجريت محادثتي الأولى والوحيدة معه على انفراد، عندما ذهبت إلى "جابي" في وقت مبكر، قبل الآخرين، لأدفع له، دون شهود، البيزوات الست التي أقرضني إياها.

– أهلاً بالعبقري – حياني كالعادة. ولكن شيئاً في وجهي أثار قلقه، فأضاف:– هل أنت مريض؟

فقلت له باضطراب:

– لا أظن يا سيدي. لماذا؟

– أراك نحيلاً – قال هو، ثم أضاف:–، ولكن لا تهتم بما أقوله، فجميعنا في هذه الأيام نمضي fotuts del cul[1].

(١) بالكتلانية في الأصل، وهي عبارة بذيئة تعني، بصورة تقريبية، "جميعنا متخوزقون في مؤخراتنا".

خبأ البيزوات الستة في محفظته بحركة متحفظة، كما لو أنها نقود كسبها بطريقة غير مشروعة، ثم أوضح لي وهو يحمرُّ خجلاً:

– إنني آخذها كذكرى، من شاب فقير جداً، استطاع أن يرد ديناً، دون أن يُطالب به.

لم أجد ما أقوله، وظللت غارقاً في صمت تحملته مثل بئر رصاص، وسط لغط الصالة. لم أكن أحلم قط، بأن يحالفني الحظ بذلك اللقاء. وكان لدي إحساس بأن كل واحد منا، في أحاديث الجماعة، يساهم بحبة رمل في الفوضى، وتختلط دعابات كل واحد وتفاهاته، بدعابات وتفاهات الآخرين. إنما لم يكن يخطر لي أبداً أنه سيكون بإمكاني التحدث عن الفنون والمجد، على انفراد، مع رجل يعيش منذ سنوات في موسوعة[1]. في فجر أيام كثيرة، بينما أنا أقرأ في وحدة حجرتي، كنت أتخيل حوارات مثيرة، أتمنى تبادلها معه حول شكوكي الأدبية. ولكنها كانت تذوب دون أن تخلّف أثراً مع أول أنوار الشمس. وكان خجلي يتضاعف، عندما يندفع ألفونسو بواحدة من أفكاره العظيمة، أو يستنكر خيرمان رأياً متعجلاً يطرحه المعلم، أو يصيح ألفارو بمشروع يخرجنا عن طورنا.

لحسن الحظ، أن دون رامون هو من بادر، في ذلك اليوم، في مقهى جابي، إلى سؤالي عن حال قراءاتي. وكنت قد قرأت حتى ذلك الحين، كل ما استطعت العثور عليه من أعمال جيل الضياع، بالإسبانية، مع اهتمام خاص بفوكنر الذي كنت أتتبعه وأجرّبه بإلحاح شفرة حلاقة

(١) المعنى هنا مجازي، وهو إشارة إلى أن اسم دون رامون فينيس، كما ذكر قبل صفحات قليلة، وارد في موسوعة إسباسا إي كالبيس الإسبانية الشهيرة منذ عام ١٩٢٤.

دموية، بسبب خوفي الغريب من ألا يكون، على المدى البعيد، أكثر من بلاغي ماكر. بعد أن قلت ذلك، هزني الحياء من أن أبدو استفزازياً، وحاولت أن أخفف من وقع ما قلته، ولكن دون رامون لم يتح لي الوقت، وردّ عليَّ، بهدوء أعصاب:

– لا تقلق يا غابيتو؛ فلو كان فوكنر في بارانكيّا، لوجدته على هذه الطاولة.

وقد لاحظ من جهة أخرى أنني أولي اهتماماً كبيراً لرامون غوميث دي لا سيرنا، وأستشهد به في "الزرافة" إلى جانب روائيين لا يتطرق الشك إليهم. فأوضحت له بأنني لا أفعل ذلك، إعجاباً برواياته. لأنه، باستثناء "فيلا الورود" التي أعجبتني كثيراً، فإن ما يهمني فيه، جرأة قريحته وموهبته الشفوية، ولكن كرياضة إيقاعية، من أجل تعلم الكتابة فقط. وفي هذا الاتجاه، لا أذكر جنساً أدبياً أشد ذكاء من "غريغيرياته"[1] المشهورة. فقاطعني دون رامون بابتسامة لاذعة:

– الخطر عليك هو في أن تتعلم الكتابة بصورة سيئة، دون أن تلحظ ذلك.

ومع ذلك، فقد اعترفَ قبل إغلاق الموضوع بأن غوميث دي لا سيرنا، كان شاعراً جيداً، وسط فوضاه ذات الوميض الفسفوري. هكذا كانت ردوده، مباشرة وحكيمة. وكنتُ أكاد لا أجد أعصاباً لتمثلها، وأنا مختنق بالخوف من أن يقطع علينا أحدهم تلك الفرصة الوحيدة. ولكنه كان يعرف كيف يتحكم بتلك الردود ويفسرها. أحضر له نادله المعهود

(١) غريغيريا gregueria، صورة نثرية تقدم رؤية شخصية لأحد مظاهر الواقع، وهي تسمية ابتدعها في إحدى نزواته، الكاتب رامون غوميث دي لا سيرنا، وأطلقها على أحد مؤلفاته سنة ١٩١٢.

كوكا كولا الساعة الحادية عشرة والنصف، وبدا هو كما لو أنه لم ينتبه. ولكنه تناولها ورشف منها رشفة بمصاصة ورقية، دون أن يقطع شروحاته. كان معظم الزبائن يحيّونه، بصوت عال من الباب: "كيف حالك يا دون رامون". فيرد عليهم، دون النظر إليهم، بحركة من يده التي كيد فنان.

وبينما دون رامون يتكلم، كان يوجه نظرات خفية إلى حافظة الأوراق الجلدية التي كنت أتشبث بها، بكلتا يدي، بينما أنا أستمع. وعندما انتهى من تناول الكوكا كولا الأولى، لوى المصاصة الورقية كلولب وطلب الثانية. فطلبتُ واحدة لي، وأنا أعرف جيداً أن كل شخص يدفع حسابه، على تلك المنضدة. وأخيراً سألني عن حافظة الأوراق الغامضة التي أتشبث بها، مثلما يتشبث الغريق بخشبة.

أخبرته بالحقيقة: إنها مسودة الفصل الأول من الرواية التي بدأت بكتابتها، إثر العودة من كاتاكا مع أمي. وبجرأة لن أستطيع العودة إلى مثلها أبداً، في لحظات الحياة أو الموت، وضعت الحافظة، مفتوحة على المنضدة أمامه، كاستفزاز بريء. صوب إليّ حدقتيه الصافيتين بزرقة خطرة، وسألني وهو مندهش قليلاً:

– هل تسمح لي؟

كانت المسودات مكتوبة على الآلة الكاتبة، مع ما لا حصر له من الشطب والتصحيح، على شرائط ورق مطبعة مطوية مثل منفاخ أكورديون. وضع، دون تسرع، نظارة القراءة، وفتح الشرائط الورقية ببراعة احترافية، وفردها على المنضدة. قرأ دون أن يأتي بأي حركة، ودون أي تلون في بشرته، ودون أي تبدل في أنفاسه، بينما خصلة شعر على رأسه، كأنها ناصية ببغاء، تتحرك مع إيقاع أفكاره. حركة تكاد لا

تُلحظ. وعندما أنهى قراءة شريطين ورقيتين كاملتين، أعاد طيّهما بصمت وبفن قروسطي، وأطبق الحافظة. ثم خبأ عندئذ نظارته في جرابها، ووضعه في الجيب، على صدره.

– يبدو واضحاً أنها لا تزال مادة خام، مثلما هو منطقي – قال لي ذلك ببساطة عظيمة، ثم أضاف:– ولكنها جيدة.

أبدى بعض التعليقات الهامشية، حول استخدام الزمن الذي كان مشكلة حياة أو موت بالنسبة لي، وهو الأسهل دون ريب، ثم أضاف:

– يجب أن تكون واعياً بأن الدراما قد حدثت، وأن الشخصيات ليست موجودة، إلا لاستذكارها، وهكذا عليك خوض الصراع مع زمنين.

وبعد سلسلة من التفصيلات التقنية الدقيقة التي لم أستطع تقدير قيمتها، لضحالة تجربتي، نصحني بألا يكون اسم مدينة الرواية بارانكيا، مثلما هو مقرر لديّ في المسودة، لأنه اسم معروف جداً في الواقع، مما لا يترك للقارئ سوى هامش ضيق للحلم. ثم انتهى إلى القول، بنبرته الساخرة:

– أو تصرّف كفلاح، وانتظر أن يسقط عليك الاسم من السماء. أضف إلى ذلك أن أثينا سوفوكلس، لم تكن قط، في نهاية المطاف، هي نفسها أثينا أنتيغون.

ولكن ما التزمت به حرفياً إلى الأبد، هو الكلمات التي ودعني بها في ذلك المساء:

– أشكر احترامك لي، وسأكافئك عليه بنصيحة: لا تعرض على أحد أبداً مسودة، ما زلت تكتبها.

كانت تلك هي محادثتي الوحيدة معه على انفراد. ولكنها تغني

عن كل المحادثات، لأنه سافر إلى برشلونة في الخامس عشر من نيسان سنة ١٩٥٠، مثلما كان مقرراً منذ أكثر من سنة، متضائلاً في بدلة الجوخ السوداء، وقبعة الموظفين. كان ذلك أشبه بتسفير تلميذ مدرسة. وكان بصحة جيدة ويكامل وضوحه الذهني، وهو في الثامنة والستين. ولكننا نحن الذين رافقناه إلى المطار، ودعناه كشخص عائد إلى مسقط رأسه، ليحضر جنازته بالذات.

في اليوم التالي فقط، عندما وصلنا إلى موائدنا في مقهى جابي، لاحظنا الفراغ الذي تبقى في كرسيه. ولم يتجرأ أحد على شغل ذلك الكرسي، قبل أن نتوصل إلى الاتفاق بأن يكون خيرمان هو من يشغله. وقد احتجنا إلى بضعة أيام، لكي نعتاد على الإيقاع الجديد لأحاديثنا اليومية، حتى وصلت الرسالة الأولى من دون رامون، فبدت كما لو أنها مكتوبة بصوته الحي، وكانت بخطه الدقيق ذي الحبر البنفسجي. وهكذا بدأت مراسلاته معنا جميعاً من خلال خيرمان، مراسلات متواترة وزخمة، يروي فيها القليل عن حياته، والكثير عن إسبانيا التي كان يعتبرها أرضاً معادية مادام فرانكو حياً، وبقيت السيطرة الإسبانية على كاتالونيا.

كانت فكرة إصدار المجلة الأسبوعية من بنات أفكار ألفونسو فوينمايور، وسابقة لتلك الأيام بوقت طويل. ولكنني أظن أن سفر العلامة الكتلاني سرّع المشروع. ففي أثناء اجتماعنا في مقهى روما، بعد ثلاث ليال من سفره، أخبرنا ألفونسو بأن كل شيء صار جاهزاً لإصدار المجلة. ستكون أسبوعية منوعة من عشرين صفحة، صحافية وأدبية. اسمها – كرونيكا – لن يعني الكثير لأحد. وقد بدا لنا من

قبيل الهذيان أننا لم نستطع الحصول على الموارد حيث يتوفر فائض منها، بينما تمكن ألفونسو فوينمايور من الحصول عليها من الحرفيين، وميكانيكيي السيارات، والموظفين المتقاعدين، وحتى من أصحاب الحانات المتواطئين الذين وافقوا على أن يدفعوا مشروب رُوم القصب، مقابل الإعلانات. إنما كانت هناك أسباب للتفكير في أنها ستقابل بالترحيب، في مدينة تحافظ، وسط ضوضائها الصناعية وكبريائها المدني، على توقير حي للشعراء.

وسيكون المشاركون المنتظمون، فضلاً عنا، قليلين. المحترف الوحيد الذي لديه خبرة جيدة هو كارلوس أوسيس نوغيرا – الشاعر أوسيو –، وكان شاعراً وصحفياً يتمتع بخفة ظل خاصة جداً وجسد هائل. موظف حكومي ورقيب في جريدة الناسيونال، حيث عمل مع ألفارو سيبيدا وخيرمان بارغاس. ومشارك آخر هو روبيرتو (بوب) بريتو، علامة من الوسط الاجتماعي الراقي، يمكنه أن يفكر بالإنكليزية أو الفرنسية على أحسن وجه، مثلما يفكر بالإسبانية، وأن يعزف على البيانو، من الذاكرة، أعمالاً عديدة لكبار الموسيقيين. أما من لم يكن مفهوماً تضمينه في القائمة التي خطرت لألفونسو فوينمايور، فهو خوليو ماريا سانتودومينغو. لقد فرضه دون تحفظ لنواياه، في أن يكون رجلاً مختلفاً. ولكن ما لم نفهمه هو إيراد اسمه في لائحة هيئة التحرير، في الوقت الذي كان واضحاً أنه مرصود ليكون روكفلر لاتيني، ذكي، مثقف، وودود، ولكن محكوم عليه دون خلاص بالعيش في ضباب السلطة. وقلة هم الذين يعرفون، مثلما كنا نعرف، نحن الأربعة أصحاب فكرة المجلة، أن حلم سنوات عمره الخمس والعشرين السري، هو أن يصير كاتباً.

المدير، بالحق التلقائي، سيكون ألفونسو. أما خيرمان بارغاس فسيكون، قبل أي شيء، كاتب التحقيقات الرئيسي الذي آمل أن أشاركه الحرفة، ليس عندما يتوفر لي الوقت - الذي لم يكن يتوفر لنا مطلقاً - وإنما عندما يكتمل حلمي بتعلمها. وسيرسل إلينا ألفارو سيبيدا مساهماته التي ينجزها في ساعات فراغه بجامعة كولومبيا في نيويورك. وفي نهاية القائمة، لم يكن هناك من هو أكثر مني حرية ولهفة ليعين رئيس تحرير في أسبوعية مستقلة، وغير مؤكدة. وهكذا كان.

كان لدى ألفونسو أرشيف احتياطي منذ سنوات، وأعمال كثيرة أعدّت مسبقاً، في الشهور الستة الأخيرة، مع زوايا رأي، ومواد أدبية، وريبورتاجات متقنة، ووعود بإعلانات تجارية من أصدقائه الأغنياء. رئيس التحرير، غير المرتبط بساعات دوام محددة، والذي خُصص له راتب أعلى من راتب أي صحفي في مثل مستواي، غير أنه مشروط بالأرباح المستقبلية، كان جاهزاً أيضاً لتخرج المجلة في حالة جيدة، وفي موعدها. وأخيراً، في يوم السبت من الأسبوع التالي، عندما دخلت إلى غرفتنا في جريدة الهيرالدو، في الساعة الخامسة، قال لي ألفونسو فوينمايور، دون أن يرفع نظره عن إنهاء مقالته الافتتاحية للجريدة:

- عجل بعملك يا معلم. "كرونيكا" ستصدر في الأسبوع القادم.

لم أرتعب، لأنني كنت قد سمعت الجملة نفسها، في مرتين سابقتين. ومع ذلك، فقد كانت المرة الثالثة ثابتة. كان أعظم حدث صحفي في ذلك الأسبوع - وبأسبقية مطلقة - هو مجيء لاعب كرة القدم البرازيلي هيلينو دي فريتاس للانضمام إلى فريق جونيور

الرياضي. ولكننا لن نتناول الحدث في منافسة مع الصحافة الرياضية المتخصصة، وإنما كخبر ذي أهمية ثقافية واجتماعية كبيرة. فمجلة كرونيكا لن تسمح لنفسها بالتقيد بهذا النوع من التمييز. وأقل من ذلك إذا كان الحدث يتعلق بأمر واسع الشعبية، مثلما هي كرة القدم. وكان القرار إجماعياً، والعمل فعالاً.

كنا قد أعددنا مادة واسعة من الصحافة. والشيء الوحيد الذي تبقى للحظة الأخيرة، هو الريبورتاج عن هيلينو. وقد كتبه خيرمان بارغاس، المعلم في كتابة الريبورتاجات والكروي المتعصب. ظهر العدد الأول في موعده الدقيق، في أكشاك البيع، صباح يوم ٢٩ نيسان ١٩٥٠، يوم القديسة سانتا كاتالينا دي سيينا، كاتبة الرسائل الزرقاء، في أجمل ساحة في العالم. وقد طُبعت كرونيكا تحت شعار خَطَرَ لي في اللحظة الأخيرة: "نهاية أسبوعك المفضلة". كنا نعرف أننا نتحدى اللغة الاصطفائية عسيرة الهضم التي كانت تتأصل في الصحافة الكولومبية، في تلك السنوات. ولكن ما كنا نريد قوله بذلك الشعار، لم يكن له معادل بالتلون نفسه في اللغة الإسبانية. كان الغلاف رسماً بالحبر للاعب الكرة هيلينو دي فريتاس، من رسم ألفونسو ميلو، رسام الوجوه الوحيد بين رسامينا الثلاثة.

نفدت الطبعة، رغم تعجل الساعة الأخيرة، وغياب الإعلان، قبل وقت طويل من وصول هيئة التحرير، بكامل أعضائها، إلى ستاد الملعب البلدي في اليوم التالي - الأحد ٣٠ نيسان -، حيث ستجرى مباراة الذروة بين فريقي جونيور الرياضي وسبورتينغ. وكلاهما من بارانكيا. وكانت المجلة نفسها منقسمة، لأن خيرمان وألفارو يشجعان سبورتينغ،

بينما أنا وألفونسو نؤيد جونيور. ومع ذلك، فإن مجرد ورود اسم هيلينو وريبورتاج خيرمان بارغاس الرائع، أكدا الخطأ بأن "كرونيكا" هي المجلة الرياضية الكبرى التي طالما انتظرتها كولومبيا.

كان الاستاد قد امتلأ حتى الرايات. وبعد ست دقائق من الشوط الأول، سجل هيلينو هدفه الأول في كولومبيا، بضربة من قدمه اليسرى، سددها من وسط الملعب. ومع أن فريق سبورتينغ هو الذي فاز في النهاية ٣/٢، إلا أن ذلك المساء كان مساء هيلينو أولاً، ومساءنا نحن تالياً، بسبب الاختيار الموفق للغلاف. إنما لم تكن هناك سلطة بشرية، ولا إلهية، قادرة على إقناع أحد من الجمهور بأن كرونيكا ليست مجلة رياضية، بل أسبوعية ثقافية تكرم هيلينو دي فريتاس، باعتبار مجيئه إلى كولومبيا، أحد أهم أخبار السنة.

لم تكن مجرد مصادفة موفقة لمستجدين. ذلك أن ثلاثة منا كانوا يتناولون موضوع كرة القدم في أعمدتهم ذات الاهتمام العام، بمن فيهم خيرمان بارغاس طبعاً. وكان ألفونسو فوينمايور متابعاً حريصاً لكرة القدم، بينما عمل ألفارو سيبيدا، طوال عدة سنوات، مراسلاً في كولومبيا لـ "سبورتينغ نيوز" التي تصدر في سانت لويز، ولاية ميسوري الأمريكية. ومع ذلك، فإن القراء الذين كنا نتلهف إليهم، لم يستقبلوا بذراعين مفتوحتين أعدادنا التالية. وتخلى عنا متعصبو الملاعب دون إحساس بالألم.

وفي محاولة لترقيع ما تمزق، قررنا في هيئة التحرير، أن أتولى كتابة ريبورتاج رئيسي عن سيباستيان بيراسكوتشيا، وهو نجم برازيلي آخر في فريق جونيور الرياضي، على أمل أن أتمكن من المصالحة بين كرة

القدم والأدب، مثلما حاولت، في مرات كثيرة، أن أفعل بعلوم أخرى خفية في عمودي اليومي. كانت حمى لعب الكرة التي نقل إليّ عدواها لويس كارميلو كوريا في مرابع كاتاكا، قد انخفضت إلى درجة الصفر تقريباً. أضف إلى ذلك، أنني كنت من المتعصبين المبكرين للبيسبول الكاريبي - أو لعبة الطابة، كما يسمونها باللغة المحلية -. ومع ذلك، فقد أخذت الأمر على عاتقي.

كان نموذجي الذي سأقتدي به، طبعاً، هو ريبورتاج خيرمان بارغاس. وعززت نفسي بريبورتاجات أخرى، وأحسست بالطمأنينة، بعد محادثة طويلة أجريتها مع بيراسكوتشيا. وهو رجل ذكي ولطيف، ولديه إدراك جيد للصورة التي يود أن يقدم بها نفسه لجمهوره. السيئ في الأمر هو أنني عرفتُ به، ووصفته كباسكي نموذجي، بسبب كنيته وحسب. دون أن يستوقفني تفصيل صغير يتمثل في كونه زنجياً غامقاً من أفضل سلالة أفريقية. كانت تلك أكبر غلطة في حياتي، وفي أسوأ لحظة تمر فيها المجلة. وبلغ ذلك حداً وجدت فيه نفسي متطابقاً حتى الروح، مع رسالة قارئ اعتبرني صحفياً رياضياً عاجزاً عن التمييز بين كرة وترام. وحتى خيرمان بارغاس نفسه، شديد التدقيق في أحكامه، أكد في كتاب تذكاري أصدره بعد سنوات، بأن الريبورتاج حول بيراسكوتشيا هو أسوأ ما كتبته. أظن أنه يبالغ، ولكن ليس كثيراً، لأنه ليس هناك من يعرف الحرفة مثله، هو الذي كان يكتب التحقيقات والريبورتاجات، بنبرة شديدة التدفق، تبدو كأنها قد أمليت، بصوته على منضّد اللينوتيب.

لم نتخلَّ عن كرة القدم أو البيسبول، لأن اللعبتين كانتا واسعتي

الشعبية في ساحل الكاريبي. ولكننا ضاعفنا موضوعات الأوضاع الأدبية الراهنة والمستجدة. إلا أن ذلك كله لم يجدِ نفعاً: إذ لم نتمكن مطلقاً، من تجاوز الخطأ السائد بأن كرونيكا هي مجلة رياضية. ولكنّ متعصبي الملاعب بالمقابل، تجاوزوا خطأهم، وتخلوا عنا لمصيرنا. وهكذا واصلنا إصدارها، مثلما قررنا مسبقاً، مع أنها ظلت، منذ العدد الثالث، تطفو في ليمبوس غموضها.

لم تخر عزيمتي. فالرحلة إلى كاتاكا مع أمي، والمحادثة التاريخية مع دون رامون، وعلاقتي الحميمة بجماعة بارانكيا، بثت في نفسي حماساً جديداً سوف يكفيني إلى الأبد. ومنذ ذلك الحين، لم أكسب سنتاً واحداً، إلا من الآلة الكاتبة. وهذا أمر يبدو لي أكثر جدارة مما يمكن أن يخطر على البال. ذلك أن أول حقوق مؤلف أتاحت لي العيش من قصصي ورواياتي، دُفعت لي، وأنا في الأربعين وبضع سنوات، وبعد أن نشرتُ أربعة كتب بعوائد زهيدة. وإلى ما قبل ذلك، كانت حياتي مضطربة، على الدوام، بشبكة معقدة من المصايد والذرائع والأوهام، لكي أتملص من الأحلام الكثيرة التي سعت إلى تحويلي إلى أي شيء آخر، على ألا أكون كاتباً.

٣

بحدوث كارثة آراكاتاكا، وموت الجد، وتلاشي ما يمكن أن يكون قد تبقى من سلطاته الغائمة، وقعنا، نحن الذين كنا نعيش عليها، تحت رحمة الحنين. صار البيت بلا روح حينما لم يعد هناك من يعود في القطار. مينا وفرانثيسكا سيمودوسيا، بقيتا في كنف إلفيرا كاريّو التي تولت مسؤوليتهما بولاء جارية. وعندما فقدت الجدة بصرها وعقلها، أخذها أبواي معهما لكي تعيش حياة أفضل، وهي تموت على الأقل. وظلت العمة فرانثيسكا، العذراء والشهيدة، هي نفسها صاحبة الكلام الغريب غير المألوف والأمثال الفظة. ورفضت تسليم مفاتيح المقبرة ومشغل خبز القربان الذي يُعدّ لتقديسه، متذرعة بأن الرب كان سيدعوها، لو كانت تلك هي مشيئته. وفي أحد الأيام، جلست عند باب حجرتها، ومعها بعض ملاءاتها البيضاء الناصعة، لتخيط كفناً مفصلاً على مقاسها، وقد فعلت ذلك بتأنٍ بالغ، جاعلة الموت ينتظر أكثر من أسبوعين إلى أن انتهت منه. واستلقت في تلك الليلة دون أن تودع أحداً، ودون أن تعاني من أي مرض أو ألم، متأهبة لأن تموت، وهي في أفضل حالاتها الصحية. ولم ينتبهوا إلا فيما بعد، إلى أنها كانت قد ملأت استمارات الوفاة وأنجزت بنفسها إجراءات دفنها. بقيت إلفيرا

كاريّو، التي لم تعرف رجلاً، بإرادتها أيضاً، وحيدة في عزلة البيت الفسيح. وكان يوقظها في منتصف الليل، رعب السعال الأبدي في حجرات النوم المجاورة. ولكنها لم تهتم بذلك قط، لأنها معتادة كذلك، على تقاسم هموم الحياة الخارقة للطبيعة.

وخلافاً لها، بقي أخوها التوءم، إستيبان كاريّو، صافي الذهن ونشيطاً، حتى بلوغه شيخوخة متقدمة. وفي ذات مرة، بينما كنت أتناول الفطور معه، تذكرت كل التفاصيل البصرية، عندما حاول بعضهم الإلقاء بأبيه من المركب في بحيرة ثيناغا، مرفوعاً على أكتاف الحشد، وملفوفاً بقطعة خيش، مثلما فعل البغالون بسانتشو بانثا. كان بابليلو قد مات في ذلك الحين. ورويت الذكرى للخال استيبان، لأنها بدت لي مسلية. ولكنه نهض قافزاً، واستشاط غضباً، لأنني لم أخبر أحداً بذلك، فور حدوثه. وأبدى تلهفه لكي أتمكن من أن أحدد في الذاكرة، من هو الرجل الذي كان يتحدث إلى الجد في ذلك اليوم، لكي يخبره من هم الذين حاولوا إغراقه. ولم يستطع أن يفهم كذلك، كيف لم يدافع الجد عن نفسه، مع أنه رام ماهر، كان في خطوط النار، فترات طويلة، خلال حربين أهليتين؛ وكان ينام والمسدس تحت وسادته. كما أنه قتل في أزمنة السلم، خصماً في مبارزة. وقال لي إستيبان إن الوقت، لم يفت، مع ذلك لكي يقوم هو واخوته بالثأر للإهانة. إنه قانون غواخيرا: إهانة أحد أفراد الأسرة يدفع ثمنها كل ذكور أسرة المعتدي. وكان خالي إستيبان مصمماً، حتى إنه أخرج المسدس من حزامه ووضعه على المائدة كيلا يضيع الوقت، بينما هو يستجوبني. منذ ذلك الحين، وفي كل مرة نلتقي بها، في تجوالنا، تعاوده الآمال بأن أكون قد تذكرت. وفي إحدى

الليالي، جاء إلى حجرتي في الجريدة، في الفترة التي كنت أستقصي فيها عن ماضي الأسرة من أجل رواية أولى لم أنهها، واقترح علي أن نقوم معاً بتحريات عن ذلك الاعتداء. لم يستسلم قط. وآخر مرة التقيت به في كارتاخينا دي إندياس، سافر وقلبه مشروخ، وقد ودعني بابتسامة حزينة:

– لا أدري كيف توصلت إلى أن تكون كاتباً، بمثل هذه الذاكرة السيئة.

عندما لم يعد هناك ما يمكن عمله في آراكاتاكا، أخذنا أبي مرة أخرى للعيش في بارانكيًا، ولكي يقيم هناك صيدلية أخرى، دون أن يكون معه سنتافو واحد من رأس المال، ولكن بقروض ائتمان جيدة من تجار الجملة الذين كانوا شركاء له في صفقات سابقة. لم تكن تلك هي الصيدلية الخامسة، مثلما اعتدنا القول في الأسرة، وإنما الصيدلية الوحيدة التي كنا نحملها على الدوام من مدينة إلى أخرى، حسب استشعارات أبي التجارية: مرّتين في بارانكيًا، ومرتين في آراكاتاكا، ومرة في سينثي. وفي كل مرة، كانت هناك فوائد غير مؤكدة، وديون يمكن سدادها. وتقلصت الأسرة التي صارت دون جدين ولا أعمام أو أخوال، ودون خدم، إلى الأبوين والأبناء. وكنا ستة أبناء آنذاك – ثلاثة ذكور وثلاث إناث – خلال تسع سنوات من الزواج.

انتابني قلق لهذا الجديد في حياتي. لقد جئت إلى بارانكيًا، عدة مرات من قبل، لزيارة أبوي، عندما كنتُ طفلاً، وبصورة عابرة على الدوام، وذكرياتي عن ذلك مفتتة جداً. الزيارة الأولى كانت وأنا في الثالثة من عمري، عندما أخذوني إلى هناك بمناسبة ولادة أختي

مارغوت. أتذكر رائحة الوحل الكريهة في المرفأ عند الفجر، وعربة الحصان التي يُبعد حوذيُّها، بسوطه، اللصوصَ الذين يحاولون الصعود إلى مقعده في الشوارع الترابية المقفرة. أتذكر جدران دار التوليد، حيث ولدت الطفلة، بلونها الترابي الأمغر، وخشب أبوابها ونوافذها، وهواء الأدوية النفاذ الذي يعبق في الحجرة. كانت الوليدة في سرير حديدي بسيط جداً، في أقصى حجرة كئيبة، مع امرأة هي أمي دون ريب، غير أنني لا أتوصل إلى أن أتذكر منها سوى حضور، دون وجه، مدَّ لي يداً نحيلة، وتنهد:

– أنت لم تعد تتذكرني.

لا شيء سوى ذلك. فالصورة الأولى البينة التي أحتفظ بها عنها، تعود إلى عدة سنوات تالية، وهي صورة واضحة ومؤكدة، ولكنني لا أتمكن من تحديد زمنها. لا بد أنها من إحدى زياراتها إلى آراكاتا، بعد ولادة عايدا روسا، أختي الثانية. كنت يومذاك ألعب في الفناء، مع حمل حديث الولادة، أحضره لي سانتوس فييرو بين ذراعيه من فونسيكا، عندما جاءت العمة ماما، راكضة، ونبهتني بصوت بدا لي مرعباً:

– لقد جاءت أمك!

اقتادتني، بما يشبه الجرجرة إلى الصالة، حيث كانت كل نساء البيت، وبعض الجارات جالسات، كما في سهر على ميت، على كراسٍ مصفوفة بمحاذاة الجدران. انقطع الحديث لدى دخولي المفاجئ. وبقيت متحجراً عند الباب، دون أن أدري أياً منهن هي أمي، إلى أن فتحت لي ذراعيها وقالت، بأكثر الأصوات التي أتذكرها، حناناً:

– ها قد صرت رجلاً!

كان لها أنف روماني جميل. وبدت وجيهة وشاحبة، وأكثر تميزاً من أي وقت آخر، بموضة تلك السنة: ثوب من الحرير بلون العاج، خصره عند الوركين؛ وعقد لؤلؤ من عدة لفات؛ وحذاء مفضض ذو رباط جلدي وكعب عالٍ؛ وقبعة أنيقة من القش على شكل ناقوس، كما في أفلام السينما الصامتة. أحاطني عناقها برائحة خاصة شممتها فيها على الدوام، وهزتني، جسداً وروحاً، هبة شعور بالذنب، لأن واجبي هو محبتها، غير أني أحسست أن ذلك ليس صحيحاً.

أما أقدم ذكرى لدي عن أبي بالمقابل، فهي مؤكدة وواضحة، في الأول من شهر كانون الأول ١٩٣٤، اليوم الذي أكمل فيه الثالثة والثلاثين من عمره. رأيته يدخل سعيداً، وبخطوات سريعة، إلى بيت الجدين في كاتاكا، ببدلة كاملة من الكتان الأبيض، وقبعة قش ذات حافة ملساء. هنأه أحدهم معانقاً، وسأله كم سنة أكمل. ولم أنس جوابه قط، لأنني لم افهمه في حينه:

– سن المسيح نفسها.

لقد تساءلت على الدوام، لماذا تبدو لي تلك الذكرى قديمة جداً، مع أنني كنت قد التقيت بأبي دون ريب، مرات كثيرة قبلها.

لم أكن قد أقمت مع أبوي في البيت نفسه قط. ولكن بعد مولد مارغوت، تبنى جداي عادة أخذي إلى بارانكيا، بحيث لم أعد غريباً إلى ذلك الحد في بيت والديّ، عندما ولدت عايدا روسا. أظن أنه كان بيتاً سعيداً. وكانت لهم هناك صيدلية، ثم فتحوا فيما بعد واحدة أخرى في مركز المدينة التجاري. وعدنا للقاء الجدة أرخيميرا – ماما خيمي –

واثنين من أبنائها، خوليو وإينا. وكانت إينا جميلة جداً، ولكنها مشهورة في الأسرة، بسوء طالعها. ماتت في الخامسة والعشرين، دون أن يعرف أحد الداء. وما زال يقال حتى الآن إن السبب هو شؤم خطيب مرفوض. وكلما كنا نكبر أكثر، كانت ماما خيمي تبدو لي أكثر لطفاً وبذاءة لسان.

في تلك الفترة بالذات، سبّب لي أبواي نكسة عاطفية خلّفت في نفسي ندبة، من الصعب محوها. حدث ذلك في يوم عانت فيه أمي هبة حنين، وجلست تداعب ملامس البيانو بلحن "عندما انتهى الرقص"، فالس غرامياتهما السرية التاريخي، وخطرت لأبي الشقاوة الرومانسية بنفض الغبار عن الكمان لمرافقتها، مع أن أحد أوتاره كان مقطوعاً. اندمجت هي بسهولة على طريقتها، كرومانسية مبكرة، وعزفت أفضل من أي وقت آخر، إلى أن نظرت إليه راضية من فوق كتفها، وانتبهت إلى أن عينيه مخضلتان بالدموع. "من تتذكر الآن؟"، سألته أمي، ببراءة قاسية. فرد هو، مستلهماً لحن الفالس: "أتذكر المرة الأولى التي عزفناه فيها معاً". عندئذ وجهت أمي ضربة غضب، بكلتا قبضتيها، إلى ملامس البيانو. وصرخت بأعلى صوتها:

– لم تعزفه معي يا منافق! أنت تعرف جيداً من هي التي عزفته معها، وأنت تبكي من أجلها.

لم تذكر الاسم، لا في ذلك اليوم، ولا في أي يوم آخر قط. ولكن الصرخة جمدتنا جميعنا من الرعب، في أماكن مختلفة من البيت. لويس إنريكي وأنا. وكانت لدينا على الدوام أسباب خفية للخوف. اختبأنا تحت الأسرّة. وهربت عايدا إلى بيت الجيران، وأصيبت مارغوت بحمى

مفاجئة أبقتها تهذي طوال ثلاثة أيام. وحتى الأخوة الصغار كانوا معتادين على انفجارات غيرة أمي تلك، بعينيها الملتهبتين وأنفها الروماني المرهف، مثل سكين. كنا قد رأيناها تنتزع، بهدوء غريب، لوحات من الصالة وتحطمها واحدة بعد أخرى، على الأرض، في وابل بَرَدٍ زجاجي صاخب. وفاجأناها، وهي تشم ملابس أبي قطعة قطعة، قبل أن تلقي بها إلى سلة الغسيل. لم يحدث أي شيء آخر بعد ذلك، في ليلة العزف الثنائي التراجيدية تلك. ولكن مُدَوزن البيانوهات الفلورنسي أخذ البيانو لبيعه. وانتهى الأمر بالكمان – مع المسدس – إلى التعفن في خزانة الملابس.

كانت بارانكيا، آنذاك، حالة متقدمة في التقدم التمدني، والليبرالية الوادعة، والتعايش السياسي. وهي عوامل حاسمة في نموها وازدهارها، بعد انقضاء أكثر من قرن من الحروب الأهلية التي عصفت بالبلاد منذ الاستقلال عن إسبانيا، ثم ما تلا ذلك من انهيار منطقة زراعة الموز، الجريحة جراحاً مثخنة من القمع الشرس الذي نكل بها، بعد الإضراب الكبير.

ومع ذلك، لم يكن هناك ما يقف في وجه روح أهلها الخلاقة. ففي عام ١٩١٩، كسب الصناعي الشاب ماريو سانتودومنغو – والد خوليو ماريو – أمجاد التمدن، بافتتاحه البريد الجوي الوطني بسبع وخمسين رسالة في كيس من قماش الخيم ألقى به على شاطئ بويرتو كولومبيا، على بعد خمسة فراسخ من بارانكيا، من طائرة بدائية يقودها الأمريكي الشمالي وليم نوكس مارتن. ومع انتهاء الحرب العالمية الأولى، جاء فريق من الطيارين الألمان – بينهم هيلموت فون كروهن – ودشنوا

الخطوط الجوية بطائرات جنركز ف-١٣، وهي أول طائرات ذرعت نهر مجدلينا، مثل جنادب تحركها العناية الإلهية، حاملة ستة ركاب جسورين وأكياس البريد. كان ذلك هو جنين الشركة الكولومبية الألمانية للنقل الجوي -SCADTA-، إحدى أقدم شركات النقل الجوي في العالم.

انتقالنا الأخير إلى بارانكيا، لم يكن بالنسبة لي مجرد تغيير مدينة وبيت، وإنما تغيير أب، وأنا في الحادية عشرة من عمري. الأب الجديد كان رجلاً عظيماً، ولكنّ لديه إحساساً بالسلطة الأبوية، مختلفاً تماماً عن ذاك الذي جعلنا، أنا ومرغريتا، سعيدين في بيت الجدين. فبعد أن اعتدنا على أن نكون سيدي نفسينا، تكلفنا مشقة كبيرة في التكيف مع نظام غريب عنا. كان أبي، في جانبه الأكثر مدعاة للإعجاب والتأثير، متعلماً ذاتياً بالمطلق، وأشد من عرفتُ من القراء نهماً. وإن يكن أقلهم منهجية. فمنذ أن هجر مدرسة الطب، انكبّ وحيداً على دراسة الطب التجانسي، الذي لم يكن يتطلب في ذلك الحين تكويناً أكاديمياً. وحصل على تصريح بمزاولته مع التكريم. ولكنه لم يكن يتمتع بالمقابل، بصلابة أمي في تجاوز الأزمات. وقد أمضى أسوأها في أرجوحة النوم في غرفته، وهو يقرأ كل ما يقع بين يديه من الورق المطبوع، ويحل الكلمات المتقاطعة. غير أن مشكلته مع الواقع كانت عصيّة على الحل. فقد كان ينظر إلى الأغنياء، بورع شبه أسطوري. ولكن ليس الأغنياء الذين لا تفسير لغناهم. وإنما أولئك الذين شكلوا ثرواتهم بقوة الموهبة وسعة الأفق. وكان يبقى مؤرقاً في أرجوحة نومه، حتى في وضح النهار، يراكم ثروات هائلة في مخيلته، بمشاريع سهلة لا يفهم كيف لم تخطر له من قبل. وكان يحب أن يستشهد ويضرب الأمثلة

بأسرع ثروة وجد عنها خبراً في صحيفة دياريو: مئتا فرسخ من الخنزيرات الولود. ومع ذلك، فإن تلك الصفقات الكبرى الفريدة لم تكن تجري في الأماكن التي نعيش فيها؛ وإنما في جنان منعزلة سمع عنها خلال تشرده، كعامل تلغراف. عدم واقعيته المشؤوم أبقانا معلقين بين الخيبات والعودة إلى البدء من البداية. ولكن مع وجود فترات طويلة كذلك، لم يسقط علينا خلالها من السماء، حتى فتات خبزنا كفاف يومنا. وقد علمنا أبوانا، على أي حال، سواء في السراء، أو الضراء، أن نحتفي بالأولى ونتحمل الثانية بإذعان ووقار كاثوليكي، على الطريقة القديمة.

التجربة الوحيدة التي كانت تنقصني هي السفر وحيداً مع أبي، وقد حصلت عليها كاملة، عندما أخذني إلى بارانكيا لأساعده في إقامة الصيدلية، وفي الإعداد لمجيء بقية الأسرة. ما فاجأني أنه كان يعاملني، ونحن وحدنا، كما لو أنني شخص راشد، بمحبة واحترام. حتى إنه كان يكلفني بمهمات لا تبدو سهلة على سنوات عمري، ولكنني أنجزتها على خير ما يرام وبسعادة، مع أنه لم يكن راضياً على الدوام. كان من عادته أن يروي لنا قصصاً من طفولته في قرية مولده، ولكنه يكررها سنة بعد أخرى للمولودين الجدد، بحيث راحت تفقد بهجتها في نظر من يعرفونها. حتى إننا نحن الكبار، كنا ننهض حين يبدأ بروايتها بعد تناول الطعام. وقد أغضبه لويس إنريكي، عندما قال، وهو ينسحب في واحدة من نوبات صراحته:

- أخبروني، عندما يموت الجد مرة أخرى.

تلك الاندفاعات شديدة العفوية، كانت تثير غضب أبي، وتضاف إلى الأسباب التي كانت تتراكم من أجل إرسال لويس إنريكي إلى

إصلاحية ميدلين. ولكنه تحول معي في بارانكيا إلى شخص آخر. أرشف قائمة النوادر الشعبية، وراح يقص علي مقاطع مشوقة من حياته الشاقة مع أمه، وبخل أبيه الأسطوري، والمصاعب التي أعاقت دراسته. تلك الذكريات أتاحت لي تحملاً أفضل لبعض نزواته، وتفهم بعض عدم تفهمه لنا.

تحدثنا، في تلك الفترة، عن كتب قرأناها أو في سبيلنا إلى قراءتها. وجمعنا من المواقع الموبوءة في السوق العام، محصولاً وافراً من قصص طرزان والتحريين وحروب الفضاء. ولكنني كنت أيضاً على وشك أن أكون ضحية حسه العملي، ولا سيما عندما قرر أنه علينا الاكتفاء بوجبة واحدة في اليوم. وجاءت الأزمة الأولى، حين فاجأني، وأنا أملأ بالمياه الغازية والخبز المحلى فجوات العشاء، عند الغروب، بعد مرور سبع ساعات على تناول الغداء. ولم أستطع أن أخبره من أين جئت بالنقود لشرائها. لم أجرؤ على الاعتراف له بأن أمي قد أعطتني، خفية، بعض البيزوات، تحسباً من حمية الناسك الغذائية التي يفرضها في رحلاته. وقد استمر تواطؤ أمي ذاك، طالما هي تملك الوسائل. فحين صرتُ تلميذاً داخلياً في المدرسة الثانوية، كانت تضع لي عشرة بيزوات في علبة صابون "ريوتير" وهي تأمل أن أعثر عليها في لحظة حرجة. وهكذا كان؛ فعندما كنا ندرس بعيداً عن البيت، كانت أي لحظة تعتبر مثالية، للعثور على عشرة بيزوات.

كان أبي يتدبر الأمر لكي لا يتركني في الليل، في صيدلية بارانكيا. ولكنّ حلوله لم تكن هي الأكثر إمتاعاً لسنوات عمري الاثنتي عشرة. فالزيارات الليلية لأسر الأصدقاء، كانت تنهكني. لأن الأسر التي

لها أبناء في مثل سني، تجبرهم على النوم في الساعة الثامنة، ويتركونني معذباً بالضجر والنعاس، في قفر الثرثرات الاجتماعية القاحلة. ولا بد أنني غفوت في إحدى الليالي، ونحن في بيت طبيب صديق. ولم أدر كيف ولا في أي ساعة استيقظتُ سائراً في شارع لا أعرفه. لم تكن لدي أدنى فكرة عن المكان الذي أنا فيه، ولا كيف وصلت إلى هناك. ولم يكن بالإمكان فهم ذلك إلا على أنه حالة من المشي نائماً. ليس ثمة سوابق عائلية، ولم تتكرر كذلك حتى اليوم، ولكنه ما زال التفسير الوحيد الممكن. أول ما فاجأني، عندما استيقظت، هو واجهة صالون حلاقة ذات زجاج مشع، حيث كانوا يخدمون ثلاثة أو أربعة زبائن، تحت ساعة جدار تشير إلى الثامنة وعشر دقائق. وهو وقت لا يمكن فيه لطفل في مثل سني، أن يكون وحيداً في الشارع. ولارتباكي من الرعب، أخطأت في أسماء الأسرة التي كنا نزورها، وتذكرت بصورة غير واضحة، عنوان البيت. ولكن بعض العابرين تمكنوا من ربط بعض الخيوط، وأوصلوني إلى العنوان الصحيح. وجدت الجيران في حالة هلع، يطرحون كل أنواع التكهنات حول اختفائي. الشيء الوحيد الذي كانوا يعرفونه عني هو أنني نهضت عن الكرسي أثناء تبادلهم الحديث. وظنوا أنني ذهبت إلى الحمام. لم يقنع تفسير السرنمة (السير نائماً) أحداً، وبخاصة أبي الذي فهم الأمر دون مزيد من اللف والدوران، على أنه شيطنة غير موفقة من جانبي.

وقد استعدت اعتباري، لحسن الحظ، بعد بضعة أيام في بيت آخر، حيث تركني في إحدى الليالي بينما هو يحضر عشاء عمل. كانت الأسرة بكاملها، تتابع برنامج مسابقة أحاج شعبية في إذاعة أتلانتيكو.

وبدت الأحجية في تلك الليلة، غير قابلة للحل: "ما هو الحيوان الذي يتبدل اسمه عندما ينقلب؟". وبمعجزة غريبة، كنتُ قد قرأت الجواب في مساء ذلك اليوم بالذات، في الطبعة الأخيرة من تقويم بريستول، وبدا لي دعابة رديئة: الحيوان الوحيد الذي يتبدل اسمه هو الجعل (escarabajo) لأنه عندما ينقلب يصير جعلاً مقلوباً (escararriba)[1].

قلت ذلك سراً لإحدى طفلات البيت، فسارعت الكبرى إلى الهاتف وقدمت الجواب لإذاعة أتلانتيكو. وكسبت الجائزة الأولى التي تكفي لدفع إيجار البيت عن ثلاثة شهور: مئة بيزو. امتلأ الصالون بالجيران الصاخبين الذين استمعوا إلى البرنامج وهرعوا لتهنئة الرابحين. ولكن ما كان يهم الأسرة، أكثر من المال، هو الفوز بحد ذاته في مسابقة إذاعة كانت عنوان مرحلة برمتها على ساحل الكاريبي. لم يتذكر أحد أنني موجود هناك. وعندما رجع أبي ليأخذني، انضم إلى البهجة الأسرية، وشرب نخب الفوز. ولكن أحداً لم يخبره من هو الرابح الحقيقي.

فتحٌ آخر من فتوحات تلك الحقبة هو الإذن الذي منحني أبي إياه للذهاب وحيداً، إلى عرض يوم الأحد الصباحي في سينما مسرح كولومبيا. وكانوا يقدمون، لأول مرة، أفلاماً مسلسلة، حلقة منها كل يوم أحد، تسبب توتراً لا يتيح لي لحظة واحدة من الراحة خلال الأسبوع. كان فيلم "غزو مونغو" هو الملحمة الفضائية الأولى التي تدور بين الكواكب. ولم أستطع أن أحلّ محلها، إلا بعد سنوات طويلة، فيلم "أوديسة الفضاء" لستانلي كوبريك. ومع ذلك، فقد استطاعت السينما الأرجنتينية، بأفلام كارلوس غارديل وليبرتاد لاماركي، هزيمة الجميع في نهاية المطاف.

---

(١) لعبة لفظية محض تعتمد على اللاحقة bajo (أسفل)، أولاً واللاحقة arriba (أعلى) في الكلمة الثانية.

خلال أقل من شهرين، انتهينا من إقامة الصيدلية، وحصلنا على منزل للأسرة وأثاثه. الصيدلية كانت في ركن يرتاده الناس بكثرة، في قلب المركز التجاري، وعلى بعد أربع كوادرات فقط عن جادة بوليفار. أما المنزل، بالمقابل، فكان في شارع هامشي من الحي السفلي الوضيع والمرح. ولكن قيمة الإيجار لم تكن تتفق مع ما هو عليه؛ وإنما مع ما يدعيه: منزل من الطراز القوطي مطلي بدوائر صفراء، وحمراء، وفيه برجان حربيان.

في اليوم نفسه الذي سلموا إلينا فيه محل الصيدلية، علقنا أرجوحتي نومنا، بحلقات من الحبال، ونمنا هناك على نار هادئة، وفي حساء من العرق. وعندما استلمنا المنزل اكتشفنا، أنه لا وجود فيه لحلقات من أجل تعليق أراجيح النوم. ولكننا فرشنا فراشاً على الأرض، ونمنا على أحسن وجه ممكن، منذ أن حصلنا على قط مستعار لإخافة الفئران. وعندما حضرت أمي مع بقية الفرقة، كان تجهيز المنزل لا يزال غير مكتمل. ولم تكن فيه بعد أدوات مطبخ ولا أشياء كثيرة أخرى من لوازم المعيشة.

كان البيت عادياً على الرغم من مزاعمه الفنية. ويكاد يكون غير كافٍ لنا؛ فهو مؤلف من صالة، وغرفة طعام، وحجرتي نوم، وفناء صغير مبلط. وإذا ما دققنا في الأمر، فإنه لم يكن يستحق ثلث المبلغ الذي كنا ندفعه لاستئجاره. ارتعبت أمي عندما رأته. ولكن زوجها طمأنها بالحلم بمستقبل مذهب. هكذا كانا على الدوام. كان من المستحيل تصور كائنين شديدي الاختلاف، يتفاهمان بتلك الصورة الجيدة، ويتحابان إلى ذلك الحد.

لقد أثر فيَّ مظهر أمي. كانت حبلى للمرة السابعة. وبدا لي أن كاحليها وجفونها منتفخة مثل خصرها. كان عمرها آنذاك ثلاثاً وثلاثين سنة. وكان ذاك هو البيت الخامس الذي تؤثثه. وقد أذهلني سوء حالتها المعنوية التي تفاقمت منذ الليلة الأولى؛ إذ كانت مرعوبة من فكرة اخترعتها هي نفسها، دون أي أساس تستند إليه، بأن المرأة المجهولة قد عاشت هناك، قبل أن تُقتل طعناً. كانت الجريمة قد اقترفت قبل سبع سنوات، خلال وجود أبي في المدينة، في المرة السابقة. وكانت الجريمة مروِّعة إلى حد أن أمي قررت عدم العودة للعيش في بارانكيّا. وربما كانت قد نسيت ذلك، عندما رجعت في تلك المرة. ولكن الرعب عاد إليها فجأة منذ الليلة الأولى في البيت المكفهر الذي لمست فيه على الفور، شيئاً من أجواء قلعة دراكولا.

كان الخبر الأول عن المرأة المجهولة، هو العثور على جسد عار، يصعب التعرف عليه، بسبب حالة التفسخ التي صار إليها. وأمكن بصعوبة، تحديدُ أنها امرأة في الثلاثين، ذات شعر أسود وملامح جذابة. وساد الاعتقاد بأنها قد دُفنت حية لأن يدها اليسرى كانت فوق عينيها، في حركة رعب. والذراع اليمنى مرفوعة فوق الرأس. والإشارة الوحيدة إلى هويتها، هي شريطتان زرقاوان ومشط زينة صغير مذهب. وبين الفرضيات الكثيرة التي شاعت، بدت أكثرها احتمالاً، فرضية كونها راقصة فرنسية ذات حياة مرحة اختفت، منذ تاريخ الجريمة المحتمل.

كانت بارانكيّا تتمتع بالشهرة العادلة، بأنها أكثر مدن البلاد أمناً وحسن ضيافة، إنما مع نكبة وقوع جريمة مروِّعة، في كل سنة. ومع ذلك، لم تكن هناك جريمة سابقة هزت الرأي العام إلى ذلك الحد، ولكل ذلك

الوقت، مثل جريمة المرأة المطعونة التي بلا اسم. كانت جريدة "لابرنسا"، إحدى أهم صحف البلاد في ذلك الحين، تعتبر الرائدة في نشر القصص المصورة أيام الآحاد - بوك روجرز، وطرزان ربيب القرود -، ولكنها فرضت نفسها، منذ سنواتها الأولى، كإحدى الصحف الرائدة الكبرى في التحقيقات الحمراء. وقد استبقت المدينة في حالة من الترقب القلق، طوال عدة شهور بعناوينها الكبيرة واكتشافاتها المفاجئة التي أشاعت، بحق أو دون وجه حق، شهرة كاتب تحقيقات منسي.

كانت السلطات تحاول قمع معلومات الجريدة، بذريعة أنها تبلبل التحريات. ولكن الأمر انتهى بالقراء، إلى تصديق السلطات، أقل من تصديقهم اكتشافات لابرنسا. وقد أبقتهم المواجهة، وروحهم معلقة بخيط، طوال عدة أيام. وأجبرت المحققين في مناسبة واحدة على الأقل، على تغيير مسار التحقيق. كانت صورة المرأة المجهولة قد ترسّخت آنذاك، في المخيلة الشعبية، حتى إنهم كانوا يحكمون إغلاق الأبواب بالسلاسل في معظم البيوت، ويحتفظون بحراسات ليلية خاصة، تحسباً من محاولة القاتل الطليق، مواصلة برنامج جرائمه المريعة، واتخذت تدابير منع الفتيات المراهقات من الخروج وحدهن، من بيوتهن، بعد الساعة السادسة مساء.

ومع ذلك، فإن الحقيقة لم يكتشفها أحد، وإنما كشف عنها بعد بعض الوقت، مرتكب الجريمة نفسه، إفراين دونكان. الذي اعترف بأنه قتل زوجته، أنخيلا هويو، في الوقت نفسه الذي قدره الطب الشرعي لوفاة المرأة المجهولة. وأنه دفنها في المكان الذي عُثر فيه على الجثة المطعونة. وتعرف الأقارب على الشريطتين الزرقاوين، وعلى مشط الزينة

الذي كانت تضعه أنخيلا، عندما خرجت من البيت مع زوجها، يوم الخامس من نيسان، في رحلة مزعومة إلى كالامار. وأغلقت القضية، دون مزيد من الشكوك بمصادفة أخيرة يصعب تصورها، وتبدو كما لو أنها أُخرجت من كم مؤلف روايات خيالي: فقد كان لأنخيلا هويو شقيقة توءم تشبهها تماماً، مما أتاح التعرف عليها دون أدنى شك.

انهارت أسطورة المرأة المجهولة بتحولها إلى جريمة عاطفية عادية. ولكن سرّ الشقيقة الشبيهة، ظل طافياً في البيوت، لأن التفكير بلغ حدّ اعتبارها المرأة المجهولة نفسها، معادة إلى الحياة، بفنون السحر. كانت الأبواب تغلق بمزاليج ومتاريس من الأثاث، للحيلولة دون أن يدخل منها، ليلاً، القاتل الهارب من السجن بأساليب السحر. وانتشرت في بيوت الأغنياء، موضة اقتناء كلاب الصيد المدرّبة، ضد القتلة القادرين على اختراق الجدران. والواقع أن أمي لم تستطع تجاوز الخوف، إلى أن أقنعها الجيران بأن بيتنا في الحي السفلي، لم يكن قد شيد في أزمنة المرأة المجهولة.

في العاشر من شهر تموز ١٩٣٩، أنجبت أمي طفلة لها بروفيل هندية جميل. وقد عمّدوها باسم ريتا، بسبب الورع غير المحدود الذي يشعرون به في البيت، تجاه القديسة ريتا دي كاسيا. وهو ورع يستند، إضافة إلى أمور أخرى، إلى صبرها في تحمُّل سوء طباع زوجها المتهتك الضال. وكانت أمي تروي لنا أنه رجع في إحدى الليالي إلى بيته، وقد ذهبت الخمرة بعقله، بعد برهة من تبرز دجاجة على مائدة غرفة الطعام. وقد تمكنت الزوجة، حين لم تجد متسعاً من الوقت، لتنظيف الشرشف الملوث، من تغطيته بطبق كيلا يراه زوجها، وسارعت إلى إلهائه بالسؤال المعهود:

– ماذا تريد أن تأكل؟

فأطلق الرجل زمجرة:

– خراء.

فرفعت الزوجة، عندئذ، الطبق وقالت بعذوبتها القدسية:

– ها هو ذا أمامك.

وتقول القصة إن الزوج اقتنع عندئذ بقداسة زوجته، وتحول إلى الإيمان بدين يسوع.

كانت صيدلية بارانكيّا الجديدة إخفاقاً مدوياً، خففت منه بعض الشيء، سرعة إدراك أبي لذلك. فبعد عدة شهور من تدبر الأمر ببيع عقاقير متفرقة، وفتح ثغرتين من أجل سدّ واحدة، انكشف أكثر تخبطاً مما كان يبدو عليه، حتى ذلك الحين. وفي أحد الأيام، حزم أمتعته ومضى للبحث عن الثروات في قرى لا تخطر على البال، في وادي نهر مجدلينا. وقبل أن يغادر، أخذني إلى شركائه وأصدقائه وأعلمهم بشيء من التفخيم بأنني سأكون بديلاً منه في غيابه. لم أدرِ قط، إذا ما كان يقول ذلك هزلاً، مثلما كان يروقه أن يقوله حتى في أشد المناسبات حرجاً، أم أنه قاله، بجد مثلما كان يمتعه أن يقوله في المناسبات المبتذلة. وأعتقد أن كل واحد كان يفهمه على طريقته. ذلك أنني كنت، وأنا في الثانية عشرة، رخواً وشاحباً لا أكاد أنفع إلا قليلاً، في الرسم والغناء. وقد قالت المرأة التي نستدين منها الحليب لأمي، ذات مرة أمام الجميع، وأمامي أنا، دون أي ذرة من سوء النية:

– اعذريني لما أقوله يا سيدة، ولكنني أظن أن هذا الطفل لن يكبر.

الرعب الذي أحسستُ به جعلني أنتظر الموت المفاجئ، لوقت طويل.

وكثيراً ما كنت أحلم، وأنا أنظر إلى المرآة، بأنني لا أرى نفسي وإنما عجلاً وليداً. وقد شخّص طبيب المدرسة إصابتي بالبُرداء، والتهاب اللوزتين واسوداد المرارة بسبب القراءات التعسفية غير الموجهة. لم أشأ أن أخفف من ذعر أحد. بل على العكس، كنتُ أبالغ في شرطي كمعوق لأتخلص من الواجبات. ومع ذلك، فقد قفز أبي عن العلم إلى الخيال، ونادى بي قبل أن يذهب، مسؤولاً عن البيت والأسرة، في أثناء غيابه:

– كما لو كنتُ أنا نفسي، موجوداً.

جمعنا يوم سفره في الصالة، ووجه إلينا تعليمات وتوبيخات وقائية عما يمكن أن نسيء عمله في غيابه. ولكننا لم ندرك أنه إنما يتحايل، كيلا يبكي. وقدم لكل واحد منا، قطعة نقد من فئة الخمسة سنتافو. وهي ثروة صغيرة بالنسبة لأي طفل آنذاك. ووعدنا بأن يستبدلها لنا بقطعتين مماثلتين. إذا ما حافظنا عليها سليمة حتى عودته. وأخيراً توجه إليّ بصوت إنجيلي:

– بين يديك أتركهم، وبين يديك سأجدهم.

مزقت قلبي رؤيته يخرج من البيت بطماق ركوب الخيل، وخُرج الأمتعة على كتفه. وكنت أول من استسلم للبكاء، عندما نظر إلينا آخر مرة، قبل أن ينعطف عند الناصية، ويودّع ملوحاً بيده. عندئذ فقط، أدركت، وإلى الأبد، كم أحبه.

لم يكن صعباً، تنفيذ توصياته. كانت أمي قد بدأت الاعتياد على تلك العزلات المفاجئة والغامضة، وتصريفها على مضض، ولكن بسهولة كبيرة. وقد فرضت أعمال المطبخ وترتيب البيت، حتى على أصغرنا، المساعدة في المهمات المنزلية، وفعل الجميع ذلك على أحسن وجه.

وراودني في تلك الفترة، أول إحساس بأني راشد، عندما لاحظت أن أخوتي بدؤوا يعاملونني، كما لو كنتُ عماً لهم.

لم أستطع قطُّ، التخلّصَ من الخجل. فكلما اضطررت إلى أن أتصدى، بلحمي الحي، للمهمة التي أوصاني بها أبي الهائم على وجهه، كنت أدرك أن الخجل هو شبح لا يمكن هزيمته. ففي كل مرة أضطر فيها إلى طلب قرض، حتى من تلك المتفق عليها مسبقاً، في متاجر الأصدقاء، كنتُ أتأخر متجولاً لساعات حول البيت، كابحاً رغبتي في البكاء، وتقلبات بطني، إلى أن أتجرأ أخيراً، وأنا أضغط فكيّ بقوة لا يخرج معها صوتي. ولم يخلُ الأمر من صاحب دكان دون قلب، ينتهي به الحال إلى إرباكي: "أيها الطفل الرعديد، لا يمكنك التكلم وفمك مطبق". وأكثر من مرة، رجعت إلى البيت بيدين خاويتين، وباعتذار كنتُ أخترعه أنا نفسي. ولكنني لم أعرف تعاسة قطُّ، أكبرَ من تلك التي أحسست بها، عندما أردتُ التكلم بالهاتف أول مرة، من الدكان الذي على الناصية. ساعدني صاحب الدكان في التعامل مع عاملة المقسم، إذ لم تكن قد وُجدت الخدمة الآلية بعد. وأحسست بهبة أنفاس الموت، عندما قدم لي السماعة. كنت أنتظر سماع صوت خدوم، لكن ما سمعته هو نباح شخص يتكلم في العماء، في الوقت نفسه الذي أتكلم فيه. فكرت في أن محدثي لا يفهمني كذلك، فرفعت صوتي إلى حيث أستطيع. وعندئذ رفع الآخر أيضاً صوته غاضباً:

– ومن أجل أي لعنة، تصرخ بي أنت!

أغلقت الهاتف مرعوباً. ولا بد لي من الاعتراف بأنه، على الرغم من حمى اتصالاتي، إلا أنني ما زلت أضطر إلى كبح خوفي من الهاتف

والطائرة. ولست أدري إذا ما كان هذا الخوف يأتيني من تلك الأيام. كيف يمكنني التوصل إلى عمل شيء؟ ولحسن الحظ، كثيراً ما كانت أمي تردد الجواب: "لا بد من المعاناة من أجل تقديم الخدمات".

أول خبر من أبي وصلنا بعد أسبوعين، في رسالة مكرسة لإلهائنا أكثر منها لإخبارنا أي شيء، هكذا فهمتها أمي. وفي ذلك اليوم، غسلت الأطباق، وهي تغني لترفع من معنوياتنا. لقد كانت مختلفة في غياب أبي: كانت تتطابق مع بناتها، وكأنها أخت كبرى لهن. وتندمج معهن على أحسن حال، حتى تكون أفضلهن في الألعاب الطفولية، بما في ذلك اللعب بالدمى. ويصل بها الأمر إلى فقدان أعصابها والتشاجر معهن، وكأنها ندّ لهن. ويمثل مضمون الرسالة الأولى نفسه، وصلت رسالتان أخريان من أبي، تعرضان مشاريع واعدة، أتاحت لنا النوم، بصورة أفضل.

كانت هناك مشكلة خطيرة تتمثل في السرعة التي تضيق بها ثيابنا علينا. لم يكن هناك من يرث ملابس لويس إنريكي، لأنه كان يرجع من الشارع متهالكاً، وثيابه ممزقة. ولم نفهم السبب قط. كانت أمي تقول إنه كمن يمشي بين أسلاك شائكة. أما الأخوات – وهن بين السادسة والتاسعة من أعمارهن – فكن يتدبرن أمر ملابس إحداهن بملابس أخرى، كيفما استطعن وبمعجزات البراعة. وقد اعتقدت على الدوام، بأن حاجات تلك الأيام الماسة، حولتهن راشدات، منذ وقت مبكر. كانت عايدا مدبرة، وتجاوزت مارغوت قدراً كبيراً من حيائها، وبدت حانية وخدومة تجاه الوليدة الجديدة. وكنت أنا في وضع أصعب من الجميع، ليس لأنه علي القيام بمساع متميزة وحسب، وإنما لأن أمي،

محاطة بحماس الجميع، جازفت في تقليص النفقات المنزلية، لتسجيلي في مدرسة كارتاخينا دي إندياس، على بعد نحو عشر كوادرات، مشياً من بيتنا.

وبناء على الاستدعاء، توجهنا، نحن العشرين متقدماً، في الساعة الثامنة، من أجل مسابقة القبول. لم يكن فحصاً كتابياً لحسن الخط، وإنما كان هناك ثلاثة معلمين يستدعوننا، وفق تسلسل تسجيلنا في الأسبوع السابق، ويجرون لنا اختباراً موجزاً بالاستناد إلى وثائق دراستنا السابقة. وكنت الوحيد الذي لا يملك تلك الوثائق، لأن ضيق الوقت لم يُتح طلبها من مدرسة مونتسوري، ومن المدرسة الابتدائية في آراكاتاكا. وكانت أمي تفكر في أنني لن أُقبل من دون الوثائق. ولكنني قررت التظاهر بالبلاهة. أخرجني أحد المعلمين من الصف، عندما اعترفت له بأنني لا أملك الوثائق. ولكن معلماً آخر تولى مسؤولية تقرير مصيري، وأخذني إلى مكتبه، ليجري لي الفحص، دون مطلب مسبق. سألني ما هي كمية الغروسا[1]، وما هو عدد سنوات اللوسترو[2] والألفية. وطلب مني أن أذكر عواصم المحافظات الإدارية، وأنهار البلاد الرئيسية والبلدان التي تحدها. بدا لي كل ذلك روتينياً. إلى أن سألني ما هي الكتب التي قرأتها. ولفت انتباهه أنني ذكرت كتباً كثيرة وشديدة التنوع بالنسبة لسني، وبأنني قرأت "ألف ليلة وليلة"، في طبعة للكبار لم تحذف منها بعض الفقرات الحرجة التي تستثير حفيظة الأب أنغاريتا. وقد فوجئت حين علمت أنه كتاب مهم، لأنني كنت أفكر على الدوام بأن

(١) الغروسا gruesa، اثنتا عشرة دزينة.
(٢) لوسترو lustro، خمس سنوات.

الكبار الجديين لا يمكنهم أن يصدقوا بأن هناك جناً يخرجون من القوارير، أو أن الأبواب تُفتح بتعويذة من الكلمات. المتقدمون الذين سبقوني لم يتأخر كل واحد منهم أكثر من ربع ساعة، المقبولون منهم والمرفوضون على السواء، بينما بقيت أنا أكثر من نصف ساعة، أتحدث مع المعلم، حول كل أنواع الموضوعات. تفحصنا معاً خزانة كتب متراصة، وراء منضدة المكتب، وبينها كان يتميز، بعدد نسخه وألقه، كتابُ "كنز الشباب" الذي كنتُ قد سمعت عنه. ولكن المعلم أقنعني بأن الكتاب الأكثر فائدة لسني هو "الكيخوته". لم يجده في المكتبة، ولكنه وعدني بأن يعيرني إياه فيما بعد. وبعد نصف ساعة من التعليقات السريعة، حول السندباد البحري أو روبنسون كروزو، رافقني حتى المخرج، دون أن يقول لي إذا ما كنتُ قد قُبلت. فكرتُ أن لا، طبعاً، ولكنه ودعني عند الشرفة بالشدّ على يدي والقول لي: إلى اللقاء، في الساعة الثامنة من صباح يوم الاثنين، من أجل تسجيلي في الصف الأعلى من المدرسة الابتدائية: الصف الرابع.

لقد كان المدير العام، واسمه خوان فينتورا كاساليس، وأنا أتذكره كصديق طفولة، دون أي أثر من الصورة المرعبة التي كانت شائعة عن معلمي تلك الحقبة. فضيلته التي لا تنسى، كانت في معاملتنا جميعاً كراشدين متساوين، بالرغم من أنني ما زلت أشعر بأنه كان يوليني اهتماماً خاصاً. فقد اعتاد أن يوجه لي، خلال الدروس، أسئلة أكثر من الآخرين، ويساعدني لتكون إجاباتي صائبة وبسيطة. وكان يسمح لي بأخذ الكتب من المكتبة المدرسية، لأقرأها في البيت. وقد كان اثنان من تلك الكتب، "جزيرة الكنز" و"الكونت دي مونتكريستو"، هما المخدر

السعيد في سنوات الأعاجيب تلك. كنت ألتهمهما حرفاً حرفاً، متلهفاً لمعرفة ما الذي سيحدث في السطر التالي. ومتلهفاً في الوقت نفسه إلى عدم معرفة ذلك، حتى لا أكسر السحر. وقد تعلمت منهما، مثلما تعلمت من ألف ليلة وليلة، ما لن أنساه أبداً، بأنه يجب أن نقرأ فقط الكتب التي تجبرنا على أن نعيد قراءتها.

أما قراءتي لرواية "دون كيخوته" بالمقابل، فكنت أراها على الدوام جديرة بفصل منفرد، لأنها لم تسبب لي التأثر الذي توقعه المعلم كاساليس. فقد كانت تُضجرني خطب الفارس الجوال المسهبة. ولا أشعر بأي ظرافة في حماقات تابعه. حتى إنني صرت أفكر في أنه ليس الكتاب نفسه الذي يجري الحديث بكثرة عنه. ومع ذلك، فقد قلت لنفسي إن معلماً حكيماً مثل معلمنا، لا يمكنه أن يخطئ، وبذلت جهداً لابتلاعه ملعقة بعد أخرى، كما لو كان شراباً مُسهّلاً. ثم بذلتُ محاولات أخرى في المرحلة الثانوية، حين كان علي أن أدرسه كواجب إجباري، ومللته دون خلاص، إلى أن نصحني صديق بأن أضعه على رف المرحاض، وأحاول قراءته بينما أنا أنجز واجباتي الجسدية اليومية. وبهذه الطريقة فقط اكتشفته، كتفجُّر، واستمتعت به سوياً ومقلوباً، إلى أن صرت أردد من الذاكرة، مقاطع مطولة كاملة منه.

لقد خلفَت لي تلك المدرسة التي وفرها لي القدر، ذكريات تاريخية كذلك، عن مدينة وحقبة لا سبيل إلى استعادتهما. كانت المدرسة هي البناء الوحيد على قمة رابية خضراء، يظهر من شرفتها أقصى طرفي العالم. فإلى يسارها حي البرادو، الأكثر تميزاً وغلاء، والذي بدا، لي منذ الوهلة الأولى، نسخة مطابقة لقن الدجاج ذي السور المكهرب الذي كان

يقظته موظفو البونايتد فروت كومباني. لم يكن ذلك مصادفة: فقد بنته شركة مصممي مدن أمريكيين، وفق ذوقهم وأنظمتهم وأسعارهم المستوردة. وكان الحي نقطة جذب سياحي محتشمة لبقية أرجاء البلاد. وهناك إلى يمينه بالمقابل، الضاحية المعفرة لحينا السفلي بشوارعه الترابية الملتهبة، وبيوته التي من قصب وطين، وسقوف من سعف النخيل، تذكّرنا طوال الوقت، أننا لسنا أكثر من بشر فانين من لحم وعظم. ولحسن الحظ أنه كان يظهر لنا من شرفة المدرسة، مشهد بانورامي للمستقبل: دلتا نهر مجدلينا التاريخي، وهي من أكبر دلتات العالم، والبحر الرمادي عند بوكاس دي ثينيثا.

في ٢٨ أيار ١٩٣٥ رأينا ناقلة النفط تاراليت، التي ترفع العلم الكندي، تدخل وهي تطلق جؤار بهجة بين سديّ الصخور، لترسو في مرفأ المدينة، وسط صخب الموسيقى والألعاب النارية، يقودها القبطان د.ف.ماكونالد. وهكذا تحققت مأثرة تمدنية أعد لها خلال سنوات طويلة، لتحويل مدينة بارانكيّا إلى الميناء البحري والنهري الوحيد في البلاد.

وبعد وقت قصير من ذلك، مرت طائرة يقودها النقيب نيكولاس ريبس مانوتاس، وهي تكاد تلامس أسطح البيوت، بحثاً عن أرض خلاء من أجل هبوط اضطراري، ليس لينجو بجلده وحسب وإنما لينقذ كذلك، جلود المسيحيين الذين سيصطدم بهم في سقوطه. لقد كان أحد رواد الطيران الكولومبي. وقد أهديت إليه تلك الطائرة البدائية في المكسيك، وقادها، وحيداً، من أحد طرفي أميركا الوسطى إلى طرفها الآخر. وكان قد أعدّ له حشد متجمع في مطار بارانكيّاس، حفل ترحيب انتصاري، مع مناديل ورايات وفرقة موسيقية. ولكن ريبس مانوتاس أراد القيام

بجولتي تحية أخريين فوق المدينة، فأصيب محرك طائرته بعطل. وتمكن من السيطرة على الطائرة، بمهارة إعجازية، لكي يهبط على شرفة بناء في المركز التجاري. ولكن الطائرة تشابكت مع أسلاك الكهرباء، وبقيت معلقة بأحد الأعمدة. لحقنا بها أنا وأخي لويس إنريكي، بين الحشود الصاخبة، إلى حيث سمحت به أنفاسنا. ولكننا تمكنا من رؤية الطيار فقط، بعد أن أخرجوه بمشقة، إنما سليماً معافى، وهو يحيي الناس بحماس بطل.

وقد شهدت المدينة كذلك، أول محطة بث إذاعية، وقناة مائية حديثة تحولت إلى مكان جذب سياحي وتربوي للتعريف بعملية تنقية المياه المستجدة، وفريق إطفاء كانت صفارته وأجراسه عيداً للصغار والكبار، منذ بُدئ بسماعها. كما دخلت هناك أولى السيارات المكشوفة التي كانت تنطلق في الشوارع بسرعة جنونية، وتحول الطرق المرصوفة حديثاً، إلى عجة. وقد استلهمت وكالة "الإنصاف" لدفن الموتى، سخرية الموت، وعلقت إعلاناً هائلاً عند مخرج المدينة، تقول فيه: "لا تسرع، فنحن في انتظارك".

وفي الليل، عندما لا يعود هناك ملاذ سوى البيت، تجمعنا أمي لتقرأ لنا رسائل الوالد. وكان معظمها أعمالاً بارعة في الإلهاء والتملص. ولكن إحداها بدت واضحة في حديثها عن الحماس الذي يوقظه الطب التجانسي بين كبار السن، في أسفل نهر مجدلينا. إذ يقول أبي: "توجد هنا حالات تبدو إعجازية". لقد كان يولد أحياناً لدينا الانطباع بأنه سيكشف لنا عما قريب عن أمر عظيم. ولكن ما يتلو ذلك هو شهر آخر من الصمت. في أسبوع الآلام المقدس، عندما أصيب اثنان

من أخوتي الصغار بعدوى حصبة وبيلة، لم نجد طريقة للاتصال به لأن أمهر الأدلاء ما كانوا يعرفون شيئاً عن أثره.

في تلك الشهور، فهمتُ في الحياة الواقعية، معنى واحدة من الكلمات التي كان يكثر جداي من استخدامها: الفقر. لقد كنت أفسرها على أنها الوضع الذي كنا نعيشه في بيتهما، منذ أن بدأت شركة الموز بالتفكك. كانا يشكوان منه طوال الوقت. ولم تعد هناك ورديتان أو ثلاث ورديات على المائدة، مثلما كانت الحال في السابق، وإنما وردية وحيدة، من أجل عدم التخلي عن طقس الغداء المقدس. وقد انتهى بهما الأمر، عندما لم تعد لديهما موارد للإنفاق عليها، إلى شراء الطعام جاهزاً من مطاعم السوق، وكان جيداً وأرخص بكثير، مع المفاجأة بأننا، نحن الأطفال، أحببناه أكثر. ولكن ذلك كله انتهى إلى الأبد، عندما علمت الجدة مينا بأن بعض المدعوين المثابرين قرروا عدم المجيء إلى البيت، لأن الأكل لم يعد لائقاً، كما في السابق.

فقر والديّ في بارانكيّا بالمقابل، كان منهكاً. لكنه أتاح لي لحسن الحظ، إقامة علاقة استثنائية مع أمي. كنت أشعر نحوها، إضافة إلى الحب البَنَوي المفهوم، بإعجاب مذهل بطبعها، كلبوة صامتة، إنما ضارية في مواجهة المصاعب. وبعلاقتها بالرب، التي لا تشبه الخضوع وإنما العراك. وهما ميزتان رسختا لديها، في الحياة، ثقة بالنفس لم تخنها مطلقاً. ففي أسوأ اللحظات. كانت تضحك من أساليبها القدرية. كما في المرة التي اشترت فيها ركبة جاموس، وراحت تغليها يوماً بعد آخر، من أجل المرق اليومي الذي راح دسمه يتناقص يوماً بعد يوم. إلى أن تحول إلى مجرد ماء لا يمكنه أن يمنح المزيد. وفي ليلة عاصفة مرعبة،

أنفقت كل شحم الخنزير المخصص للشهر، لتصنع منه سراجات قماشية، لأن الضوء انقطع حتى الصباح. وكانت هي نفسها، من أدخلت في صغارها الخوف من الظلام، كيلا يتحركوا من فراشهم.

كان أبواي يزوران، في أول الأمر، الأسر الصديقة التي هاجرت من آراكاتاكا، بعد أزمة الموز وتردي نظام الأمن العام. وكانت زيارات دوارة، يدورون فيها على الدوام، حول موضوعات النكبة التي حلّت بالقرية. ولكن عندما اشتد علينا الفقر في بارانكيّا، لم نعد نشكو في البيوت الغريبة. وأوجزت أمي تكتمها في جملة واحدة: "الفقر يظهر في العيون".

حتى الخامسة من عمري، كان الموت يبدو لي نهاية طبيعية تحدث للآخرين. ولم أكن أرى في بهجة الفردوس السماوي وعذابات الجحيم، إلا مجرد دروس نحفظها عن ظهر قلب، من كتاب الأب آستيتي في التربية الدينية. ولم تكن لي أي علاقة بها؛ إلى أن لاحظت بطرف عيني، في أثناء السهر على ميت، أن القمل كان يهرب من شعر الجثة، ويمشي دون وجهة محددة، على الوسائد. وما أقلقني منذ ذلك الحين، ليس الخوف من الموت، وإنما الخجل من أن يهرب مني القمل أيضاً، على مرأى من الأقارب الذين سيسهرون على جثتي. ومع ذلك، لم أنتبه، وأنا في المدرسة الابتدائية، في بارانكيّا، إلى أنني كنت مصاباً، بالقمل إلى أن نقلتُ العدوى إلى الأسرة كلها. وأظهرت أمي آنذاك دليلاً آخر على صلابة طبعها. فقد عقمت أبناءها واحداً واحداً، بمبيد صراصير، في عملية تنظيف معمقة عمّدتها باسم ذي وقع مهيب: الشرطة. ولكن السيئ في الأمر، هو أننا ما إن تطهرنا حتى بدأنا نصاب من جديد، لأن

العدوى انتقلت إليّ مجدداً في المدرسة. عندئذ قررت أمي قطع الداء من جذوره، فأجبرتني على قص شعري من أصوله. كان ظهوري في المدرسة يوم الاثنين، وأنا أضع قبعة قماشية، عملاً بطولياً. ولكنني تجاوزت، بشرف، سخريات زملائي، وتوّجت السنة النهائية بأعلى التقديرات والدرجات. لم أعد للقاء المعلم كاساليناس قط، ولكن بقيتُ مديناً له بالامتنان الأبدي.

وجد لي صديق لوالدي، لم نتعرف عليه قط، عملاً في مطبعة قريبة من البيت. وكان الأجر أقل بكثير من لا شيء، وكانت فكرة تعلم المهنة هي دافعي الوحيد. ومع ذلك، لم تكن تتوفر لي لحظة واحدة لرؤية المطبعة، لأن عملي كان يتلخص في ترتيب الملازم المطبوعة، لكي يجلدوها في قسم آخر. وكان عزائي هو أن أمي سمحت لي بأن أشتري من أجري، ملحق صحيفة لابرنسا ليوم الأحد. وكان يتضمن قصص رسوم متسلسلة عن طرزان، وبوك روجرز - واسمه عندنا روخيليو الغازي - وعن "مَت آند جِف" - وكانا يسميان بينيتو وإنياس -. وقد تعلمتُ، في استراحة أيام الآحاد، رسمهم من الذاكرة؛ وكنت أستكمل حلقة الأسبوع، وأضع لها نهاية على هواي. فتوصلت بذلك، إلى إثارة حماس بعض الكبار في الحي، بل واستطعت أن أبيعها مقابل سنتين اثنين.

كان العمل منهكاً ومجدباً. وكانت تقارير رؤسائي، مهما بذلتُ من جهد، تتهمني بالتقصير وضعف الرغبة في العمل. وقد نقلوني، تقديراً لأسرتي دون شك، من روتين الورشة، إلى موزع نشرات دعائية في الشوارع، لشراب سعال يوصي به أشهر فناني السينما. بدا لي ذلك

جيداً، لأن النشرات جميلة، وعليها صور الممثلين بالألوان، مطبوعة على ورق مصقول. ومع ذلك، فقد أدركت منذ البداية، أن توزيعها ليس بالأمر السهل، مثلما ظننت. فالناس ينظرون إليها بارتياب، لأنها توزع مجاناً؛ ويجفل معظمهم، كما لو أنها مكهربة، كيلا يتلقّوها. في الأيام الأولى رجعت إلى المشغل ومعي النشرات المتبقية ليستكملوها لي. إلى أن التقيت بعض زملاء الدراسة في آراكاتاكا، وقد استشاطت أمهم غضباً، حين رأتني في تلك المهنة التي بدت لها عمل متسولين. عنّفتني بما يشبه الصراخ، لأني أخرج إلى الشارع بصندل قماشي اشترته لي أمي كيلا أستهلك حذاء المناسبات الرسمي. وقالت لي:

- قل للويسا سانتياغا، أن تفكر في ما يمكن أن يقوله أبواها إذا ما رأيا حفيدهما المفضل، يوزع دعايات مسلولين في السوق.

لم أنقل الرسالة، لأوفر على أمي الغم. ولكنني بكيت على وسادتي من الغضب ومن الخجل ليالي عديدة. وكانت نهاية تلك الدراما أنني لم أعد أوزع النشرات، وإنما صرت ألقي بها في مجارير السوق دون أن ألحظ أن مياهها راكدة، والورق المصقول يبقى طافياً على السطح، إلى أن يشكل فرشة بديعة الألوان، تتحول إلى مشهد فريد، من فوق الجسر.

لا بد أن أمي تلقت رسالة من موتاها في حلم ملهم، لأنها أخرجتني، قبل انقضاء شهرين من المطبعة دون تفسيرات. فعارضتُ ذلك كيلا أفقد عدد يوم الأحد من جريدة لابرنسا التي كنا نتلقاها في الأسرة مثل مباركة من السماء. ولكن أمي واصلت شراءها لنا، ولو اضطرها ذلك إلى أن تقتطع حبة بطاطا من الحساء.

وسيلة إنقاذ أخرى هي مبلغ الفَرَج الذي كان يرسله إلينا الخال خوانيتو، في أشد الشهور قسوة. كان الخال آنذاك لا يزال يعيش في

سانتا مارتا، على دخله الضئيل كعدّاد محلّف. وقد فرض على نفسه واجب إرسال رسالة لنا كل أسبوع، ومعها ورقتان نقديتان من فئة البيزو الواحد. وكان قبطان المركب النهري آورورا، وهو صديق قديم للأسرة، يسلمني الرسالة في الساعة السابعة صباحاً، فأعود إلى البيت بمشتريات أساسية تكفي عدة أيام.

وفي أحد أيام الأربعاء، لم أستطع القيام بالمهمة، فأوكلتها أمي إلى لويس إنريكي الذي لم يقاوم إغراء محاولة مضاعفة البيزوين في آلة العملات في حانة صينيين. لم يستطع اتخاذ قرار التوقف عندما خسر الفيشتين الأوليين، وواصل محاولة استردادهما، إلى أن خسر حتى قطعة النقد ما قبل الأخيرة. وقد روى لي بعد أن كبر: "لقد بلغ خوفي حداً قررت معه عدم العودة إلى البيت أبداً." فقد كان يعرف جيداً أن البيزوين يكفيان للمشتريات الأساسية لأسبوع. ولحسن الحظ أن شيئاً في الآلة مع الفيشة الأخيرة جعل أحشاءها تهتز هزة حديدية، وتقيأت على أثرها، في دفقات متواصلة، الفيشات الكاملة للبيزوين الضائعين. وقد أخبرني لويس إنريكي: "عندئذ ألهمني الشيطان، وتجرأت على المجازفة بفيشة أخرى." كسب. وجازف بأخرى وكسب أيضاً، وأخرى وأخرى وأخرى، وكسب. وقد روى لي: "كان الرعب عندئذ أكبر مما أحسست به حين خسرت. فتراخت أحشائي، ولكنني واصلت اللعب" وأخيراً كسب ضعف البيزوين الأصليين في قطع نقدية من فئة الخمسة سنتافو، ولم يتجرأ على استبدالها بنقود ورقية من الصندوق، خوفاً من أن يورّطه الصيني في قصة صينية[1]. انتفخت بها جيوبه كثيراً، حتى إنه سارع، قبل أن يعيد إلى أمي بيزوي الخال خوانيتو، في قطع نقدية

(١) القصة الصينية cuento chino: هي كل حديث غير معقول وفيه كثير من اللف والدوران.

من فئة الخمسة سنتافو، إلى دفن البيزوات الأربعة التي كسبها، في أقصى الفناء، حيث اعتاد أن يخبئ كل سنتافو يجده في غير مكانه. وقد أنفقها شيئاً فشيئاً، دون أن يعترف لأحد بالسر، إلا بعد سنوات طويلة. وكان ما يزال يتعذب، لأنه انقاد للمجازفة بقطعة الخمسة سنتافو الأخيرة في دكان الصيني.

علاقته بالنقود كانت شخصية جداً. في إحدى المرات، فاجأته أمي ينبشُ في محفظتها التي تضع فيها نقود الشراء. وكان دفاعه عن نفسه قطعياً، ولكنه ذكي: النقود التي يأخذها أحدنا دون إذن من محفظة الأبوين، لا يمكن أن تعدّ سرقة، فهي نقود الجميع، التي ينكرونها علينا حسداً، لأنهم لا يستطيعون أن يفعلوا بها ما يفعله الأبناء. وقد بلغ بي الأمر، في الدفاع عن حجته، إلى حد الاعتراف بأنني، أنا نفسي، كنت قد سطوت على المخابئ المنزلية من أجل ضرورات ملحة. ففقدت أمي عندئذ أعصابها، وقالت لي صارخة تقريباً: "لا تكونا على هذا القدر من الحماقة: أنت وأخوك لم تسرقا مني شيئاً. فأنا نفسي أترك النقود، لأني أعرف أنكما ستأخذان منها، عندما تضطران إلى ذلك." وفي إحدى نوبات غضبها، سمعتها تغمغم بيأس، بأنه لا بد للرب من أن يبيح السرقة أحياناً، من أجل إطعام الأطفال.

لقد كان سحر لويس إنريكي في شيطناته، مفيداً جداً في حلّ مشاكل مشتركة. ولكنه لم يحاول قطّ، أن يورّطني في مقالبه. بل على العكس من ذلك، كان يتدبرها دوماً. بحيث لا يُلحق بي أدنى قدر من الشبهة. وقد أرهف سلوكه ذاك، عاطفة حقيقية استمرت بيننا إلى الأبد. ولكنني لم أتح له بالمقابل، أن يعرف كم كنت أحسد جرأته، وكم كنتُ

أتألم من الضرب المبرح الذي يتلقاه من أبي. لقد كان سلوكي مختلفاً جداً عن سلوكه. ولكنني كنتُ أتكلف جهداً كبيراً في إخفاء حسدي له. وكان بيت الأبوين في كاتاكا بالمقابل، يخيفني، حيث كانوا يأخذونني للنوم فيه، عندما يريدون إعطائي شربة طاردة للديدان أو زيت خروع فقط. حتى إنني كنت أكره قطع النقد من فئة العشرين سنتافو التي يدفعونها لي مقابل الشجاعة في تناولها.

أظن أن أمي بلغت ذروة اليأس، عندما أرسلتني محملاً برسالة إلى رجل مشهور بثرائه، وبأنه في الوقت نفسه، أوسع المحسنين إلى الناس سخاءً في المدينة. كانت الأخبار عن طيبة قلبه، تُنشر بتوسع لا يقل عن التوسع في نشر انتصاراته المالية. كتبت إليه أمي رسالة غم بلا مواربة، تطلب منه مساعدة مادية مستعجلة، ليس باسمها، لأنها قادرة على تحمل أي شيء، وإنما حباً بأبنائها. لا بد من أن يكون المرء قد تعرّف عليها لكي يدرك ما الذي تعنيه تلك الإهانة في حياتها. ولكن المناسبة كانت تتطلب ذلك. نبهتني إلى أن السر يجب أن يبقى بيننا نحن الاثنين، وهذا ما حدث، حتى هذه اللحظة التي أكتبه فيها.

طرقتُ بوابة البيت الذي فيه شبه بالكنيسة، وعلى الفور تقريباً فُتحت كوة في الباب، أطلت منها امرأة لا أتذكر منها سوى جليد عينيها. تلقت الرسالة دون أن تفوه بكلمة واحدة، وأغلقت الكوة من جديد. كانت الساعة حوالى الحادية عشرة صباحاً، وانتظرتُ جالساً عند دعامة البوابة، حتى الساعة الثالثة بعد الظهر، عندما قررت طرق الباب ثانية، طلباً للرد. فتحت المرأة نفسها من جديد، وفوجئت بالتعرف عليَّ، وطلبت مني الانتظار لحظة. ثم جاءتني بالجواب بأن أعود يوم الأربعاء،

من الأسبوع التالي، في الساعة نفسها. وكان هذا ما فعلته ولكن الجواب الوحيد الذي تلقيته، هو أنه لا مجال لأي جواب قبل أسبوع. وكان عليَّ أن أعود ثلاث مرات أخرى، وأن أتلقى دوماً، الجواب نفسه. إلى أن ردّت علي امرأة أكثر جفاء من السابقة، بتكليف من السيد، بأن ذلك البيت ليس بيت صدقات.

قمت بالتجوال في الشوارع الملتهبة، محاولاً استجماع الشجاعة، لأنقل إلى أمي إجابة تخلصها من أوهامها. واجهتها في أوج الليل، لأخبرها بقلب موجوع بأن المحسن الطيب قد توفي، منذ بضعة شهور. وكان أكثر ما آلمني هو صلاة السبحة التي رددتها أمي من أجل الراحة الأبدية لروحه.

بعد أربع أو خمس سنوات من ذلك، عندما سمعنا من المذياع، الخبر الحقيقي، بأن المحسن قد توفي في اليوم السابق. بقيت متيبساً بانتظار ردّ فعل أمي. ومع ذلك، لا يمكنني أن أفهم مطلقاً كيف سمعت الخبر باهتمام متأثر، وتنهدت من أعماق روحها:

– فليحفظه الرب في ملكوته المقدس!

على بعد كوادرا من البيت، أقمنا صداقة مع آل موسكيرا. وهم أسرة تنفق ثروة على شراء مجلات القصص المصورة، ويكدسونها حتى السقف في عنبر في الفناء. وكنا نحن المحظوظين الوحيدين الذين أمضوا هناك أياماً بكاملها في قراءة "دك تراكي" و "بوك روجرز". ولقية سعيدة أخرى، هي متدرب برسم إعلانات لأفلام سينما كينتاس القريبة. وكنت أساعده لمجرد المتعة في تلوين الحروف، فيدخلنا مجاناً مرتين أو ثلاث مرات في الأسبوع، إلى أفلام إطلاق الرصاص وتبادل

الكمات. الترف الوحيد الذي افتقدناه، هو جهاز مذياع لسماع الموسيقى في أي وقت، بمجرد لمسة زر. من الصعب اليوم، تصورُ كم كانت تلك الأجهزة نادرة في بيوت الفقراء. كنت أجلس أنا ولويس إنريكي أمام الدكان القائم على الناصية، على مقعد موضوع من أجل مسامرات الزبائن البطّالين. وكنا نمضي أمسيات بطولها، ونحن نستمع إلى برامج الموسيقى الشعبية. وهي كل شيء في ذلك الحين تقريباً. وتوصلنا إلى أن نحفظ في ذاكرتنا قائمة كاملة من أغنيات ميغيليتو بالديس مع أوركسترا كازينو دي لا بلايا، ودانييل سانتوس مع فرقة سونورا ماتانثيرا، وأغنيات بوليرو أغوسطين لارا بصوت توتيا الزنجية.

تسليتنا الليلية، وبخاصة في المناسبتين اللتين قطعوا فيهما عنا نور الكهرباء، لعدم الدفع، كانت تعليم تلك الأغنيات لأمنا وأخوتنا. ولا سيما ليخيا وغوستافو، اللذان كانا يحفظانها كالببغاوات، دون أن يفهما معناها، فيضحكاننا حتى الانفجار بأخطائهما الغنائية. لم تكن هناك استثناءات. فجميعنا ورثنا عن الأب والأم ذاكرة خاصة للموسيقى، وسمعاً جيداً لحفظ أغنية من المرة الثانية. وبخاصة لويس إنريكي الذي ولد موسيقياً وتخصص بإمكانياته الذاتية في العزف المنفرد على الجيتار في سرينادات الحب المعاكس. وسرعان ما اكتشفنا أن جميع الأطفال الذين ليس لديهم مذياع في البيوت المجاورة، يتعلمون أيضاً من أخوتي، وبخاصة من أمي، التي انتهت لأن تكون أختاً أخرى في بيت الأطفال ذاك.

كان برنامجي المفضل هو "ساعة لشيء من كل شيء" للمؤلف الموسيقي والمغني والمعلم آنخل ماريا كاماتشو آي كانو، الذي كان

يحتكر المستمعين، منذ الساعة الواحدة بعد الظهر، بكل أصناف المنوعات الذكية، ولا سيما ساعته المخصصة للهواة دون الخامسة عشرة. كان يكفي أن يسجل المتقدم اسمه في مكاتب "صوت الوطن" وأن يأتي إلى البرنامج، قبل نصف ساعة من الموعد. وكان المعلم كاماتشو آي كانو نفسه يرافق الهاوي على البيانو، بينما يصدر مساعد له الحكم غير القابل للاستئناف بقطع الأغنية، برن جرس كنيسة عندما يقترف الهاوي أدنى خطأ. وكانت الجائزة التي تقدم لأفضل مغنٍ أكثر مما يمكن لنا أن نحلم به – خمسة بيزوات –، ولكن أمي كانت واضحة بأن المهم هو الفخر بالغناء جيداً في برنامج بهذه الشهرة.

كنت حتى ذلك الحين، أعرِّف بنفسي، بكنية أبي وحدها – غارسيا – واسمي الأول المركب من اسمين – غابرييل خوسيه –، ولكن أمي طلبت مني، في تلك المناسبة التاريخية، أن أسجل اسمي مضيفاً إليه كنيتها كذلك – ماركيز – حتى لا يشك أحد في هويتي. لقد كان حدثاً في البيت. ألبسوني ثياباً بيضاء، كما في المناولة الأولى، وقبل الخروج، قدموا لي شراباً من فوار الصودا. وصلتُ إلى "صوت الوطن" قبل ساعتين من الموعد. وقد انقضى مفعول المسكّن، بينما أنا أنتظر في حديقة قريبة لأنهم لا يسمحون بالدخول إلى الاستديو، إلا قبل ربع ساعة من البرنامج. في كل دقيقة كنت أشعر بعناكب الرعب تتمرد في داخلي، وأخيراً دخلت وقلبي يكاد يطفر من صدري. كان عليّ أن أبذل جهداً خارقاً لأمنع نفسي من العودة إلى البيت والقول إنهم لم يسمحوا لي بالاشتراك في المسابقة متعللاً بأي حجة. أجرى لي المعلم اختباراً سريعاً بمرافقة البيانو، لكي يحدد طبقة صوتي. وقد استدعوا قبلي سبعة

متسابقين، وفق تسلسل التسجيل، وقرعوا الجرس لثلاثة منهم لأخطاء مختلفة، ثم أعلنوا عني باسم غابرييل ماركيز وحسب. غنيت "البجعة"، وهي أغنية عاطفية عن بجعة أشد بياضاً من ندفة ثلج قُتلت مع حبيبها، على يد صياد عديم الشفقة. منذ الألحان الأولى لاحظت أن الإيقاع عالٍ جداً بالنسبة لي في بعض النغمات التي لم تمر في الاختبار، وعانيت لحظة رعب عندما قام المساعد بإيماءة مترددة، وتأهب لتناول الجرس. لست أدري كيف واتتني الشجاعة لأشير، له بإيماءة، نشطة ألا يقرعه. ولكن ذلك جاء متأخراً: فقد دوى الجرس دون رحمة. وذهبت بيزوات الجائزة الخمسة، ومعها عدة هدايا دعائية، إلى شقراء جميلة جداً مضغت مقطعاً من مدام بترفلاي. رجعتُ إلى البيت مثقلاً بالهزيمة. ولم أستطع قط مواساة أمي من خيبة أملها. وقد انقضت سنوات طويلة، قبل أن تعترف لي بأن سبب خجلها هو أنها كانت قد أخبرت أقرباءها وأصدقاءها، لكي يسمعوني وأنا أغني. ولم تكن تعرف كيف تتهرب منهم.

وسط ذلك النظام من الضحك والبكاء، لم أتغيب عن المدرسة قط. حتى وأنا خاوي المعدة. ولكن وقت قراءاتي المنزلية، صار ينقضي في المساعي المنزلية. ولم تكن لدينا ميزانية للنور، تمكنني من القراءة حتى منتصف الليل. ولكنني كنت أتدبر الأمور على أي حال. ففي الطريق إلى المدرسة كانت هناك ورشات لحافلات الركاب. وكنت أتوقف في إحداها لساعات، أراقب كيف يخطّون، على جانبيها، لافتات تبين الطريق الذي تقطعه، والوجهة التي تصل إليه. وفي أحد الأيام، طلبت من الرسام أن يسمح لي برسم بعض الحروف، لأرى إذا ما كنتُ قادراً

على ذلك. فوجئ بكفاءتي الطبيعية، وسمح لي بأن أساعده أحياناً، مقابل بعض البيزوات المتفرقة التي تساعد قليلاً، في الميزانية الأسرية. وقد عشت في تلك الفترة وهماً آخر، عندما تعرّفت مصادفة، على ثلاثة أخوة كنيتهم غارسيا، أبناء بحار يمخر نهر مجدلينا. وكانوا قد نظموا ثلاثي موسيقى شعبية، لتنشيط حفلات الأصدقاء، حباً بالفن وحسب. فأكملت معهم الرباعي غارسيا، لنشارك في مسابقة ساعة الهواة، في إذاعة أتلانتيكو. وربحنا الجائزة، منذ اليوم الأول، وسط عاصفة من التصفيق. ولكنهم لم يدفعوا لنا بيزوات الجائزة الخمسة، بسبب خطأ لا يمكن إصلاحه، في تسجيل الأسماء. واصلنا التدرب معاً خلال بقية السنة، والغناء مجاناً في الحفلات الأسرية، إلى أن فرقت بيننا الحياة.

لم أتفق أبداً مع الرواية الخبيثة القائلة إن الصبر الذي كان أبي يواجه به الفقر، له علاقة بانعدام حس الشعور بالمسؤولية. بل على العكس: أظن أنها كانت أدلة هوميروسية على تواطؤ لم يَخبُ أبداً بينه وبين زوجته. ويسمح لهما بكتم أنفاسهما، إلى أن يبلغا شفير الهاوية. كان يعرف أنها قادرة على التحكم بالرعب، خيراً من تحكمها باليأس، وأن هذا هو السر في بقائنا على قيد الحياة. وربما أن الأمر الذي لم يفكر فيه هو أن آلامه كانت تهدأ، وهو يراها تخلّف في الطريق، أفضل ما في حياتها. لم نكن نفهم أبداً سبب أسفاره. ففي أحد أيام السبت، أيقظونا فجأة في منتصف الليل، مثلما كان يحدث عادة، ليأخذونا إلى وكالة محلية لحقل بترول في كاتاتومبو، حيث تنتظرنا مكالمة لاسلكية من أبي. لن أنسى قط أمي المستحمة بالدموع، في تلك المحادثة التي تشوشها التقنية.

– آي يا غابرييل. انظر كيف تركتني مع هذه الكثيبة من الأبناء، وقد وصلنا إلى حد عدم العثور على ما نأكله، مرات عديدة.

فرد هو بالخبر المشؤوم، بأن كبده متورم. وكان ذلك يحدث له بكثرة. ولم تكن أمي تأخذه على محمل الجد، لأنه استخدمه مرة للتستر على مجونه. فقالت له مازحة:

– هذا ما يصيبك، كلما أسأت التصرف.

كانت تتكلم وهي تنظر إلى الميكروفون، كما لو أن أبي هناك. ثم ارتبكت أخيراً، وهي تحاول أن ترسل إليه قبلة، فقبّلت الميكروفون. ولم تستطع، هي نفسها، كبح قهقهاتها. ولم تتمكن قطّ من رواية الحكاية كاملة، لأنها كانت تنتهي إلى الاستحمام بدموع الضحك. ومع ذلك، بقيت ساهمة في ذلك اليوم. وأخيراً قالت على المائدة وكأنها تتكلم إلى لا أحد:

– لقد لمستُ شيئاً غريباً في صوت غابرييل.

أوضحنا لها أن جهاز اللاسلكي لا يشوش الأصوات فقط، وإنما يحجب حقيقة الشخصية كذلك. وفي الليلة التالية، قالت وهي نائمة: "صوته على كل حال، يُسمع كما لو كان أكثر نحولاً". كان أنفها مرهفاً كما في أيامها السيئة. وكانت تتساءل بين التنهدات، كيف هي تلك القرى التي بلا رب ولا قانون، حيث يمضي زوجها طليقاً من دون امرأته. وقد تبدت أسبابها الخفية بجلاء، أكبر في محادثة لاسلكية أخرى، عندما أجبرت أبي على أن يعدها بأنه سيرجع فوراً إلى البيت، إذا هو لم يتوصل إلى أي شيء خلال أسبوعين. ومع ذلك، تلقينا قبل انتهاء المهلة، من لوس ألتوس دل روساريو، برقية دراماتيكية من كلمة واحدة:

"متردد". رأت أمي في الرسالة، تأكيداً لأشد شكوكها وضوحاً، وأصدرت حكمها غير القابل للاستئناف:

– إما أن تأتي قبل يوم الاثنين، وإلا فإنني سآتي إليك هناك، الآن، بالذات ومعي الذرّيّة كلها.

وسيلة مباركة. فقد كان أبي يعرف قوة تهديداتها. وقبل انقضاء أسبوع كان قد عاد إلى بارانكيّا. لقد أذهلنا دخوله، مرتدياً ملابسه كيفما اتفق، ببشرة مائلة إلى الخضرة، وذقن غير حليقة. حتى إن أمي ظنت أنه مريض. ولكنه مجرد انطباع آني، لأنه ما لبث أن خرج لنا، بعد يومين بمشروع شبابه، في إقامة صيدلية متعددة الأغراض، في بلدة سوكري. وهي ركن حالم ومزدهر، على بُعد ليلة ونهار من الإبحار من بارانكيّا. لقد كان هناك في بداية عهده، كعامل تلغراف. وقلبه ينقبض، حين يتذكر الرحلة في قنوات غسقية ومستنقعات مذهبة، وحفلات الرقص الأبدية. لقد ألح في تلك الفترة، على نقل عمله إلى ذلك المكان. ولكن دون أن يحالفه الحظ، كما في مرات أخرى مشتهاة، مثل آراكاتاكا. عاد للتفكير فيها، بعد خمس سنوات من ذلك، عندما وقعت أزمة الموز الثالثة. ولكنه وجدها، وقد احتلها تجار الجملة القادمون من مغناغي. مع ذلك، وقبل شهر من العودة إلى بارانكيّا، التقى مصادفة، مع واحد منهم، لم يصور له واقعاً مخالفاً وحسب، وإنما عرض عليه كذلك قرضاً ائتمانياً جيداً للعمل في سوكري. لم يوافق على العرض، لأنه كان على وشك الحصول على الحلم الذهبي في لوس ألتوس دل روساريو. ولكن عندما فاجأه قرار زوجته الحاسم، عثر على تاجر الجملة في ماغناغي، الذي كان لا يزال تائهاً في قرى النهر. وأبرما الاتفاق.

بعد نحو أسبوعين من الدراسات والترتيبات، مع تجار جملة، أصدقاء، ذهب وقد استرد مظهره وموهبته. وكان تأثره بسوكري قوياً حتى إنه خلف انطباعه، مكتوباً في رسالته الأولى: "لقد وجدتُ الواقع أفضل من الحنين". استأجر بيتاً له شرفة في الساحة الرئيسية. ومن هناك استعاد علاقته بأصدقائه القدامى الذين استقبلوه بأبواب مفتوحة. طلب من الأسرة أن تبيع ما يمكن بيعه، وأن تحزم ما تبقى من متاع، ولم يكن كثيراً، وتحمله معها في إحدى السفن البخارية التي تقوم برحلات منتظمة عبر نهر مجدلينا. وأرسل في البريد نفسه، حوالة مالية محسوبة بدقة، من أجل النفقات المباشرة. وأعلن أنه سيرسل حوالة أخرى من أجل تكاليف السفر. لا يمكنني أن أتصور أخباراً أكثر شهيّة لطبع أمي الحالم، وهكذا لم يكن ردها، على الرسالة، نابعاً من التفكير في دعم حماس زوجها وحسب، وإنما تحليته بخبر أنها حبلى للمرة الثامنة.

قمت بإنجاز إجراءات الحجز في سفينة "القبطان دي كارو"، وهي سفينة أسطورية تقطع الطريق من بارانكيا إلى ماغانغي في ليلة ونصف نهار. ثم نواصل الرحلة، بعد ذلك، في مركب ذي محرك عبر نهر سان خورخي والقناة المائية الحالمة، من موخانا حتى وجهتنا.

– يكفي أن نذهب من هنا، حتى ولو إلى الجحيم – هتفت بذلك أمي التي كانت ترتاب دوماً بسمعة سوكري البابلية، وأضافت: – يجب عدم ترك الزوج، وحيداً في قرية مثل تلك.

فرضت علينا الإسراع. حتى إننا كنا ننام على الأرض، قبل ثلاثة أيام من السفر، لأننا بعنا الأسرّة وكل الأثاث الذي استطعنا بيعه. وكل ما عدا ذلك، كان معبأ في الصناديق. ونقود تذاكر السفر، مخبأة في

أحد مخابئ أمي، ومحسوبة جيداً، ومعاد حسابها ألف مرة.

الموظف الذي استقبلني في مكاتب الشركة مالكة السفينة، كان مهذباً، بحيث لم أجد نفسي مضطراً إلى الضغط على فكي، لكي أتفاهم معه. إنني واثق ثقة مطلقة من أنني دونت الأسعار بحذافيرها، مثلما أملاها عليّ بأسلوب الكاريبيين الخدومين، في الكلام الواضح والمتكلف. وكان أكثر ما أسعدني، وأقل ما نسيته، هو أن من هم دون الثانية عشرة، يدفعون نصف التسعيرة العادية فقط. وهذا ما ينطبق على جميع اخوتي، باستثنائي أنا. وعلى هذا الأساس، وضعت أمي نقود السفر جانباً، وأنفقت، حتى آخر سنتافو، مما تبقى في تفكيك موجودات البيت.

ذهبت يوم الجمعة لشراء تذاكر السفر، فاستقبلني الموظف بمفاجأة أن من هم دون الثانية عشرة، لا يتمتعون بحسم نصف السعر، وإنما بثلاثين بالمئة منه فقط. مما يعني فرقاً لا يمكن لنا تجاوزه. وتذرع بأنني قد دوَّنت ما أملاه عليّ بصورة سيئة، لأن المعلومات مطبوعة في لوحة إعلانات رسمية وضعها أمام عيني. رجعتُ إلى البيت مغموماً، فلم تعلق أمي بشيء، وإنما ارتدت الفستان الذي أمضت فيه فترة الحداد على أبيها. وذهبنا معاً إلى وكالة الملاحة النهرية. أرادت أن تكون منصفة: أحد ما قد أخطأ، ويمكن له أن يكون ابني. ولكن هذا ليس مهماً. فالواقع أننا لا نملك مزيداً من النقود. أوضح لها الموظف بأنه ليس هناك ما يمكن عمله، وقال:

"لاحظي يا سيدتي. المسألة ليست الرغبة أو عدم الرغبة في خدمتك. وإنما هي أنظمة شركة محترمة. ولا يمكن التلاعب بها مثل دوارة ريح."

"ولكنهم مجرد أطفال"، قالت أمي ذلك، وأشارت إليّ كمثال: "تصور، هذا هو أكبرهم، ويكاد لا يبلغ الثانية عشرة." ثم أشارت بيدها:

– إنهم بهذا الطول.

فتعلل الوكيل بأن المسألة ليست مسألة طول القامة، وإنما السن، ولا أحد يدفع أقل من التسعيرة، باستثناء حديثي الولادة الذين يسافرون مجاناً. فبحثت أمي عن سماوات أعلى:

– مع من يجب عليّ أن أتكلم، من أجل تسوية هذا الأمر؟

لم يتوصل الموظف إلى الرد. فقد أطلّ المدير، وهو رجل متقدم في السن، وله كرش أمومي، من باب مكتبه، خلال تلك المرافعة. فنهض الموظف واقفاً، حين رآه. كان هائلاً؛ له مظهر محترم، وسلطته أكثر من واضحة، حتى وهو بقميص قصير الكمين، ومبلل بالعرق. استمع إلى أمي باهتمام، وردّ عليها بصوت هادئ، بأن قراراً من ذلك النوع لا يمكن اتخاذه إلا بتعديل للأنظمة في جمعية عمومية للمساهمين. واختتم قائلاً:

– صدقيني، إنني متأسف جداً.

فقالت: "أنت على حق. ولكن المشكلة هي أن موظفك لم يشرح الأمر جيداً لابني. أو أن ابني قد فهمه بصورة سيئة، وأنا تصرفت بناء على هذا الخطأ. وكل أمتعتي موضبة الآن، وجاهزة للإبحار. إننا ننام على الأرض دون شيء. ونقود المشتريات تكفينا حتى هذا اليوم فقط. وعلينا أن نسلم البيت يوم الاثنين للمستأجرين الجدد." لاحظت أن موظفي القاعة جميعهم، يصغون إليها باهتمام كبير. وعندئذ توجهت

إليهم: "ما الذي يعنيه كل هذا لشركة بهذه الأهمية؟" ودون أن تنتظر جواباً، سألت المدير، وهي تنظر مباشرة إلى عينيه:

– هل أنت مؤمن بالرب؟

انبهر المدير. كان المكتب كله يترقب بصمت طال كثيراً. عندئذ تهاوت أمي على المقعد. ضمت ركبتيها اللتين بدأتا ترتجفان، وشدت المحفظة إلى حضنها بكلتا يديها، وقالت بالتصميم الذي تبديه في قضاياها العظمى:

– لن أتحرك من هنا، ما لم تحلوا لي المشكلة.

ظل المدير متجمداً. وتوقف جميع الموظفين عن عملهم، لينظروا إلى أمي. لم تُبدِ تأثراً، بأنفها المرهف، وشحوبها وحبات العرق اللؤلؤية. كانت قد خلعت ثوب الحداد على أبيها، منذ بعض الوقت، ولكنها عادت لارتدائه في تلك المناسبة، لأنه بدا لها الفستانَ الأكثرَ ملاءمة، في ذلك المسعى. لم يعد المدير إلى النظر إليها. وإنما نظر إلى موظفيه، دون أن يدري ماذا يفعل. وأخيراً هتف متوجهاً إلى الجميع:

– هذا أمر لا سابقة له!

لم تحرك أمي رمشاً. وقد روت لي فيما بعد: "كانت الدموع حبيسة في حلقي. إنما كان عليّ الصمود، لأنني في وضع سيئ جداً". عندئذ طلب المدير من الموظف، أن يأتيه بالوثائق إلى مكتبه. ففعل الموظف ذلك، وعاد للخروج بعد خمس دقائق، وهو يزمجر ويتأفف. إنما كانت معه بطاقات السفر جميعها، جاهزة ونظامية.

في الأسبوع التالي، نزلنا في بلدة سوكري، كما لو أننا قد ولدنا فيها. كان عدد سكانها حوالي ستة عشر ألف نسمة، مثل بلديات كثيرة

في البلاد، في ذلك الزمان، وجميعهم يعرف بعضهم بعضاً، ليس بالأسماء بقدر ما هو في حيواتهم السرية. ولم تكن القرية وحدها، وإنما المنطقة بأسرها، أشبه ببحر مياه راكدة تتبدل ألوانها بملاءات الزهور التي تغطيها حسب الموسم، وحسب المكان، وحسب حالتنا المعنوية. بهاؤها يذكر بملاذات جنوبي شرق آسيا الراكدة. فخلال السنوات الطويلة التي عاشتها الأسرة هناك، لم تأتِ سيارة واحدة. ولن تكون لمجيئها أية فائدة، لأن الشوارع المستقيمة ذات التراب الممهد تبدو، كما لو أنها قد أعدت للأقدام العارية. وكانت هناك بيوت كثيرة تملك في المطابخ مرساها الخاص؛ وفيه الزوارق البيتية، من أجل التنقلات المحلية.

أول ما أثّر فيّ، هو الحرية التي لا يمكن تصورها. فكل ما كان ينقصنا، نحن الأطفال، وكل ما كنا نتلهف إليه، صار فجأة في متناول أيدينا. كل واحد يأكل عندما يجوع، وينام في أي وقت يشاء. ولم يكن من السهل الاهتمام بأحد، إذ إن الكبار، على الرغم من صرامة قوانينهم، كانوا يمضون غارقين في أوقاتهم الشخصية التي تكاد لا تكفيهم للاهتمام بأنفسهم. كان شرط الأمان الوحيد للأطفال أن يتعلموا السباحة قبل أن يتعلموا المشي؛ لأن القرية مقسومة إلى شطرين، بقناة مياه قاتمة تُستخدم في الوقت نفسه، كمجرى مائي ومجرور صرف صحي. فكانوا يلقون بالأطفال، منذ السنة الأولى من عمرهم، من شرفات المطابخ، في أول الأمر، مع إطارات نجاة، لكي يتخلصوا من احترامهم للموت. وقد تألق، بعد سنوات من ذلك، أخي خيمي وأختي ليخيا، في بطولات السباحة للصغار، بعد أن تجاوزا، حينَئذ، المخاطر الأولية.

ما حوّل سوكري بالنسبة لي إلى بلدة لا تُنسى، هو حس الحرية الذي كنا نتحرك به، نحن الأطفال، في الشارع. خلال أسبوعين أو ثلاثة أسابيع، كنا نعرف من الذي يعيش في كل بيت، وكنا نتصرف فيها، كما لو أننا نعرف ساكنيها منذ الأزل. كانت العادات الاجتماعية – المبسطة في الاستخدام – هي عادات الحياة الحديثة، في مجتمع إقطاعي: الأثرياء – مربو الماشية وصانعو السكر – في الساحة الكبرى، والفقراء حيثما يستطيعون. وكانت المنطقة، بالنسبة للإدارة الكنسية، ميدان بعثات تبشيرية، وسلطة قضائية وقيادية، في مملكة بحيرات شاسعة. وفي منتصف ذلك العالم، كانت الكنيسة الأبرشية، في ساحة سوكري الكبرى، نسخة جيب من الكاتدرائية الكولونيالية، استنسخها من الذاكرة، كاهن إسباني مُدَوّل مع الهندسة. كان استخدام الكنيسة للسلطة مباشراً ومطلقاً. ففي كل ليلة، بعد صلاة المسبحة، يقرعون في برج الكنيسة، ناقوس التقويم الأخلاقي، للفيلم المعلن عن عرضه في دار السينما المجاورة، وفق القائمة التي يصدرها "المكتب الكاثوليكي للسينما". وكان هناك مبشر مناوب، يجلس على باب مكتبه، ليراقب من يدخلون إلى المسرح، من الرصيف المقابل، من أجل معاقبة المخالفين.

كان إحباطي الأكبر، هو السن التي وصلت بها إلى سوكري. كنت أحتاج إلى ثلاثة شهور أخرى لأجتاز خط الثالثة عشرة المنذر بالغموض. ولم يعودوا يتحملونني في البيت كطفل. ولكنهم لا يعترفون بي كراشد أيضاً. وانتهى بي الأمر في ليمبوس تلك السن إلى أن أكون الوحيد بين أخوتي الذي لم يتعلم السباحة. ولم يكونوا يعرفون إذا ما كان علي الجلوس إلى مائدة الصغار أم إلى مائدة الكبار. ولم تعد نساء الخدمة

يغيّرن ملابسهن أمامي، حتى ولو كان الضوء مطفأً. ولكن إحداهن نامت عدة مرات عارية في فراشي، دون أن تُقلق نومي. ولم يُتح لي الوقت للارتواء من حرية الاختيار المخالفة للأعراف تلك، عندما اضطررت إلى الرجوع إلى بارانكيّا، في شهر كانون الثاني من العام التالي، لأبدأ مرحلة الدراسة الثانوية. لأنه لم تكن هناك في سوكري، مدرسة مؤهلة بما يكفي، للدرجات الممتازة التي منحني إياها المعلم كاسالينس.

بعد مناقشات واستشارات مطولة، بمشاركة ضئيلة من جانبي، قرر والداي إرسالي إلى مدرسة سان خوسيه اليسوعية في بارانكيّا. ولا أجد تفسيراً للطريقة التي حصلا بها على كل تلك الموارد خلال أشهر قليلة، ولا سيما وأن الصيدلية وعيادة الطب التجانسي، كانتا لا تزالان موضع اختبار. وقد قدمت أمي على الدوام تفسيراً لا يحتاج إلى براهين: "الله كبير". لا بد أن استقرار الأسرة وإعالتها قد أخذا في الحسبان، ضمن نفقات الانتقال، ولكن لبس مستلزماتي المدرسية. ولأنني لم أكن أملك سوى حذاء ممزق وغيار ملابس واحد ألبسه، بينما يغسلون لي الآخر، فقد جهزتني أمي بملابس جديدة، مع صندوق بحجم نعش، دون أن تقدر مسبقاً أنني سأكون، خلال ستة شهور، قد كبرتُ شبراً. وكانت هي أيضاً من قررت بنفسها، أن أبدأ بارتداء البنطلونات الطويلة، خلافاً للأحكام الاجتماعية التي يراعيها والدي، بأنه لا يمكن لبسها، ما لم يبدأ الصوت بالتبدل.

الحقيقة أنه في أثناء كل مناقشة حول تعليم كل واحد من الأبناء، كانت تراودني الأحلام على الدوام، بأن يعمد أبي، في إحدى نوبات غضبه الهوميروسية، إلى إصدار أمره بألا يعود أي واحد منا إلى

المدرسة. لم يكن ذلك مستحيلاً. فهو نفسه تعلّم ذاتياً، بسبب فقره الشديد، ولأن أباه كان يستلهم أخلاقيات دون فرناندو السابع، الداعية إلى التعليم الفردي في البيت، للحفاظ على تماسك الأسرة. لقد كنتُ أخشى المدرسة كأنها السجن. وترعبني فكرة العيش، خاضعاً لنظام جرس يُقرع. ولكنها كانت، في الوقت نفسه، الإمكانية الوحيدة المتاحة لي، للاستمتاع بحياتي الحرة منذ سن الثالثة عشرة. إذ يمكنني الاحتفاظ بعلاقات جيدة مع الأسرة، ولكن بعيداً عن نظامها، وعن حماسها الديموغرافي، وأيامها التعسة. وحيث أستطيع أن أقرأ، دون التقاط للأنفاس، ما دام الضوء يسعفني.

حجتي الوحيدة، ضد مدرسة سان خوسيه، إحدى أكثر المدارس تطلباً وكلفة، في منطقة الكاريبي، هو انضباطها العسكري. ولكن أمي واجهتني بوقار: "هناك يُصنع الحكام". وعندما لم يعد ثمة مجال للتراجع، نفض أبي يديه:

– فليكن واضحاً، أنني لم أقل نعم ولم أقل لا.

كان يفضل ذهابي إلى المدرسة الأمريكية، لكي أتعلم الإنكليزية. ولكن أمي استبعدت هذا الاحتمال، متذرعة بأنها وكر لوثريين. وعليّ اليوم أن أعترف على شرف أبي، بأن أحد أخطاء حياتي ككاتب، هو عدم تكلم الإنكليزية.

العودة لرؤية بارانكيّا التي غادرناها قبل ثلاثة شهور، من فوق جسر السفينة "القبطان دي كارو"، هيجت قلبي، كما لو أنني قد حدست مسبقاً، أنني سأعود وحيداً، إلى الحياة الواقعية. ولحسن الحظ أن أبويّ كانا قد رتبا أمر إقامتي وطعامي، عند ابن عمي خوسيه ماريا

بالديلانكيث وزوجته هورتينسيا، وهما شابان لطيفان. أشركاني في حياتهما الوادعة، في صالة بسيطة وغرفة نوم وفناء صغير مرصوف، تكتنفه الظلال على الدوام، بفعل الملابس المنشورة لتجف على الأسلاك. كانا ينامان في حجرة النوم مع طفلتهما ذات الستة شهور. بينما أنام أنا على أريكة الصالة التي تتحول في الليل، إلى سرير.

كانت مدرسة سان خوسيه تبعد ست كوادرات تقريباً. وتقوم وسط حديقة من أشجار اللوز، كانت فيما مضى أقدم مقبرة في المدينة. وما زال يُعثر فيها على بقايا عظام متفرقة، ونتف ثياب ميتة على سطح الأرض المرصوفة. يوم دخلت فناء المدرسة الرئيسي أول مرة، كان هناك احتفال لتلاميذ السنة الأولى، ببناطيل بيضاء وسترات من الجوخ الأزرق. فلم أستطع كبح رعبي من أنهم يعرفون كل ما أجهله. ولكنني سرعان ما لاحظت أنهم نيئون ومرعوبون مثلي، حيال خفايا المستقبل غير المؤكدة.

ظهر لي شبحٌ شخصي خاص تمثل في الأخ بيدرو ريبس، موجه قسم التعليم الأساسي، الذي انهمك في إقناع رؤسائه في المدرسة، بأنني غير مؤهل للمرحلة الثانوية. لقد تحول إلى كابوس يعترض طريقي، في أماكن لا تخطر على البال، ويُجري لي اختبارات مفاجئة تتضمن كمائن شيطانية: "هل تظن أن الرب قادر على صنع حجر ثقيل إلى حد يعجز عن حمله؟"، كان يسألني دون أن يمنحني الوقت للتفكير. أو هذا الفخ اللعين الآخر: "إذا ما وضعنا لخط الاستواء حزاماً من الذهب، سماكته خمسون سنتيمتراً، فكم سيزداد وزن الكرة الأرضية؟" لم أكن أفلح في الإجابة على أي سؤال، مع أنني كنت أعرف الأجوبة. لأن لساني كان

ينعقد من الرعب، مثلما حدث لي في يومي الأول مع الهاتف. لقد كان خوفاً يستند إلى أسباب، فالأخ ريبس على حق. أنا لم أكن مهيأً فعلاً للثانوية. غير أني لا أستطيع التخلي عن حسن الطالع الذي حالفني بقبولهم إياي، دون اختبار. كنتُ أرتجف لمجرد رؤيته. وراح بعض الزملاء يقدم تفسيرات خبيثة لتلك المحاضرة، غير أنه لم يكن لدي مبرر للتفكير فيها. أضف إلى ذلك، أن ضميري كان يساعدني، لأنني نجحت في اختباري الشفوي الأول دون عقبات، عندما ألقيت، مثل ماء متدفق، أشعاراً لفراي لويس دي ليون، ورسمت بالطباشير الملونة على السبورة مسيحاً، بدا وكأنه حي. وقد بلغ رضى لجنة الاختبار حداً، نسيت معه اختباري بالحساب والتاريخ الوطني.

وقد سوّيت المشكلة مع الأخ ريبس، لأنه احتاج في أسبوع الآلام المقدس، إلى بعض الرسوم لدروس علم النبات، فأنجزتها له دون أن يرف لي جفن. فلم يتخلَّ عن محاصرته لي وحسب، وإنما صار يتسلى أحياناً، خلال الاستراحات، بتعليمي الإجابات المدعمة بأفضل الحجج عن الأسئلة التي لم أكن أستطيع الرد عليها، أو عن أسئلة أكثر غرابة، راحت تظهر فيما بعد، كما لو أنها مصادفة، في الاختبارات التالية من سنتي الأولى. ومع ذلك، كلما وجدني ضمن جماعة، يسخر وهو يكاد يموت من الضحك، من أنني الوحيد في الصف الثالث الأساسي الذي يتقدم جيداً في الثانوية. وأنا أرى اليوم أنه كان على صواب. وبخاصة في الإملاء الذي كان عذابي على امتداد دراستي، وما زال يخيف مصححي أصول أعمالي. وأكثرهم أريحية يعزون أنفسهم بالاعتقاد بأنها أخطاء مطبعية.

جاءت الطمأنينة لمخاوفي، بتعيين الرسام والكاتب هيكتور روخاس

هيراثو، أستاذاً للرسم. لا بد أنه كان في حوالي العشرين من عمره. دخل إلى القاعة برفقة الأب الموجِّه، ودوّت تحيته كصفقة باب في قيظ الثالثة بعد الظهر. بدا بوسامة وأناقة فنان سينمائي. كان يرتدي سترة من وبر الجمل، ضيقة جداً، وبأزرار مذهبة، وصدرية مبهرجة، وربطة عنق حريرية مطبّعة. ولكن أغرب ما فيه كانت قبعة اللبد التي يعتمرها، بالرغم من الحرارة التي تبلغ ثلاثين درجة في الظل. كان طول قامته يصل حتى ساكف الباب، مما يضطره إلى الانحناء، لكي يرسم على السبورة. وإلى جانبه، كان الأب الموجه يبدو مهجوراً تحت رحمة الرب.

تبين منذ دخوله أنه لا يمتلك منهجاً ولا يطيق صبراً على التعليم. ولكن حس دعابته الخبيث كان يبقينا متنبهين، مثلما كانت تذهلنا رسومه البارعة التي يرسمها على السبورة بالطباشير الملونة. لم يستمر في عمله سوى ثلاثة شهور، ولم نعرف السبب قط. إنما يمكن الاستنتاج أن تربيته الدنيوية لم تكن تتوافق مع النظام الذهني لفرقة يسوع.

لقد اكتسبت الشهرة، منذ بدايتي في المدرسة، بأنني شاعر، أولاً بسبب السهولة التي أحفظ بها عن ظهر قلب، قصائد الكلاسيكيين والرومانسيين الإسبان، في كتب النصوص، وألقيها بصوت جهوري. ثم بعد ذلك بسبب الأهاجي المقفاة التي كنت أكرسها لزملائي في الصف، ونُشرت في مجلة المدرسة. وما كنت لأكتبها، أو أنني كنتُ سأوليها قليلاً من الاهتمام، لو أنني تصورت أنها ستنال مجد الكلمة المطبوعة. الواقع أنها كانت أهاجي لطيفة تتداولها الأيدي على وريقات خفية في قاعات الدرس المنوِّمة، في الساعة الثانية بعد الظهر. وقد ألقى الأب لويس بوسادا - موجه الصف الثاني - القبض على واحدة منها، فقرأها

وهو متجهم الجبين، ووجه إليّ توبيخاً قاسياً. ولكنه احتفظ بها في جيبه. عندئذ استدعاني الأب أرتورو ميخيا إلى مكتبه، ليقترح علي نشر الأهاجي المصادرة في مجلة "الشبيبة"، لسان حال تلاميذ المدرسة. وكان ردّ فعلي الفوري فتيلة مجدولة من المفاجأة والخجل والسعادة، حللتها برفض غير مقنع:

- إنها مجرد حماقات مني.

سجل الأب ميخيا ملاحظة من جوابي، ونشر الأشعار بهذا العنوان - "حماقات مني" - وبتوقيع غابيتو، في العدد التالي من المجلة، وبتفويض من ضحايا الأهاجي. وكان عليّ أن أنشر في عددين متتالين، مجموعة أخرى، بناء على رغبة زملائي في الفصل. وهكذا، فإن تلك الأشعار الطفولية - شئتُ ذلك أم لم أشأ - هي عملي الأدبي الأول.

كان إدمان قراءة كل ما يقع في يديّ، يشغل وقت فراغي ووقت الدروس كله تقريباً. وكنتُ قادراً على إلقاء قصائد كاملة من القائمة الشعبية التي كانت شائعة آنذاك، في كولومبيا، وأجمل أشعار العصر الذهبي والرومانسية الإسبانية. وقد حفظتُ معظمها من نصوص منهاج المدرسة نفسه. وكانت تلك المعارف غير المتوقعة في مثل سني، تستثير غيظ المعلمين. فكلما وجهوا لي في أحد الدروس سؤالاً صاعقاً، أرد عليهم بشاهد أدبي أو بفكرة مستمدة من الكتب، لم يكونوا في وضع يؤهلهم لتقييمها. وقد قال ذلك الأب ميخيا: "إنه طفل مغرور يكرر أقوالاً" كيلا يقول: لا يطاق. لم أكن مضطراً قط، إلى إجهاد ذاكرتي؛ ذلك أن القصائد وبعض مقاطع النثر الكلاسيكي الجيد، تبقى منطبعة

في ذاكرتي، بعد ثلاث أو أربع قراءات. أول قلم حبر حصلت عليه، تلقته من الأب الموجّه، لأنني تلوت عليه، دون عثرات، عشاريات "الدوار السبع والخمسين لغاسبار نونيث دي أرثيه.

كنت أقرأ في أثناء الدروس، واضعاً الكتاب مفتوحاً على ركبتي، وبوقاحة يبدو لي أنني ما كنت لأنجو من عقوبتها، إلا بتواطؤ المعلمين. الأمر الوحيد الذي لم أتمكن من تحقيقه بحيلي محكمة القوافي، هو إعفائي من القداس اليومي، في السابعة صباحاً. وإضافة إلى كتابة حماقاتي، كنت أؤدي الغناء المنفرد في الكورال، وأرسم الكاريكاتير الساخر، وألقي القصائد في المناسبات الرسمية، وأشياء كثيرة أخرى خارج الزمان والمكان، بحيث لم يكن هناك من يفهم في أي وقت أدرس دروسي. وقد كان السبب بسيطاً: لم أكن أدرس دروسي.

وسط كل تلك الديناميكية المفرطة، ما زلت لا أفهم حتى الآن، لماذا كان الأساتذة يهتمون بي إلى ذلك الحد، دون أن يرفعوا أصوات الاستنكار ضد أخطائي الإملائية. على خلاف أمي التي كانت تخفي بعض رسائلي عن أبي لإبقائه حياً، وتعيد لي غيرها مصححة، وترفقها أحياناً بتهنئة على بعض التقدم في النحو والاستخدام الجيد للكلمات. ولكن بعد مرور سنتين، لم يكن هناك تحسن يرجى في الأفق. ومازالت اليوم مشكلتي هي نفسها: لا يمكنني أن أفهم أبداً لماذا هناك حروف لا تُنطق، أو لماذا يوجد حرفان مختلفان لهما المنطوق نفسه[1]، أو غيرها من القواعد غير المجدية.

(١) قدم غارسيا ماركيز ملاحظاته هذه حول الالتباس الذي يسببه تشابه منطوق بعض حروف اللغة الإسبانية في مؤتمر لغوي عقد قبل سنوات قليلة في المكسيك. وقد أثارت آنذاك ردود فعل عاصفة ضده.

وكان أن اكتشفتُ ميلاً سيرافقني مدى الحياة: متعة تبادل الحديث مع تلاميذ أكبر مني سناً. وحتى اليوم، في اجتماعات شباب يمكن لهم أن يكونوا أحفاداً لي، أجد نفسي مضطراً إلى بذل الجهد كيلا أشعر بأنني أصغر منهم. وهكذا أقمت صداقة مع اثنين من تلاميذي الذين يكبرونني سناً، وصارا فيما بعد، زميليَّ في مراحل تاريخية من حياتي. أحدهما هو خوان ب. فيرنانديث، ابن أحد مؤسسي ومالكي جريدة "الهيرالدو" الثلاثة في بارانكيا، حيث قمت بأول محاولاتي الصحفية، وحيث تكوّن هو منذ حروفه الأولى، حتى صار المدير العام. والآخر هو إنريكي سكوبيل، ابن مصور كوبي أسطوري في المدينة. وهو نفسه كاتب تحقيقات صحفية. ولكن امتناني تجاهه، لا يرجع كله إلى عملنا المشترك في الصحافة، وإنما لمهنته، كذلك، كدباغ جلود حيوانات متوحشة تُصدَّر إلى نصف العالم. وقد أهدى إليَّ، في واحدة من رحلاتي الأولى، إلى الخارج، جلد تمساح طوله ثلاثة أمتار.

– هذا الجلد يساوي ثروة لا بأس بها – قال لي دون دراماتيكية –، ولكنني أنصحك بألا تبيعه ما دمت لا تشعر بأنك ستموت جوعاً.

ومازلتُ أتساءل حتى الآن، إلى أي حد كان كيكي سكوبيل الحكيم يعرف أنه إنما يقدم لي تميمة أبدية. فقد كان علي في الواقع، أن أبيعه مرات كثيرة، في سنوات نحسي المتتالية. ومع ذلك، مازلت أحتفظ به، معفراً وشبه متيبس، لأنني منذ أن حملته في حقيبتي، عبر العالم بأسره، لم ينقصني سنتافو للأكل.

كان الأساتذة الجزويت، الصارمون في الدروس، مختلفين عن ذلك في الاستراحات، حيث كانوا يعلموننا ما لا يقولونه داخل قاعة الدرس،

ويفرّجون عن أنفسهم بقول ما كانوا يرغبون في تعليمه حقاً. وأظن أني أتذكر، إلى الحد الذي تسمح به سني آنذاك، أن ذلك الاختلاف كان ملحوظاً إلى حد كبير، وكان يساعدنا كثيراً. فالأب لويس بوسادا، وهو كاتشاكو شاب ذو عقلية تقدمية، عمل لسنوات طويلة في القطاعات النقابية. كان لديه أرشيف بطاقات يضم كل أنواع المعلومات الموسوعية، ولا سيما حول الكتب والكتّاب. وكان الأب إغناثيو سالديبار باسكيا جبلياً، واصلتُ زيارته في كارتاخينا، حتى شيخوخته الطيبة في دير سان بيدرو كالفير. وكان الأب إدواردو تونيث، قد أنجز قدراً لا بأس به من مؤلف ضخم عن تاريخ الأدب الكولومبي. ولم أعد أعرف شيئاً عن المصير الذي آل إليه. أما الأب العجوز مانويل هيدالغو، معلم الغناء، المتقدم في السن، منذ ذلك الحين، فكان يفرض الميول على مزاجه، ويسمح لنفسه بإدخال بعض الموسيقى الوثنية غير المقررة.

وكانت لي مع الأب بيسشاكون، مدير المدرسة، بعض المحادثات العرضية. وقد احتفظت منها باليقين بأنه ينظر إليّ كشخص راشد، ليس بسبب الموضوعات التي كان يطرحها وحسب، وإنما لتوضيحاته الجريئة. لقد كان له دور حاسم في حياتي، بتحديد مفهوم الفردوس والجحيم، لأنني لم أكن أتوصل إلى المصالحة مع معلومات كتاب الديانة المسيحية، بسبب عوائق جغرافية بسيطة. وخلافاً لتلك المعتقدات الجامدة، أراحني المدير بأفكاره الجريئة. فالفردوس، بغض النظر عن التعقيدات اللاهوتية، هو حضور الرب. أما الجحيم فهو العكس، طبعاً. ولكنه في مناسبتين اثنتين اعترف لي بمشكلته بأن "هناك في الجحيم نار على كل حال"، ولكنه لم يتوصل إلى توضيح ذلك. وبفضل هذه الدروس في

الاستراحات، أكثر مما هو بفضل الدروس الرسمية، أنهيتُ السنة، بصدر مدرع بالميداليات.

بدأت إجازتي الأولى إلى سوكري، في الساعة الرابعة من أحد أيام الآحاد، في مرفأ مزين بأكاليل زهور وبالونات ملونة، وساحة متحولة إلى سوق عيد فصح. ما إن وطأت اليابسة، حتى تعلقت بعنقي، بتلقائية ساحقة، فتاة شقراء جميلة جداً، وخنقتني بالقبلات. كانت تلك هي أختي كارمن روسا، ابنة أبي قبل زواجه. وكانت قد جاءت لقضاء بعض الوقت مع عائلتها المجهولة. كما حضر في تلك المناسبة ابن آخر لأبي، هو أبيلاردو، مهنته الخياطة، وقد أقام مشغله في أحد جوانب الساحة الكبرى. وكان معلمي في الحياة، في فترة البلوغ.

كانت تسود البيت الجديد المؤثث حديثاً، أجواء عيد، وأخ جديد: خايمي، الذي ولد في أيار تحت برج الجوزاء الطيب، وكان خديجاً أيضاً. لم أعلم بمولده حتى وصولي، لأن أبوي كانا مصممين كما يبدو على تخفيف الولادات السنوية. فسارعت أمي إلى التوضيح لي بأن ذلك المولود هو ضريبة للقديسة ريتا، واعترافاً بفضلها في الرخاء الذي دخل البيت. بدت مستعيدة شبابها وسعيدة، وأكثر طرباً من أي وقت مضى. وكان أبي يطفو في أجواء طيب المزاج. فالعيادة مزدحمة والصيدلية جيدة التجهيز، ولا سيما في أيام الآحاد التي يأتيه فيها المرضى من الجبال المجاورة. لست أدري إذا ما كان قد عرف يوماً أن ذلك التدفق هو نتيجة شهرته كمداوٍ جيد، وإن كان الريفيون لا يعزون تلك الشهرة إلى فضائل الطب التجانسي وكرات السكر التي يقدمها إليهم وماته العجيب، وإنما إلى جودة فنونه كساحر.

كانت سوكري أفضل مما هي عليه في الذاكرة، بسبب التقليد الشائع في أعياد الميلاد، بانقسام الأهالي إلى حيين كبيرين: سوليا في الجنوب، وكونغوبيو في الشمال. وكانت تقام، فضلاً عن منافسات أخرى، مسابقة عربات رمزية مزينة، تمثل في مباريات فنية، المنافسة التاريخية بين الحيين. وأخيراً، في ليلة الميلاد، يلتقي الجميع في الساحة الرئيسية. ووسط مجادلات كبيرة، يقرر الجمهور، أي الحيين هو الفائز في تلك السنة.

أسهمت كارمن روسا، منذ وصولها، في إضفاء بريق جديد على عيد الفصح. كانت متحضرة ومتأنقة. وصارت سيدة حفلات الرقص، يلحق بها رتل من المتوددين الصاخبين. وأمي التي كانت شديدة الغيرة على بناتها، لم تكن كذلك معها. بل على العكس، كانت تسهل لها علاقاتها بالمتوددين الذين أدخلوا إيقاعاً فريداً على جو البيت. لقد قامت بينهما علاقة تواطؤ، لم تقم أمي مثلها قط مع بناتها. أما أبيلاردو من جانبه، فقد حلّ شؤون حياته بطريقة أخرى، في مشغل خياطة مؤلف من محل واحد يقسمه حاجز. وكان عمله كخياط، يمضي على ما يرام. ولكن ليس أفضل من اعتداله كفحل. فقد كان يقضي، مع رفيقة جيدة في السرير، وراء الحاجز، وقتاً أطول من الذي يمضيه، وحيداً وضجراً وراء آلة الخياطة.

خطرت لوالدي في تلك الإجازة، أن يبدأ بتهيئتي للأعمال التجارية. "قد تحتاج إليها"، هكذا نبهني. وكان أول ما بدأ بتعليمي إياه، هو تحصيل ديون الصيدلية من بيوت المدينة. وفي أحد تلك الأيام أرسلني لجباية ديون عديدة من "لاأورا"، وهو ماخور بلا مزاعم أبهة يقوم عند خارج القرية.

أطللتُ من باب مفتوح قليلاً لغرفة تطل على الشارع، ورأيت إحدى نساء البيت نائمة القيلولة، في فراش هوائي، وبملابس لا تغطي فخذيها. وقبل أن أتكلم إليها، جلست في السرير، ونظرت إلي نظرة ناعسة، وسألتني ماذا أريد. قلت لها إنني آت برسالة من أبي إلى دون إليخيو مولينا، مالك المحل. ولكنها بدلاً من أن تدلني على مكانه، أمرتني بأن أدخل وأغلق مزلاج الباب، وأشارت لي بسبابتها إشارة قالت لي بها كل شيء:

- تعال.

ذهبت إليها، وكلما اقتربت كانت أنفاسها المندفعة تملأ الحجرة مثل فيضان نهر، إلى أن استطاعت إمساكي من ذراعي بيدها اليمنى، وانسلت يدها اليسرى إلى فتحة بنطالي. فأحسستُ برعب لذيذ.

- أنت إذن ابن دكتور الأقراص المكورة - قالت لي بينما هي تداعبني من داخل البنطال بخمسة أصابع رشيقة، أحسستُ كما لو أنها عشرة. خلعت عني بنطالي دون أن تتوقف عن الهمس في أذني بكلمات دافئة، ثم خلعت قميص نومها من رأسها واستلقت على ظهرها فوق السرير، وليس عليها سوى سروالها الداخلي المزين بأزهار ملونة. وقالت:- هذا ستخلعه أنت عني، إنه واجبك كرجل. أرخيتُ تكته، ولكنني لم أستطع في تعجلي خلعه عنها، فاضطرت إلى مساعدتي بساقيها الممدودتين جيداً وبحركة سبّاح سريعة. ثم رفعتني في الهواء من تحت إبطي، ووضعتني فوقها على طريقة المبشر الأكاديمية. وما تبقى قامت به بنفسها، إلى أن متُّ فوقها وحسب، ملعبطاً في حساء بصل فخذيها المهرّيين.

استراحت بصمت، مائلة قليلاً على جانبها، وهي تنظر بتمعن إلى عيني، فبادلتها النظرة بوهم أن نبدأ ثانية من جديد، ودون خوف الآن ولوقت أطول. وفجأة قالت لي إنها لن تتقاضى مني البيزوين اللذين تأخذهما مقابل ما تقدمه من خدمة، لأني لم أكن مستعداً. ثم استلقت على ظهرها وأمعنت النظر في وجهي وقالت:

– ولأنك كذلك الأخ العاقل للويس إنريكي، أليس كذلك؟ فأنت لك الصوت نفسه.

وقد واتتني البراءة لأسألها كيف تعرفه. فضحكت:

– لاتكن أبله. فلدي هنا أحد سراويله الداخلية الذي اضطررت أن أغسله له في المرة الأخيرة.

بدا لي قولها مبالغة غير معقولة، بسبب سن أخي. ولكنها حين أرتني إياه، أدركت أن ما تقوله صحيح. ثم قفزت عارية من السرير برشاقة راقصة باليه. وبينما هي ترتدي ثيابها، أوضحت لي أنني سأجد إليخيو مولينا في الباب التالي من البيت، إلى اليسار. وأخيراً سألتني:

– هذه هي ممارستك الأولى، أليس كذلك؟

طفر قلبي من مكانه، وكذبت عليها:

– لا أبداً، لقد فعلتها سبع مرات من قبل، على الأقل.

فقالت لي بإيماءة ساخرة:

– عليك أن تطلب من أخيك، على أي حال، أن يعلمك قليلاً.

منحني ذلك التدشين دفعة حيوية. كانت الإجازة من كانون الثاني حتى شباط. وقد تساءلت كم من المرات عليّ أن أتدبر بيزوين اثنين لكي

أعود إليها. أما أخي لويس إنريكي، الخبير المجرب في أمور الجسد، فكان ينفجر ضاحكاً، لأن هناك من هو في سننا، ويضطر إلى الدفع، مقابل شيء يقوم به اثنان معاً، ويستمتعان معاً.

ضمن روح تقاليد موخانا الإقطاعية، كان سادة الأرض يتمتعون بحق تدشين عذراوات إقطاعياتهم. وبعد بضع ليال من سوء الاستعمال، يتخلون عنهن لمصيرهن. وهكذا كانت تتوفر لنا إمكانية الاختيار بين من يخرجن لاصطيادنا في الساحة، بعد الخروج من حفلات الرقص. ومع ذلك، فقد كن في تلك الإجازة يسببن لي الخوف نفسه الذي أشعر به من الهاتف. وأرى مرورهن مثل مرور السحب في الماء. لم أجد لحظة سكينة من الغم الذي خلفته في جسدي، مغامرتي الأولى العارضة. ومازلت أعتقد حتى اليوم، بأنه ليس من المبالغة الظن أنها كانت السبب في سوء الحالة المعنوية التي رجعت بها إلى المدرسة. تغلّل عيني تماماً غشاوةُ تلك الحماقة العبقرية التي نظمها الشاعر البوغوتي دون خوسيه مانويل ماروكين، وكانت تصيب المستمعين بمس من الجنون منذ المقطع الأول:

الآن، بينما النباح يُكلّب، والصباح يُديّك،
الآن بينما تُنوقس الدويات عالياً،
وبينما النهيق يُحمّر، والزقزقة تُعصفر،
والتردد يصفّر، والقباع يخنزر،
والوردي فجراً امتدادات مذهبة يُحقّل،
الآن، متلألئة ندى قطرات مثل انسكابي تدمع
وأنا أتبرد من الارتجاف مع أن الجمر روحاً،
أجيء، لأتنهد اطلاقاتي نافذتك تحت.

لم أكن أدخل الفوضى فقط، حيثما حللت، وأنا أرتل مقاطع القصيدة غير المتناهية. وإنما تعلمت كذلك، التكلم بطلاقة أحد السكان المحليين، دون أن أدري أين. وكثيراً ما كان يحدث لي أن أجيب عن أي سؤال، ولكن الجواب يكون في الغالب غريباً ومسلياً. حتى أن المعلمين كانوا يتجنبونني. ولابدَّ أن القلق قد راود أحدهم بشأن سلامتي الذهنية، عندما قدمتُ إليه في أحد الاختبارات رداً صائباً، إنما لا يمكن حل رموزه للوهلة الأولى. ولست أتذكر أنه كان ثمة سوء نية في تلك المداعبات السهلة التي تسلي الجميع، وتقنعهم.

لفت انتباهي أن القساوسة صاروا يتكلمون إليَّ، كما لو أنهم فقدوا رشدهم. فكنت أجاريهم بالطريقة نفسها. وسبب آخر للذعر هو أنني ابتكرتُ تحويرات ساخرة لتراتيل الكورال الكنسي، باستخدام كلمات وثنية لم يفهمها أحد لحسن الحظ. أخذني المعلم الوصي علي، بالاتفاق مع أبوي، إلى طبيب مختص أجرى لي فحصاً منهكاً، ولكنه مسلٍّ جداً، لأنه فضلاً عن سرعته الذهنية، كان يتمتع بلطف شخصي ومنهج جارف لا يُقاوَم. طلب مني أن أقرأ دفاتر تتضمن جملاً مقلوبة يتوجب عليَّ فهمها. فعلت ذلك بحماس شديد، لم يستطع الطبيب معه مقاومة إغراء التدخل، ومشاركتي اللعبة، وقد خطرت لنا اختبارات مستنبطة بالغة الحذق، فدوَّن ملاحظات عنها ليضمها إلى منهج فحوصاته القادمة. ولدى الانتهاء من التحقيق الدقيق حول عاداتي، سألني كم مرة أستمني. فأجبته بأول إجابة خطرت لبالي: لم أتجرأ على عمل ذلك قط. لم يصدقني. ولكنه عقَّب، كما لو أنه يفعل ذلك سهواً، بأن الخوف عامل سلبي للصحة الجنسية. وبدا لي عدم تصديقه أقرب إلى التحريض. رأيت

فيه رجلاً رائعاً. وقد رغبت في اللقاء به بعد أن كبرت وصرت صحفياً في جريدة الهيرالدو، لكي يخبرني بالنتائج الخاصة التي استخلصها من فحصه لي. والشيء الوحيد الذي عرفته هو أنه قد انتقل إلى الولايات المتحدة، منذ عدة سنوات. وكان أحد زملائه القدامى أكثر وضوحاً حين قال لي بتأثر شديد، إنه لا يستغرب أبداً أن يكون في إحدى المصحات العقلية في شيكاغو، لأنه كان يراه على الدوام، أسوأ حالاً من مرضاه.

شخص الحالة على أنها إنهاك عصبي، زادته حرجاً، القراءة بعد الغداء. أوصاني بالراحة المطلقة لمدة ساعتين من أجل عملية الهضم، والقيام بنشاط بدني أكثر عنفاً من دروس الرياضة المفروضة. وما زالت تفاجئني الصرامة التي طبق بها أبواي وأساتذتي أوامره. نظموا قراءاتي. وفي أكثر من مناسبة انتزعوا الكتاب مني عندما وجدوني أقرأ في قاعة الدرس، واضعاً الكتاب تحت المقعد. أعفوني من المواد الصعبة، وأجبروني على ممارسة مزيد من الرياضة البدنية، لعدة ساعات يومياً. وهكذا، بينما يكون الآخرون في الدرس، كنتُ ألعب وحيداً، في باحة كرة السلة، مسجلاً نقاطاً حمقاء، ومرتلاً أشعاراً من الذاكرة. انقسم زملائي في الصف، منذ اللحظة الأولى: فكان هناك من فكروا في أنني مجنون، في الواقع، منذ الأزل. ومن ظنوا بأنني أتصنع الجنون لأستمتع بحياتي. ومن واصلوا التعامل معي على أساس أن المجانين هم المعلمون. وإلى تلك الفترة، تعود الرواية القائلة إنني طُردت من المدرسة، لأنني قذفت معلم الحساب بدواة حبر، بينما هو يكتب تمارين معادلة من الدرجة الثالثة على السبورة. لحسن الحظ أن أبي تفهم الأمر بصورة بسيطة، وقرر إعادتي إلى البيت، دون أن أنهي العام الدراسي، وعدم هدر مزيد

من الوقت والمال، على عارض صحي، يمكن له ألا يكون أكثر من علة كبدية.

أما بالنسبة إلى أخي أبيلاردو بالمقابل، فلم تكن هناك مشكلة في الحياة، لا يمكن حلها في الفراش. وبينما كانت أخواتي يوفرن لي علاجاً من الشفقة والحنان، علمني هو الوصفة السحرية، منذ رآني أدخل مشغله:

– ما أنت بحاجة إليه هو ساق جيدة.

وقد أخذ الأمر على محمل الجد، حتى إنه كان يذهب مدة نصف ساعة، إلى صالة البيلياردو على الناصية، ويتركني وراء الحاجز في مشغل الخياطة، مع صديقات له من كل الأجناس. وفي كل مرة مع واحدة مختلفة. كانت تلك مرحلة تعسف وتجاوزات خلاقة، بدت كأنها تؤكد التشخيص السريري لأبيلاردو، لأنني رجعت في السنة التالية إلى المدرسة، بعقل سليم.

لن أنسى أبداً، السعادة التي استقبلوني بها في مدرسة سان خوسيه، والتقدير الذي أبدوه احتفاء بمفعول أقراص دواء أبي المكورة. لم أذهب في هذه المرة للعيش مع الزوجين بالديبلاتكيث، لأن بيتهما لم يعد يتسع لي بعد ميلاد ابنهما الثاني. وإنما عشت في بيت دون إليسير غارسيا، أحد أشقاء جدتي لأبي، المشهور بطيبته ونزاهته. لقد عمل في مصرف حتى بلغ سن التقاعد. وكان أكثر ما أثر بي هو شغفه الأبدي باللغة الإنكليزية. لقد درسها طوال حياته، منذ الفجر، وفي الليل حتى ساعة متأخرة، كتمارين مغناة بصوت جميل ولكنة جيدة، إلى حيث سمح له العمر بذلك. وكان يذهب في أيام الأعياد والعطلات إلى المرفأ

لاصطياد سائحين والتكلم إليهم. وقد توصل إلى إتقان الإنكليزية بالقدر نفسه الذي كان يتقن به القشتالية على الدوام. ولكن خجله كان يمنعه من التكلم مع أحد من معارفه. ولم يتمكن من سماعه يتكلمها، قط، أبناؤه الذكور الثلاثة، وهم جميعهم أكبر مني، ولا ابنته الوحيدة فالينتينا.

ومن خلال فالينتينا – التي كانت صديقتي العظيمة والقارئة الملهمة – اكتشفت وجود حركة "رمل وسماء"، المؤلفة من جماعة شعراء شباب أخذوا على عاتقهم، تجديد شعر ساحل الكاريبي، مقتدين بمثال بابلو نيرودا الحميد. والحقيقة أنهم كانوا نسخة محلية مكرورة لجماعة "حجر وسماء" التي سادت في تلك السنوات، في مقاهي الشعراء في بوغوتا، وفي الملاحق الأدبية التي يشرف عليها إدواردو كارانثا، في ظل الشاعر الإسباني خوان رامون خيمينث، بالإصرار الصحي على كنس أوراق شجرة القرن التاسع عشر الميتة. لم يكونوا أكثر من نصف دزينة خارجين لتوهم، من المراهقة، ولكنهم برزوا بقوة في الملاحق الأدبية، على الساحل، إلى حد بدأ يُنظر إليهم على أنهم وعد أدبي كبير.

قائد جماعة "رمل وسماء" ويدعى سيسر أغوسطو دل بايي، كان في حوالي الثانية والعشرين من عمره. ولم يقتصر، في حمل اندفاعه التجديدي إلى الموضوعات والمشاعر، وإنما كذلك إلى الإملاء، والقواعد النحوية في قصائده. فكان هرطوقياً في نظر دعاة النقاء اللغوي، وأبله في نظر الأكاديميين، ومتخبطاً في نظر الكلاسيكيين. والحقيقة مع ذلك، أنه كان، فضلاً عن نضاليته المعدية – مثل نيرودا – رومانسياً لا خلاص له.

أخذتني ابنة عمي فالينتينا، في يوم أحد، إلى البيت الذي يعيش

فيه سيسر مع أبويه، في حي سان روكي، أكثر أحياء المدينة قصفاً ولهواً. كان متين العظام، قاتم البشرة ونحيلاً. له أسنان أرنب كبيرة وشعر مشعث على طريقة شعراء زمانه. وهو فوق ذلك، عريض ومفتوح السروال. كان بيته، وهو بيت طبقة متوسطة فقيرة، مترعاً بالكتب دون مجال لكتاب آخر جديد. وكان أبوه رجلاً جدياً وأقرب إلى الكآبة. له مزاج موظف متقاعد. ويبدو مغموماً لميول ابنه القاحلة. وقد احتضنتني أمه بشيء من الأسى، كابن آخر يعاني الداء نفسه الذي طالما جعلها تبكي على ابنها.

كان ذلك البيت، بالنسبة لي، كشفاً عن عالم ربما كنت أحدسه، وأنا في سن الرابعة عشرة تلك. ولكن دون أن أعرف إلى أي حد. وقد تحولتُ منذ ذلك اليوم الأول، إلى زائره الأكثر مواظبة. وكنت آخذ الكثير من وقت الشاعر، حتى إنني مازلت غير قادر إلى الآن، على تفسير كيف أمكن له أن يتحملني. وقد توصلت إلى التفكير في أنه كان يستعملني لممارسة نظرياته الأدبية التي ربما كانت اعتباطية، ولكنها مبهرة، مع محدّث مبهور لكنه مسالم. كان يعيرني كتباً لشعراء لم أسمع بأسمائهم من قبل، فأناقشها معه دون أدنى وعي لمدى جسارتي. ولا سيما نيرودا الذي حفظتُ عن ظهر قلب "قصيدته العشرين"[1] لكي أخرج بعض المعلمين الجيزويت عن طورهم، وهم الذين لا يتوغلون في مجاهل هذا النوع من الشعر. في تلك الأيام، اصطخبت أجواء المدينة الثقافية، بسبب قصيدة لميريا ديلمان، عن مدينة كارتاخينا دي إندياس، شغلت كل أوساط الساحل. وقد بلغت براعة الإلقاء، والصوت اللذين قرأ

(١) قصيدة نيرودا قبل الأخيرة في ديوانه المشهور "عشرون قصيدة حب وأغنية يائسة".

بهما سيسر دل بايي القصيدة عليّ، حداً جعلني أحفظها عن ظهر قلب، بعد القراءة الثانية.

وفي مرات كثيرة أخرى، لم نستطع التكلم، لأن سيسر كان يكتب على طريقته. ماشياً عبر الحجرات والممرات، كما لو أنه في عالم آخر. وبعد كل دقيقتين أو ثلاث دقائق، يمر أمامي كالمسرنم، ثم يجلس فجأة إلى الآلة الكاتبة، فيكتب بيتاً من الشعر، أو كلمة، أوحتى نقطة أو فاصلة، ثم يعود للمشي من جديد. وكنتُ أراقبه مبهوراً بانفعال سماوي، لأنني أكتشف الطريقة الوحيدة والسحرية لكتابة الشعر. هكذا كنتُ على الدوام، خلال سنواتي في مدرسة سان خوسيه، التي منحتني الركيزة البلاغية لإطلاق شياطين شعري. أما آخر خبر بلغني، عن ذلك الشاعر الذي لا يُنسى، بعد سنتين من ذلك في بوغوتا، فهو برقية من فالينتينا مؤلفة من كلمتين اثنتين، لم يطاوعها قلبها على التوقيع عليهما: "مات سيسر".

أول شعور أحسست به في بارانكيا، بغياب أبويّ، هو وعيي لحرية الاختيار. كان لي أصدقاء أحافظ عليهم خارج المدرسة. منهم ألفارو دل تورو – الذي كان يُغنّي على تصريحاتي في الاستراحات بين الدروس – وقبيلة آل آرتيتا الذين اعتدت الهرب معهم إلى المكتبات والسينما. ذلك أن الشرط الوحيد الذي فُرض عليّ في بيت العم إليسير، للحفاظ على مسؤوليتهم عني، هو عدم التأخر في العودة إلى البيت، إلى ما بعد الثامنة ليلاً.

بينما كنت في أحد الأيام، أنتظر سيسر دل بايي، وأنا أقرأ في صالة بيته، جاءت للبحث عنه امرأة مفاجئة. اسمها مارتينا فونسيكا.

وهي بيضاء، مسكوبة في قالب خلاسية، ذكية ومستقلة. يمكن لها أن تكون عشيقة الشاعر. وقد عشتُ لساعتين أو ثلاث ساعات، أوج متعة التحدث معها، إلى أن رجع سيسر إلى البيت، وذهبا معاً، دون أن يخبراني إلى أين. لم أعد أعرف شيئاً عنها حتى يوم أربعاء الرماد، من تلك السنة، عندما خرجتُ من القداس الأكبر ووجدتها تنتظرني على أحد مقاعد الحديقة. ظننت أنها رؤيا. كانت ترتدي ثوباً مطرزاً من الكتان، يُبرز جمالها الباهر، وتضع عقداً مبهرجاً، وزهرة نار متوقدة على فتحة ثوبها عند الصدر. ومع ذلك، فإن أكثر ما أقدره الآن في الذاكرة، هو الأسلوب الذي دعتني به إلى بيتها، دون أدنى ملمح من التفكير المسبق، ودون أن نأخذ في الاعتبار علامة الصليب المقدس المرسومة بالرماد، على جبهتينا. كان زوجها، وهو قبطان سفينة تمخر نهر مجدلينا، يقوم بمهام عمله في رحلة تستمر اثني عشر يوماً. وما الغريب في أن تدعوني زوجته، في يوم سبت ما، لتناول فنجان من الشوكولاته، مع المعجنات؟ لا شيء سوى أن التقليد تكرر طوال بقية تلك السنة، بينما الزوج مسافر في سفينته، ودوما ما بين الساعة الرابعة والسابعة، وهو وقت العرض السينمائي المخصص للصغار في سينما ريكس، فكان ذلك ينفعني، كذريعة في بيت عمي إلبسير، حين أكون معها.

كان اختصاصها المهني هو إعداد معلمي المرحلة الابتدائية للترقية، وكانت تستضيف أكثرهم كفاءة في بيتها، في ساعات فراغها. وتقدم لهم الشوكولاته والمعجنات. ولهذا لم يولِ أهل الحي الصاخب اهتماماً لتلميذ أيام السبت الجديد، انسيابية ذلك الحب السري الذي تأجج ناراً مجنونة منذ آذار حتى تشرين الثاني، كانت مفاجئة. فبعد أول سبتين،

اعتقدتُ أنني لن أطيق صبراً على تحمل الرغبة العارمة، في أن أكون معها طوال الوقت.

لقد كنا بمنجى من كل خطر، لأن زوجها كان يعلن عن مجيئه إلى المدينة، بإشارة مشفرة، لكي تعلم هي وحدها، بأن سفينته تدخل الميناء. وهذا ما حدث في السبت الثالث من غرامياتنا، عندما كنا في الفراش، وسُمع جؤار السفينة البعيد. فتصلبت هي.

- ابق صامتاً - قالت لي، وانتظرت جؤارين آخرين تاليين. ولكنها لم تقفز من السرير، مثلما كنت أنتظر بسبب خوفي، وإنما واصلت دون مبالاة وهي تقول:- ما زالت أمامنا ثلاث ساعات من الحياة.

كانت هي نفسها قد وصفته لي "زنجي ضخم بطول مترين وشبر، وله قضيبٌ مدفعي". كنتُ على وشك أن أكسر قواعد اللعبة في نوبة غيرة، وبطريقة غير عادية: فقد أردت قتله. ولكن نضجها هو الذي حلّ المسألة. فقد اقتادتني، منذ ذلك الحين برسن، عبر عقبات الحياة الواقعية، وكأنها تقتاد ذئباً صغيراً بجلد حمل.

رحت أتردى من سيئ إلى أسوأ في المدرسة. ولم أشأ أن أعرف شيئاً عن ذلك. ولكن مارتينا تولت بنفسها أمر محنتي المدرسية. فاجأتها صبيانية إهمالي لدروسي في سبيل إشباع شيطان ميل لا يقاوم إلى الحياة. وقد قلت لها: "الأمر طبيعي. فلو كان هذا الفراش هو المدرسة، وكنت أنت المعلمة، لكنتُ الأول ليس في صفي وحسب، وإنما في المدرسة كلها". وقد أخذت قولي كمثال صائب. وقالت لي:

- هذا هو بالضبط ما سنفعله.

واندفعت، دون تضحيات كبيرة، في مهمة إعادة تأهيل، وفق

توقيت ثابت. كانت تحل واجباتي المدرسية وتهيئني لدروس الأسبوع التالي، بين طفرات السرير وتأنيبات الأم. فإذا لم تكن واجباتي المدرسية على ما يرام، تعاقبني بسبت من الحرمان عن كل ثلاثة أخطاء. ولكنني لم أتجاوز الخطيئتين قط. وبدأ التبدل يظهر عليّ، في المدرسة.

ومع ذلك، فإن ما علمتني إياه بالممارسة، كان معادلة مؤكدة الصواب لم تفدني، لسوء الحظ، إلا في سنتي الثانوية الأخيرة: إذا ما انتبهت إلى دروسي وأنجزت واجباتي بنفسي، دون استنساخها من زملائي، فإنني سأنال تقديراً حسناً. ويمكنني القراءة مثلما أشاء في ساعات فراغي، ومواصلة حياتي الخاصة دون سهر منهك أو مخاوف مفاجئة بلا طائل. بفضل هذه الوصفة السحرية، كنت الأول على دفعتي في سنة ١٩٤٢ تلك، ونلت ميدالية الامتياز وتنويهات شرف من كل نوع. ولكن الامتداح والامتنان وُجّها إلى الأطباء، الذين أحسنوا صنعاً بعلاجي من الجنون. وقد أدركت فجأة في الحفل، أن هناك جرعة من الصفاقة، في التأثر الذي كنت أرد به، في السنوات السابقة، شاكراً المدائح التي تكال لي عن استحقاقات لم أكن جديراً بها. أما في السنة الأخيرة، عندما كنت استحقها عن جدارة، بدا لي عدم تقديم الشكر، عملاً وقوراً. ولكنني رددت من كل قلبي، بقصيدة غييرمو باليثيا "السيرك" التي ألقيتها كاملة، في الحفل الختامي، وكنت مرعوباً أكثر من مسيحي في مواجهة الأسود.

قررت أن أذهب في إجازة تلك السنة الحميدة، لزيارة الجدة ترانكيلينا في آراكاتاكا. ولكنها اضطرت هي إلى المجيء بصورة مستعجلة إلى بارانكيًا لإجراء عملية جراحية بسبب إظلام شبكية

عينيها. وقد اكتملت سعادتي برؤيتها مجدداً، مع سعادتي بمعجم الجد الذي حملته إليّ، كهدية. لم تلحظ أبداً أنها كانت تفقد بصرها، أو أنها لم تشأ الاعتراف بذلك، إلى أن صارت لا تستطيع التنقل في حجرتها. كانت العملية الجراحية التي أجريت لها في المستشفى الخيري، سريعة، مع تنبؤات طيبة. وعندما نزعوا الضمادات، وهي جالسة في السرير، فتحت عيني شبابها الجديد المشعتين، وأشرق وجهها، وهي تلخص سعادتها بكلمة واحدة:

– أرى.

أراد الطبيب الجراح أن تحدد ما الذي تراه أكثر. فمسحت الغرفة بنظرتها الجديدة، وراحت تعدد كل شيء بدقة باهرة. انحبست أنفاس الطبيب. ولكنني أنا وحدي، من كنتُ أعرف أن الأشياء التي تعددها الجدة، ليست هي الموجودة أمامها، في غرفة المستشفى؛ وإنما محتويات غرفة نومها في آراكاتاكا، التي تستحضرها من ذاكرتها، بالترتيب الذي هي عليه. ولم تستعد بصرها، بعد ذلك اليوم قطّ.

ألح والداي على أن أقضي إجازتي معهما، في سوكري، وأن آخذ الجدة معي. كانت قد هرمت أكثر بكثير من سنها. وكان ذهنها يمضي على غير هدى. وقد شُحذ جمال صوتها، وصارت تغني أكثر، وبإلهام أكبر من أي وقت آخر. اهتمت أمي بإبقائها نظيفة ومرتبة، كما لو أنها دمية ضخمة. كان واضحاً أنها تعي العالم، ولكنها تنتبه إلى الماضي، وبخاصة برامج المذياع التي توقظ فيها اهتماماً طفولياً. فقد كانت تتعرف على أصوات مختلف المذيعين الذين تحدد هويتهم، على أنهم أصدقاء شبابها، في ريوهاتشا، لأنه لم يدخل مذياع، قط، إلى بيتها

في آراكاتاكا. وكانت تخالف أو تنتقد بعض تعليقات المذيعين، وتناقش معهم البرامج المتنوعة، أو توبخهم على أي خطأ نحوي، كما لو أنهم، بلحمهم وعظمهم، إلى جوار سريرها، وترفض أن تُستبدل ملابسها، طالما لم يلقِ المذيعون تحية الوداع. وعندما يفعلون، ترد عليهم بحسن تربيتها السليمة:

– طابت ليلتك أيها السيد.

أسرار كثير من الأشياء المفقودة، أو المخبأة، أو المسائل المحظورة، توضحت من خلال منولوجاتها: من الذي أخذ، في تابوت، مضخة الماء التي اختفت من البيت في آراكاتاكا، ومن هو في الحقيقة والد ماتيلدي سالمونا، الذي أخطأ فيه اخوته وجعلوه يدفع الثمن بالرصاص.

لم تكن سهلة كذلك إجازتي الأولى في سوكري، من دون مارتينا فونسيكا. إنما لم يكن هناك أدنى إمكانية لذهابها معي. ومجرد التفكير في أنني لن أراها، طوال شهرين، بدا لي أمراً غير معقول. أما هي فلا. بل على العكس. فعندما طرحتُ الموضوع، أدركتُ أنها، كعادتها، كانت قد سبقتني بثلاث خطوات. فقد قالت لي، دون أسرار أو غموض:

– هذا ما كنتُ أريد التحدث فيه. الحل الأمثل لكلينا هو أن تذهب للدراسة في مكان آخر، بعد أن صرنا الآن مجنونين، بحاجة إلى تقييد. وهكذا، ستتوصل إلى القناعة، بأن ما بيننا لا يمكن له أن يصير أبداً، أكثر مما كان.

أخذتُ كلامها بسخرية:

– سأذهب غداً وأعود بعد ثلاثة أشهر، لأبقى معك.

فردت علي بموسيقى تانغو:

– ها، ها، ها، ها!

عندئذ أدركتُ أنه من السهل، إقناع مارتينا، عندما تقول نعم، ولكن لا يمكن إقناعها مطلقاً، عندما تقول لا. وهكذا تناولت قفازي، مستحماً بالدموع، وقررت أن أكون شخصاً آخر، في الحياة التي فكرت بها هي لي: مدينة أخرى، مدرسة أخرى، أصدقاء آخرون، وحتى طريقة أخرى في حياتي. لم أكد أفكر في ذلك، حين كان أول ما قلته لأبي بشيء من الوقار، وبسلطة ميدالياتي الكثيرة، هو أنني لن أرجع إلى مدرسة سان خوسيه. ولا إلى مدينة بارانكيا. فقال هو:

– تبارك الرب! فقد كنتُ أتساءل على الدوام، من أين جاءتك رومانسية الدراسة لدى الجيزويت.

فتجاوزت أمي هذا التعليق قائلة:

– إذا هو لم يدرس هناك، فلا بد أن يذهب إلى بوغوتا.

وردَّ أبي على الفور:

– لن يذهب إذن إلى أي مكان، لأنه لا وجود لأموال تكفي أولئك الكاتشاكو هناك.

أمر غريب! فمجرد فكرة عدم مواصلتي الدراسة التي كانت حلم حياتي، بدت لي عندئذ، غير محتملة. حتى إنني لجأت إلى حلم لم يبدُ لي يوماً أنه ممكن التحقيق، إذ قلت:

– هناك منح دراسية.

فقال أبي:

– أجل، الكثير منها، ولكنها للأغنياء.

كان ذلك صحيحاً جزئياً. ولكن ليس بسبب المحاباة والمحسوبية، وإنما لأن الإجراءات صعبة وشروط القبول سيئة التوزيع والانتشار. وبحكم النظام المركزي، فإن كل متطلع إلى منحة، عليه الذهاب إلى بوغوتا، على بعد ألف كيلومتر، يطلب اجتيازها ثمانية أيام من السفر، ويكلف ما يعادل كلفة ثلاثة شهور تقريباً، في مدرسة داخلية جيدة. ويمكن، مع ذلك، أن يكون السفر دون طائل. استشاطت أمي غضباً:

– عندما يفتح أحدنا غطاء آلة المال، يعرف أين يبدأ، ولكنه لا يعرف أين ينتهي.

أضف إلى ذلك، أنه كانت هناك أمور أخرى مؤجلة. فلويس إنريكي الذي يصغرني بسنة، كان قد سُجّل في مدرستين محليتين، وهرب من كلتيهما، بعد شهور قليلة. ومرغريتا وعايدا تدرسان على ما يرام، في مدرسة ابتدائية للراهبات، ولكنهما بدأتا التفكير في الانتقال إلى مدينة قريبة، وأقل كلفة، من أجل الدراسة الثانوية. أما غوستافو، وليخيا، وريتا، وخيمي فلم يكونوا مستعجلين بعد، ولكنهم يكبرون بإيقاع متوعد. وكان هؤلاء، أو الثلاثة الذين ولدوا فيما بعد، يتعاملون معي، كشخص لا يأتي دائماً، إلا لكي يغادر.

كانت تلك هي سنتي الحاسمة. وكانت أكبر جاذبية، في عربات المنافسة المزينة، هن الفتيات المختارات للطفهن وجمالهن، واللواتي كن يرتدين ثياب الملكات، ويلقين أشعاراً تعريضية، تلمح إلى الحرب الرمزية، بين نصفي القرية. وكنتُ أنا، نصف الغريب، أستمتع بامتياز كوني محايداً. وعلى هذا الأساس كنت أتصرف. ولكنني في تلك السنة، تنازلت أمام توسلات قادة حي كونغوبيو، لأكتب لهم أبيات شعر

تلقيها أختي كارمن روسا التي ستكون ملكة إحدى العربات الضخمة. وقد أرضيتهم بكل سعادة، ولكنني بالغت في مهاجمة الخصم، بسبب جهلي قواعد اللعبة. فلم يبق لي مخرج آخر سوى ترقيع تلك الفضيحة بقصيدتي سلام: واحدة ترميمية لجميلة حي كونغوبيو، وقصيدة مصالحة لجميلة حي سوليا. شاع خبر الحادثة. وهكذا تحول الشاعر شبه المجهول، في البلدة، إلى بطل الاحتفال. وقد قدمني الحدث في المجتمع، وجعلني جديراً بصداقة الفريقين. ومنذ ذلك الحين، لم يعد لدي وقت للمساعدة في المسرحيات الطفلية، والأسواق الخيرية، ومهرجانات يانصيب الإحسان، وحتى في كتابة خطاب مرشحٍ للمجلس البلدي.

لويس إنريكي الذي كان يتباهى بعازف الجيتار الملهم الذي صار إليه، علمني عزف التيبلي[1]. وتحولت معه ومع فيلاديلفيو بيلييا إلى ملوك السرينادات، يراودنا الأمل الكبير بأن ترتدي بعض المحتفى بهن ملابسهن بسرعة، ويفتحن الباب، ويوقظن الجارات، لنواصل الحفلة حتى الفطور. في تلك السنة أثريت الجماعة، حين انضم إليها خوسيه بالينثيا، حفيد مالك أراض ثري ومبذر. كان خوسيه موسيقياً فطرياً قادراً أن يعزف على أي آلة موسيقية تقع بين يديه. له مظهر فنان سينمائي. وكان راقصاً نجومياً، يتمتع بذكاء مبهر وبحظ محسود، أكثر مما هو قابل للحسد في الغراميات العابرة.

أما أنا، بالمقابل، فلم اكن أتقن الرقص، ولم أستطع تعلمه، حتى في بيت الآنسات لويسياو، وهن ست أخوات مقعدات بالولادة، ولكنهن يعطين مع ذلك دروساً في الرقص الجيد، دون أن ينهضن عن كراسيهن

(١) التيبلي tiple: آلة موسيقية تشبه الجيتار ولكنها أصغر منه حجماً، وألحانها أكثر حدة.

الهزازة. أبي الذي لم يكن قطُّ، من النوع غير المبالي بالسمعة، تقرب مني برؤية جديدة. وصرنا، لأول مرة، نكرس ساعات طويلة، لتبادل الحديث. كنا لا يكاد أحدنا يعرف الآخر. الواقع أنني، وأنا أنظر اليوم إلى ذلك، لم أعش مع أبويّ أكثر مما مجموعه ثلاث سنوات، بما في ذلك ما عشته معهما في آراكاتاكا، وبارانكيّا، وكارتاخينا، وسينيثي، وسوكري. لقد كانت تجربة لطيفة جداً أتاحت لي التعرف عليهما، بصورة أفضل. وقد قالت لي أمي ذلك: "كم هو جيد أنك صرت صديقاً لأبيك". وبعد أيام من ذلك، بينما هي تعدّ القهوة في المطبخ، قالت لي أيضاً:

– أبوك فخور بك.

وفي اليوم التالي، جاءت توقظني، على رؤوس أقدامها، وهمست في أذني: "أبوك يخبئ لك مفاجأة". وبالفعل، عندما نزلت لتناول الفطور، قدم هو نفسه لي الخبر، بحضور الجميع وبتفخيم مهيب:

– جهز أشياءك، فسوف تذهب إلى بوغوتا.

الصدمة الأولى كانت إحباطاً كبيراً، فما كنت أرغب فيه آنذاك، هو البقاء غارقاً في حفلات الصخب الأبدية. ولكن البراءة تغلبت. لم تكن هناك مشكلة بالنسبة لملابس المنطقة الباردة. فلدى والدي، بدلة سوداء من الجوخ، وأخرى من المخمل، ولا تنطبق أي منهما على خصره. وهكذا ذهبنا إلى بيدروليون روساليس، المعروف باسم خياط المعجزات، فأعاد تكييفهما على مقاسي. واشترت لي أمي كذلك، معطفاً من جلد الجمل، كان لسيناتور ميت. وبينما كنت أجربه في البيت، حذرتني أختي ليخيا، سراً – وهي متنبئة بالفطرة – من أن شبح السيناتور يمر ليلاً من بيته، وهو يرتدي المعطف. لم أولها اهتماماً. ولكن كان من الأفضل لي

أن أفعل، لأنني عندما ارتديته في بوغوتا، رأيت نفسي في المرآة، بوجه السيناتور الميت. فرهنته مقابل عشرة بيزوات، في محل رهونات مونتي دي بيداد (جبل الرحمة) وتركته يضيع.

كانت الأجواء الأسرية قد تحسنت كثيراً، حتى إنني كنتُ على وشك البكاء، عند الوداع. ولكن البرنامج جرى بحذافيره، دون إفراط في العواطف. في الأسبوع الثاني من كانون الثاني، أبحرت من بلدة ماغانغي في "القبطان آرانغو"، وهي السفينة الرئيسية في شركة نافيرا كولومبيانا، بعد أن عشت ليلة كرجل حر. زميلي في القمرة كان ملاكاً يزن مئتين وعشرين رطلاً، أمرد الجسم بالكامل. له الاسم المغتصب "جاك السفاح"، وهو المتبقي الأخير على قيد الحياة، من سلالة رماة السكاكين في السيرك، المتحدرين من آسيا الوسطى. بدا لي للوهلة الأولى، أنه يمكن له أن يخنقني بينما أنا نائم. ولكنني انتبهت في الأيام التالية، إلى أنه ليس أكثر مما يبدو عليه وحسب: طفل ضخم بقلب لا يتسع له جسده.

أقيمت حفلة رسمية في الليلة الأولى، بمشاركة فرقة موسيقية، مع وليمة عشاء فخمة. ولكنني هربت إلى السطح، تأملت لآخر مرة، أضواء العالم الذي أستعد لنسيانه دون ألم، وبكيت على هواي حتى الفجر. وأجرأ اليوم على القول، إن الشيء الوحيد الذي أرغب في أن أعود طفلاً من أجله، هو الاستمتاع بتلك الرحلة. لقد قمت بها فيما بعد، ذهاباً وإياباً، عدة مرات خلال السنوات الأربع المتبقية لي في الدراسة الثانوية، وسنتين أخريين في الجامعة. وفي كل مرة، تعلمت من الحياة، أكثر مما تعلمته في المدرسة، وأفضل مما في المدرسة. في الفترات التي

يكون فيها النهر مرتفعاً ومياهه كافية، تستغرق رحلة الصعود خمسة أيام، من بارانكيًا حتى بويرتو سالغار. ومن هناك تُستكمل الرحلة بالقطار إلى بوغوتا. أما في فترات الجفاف، وهي الأكثر متعة في الإبحار، إذا لم يكن المرء مستعجلاً، فيمكن أن تستمر حتى ثلاثة أسابيع.

كان للسفن أسماء سهلة ومباشرة: "أتلانتيكو"، "ميدلين"، "كابتن دي كارو"، "دافيد آرانغو". وقباطنتها، مثل قباطنة [جوزيف] كونراد، كانوا متسلطين ومن النوع الجيد. يأكلون كالبرابرة، ولا يستطيعون النوم وحيدين، في قمراتهم الملوكية. كانت الرحلات بطيئة ومفاجئة. وكنا نحن المسافرين، نجلس على الشرفات طوال اليوم، لنشاهد القرى المنسية، والتماسيح المنبطحة، وأشداقها مفتوحة بانتظار الفراشات غير الحذرة، وأسراب مالك الحزين التي تنطلق محلقة خوفاً، من أثر مخور السفينة، وقطعان بط المستنقعات الداخلية، والأطم التي تغني على الشواطئ، بينما هي تُرضع صغارها. وخلال الرحلة كلها، يستيقظ المرء مشوشاً من صخب القرود والببغاوات. وكثيراً ما تقطع القيلولةَ رائحةٌ مقززة لبقرة غارقة، ثابتة دون حراك، في خيط الماء النحيل، ومع نسر رخمة وحيد يجثم على بطنها.

من النادر أن يتعرف أحدنا الآن، على أحد في الطائرات. أما في السفن النهرية، فكان الأمر ينتهي بنا، نحن الطلاب، إلى أن نبدو أسرة واحدة؛ فقد كنا نتفق كل سنة لكي نلتقي معاً، في الرحلة نفسها. وكانت السفينة تعلق أحياناً لمدة تصل إلى خمسة عشر يوماً، في إحدى المصاطب الرملية. ولم يكن أحد منا يشعر بالقلق، لأن الحفلة تتواصل.

وتكفي رسالة من القبطان ممهورة بخاتمه، كعذر، لوصولنا متأخرين إلى المدرسة.

منذ اليوم الأول، لفت انتباهي أصغر أفراد جماعة أسرية كان يعزف الباندونيون[1] كما لو أنه في الأحلام، وهو يتجول طوال أيام كاملة، على سطح الدرجة الأولى. لم أستطع تحمل الحسد، ذلك أنني منذ أن سمعت أول عازفي الأكورديونات، من جماعة فرانثيسكو الإنسان في أعياد العشرين من تموز في آراكاتاكا، سعيتُ جاهداً من أجل أن يشتري لي جدي أكورديوناً. ولكن جدتي اعترضت، كعادتها المرائية الدائمة، بأن الأكورديون هو آلة بلهاء. وبعد ثلاثين سنة من ذلك، ظننتُ أنني تعرفت في باريس، على عازف الأكورديون المتأنق في السفينة، في مؤتمر عالمي لأطباء الأعصاب. كان الزمن قد فعل فعله: فقد أطلق لحية بوهيمية، وكبرت ملابسه على مقاسه حوالى نمرتين. ولكن ذكرى براعته، كانت لا تزال حية، بحيث لا يمكنني أن أخطئ. ومع ذلك، ما كان يمكن لجوابه أن يكون أكثر فظاظة، حين سألته، دون أن أقدم نفسي:

– كيف حال الباندونيون؟

فأجابني متفاجئاً:

– لا أدري عمَّ تتكلم.

أحسست بأنني أسفُّ التراب، وقدمت إليه تفسيراتي البائسة بأنني أخطأت، وظننته طالباً كان يعزف الباندونيون في السفينة "دافيد آرانغو"، في أوائل شهر كانون الثاني سنة ٤٤. عندئذ أشرق متألقاً بالذكرى. كان ذلك الرجل هو الكولومبي سالمون حكيم، أحد أعظم أطباء

(١) الباندونيون bandoneon: آلة موسيقية من نوع الأكورديون.

الأعصاب في العالم. وكانت خيبة الأمل في أنه تحوّل من عزف الأكورديون، إلى الهندسة الطبية.

وقد لفت نظري مسافر آخر، بسبب انزوائه. كان شاباً مربوعاً، ذا شعر أشقر، ضارب إلى الحمرة، يضع نظارة حسير بصر، وله صلعة مبكرة. بدا لي، الصورة النموذجية للسائح الكاتشاكو. احتكر لنفسه، منذ اليوم الأول، أكثر المقاعد راحة، ووضع عدة أكداس من الكتب الجديدة على طاولة صغيرة، وصار يقرأ دون توقف، منذ الصباح إلى أن تشد اهتمامه حفلات الغناء، والصخب الليلية. وكان يظهر كل يوم في قاعة الطعام، بقميص شاطئ مختلف ومزين بالأزهار، فيتناول فطوره، وغداءه، وعشاءه ويواصل القراءة، وحيداً على المنضدة الأكثر انزواءً. لا أظن أنه تبادل التحية مع أحد. وقد عمّدته بيني وبين نفسي، بلقب "القارئ النهم".

لم أستطع مقاومة إغراء التلصص على كتبه. كانت في معظمها مراجع عسيرة الهضم، في القانون العام. يقرؤها في الصباح، وهو يؤشر تحت السطور، ويدون ملاحظات في الهوامش. ومع برودة المساء، يقرأ روايات. منها رواية أصابتني بالذهول: "القرين" لدوستوفسكي، إذ كنتُ قد حاولتُ سرقتها من إحدى مكتبات بارانكيا، ولم أستطع. وكنت أتلهف بجنون لقراءتها، حتى إنني أردت طلبها منه، ولكنني لم أجرؤ على ذلك. وفي أحد تلك الأيام، ظهر ومعه رواية مولان الكبير، ولم أكن قد سمعت بها، ولكنني ضممتها بعد وقت قصير من ذلك، إلى قائمة الأعمال البارعة المفضلة لدي. أما أنا بالمقابل، فلم أكن أحمل سوى كتب قرأتها من قبل، ولا يمكن إعادة قراءتها: جيرومين للأب

كولوما، التي لم أنهِ قراءتها قط؛ والدوامة، لخوسيه إوستاسيو ريفيرا؛ ومن جبال أبينون إلى جبال الأنديز، لإدموندو دي أميسس؛ ومعجم الجد الذي كنت أقرأ فيه مقاطع متفرقة طوال ساعات. بينما لم يكن لدى القارئ النهم، من جهته، ما يكفي من الوقت، لقراءة ما لديه. وما أريد قوله، ولم أقله، هو أنني كنت مستعداً لتقديم أي شيء، مقابل أن أكون هو.

المسافر الثالث هو جاك السفاح، طبعاً، زميلي في القمرة الذي كان يتكلم، وهو نائم، بلغة همجية، طوال ساعات كاملة. وكانت لمداخلاته تلك إيقاع مترنم، يضفي خلفية جديدة على قراءاتي عند الفجر. قال لي إنه لا يعي ذلك، ولا يعرف ما هي اللغة التي يحلم بها، لأنه في طفولته، كان يتفاهم مع البهلوانات في سيركه، بست لغات آسيوية، ولكنه فقدها كلها بعدما توفيت أمه. ولم تبق له سوى اللغة البولونية، وهي لغته الأصلية. ولكن يمكن الإقرار بأنها ليست اللغة التي يتكلم بها وهو نائم. لا أتذكر كائناً أكثر منه مودة، وهو يزيّت سكاكينه المشؤومة، ويجربها على لسانه الوردي.

كانت مشكلته الوحيدة هي يومه الأول في قاعة الطعام، عندما قال للندل إنه لن يستطيع العيش حتى نهاية الرحلة، ما لم يقدموا إليه وجبة تعادل حصة أربعة أشخاص. وقد أوضح له مساعد الربان أنهم سيفعلون ذلك، إذا هو دفع ثمناً إضافياً مع تخفيض خاص. فاحتج بأنه قد سافر في كل بحار العالم، وكان الجميع يعترفون بحقه الإنساني في عدم البقاء جائعاً. ورُفعت القضية إلى الربان الذي قرر، على الطريقة الكولومبية جداً، أن تقدم له حصتان، وأن يطلق الطهاة يدهم قليلاً

لتتوفر له حصتان أخريان سهواً. وساعد هو نفسه أيضاً بتناول لقيمات بشوكته من أطباق زملائه على المائدة، وبعض الجيران ضعيفي الشهية، ممن كانوا يستمتعون بدعاباته. لا بد للمرء من أن يكون هناك ليصدق ذلك.

لم أكن أدري ما أفعله بنفسي، إلى أن صعدت إلى السفينة في لاغلوريا، جماعة من الطلاب الذين راحوا يشكلون فرقاً ثلاثية ورباعية في الليل، ويغنون سيرنادات شجية وأغنيات بوليرو غرامية. وعندما اكتشفتُ أنهم بحاجة إلى صوت صادح، عرضت عليهم أن أؤديه أنا. وصرت أقترن معهم بعد الظهر، ونغني حتى الفجر. وهكذا وجدت لملل ساعات فراغي، علاجاً مرتبطاً بالقلب: لا يمكن لمن لا يغني أن يتخيل ما تعنيه متعة الغناء.

في ليلة مكتملة القمر، أيقظنا نواح مؤثر يأتي من الضفة. فأصدر القبطان كليماكو كوندي ألبيبّو، أحد أعظم الربابنة، أمره بالبحث بالمصابيح الكشافة، عن مصدر ذلك النواح. فكانت أنثى أطم عالقة بأغصان شجرة ساقطة. فألقى بحارة السفينة البخارية بأنفسهم إلى الماء، وربطوها برافعة رحوية، وتمكنوا من تخليصها. لقد كانت كائناً رائعاً ومؤثراً، تجمع بين المرأة والبقرة. طولها حوالى أربعة أمتار. لها جلد داكن ولين، وصدرها ذو الثديين الكبيرين، أشبه بصدر أم توراتية. وقد سمعتُ الكابتن كوندي ألبيبّو يقول إن العالم سينتهي إذا ما واصلوا قتل حيوانات النهر. وقد منع إطلاق النار من سفينته. وقال صارخاً:

– من يرد أن يقتل أحداً، فليذهب ويقتله في بيته! وليس في سفينتي.

إنني أتذكر يوم التاسع عشر من كانون الثاني ١٩٦١، بعد ست عشرة سنة من ذلك، يوم نحس، لأن صديقاً اتصل بي، وأنا في مكسيكو، ليخبرني بأن السفينة البخارية "دافيد أرانغو" قد احترقت واستحالت رماداً في مرفأ ماغانغي. أغلقتُ سماعة الهاتف، يراودني شعور رهيب بأن شبابي قد انتهى في ذلك اليوم، وبأن القليل المتبقي لنا من الحنين إلى نهرنا قد ذهب إلى الجحيم. نهر مجدلينا اليوم، هو نهر ميت، بمياهه العفنة وحيواناته المنقرضة. وأعمال الترميم التي طالما تحدثت عنها الحكومات المتتالية، لم يتحقق منها شيء، فهي تتطلب غرس ستين مليون شجرة، في تسعين بالمئة من أراضٍ تعود إلى ملكيات خاصة، يتوجب على مالكيها، أن يتخلوا عن تسعين بالمئة من دخلهم، حباً بالوطن وحسب.

كل رحلة كانت تخلّف لدينا قدراً كبيراً من التعلم الحياتي، يضعنا على ارتباط بصورة عابرة، إنما لا تُنسى، بالقرى التي نمر منها، حيث ارتبط مصير بعضنا بها إلى الأبد. فهناك طالب طب مشهور دخل، دون دعوة، إلى حفل زفاف راقص، ورقص دون إذن، مع أجمل امرأة في الحفلة، فقتله الزوج برصاصة. وآخر تزوج وهو ثمل، في سَكْرةٍ ملحمية، من أول فتاة أعجبته في بويرتو بيريو. وما زال سعيداً معها ومع أبنائهما التسعة هناك. وخوسيه بالينثيا، صديقنا الذي من سوكري، كسب بقرة في مسابقة مهرجان شعبي في تينيريفي، وباعها هناك بالذات، مقابل خمسين بيزو: وهي ثروة في ذلك الزمن. وفي حي التسامح الهائل في باراَنكابيرميخا، عاصمة البترول، فوجئنا بأنفسنا نغني مع أوركسترا أحد مواخير آنخل كاسيخ بالينثيا، ابن عم خوسيه،

الذي كان قد اختفى من سوكري، دون أن يخلّف أثراً منذ السنة السابقة. أما حساب ما فعلناه، فتكفلت به الأوركسترا حتى الفجر.

الذكرى غير اللطيفة، هي ما جرى لنا في حانة مكفهرّةً في بويرتو بيريو، حيث أخرجتنا الشرطة بالضرب بالهروى، وكنا أربعة من ركاب السفينة، دون تقديم أي تفسير لنا، أو سماع أي تفسير منا. واعتقلونا بتهمة أننا اغتصبنا إحدى التلميذات. وعندما وصلنا إلى مركز الشرطة، كانوا قد احتجزوا وراء القضبان المذنبين الحقيقيين، دون خمش أحد منهم، وهم بعض الزعران المحليين، وليست لهم أي علاقة بسفينتنا.

في محطتنا الأخيرة، بويرتو سالاغار، كان علينا أن ننزل إلى البر، في الساعة الخامسة صباحاً، مرتدين ملابس مناسبة للمناطق المرتفعة. وهكذا تبدت هيئات الرجال بالبدلات السوداء، مع الصدار، والقبعة لها شكل الفطر، والمعاطف معلقة بأذرعهم، ما بين تقافز الضفادع ونتانة النهر المترع بحيوانات ميتة. وعندما حان موعد النزول من السفينة، وقعت لي مفاجأة غريبة. فقد كان أحد الأصدقاء، قد أقنع أمي في اللحظة الأخيرة، بأن تُعدَّ لي بقجة تضم شبكة من ألياف نبات البيتا، ودثاراً من الصوف، ومبولة صغيرة للطوارئ، وأن تلف كل ذلك بحصيرة من الحلفاء، وتربطه بصورة متصالبة بحبال تعليق أرجوحة النوم. لم يستطع زملائي الموسيقيون كبح ضحكهم وهم يرون معي، مثل تلك الأمتعة في مهد الحضارة. وأقدم أكثرهم جرأة، على ما لم يكن بمقدوري الإقدام عليه: ألقى بالحزمة إلى الماء. وكانت رؤياي الأخيرة من تلك الرحلة التي لا تُنسى، هي البقجة العائدة إلى موطنها، متهادية مع التيار.

كان قطار بويرتو سالاغار يصعد، كما لو أنه يحبو على أفاريز الصخر، خلال الساعات الأربع الأولى. وفي المقاطع الأكثر انتصاباً، ينزلق متراجعاً ليستجمع قواه ويحاول الصعود من جديد، مطلقاً لهاث تنين. وكان لا بد للمسافرين، في بعض الأحيان، من النزول لتخفيف وزن الحمولة، والسير على الأقدام حتى الحافة الجبلية التالية. كانت قرى الطريق كئيبة ومتجمدة، لا ينتظرنا في محطاتها المقفرة سوى البائعات الأبديات اللواتي يعرضن علينا من نوافذ العربات، دجاجات سمينة وصفراء، مطهوة بكاملها، وبطاطا مثلجة لها طعم المجد. هناك أحسستُ أول مرة، بحالة جسدية مجهولة لدي وغير مرئية: البرد. عند الغروب، انفتحت أمامنا فجأة، لحسن الحظ، السهول الفسيحة الممتدة حتى الأفق، خضراء وجميلة، مثل بحر سماوي. فصار العالم ساكناً ومقتضباً، وتحوّل جو القطار إلى آخر.

كنتُ قد نسيت تماماً القارئ النهم، عندما ظهر فجأة وجلس قبالتي، بمظهر المتعجل. كان أمراً لا يصدق؛ فقد أعجبته أغنية بوليرو، غنيناها في ليالي السفينة، فطلب مني أن أدون له كلماتها. لم أكتف بعمل ذلك، وإنما علّمته كيف يغنيها أيضاً. فاجأني حسن سماعه وبريق صوته، عندما غناها وحيداً، مضبوطة وجيدة، منذ المرة الأولى، وهتف مشرقاً:

– تلك المرأة ستموت، عندما تسمعها!

وهكذا فهمت لهفته. فمنذ أن سمع البوليرو، ونحن نغنيه في السفينة، أحس بأن ذلك اللحن سيكون إلهاماً للخطيبة التي ودعته في بوغوتا، قبل ثلاثة شهور. وهي تنتظره في ذلك المساء، في المحطة. لقد سمع الأغنية مرتين أو ثلاث مرات. وكان قادراً على تركيب أجزائها،

ولكنه حين رآني أجلس وحيداً على المقعد في القطار، قرر أن يطلب مني ذلك الجميل. وقد تجرأت أنا عندئذ، على القول له، بنية مبيتة، ودون أي مناسبة أو مقدمات، إنني فوجئت كثيراً حين رأيت على طاولته، كتاباً من الصعب العثور عليه. أما مفاجأته فكانت حقيقية:

– أي كتاب هو؟

– القرين.

ضحك راضياً، وقال:

– لم انته من قراءته بعد. ولكنه من أغرب ما وقع بين يدي.

لم يتجاوز ذلك الحد. شكرني بكل التدرجات الصوتية على أغنية البوليرو، وودّعني بالشد، بقوة على يدي.

بدأ الظلام يخيم، عندما أخذ القطار يخفف من سرعته. مرّ من عنبر مترع بالخردوات الصدئة، ورسا عند رصيف مظلم. أمسكت صندوق أمتعتي من لسان الجر، وسحبته نحو الشارع، قبل أن يصدمني حشد الناس. وكنت على وشك الوصول، عندما صرخ أحدهم:

– أيها الشاب، أيها الشاب!

التفتُ لأنظر، مثلما فعل عدة شبان، وآخرون أقل شباباً كانوا يسرعون مثلي، ومرّ عندئذ القارئ النهم إلى جانبي، وأعطاني كتاباً دون أن يتوقف.

– فليكن هنيئاً لك – صرخ بذلك، وضاع في الزحام.

كان الكتاب هو "القرين". وكنت مذهولاً إلى حد لم أنتبه معه إلى ما جرى لي. وضعت الكتاب في جيب المعطف، وصفعتني ريح الغسق الجليدية عندما خرجت من المحطة. تركتُ الصندوق على الرصيف وأنا

على وشك السقوط منهوكاً، وجلستُ عليه لألتقط الأنفاس التي افتقدتها. لم تكن هناك نفس واحدة في الشوارع. والقليل الذي تمكنت من رؤيته، هو ناصية جادة مشؤومة وجليدية تحت رذاذ مطر خفيف مختلط بهباب الفحم، على ارتفاع ألفين وأربعمئة متر عن سطح البحر، وسط هواء قطبي يعوق التنفس.

انتظرتُ، ميتاً من البرد، ما لا يقل عن نصف ساعة. كان لا بد لشخص من أن يأتي، ذلك أن أبي أرسل برقية مستعجلة إلى دون إلبسيير توريس آرانغو، وهو قريب له، ليكون في انتظاري. ولكن ما كان يقلقني عندئذ، ليس مجيء أو عدم مجيء أحد، وإنما الخوف من وجودي جالساً، على صندوق كأنه القبر، دون أن يكون هناك من أعرفه في الجانب الآخر من العالم. وفجأة نزل من سيارة تكسي، رجل وجيه، يحمل مظلة من الحرير، ويرتدي معطفاً من صوف الجمال، يصل حتى كاحليه. أدركت أنه من يبحث عني، بالرغم من أنه لم ينظر إليّ. ومرّ بي عَرَضاً. فلم أجد الجرأة للإشارة له بأي إيماءة. دخل راكضاً إلى المحطة، ثم عاد للخروج، بعد دقائق، دون أي بادرة أمل. وأخيراً اكتشف وجودي، وأشار إليّ بإصبعه السبابة:

– أنت غابيتو، أليس كذلك؟

فأجبته من روحي:

– تقريباً.

٤

كانت بوغوتا، آنذاك، مدينة نائية وكئيبة، يهطل فيها رذاذ مطر مؤرق، منذ مطلع القرن السادس عشر. لفت انتباهي وجود كثير من الرجال المستعجلين في الشارع، يلبسون مثلما ألبس، منذ وصولي، بدلات من الجوخ الأسود وقبعات قاسية. ولكن لا تظهر بالمقابل، امرأة واحدة تبعث العزاء في النفس. كان محظوراً عليهن الدخول إلى المقاهي الكالحة في المركز التجاري، مثلما هي حال القساوسة الذين يرتدون ملابس الكهنوت، والعسكريين الذين هم بالزي الرسمي. وكان يُعلق، في عربات الترام والمراحيض العامة، إعلان كئيب: "إذا كنت لا تخشى الله، فاخشَ السفلس".

أذهلتني الأحصنة الضخمة التي تجر عربات البيرة، وشرر الألعاب النارية الذي يطلقه الترام عندما ينعطف في الزوايا، وعرقلة حركة المرور، من أجل فتح الطريق للجنازات التي تتقدم مشياً على الأقدام، تحت رذاذ المطر. لقد كانت المظهرَ الأكثرَ كآبة، في عربات فاخرة تجرها خيول مكسوة بالمخمل، مع قنزعة من الريش الأسود، تحمل جثث أناس من أسر راقية، تتصرف مثل مخترعي الموت. أمام مدخل كنيسة لاس نيفيس، رأيتُ من سيارة التاكسي، أول امرأة في الشارع. كانت

ممشوقة القوام ورشيقة، ذات مهابة كبيرة، كأنها ملكة في حداد. ولكنني بقيت إلى الأبد، بنصف الوهم، لأنها كانت تغطي وجهها بخمار لا يمكن اختراقه.

لقد كان انهياراً معنوياً كاملاً. فالبيت الذي أمضيت فيه تلك الليلة، كان كبيراً ومريحاً. ولكنه بدا لي شبحياً، بسبب حديقته الكالحة ذات الورود القاتمة، والبرد الذي يطحن العظام. إنه بيت أسرة توريس غامبوا، أقرباء أبي ومعارفي. ولكنني رأيتهم غرباء، أثناء العشاء، وهم متلفعون بأرواب النوم. وكانت مفاجأتي الكبرى، عندما انزلقتُ تحت ملاءات السرير، وأطلقتُ صرخة رعب، لأنني أحسست بأنها مبللة بسائل متجمد. فأوضحوا لي أنها تبدو كذلك، في المرة الأولى، وأنني سآخذ بالاعتياد شيئاً فشيئاً، على غرابة المناخ. وقد بكيت ساعات طويلة بصمت، قبل أن أتوصل إلى إغفاءة غير سعيدة.

تلك هي الحالة المعنوية التي كنتُ عليها، بعد أربعة أيام من وصولي، بينما أنا أمشي بكل سرعة، في مواجهة البرد ورذاذ المطر، نحو وزارة التربية، حيث سيفتتح التسجيل للمسابقة الوطنية للمنح الدراسية. كان صف المنتظرين يبدأ من الطابق الثالث في الوزارة، أمام باب مكتب التسجيل بالذات، وينزل متلوياً على السلالم، حتى المدخل الرئيسي. لقد كان مشهداً يمزق القلب. وعندما انقطع المطر، في حوالي العاشرة صباحاً، تطاول الصف، أكثر من كوادرتين أخريين، في جادة خيمينث دي كيسادا. وكان لا يزال هناك متقدمون آخرون يلوذون بمداخل العمارات. بدا لي أنه من المستحيل الحصول على شيء، في ذلك التدافع للفوز.

بعد منتصف النهار بقليل، أحسست بطرقتين خفيفتين على كتفي. وكان قارئ السفينة النهم الذي تعرفَ عليّ، بين آخر الواقفين في الصف. ولكنني تكلفت جهداً في التعرف عليه، بقبعة الفطر التي يعتمرها، وملابس الكاتشاكو المأتمية. وبدا هو مستغرباً أيضاً، عندما سألني:

– أي لعنة تفعلها هنا؟

فأخبرته.

– يا للأمر الغريب – قال وهو يكاد يموت من الضحك، وأضاف: – تعال معي. وأخذني من ذراعي باتجاه الوزارة. عندئذ عرفت أنه الدكتور أدولفو غوميث تامارا، المدير الوطني للمنح المدرسية في وزارة التربية.

كانت المصادفة الأقل احتمالاً، وواحدة من أكثر المصادفات توفيقاً في حياتي. وبدعابة، من أكثر دعابات السلالة الطلابية صفاء، قدمني غوميث تامارا إلى مساعديه، على أنني أكثر مغني البوليرو الرومانسي إلهاماً. قدموا لي قهوة وسجلوني دون مزيد من الإجراءات. ولكن ليس دون أن ينبهوني، قبل ذلك، إلى أنهم لا يرمون بعملهم إلى تجاوز اللوائح. وإنما يدفعون أتاوة تلك المصادفة. أخبروني أن الامتحان العام سيكون يوم الاثنين التالي، في مدرسة سان بارتولومي. وكانوا يقدّرون أن هناك ألف متقدم من كل أنحاء البلاد، إلى حوالي ثلاثمئة وخمسين منحة. وهذا يعني أن المعركة ستكون طويلة وشاقة؛ وربما ضربة قاضية لأحلامي. المقبولون المحظوظون سيعرفون النتائج بعد أسبوع، ومعها المعلومات عن المدرسة التي سيُرسلون إليها. كان ذلك أمراً جديداً وحرجاً بالنسبة لي، إذ يمكن لهم أن يرسلوني إلى ميدلين أو بيتشادا. وأوضحوا

لي أن هذا الفرز الجغرافي، بالقرعة، إنما أقرّ لتنشيط الحركة الثقافية بين مختلف المناطق. وعندما انتهت الإجراءات، شدّ تامارا على يدي بالحماس نفسه الذي شكرني به على أغنية البوليرو، وقال لي:

– كن متيقظاً. مصيرك الآن بين يديك.

ولدى خروجي من الوزارة، عرض عليّ رجل له مظهر كهنوتي، أن يحصل لي على منحة مؤكدة، دون التقدم إلى امتحان القبول؛ وفي المدرسة التي أرغب فيها، مقابل دفع خمسين بيزو. كان المبلغ ثروة بالنسبة لي. ولكنني أظن أني كنت سأدفعه، لو أنني أملكه، كي أتجنب رعب الامتحان. وبعد بضعة أيام، تعرّفتُ على ذلك المحتال، في صورة منشورة في الجريدة، باعتباره زعيم عصابة نصابين يتنكرون بزي القساوسة، للقيام بصفقات غير مشروعة، في الأجهزة الرسمية.

لم أفرغ صندوق أمتعتي، ليقيني بأنهم سوف يرسلونني إلى أي مكان. وكان تشاؤمي راسخاً إلى حد أنني ذهبت، عشية الامتحان، مع موسيقيي السفينة، إلى حانة بائسة في حي لاس كروثيس الوعر. وكنا نغني مقابل الشراب، بسعر أغنية لكل كأس من التشيتشا، ذلك الشراب الرهيب من الذرة المخمرة، الذي يصفّيه السكيرون الذواقة بالبارود. وهكذا وصلتُ متأخراً، إلى الامتحان، ورأسي ينبض من الألم، دون أن أدري أين كنت، ولا حتى من الذي أوصلني إلى البيت، في الليلة السابقة. ولكنهم استقبلوني بدافع الشفقة، في صالة فسيحة ومزدحمة بالمتقدمين. وكان إلقاء نظرة عصفور سريعة على قائمة الأسئلة، كافياً لأن أدرك أنني مهزوم مسبقاً، لا محالة. ومن أجل إلهاء المراقبين فقط، شغلت نفسي بأسئلة العلوم الاجتماعية. وقد بدا لي أنها

الأقل قسوة. وفجأة أحسست بأن هالة إلهام تتلبسني، وتتيح لي ارتجال إجابات معقولة، ورميات إعجازية موفقة. باستثناء أسئلة الرياضيات، التي لم تَتَضحْ لي كما يشاء الرب. أما امتحان الرسم الذي أنجزته بسرعة، إنما بصورة جيدة، فكان مصدر راحتي. وقد قال لي زملائي الموسيقيون: "لا بد أنها معجزة شراب التشيتشا". أنهيت الامتحان على أي حال، وأنا في حالة استسلام نهائي، مع التصميم على كتابة رسالة إلى أبوي، حول الحقوق والأسباب، كيلا أعود إلى البيت.

قمت بواجب المراجعة، لمعرفة النتائج، بعد انقضاء أسبوع. ولا بد أن الموظفة قد تعرفت على إشارة ما في إضبارتي، لأنها اقتادتني، دون مسوغ، إلى حيث مديرها. وجدته رائق المزاج، يرتدي قميصاً قصير الأكمام، ويضع حمالتي سروال حمراوين مبهرجتين. راجع درجات امتحاني باهتمام احترافي، تردد مرة أو مرتين، ثم زفر أخيراً، وقال لنفسه:

– ليس سيئاً. اللهم إلا في الرياضيات. ولكنك نجوت، بشعرة، بفضل الدرجات الخمس في الرسم.

دفع نفسه إلى الوراء، في الكرسي ذي النوابض، وسألني عن المدرسة التي فكرتُ فيها.

كانت تلك إحدى لحظات رعبي التاريخية، ولكنني لم أتردد:

– مدرسة سان بارتولومي، هنا في بوغوتا.

فوضع راحته على كدسة أوراق موضوعة على مكتبه.

– كل هذه هي رسائل من الوزن الثقيل، توصي بأبناء أو أقرباء أو أصدقاء، لفرزهم إلى مدارس هنا، في العاصمة – قال ذلك، ثم انتبه

إلى أنه ما كان عليه أن يقوله، فواصل:- إذا ما سمحتَ لي فسوف أساعدك. أفضل ما يناسبك هي المدرسة الوطنية في ثيباكيرا، على بُعد ساعة في القطار.

الشيء الوحيد الذي كنت أعرفه عن تلك المدينة التاريخية، هو أن فيها مناجم ملح. وقد أوضح لي غوميث تامارا أن مدرستها تعود إلى العهد الاستعماري. وقد جرى الاستيلاء عليها، من جمعية دينية، في عملية إصلاح ليبرالي حديثة. وفيها الآن، قائمة ممتازة من الأساتذة الشبان ذوي العقلية الحديثة. فكرت في أن الواجب يفرض علي، أن أخرجه من شكوكه، فقلت له منبهاً:

- ولكن والدي من المحافظين.

فقال:

- لا تأخذ الأمر بهذه الجدية. فما أعنيه بليبرالي، هو سعة أفق التفكير.

وسرعان ما استعاد أسلوبه الخاص، وقرر أن مصيري سيكون في ذلك الدير القديم الذي يرجع إلى القرن السابع عشر، والمتحول إلى مدرسة زنادقة، في فيلا حالمة، لا وجود فيها لأي وسيلة لهو سوى الدراسة. كان الدير ينتصب، بالفعل، غير عابئ بالأبدية. لقد كانت هناك، في مراحله الأولى، لوحة محفورة في الحجر تقول: رأس الحكمة مخافة الله. ولكن هذا الشعار، استبدل، وحل محله الشعار الوطني الكولومبي، عندما أممت حكومة الرئيس ألفونسو لوبيث بوماريخو التعليم، سنة ١٩٣٦ . ومذ كنت في دهليز المدخل، وبينما أنا أستعيد أنفاسي من الاختناق بثقل الصندوق، أحسست بالانقباض، حين رأيت

الفناء الصغير ذا الأعمدة الكولونيالية المنحوتة من الحجر الصلد، والشرفات الخشبية المطلية بالأخضر، وعلى حوافها أصص أزهار كئيبة. كل شيء، كان يبدو خاضعاً لنظام طائفة دينية بعينها، ويُلحظ في كل شيء، بصورة واضحة، أنه لم يعرف تسامح يدي امرأة منذ أكثر من ثلاثمئة سنة. داهمني رعبٌ أنني سأعيش السنوات الأربع الحاسمة من مراهقتي، في ذلك الزمن الراكن، وأنا الذي ترعرعت على سوء تربية فضاءات منطقة الكاريبي التي لا تخضع لقانون.

ما زلت حتى اليوم، لا أصدق أن طابقين، حول فناء صامت، وبناءً مرتجلاً آخر، من الحجر في قطعة الأرض القصوى، يمكن لها أن تتسع لمنزل ومكتب المدير، والسكرتيريا الإدارية، والمطبخ، وقاعة الطعام، والمكتبة، وقاعات الدرس الست، ومختبر الفيزياء، والكيمياء، والمستودع، والحمامات ودورات المياه، وقاعة النوم المشتركة ذات الأسرة الحديدية المتراكمة، لحوالي خمسين تلميذاً، جيء بهم جرجرة، من أشد ضواحي البلاد غماً، وقلة قليلة من أبناء العاصمة. ولحسن الحظ أن شرط المنفى ذاك، كان نعمة أخرى لنجمي الطيب. فقد عرفت بفضله، جيداً وسريعاً، كيف هي البلاد التي كانت من نصيبي في قُرعة العالم. فمع نصف دزينة الكاريبيين الذين تبنوني، كواحد منهم، منذ وصولي، وتبنيتهم أنا أيضاً بالطبع، كنا نقوم بتمييز لا مناص منه، بيننا وبين الآخرين: أبناء العاصمة والغرباء.

مختلف الجماعات الموزعة في أركان الفناء، منذ استراحة الليلة الأولى، كانوا نموذجاً غنياً يمثل الأمة. لم تكن هناك خصومات مادام كل واحد في ميدانه. وكانت علاقاتي المباشرة مع المتحدرين من ساحل

الكاريبي، ممن كنا مشهورين، عن جدارة، بأننا صاخبون، متعصبون لتضامن الجماعة، ومولعون بالرقص. وقد كنتُ استثناءً من تلك القاعدة. ولكن أنطونيو مارتينث سييرا، وهو راقص رومبا، من كارتاخينا، علّمني الرقصات الرائجة، خلال الاستراحات الليلية. وكذلك فعل ريكاردو غونثالث ريبول، شريكي الكبير في إبحاراتي السرية، الذي صار مهندساً معمارياً مشهوراً. ولكنه لم يقطع، مع ذلك قط، الأغنية التي يدندن بها من بين أسنانه، بصوت لا يكاد يكون مسموعاً. وظل يرقص وحيداً حتى آخر أيامه.

مينتشو بورغوس، عازف البيانو الفطري، الذي توصل إلى أن يكون مايسترو أوركسترا وطنية للرقص، أسس فريق غناء المدرسة، ورغب في أن أتعلم معهم العزف على آلة موسيقية ما. وقد علمني سرّ الصوت الثاني في غناء البوليرو وأغنيات الفايناتو. ومع ذلك، فإن مأثرته الكبرى هي تدريب غييرمو لوبيث غيرا، البوغوتي الصافي، على الفن الكاريبي، في عزف الرموز الموسيقية، وهي مسألة ثلاثة اثنين، ثلاثة اثنين.

أما هومبيرتو خايمس، فكان دارساً مجتهداً لم يهتم بالرقص قط. يضحي بعطلات نهاية الأسبوع، ويظل يدرس في المدرسة. وأظن أنه لم يرَ قط، كرة قدم ولم يقرأ وصفاً لأي نوع من المباريات الرياضية. إلى أن تخرج مهندساً في بوغوتا، ودخل جريدة التيمبو، كمحرر رياضي متدرب، حيث توصل إلى أن يكون واحداً من أفضل معلقي كرة القدم في البلاد. ولكن أغرب حالة أتذكرها، هي دون شك، حالة سيلفيو لونا، وهو أسمر داكن من تشوكو، تخرج محامياً، ثم بعد ذلك طبيباً،

وكان يستعد لبدء دراسة ثالثة، عندما توارى عن نظري، ولم أعد أراه.

دانييل روثو - باغوثيو - تصرف على الدوام، كعالم في كل ميادين العلوم الإنسانية واللاهوتية. وكان يغدق منها دون حساب، في الدروس والاستراحات. وكنا نلجأ إليه على الدوام، ليطلعنا على أحوال العالم، خلال الحرب العالمية التي كنا نتابعها بعض المتابعة، من خلال الإشاعات. إذ لم يكن مسموحاً دخول الصحف أو المجلات بانتظام، إلى المدرسة. أما المذياع، فلم نكن نستخدمه إلا للرقص، كل واحد منا يرقص مع زميل آخر. ولم يُتح لنا قط، أن نعرف من أين يأتي باغوثيو بمعاركه التاريخية التي يخرج منها الحلفاء منتصرين، دوماً.

وربما كان سيرخيو كاسترو - دي كيتامي - أفضل تلميذ في كل سنوات المدرسة. وقد أحرز، دوماً، أعلى الدرجات منذ دخوله. ويبدو لي أن سره هو نفسه الذي نصحتني به مارتينا فونسيكا، في مدرسة سان خوسيه: لم يكن يضيع كلمة واحدة من المعلم أو من مداخلات زملائه في الدروس. ويدون ملاحظات حتى عن أنفاس الأساتذة، ويرتبها في دفتر متقن. وربما هذا هو السبب في أنه لم يكن يحتاج إلى وقت، لكي يحضّر للامتحانات. ويقرأ كتب المغامرات، في عطلة نهاية الأسبوع، بينما نحن الآخرين، نفني أنفسنا في الدراسة.

أكثر أصدقائي مواظبة في الاستراحات، هو البوغوتي الخالص ألفارو رويث توريس الذي كان يتبادل معي الأخبار اليومية عن الخطيبات في الاستراحة الليلية، بينما نحن نمشي بخطوات عسكرية في الفناء. ومن الأصدقاء الآخرين، خايمي برافو، وهومبيرتو غييّن، وألفارو بيدال بارون، الذين كنتُ على علاقة جيدة بهم في المدرسة. وواصلنا

اللقاء معاً، طوال سنوات في الحياة الواقعية. كان ألفارو رويث يذهب إلى بوغوتا، في نهاية كل أسبوع، لزيارة أسرته. ويرجع مُمَوِّناً بالسجائر وأخبار الخطيبات. وكان هو من شجعني على إدمان هذين الأمرين، خلال الوقت الذي درسنا فيه معاً. ومن أهدى إليّ في هاتين السنتين الأخيرتين، أفضل ذكرياته، لينعش في ذاكرتي هذه المذكرات.

لست أدري ما الذي تعلمته في الواقع، خلال السجن في ذلك المعهد الوطني. ولكن أربع سنوات من المعايشة حسنة الانسجام مع الجميع، ألهمتني رؤيةً لوحدويّة الأمة. واكتشفت كم كنا متعددين، وما هي فائدتنا. وتعلمت ما لن أنساه أبداً، بأنه في جوهر كل واحد منا، توجد البلاد بأسرها. وربما كان هذا هو ما أرادوا قوله لي في الوزارة، حول التنقلات، بين المناطق التي ترعاها الحكومة. وبعد أن بلغت سن النضج، دُعيت إلى كابينة قيادة طائرة عابرة للمحيط. وكانت أول كلمات وجهها إليّ كابتن الطائرة، هي سؤالي من أين أنا. وقد كان سماعي لتلك الكلمات، كافياً لأن أقول له:

- إنني ساحلي، بقدر ما أنت سوغسموسي.

فقد كان له الأسلوب نفسه، والإيماءات نفسها، ومادة الصوت نفسها التي لماركو فيدل بويًا، زميلي في مقعد السنة الرابعة، في تلك المدرسة. ضربة الحدس تلك، علمتني الإبحار في مستنقعات ذلك المجتمع الذي لا يمكن توقع مفاجآته، حتى وأنا بلا بوصلة وبعكس التيار. وربما كانت مفتاحاً يفتح كل الأبواب في مهنتي، ككاتب.

كنت أشعر، كما لو أنني أعيش حلماً. ذلك أنني لم أكن أتطلع إلى المنحة، لأنني أريد الدراسة. وإنما، من أجل الحفاظ على استقلالي عن

أي التزام آخر، دون الإساءة إلى علاقتي بالأسرة. ووجود ثلاث وجبات مضمونة، يكفي لافتراض أننا كنا نعيش في ملاذ الفقراء ذاك، أفضل من الحياة في بيوتنا، تحت رقابة ذاتية أقل صرامة من السلطة المنزلية. كان يسود قاعة الطعام نظام سوق يتيح لكل واحد منا، ترتيب الوجبة على هواه. دون أن تكون للنقود أي قيمة. فقد كانت بيضتا الفطور المسلوقتان هما العملة التسعيرية، إذ يمكن بهما، شراء أي طبق آخر من الوجبات الثلاث. وكان لكل شيء قيمته العادلة، ولم يكن هناك ما يعكر تلك التجارة الشرعية. بل أكثر من ذلك: فأنا لا أتذكر نزاعاً واحداً بلغ حد تبادل اللكمات، لأي سبب، خلال أربع سنوات من الدراسة الداخلية.

ولم يكن المعلمون الذين يأكلون على مائدة أخرى، في القاعة نفسها، بعيدين عن تلك المقايضات الشخصية، فيما بينهم. لأنهم ما زالوا يجرجرون عادات مدارسهم التي تخرجوا منها حديثاً. وكان معظمهم عازبين، يعيشون هناك بلا زوجات. ورواتبهم ضئيلة، مثل المبالغ الشهرية التي ترسلها لنا أسرنا، تقريباً. فكانوا يشكون من الطعام، لأسباب كثيرة مثلنا. وفي إحدى الأزمات الخطرة، اقتربنا من إمكانية التوافق مع بعضهم، على إضراب عن الطعام. ولكنهم عندما كانوا يتلقون هدايا، أو يستقبلون زائرين من الخارج فقط، تُقدم لهم بأطباق ملهمة، مما يُفسد المساواة. وكان هذا ما حدث، ونحن في السنة الرابعة، عندما وعدنا طبيب المدرسة بإحضار قلب جاموس، لدراسته في دورة التشريح التي يشرف عليها. وفي اليوم التالي، أرسل القلب إلى ثلاجات المطبخ، وهو لا يزال طازجاً ودامياً. ولكننا لم نجده هناك عندما

ذهنيا لإحضاره للدرس. ثم تبين، في اللحظة الأخيرة، أن الطبيب، عندما لم يجد قلب جاموس، أرسل قلب عامل بناء، بلا أهل، سقط مهشماً من طابق رابع. ونظراً لأن القلب لا يكفي للجميع، قام الطهاة بإعداده مع صلصات، شهية معتقدين أنه قلب الجاموس الذي طُلب منهم طهوه لمائدة الأساتذة. أظن أن تلك العلاقات المتدفقة، بين الأساتذة والطلاب، كانت مرتبطة بحركة إصلاح التعليم التي لم يبق منها إلا القليل للتاريخ، ولكنها أفادتنا على الأقل، في تبسيط البروتوكول. فتقلصت الفوارق في السن، وأُهمل استخدام ربطة العنق، ولم يعد هناك من يصاب بالذعر، لأن المعلمين والطلاب يتناولون بضعة كؤوس معاً، ويذهبون، في أيام السبت، إلى الرقص، مع الخطيبات معاً.

هذا الجو، لم يكن ممكناً، إلا مع نوع من المعلمين يسمحون، عموماً، بعلاقة شخصية سلسلة. فأستاذ الرياضيات، بسعة معارفه وحس سخريته اللاذع، يحوّل الدرس إلى حفلة مخيفة. كان يدعى خواكين خيرالدو ساناتا، وهو أول كولومبي حصل على درجة دكتوراه في الرياضيات. ومن سوء حظي، رغم جهودي وجهوده الجبارة، لم أتوصل قط، إلى الاندماج بدرسه. كان من عادته القول آنذاك، إن الميول الشعرية تتداخل مع الرياضيات، وإن الأمر لا ينتهي بأحدنا، إلى تصديق ذلك وحسب، وإنما الغرق فيه. وربما كانت الهندسة أكثر رحمة، بفعل وفضل سمعتها الأدبية. أما الحساب، بالمقابل، فيتصرف بتبسيط عدائي. وأنا مازلت أجد نفسي حتى اليوم، عندما أريد إجراء عملية جمع ذهنية، مضطراً إلى تفكيك الأعداد، إلى أبسط مكوناتها، وبخاصة السبعة والتسعة، اللذين لم أستطع حفظ جدولهما قط. ولكي

أجمع سبعة وأربعة، أحذف اثنين من السبعة، وأجمع الأربعة إلى الخمسة المتبقية، ثم أعود أخيراً، لجمع الاثنين المحذوفين من السبعة: "أحد عشر!". أما عمليات الضرب، فبقيت تخونني دوماً، لأنني لم أستطع قط، تذكر الأعداد التي في ذاكرتي. وقد كرست للجبر، أفضل ما لدي من حماس، ليس احتراماً لروحه الكلاسيكية وحسب، وإنما حباً بمعلمي وخوفاً منه. ولكن دون جدوى. فقد كانوا يوبخونني في كل فصل دراسي، وقد تأهلت فيه مرتين، وخسرته في محاولات أخرى غير مشروعة، فكانوا يمنحونني النجاح فيه، كصدقة.

ثلاثة معلمين آخرين متفانين هم معلمو اللغات. الأول - معلم الإنكليزية - هو مستر آبيلا: كاريبي صاف، بنطق أوكسفوردي متقن، وغيرة كنسية تجاه معجم ويبسترز الذي كان يتلوه، وهو مغمض العينين. وكان خليفته هو هيكتور فيغيروا، معلم شاب طيب، لديه هوى محموم بأغنيات البوليرو التي كنا نغنيها بأصوات متعددة في الاستراحات. لقد بذلت أفضل ما أستطيعه، في سبات الدروس وفي الامتحان النهائي، ولكنني أظن أن درجتي الجيدة لم تكن بفضل شكسبير، بقدر ما هي بفضل [مغنيي البوليرو] ليو مارينى وهوغو روماني، المسؤولين عن الكثير من فراديس الحب وانتحاراته. أما معلم اللغة الفرنسية، طوال أربع سنوات؛ المنسنيور أنطونيو يبلا ألبان، فوجدني مسمماً بالروايات البوليسية. وكانت دروسه تضجرني، كما هي دروس الآخرين جميعهم. ولكن اقتباساته المناسبة من فرنسية الشوارع، ساعدتني كثيراً، في النجاة من الموت جوعاً في باريس، بعد عشر سنوات من ذلك.

معظم المعلمين كانوا قد تكوّنوا في دار المعلمين العليا، بإدارة

الدكتور خوسيه فرانثيسكو سوكاراس، وهو عالم نفس من سان خوان دي سيسر، عكف على تغيير التربية الكهنوتية التي سادت، طوال قرن من الحكومات المحافظة، ليُحلّ محلها تربية عقلانية إنسانية. فكان مانويل كويبّو دل ريو، ماركسياً راديكالياً. وربما لهذا السبب نفسه، كان يقدّر لين يوتانغ، ويؤمن بظهور الموتى. وكانت مكتبة كارلوس كالديرون، التي تتصدرها أعمال ابن بلدته خوسيه إوستاسيو ريفيرا، مؤلف رواية "الدوامة"، موزعة بالتساوي، بين الكلاسيكيين الإغريق، والشعراء "الحجر سماويين" المحليين، ورومنسيي كل الأنحاء. وبفضل هؤلاء وأولئك، كنا نحن القراء القليلين المواظبين، نقرأ سان خوان دي لاكروث أو خوسيه ماريا بارغاس بيلا. ولكننا كنا نقرأ كذلك، مؤلفات رسل الثورة البروليتارية. فأستاذ العلوم الاجتماعية غونثالو أوكامبو، كان يملك في غرفته، مكتبة سياسية جيدة، يجري تداولها دون نوايا خبيثة، في قاعات درس التلاميذ الكبار. ولكنني لم أفهم قط، لماذا كنا ندرس "أصل الأسرة والملكية الخاصة والدولة" لفريدريك إنجلس، في أمسيات الاقتصاد السياسي الجافة، وليس في دروس الأدب، باعتبارها ملحمة مغامرة إنسانية جميلة. لقد قرأ غييرمو لوبيث غيرا، في الاستراحات، كتاب "أنتي دوهرنغ" لإنجلس أيضاً. وكان قد استعاره من الأستاذ غونثالث أوكامبو. ومع ذلك، عندما طلبتُ استعارته، لكي أتناقش فيه مع لوبيث غيرا، قال لي أوكامبو إنه لن يقدم لي هذا الجميل البغيض، بإعارتي ذلك المجلد الضخم والأساسي لتقدم الإنسانية، إنما الطويل والممل جداً إلى حدٍ، ربما سيحول دون دخوله التاريخ. وربما أسهمت تلك المبادلات الأيديولوجية بسوء سمعة المعهد، واعتباره مختبر إفساد

سياسي. ومع ذلك، فقد احتجت لنصف حياة لكي أنتبه إلى أنها كانت أقرب إلى تجربة عفوية وتلقائية، لاستبعاد الضعفاء، وتلقيح الأقوياء، ضد أي نوع من الدوغمائية.

علاقتي الأكثر مباشرة كانت دوماً مع الأستاذ كارلوس خوليو كالديرون، معلم اللغة القشتالية في السنوات الأولى، ومعلم الأدب العالمي في السنة الرابعة، والأدب الإسباني في السنة الخامسة، والأدب الكولومبي في السنة السادسة، ومعلم شيء غريب عن تكوينه وعن ذوقه: المحاسبة. لقد ولد في نيفا، عاصمة إقليم هويلا، ولم يكن يتعب من الإعلان عن تقديره الوطني للكاتب خوسيه إوستاسيو ريفيرا. وقد اضطر إلى قطع دراسة الطب والجراحة. وكان يتذكر ذلك على أنه إحباط حياته. ولكن شغفه بالفنون والآداب كان جارفاً. وقد كان أول معلم ينسف مسوداتي بملاحظاته وتوجيهاته المناسبة.

وعلى أي حال، كانت العلاقة بين التلاميذ والمعلمين، تجري بطبيعية استثنائية، ليس في الدروس وحسب، وإنما في فناء الاستراحة، بعد العشاء، بصورة خاصة. فكان ذلك يتيح تعاملاً مختلفاً عن الذي اعتدنا عليه، ومواتياً بكل تأكيد لأجواء الاحترام والرفاقية التي كنا نعيشها.

إنني مدين بإحدى المغامرات المرعبة لأعمال فرويد الكاملة، التي وصلت إلى المكتبة آنذاك. لم أكن أفهم، بكل تأكيد، شيئاً من تحليلاته العويصة. ولكن عرضه للحالات السريرية كان يحبس أنفاسي حتى النهاية، مثل خيال جول فيرن. طلب منا المعلم كالديرون أن نكتب قصة قصيرة بموضوع حر، في حصة اللغة القشتالية. وخطرت لي قصة مريضة نفسية في حوالى السابعة من عمرها وبعنوان مدع، يمضي في اتجاه

معاكس للشعر: "عقدة نفسية هاجسية". طلب المعلم قراءة القصة في الدرس. واستنكر جاري في المقعد، أوريليو بريتو، دون تحفظ، غرور الكتابة دون أدنى تكوين علمي أو أدبي حول تلك المسألة بالغة التعقيد. فأوضحت له، بحقد أكثر من التواضع، بأنني أخذت الموضوع من حالة سريرية يصفها فرويد في مذكراته، وأن همي الوحيد هو استخدامها لكتابة الواجب المدرسي. وربما ظن المعلم كالديرون بأنني ساخط من الانتقادات القاسية التي وجهها عدد من زملائي في الصف، فاستدعاني جانباً، في الاستراحة، ليشجعني على المواصلة قدماً، في الطريق نفسه. وأشار إلى أنه يبدو جلياً في قصتي، أنني أجهل تقنيات القصة الحديثة. ولكنني أمتلك مع ذلك، الفطرة والرغبة. ورأى أن القصة مكتوبة جيداً، وبنوايا أصيلة على الأقل. وقد حدثني لأول مرة، عن البلاغة. قدم لي بعض الحيل العملية في الأسلوب والنظم، لتثبيت الأمور، دون مزاعم وادعاءات. وانتهى إلى القول إنه عليّ في كل الأحوال، أن أثابر على الكتابة، ولو من أجل صحتي الذهنية وحسب. وكانت تلك هي أولى المحادثات المطولة التي دارت بيننا، خلال سنواتي في المعهد، في الاستراحات وفي ساعات الفراغ الأخرى. وأدين لها بالكثير في حياتي، ككاتب.

لقد كان ذاك هو جوي المثالي. فمنذ مدرسة سان خوسيه، تجذّر لديّ إدمانُ قراءة كل ما يقع بين يدي. وصرتُ أشغل وقت فراغي وكل وقت الدروس تقريباً، في القراءة. وفي السادسة عشرة من عمري، كنت قادراً، بنطق إملائي سليم أو من دونه، على ترديد القصائد التي تعلمتها في مدرسة سان خوسيه، دون أن ألتقط أنفاسي. كنتُ أقرؤها

وأعيد قراءتها، دون مساعدة أو ترتيب، وخفية في معظم الأحيان خلال الدروس. أظن أنني قرأت كامل مكتبة المعهد التي لا يمكن وصفها، والمؤلفة من فضلات مكتبات أخرى قليلة الجدوى: مجموعات كتب رسمية، وميراث أساتذة فقدوا الشهية إلى القراءة، وكتب لا ريب في أنها وصلت إلى الشاطئ من سفينة غارقة لم يدر بها أحد. لا يمكنني أن أنسى مجموعة "المكتبة الريفية" التي أصدرتها دار نشر مينيرفا، بإشراف دون دانييل سامبر أورتيغا، ووزعتها وزارة التربية على المدارس والمعاهد. لقد كانت مجموعة من مئة مجلد، تضم كل ما هو جيد، وأسوأ ما كتب في كولومبيا حتى ذلك الحين. فقررت قراءتها، وفق تسلسلها الرقمي، إلى حيث سمحت به روحي. والأمر الذي ما زال يرعبني حتى الآن، هو أنني كنت على وشك الانتهاء منها، خلال السنتين الأخيرتين. ولم أستطع خلال حياتي التالية، أن أحسم إذا ما كانت قد أفادتني في شيء.

الفجر في قاعة النوم، كان له شبه مريب بالسعادة، لولا الجرس القاتل الذي يرن كناقوس خطر - مثلما اعتدنا أن نقول - في الساعة السادسة من منتصف الليل. وكان اثنان أو ثلاثة من المتخلفين ذهنياً فقط هم الذين يقفزون من أسرتهم، ليكونوا الأوائل في الدور، على دوشات الماء الجليدي الستة، في حمام قاعة النوم. أما نحن البقية، فكنا نستغل الفرصة، لعصر آخر قطرات النعاس، إلى أن يأتي المعلم المناوب ويجوب القاعة، منتزعاً البطانيات عن النائمين. لقد كانت ساعة ونصف الساعة من الحميمية المكشوفة، من أجل ترتيب الفراش، وتلميع الأحذية، والاستحمام بدوش الجليد الذائب الذي يسيل من أنبوب دون

مرشة، بينما كل واحد منا يُفرّج عن إحباطاته صارخاً، ويسخر من الآخرين، فتُنتهك أسرار غرامية، وتعقد صفقات ومماحكات، وتبرم المقايضات التي ستتم في قاعة الطعام. وكان موضوع المناقشات الصباحية الدائم، هو الفصل الذي قُرِئ، في الليلة السابقة.

كان غييرمو غراناداس يطلق العنان، منذ الفجر، لمزاياه، كمغني تينور، في الشدو بقائمته غير المتناهية من أغنيات التانغو. وكنت أشكّل ثنائياً مع جاري في قاعة النوم، ريكاردو غونثالث ريبول، لغناء أغنيات الغواراتشا الكاريبية، على إيقاع الخرقة، أثناء تلميع أحذيتنا، عند رأس السرير، بينما زميلي ساباس كاربايّو يذرع قاعة النوم، من أقصاها إلى أقصاها، مثلما ولدته أمه، وهو يعلق منشفة على عضوه الذي من الإسمنت المسلح.

لو كان ممكناً، لهرب عدد لا بأس به منا، نحن الداخليين، حتى الفجر، لإنجاز مواعيد متفق عليها في نهاية الأسبوع. لم يكن هناك حراس ليليون، ولا أساتذة في قاعة النوم، باستثناء الأستاذ الأسبوعي المناوب، وبواب المعهد الأبدي، ريفيريتا الذي كان في الواقع، ينام مستيقظاً، طوال الوقت، بينما هو ينجز واجباته اليومية. لقد كان يعيش في الحجرة التي عند المدخل، ويقوم بمهنته على أحسن وجه. ولكننا كنا نتمكن في الليل، من فتح باب الكنيسة الهائل، وإغلاقه دون ضجة، والاستمتاع طيلة الليل في بيت غريب، والعودة قبل الفجر، عبر الشوارع الجليدية. ولم نعرف قط، إذا ما كان ريفيريتا ينام حقاً كالميت، مثلما كان يبدو، أم أن تلك هي طريقته المهذبة في التواطؤ مع فتيانه. لم يكن عدد من يهربون كبيراً. وكانت أسرارهم تتعفن في ذاكرة

زملائهم المتواطئين معهم بإخلاص. لقد عرفت بعض من كانوا يهربون بصورة روتينية، وآخرين يتجرؤون على الذهاب، مرة، متسلحين بالشجاعة التي يبثها توتر المغامرة، ويرجعون مستنفدين من الرعب. ولكننا لم نعلم قط أن هناك من انكشف أمره.

العائق الاجتماعي الوحيد الذي عانيتُ منه في المدرسة، هو الكوابيس المشؤومة التي ورثتها عن أمي، والتي كانت تبرز فجأة، في أحلام الآخرين، على شكل صرخات من وراء القبر. جيراني في الأسرة، كانوا يعرفونها جيداً، ولا يخشونها، إلا بسبب رعب الصرخة الأولى في هدأة الفجر. وكان المعلم المناوب الذي ينام في قمرة من الكرتون، يتجول مسرعاً، من أقصى قاعة النوم إلى أقصاها، إلى أن يستتب الهدوء من جديد. لم تكن أحلاماً لا يمكن التحكم بها وحسب، وإنما كانت لها علاقة كذلك بعذاب الضمير، لأنها جرت لي في مناسبتين، في بيوت التهتك والضلال. ولم يكن بالإمكان حل رموزها أيضاً، لأنها لم تكن ترد في أحلام مرعبة. وإنما على العكس من ذلك، في سياق أحداث سعيدة، مع أشخاص معروفين أو في أماكن مألوفة. وسرعان ما تكشف لي نظرة بريئة عن تفصيل مشؤوم. ولم يكن بالإمكان، مقارنة كابوسي بأحد كوابيس أمي، حين كانت ترى رأسها موضوعاً في حضنها، وهي تفليه من القمل والصئبان التي لا تتيح لها النوم. ولم تكن صرخاتي صرخات رعب، وإنما نداءات استغاثة، لكي يُحسن أحد إليّ ويوقظني. ولم يكن هناك في قاعة النوم متسع لأي تعمق في الكابوس، لأن الوسائد كانت تنهمر عليّ، عند أول أنّة، منطلقة من الأسرة المجاورة. فأستيقظ لاهثاً، وبقلب مضطرب، إنما سعيد لكوني ما أزال حياً.

أفضل ما في المعهد، هو القراءات بصوت عالٍ، قبل النوم. كنا قد بدأنا تلك القراءات، بمبادرة من الأستاذ كارلوس خوليو كالديرون، وبقصة لمارك توين، يتوجب على تلاميذ السنة الخامسة قراءتها من أجل امتحان مستعجل، في الساعة الأولى من صباح اليوم التالي. قرأ الأستاذ الصفحات الأربع بصوت عالٍ، من حجرته المفصولة بحاجز من الكرتون، لكي يتمكن التلاميذ الذين لم يتوفر لهم الوقت لقراءتها، من تدوين ملاحظات عنها. وكان الاهتمام كبيراً، إلى حدّ فرضت معه تلك العادة بالقراءة بصوت عالٍ، نفسها كل ليلة، قبل النوم. لم يكن الأمر سهلاً في البداية، لأن أستاذاً منافقاً اقترح الانتقائية في اختيار الكتب التي ستُقرأ، وتهذيبها من الكلام الفاجر. ولكن خطر وقوع تمرد، دفعهم إلى تفويض التلاميذ الكبار، بمهمة الاختيار.

بدأت القراءات، بنصف ساعة كل يوم. فكان الأستاذ المناوب يقرأ من حجرته جيدة الإضاءة الموجودة عند مدخل قاعة النوم العامة، وكنا في أول الأمر، نُسكته بشخير ساخر، حقيقي أو متصنع، ولكنه يستحقه دوماً. ثم امتد وقت القراءة فيما بعد، إلى ساعة، حسب أهمية القصة. وبدأ الطلاب يحلون محل الأساتذة، في مناوبات أسبوعية. وقد بدأت الأزمنة الطيبة، عند قراءة "نوستراداموس" و"ذو القناع الحديدي"، التي أعجبت الجميع. أما ما لم أستطع تفسيره حتى الآن، فهو النجاح المدوي الذي لقيته رواية "الجبل السحري" لتوماس مان، والتي تطلبت تدخل المدير، لمنعنا من قضاء الليل مستيقظين، بانتظار قبلة هانز كاستروب وكلوديا تشاوشات. أو ترقبنا الفريد جميعنا، ونحن جالسون في الأسرّة، كيلا نضيّع كلمة واحدة من المبارزة الفلسفية المبهمة، بين نابثا

وصديقها ستيمبريني. وقد استمرت القراءة، في تلك الليلة، أكثر من ساعة. واحتُفي بها في قاعة النوم، بعاصفة من التصفيق.

المعلم الوحيد الذي ظل واحدة من أكبر الأحجيات في شبابي، هو المدير الذي وجدته هناك، عند وصولي. كان اسمه أليخاندرو راموس، وكان فظاً ومتوحداً. يضع نظارة ذات زجاج سميك، تبدو كأنها نظارة أعمى. وله سلطة غير استعراضية، تُثقل عليها كل كلمة ينطق بها، مثل لكمة حديدية. كان ينزل من ملجئه في السابعة صباحاً، للتفتيش على نظافتنا الشخصية، قبل دخولنا إلى قاعة الطعام. وكان يرتدي ملابس لا تشوبها شائبة، ذات ألوان زاهية، وياقة منشاة كأنها من السيلولويد مع ربطة عنق بهيجة، وحذاء لامع. وكان يسجل أي خطأ في نظافتنا الشخصية، بزمجرة تعتبر أمراً بالعودة إلى قاعة النوم، لتصحيح الخطأ.

أما خلال بقية اليوم، فيعتكف في مكتبه في الطابق الثاني، ولا نعود لرؤيته حتى صباح اليوم التالي، في الساعة نفسها، أو حين يخطو الاثنتي عشرة خطوة، بين مكتبه وقاعة السنة السادسة، حيث يعطي درسه الوحيد في الرياضيات، ثلاث مرات في الأسبوع. وكان تلاميذه يقولون إنه عبقري في الأرقام، ومرح في الدروس، وإنه يذهلهم بحكمته، ويبعث فيهم الرجفة، من رعب الامتحان النهائي.

بعد وقت قصير من مجيئي، كان علي أن أكتب الخطاب الافتتاحي، لأحد احتفالات المعهد الرسمية. وقد وافق معظم المعلمين على موضوعي، ولكنهم اتفقوا جميعهم على أن الكلمة الأخيرة في مثل هذه الحالات، تبقى للمدير. كان يقيم في أقصى المدرسة، في الطابق الثاني. ولكنني عانيت من تلك المسافة، كما لو أنها رحلة حول العالم سيراً على الأقدام.

كنتُ قد نمتُ بصورة سيئة، في تلك الليلة، ووضعت ربطة عنق أيام الآحاد، ولم أكد أتمكن من تذوق الفطور. طرقتُ طرقاً خفيفاً جداً على باب الإدارة الذي لم يفتحه لي المدير، إلا بعد الطرق للمرة الثالثة. وأفسح لي الطريق للدخول دون أن يحييني. وكان ذلك من حسن حظي، لأني ما كنت سأجد صوتاً للرد عليه. ليس بسبب جفائه وحسب، وإنما بسبب مهابة وترتيب وجمال مكتبه ذي الأثاث المصنوع من أخشاب ثمينة ومخمل، وجدرانه المغطاة بخزائن مذهلة تضم كتباً ذات أغلفة جلدية. انتظر المدير، بتمهل رسمي، إلى أن استعدت أنفاسي. ثم أشار إلى بالجلوس على كرسي، قبالة منضدة مكتبه، وجلس هو على مقعده.

كنت قد هيأت توضيحاً لسبب زيارتي، بالاهتمام نفسه الذي أعددت به الخطبة. استمع إليّ بصمت، ووافق على كل كلمة بحركة من رأسه. ولكن دون أن ينظر إليّ، وإنما إلى الورقة التي ترتجف في يدي. وعند نقطة كنت أظنها مضحكة، حاولت أن أفوز منه بابتسامة، ولكن دون جدوى. بل أكثر من ذلك: فأنا واثق من أنه كان مطلعاً، مسبقاً، على هدف زيارتي. ولكنه أجبرني على توضيحه له.

وعندما انتهيت، مدّ يده من فوق المنضدة، وتلقى الورقة مني. نزع نظارته، ليقرأها باهتمام عميق. ولم يتوقف إلا لإجراء تصويبين اثنين، بريشة الكتابة. ثم أعاد وضع نظارته، وحدثني دون أن ينظر إلى عيني، بصوت حجري هزّ قلبي. قال لي:

– توجد هنا غلطتان. فقد كتبت: "كما انسجام نباتات بلادنا الوفيرة، التي عرّف بها ودرسها العالم الإسباني خوسيه ثيليستينو موتيس، في القرن الثامن عشر، نعيش في هذا المعهد، أجواءً

فردوسية". ولكن كلمة وفيرة (exhuberante) تُكتب من دون الحرف h، وكلمة فردوسية (paradisiaco) لا تحتاج إلى علامة التشديد فوق الحرف I.

أحسست بالمذلة. ولم أجد جواباً أرد به على ملاحظته، عن الكلمة الأولى. ولكن لم يكن يخامرني أدنى شك، بالنسبة إلى الكلمة الثانية، فأجبته على الفور بما تبقى لي من صوت:

– عذراً أيها السيد المدير، المعجم يورد كلمة فردوسية (paradisíaco) بالتشديد ومن دونه. ولكن نبرة التشديد بدت لي أقوى وقعاً.

لا بد أنه أحس بأنه قد اعتُدي عليه، مثلما أحسست أنا. ذلك أنه واصل عدم النظر إليّ، وهو يتناول المعجم من خزانة الكتب، دون أن يقول كلمة واحدة. انقبض قلبي، لأنه كان معجم أطلس الذي أهداني إياه جدي. إنما جديد ولامع، وربما لم يستخدم من قبل. ومنذ المحاولة الأولى، فتح الكتاب على الصفحة المطلوبة بالضبط. قرأ وأعاد قراءة المادة، ثم سألني دون أن يرفع بصره عن الصفحة:

– في أي سنة أنت؟

فقلت له:

– في الثالثة.

أطبق المعجم بضربة قوية، كأنها انطباق فخ، ونظر إلى عيني، أول مرة، وقال:

– برافو. استمر على هذا النحو.

ولم ينقصني، في ذلك اليوم، سوى أن يناديني زملائي في الصف، بطلاً. وبدؤوا يسمونني، بكل ما يمكن من سخرية "الساحلي الذي تكلم إلى المدير". ومع ذلك، فإن أكثر ما أثر بي في تلك المقابلة،

هو مواجهتي، مرة أخرى، لمأساتي الشخصية مع الإملاء. فأنا لم أستطع فهمه. وقد حاول أحد أساتذتي أن يُوجه إليّ الضربة القاضية، عندما قال لي إن سيمون بوليفار لا يستحق كل تلك الأمجاد، بسبب أخطائه الإملائية. بينما حاول آخرون مواساتي بالقول إنه داء يصيب كثيرين. وحتى اليوم، بعد أن صار لي سبعة عشر كتاباً منشوراً، ما زال مصححو تجاربي المطبعية، يشرفونني بكياسة تصويب أخطائي الإملائية، على أنها مجرد أخطاء مطبعية.

الحفلات الاجتماعية في ثيباكيرا تتناسب عموماً، مع ميول وأسلوب كل فرد. فمناجم الملح التي وجدها الإسبان مكشوفة هناك، كانت عامل جذب سياحي، في عطل نهاية الأسبوع، تستكمل مع اللحم في الفرن والبطاطا المثلجة، في مراجل ملح ضخمة. وكنا، نحن التلاميذ الداخليين الساحليين، بشهرتنا المُستحقة كصاخبين ومشاغبين، نتمتع بحسن التربية في الرقص، كفنانين على الموسيقى الدارجة، وبالذوق السليم، في الحب حتى الموت.

توصلتُ إلى أن أكون متطوعاً في كل شيء، إلى حدّ أنه في اليوم الذي علمنا فيه بانتهاء الحرب العالمية، خرجنا إلى الشوارع، في مظاهرة ابتهاج ترفع الأعلام واللافتات، وتطلق هتافات النصر. وعندما طلب أحدهم، متطوعاً لإلقاء الخطاب، خرجت دون تفكير في الأمر، إلى شرفة النادي الاجتماعي، قبالة الساحة الكبرى، وارتجلتُ الخطاب بصرخات مدوية، بدا للكثيرين أنني أحفظه عن ظهر قلب.

كان ذلك هو الخطاب الوحيد الذي وجدت نفسي مضطراً إلى ارتجاله في السبعين سنة الأولى من حياتي. وأنهيت خطابي بامتداح غنائي لكل

واحد من الأربعة الكبار. ولكن الذي لفت الانتباه في الساحة، هو امتداح رئيس الولايات المتحدة، وكان قد توفي قبل ذلك بقليل: "فرانكلن ديلانو روزفلت الذي يعرف، مثل السيد المتحول، كيف يكسب المعارك بعد موته". بقيت العبارة تطفو في المدينة لعدة أيام. وجرى استنساخها في لافتات الشوارع، وعلى صور روزفلت، في واجهات بعض المتاجر. وهكذا، فإن أول نجاح شعبي لي، لم يكن باعتباري شاعراً ولا روائياً، وإنما كخطيب. بل أسوأ من ذلك: كخطيب سياسي. ومنذ ذلك الحين لم يعد يقام احتفال في المعهد إلا ويطلبون مني الصعود إلى شرفة المنصة. غير أنها صارت، عندئذ، خطابات مكتوبة، ومصححة حتى النفس الأخير.

وقد أفادني ذلك الاستهتار، مع مرور الوقت، بإصابتي برعب مسرحي أوصلني إلى حد الصمت المطلق، سواء في حفلات الزفاف الكبرى أو في حانات عامة الهنود ذوي صنادل القنب، حيث كنا ننتهي على الأرض؛ وفي بيت بيرينسي الجميلة البعيدة عن الأحكام المسبقة، التي حالفها حسن الحظ بعدم الزواج مني، لأنها كانت مجنونة بحب شخص آخر؛ أو في مكتب التلغراف، حيث كانت ساريتا التي لا تُنسى تبعث، بالدين، برقيات غمّي، عندما يتأخر أبواي في إرسال مصروفي الشخصي. وقد دفعت لي أكثر من مرة قيمة الحوالات مقدماً، لتُخرجني من المآزق. ومع ذلك، فإن أقلهن بُعداً عن النسيان، لم تكن محبوبة أحد بعينه، وإنما حورية محبّي الشعر جميعهم. اسمها سيسيليا غونثالث بيثانو. وكانت ذات ذكاء لامع، وخفة ظل شخصية، وروح متحررة في أسرة من سلالة محافظة، وذاكرة خارقة لحفظ كل أنواع الشعر. كانت

تعيش قبالة بوابة المعهد، مع عمة أرستقراطية وعازبة، في منزل كولونيالي، تحيط به حديقة أزهار تتفتح مع شروق الشمس. كانت العلاقة معها في البدء، مقتصرة على المباريات الشعرية. ولكن سيسيليا انتهت إلى أن تكون رفيقة حياة حقيقية، وكانت تموت من الضحك على الدوام. وقد تسللت أخيراً، إلى دروس الأدب التي يلقيها المعلم كالديرون، بتواطؤ من الجميع.

خلال أزمنتي في آراكاتاكا، كنت أحلم بأن أعيش حياة سعيدة، بالغناء، متنقلاً من مهرجان شعبي إلى آخر، مزوداً بأكورديون وبصوت جيد. وكان يبدو لي أنها أقدم الطرق وأبهجها، لقص حكاية. فإذا كانت أمي قد تخلت عن البيانو، لكي تنجب أبناء، وعلق أبي الكمان ليتمكن من إعالتنا، فإنه من العدل تقريباً، أن يستشعر أكبر أبنائهما تلك السوابق الطيبة، ليموت جوعاً مقابل الموسيقى. وقد أثبتت مشاركتي المحتملة، كمغن وعازف جيتار صغير (تيبلي) في فرقة المعهد، بأن لي أذناً صالحة لتعلم العزف على آلة قليلة الصعوبة، وأنه يمكنني الغناء.

لم تكن هناك سهرة في مناسبة وطنية أو اجتماع احتفالي في المعهد، إلا لي فيه يد بطريقة ما. والفضل في ذلك دوماً، للمايسترو غييرمو كيفيدو ثورنوسا، مؤلف الموسيقى، ووجيه المدينة، والمدير الأبدي لفرقة الموسيقى البلدية، وصاحب موسيقى "برقوقة" - على الطريق، حمراء، مثل القلب -، وهي أغنية شبابية كانت في أيامها، روح السهرات والسيرنادات. وفي أيام الآحاد، بعد القداس، كنت أول من يجتازون الحديقة لحضور عزفه، الذي يبدأ دوماً بمقطوعة "الغراب السارق"، و"كورال المطارق"، ثم "التروبادور" في الختام. لم يعرف

المايسترو قط، ولم أتجرأ أنا على إخباره، بأن حلم حياتي، في تلك السنوات، هو أن أكون مثله.

عندما طلب المعهد متطوعين، لدورة دراسية في تذوق الموسيقى، كنت أنا وغييرمو لوبيث غيرا، أول من رفعنا إصبعينا. الدورة ستكون في أيام السبت صباحاً، بإشراف الأستاذ أندريس بيدرو توبار، مدير أول برنامج موسيقى كلاسيكية في "صوت بوغوتا". لم نشغل سوى أقل من ربع قاعة الطعام التي جرى تأهيلها لتكون قاعة دروس. ولكننا وقعنا على الفور، بطلاوة لسانه الرسولية. لقد كان الكاتشاكو الكامل، يتألق في منتصف الليل، بسترة من المخمل، وصوت متلو، ومتمهل فوق ذلك. أما ما قد يبدو الآن تحفة نادرة، بسبب قدمه، فهو الفونوغراف ذو ذراع التدوير الذي كان يديره ببراعة ومحبة مروض فقمات. كان ينطلق من افتراض - وهو صحيح في حالتنا - أننا مستجدون بالكامل. ولهذا بدأ بـ "كرنفال الحيوانات"، لسان-سين Saint-Saëns، واصفاً طريقة كل حيوان في الحياة. ثم عزف بعد ذلك - وكيف لا! - "بيتر والذئب"، لبروكوفيف. السيء في حفلات أيام السبت تلك، أنها رسّخت في ذهني الاحتشام بالنظر إلى موسيقى المعلمين الكبار، على أنها رذيلة شبه سرية. وقد احتجت لسنوات طويلة كي أميز بين الموسيقى الجيدة والموسيقى الرديئة.

لم أعد إلى إجراء أي اتصال مع المدير، حتى السنة التالية، عندما تولى هو نفسه تدريس مادة الهندسة للسنة الرابعة. دخل إلى قاعة الدرس في أول يوم ثلاثاء، الساعة العاشرة صباحاً. حيا تحية الصباح بزمجرة، دون أن ينظر إلى أحد، ونظف السبورة بالمسّاحة إلى أن لم يبق

أدنى أثر للغبار. ثم التفت عندئذ نحونا. ودون أن يقوم بتفقد قائمة الحضور، سأل ألفارو رويث توريس:

– ما هي النقطة؟

لم يكن هناك متسع من الوقت للإجابة، لأن أستاذ العلوم الاجتماعية، فتح الباب، دون أن يطرقه، وقال للمدير إن هناك مكالمة مستعجلة من وزارة التربية. خرج المدير مسرعاً ليرد على الهاتف ولم يرجع إلى الدرس، إلى الأبد. فقد كانت المكالمة، لإبلاغه بنقله من منصبه كمدير، وهو المنصب الذي شغله بضمير، طوال خمس سنوات في المعهد، وبعد حياة كاملة من الخدمة الحسنة.

كان خلفه هو الشاعر كارلوس مارتين، الأصغر سناً بين شعراء جماعة "حجر وسماء" الجيدين، الذين ساعدني سيسر دل بابي على اكتشافهم في بارانكيا. وكان المدير الجديد في الثلاثين من عمره، وله ثلاثة كتب مطبوعة. كنت أعرف بعض قصائده، وقد رأيته في إحدى المرات، في مكتبة في بوغوتا، ولكن لم يكن لدي ما أقوله له قط، ولم أكن أملك أحد كتبه لأطلب منه توقيعه عليه. ظهر في أحد أيام الاثنين، دون سابق إنذار، في استراحة الغداء. لم نكن ننتظر رؤيته، بكل تلك السرعة. وقد بدا محامياً أكثر منه شاعراً، ببدلة إنكليزية مخططة، وجبهة مكشوفة، وشارب رفيع بصرامة في الشكل تُلحظ كذلك في شعره. تقدم بخطواته المحسوبة جيداً نحو أقرب جماعة منه، هادئاً، ونائياً بعض الشيء، ومدّ لنا يده:

– مرحباً، أنا كارلوس مارتين.

كنتُ في تلك المرحلة مولعاً بالنثر الغنائي الذي ينشره إدواردو

كارانثا في الصفحات الأدبية، في جريدة "إلتيمبو" وفي مجلة "السبت". وكان يبدو لي أنه جنس أدبي مستوحى من "حماري بلاتيرو وأنا" لخوان رامون خيمينث، الذي كان رائجاً بين الشعراء الشباب المتطلعين إلى أن يمحوا، من الخريطة، أسطورة غييرمو بالينثيا. وقد رعى الشاعر خورخي روخاس، وارث ثروة سريعة الزوال، باسمه ورصيده، نشر كتيبات شعر أصيلة، أيقظت اهتماماً كبيراً، بين أبناء جيله، ووحّدت جماعة من الشعراء المعروفين.

كان ذلك تبدلاً عميقاً في العلاقات المنزلية. فصورة المدير السابق الطيفية، استُبدلت ليحل محلها حضور ملموس يحافظ على المسافة الواجبة، ولكنه في متناول اليد دوماً. تخلى المدير الجديد عن التفتيش الروتيني على المظهر الشخصي وغيره من القواعد المملة. وكان يتبادل الحديث مع التلاميذ، أحياناً، في الاستراحة الليلية.

الأسلوب الجديد، وضعني في اتجاهي الصحيح. ربما كان كالديرون قد حدّث مديري الجديد عني. ذلك أنه في إحدى الليالي الأولى، أجرى لي سبراً حول علاقاتي بالشعر، فأطلقتُ العنان لكل ما في داخلي. فسألني إذا ما كنتُ قد قرأت "التجربة الشعرية"، وهو كتاب لألفونسو رييس، أثار الكثير من التعليقات. فاعترفتُ له بأنني لم أقرأه، فأحضره لي في اليوم التالي. التهمتُ نصفه تحت المقعد، خلال ثلاثة دروس متتالية. والبقية خلال الاستراحة، في ملعب كرة القدم. وقد أسعدني أن كاتباً بمثل تلك الشهرة الواسعة، يهتم بدراسة أغنيات أغوسطين لارا، كما لو أنها أشعار غارثيلاسو، متذرعاً بعبارة ذكية: "أغنيات أغوسطين لارا الشعبية ليست أغنيات شعبية". وقد كان ذلك، بالنسبة إليّ، أشبه بالعثور على الشعر، مُذاباً في حساء الحياة اليومية.

تخلى مارتين عن الشقة الرائعة المخصصة للمدير، وأقام مكتبه، مفتوح الأبواب، في الفناء الرئيسي، فقرّبه ذلك أكثر من مسامراتنا بعد العشاء. وقد استقر، للإقامة طويلاً مع زوجته وأبنائه في بيت كولونيالي كبير، في حالة جيدة، في أحد أركان ميدان المدينة الرئيسي. وكان فيه مكتب تغطي جدرانه كل الكتب التي يمكن أن يحلم بها قارئ متابع لأذواق التجديد، في تلك السنوات. وهناك كان يزوره، في نهاية الأسبوع، أصدقاؤه من بوغوتا، ولا سيما زملاؤه في جماعة "حجر وسماء". وفي أحد أيام الآحاد، كان عليّ أن أذهب إلى بيته، مع غييرمو لوبيث غيرا، من أجل مراجعة عارضة. وكان هناك إدواردو كارانثا وخورخي روخاس، النجمان الكبيران. طلب منا المدير الجلوس، بإيماءة سريعة، كيلا نقطع المحادثة، فبقينا هناك حوالى نصف ساعة، دون أن نفهم كلمة واحدة، لأنهم كانوا يتناقشون حول كتاب لبول فاليري، لم نكن قد سمعنا به. كنتُ قد رأيت كارانثا أكثر من مرة في، مكتبات ومقاهي بوغوتا، وكنتُ قادراً على تمييزه من إيقاع صوته وتدفقه، وهو يتوافق مع ملابسه الشوارعية وطريقته في الحياة: كشاعر. أما خورخي روخاس بالمقابل، فلم أستطع التعرف عليه من ملابسه وأسلوبه الوزاري، إلى أن توجه إليه كارانثا باسمه. كنت أتلهف لأن أكون شاهداً على نقاش حول الشعر بين أكبر ثلاثة شعراء. ولكن ذلك لم يحدث. وفي نهاية حديثهم، وضع المدير يده على كتفي، وقال لضيفيه:

– هذا شاعر كبير.

قال ذلك تلطفاً بالطبع، ولكنني أحسست بالزهو. وأصر كارلوس مارتين على أن يلتقط لنا صورة مع الشاعرين الكبيرين، وقد التقطها

بالفعل. ولكنني لم أعرف عنها شيئاً، إلا بعد نصف قرن من ذلك، في بيته على الساحل الكتالاني، حيث تقاعد ليستمتع بشيخوخته الطيبة.

هزت المعهد رياح التغيير. فالمذياع الذي لم نكن نستخدمه إلا للرقص، رجلاً مع رجل، تحول بفضل كارلوس مارتين إلى وسيلة انتشار اجتماعي. ولأول مرة صارت تُسمع وتُناقش الأخبار الليلية في فناء الاستراحة. تضاعف النشاط الثقافي مع تأسيس المركز الأدبي، ونشر جريدة أدبية. وعندما وضعنا قائمة المرشحين المحتملين ذوي الميول الأدبية الواضحة، وفر لنا عددهم تسمية الجماعة: مركز الثلاثة عشر الأدبي. بدا لنا ذلك ضربة حظ، لأنه كان فوق ذلك، تحدّياً للتطير من العدد ثلاثة عشر. وكانت المبادرة من التلاميذ أنفسهم، وتتلخص فقط في اجتماعنا، مرة كل أسبوع، للتحدث في الأدب، مع أننا لم نكن في الحقيقة نفعل شيئاً غير ذلك، في أوقات فراغنا، داخل المعهد وخارجه. كل واحد منا كان يأتي بما لديه، فيقرؤه ويخضعه لأحكام الجميع. وكنت، أنا المذهول بذلك النموذج، أساهم في قراءة سونيتات أوقعها بالاسم المستعار: خابيير غارثيس. ولم أكن أستخدمه في الواقع للتميز، وإنما لأختبئ خلفه. لأن سونيتاتي كانت مجرد تمارين حرفية، دون إلهام ودون تطلعات. ولا يمكن أن تُعزى إليها أي قيمة شعرية، لأنها لم تكن تخرج من الروح. كنتُ قد بدأت بمحاكاة كيفيدو، ولوبي دي بيغا، وحتى غارسيا لوركا، ولا سيما ثمانياته العفوية التي يكفي البدء بها، للمواصلة تلقائياً. وقد وصلت بعيداً في حمى المحاكاة تلك، حتى إنني فرضت على نفسي مهمة التحوير الساخر، لكل واحدة من سونيتات غارثيلاسو دي لابيغا الأربعين، وبالترتيب نفسه. وكنت أكتب كذلك، ما

يطلبه بعض تلاميذ القسم الداخلي، ليقدموه إلى صديقاتهم في أيام الآحاد، على أنه من تأليفهم. وقد قرأت لي إحداهن بتأثر، وفي سرية مطلقة، الأشعار التي أهداها إليها حبيبها، على أنها من كتابته.

قدم لنا كارلوس مارتين مستودعاً صغيراً في الطابق الثاني من المعهد، نوافذه موصدة لدواعٍ أمنية. وكنا حوالي خمسة أعضاء نتولى وضع برنامج الاجتماع التالي. لم يتخذ أي واحد منهم مهنة الكاتب، ولكن المسألة لم تكن في ذلك، وإنما في اختبار إمكانيات كل واحد. كنا نناقش أعمال الآخرين، ونستشيط غضباً، كما لو أننا في مباراة كرة قدم. في أحد الأيام اضطر، ريكاردو غونثالث ريبول إلى الخروج في منتصف المناقشة. وفوجئ بالمدير يضع أذنه على الباب، ليسمع مجادلاتنا. كان فضوله مشروعاً، لأنه لم يستطع أن يصدق أننا نكرس أوقات فراغنا للحديث عن الأدب.

في أواخر شهر آذار، وصلنا خبر أن المدير السابق، دون أليخاندرو راموس، قد أطلق رصاصة على رأسه، في الحديقة الوطنية في بوغوتا. لم يقتنع أحد بنسبة ذلك التصرف إلى طبعه المنعزل، وربما المكتئب. كما لم يكن ممكناً تصور أي سبب معقول للانتحار وراء تمثال الجنرال أوريبي أوريبي، المحارب في أربع حروب أهلية، والسياسي الليبرالي الذي جرى اغتياله بالفؤوس، على يد متعصبين اثنين في ردهة الكابيتوليو. ذهب وفد من المعهد، برئاسة المدير الجديد، للمشاركة في جنازة المعلم أليخاندرو راموس الذي بقي في ذاكرة الجميع، كنقطة وداع مرحلة أخرى.

كان الاهتمام بالسياسة الوطنية متدنياً جداً في المدرسة الداخلية. لقد سمعت من يقول، في بيت جدي، إن الفرق الوحيد بين الحزبين، بعد

حرب الألف يوم، هو أن الليبراليين يذهبون إلى قداس الساعة الخامسة، كيلا يراهم المحافظون في قداس الثامنة، ويظنوهم مؤمنين. ومع ذلك، فقد بدأت الاختلافات الحقيقية تصبح ملموسة بعد ثلاثين سنة من ذلك، عندما فقد الحزب المحافظ السلطة، وحاول الرؤساء الليبراليون الأوائل أن يفتحوا البلاد لرياح العالم الجديدة. وانهمك الحزب المحافظ، المهزوم بصدأ سلطته المطلقة، في إعادة ترتيب وتنظيف بيته، تحت التألق النائي لموسوليني في إيطاليا، وظلمات الجنرال فرانكو في إسبانيا، بينما كانت الإدارة الجديدة للرئيس ألفونسو لوبيث بوماريخو، مع جماعة من الشباب المثقفين، تحاول خلق الظروف لليبرالية محدثة. وربما دون الانتباه إلى أنهم يحققون القدرية التاريخية في تقسيمنا إلى النصفين اللذين كان العالم منقسماً إليهما. وكان ذلك حتمية لا سبيل إلى تجنبها. فقد قرأت في أحد الكتب التي كان الأساتذة يعيروننا إياها، قولاً منسوباً إلى لينين: "إذا لم تتدخل في السياسة، فإن السياسة سوف تتدخل فيك في نهاية الأمر".

ومع ذلك، وبعد ست وثلاثين سنة من سيطرة الرؤساء المحافظين الكهفية، بدأ السلام يبدو ممكناً. فثلاثة رؤساء شباب، بذهنية حديثة، بدؤوا بفتح منظور ليبرالي يبدو مستعداً لإزاحة ضباب الماضي. والرئيس ألفونسو لوبيث بوماريخو، أبرز الثلاثة، والإصلاحي المجازف، حقق إعادة انتخابه لولاية ثانية، في عام ١٩٤٢. ولم يكن هناك، كما يبدو، ما يعكر إيقاع تداول الرئاسة. وهكذا كنا، في سنواتي الأولى في المعهد، متشربين بأخبار الحرب الأوروبية التي تبقينا متيقظين، بطريقة لم تستطع السياسة المحلية التوصل إليها قط. لم تكن الصحف تدخل

المعهد، إلا في حالات خاصة جداً، لأننا لم نكن معتادين على التفكير فيها. ولم تكن هناك أجهزة مذياع نقالة. والمذياع الوحيد في المعهد، هو مذياع الرف القديم في قاعة الأساتذة الذي كنا نشغله بأعلى صوت في الساعة السادسة، لكي نرقص وحسب. وكنا بعيدين عن التفكير في أنه كانت تُفرَخ في ذلك الحين، الحرب الأكثر دموية وعشوائية، بين كل حروبنا.

دخلت السياسة فجأة إلى المعهد. انقسمنا إلى فريقين: ليبراليين ومحافظين. وعرفنا لأول مرة، في أي جانب يقف كل واحد منا. برزت نضالية داخلية، ودية، وأكاديمية، إلى حد ما في البداية، ثم راحت تتردى، بالتوافق مع الحالة المعنوية نفسها التي بدأت تُعفّن البلاد. أول التوترات في المعهد، كانت غير ملموسة تقريباً، ولكن أحداً لم يراوده الشك في التأثير الطيب، لكارلوس مارتين الذي يقف على رأس جهاز أساتذة لم يخفوا أيديولوجياتهم يوماً. ومع أن المدير الجديد لم يكن مناصراً بجلاء لأحد الفريقين، إلا أنه أعطى موافقته على سماع الأخبار ليلاً، من مذياع القاعة. وصارت الأخبار السياسية، منذ ذلك الحين، تتغلب على الموسيقى الراقصة. وكان يقال، دون تأكيد مثبت، إنه يعلق في مكتبه، صورة للينين أو ماركس.

لا بد أن التمرد المرير الوحيد الذي حدث في المعهد، كان ثمرة تلك الأجواء المخلخلة. فقد تطايرت في قاعة النوم الوسائد والأحذية، على حساب القراءة والنوم. لم أستطع أن أحدد السبب، ولكنني أظن أن السبب، على ما أتذكر – ويتفق معي في ذلك عدد من زملائي – هو أحد مقاطع الكتاب الذي كان يُقرأ بصوت عالٍ في تلك الليلة: "البوح

بما يجول في الذهن"، للفنزويلي رومولو غاييغوس. لقد وقعت مشادة قتالية غريبة.

دخل كارلوس مارتين، وقد استُدعي على عجل، إلى قاعة النوم، وجابها من أقصاها إلى أقصاها، عدة مرات، وسط صمت عميق سببه ظهوره. وبعد ذلك، في نوبة سلطوية، غريبة عن طبع كطبعه، أمرنا بمغادرة قاعة النوم بالبيجامات والأخفاف، والاصطفاف في الفناء المتجمد. وألقى علينا هناك خطبة حماسية بأسلوب كاتيلينا المراوغ، ورجعنا بانتظام تام لمواصلة نومنا. كان ذلك هو الحادث الوحيد الذي أتذكره، خلال سنواتنا في المعهد.

كان ماريو كونفيرس، وهو طالب جاء في تلك السنة إلى الصف السادس، يبقينا مشوشين في ذلك الحين، بموضوع إصدار جريدة مختلفة عن المعهود في المدارس. وكان أحد أول اتصالاته معي. وبدا لي من المناسب، أن أوافق على أن أكون رئيس التحرير. كنتُ مفتوناً بذلك، ولكن دون أن تكون لدي أي فكرة واضحة عن مهماتي. تزامن آخر الإعدادات للجريدة مع اعتقال الرئيس لوبث بوماريخو على يد جماعة من كبار ضباط القوات المسلحة في الثامن من تموز ١٩٤٤، بينما كان في زيارة رسمية في جنوبي البلاد. والحكاية، مثلما رواها هو نفسه، لم تكن تتضمن أية فضلات. ربما دون أن ينوي ذلك، قدم للمحققين رواية رائعة، لم يعلم، بمقتضاها، بالحادثة إلا عندما جرى تحريره. وقد ظلت حركة باستو الانقلابية، شديدة الالتصاق بحقائق الحياة الواقعية، حدثاً مضحكاً آخر من أحداث تاريخنا الوطني.

ألبيرتو ييراس كامارغو، الذي عُيِّن رئيساً، أبقى البلاد منومة

بصوته وإلقائه المتقنين، طوال عدة ساعات، عبر الإذاعة الوطنية، إلى أن جرى تحرير الرئيس لوبيث وأقر النظام. ولكن تم فرض حالة طوارئ صارمة، مع رقابة على الصحافة. بدت التنبؤات غامضة وملتبسة. فقد حكم المحافظون البلاد، منذ الاستقلال عن إسبانيا سنة ١٨٣٠، حتى انتخاب أولايا هيريرا، بعد قرن من ذلك، دون أن تظهر عليهم أي ملامح للتوجه نحو اللبرلة. أما الليبراليون بالمقابل، فكانوا يتحولون أكثر فأكثر، نحو المحافظة، في بلاد تمضي مخلفة، في تاريخها، مزقاً من لحمها. وفي تلك اللحظة كانت هناك نخبة من المثقفين الشباب المفتونين بوهم السلطة، مثالهم الأكثر جذرية وقابلية للعيش هو خورخي إليسير غايتان. لقد كان واحداً من أبطال طفولتي، بسبب أعماله المناهضة للقمع في منطقة الموز. وهو ما كنت أسمع عنه دون أن أفهمه، منذ بدأت أعي الحياة. كانت جدتي تقدره. ولكنني أظن أنه كان يقلقها توافقه آنذاك مع الشيوعيين. وكنتُ أنا نفسي، أقف خلفه، بينما هو يلقي خطاباً مدوياً من شرفة في ساحة ثيباكيرا. وقد بهرني رأسه الذي له شكل شمامة، وشعره السبط والسميك، وبشرة الهندي النقي، وصوته الراعد بنبرة البوغوتيين التي، ربما، كان يبالغ فيها لحسابات سياسية. لم يتحدث في خطابه عن ليبراليين ومحافظين، أو عن مستغِلين ومستغَلين، مثلما يتحدث الجميع، وإنما عن فقراء، وأوليغاركية، وهي كلمة كنتُ أسمعها عندئذ، أول مرة تدق كمطرقة، في كل جملة، وقد سارعت للبحث عنها في المعجم.

كان محامياً لامعاً، وتلميذاً نجيباً في روما، للحقوقي الإيطالي إنريكو فيري. وقد درس هناك بالذات فنون موسوليني الخطابية، وكان

له شيء من أسلوبه المسرحي على المنبر. أما محازبه المنافس غابرييل تورباي (طربية)، فكان طبيباً مثقفاً وأنيقاً، يضع نظارة ذهبية فاخرة، تضفي عليه هيئة الفنان السينمائي. وكان قد ألقى خطاباً غير متوقع، في مؤتمر حديث العهد، للحزب الشيوعي، فاجأ الكثيرين وأثار قلق بعض محازبيه البرجوازيين. ولكنه كان مقتنعاً بأنه لا يتناقض في كلامه ولا في أفعاله مع تكوينه الليبرالي أو ميوله الأرستقراطية. ويرجع تآلفه مع الدبلوماسية الروسية، إلى سنة ١٩٣٦، عندما أقر في روما، العلاقات مع الاتحاد السوفييتي، بوصفه سفيراً لكولومبيا في روما. وقد جعلها رسمية في واشنطن، بوصفه وزير كولومبيا المفوض في الولايات المتحدة.

كانت علاقته بالسفارة السوفييتية في بوغوتا حميمة جداً، وله صداقات مع بعض قادة الحزب الشيوعي الكولومبي، ممن يمكن لهم التوصل إلى تحالف انتخابي مع الليبراليين. وكثيراً ما جرى الحديث عن مثل هذا التحالف في تلك الأيام، ولكنه لم يُبرم قط. وقد انتشرت في كولومبيا، آنذاك أيضاً، وهو سفير في واشنطن، إشاعة ملحة بأنه الخطيب السري لواحدة من كبار نجوم هوليود - ربما هي جين كراوفورد أو بوليت غودار - ولكنه لم يتخل قطّ، عن سيرته كعازب لا يساوم.

كان يمكن لناخبي غايتان وطربية أن يشكلوا أغلبية ليبرالية، وأن يفتحوا دروباً جديدة، ضمن الحزب نفسه. غير أنه لا يمكن لأي النصفين، منفصلاً، أن يحقق الفوز على المحافظين المتحدين والمسلحين.

في تلك الأيام السيئة، ظهرت صحيفتنا "الجريدة الأدبية". وقد فوجئنا، نحن أنفسنا الذين تسلمنا العدد الأول مطبوعاً، من مظهره الاحترافي، في ثماني صفحات من القطع النصفي (تابلويد). كان جيد

الإخراج والطباعة. وكان كارلوس مارتين وكارلوس خوان كالديرون أشد المتحمسين. وقد ناقش كلاهما، في أثناء الاستراحات، بعض المقالات. وكان أحد أهم تلك المقالات هو الذي كتبه كارلوس مارتين، بناء على طلبنا، وطرح فيه ضرورة التسلح بوعي شجاع في النضال ضد المتاجرين بمصالح الدولة، من السياسيين المتسلقين والسماسرة الذين يعرقلون مسيرة البلاد الحرة. ونُشر المقال مع صورة كبيرة له في الصفحة الأولى. وكان هناك مقال لكونفيرس، حول الهيسبانية، ونشر غنائي لي موقع باسم خابيير غارثيس. وقد أخبرنا كونفيرس بأن هناك حماساً كبيراً بين أصدقائه في بوغوتا، ومساعدات محتملة لإطلاق الجريدة بصورة أكبر، بحيث تكون مشتركة لكل المدارس.

لم يكن العدد الأول قد وُزع، عندما وقع انقلاب باستو. وفي اليوم الذي أعلن فيه عن تعكر الأمن العام، حضر عمدة ثيباكيرا إلى المعهد، على رأس فصيلة مسلحة، وصادر الأعداد الجاهزة للتداول. كان هجوماً سينمائياً، لا يمكن تفسيره إلا بوشاية خبيثة، بأن الجريدة تتضمن مواد هدامة. وفي اليوم نفسه، وصل إشعار من المكتب الصحفي لدى رئاسة الجمهورية، بأن الجريدة قد طُبعت دون المرور على رقابة حالة الطوارئ. وجرى عزل كارلوس مارتين من إدارة المعهد، دون إعلان مسبق.

لقد كان قراراً غير معقول بالنسبة لنا، جعلنا نشعر بالمهانة وبأهميتنا في الوقت نفسه. لم يكن عدد نسخ الجريدة يتجاوز المئتين، لتوزيعها بين الأصدقاء، ولكنهم أوضحوا لنا أن مطلب الرقابة هو أمر محتم لا بد منه، في ظل حالة الطوارئ. وألغي التصريح حتى إشعار آخر، لم يأت قط.

لقد مرت أكثر من خمسين سنة، قبل أن يكشف لي كارلوس مارتين، من أجل هذه المذكرات، عن تلك الواقعة العبثية. ففي اليوم الذي صُودرت فيه "الجريدة"، استدعاه وزير التربية بالذات إلى مكتبه في بوغوتا، وهو الوزير نفسه الذي عينه مديراً - أنطونيو روتشا - وطلب منه الاستقالة. وجد كارلوس مارتين أمام الوزير، نسخة من "الجريدة الأدبية". وقد رُسمت خطوط حمراء، تحت جمل كثيرة، اعتبروها هدامة. وفعلوا الشيء نفسه بمقاله الافتتاحي، ومقال ماريو كونفيرس، وكذلك بقصيدة لمؤلف معروف اعتُبرت مريبة ومكتوبة برموز مشفرة. "حتى الكتاب المقدس نفسه، بمثل هذه الخطوط سيئة النية، تحت عبارات منه، يمكن أن يُعرب عن عكس معناه الحقيقي"، قال له ذلك كارلوس مارتين، في ردّ فعل غاضب بصورة ملحوظة، دفع الوزير إلى تهديده باستدعاء الشرطة. جرى تعيينه مديراً لمجلة "السبت"، وهو أمر يجب اعتباره، في نظر مثقف مثله، ترقية كبيرة. ومع ذلك، فقد ظل يشعر إلى الأبد، بأنه كان ضحية مؤامرة قوى يمينية. وقد تعرض إلى اعتداء في أحد مقاهي بوغوتا، أوشك أن يرد عليه بالرصاص. ثم عينه وزير آخر، فيما بعد، رئيساً لقسم الشؤون القانونية، فمارس حياة مهنية متألقة تُوجت بتقاعد محاط بالكتب والحنين، في مكان إقامته الهادئ في تاراّغونا (إسبانيا).

في الوقت نفسه الذي أُبعد فيه كارلوس مارتين - ودون أي علاقة به بالطبع - انتشرت في المعهد، وفي بيوت المدينة وحاناتها، رواية بلا سند تقول إن الحرب مع البيرو، في سنة ١٩٣٢، كانت تلفيقة من الحكومة الليبرالية، لتدعم نفسها بالقوة في مواجهة المعارضة المحافظة

المتهتكة. وتؤكد الرواية التي وُزعت، حتى في منشورات مطبوعة، أن الدراما قد بدأت، دون أية نوايا سياسية، عندما اجتاز ملازم بيروي نهر الأمازون مع دورية عسكرية، واختطف من الضفة الكولومبية، الخطيبة السرية للحاكم المحلي في مدينة ليتسيا. وهي خلاسية فاتنة يدعونها بيلا، كتصغير لاسمها بيلار. وعندما اكتشف الحاكم المحلي الكولومبي أمر الاختطاف، اجتاز الحدود، مع جماعة العمال المسلحين، واسترد بيلا من أراضي البيرو. ولكن الجنرال لويس سانتشيث ثيرو، دكتاتور البيرو، عرف كيف يستغل تلك المناوشة، ليغزو كولومبيا، ويحاول تبديل الحدود الأمازونية، لمصلحة بلاده.

عندئذ، عمد الرئيس الكولومبي أولايا هيريرا – تحت ضغط شرس من جانب الحزب المحافظ المهزوم، بعد نصف قرن من الحكم المطلق – إلى إعلان حالة الحرب، فأعلن التعبئة الوطنية، وسلّم قياد جيشه لرجال يتمتعون بثقته، وأرسل القوات لتحرير الأراضي التي اغتصبها البيرويون. دوت في البلاد صرخة حرب أجّجت طفولتنا: "فلتعش كولومبيا، وتسقط البيرو". وفي فورة الحرب انتشرت كذلك، الرواية القائلة إنه قد جرت عسكرة الطائرات المدنية التابعة لشركة "سكادتا" SCADTAوتسليحها كأسراب حربية مقاتلة. وإن واحدة منها، بسبب نقص القنابل، فرّقت موكباً بمناسبة أسبوع الآلام في بلدة "غيبيبه" البيروية، بقصفه بجوز الهند. الكاتب الكبير خوان لوثانو إي لوثانو، الذي عبأه الرئيس أولايا ليبقيه على اطلاع على الحقيقة، في حمى الأكاذيب المتبادلة تلك، كتب بنثره البارع، القصة الحقيقية للحادثة. ولكن الرواية الزائفة ظلت هي السائدة لوقت طويل.

وجد الجنرال لويس ميغيل سانتشيث ثيرو في الحرب، بالطبع، فرصة من السماء، لكي يرسخ نظامه الحديدي في البيرو. وفي الوقت نفسه، عيّن الرئيس أولايا هيريرا قائداً عاماً للقوات الكولومبية، هو الجنرال والرئيس السابق المحافظ ميغيل آباديا مينديث، الذي كان في باريس آنذاك. وقد اجتاز الجنرال المحيط الأطلسي بسفينة مزودة بالمدافع، وتوغل عبر مصبات نهر الأمازون، حتى بلدة ليتسيا، في الوقت الذي كان فيه دبلوماسيو الطرفين، قد بدؤوا بإطفاء نيران الحرب.

ودون أي علاقة بانقلاب باستو، ولا بحادثة الجريدة، جرى تعيين مدير جديد، بدلاً من كارلوس مارتين، هو أوسكار إسبيتيّا براند، المربي مهنياً والمشهور فيزيائياً. وقد استثار المدير البديل في المعهد، كل أشكال الشكوك. تحفظاتي ضده هزتني، منذ التحية الأولى، بسبب ذلك القدر من النعاس الذي نظر به إلى شعري الطويل كشاعر، وشاربي غير المشذب. كان له مظهر قاس، وينظر مباشرة إلى العيون نظرة صارمة. وقد أرعبني خبر أنه سيكون أيضاً، أستاذنا في الكيمياء العضوية.

في يوم سبت من تلك السنة، كنا في السينما، في منتصف عرض بعد الظهر، عندما أعلن صوت مضطرب من مكبرات الصوت بأن هناك طالباً ميتاً في المعهد. كان ذلك مؤثراً، حتى إنني لم أستطع تذكر أي فيلم كنا نشاهد. ولكنني لن أنسى أبداً توتر كلوديت كولبير، وهي توشك أن تلقي بنفسها في نهر صاخب، من فوق حاجز جسر. كان الميت طالباً في السنة الثانية، عمره سبعة عشر عاماً. جاء حديثاً من مدينته باستو النائية، بالقرب من الحدود مع الإكوادور. وقد أصيب بتوقف عن التنفس، في أثناء هرولة، نظمها أستاذ الرياضة، كعقوبة نهاية أسبوع

لتلاميذه المتكاسلين. وكانت تلك هي الحالة الوحيدة التي مات فيها طالب، خلال وجودي في المعهد، وقد سبب موته تأثراً شديداً، ليس في المعهد وحسب، وإنما في المدينة أيضاً. اختارني زملائي لألقي في الجنازة، بضع كلمات وداع. وفي تلك الليلة بالذات، طلبتُ لقاء المدير الجديد، لأريه خطبتي التأبينية، وقد هزني الدخول إلى مكتبه، كتكرار خارق للهزة الوحيدة التي أصابتني، لدى اللقاء بالمدير الأسبق الميت. قرأ الأستاذ إسبيتيا مسودة كلمتي بملامح مأساوية، ووافق عليها دون تعليق. ولكنني، عندما نهضتُ للخروج، أشار لي بأن أعود للجلوس. كان قد قرأ بعض كتاباتي وأشعاري، من تلك الكثيرة التي يجري تداولها من يد إلى يد في الاستراحات، وبدا له أن بعضها جدير بأن يُنشر في ملحق أدبي. ولم أكد أحاول تجاوز خجلي القاسي، حتى أعرب هو عن هدفه الحقيقي، دون شك، من إيقائي. نصحني بأن أقص شعر الشاعر المشعث، غير اللائق برجل جديّ، وأن أشذب شاربي الذي كالفرشاة، وأتخلى عن ارتداء القمصان المزينة بعصافير وأزهار، وتبدو كأنها ملابس كرنفال. لم أكن أنتظر شيئاً من هذا القبيل قط. ولحسن الحظ أنني لم أردّ عليه بإجابة وقحة. وقد لاحظ هو ذلك، فاتخذ نبرة طقوسية ليوضح لي مخاوفه من أن تنتشر موضتي بين التلاميذ الصغار، بسبب شهرتي كشاعر. خرجتُ من المكتب متأثراً للاعتراف بعاداتي وبموهبتي الشعرية من قبل مرجعية، على تلك الدرجة من الأهمية. وكنت مستعداً لإرضاء المدير بتغيير مظهري، من أجل تلك المناسبة الوقورة. حتى إنني فسرت إلغاء تكريم المتوفى، بناء على رغبة أسرته، باعتباره إخفاقاً شخصياً لي.

كانت النهاية غائمة. فقد اكتشف أحدهم أن زجاج التابوت، يبدو مغطى بالبخار، وهو معروض في مكتبة المعهد. فتحه ألفارو رويث توريس، بناء على طلب الأسرة. وتأكد بالفعل من أنه رطب من الداخل. وفي بحثه بالتلمس، عن سبب وجود البخار في ذلك الصندوق الكتيم، ضغط برفق، برؤوس أصابعه، على صدر الميت، فأصدرت الجثة أنّة مؤثرة. وبلغت الأسرة حدَّ الهوس بفكرة أنه لا يزال حياً، إلى أن أوضح الطبيب أن الرئتين قد احتبستا الهواء، عند إصابته بالفشل التنفسي، ثم أطلقته بالضغط على الصدر. وعلى الرغم من بساطة التشخيص، أو ربما لهذا السبب بالذات، بقي الخوف قائماً عند البعض من أنه قد دُفن حياً. وبهذه الروح المعنوية، ذهبتُ في إجازة السنة الرابعة، متلهفاً إلى إقناع والديّ بعدم مواصلتي الدراسة.

نزلت من السفينة في سوكري، تحت رذاذ مطر غير مرئي. بدا لي سور المرفأ مختلفاً عما هو عليه في حنيني. وكانت الساحة أصغر حجماً وعُرياً مما هي عليه في ذاكرتي. والكنيسة والرابية المشجرة يشعُّ منهما ضوء الخذلان، تحت أشجار اللوز المقلمة. وتشير الأكاليل الملونة في الشارع، إلى اقتراب أعياد الميلاد. ولكن هذه الأعياد لم تبعث في الانفعال الذي أثارته في نفسي في مرات أخرى، ولم أتعرف على أي واحد من الرجال، حاملي المظلات الذين ينتظرون في المرفأ، إلى أن قال لي أحدهم لدى مروري، بنبرته ورنة صوته المعروفة:

– كيف هي الأمور!

كان أبي. وقد هزل كثيراً بسبب فقدان الوزن، يرتدي بدلة القطن الرقيقة البيضاء، التي كانت تميزه من بعيد، منذ سنوات شبابه، وإنما

بنطالاً بيتياً، وقميصاً مدارياً قصير الأكمام، وقبعة مراقب عمال، غريبة الشكل. وكان يرافقه أخي غوستافو الذي لم أتعرف عليه بسبب نموه، مع بلوغه السنة التاسعة من العمر.

لحسن الحظ فإن الأسرة ما زالت تحافظ على مظاهر فقرها. وبدا العشاء المبكر، كما لو أنه قد أعدّ عمداً للتأكيد على أن ذلك البيت هو بيتي، وأنه لا بيت لي سواه. وكان الخبر الطيب، على المائدة، هو أن أختي ليخيا قد كسبت اليانصيب. والقصة - مثلما روتها هي نفسها - بدأت عندما حلمت أمنا بأن أباها قد أطلق النار في الهواء، لإخافة لص فاجأه يسرق من بيت آراكاتاكا القديم. روت أمي الحلم أثناء الفطور، حسب العادة العائلية، واقترحت شراء بطاقة يانصيب تنتهي بالعدد سبعة، لأن هذا العدد له شكل مسدس الجدّ نفسه. لم يحالفهم الحظ في البطاقة التي اشترتها أمي بالدين، على أن تدفع ثمنها من قيمة الجائزة نفسها. لكن ليخيا، وكان عمرها آنذاك إحدى عشرة سنة، طلبت من أبي، ثلاثين سنتافو، لتدفع قيمة البطاقة الخاسرة، وثلاثين سنتافو أخرى للإصرار، في الأسبوع التالي، على الرقم الغريب: ٠٢٠٧.

خبأ أخونا لويس إنريكي البطاقة ليخيف ليخيا. ولكن خوفه كان أكبر بكثير، في يوم الاثنين التالي، عندما سمعها تدخل إلى البيت صارخة، مثل مجنونة، بأنها كسبت اليانصيب. ذلك أن أخي، في تسرع شقاوته، نسي أين خبأ البطاقة، واضطروا في حمى البحث المبهور، إلى إفراغ الخزائن والصناديق، وقلب البيت رأساً على عقب، بدءاً من الصالة، حتى المرحاض. ولكن ما كان أكثر إثارة للقلق، مع ذلك، هو قيمة الجائزة: ٧٧٠ بيزو.

والخبر السيئ هو أن أبي قد حقق أخيراً حلمه بإرسال لويس إنريكي إلى إصلاحية فونتيدوينو - في ميدلين -، مقتنعاً بأنها مدرسة للأبناء العاقين، وليس كما هي في الحقيقة: سجناً لإعادة تأهيل المنحرفين الأحداث الخطرين جداً.

القرار الأخير اتخذه أبي، عندما أرسل ابنه العاق لتحصيل دين للصيدلية. وبدلاً من أن يسلّم إلى أبيه البيزوات الثمانية التي أعطيت له، اشترى بها آلة تيبلي جيدة، تعلم العزف عليها كمعلم. لم يعلق أبي بكلمة واحدة، عندما اكتشف وجود الآلة الموسيقية في البيت. وواصل مطالبة ابنه بتحصيل ذلك الدين. فكان الأخير يرد عليه دوماً، بأن صاحبة الحانوت لا تملك النقود لتدفعها. وكان قد انقضى حوالي شهرين، عندما وجد لويس إنريكي أباه يعزف على التيبلي، لحناً مرتجلاً: "انظر إليّ كيف أعزف هذا التيبلي الذي كلفني ثمانية بيزوات".

لم ندرِ قط، كيف عرف الحقيقة، ولا لماذا تظاهر بعدم معرفته بحيلة ابنه. ولكن هذا الأخير اختفى من البيت، إلى أن هدّأت أمي زوجها. وعندئذ سمعنا أبي يطلق أول تهديداته بإرسال لويس إنريكي إلى إصلاحية الأحداث في ميدلين. غير أن أحداً لم يوله اهتماماً، ذلك أنه كان قد أعلن من قبل، عن نيته في إرسالي إلى دير أوكانيا، ليعاقبني على لا شيء، سوى نيل شرف أن يكون هناك خوري في البيت، وقد نسي ذلك قبل أن يتمكن من تصوره. ومع ذلك، كان أوكورديون التيبلي هو القطرة التي جعلت الكأس يطفح.

لم يكن الدخول إلى دار الإصلاح ممكناً، إلا بقرار من قاضي الأحداث. ولكن أبي تجاوز انعدام توفر الشروط المطلوبة، من خلال

أصدقاء مشتركين، مع رسالة توصية من مطران ميدلين، المونسنيور غارسيا بينيتز. وقد أبدى لويس إنريكي من جانبه، طيب جبلته، حين سمع بأن يقتادوه، بسعادة وكأنه ذاهب إلى حفلة.

الإجازة من دونه، لم تكن كالإجازات السابقة. كنت أحسن التواصل في الغناء كمحترف مع عزف فيلابلفيو بيلييا، الخياط السحري وعازف التيبلي البارع، ومع المعلم بالديس أيضاً بالطبع. وكان ذلك في منتهى السهولة. ولدى الخروج من حفلات رقص الأغنياء المربكة تلك، كانت تنقض علينا من ظلال الحديقة أسراب من المتدربات، يومئن خفية، بكل أنواع الإغواء. وكانت هناك واحدة تمر قريباً، ولكنها لم تكن منهن، فأخطأت بها وعرضتُ عليها أن تذهب معي. فردت علي بمنطق مثالي، أنها لا تستطيع، لأن زوجها نائم في البيت. ولكنها بعد ليلتين من ذلك، أخبرتني أنها ستترك الباب الخارجي، دون إن توصده بالمزلاج، ثلاث مرات كل أسبوع، لكي أتمكن من الدخول، دون أن أطرقه، عندما لا يكون زوجها في البيت.

إنني أتذكر اسمها وكنيتها. ولكنني أفضل أن أسميها: نيغرومانتا. كانت ستكمل العشرين من عمرها، في عيد الميلاد. ولها بروفيل حبشية وبشرة كاكاو. وكانت مرحة في الفراش، وذات رعشة نشوة محزونة ومندفعة، كأنها انهيار سيل حجري، وغريزة في الحب لا تبدو غريزة كائن بشري، وإنما نهر مائج. وقد تحولنا، منذ المرة الأولى، إلى مجنونين في الفراش. كان لزوجها – مثل خوان بريفا – جسد مارد وصوت طفلة. وكان ضابطاً في الأمن العام من جنوبي البلاد، يجرجر سمعة سيئة بأنه كان يقتل الليبراليين كيلا يفقد دقته في التصويب

وحسب. كانا يعيشان في غرفة مقسومة بحاجز من الكرتون. لها باب يؤدي إلى الشارع، وآخر يطل على المقبرة. فكان الجيران يتذمرون من أنها تُقلق راحة الموتى، بنباح الكلبة السعيدة الذي تطلقه. ولكن الموتى كانوا يبتهجون منها، دون ريب، أكثر مما يقلقون، كلما كان نباحها أقوى.

في الأسبوع الأول، اضطررت إلى الهرب من الحجرة، في الرابعة فجراً، لأننا أخطأنا في تاريخ اليوم، وكان يمكن للضابط أن يعود في أي وقت. خرجتُ من الباب المؤدي إلى المقبرة، خلال ضوء الفجر الكاذب، ونباح الكلاب مزعجة الموتى. وعلى جسر القناة المائية الثاني، رأيت تقدم هيئة ضخمة لم أتعرف على صاحبها، إلى أن تحاذينا. لقد كان الرقيب شخصياً، وكان سيجدني في بيته، لو أنني تأخرت، خمس دقائق أخرى.

– صباح الخير أيها الأبيض – قال لي بنبرة ودودة.

وأجبته دون قناعة بما أقول:

– فليحفظك الرب، أيها الرقيب.

توقف عندئذ ليطلب مني ناراً. قدمتها إليه، وقد اقتربتُ منه كثيراً لأحمي عود الثقاب من ريح الفجر. وعندما ابتعد بالسيجارة المشتعلة، قال لي بمزاج رائق:

– تنبعث منك رائحة عاهرة لا طاقة لك بها.

دام رعبي أقل مما كنتُ أتوقع، ففي يوم الأربعاء التالي غلبني النوم ثانية، وعندما فتحت عيني وجدت نفسي في مواجهة الخصم المتضرر الذي كان يتأملني بصمت، من طرف السرير. كان رعبي شديداً إلى حدٍ

وجدتُ معه مشقة في مواصلة التنفس. فحاولت المرأة، وكانت لا تزال عارية أيضاً، أن تتدخل، لكن زوجها أبعدها جانباً، بسبطانة المسدس قائلاً:

– لا تتدخلي. مسائل الفراش تُحل بالرصاص.

وضع المسدس فوق الطاولة، ثم فتح زجاجة روم، ووضعها إلى جانب المسدس، وجلسنا وجهاً لوجه لنشرب دون كلام. لم أكن قادراً على تصور ما الذي سيفعله. ولكنني فكرتُ في أنه لو أراد قتلي لفعل ذلك، دون مراوغة. بعد قليل، ظهرت نيغرومانتا متدثرة بملاءة، وعلى رأسها قلنسوة احتفالية. ولكنه صوب إليها المسدس قائلاً:

– هذه مشكلة رجال.

فقفزت هي واختبأت وراء الحاجز.

كنا قد أنهينا الزجاجة الأولى، عندما انهمر وابل المطر. وفتح عندئذ الزجاجة الثانية، وأسند فوهة المسدس إلى صدغه وحدّق فيّ بعينين جامدتين. ثم ضغط عندئذ الزناد حتى أقصاه. ولكن مطرقته رنت في الفراغ. وحين قدّم إليّ المسدس، بدا عاجزاً عن التحكم بارتعاش يده. وقال لي:

– الآن دورك.

كانت تلك هي المرة الأولى التي أمسك فيها مسدساً بيدي. وقد فاجأني أنه ثقيل وساخن. لم أدرِ ما عليّ عمله. كنتُ مبللاً بعرق جليدي، وبطني مترع بزبد ملتهب. أردتُ أن أقول شيئاً، ولكن صوتي لم يخرج. لم أفكر في إطلاق النار عليه، وإنما أعدت إليه المسدس، دون أن أدرك أن تلك كانت فرصتي الوحيدة.

– ماذا، هل تبرزت؟ – سألني بازدراء سعيد، وأضاف:– كان عليك أن تفكر في هذا، قبل أن تأتي هنا.

كان بإمكاني أن أقول له إن الفحول يتبرزون أيضاً. ولكنني أدركت أنني لا اجرؤ على مثل تلك الدعابات القاتلة. عندئذ فتح طاحونة المسدس، وأخرج الطلقة الوحيدة، وألقى بها على المنضدة: كانت فارغة. لم يكن ما شعرت به هو الراحة، وإنما مذلة رهيبة.

خفّت قوة وابل المطر، قبل الساعة الرابعة. وكلانا كان منهوكاً بسبب التوتر. حتى إنني لا أتذكر في أي لحظة، أصدر لي الأمر بارتداء ملابسي، فانصعتُ بقدر من مهابة المبارزة. وعندما عاد للجلوس فقط، انتبهت إلى أنه هو الذي كان يبكي، بغزارة ودون خجل، كما لو أنه يتباهى بدموعه. وأخيراً مسحها بظاهر يده، ونف أنفه بأصابعه، ونهض واقفاً.

– هل تعرف لماذا ستخرج من هنا حياً؟ – سألني، ثم أجاب هو نفسه:– لأن أباك هو الشخص الوحيد الذي عالجني من إصابة بالسيلان، جعلتني مثل كلب عجوز، ولم يستطع أحد مداواتي منها طوال ثلاث سنوات.

ربت على ظهري تربيتة رجل، ودفعني إلى الشارع. كان المطر لا يزال متواصلاً، وكانت البلدة غارقة، فمضيت في الطريق، والماء يصل حتى ركبتي، ويخدر أنني ما زلت حياً.

لستُ أدري كيف علمت أمي بالأمر. ولكنها بدأت في الأيام التالية، حملة مهووسة، لمنعي من مغادرة البيت ليلاً. وصارت تعاملني في أثناء ذلك، مثلما عاملت أبي، بأساليب إلهاء، لم تكن تنفع كثيراً.

كانت تبحث عن إشارات تدل على أنني قد خلعت ملابسي خارج البيت، وتكتشف آثار عطور لا وجود لها، وتُعدّ لي أطعمة صعبة، قبل أن أخرج إلى الشارع، إيماناً منها بالخرافة الشعبية بأن زوجها وابنها لن يتجرآ على ممارسة الحب، في أثناء عملية هضم تلك المأكولات. وأخيراً، عندما لم تجد في إحدى الليالي، مزيداً من الأعذار، لاحتجازي في البيت، جلست قبالتي وقالت لي:

– يقولون إنك متورط مع امرأة شرطي، وإنه أقسم أن يطلق عليك رصاصة.

تمكنتُ من إقناعها بأن ذلك غير صحيح. ولكن الإشاعة تواصلت بإلحاح. وكانت تيغروماتا ترسل إليّ المراسيل بأنها وحيدة، وأن زوجها قد غادر في مهمة، وأنها لم تره منذ بعض الوقت. وكنت أبذل كل ما هو ممكن، كيلا ألتقي به، ولكنه كان يسارع إلى تحيتي عن بُعد، بإيماءة يمكن لها أن تكون مصالحة أو تهديداً على السواء. وقد رأيته آخر مرة في إجازة السنة التالية، في ليلة عربدة دعاني خلالها، إلى تناول كأس روم ثقيل لم أجرأ على رفضه.

لست أدري، بسبب فنون أية شعوذة بدأ الأساتذة والزملاء، الذين اعتبروني على الدوام طالباً منزوياً، ينظرون إليّ في السنة الخامسة، كشاعر ملعون، وريث أجواء الانفتاح التي ازدهرت في عهد المدير كارلوس مارتين. ألا تكون رغبتي في الظهور بهذه الصورة، هي ما دفعني إلى البدء بالتدخين في المعهد، وأنا في الخامسة عشرة؟ كانت ضربة التدخين الأولى رهيبة. فقد أمضيتُ نصف ليلة أحتضر، وسط قيئي على أرض الحمام. وطلع عليّ الصباح مستنفذاً، لكن آثار سكرة

التبغ تلك، بدل أن تبعث في القرف، أثارت لدي رغبات لا تقاوم في مواصلة التدخين. وهكذا بدأت حياتي كمُدخن ضارٍ، إلى حدّ أنني لم أعد قادراً على التفكير في جملة واحدة، ما لم يكن فمي ممتلئاً بالدخان. لم يكن التدخين مسموحاً في المعهد، إلا خلال الاستراحات. ولكنني كنتُ أطلب الإذن للذهاب إلى المرحاض، مرتين أو ثلاث مرات في كل درس، لكي أخمد لهفتي إلى التدخين وحسب. وهكذا وصلتُ إلى تدخين ثلاث علب من ذات العشرين سيجارة، في كل يوم. وقد أتجاوز الأربعة في صخب الليل. وفي إحدى الفترات، بعد مغادرة المعهد، حسبتُ أنني سأصاب بالجنون، بسبب جفاف الحلق وآلام العظام. فصممت على ترك التدخين، لكنني لم أصمد أكثر من يومين، من الجزع.

لا أدري إذا ما كان هذا هو نفسه ما أطلق يدي في النثر، في الواجبات المدرسية المتزايدة الجرأة التي كان يطالبنا بها الأستاذ كالديرون، وفي كتب نظرية الأدب التي كان يفرض عليّ، بالإكراه تقريباً، أن أقرأها. واليوم، بينما أنا أسترجع حياتي، أتذكر أن مفهومي للقصة القصيرة، كان بدائياً على الرغم من كثرة القصص التي قرأتها، منذ انبهاري الأول بقصص ألف ليلة وليلة. حتى إنني تجرأت على التفكير في أن العجائب التي ترويها شهرزاد، كانت تحدث فعلاً، في الحياة اليومية، في عصرها. ولم تعد تحدث بسبب عدم تصديق الأجيال التالية، وجبنها الواقعي. وكان يبدو لي أنه من المستحيل، للسبب نفسه، أن يعود أحد في عصرنا إلى تصديق أنه يمكن الطيران فوق المدن والجبال، على متن حصيرة، أو أن يُعاقب عبد من كارتاخينا دي إندياس بالعيش، مئتي سنة، داخل قارورة، اللهم إلا إذا كان مؤلف القصة قادراً على جعل قرائه يصدقون ذلك.

كانت الدروس تُضجرني، باستثناء دروس الأدب - التي كنتُ أحفظها عن ظهر قلب - حتى صرت البطل الوحيد فيها. ولمللي من الدراسة، كنت أترك كل شيء لمشيئة حسن الطالع. وقد كنت أتمتع بغريزة خاصة تمكنني من حدس نقاط الضعف عند كل معلم، فأتوقع بصورة تقريبية، ما هو أهم ما يثير اهتمام المعلمين، كيلا أدرس ما عداه. والواقع أنني لم أكن أفهم لماذا يتوجب علي التضحية بالموهبة وبالوقت، في دراسة مواد لا تحرك مشاعري، ولن تفيدني كذلك، مطلقاً، في حياة هي ليست حياتي.

وقد تجرأت على التفكير في أن معظم أساتذتي يقيمونني، تبعاً لطريقتي في الحياة، وليس وفق امتحاناتي. فقد كانت تنقذني إجاباتي غير المتوقعة، وخواطري الجنونية، وابتكاراتي غير العقلانية. ومع ذلك، عندما أنهيت السنة الخامسة بامتياز أكاديمي، لا أشعر بأنني قادر على تجاوزه، أدركت مدى محدوديتي. كانت الثانوية حتى ذلك الحين، طريقاً معبداً بالمعجزات، ولكن القلب كان ينبهني إلى أنه ينتظرني، في نهاية السنة الخامسة، سورٌ لا يمكنني تجاوزه. والحقيقة العارية من الزخرف هي أنه كانت تنقصني الإرادة، والميل، والتنظيم، والنقود، والإملاء، لكي أتمكن من الالتحاق بدراسة أكاديمية جامعية. وبكلمة أخرى: كانت السنوات تمضي طيراناً، دون أن تكون لدي أدنى فكرة عما سأفعله في حياتي. وكان لا بد من مضي زمن طويل، قبل أن أدرك أن حالة الهزيمة تلك، مواتية أيضاً، لأنه لا وجود لشيء في هذا العالم، ولا في العالم الآخر، إلا له فائدة للكاتب.

ولم تكن أوضاع البلاد أحسن حالاً. فقد استقال ألفونسو لوبيث

بوماريخو من رئاسة الجمهورية في الثالث عشر من تموز ١٩٤٥، بعد أن حاصره المحافظون الرجعيون بضراوة. خلفه ألبيرتو بيراس كامارغو، الذي عينه مجلس الشيوخ، ليكمل السنة الأخيرة من الفترة الرئاسية. ومنذ خطابه في تولي المنصب، بصوته المسكّن ونثره الأسلوبي الفخم، بدأ بيراس المهمة الواهمة في تهدئة خواطر البلاد، تمهيداً لانتخاب رئيس جديد.

وبوساطة من المنسينيور لوبيث بيراس، ابن عم الرئيس الجديد، توصل مدير المعهد إلى تحديد موعد للقاء خاص مع الرئيس، من أجل طلب مساعدة من الحكومة، لرحلة طلابية إلى ساحل الأطلسي. ولم أدر أيضاً لماذا اختارني المدير لمرافقته إلى ذلك الاجتماع، شريطة أن أرتب قليلاً، شعري المشعث وشاربي المنفوش. وكان المدعوون الآخرون هم غييرمو لوبيث غيرا، وهو من معارف الرئيس، وألفارو رويث توريس، ابن أخت لورا فيكتوريا، وهي شاعرة مشهورة بموضوعاتها الجريئة في "جيل الجُدُد"، الذي كان ينتمي إليه الرئيس بيراس كامارغو نفسه أيضاً. لم أجد مخرجاً آخر. وفي ليلة السبت، بينما غييرمو غرانادوس يقرأ في قاعة النوم رواية لا علاقة لها بحالتي، قام صبي حلاق متدرب من طلاب السنة الثالثة، بقص شعري كمجند غرّ، وشذب لي شارب تانغو. وقد تحمّلت، طوال ما تبقى من ذلك الأسبوع، سخريات الطلاب الداخليين والخارجيين، من مظهري الجديد. كان مجرد التفكير في الدخول إلى القصر الرئاسي، يجمد الدم في عروقي. ولكن ذاك كان خطأ من القلب، لأن الملمح الوحيد لغموض السلطة الذي وجدناه هناك، هو الصمت السماوي. وبعد انتظار قصير في قاعة الانتظار ذات السجاد وستائر المخمل، اقتادنا ضابط بالزي العسكري إلى مكتب الرئيس.

كان مظهر الرئيس بيراس كامارغو، قليل الشبه بصوره. وقد أثر في ظهره المثلث، ببدلة الجوخ الإنكليزي المتقنة، ووجنتيه البارزتين، وشحوب الرَقّ في بشرته، وأسنان الطفل الخبيث التي كانت تفتن رسامي الكاريكاتير، وبطء حركاته، وطريقته في المصافحة، وهو ينظر مباشرة إلى العينين. لا أذكر ما هي الفكرة التي كانت لدي عن الرؤساء، ولكنني لا أظن أنهم جميعهم مثله. ومع مرور الزمن، عندما تعرفت عليه بصورة أفضل، أدركت شيئاً، ربما لن يعرفه هو نفسه أبداً، أنه كاتب قد ضل الطريق، قبل أي شيء آخر.

بعد أن استمع إلى كلمات المدير، باهتمام أكثر من جليّ، قدم بعض التعليقات المناسبة. ولكنه لم يتخذ قراره، قبل أن يستمع كذلك، إلى الطلاب الثلاثة. وفعل ذلك باهتمام مماثل، وأشعرنا بأننا نُعامل بالاحترام واللطف نفسيهما اللذين يعامل بهما المدير. وكانت الدقيقتان الأخيرتان كافيتين لنوقن أنه يعرف في الشعر، أكثر مما يعرف في الملاحة النهرية. وأن اهتمامه به أكثر من اهتمامه بها بكل تأكيد.

منحنا كل ما طلبناه، ووعد فوق ذلك، بحضور احتفال نهاية العام الدراسي في المعهد، بعد أربعة شهور. وقد فعل ذلك، مثلما يحضر أكثر نشاطات الحكومة جدية. وضحك أكثر من الجميع من كوميديا المواقف المضحكة التي قدمناها على شرفه. وابتهج في حفل الاستقبال الختامي، كما لو أنه طالب آخر من طلاب المعهد، وبمظهر مختلف عن مظهره الرسمي. ولم يستطع مقاومة إغراء القيام بمداعبة طلابية، حين مدَّ إحدى ساقيه، معترضاً طريق من كان يوزع الكؤوس، فلم يتمكن هذا من تفادي الوقوع، إلا بصعوبة.

ذهبتُ، مسلحاً بحماس حفلة نهاية العام الدراسي، لقضاء إجازة السنة الخامسة مع أسرتي. وكان أول خبر قدموه لي هو الخبر السعيد جداً، بأن أخي لويس إنريكي قد رجع بعد أن أمضى سنة وستة شهور في دار الإصلاح. وقد فاجأني مرة أخرى، بحسن طبعه. لم يكن يشعر بأدنى قدر من الضغينة على أحد، بسبب الحكم عليه. وكان يروي المصائب بمزاج مرح لا يهزم. وقد توصل في تأملاته، وهو سجين، إلى النتيجة بأن أبوينا قد أدخلاه الإصلاحية بطيب نية. ومع ذلك، فإن حماية المطران وتوصيته لم تعفياه من التعرض لتجارب قاسية في حياة السجن اليومية. ولكن بدل أن تفسده تلك المحن، وتغرقه في الضلال، أغنت طبعه ومزاجه الساخر.

وكانت أول وظيفة شغلها بعد عودته، هي منصب سكرتير عمدة سوكري. وبعد بعض الوقت، أصيب العمدة بتوعك مفاجئ في المعدة، فوصف له أحدهم دواء سحرياً نزل للتو إلى السوق: ألكاسيلتزر. ولكن العمدة لم يُذب ذلك الدواء في الماء، وإنما ابتلعه مثلما يبتلع أي قرص دواء عادي. ولم يختنق بأعجوبة، بالفوران الذي أحدثه الدواء، الفوار في معدته. وقبل أن يستعيد الطمأنينة من الذعر الذي ألمَّ به، احتاج إلى عدة أيام من الراحة. ولكن كانت لديه أسباب سياسية تحول دون تكليف أي واحد من معاونيه الشرعيين، بمهام منصبه؛ فمنح التفويض المؤقت لأخي. وبسبب هذه المصادفة الغريبة - وهو دون السن القانونية للمنصب -، دخل لويس إنريكي تاريخ البلدية، باعتباره العمدة الأصغر سناً.

الشيء الوحيد الذي كان يقلقني حقاً، في تلك الإجازة، هو اليقين بأن أفراد أسرتي، في أعماق قلوبهم، يبنون مستقبلهم على ما يعقدونه

من آمال عليّ. وكنت أنا الوحيد الموقن من أن تلك الآمال ليست سوى أوهام باطلة. وقد جعلتني جملتان عارضتان أو ثلاث، قالها أبي أثناء الغداء، أدرك أن هناك الكثير مما يجب الحديث فيه عن مصيرنا المشترك. فسارعت أمي إلى التأكيد: "إذا ما استمرت الحال على هذا المنوال، فسوف نضطر عاجلاً أو آجلاً، إلى العودة إلى كاتاكا." ولكن نظرة واحدة من أبي، دفعتها إلى التصحيح:

– أو إلى أي مكان آخر.

لقد صار الأمر واضحاً عندئذ: احتمال انتقال جديد إلى أي مكان، هو موضوع مطروح في الأسرة. ليس بسبب الجو الأخلاقي، وإنما من أجل مستقبل أوسع أفقاً للأبناء. لقد كنتُ أجد العزاء، حتى ذلك الحين، بفكرة أن أعزو روح الهزيمة التي أعاني منها، إلى القرية وناسها، وحتى إلى أسرتي. ولكن دراماتيكية أبي كشفت لي مرة أخرى أنه من الممكن، دوماً، العثور على مذنب لكي لا يكون أحدنا هو نفسه المذنب.

ما لمحته في الجو، كان شيئاً أشد زخماً. فأمي تبدو مهتمة فقط، بحالة خيمي الصحية. وهو الابن الأصغر، الذي لم يستطع تجاوز وضعه كخديج. فكانت تقضي معظم اليوم، مستلقية معه في أرجوحتها في حجرة النوم، مثقلة بالحزن والحر المذل. وبدأ البيت يتصدع بسبب إهمالها. فبدا أخوتي طليقي العنان، دون عراية تحميهم. وكان نظام تناول الطعام قد تراخى كثيراً، بحيث صرنا نأكل دون توقيت معين، كلما أحسسنا بالجوع. أما أبي، وهو أكثر الرجال تعلقاً بالبيت، فصار يقضي النهار، متأملاً الساحة من الصيدلية، ويذهب في المساء للعب بضعة أدوار في نادي البلياردو. لم أستطع، في أحد الأيام، تحمّل

المزيد من التوتر، فاستلقيت إلى جانب أمي في أرجوحة النوم، مثلما لم أستطع أن أفعل في طفولتي. وسألتها ما هو السر الذي يجري تنفسه في أجواء البيت، فابتلعت زفرة كاملة، كيلا يرتجف صوتها، وفتحت لي روحها:

– لأبيك، ابن في الشارع.

ومن الراحة التي أحسست بها في صوتها، أدركت كم كانت تتلهف لسؤالي. لقد اكتشفت الحقيقة ببصيرة الغيرة، عندما رجعت إحدى طفلات الخدمة إلى البيت متأثرة، لأنها رأت أبي يتكلم بالهاتف في مركز التلغراف. ولم تكن امرأة غيورة مثل أمي بحاجة لمعرفة المزيد. فذلك الهاتف هو الوحيد في القرية، ولا يُستخدم إلا في المكالمات الخارجية، وبناء على موعد مسبق، مع ما يتخلل ذلك من انتظار غير مؤكد ودقائق غالية التكاليف، مما يحصر استخدامه في الحالات الحرجة القصوى. فكل مكالمة، مهما كانت بساطتها، توقظ النذر الخبيثة في مجتمع الساحة. ولهذا، عندما رجع أبي إلى البيت، راحت أمي تراقبه دون أن تقول شيئاً، إلى أن مزق قصاصة ورقية كانت في جيبه تتضمن إشعاراً باستدعاء، قضائي بتهمة سوء استغلال المهنة. انتظرت أمي الفرصة المواتية لتسأله مباشرة، ودون مقدمات، عمن كان يكلمه بالهاتف. وكان السؤال مباغتاً جداً، لم يجد معه أبي جواباً سريعاً قابلاً للتصديق، أكثر من الحقيقة:

– كنت أكلم محامياً.

فقالت أمي:

– هذا أعرفه. ولكنني بحاجة لأن تخبرني ذلك أنت بالذات، وبالصراحة التي أستحقها.

وقد وافقت أمي فيما بعد، على أنها هي من أصابها الرعب من القدر المتعفنة التي يمكن لها أن تكون قد كشفت الغطاء عنها، دون أن تنتبه، لأنه إذا كان قد تجرأ على قول الحقيقة لها، فإنما فعل ذلك، لاعتقاده بأنها تعرف كل شيء، وأن عليه أن يخبرها به.

وهذا ما حدث. اعترف أبي بأنه تلقى إشعاراً بدعوى قضائية ضده، بتهمة اغتصاب مريضة مخدرة بحقنة مورفين في عيادته. الحادثة وقعت في مركز قضائي منسي، حيث أمضى فترات قصيرة لعلاج مرضى لا يملكون موارد. وقدم على الفور دليلاً بيناً على نزاهته: ميلودراما التخدير والاغتصاب هي تلفيقة إجرامية دبرها أعداء له. أما الطفل فهو منه فعلاً، وحبلت به أمه في ظروف طبيعية.

لم يكن من السهل على أمي، تفادي الفضيحة، لأن شخصاً من الوزن الثقيل هو الذي كان يحرك خيوط المؤامرة في الظل. لقد كانت هناك سابقة أبيلاردو وكارمن روسا، اللذين عاشا معنا في فترات مختلفة محاطين بمحبة الجميع. ولكن كليهما ولد قبل زواج أمي وأبي. ومع ذلك، فقد تجاوزت أمي الضغينة أيضاً بجرعة الابن الجديد المريرة، وعدم وفاء الزوج، وناضلت إلى جانبه بوجه سافر، إلى أن قضت على أكذوبة الاغتصاب.

عاد السلام إلى الأسرة. ومع ذلك، فقد وصلت بعد قليل، أخبار سرّية من المنطقة نفسها، عن طفلة من أم أخرى اعترف بها أبي على أنها ابنته. وكانت تعيش في ظروف يرثى لها. لم تضيع أمي الوقت في منازعات وافتراضات، وإنما خاضت معركة إحضارها إلى البيت. وقد قالت في تلك المناسبة: "لقد فعلت مينا الشيء نفسه بأبناء أبي المبعثرين، ولم تندم على

ذلك قط." وهكذا تمكنت بنفسها من جعلهم يرسلون الطفلة إليها، دون ضجة عامة. وضمتها إلى الأسرة كبيرة العدد، أصلاً.

كل تلك الأمور كانت قد صارت جزءاً من الماضي، عندما وجد أخي خيمي، في حفلة في قرية أخرى، صبياً يشبه أخي غوستافو إلى حد التطابق. وكان ذاك هو الابن الذي تسبب في النزاع القضائي، وقد كبر جيداً محاطاً برعاية أمه. ولكن أمنا قامت بكل أنواع المساعي، وأحضرته ليعيش معنا في البيت – عندما كان عددنا أحد عشر ابناً – وساعدته على تعلم مهنة، وعلى الانطلاق في الحياة. عندئذ لم أستطع إخفاء دهشتي من إقدام امرأة غيور إلى حد الهذيان، على مثل تلك التصرفات، فردّت عليّ هي نفسها، بجملة ما زلتُ أحفظها، منذ ذلك الحين، مثل قطعة الماس:

– لا يمكن ترك من يحملون دمَ أبنائي نفسَهُ، هائمين على وجوههم.

كنتُ أرى اخوتي في إجازاتي السنوية فقط. وبعد كل رحلة، كنت أجد صعوبة أكبر في التعرف عليهم، وفي حفظ اسم جديد في ذاكرتي، فإضافة إلى أسمائنا المعهودة، كان لكل واحد منا، اسم آخر في البيت، ينادوننا به فيما بعد من أجل البساطة اليومية. ولم يكن تصغيراً لاسمنا وإنما لقباً عارضاً. فأنا، منذ لحظة ميلادي دعوني غابيتو – وهو تصغير غير نظامي لاسم غابرييل في ساحل غواخيرا – فكنت أشعر على الدوام بأن هذا هو اسمي الأول، وأن اسم التصغير هو غابرييل. وقد سألنا شخص أدهشته تلك التسميات الغريبة، لماذا لم يُعمِّد أبوانا منذ الأصل، جميع أبنائهم بالأسماء المستعارة.

ومع ذلك، فإن ليبرالية أمي تلك، بدت كما لو أنها تمضي باتجاه

معاكس، في موقفها من ابنتيها الكبيرتين، مارغوت وعايدا، اللتين حاولت أن تفرض عليهما الصرامة نفسها التي فرضتها أمها عليها في أثناء غرامياتها مع أبي. كانت تريد الانتقال من القرية. أما أبي بالمقابل، الذي لم يكن بحاجة إلى سماع ذلك مرتين، من أجل أن يجمع أمتعته وينطلق عبر العالم، فلم يكن موافقاً على الرحيل، في تلك المرة. انقضت عدة أيام، قبل أن أعرف أن المشكلة هي وقوع الابنتين الكبيرتين في حب رجلين مختلفين، ولكن لهما الاسم نفسه: رافائيل. وعندما أخبروني بذلك، لم أستطع منع نفسي من الضحك، وأنا أتذكر رواية الرعب التي عانى منها أبي وأمي. وقد قلتُ لها ذلك. فردت:

– الحالة ليست نفسها.

فقلتُ بإصرار:

– بل هي نفسها.

– حسنٌ – قالت بنبرة مصالحة –، إنها نفسها، ولكنها مكررة مرتين، في الوقت نفسه.

ومثلما حدث لها في حينه، لم يكن ثمة نفع لأية مبررات أو مساع. لم يُعرف قط، كيف علم الأبوان بالأمر، لأن كلاً من أختيّ، كانت قد اتخذت، على انفراد، الاحتياطات كيلا ينكشف أمرها. ولكن الشهود كانوا هم الأشخاص الذين لا تفكران في الارتياب بهم، إذ كانت الأختان تأخذان معهما أحياناً أحد أخوتنا الصغار، لإضفاء المصداقية على براءتهما. وكانت المفاجأة الكبرى هي أن أبي نفسه شارك أيضاً في ترصدهما، ليس بصورة مباشرة، ولكن بالإصرار السلبي نفسه الذي مارسه الجد نيكولاس، ضد ابنته.

"كنا نذهب إلى حفلة رقص، فيدخل أبي إلى الحفلة ويعيدنا إلى البيت، إذا ما اكتشف وجود الرافائيلين هناك". هذا ما روته عايدا روسا في مقابلة صحفية. لم يكن أبواي يسمحان لهما برحلة إلى الريف أو بالذهاب إلى السينما، أو يرسلان معهما شخصاً لا يتوقف عن مراقبتهما. وكانت كل واحدة منهما تختلق ذرائع غير مجدية للذهاب إلى مواعيدها الغرامية، فيظهر هناك شبح غير مرئي يشي بهما. وقد اكتسبت أختي ليخيا، التي تصغرهما، الشهرة بأنها جاسوسة وواشية، ولكنها هي نفسها كانت تبرر تصرفها بحجة أن الغيرة بين الأخوة هي طريقة أخرى في الحب.

حاولتُ في تلك الإجازة أن أتدخل لدى والديّ، كيلا يكررا الأخطاء التي اقترفها أبوا أمي ضدها، فكانا يجدان على الدوام، أسباباً ملتوية لعدم التفهم. وكان أكثر تلك الأسباب إثارة للرهبة، هو المنشورات التي كشفت أسراراً فظيعة – حقيقية أو مختلقة – حتى في أقل الأسر إثارة للشكوك. فقد وشت بأبُوّات مستترة، وخيانات زوجية مخجلة، ومفاسد فراش كانت معروفة للملأ عبر أساليب أكثر بساطة من المنشورات. ولكن لم يُعلق أي منشور يكشف أمراً غير معروف بطريقة ما، مهما كان خفياً، أو أمراً سيحدث عاجلاً أو آجلاً. وكان أحد الضحايا يقول: "المنشورات من فعل الشخص نفسه".

ما لم يحسب أبواي حسابه، هو أن ابنتيهما ستدافعان عن نفسيهما بالأساليب نفسها التي اتبعاها هما. لقد أرسلوا مارغوت لتدرس في مونتيريا، وذهبت عايدا بقرار منها إلى سانتا مارتا. كانتا داخليتين. وفي أيام العطل، يكون هناك شخص متيقظ يرافقهما. ولكنهما كانتا

تتدبران الأمر دوماً، للاتصال بالرافائيلين البعيدين. ومع ذلك، فقد نجحت أمي في ما لم ينجح به أبواها معها. إذ أمضت عايدا نصف حياتها في دير، وعاشت هناك دون أحزان ولا أمجاد، إلى أن شعرت بأنها صارت بمنجى من الرجال. وبقينا أنا ومارغوت متحدين دوماً، بذكريات طفولتنا المشتركة، عندما كنتُ أنا نفسي أراقب الكبار كيلا يضبطوها وهي تأكل التراب. وصارت أخيراً مثل أم ثانية للجميع، وبخاصة كيكي، الذي كان يحتاج إليها أكثر من سواه، وأبقته معها حتى نفسها الأخير.

اليوم فقط، ألاحظ إلى أي حد كانت حالة أمي المعنوية، والتوترات الداخلية في البيت، متطابقة مع تناقضات البلاد القاتلة التي لم تكن تخرج إلى العلن، بيد أنها موجودة. كان على الرئيس بيراس أن يدعو إلى انتخابات في السنة الجديدة. وكان المستقبل يبدو مكفهراً. فالمحافظون الذين تمكنوا من الإطاحة بلوبيث، حققوا بذلك الحدث لعبة مزدوجة: فهم يتملقون الرئيس الجديد، بامتداح عدم تحيّزه وحياده المحسوب رياضياً، غير أنهم يشجعون الشقاق في بروبنثيا، ليستولوا مجدداً على السلطة بالحق أو بالقوة.

ظلت سوكري مستثناة من العنف. والحالات القليلة التي تُذكر، لم تكن لها أي علاقة بالسياسة. إحدى تلك الحالات هي اغتيال خواكين بيرغا. وكان موسيقياً محبوباً يعزف البومباردينو[١] في الجوقة الموسيقية المحلية. وقد كان يعزف في الساعة السابعة مساء، عند مدخل السينما، عندما وجه إليه أحد أقرانه المعادين، ضربة واحدة بحد السكين على

(١) آلة موسيقية نحاسية من آلات النفخ.

عنقه المنتفخ من النفخ في آلته الموسيقية. ونزف على الأرض حتى الموت. كلاهما كان محبوباً في القرية، والتفسير الوحيد المعروف، وغير المؤكد، هو أنها قضية شرف. في تلك الساعة بالذات، كنا نحتفل بعيد ميلاد أختي ريتا، فأفسدت صدمة الخبر الحفلة التي كان مقرراً لها أن تستمر عدة ساعات.

المبارزة الأخرى، وهي سابقة جداً لتلك، ولكنها لا تمحى من ذاكرة القرية، كانت بين بلينيو بالماسيدا وديونيسيانو باربوس. أولهما ينتمي إلى أسرة قديمة ومحترمة. وقد كان هو نفسه، رجلاً ضخماً ولطيفاً. ولكنه يتحول إلى باحث عن المشاكل أيضاً وذي طبع مشاكس، عندما يسرف في تناول الكحول. فحين يكون بكامل وعيه، يتمتع بمزاج وظرف أي رجل مهذب. غير أنه إذا ما زاد عيار الشرب، صار عربيداً يسرع باللجوء إلى المسدس، ويحمل سوط فارس على خصره يجلد به من لا يروقه مظهره. وكانت الشرطة نفسها تحاول إبقاءه بعيداً عنها، تفادياً لشروره. وقد تعب أفراد أسرته الطيبة من جرجرته إلى البيت، كلما أسرف في الشراب، وانتهى بهم الأمر إلى التخلي عنه لمصيره.

أما ديونيسيانو باربوس فكان نقيض ذلك: رجل خجول وعاثر الحظ، عدو الخصام، ولا يشرب الكحول منذ مولده. لم تحدث له أي مشكلة مع أحد قط، إلى أن بدأ بلينيو بالماسيدا يستفزه بسخريات مهينة من مسكنته وطيبته. فصار يتجنبه كيفما استطاع، حتى اليوم الذي صادفه بالماسيدا في طريقه وصفع وجهه بسوطه، لأنه رغب في عمل ذلك. عندئذ تغلب ديونيسيانو على خجله، وعلى خنوعه وسوء طالعه، وتواجه مع المعتدي بالرصاص. كانت مبارزة سريعة، سقط

كلاهما جريحاً في حالة خطرة، ولكن ديونيسيانو وحده هو الذي مات.

ومع ذلك، فإن المبارزة التاريخية في القرية، هي الموت التوءم الذي أودى بحياة بلينيو بالماسيدا المذكور، وتاسيو آناناياس، وهو رقيب شرطة مشهور بتأنقه، وابن مثالي لماوريثيو آناناياس، عازف الطبل في الجوقة الموسيقية نفسها التي كان يعزف فيها خواكين بيغا آلة البومباردينو. كانت مبارزة رسمية في منتصف الشارع. وقد أصيب فيها كلاهما، بجرح بليغ. واحتضر كل منهما طويلاً في بيته. استعاد بلينيو الصحو بعد المبارزة مباشرة تقريباً، وأبدى قلقه فوراً على مصير آناناياس. وفوجئ هذا الأخير بدوره من القلق الذي يتضرع به بلينيو، من أجل نجاته. فبدأ كل منهما يتوسل إلى الله ألا يموت الآخر. وأبقت أسرتاهما كلاً منهما على إطلاع على حال الآخر حتى النفس الأخير. وعاشت القرية كلها حالة الذهول تلك، باذلة كل أنواع الجهود لإطالة حياتيهما.

بعد أربع وعشرين ساعة من الاحتضار، قُرعت أجراس الكنيسة، حداداً على امرأة ماتت لتوها. سمع المحتضران الأجراس، وظن كل منهما في سريره، أنها تُقرع لموت الآخر. توفي آناناياس على الفور تقريباً من الحزن، وهو يبكي موت بلينيو. عرف هذا الأخير بالأمر، فمات بعد يومين، وهو يبكي بحرقة على الرقيب آناناياس.

في بلدة أصدقاء مسالمين مثل تلك، اتخذ العنف في تلك السنوات مظهراً أقل فتكاً. ولكنه ليس أقل أذى: إنها المنشورات. كان الرعب يتأجج في بيوت الأسر الكبيرة التي تنتظر طلوع صباح اليوم التالي، مثل من ينتظر يانصيب القدر. وفي أقل الأماكن توقعاً، تظهر ورقة

عقابية، تكون مبعث راحة لما لا تقوله عن أحدهم، وأحياناً حفلة سرية لما تقوله عن آخرين. وأبي الذي ربما كان أكثر رجل مسالم عرفته، زيّت المسدس الموقر الذي لم يطلق النار قط، وأفلت لسانه في صالة البلياردو صارخاً:

- من يخطر له أن يمس أي واحدة من بناتي بكلمة، سيناله رصاص هذا الباسل.

بدأت أسر عديدة بالنزوح، خوفاً من أن تكون المنشورات مقدمة للعنف البوليسي الذي كان يعيث خراباً بقرى بكاملها، في المناطق الداخلية من البلاد، لتخويف المعارضة.

تحول التوتر إلى خبز آخر لكل يوم. في البدء جرى تنظيم دوريات متخفية، ليس للكشف عن كتبة المنشورات، بقدر ما هي لمعرفة ما تقوله، قبل أن تُمزق عند الفجر. وقد وجدنا، نحن المتأخرين في السهر، موظفاً بلدياً في الساعة الثالثة فجراً، يستمتع بالبرودة أمام باب منزله. ولكنه في الحقيقة كان يترصد من يعلقون المنشورات. قال له أخي، بين المزاح والجد، إن بعض المنشورات تقول الحقيقة. فأخرج الرجل مسدسه وصوبه مُهيأً:

- كرر ما قلته!

عندئذ علمنا أنهم قد علقوا في الليلة السابقة، منشوراً صحيحاً، ضد ابنته العازبة. ولكن المعلومات كانت متداولة بين الجميع، حتى في بيته بالذات. والوحيد الذي لم يكن يعرفها هو أبوها.

بدا جلياً في أول الأمر أن من يكتب المنشورات هو الشخص نفسه، بالريشة نفسها، وعلى الورق نفسه. ولكن في سوق تجارية ضيقة كالتي

في الساحة، لم يكن هناك سوى متجر واحد بإمكانه بيع تلك الأوراق. وقد سارع صاحبه بالذات إلى إثبات براءته. وعرفتُ منذ ذلك الحين، أنني سأكتب رواية عن المنشورات، ولكن ليس عما تقوله، وهو في الغالب، تخيلات يعرفها الجميع، وليس فيها الكثير من الطرافة. وإنما عن التوتر غير المحتمل الذي توصلت تلك المنشورات إلى توليده في البيوت.

وفي "ساعة الشؤم"، روايتي الثالثة التي كتبتها بعد عشرين سنة من ذلك، بدا لي أن أبسط متطلبات الاحترام تفرض عليَّ عدم استخدام حالات محددة بعينها، أو يمكن التعرف عليها، بالرغم من أن بعض الحالات الواقعية كانت أفضل من تلك التي اختلقتها أنا. ولكنني لم أكن بحاجة إلى ذلك، لأنني كنتُ أهتم على الدوام، فضلاً عن ذلك، بالظاهرة الاجتماعية، أكثر من اهتمامي بحياة الضحايا الخاصة. وبعد أن نشرت الرواية فقط، عرفت أن منشورات كثيرة كانت سبباً للاحتفال في الأحياء الهامشية، حيث كنا مكروهين، نحن من نسكن في الساحة الكبرى.

والحقيقة أنني لم استفد من المنشورات، إلا كنقطة انطلاق في قصة لم أستطع تجسيدها في أي وقت، لأن ما كنتُ أكتبه بالذات كان يؤكد أن المشكلة، في أعماقها، هي سياسية، وليست أخلاقية مثلما كنت أعتقد. ولقد فكرتُ على الدوام، بأن زوج نيغرومانتا هو نموذج جيد للعمدة العسكري في "ساعة الشؤم"، ولكنني بينما كنتُ أطوره كشخصية، راح يغويني ككائن بشري، ولم أجد مبرراً لأن أميته. ذلك أنني اكتشفت أنه لا يمكن للكاتب الجدّيّ أن يقتل شخصية، ما لم يكن لديه مبرر مقنع، ولم يكن الموت مقنعاً في تلك الحالة.

إنني أرى اليوم، أنه يمكن للرواية نفسها أن تكون رواية أخرى. لقد كتبتها في فندق للطلاب في شارع كوجا، في الحي اللاتيني في باريس، على بعد خمسين متراً من جادة سان ميشيل، بينما الأيام تنقضي بانتظار شيك مصرفي لم يصل قط. وعندما أنهيتها، جعلت من الأوراق لفافة وربطتها بواحدة من ربطات العنق الثلاث التي أخذتها معي، في أزمنة أفضل، ودفنتها في قاع الخزانة.

بعد سنتين من ذلك، وبينما أنا في مدينة مكسيكو، لم أكن أعرف أين هي تلك الأوراق، عندما طُلبت مني من أجل مسابقة في الرواية، تنظمها شركة إسو الكولومبية. وبجائزة قدرها ثلاثة آلاف دولار من نقود أيام الأزمات تلك. كان المبعوث هو المصور الضوئي غييرمو آنغولو، صديقي الكولومبي القديم الذي كان يعرف بوجود أصول الرواية، منذ كنتُ أكتبها في باريس. وقد أخذها بالوضع الذي كانت عليه، وهي لا تزال مربوطة بربطة العنق، دون أن يتاح لي على الأقل، كيُّها على البخار، بسبب ضيق الوقت. وهكذا أرسلتها إلى المسابقة دون أدنى أمل بالجائزة التي كانت تكفي لشراء بيت. ولكنني ما إن أرسلتها حتى أعلن عن فوزها، من قبل لجنة تحكيم سامية، في السادس عشر من نيسان ١٩٦٢ . وفي الساعة نفسها تقريباً التي ولد فيها ابني الثاني، غونثالو، وخبزه تحت إبطه.

لم يكن قد أتيح لنا الوقت حتى للتفكير في الأمر، عندما تلقيت رسالة من الأب فيلكس ريستريبو، رئيس الأكاديمية الكولومبية للغة، والرجل الطيب الذي ترأس لجنة تحكيم الجائزة، ولكنه كان يجهل ما هو عنوان الرواية. وعندئذ فقط انتبهت إلى أنني في تسرع الساعة الأخيرة، نسيت كتابة العنوان على الصفحة الأولى: "قرية البراز تلك".

ذُعِر الأب ريستريبو حين عرف العنوان، وطلب مني عن طريق خيرمان بارغاس، وبأكثر الطرق تهذيباً، أن أستبدله بعنوان آخر أقل فظاظة، وأكثر ملاءمة لإيقاع الكتاب. وبعد تداول مطول معه، حسمت أمري بعنوان ربما ليس له علاقة كبيرة بالدراما، ولكنه ينفعها كراية، لتبحر في بحار النفاق: "ساعة الشؤم".

بعد أسبوع من ذلك، دعاني الدكتور كارلوس أرانغو بيليث، سفير كولومبيا في مكسيكو، والمرشح حديثاً لرئاسة الجمهورية، إلى لقاء في مكتبه ليطلعني على أن الأب ريستريبو يرجوني أن أبدل كلمتين تبدوان له غير مقبولتين في النص الفائز: "الواقي الذكري" و "استمناء". ولم أستطع أنا ولا السفير إخفاء ذهولنا، ولكننا اتفقنا على أنه لا بد من إرضاء الأب ريستريبو للوصول إلى نهاية سعيدة، للمسابقة التي لن تنتهي، بحل غير متحيز. فقد قلتُ للسفير:

– لا بأس أيها السيد السفير. سوف أحذف إحدى الكلمتين، ولكنك أنت من ستقدم لي الجميل باختيارها.

أطلق السفير زفرة راحة، وهو يحذف كلمة "استمناء". وهكذا صُفي الخلاف، وطبعت الكتاب دار نشر إيبيروأميركانا في مدريد، بطبعة كبيرة وإطلاقة نجومية: بغلاف من الجلد، وعلى ورق ممتاز، وبطباعة متقنة. ولكنه كان شهرَ عسلٍ عابر، لأنني لم أستطع مقاومة إغراء القيام بقراءة متفحصة، فاكتشفت أن الكتاب المكتوب بلغتي الهندية، قد جرت دبلجته – مثل أفلام ذلك الزمان – إلى أنصع اللهجات المدريدية.

كنتُ قد كتبت: "Así como ustedes viven ahora, no sólo están en una situación insegura sino que costituyen un mal ejemplo para el pueblo".

وقد بعثت إعادة الكتابة التي قدمها المحرر الإسباني القشعريرة في جلدي: " Así como vivís ahora, no sólo estáis en una situación insegura sino que costituís un mal ejemplo para el pueblo"[1] والأخطر من ذلك، أن من يقول هذه العبارة هو كاهن، مما سيدفع القارئ الكولومبي إلى الظن أنها غمزة من المؤلف للإشارة إلى أن الخوري، في الرواية، إسباني، وهو ما سيعقِّد سلوكه، وينزع الأجواء الطبيعية تماماً عن مظهر جوهري في الدراما. ولم يكتف المصحح بتمشيط النحو في الحوارات، بل خوّل نفسه التدخل بيد مسلحة في الأسلوب، فامتلأ الكتاب بترقيعات مدريدية لا علاقة لها بالأصل. وبالنتيجة، لم يبق لي من مخرج سوى عدم الاعتراف بتلك الطبعة، باعتبارها مزيفة، وجمع النسخ التي لم تُبع وإحراقها. أما ردّ المسؤولين فكان الصمت الكامل.

منذ تلك اللحظة، اعتبرتُ الرواية غير منشورة. وانهمكت في المهمة القاسية لإعادة ترجمتها إلى لهجتي الكاريبية، لأن نسخة المخطوط الأصلية الوحيدة هي تلك التي أرسلتها إلى المسابقة، وهي نفسها التي ذهبت إلى إسبانيا، من أجل تلك الطبعة. وبعد إقرار النص الأصلي الذي صححته في أثناء ذلك، مرة أخرى، بمبادرة مني، نشرت الرواية دار إيرا، في مكسيكو، مع التنبيه المطبوع والواضح بأنها الطبعة الأولى.

(١) الفوارق هي في تحويل الأفعال التي أشرنا بخط تحتها من التكلم بكلفة، إلى التكلم برفع الكلفة. وهما أسلوبان تختلف دلالتهما (في اللغة المتداولة) في إسبانيا عما هي عليه في بعض بلدان أميركا اللاتينية، وبخاصة الكاريبية منها. أما ترجمة العبارة فهي كما يلي: "هذه الحياة التي تعيشانها الآن، لا تجعلكما في وضع غير آمن وحسب، وإنما تقدمان بها قدوة سيئة للقرية". وهذه العبارة يقولها الأب أنخل في رواية "ساعة الشؤم" لدون ساباس وعشيقته وهو يحضهما على الزواج بصورة شرعية.

لم أدرِ قط، لماذا كانت "ساعة الشؤم" هي الوحيدة بين كتبي التي تحيلني إلى زمانها ومكانها، في ليلة ذات قمر كبير ونسمات ربيعية. كان ذلك في يوم سبت، وكان المطر قد انقطع، ولم تكن السماء تتسع للنجوم. وكانت الساعة قد أعلنت الحادية عشرة للتو عندما سمعتُ أمي في غرفة الطعام تهمس بأغنية حب شعبية لكي تنوّم الطفل الذي تتمشى، وهي تحمله بين ذراعيها. سألتها من أين أتت الموسيقى، فردت عليّ بطريقتها:

- من بيوت قاطعات الطريق.

أعطتني خمسة بيزوات دون أن أطلب منها ذلك، لأنها رأتني أرتدي ملابسي للذهاب إلى الحفلة. وقبل أن أخرج نبهتني، ببعد بصيرتها المؤكد، إلى أنها ستترك باب الفناء مغلقاً، دون أن توصده، لكي أتمكن من العودة في أي وقت أشاء، دون أن أوقظ أبي. لم أصل إلى بيوت قاطعات الطريق، لأنه كانت هناك تدريبات موسيقية في بيت المايسترو بالديس، وكان لويس إنريكي قد انضم إلى فرقته، فور عودته إلى البيت.

انضممت إليهم في تلك السنة، للعزف على التيبلي والغناء، مع معلميهم الستة المجهولين، حتى الفجر. لقد كنتُ أنظر دوماً إلى أخي على أنه عازف جيتار جيد، ولكنني عرفت، منذ الليلة الأولى، أن الجميع، بمن فيهم خصومه الألداء، يعتبرونه فناناً بارعاً. لم تكن هناك فرقة موسيقية أفضل. وكانوا واثقين من أنفسهم، إلى حد أنه عندما يتعاقد أحد معهم من أجل سرناد مصالحة أو استرضاء، تحت نافذة حبيبته، يطمئنه المايسترو بالديس مسبقاً:

- لا تقلق، سنجعلها تنام، وهي تعض وسادتها.

الإجازات من دونه، لم تكن كالإجازات التي يكون فيها. فقد كان هو ولويس إنريكي، مع فيلادبلفو بيليّا يعزفون كمحترفين. وكان أن اكتشفتُ آنذاك، وفاء الكحول، وتعلمت العيش بصورة سوية، بالنوم نهاراً والغناء ليلاً. ومثلما تقول أمي: لقد أفلتُّ العنان للعربدة.

لقد قيل عني كل شيء، وشاع القول عن أن رسائلي لا تصل إلى عنوان أبويّ، وإنما إلى بيوت قاطعات الطريق. تحولتُ إلى اكثر الزبائن مواظبة على ما يطهونه من وجبات السانكوتشو الملحمية، بمرارة النمر، ومرق عظامات الإغوانا التي تمنح القوة لثلاث ليالٍ متتالية. لم أعد أقرأ أو أنضم إلى مائدة الأسرة. وكان ذلك ينطبق على الفكرة التي عبرت عنها أمي مرات عديدة، بأنني أفعل ما يحلو لي، كما أشاء، بينما المسكين لويس إنريكي هو الذي يجرجر سوء السمعة. وقد قال لي لويس إنريكي، في أحد تلك الأيام، دون أن يعرف بأمر عبارة أمي: "الشيء الوحيد الذي ينقصني الآن هو أن يقولوا إنني المسؤول، ويرسلوني مرة أخرى إلى دار الإصلاح".

قررت أن أهرب في عيد الميلاد من منافسة العربات السنوية. وقد فررت برفقة صديقين متواطئين إلى بلدة ماخاغوال المجاورة. أعلنتُ في البيت أنني سأذهب لثلاثة أيام. ولكنني بقيت عشرة. وكان الذنب في ذلك هو ذنب ماريا أليخاندرينا ثيرفانتس، وهي امرأة غير معقولة، تعرفت عليها في الليلة الأولى، وفقدت معها عقلي في أشد حفلات العربدة صخباً في حياتي. حتى صباح يوم الأحد الذي لم أجدها فيه في فراشي، واختفت إلى الأبد. بعد سنوات من ذلك، أخرجتها من حنيني،

ليس بسبب أفضالها ومحاسنها، بقدر ما هو بسبب رنين اسمها. وبعثتها لتحمي امرأة أخرى، في واحدة من رواياتي، كصاحبة وسيدة بيت متعة لم يكن له وجود قط.

حين رجعتُ إلى البيت، وجدت أمي تغلي القهوة في المطبخ، في الساعة الخامسة فجراً. فطلبت مني، بهمسها المتواطئ، أن أبقى معها، لأن أبي قد استيقظ، وهو مستعد لأن يثبت لي أنني لست حراً كما أظن نفسي، حتى وأنا في إجازتي. قدمت لي فنجاناً من القهوة الخشنة، بالرغم من معرفتها بأنها لا تروقني، وأجلستني إلى جانب الموقد. دخل أبي بالبيجاما، والنعاس لا يزال بادياً عليه، وفوجئ برؤيتي، ومعي الفنجان الذي يتصاعد منه البخار، ولكنه وجه إلي سؤالاً موارباً:

– ألم تكن تقول إنك لا تشرب القهوة؟

ودون أن أجد ما أردّ به، اختلقت أول ما خطر لي:

– أشعر بالعطش دوماً، في مثل هذه الساعة.

فردّ هو:

– مثل كل السكيرين.

لم ينظر إليّ بعدها. ولم يعد إلى الحديث في الموضوع. ولكن أمي أخبرتني أن أبي الذي تضايق منذ ذلك اليوم، بدأ يعتبرني حالة ميئوساً منها، وإن لم يُشعرني بذلك قط.

تزايدت نفقاتي إلى حدّ قررت معه السطو على نقود أمي. وقد برأني لويس إنريكي بمنطقه القائل إن النقود التي تُسرق من الآباء، إذا استُخدمت من أجل السينما وليس للتعهر، فإنها نقود شرعية. عانيتُ من حرج تواطؤ أمي في سعيها لئلا يعرف أبي أنني أمضي في دروب

خبيثة. وقد كانت على حق، إذ كان ملحوظاً، بصورة واضحة في البيت، أنني أظل نائماً أحياناً، دون مسوغ حتى موعد الغداء، وكان لي صوت ديك أبح، وأمضي ساهياً إلى حد لم أسمع معه في أحد الأيام، سؤالين طرحهما أبي عليّ. فوجه إليّ عندئذ، أشدّ تشخيصاته قسوة:

– أنت مريض في كبدك.

وعلى الرغم من كل ذلك، تمكنتُ من الحفاظ على المظاهر الاجتماعية. فكنت أبدو حسن الملبس، وأكثر تهذباً في حفلات الرقص وولائم الغداء، التي تنظمها في المناسبات أسرُ الساحة الكبرى، ممن تظل بيوتهم مغلقة طوال السنة، ويفتحونها في عطلة عيد الميلاد، عندما يرجع الطلاب.

كانت تلك السنة هي سنة كايتانو خينتيلي الذي احتفل بإجازته، بإقامة ثلاث حفلات رقص بديعة. وقد كانت تلك الحفلات بالنسبة لي تواريخ حظ، لأنني رقصت طوال الوقت، في الحفلات الثلاث، مع الفتاة نفسها. دعوتها إلى الرقص في الليلة الأولى، دون أن أتكلف مشقة السؤال عمن تكون، أو ابنة من هي، أو من ترافق. بدت لي متحفظة جداً، فاقترحتُ عليها في الرقصة التالية، بجدية، أن نتزوج، وكان جوابها أكثر غموضاً:

– أبي يقول إنه لم يولد بعد كما يبدو من سيتزوجني.

بعد أيام رأيتها تجتاز المنهل في الساحة، تحت شمس الثانية عشرة الحارقة، مرتدية فستاناً برّاقاً من الأورغنزا، وهي تقود بيديها طفلاً وطفلة في السادسة والسابعة من عمريهما. "إنهما ابناي"، قالت لي وهي تموت من الضحك، دون أن أسألها عنهما. وقد قالت ذلك، بمكر كبير، بدأتُ أفكر معه في أن اقتراحي بالزواج، لم يذهب أدراج الرياح.

تعلمتُ النوم في أرجوحة النوم، منذ طفولتي المبكرة في بيت آراكاتاكا، ولكنني في سوكري فقط، جعلت منها جزءاً من طبيعتي. ليس هناك ما هو أفضل منها للقيلولة، ولعيش ساعة النجوم، وللتفكير بتمهل، ولممارسة الحب دون مزاعم وأوهام. في اليوم الذي عدتُ فيه من أسبوعي الماجن، علقتها بين شجرتين في الفناء، مثلما كان يفعل أبي في أزمنة أخرى، ونمتُ مطمئن الضمير. ولكن أمي المرعوبة من أننا، نحن أبناءها، سنموت في أثناء نومنا، أيقظتني في نهاية المساء، لترى إذا ما كنتُ ما أزال حياً. وعندئذ اضطجعت إلى جانبي، وتطرقت دون مقدمات، إلى المسألة التي تنغص حياتها.

– أبوك وأنا، نريد أن نعرف ما الذي أصابك.

لا يمكن للجملة أن تكون أكثر دقة. كنت أعرف منذ بعض الوقت أن أبويّ يتقاسمان القلق من طريقتي في الحياة، وكانت هي ترتجل تفسيرات تافهة لطمأنته. لم يكن يحدث شيء في البيت لا تعلم به أمي، وكانت نوبات غضبها أسطورية، منذ زمن. ولكن الكأس طفحت بعودتي إلى البيت في وضح النهار، طوال أسبوع. وكان موقفي الصحيح هو تفادي أسئلتها أو تركها معلقة إلى فرصة مناسبة، ولكنها كانت تعرف أن مسألة بمثل تلك الجدية، تتطلب إجابات فورية.

كانت كل حججها مشروعة: فأنا أغادر عند الغروب، مرتدياً ملابس من هو ذاهب إلى عرس. ولا أرجع للنوم في البيت، ولكنني أغفو في اليوم التالي، في أرجوحة النوم إلى ما بعد موعد الغداء. لم أعد أقرأ. ولأول مرة منذ ولادتي، صرت أتجرأ على العودة إلى البيت، دون أن أعرف أين كنتُ بالضبط. وقالت لي أمي: "حتى إنك لا تنظر

إلى أخوتك، وتخطئ بأسمائهم وأعمارهم. وقبل أيام قبّلت حفيد كليمنتيا موراليس، معتقداً أنه أحد أخوتك" ولكنها سرعان ما وعت مبالغاتها، فعوضتها بالحقيقة البسيطة:

– وباختصار، لقد صرتَ غريباً في البيت.

قلت لها:

– كل هذا صحيح، ولكن السبب بسيط جداً: لم أعد أطيق هذه الحال.

– منا؟

وكان يمكن لردي أن يكون بالإيجاب، ولكنه لن يكون عادلاً. فقلت:

– من كل شيء.

وعندئذ، أخبرتها بحقيقة وضعي في المعهد. وبأنهم يحكمون علي، من خلال درجاتي التي أنالها. وأن أبويّ يفاخران بنتائجي سنة بعد سنة. وهما لا يظنان أنني التلميذ الذي لا تشوبه شائبة وحسب، وإنما كذلك الصديق المثالي، والأكثر ذكاء وسرعة، والأوسع شهرة، بفضل لطفه وكياسته. أو مثلما كان يقول جدي: "الطفل الكامل".

ومع ذلك، من أجل أن أنتهي بسرعة، فإن الحقيقة هي عكس ذلك. فأنا أبدو كذلك فقط، لأنني لا أمتلك جرأة أخي لويس إنريكي، وحسه بالمسؤولية. لأنه يفعل ما يشاء على هواه. وهو سوف يتوصل دون ريب إلى سعادة غير تلك التي يتمناها الآباء لأبنائهم؛ ولكنها التي تتيح لهم تجاوز حنان الأبوين المفرط، ومخاوفهما غير العقلانية، وآمالهما السعيدة.

صُعقت أمي، للصورة المناقضة لتلك التي صاغاها في أحلامهما المتوحدة. وقالت بعد صمت قاتل:

– لا أدري ماذا ستفعل الآن، لأنني إذا ما أخبرت أباك بكل هذا، فسوف يموت في الحال. ألا تدرك أنك فخر الأسرة؟

المسألة في نظرهما كانت بسيطة: بما أنه ليس هناك أي إمكانية لأن أكون الطبيب اللامع الذي لم يستطع أبي أن يصير إليه، بسبب شح الموارد، فإنهما يحلمان على الأقل، بأن أكون خريجاً جامعياً في أي شيء آخر.

فاختتمت:

– لن أكون شيئاً. إنني أرفض أن تجعلوا مني، بالإكراه، ما لا أريد أن أكونه، وأرفض أن أكون مثلما تريدون أنتم أن أكون. وأقل من ذلك، مثلما تريد الحكومة.

استمر الجدال، بشيء من الصدامية الطائشة، طوال بقية الأسبوع. وأظن أن أمي كانت تريد كسب الوقت، لكي تتحدث في الأمر مع أبي، وقد منحتني هذه الفكرة نفساً جديداً. وفي أحد الأيام أطلقت اقتراحاً مفاجئاً:

– يقولون إنه يمكن لك، إذا ما صممت، أن تصير كاتباً جيداً.

لم أكن قد سمعت مثل ذلك الكلام، من قبل، في الأسرة قط. فميولي منذ الطفولة، كانت تتيح الافتراض بأنني قد أصير رساماً، موسيقياً، مغنياً في الكنيسة، أو شاعراً جوالاً في أيام الآحاد. وكنت قد اكتشفت ميلاً معروفاً لدى الجميع، إلى أسلوب في الكتابة، أقرب إلى التلوّي والرقة الأثيرية. ولكن ردّ فعلي في هذه المرة، كان أقرب إلى المفاجأة، فقد أجبت أمي:

– إذا كان علي أن أصير كاتباً، فلا بد لي من أن أكون أحد

الكبار. وهؤلاء لا يصنعونهم. وهناك في نهاية المطاف، مهن أفضل كثيراً إذا ما كنتُ أرغب في الموت جوعاً.

في إحدى تلك الأمسيات، وبدلاً من أن تتبادل الحديث معي، بكت دون دموع. لو أن ذلك حدث اليوم لأثار هلعي، لأنني أقدّر البكاء المكبوح كدواء ناجع ومؤكد تلجأ إليه النساء القويات، لفرض نواياهن. ولكنني في الثامنة عشرة من عمري، لم أدرِ ما أقول لأمي، فأحبط صمتي دموعها. وقالت عندئذ:

– حسن جداً. عاهدني على الأقل أن تنهي الثانوية، على أفضل وجه ممكن، وأنا سأتولى ترتيب ما تبقى مع أبيك.

كلانا أحسسنا في الوقت نفسه، براحة الفوز. وافقت على طلبها، من أجلها ومن أجل أبي على السواء، لأنني خفت أن يموتا إذا لم نتوصل بسرعة إلى اتفاق. وهكذا وجدنا الحل السهل بأن أدرس الحقوق والعلوم السياسية، ليس لأن هذه الدراسة تشكل قاعدة ثقافية جيدة، لأي مهنة أخرى وحسب، وإنما كذلك لأنها دراسة إنسانية، تُقدَّم دروسها في الفترة الصباحية، فيكون لدي متسع من وقت الفراغ للعمل بعد الظهر. ولقلقي كذلك، من شحنة التأثر التي تحملتها أمي في تلك الأيام، طلبت منها أن تهيئ الأجواء، لكي أكلم أبي وجهاً لوجه. عارضت ذلك، وهي واثقة من أننا سننتهي إلى النزاع. وقالت لي:

– لا وجود في هذا العالم لرجلين أكثر تشابهاً من تشابهكما. أنت وهو. وهذا أسوأ حال للنقاش.

لقد كنتُ أعتقد على الدوام، عكس ذلك. ولكني الآن فقط، وبعد أن مررت بكل المراحل العمرية التي مرّ بها أبي في حياته المديدة، بدأت أرى نفسي في المرآة، أكثر شبهاً به من نفسي.

وكان على أمي، أن تتوج تلك الليلة بأسلوبها في تزيين الأمر، لأن أبي جمع الأسرة كلها حول المائدة، وأعلن بصورة غير متوقعة: "سيكون لدينا محام في البيت". ولخشيتها من أن يفتح أبي الجدال مجدداً لتشارك فيه الأسرة بكاملها، تدخلت أمي بأفضل ما لديها من براءة لتوضح لي:

– في وضعنا هذا، ومع هذا العدد من الأبناء، فكرنا في أن أفضل حلّ هو الدراسة الوحيدة التي يمكنك تغطية نفقاتها بنفسك.

لم يكن أمر الدراسة بتلك البساطة أيضاً، ولا بأي حال. ولكنه يمكن أن يكون بالنسبة لنا، أهون الشرور، ويمكن لأضراره أن تكون أقل دموية. وهكذا طلبتُ من أبي أن يبدي رأيه، لأجاريها في اللعبة، وكان جوابه فورياً وبصراحة مؤثرة:

– ماذا تريدني أن أقول؟ إنك تمزّق قلبي إلى نصفين. ولكن يبقى لي على الأقل، الفخر بمساعدتك في أن تكون ما تشاؤه أنت.

ذروة ترف كانون الثاني لسنة ١٩٤٦ ذاك، تمثلت في رحلتي الأولى بالطائرة، بفضل خوسيه بالينثيا الذي جاء، ولديه مشكلة كبيرة. كان قد أنهى، بقفزات متتالية، سنوات الدراسة الثانوية الخمس الأولى في كارتاخينا، ولكنه أخفق في السنة السادسة. تعهدتُ بأن أجد له مكاناً في معهدنا، لكي يحصل أخيراً على شهادته، فدعاني للذهاب معه بالطائرة.

كانت هناك رحلتان أسبوعياً، إلى بوغوتا في طائرة من طراز DC-3 تابعة لشركة LANSA. ولم تكن مجازفة الرحلة الكبرى هي الطائرة نفسها، وإنما الأبقار الطليقة على المدرج الطيني المرتجل في المراعي.

فكان على الطائرة في بعض الأحيان أن تقوم بعدة جولات حتى تتمكن من إخافة الأبقار وإبعادها. ويعود إلى تلك الفترة، تدشينُ خوفي الخرافي من الطائرة، وهي الفترة نفسها التي كانت الكنيسة تحظر فيها نقل خبز القربان المقدس بالطائرة لتجنيبه الكوارث. كانت الرحلة تستمر حوالى أربع ساعات دون توقف، بسرعة ثلاثمئة وعشرين كيلومتراً في الساعة. وكنا نحن الذين قمنا من قبل بالرحلة النهرية العجيبة، نتتبع الطريق من الجو، على الخريطة الحية، لنهر مجدلينا الكبير. نتعرف على القرى كأنها ماكيتات مصغرة، وعلى السفن كأنها ألعاب تتحرك بنوابض، وعلى الدمى السعيدة التي تلوح لنا مودِّعة من باحات المدارس. وكانت المضيفات اللواتي من لحم وعظم، يقضين الوقت في طمأنة الركاب الذين يسافرون وهم يُصلّون، وفي إسعاف من يغمى عليهم، وفي إقناع كثيرين بأنه لا وجود لخطر الاصطدام بأسراب نسور الرخمة التي تترصد الجيف التي يحملها النهر. وكان المسافرون الخبيرون من جانبهم، يروون أخبار رحلاتهم التاريخية الطائرة، مرة بعد أخرى، كمآثر في الشجاعة. وقد شعرنا بالارتفاع للتحليق فوق نجد بوغوتا، دون تكييف للضغط الجوي، ودون أقنعة أوكسجين، كأنه قرع طبول في قلوبنا، فكانت الاهتزازات وخفق الأجنحة يزيدان من سعادة الهبوط. ولكن المفاجأة الكبرى هي أننا وصلنا قبل برقياتنا التي أرسلناها في اليوم السابق.

أثناء مرورنا العابر في بوغوتا، اشترى خوسيه بالينثيا آلات موسيقية لفرقة أوركسترا كاملة. ولست أدري إذا ما فعل ذلك، بناء على تفكير مسبق، أم حدس مسبق، ولكن منذ أن رآه المدير إسبيتيا

يدخل، وهو يطأ الأرض بثبات، ومعه تلك الجيتارات والطبول والماراكات والهورمنكات، أدركتُ أنه قد قُبل في المعهد. كما أحسست أنا أيضاً من جهتي بوزن وأهمية وضعي الجديد، منذ أن اجتزت المدخل: فقد صرت تلميذاً في السنة السادسة. لم أكن أعي، حتى ذلك الحين أنني أحمل في جبهتي نجمة يحلم بها الجميع، وكان ذلك يبدو جلياً من الطريقة التي يتقربون بها منا، واللهجة التي يتكلمون بها إلينا، بشيء من الخوف التوقيري. وقد كانت تلك السنة كذلك، هي سنة عيد بكاملها. فعلى الرغم من أن قاعة النوم مخصصة لذوي المنح الدراسية وحدهم، إلا أن خوسيه بالينثيا استقر في أفضل فندق في محيط ساحة المدينة، وكانت إحدى صاحبات الفندق تعزف البيانو، فتحولت حياتنا إلى يوم أحد متواصل طوال السنة.

كانت تلك قفزة أخرى في حياتي. لقد كانت أمي تشتري لي ملابس مستعملة، في مراهقتي، وعندما لا تعود تنفع لمقاسي، تكيفها لأخوتي الصغار. وكانت أكثر السنوات إشكالية هما السنتان الأوليان في المعهد، لأن ثياب الصوف المناسبة للمناخ البارد، كانت غالية وصعبة. وبالرغم من أن جسدي لم يعد ينمو باندفاع كبير، إلا أنه لم يكن هناك متسع من الوقت، لتكيف الألبسة نفسها لمقاسين مختلفين، في الوقت نفسه. ومما زاد الطين بلة، أن عادة تبادل الملابس، بين الطلبة الداخليين، لم تصل إلى حدّ فرض نفسها، لأن الاستعارات كانت تبدو واضحة، بحيث تعرّض لابسيها الجدد إلى سخريات لا تطاق. وقد حلت هذه المسألة جزئياً، عندما فرض المدير إسبيتيا زياً موحداً من سترة زرقاء، وبنطال رمادي، فوحد المظهر وأخفى الملابس المستعملة.

في السنتين الثالثة والرابعة، استخدمت البدلة الوحيدة التي أصلحها لي خياط سوكري. ولكنني اضطررت إلى شراء بدلة أخرى في حالة جيدة للسنة الخامسة. غير أنها لم تنفعني حتى السنة السادسة. ومع ذلك، فقد تحمس أبي جداً لنواياي في إصلاح نفسي، فأعطاني نقوداً لشراء بدلة جديدة على مقاسي. كما أهدى إليّ خوسيه بالينثيا، بدلة أخرى من بدلاته في السنة السابقة، وهي من صوف الجمال، وغير مستعملة تقريباً. ولكنني سرعان ما تأكدتُ من أن المسوح وحدها لا تصنع الراهب. فقد حضرت، بالبدلة الجديدة، حفلات الرقص التي كان يسيطر عليها الساحليون، ولم أتوصل إلى التعرف إلا على خطيبة واحدة لم تدم علاقتي بها سوى أقل من عمر زهرة.

استقبلني إسبيتيا بحماس غريب. فكان يبدو كأنه يملي حصتي الكيمياء، الأسبوعيتين عليّ أنا تحديداً، مع دفق من الأسئلة والإجابات. وقد تكشف لي ذلك الاهتمام، كنقطة انطلاق جيدة، لإنجاز ما وعدتُ به أبويّ من نهاية جديرة. وما سوى ذلك، تكفل به منهج مارتينا فونسيكا الوحيد والبسيط: تركيز الانتباه، في الدروس من أجل تجنب السهر والفزع في لحظات الرعب الأخيرة. لقد كانت من التعليمات الحكيمة. وقد هدأت مخاوفي، منذ قررت تطبيقها في السنة الأخيرة في المعهد. فكنتُ أجيب بسهولة على أسئلة الأساتذة الذين صاروا أكثر تآلفاً معنا، وأدركت كم هو سهل إنجاز العهد الذي قطعته لأبوي.

أما مشكلتي الوحيدة المثيرة للقلق، فبقيت هي مسألة ولولات الكوابيس. وكان الأستاذ المشرف على الانضباط آنذاك، والمرتبط بعلاقات طيبة مع تلاميذه، هو الأستاذ غونثالو أوكامبو. وقد دخل في

إحدى ليالي الفصل الثاني من السنة، على رؤوس أصابعه، إلى قاعة النوم المظلمة، ليطلب مني مفاتيح له، تسببتُ إعادتها إليه. وما كاد يضع يده على كتفي، حتى أطلقت زعيقاً متوحشاً أيقظ الجميع. وفي اليوم التالي، نقلوني إلى غرفة نوم أخرى مرتجلة تتسع لستة أشخاص، في الطابق الثاني.

كان ذلك حلاً لمخاوفي الليلية، ولكنه حلّ مغرٍ جداً. لأن الغرفة كانت فوق مستودع المؤونة. وقد تسلل أربعة من طلاب حجرة النوم المرتجلة تلك، إلى المطبخ وسَطوا عليه، مثلما يشتهون، من أجل عشاء في منتصف الليل. وقد بقيت أنا، أقلهم جرأة، وسيرخيو كاسترو غير المريب، في سريرينا لنقوم بالتفاوض في حالة الطوارئ. وبعد مرور ساعة من الوقت، رجعوا، ومعهم نصف التموين جاهزاً للأكل. وكانت تلك هي أضخم وجبة في سنوات إقامتنا الداخلية الطويلة. غير أنهم، لسوء الهضم، اكتشفوا فعلتنا خلال أربع وعشرين ساعة. وفكرتُ في أن تلك الواقعة ستضع حداً لكل شيء، إلا أن موهبة المدير إسبيتيا في التفاوض، أنقذتنا من الطرد.

لقد كانت مرحلة جيدة في المعهد، وواعدة على الأقل، في البلاد. فقد أدت حيادية الرئيس المؤقت بيراس، دون أن يخطط لذلك، إلى زيادة التوتر الذي بدأنا نشعر به، لأول مرة في المدرسة. ومع ذلك، فإنني أدرك اليوم، أنه كان موجوداً قبل ذلك، في داخلي. ولكنني في ذلك الحين فقط، بدأت أعي نوعية البلاد التي أعيش فيها. فبعض الأساتذة الذين كانوا يحاولون البقاء على الحياد، منذ السنة السابقة، لم يستطيعوا التوصل إلى ذلك في الدروس، وراحوا يطلقون زخات عسيرة

الهضم، حول أفضلياتهم السياسية. ولا سيما بعد بدء الحملة الدعائية القاسية، للرئاسة التالية.

وفي كل يوم كان يظهر بجلاء أكبر، أن الحزب الليبرالي، بمرشحيه: غايتان وطربيه، في الوقت نفسه، سيخسر رئاسة الجمهورية، بعد خمس وعشرين سنة من حكمه المطلق. كانا مرشحين شديدي التباين، كما لو أنهما من حزبين مختلفين، ليس في خطاباهما الشخصية وحسب، وإنما كذلك بسبب تصميم المحافظين الدموي، الذين رأوا الأمر واضحاً، منذ اليوم الأول: فبدلاً من مرشحهم لاوريانو غوميث، فرضوا ترشيح أوسبينا بيريث. وكان مليونيراً اكتسب شهرة واسعة بكونه بطريركاً. وبوجود التيار الليبرالي منقسماً، والتيار المحافظ متحداً ومسلحاً، لم يكن هناك خيار آخر: جرى انتخاب أوسبينا بيريث.

استعد لاوريانو غوميث، منذ ذلك الحين، ليخلفه، باللجوء إلى استخدام القوات الرسمية في أعمال عنف شاملة. فكانت استعادة جديدة للواقع التاريخي، في القرن التاسع عشر، حيث لم نعرف السلام، وإنما فترات هدنة عابرة بين ثماني حروب أهلية عامة، وأربع عشرة محلية، وثلاثة انقلابات عسكرية، انتهت أخيراً بحرب الألف يوم التي خلّفت حوالى ثمانين ألف قتيل في الجانبين، من عدد سكان يقل عن أربعة ملايين. هكذا كان الوضع ببساطة: برنامج مشترك ومتكامل للتقهقر مئة سنة إلى الوراء.

في نهاية العام الدارسي، قام الأستاذ خيرالدو باستثناء مشهود تجاهي، لم أستطع التخلص من عاره حتى الآن. فقد أعدّ لي قائمة أسئلة بسيطة لكي أنجح في مادة الجبر التي تجاهلتها طوال أربع سنوات،

وتركني وحدي في مكتب الأساتذة، ووسائل الغش كلها في متناول يدي. رجع واهماً بعد ساعة من ذلك، ورأى النتيجة الكارثية، فألغى كل صفحة بخطين متقاطعين، من أعلاها إلى أسفلها، وأطلق زمجرة شرسة: "يا لهذا الرأس المتعفّن". ومع ذلك، فقد ظهرتُ ناجحاً بمادة الجبر في التقويم النهائي، ولكنني وجدتُ ما يكفي من الوقار، لعدم شكر الأستاذ على مخالفته مبادئه وواجباته لمصلحتي.

عشية الامتحان النهائي لتلك السنة، وقعت حادثة مؤسفة بيني أنا وغييرمو لوبيث غيراً من جهة، والأستاذ غونثالو أوكامبو من جهة أخرى، بسبب مشادة سكارى. كان صديقنا خوسيه بالينثيا قد دعانا للدراسة معه في غرفته في الفندق، وهو درةٌ معمارية على الطراز الكولونيالي، مع إطلالة حالمة على الحديقة المزهرة، والكاتدرائية كخلفية. وبما أنه لم يكن قد تبقى سوى الامتحان الأخير، فقد بقينا هناك حتى الليل، ورجعنا إلى المدرسة، مارين في طريقنا على حانات الفقراء التي اعتدنا ارتيادها. كان الأستاذ أوكامبو هو أستاذ الانضباط المناوب، فوبخنا لعودتنا في مثل تلك الساعة المتأخرة، ولحالتنا المتردية، فواجهناه كلانا بالسباب. فأيقظ ردُّ فعله الغاضب، وأصواتنا الصارخة جميع من في قاعة النوم.

كان قرار جمعية الأساتذة هو منعي أنا ولوبيث غيراً من التقدم إلى الامتحان النهائي الوحيد المتبقي. وهذا يعني أنه لا يمكن لنا، في تلك السنة على الأقل، إنهاء الدراسة الثانوية. لم ندر قط، كيف جرت المفاوضات السريّة بين الأساتذة، لأنهم اتفقوا في تضامن لا يمكن اقتحامه. فكان على المدير إسبيتيا أن يتولى حل المشكلة على

مسؤوليته. وتوصل إلى إمكانية أن نتقدم إلى الامتحان في وزارة التربية، في بوغوتا. وكان هذا ما جرى. وقد رافقنا إسبيتيا نفسه إلى العاصمة، وبقي معنا بينما نحن نجيب عن أسئلة الامتحان التحريري الذي جرى تصحيحه هناك بالذات. وكانت النتيجة جيدة.

لا بد أن الوضع الداخلي كان معقداً جداً، لأن أوكامبو لم يحضر الحفل الرسمي، ربما بسبب الحلّ السهل الذي لجأ إليه إسبيتيا، وتقديرنا الممتاز. وأخيراً أهلتني نتائجي الشخصية لنيل جائزة خاصة، هي كتاب لا ينسى: "حيوات الفلاسفة اللامعين"، من تأليف ديوجينس لايرثيو. لم تكن النتيجة أكثر مما كان أبواي ينتظرانه وحسب، وإنما كنت الأول في تقويم تلك السنة، على الرغم من أن زملائي في الصف - وأنا أكثر من الجميع - كنا نعرف أنني لم أكن الأفضل.

٥

لم أتصور قط أن قصتي القصيرة الأولى ستُنشر، بعد تسعة شهور على تخرجي من الثانوية، في الملحق الأدبي "نهاية الأسبوع" الذي تصدره جريدة الاسبكتادور في بوغوتا، وهي أكثر صحف تلك المرحلة أهمية وصرامة. وبعد اثنين وأربعين يوماً من ذلك، نُشرت القصة القصيرة الثانية. ومع ذلك، فإن أكثر ما فاجأني هو الملاحظة التكريسية التي كتبها نائب مدير الجريدة، ومدير الملحق الأدبي، إدواردو ثالاميا بوردا، الملقب أوليسيس، وكان ألمع ناقد أدبي آنذاك، والأكثر تيقظاً لظهور قيم أدبية جديدة.

لم يكن أمراً متوقعاً، وليس من السهل روايته. كنتُ قد سُجلت، في مطلع تلك السنة، في كلية الحقوق بالجامعة الوطنية في بوغوتا، مثلما جرى الاتفاق مع أبوي. وكنتُ أعيش في مركز المدينة تماماً، في نزل في شارع فلوريدا، معظم نزلائه طلاب من منطقة ساحل الأطلسي. وكنتُ في فترات ما بعد الظهر، بدلاً من أن أعمل لأعيش، أظل أقرأ في غرفتي أو في المقاهي التي تسمح بذلك. كانت قراءاتي في كتب يوفرها الحظ والمصادفات، تعتمد على حظي أكثر من اعتمادها على مصادفاتي، ذلك أن الأصدقاء القادرين على شرائها يعيرونني إياها

لفترات محدودة، فأقضي الليالي ساهراً كي أتمكن من إعادتها إليهم في الموعد المحدد. ولكن، على العكس من الكتب التي قرأتها في معهد ثيباكيرا، والجديرة بأن تكون في ضريح للكتّاب المكرسين، صرنا نقرأ الآن كتباً حديثة، كأنها خبز طازج، مترجمة لتوها ومطبوعة في مدينة بوينس آيرس التي عرفت حياة نشر طويلة، خلال الحرب الأوروبية الثانية. وهكذا حالفني الحظ في اكتشاف من هم مكتشفون جداً منذ زمن، مثل خورخي لويس بورخيس، ودي. آتش. لورانس، وألدوس هكسلي، غراهام غرين، تشيسترتون، ويليام إيريش، وكاترين مانسفيلد وغيرهم.

كانت هذه المستجدات معروضة في واجهات المكتبات البعيدة عن متناول يدي. غير أنه كان يجري تداول عدد من النسخ في مقاهي الطلبة، وهي آنذاك مراكز فعالة للانتشار الثقافي بين الجامعيين الريفيين. وقد كانت لكثيرين منهم أماكنهم المحجوزة، سنة بعد أخرى، في تلك المقاهي. فيها يتلقون رسائلهم، وحتى حوالاتهم البريدية. وقد كان فضل أصحاب بعض تلك المقاهي، أو العاملين الموثقين فيها، حاسماً في إنقاذ الكثير من الدراسات الجامعية. فالعديد من خريجي البلاد يدينون لهم أكثر مما يدينون إلى متكفليهم غير المرئيين.

أنا فضلتُ "الطاحونة"، مقهى الشعراء الكبار، وهو على بُعد حوالى مئتي متر عن النزل الذي أقيم فيه، وعلى ناصية تقاطع جادة خيمينث دي كيسادا مع الشارع السابع. لم يكونوا يسمحون هناك أن يحتل الطلاب مائدة ثابتة، ولكن أحدنا يكون واثقاً هناك من أنه سيتعلم من المحادثات الأدبية التي كنا نسمعها، ونحن لابدون على الطاولات المجاورة، أكثر وأفضل مما يتعلمه من الكتب المقررة. كان المقهى بيتاً

فسيحاً وجيد البناء على النمط الإسباني. جدرانه زينها الرسام سانتياغو مارتينيث ديلغادو، بمشاهد تمثل معارك دون كيخوته ضد طواحين الهواء. ومع أنه لم يكن لي مكان محجوز، فقد كنت أتدبر الأمر دوماً، لكي يُجلسني النُدل أقرب ما يكون من المعلم الكبير ليون دي غريف - ملتح، مهمهم، فاتن -، الذي كان يبدأ مسامراته الأدبية عند الغروب، مع بعض اشهر كتّاب ذلك الحين، وينتهي عند منتصف الليل، مختنقاً بخمرة رديئة مع تلاميذه في لعب الشطرنج. كانت قليلة أسماء كبار عالم الفنون والآداب الذين لا يمرون بتلك المنضدة. وكنا نحن نتصنع الموت على منضدتنا كيلا نضيع كلمة واحدة مما يقوله. ومع أنهم كانوا يتحدثون دوماً عن النساء، أو المكايد السياسية، أكثر مما يتحدثون عن فنونهم ومهنهم، إلا أنهم يقولون على الدوام، شيئاً جديداً نتعلمه. وكنا نحن، أبناء ساحل الأطلسي، أكثر الطلاب مواظبة، ليس لاتحادنا بالتآمر الكاريبي ضد الكاتشاكو، بقدر ما هو بسبب إدمان الكتب. فخوسيه ألفارو إسبينوسا، وهو طالب حقوق، علمني الإبحار في الكتاب المقدس، وجعلني أحفظ عن ظهر قلب، الأسماء الكاملة لأعضاء منتدى يوآب. جاء في أحد الأيام، ووضع على المنضدة أمامي سفراً ضخماً مرعباً، وأصدر حكمه بسلطة مطران:

- هذا هو التوراة الجديد.

وقد كان ذلك الكتاب، وكيف لا، هو "أوليسيس" لجيمس جويس، فقرأته في نتف متقطعة ويتعثر، إلى أن لم يعد الصبر يسمح لي بالمزيد. لقد كان رعباً مبكراً. بعد سنوات من ذلك، حين صرت ناضجاً منقاداً، عكفت على قراءته بجد. ولم تكن تلك القراءة مجرد اكتشاف لعالم

خاص لم يخطر لي يوماً وجوده في داخلي، وإنما كان كذلك، مساعدة تقنية لا تقدر بثمن، في حرية اللغة؛ والأفضل في لعبة الزمن والبناء لكتبي.

كان أحد زملائي في الحجرة هو دومنغو مانويل بيغا، طالب طب تربطني به صداقة منذ وجودنا في سوكري، ويشاطرني نهم القراءة. وزميل آخر هو ابن خالي نيكولاس ريكاردو، الابن الأكبر للخال خوان دي ديوس، الذي كان يحافظ على روابط الأسرة حيّة لدي. وقد رجع بيغا في إحدى الليالي، ومعه ثلاثة كتب اشتراها لتوه. فأعارني واحداً لا على التعيين منها، مثلما كان يفعل بكثرة، لمساعدتي على النوم. ولكنه توصل، في تلك الليلة، إلى عكس ما يريده تماماً: إذ لم أعد قط، إلى النوم بالوداعة السابقة. كان الكتاب هو "المسخ" لفرانز كافكا، في ترجمة بورخيس المزيفة التي نشرتها دار النشر لوسادا في بوينس آيرس. وقد حدد ذلك الكتاب مساراً جديداً لحياتي منذ السطر الأول، وهو اليوم أحد رايات الأدب العالمي: "حين استيقظ غريغوريو سامسا، في صباح أحد الأيام، بعد حلم مضطرب، وجد نفسه في السرير، وقد تحول إلى حشرة هائلة". كانت كتباً غامضة، فتعرجات دروبها لم تكن مختلفة وحسب، وإنما في أحيان كثيرة، مناقضة لكل ما كنتُ أعرفه حتى ذلك الحين. فإثبات الأحداث ليس ضرورياً فيها: يكفي أن الكاتب قد كتبها لكي تبدو حقيقية، دون أي دليل آخر سوى قدرة موهبته وسلطة صوته. إنها شهرزاد من جديد، ولكن ليس في عالمها القديم، حيث كل شيء كان ممكناً، وإنما في عالم آخر لا خلاص له، ضاع فيه كل شيء.

حين انتهيت من قراءة "المسخ"، بقيت لدي لهفة لا تقاوم إلى العيش في ذلك الفردوس الغريب. وفي اليوم التالي، فاجأني دومنغو مانويل بيغا نفسه بالآلة الكاتبة النقالة التي أعارني إياها، لكي أحاول شيئاً يشبه موظف كافكا المسكين المتحول إلى صرصار ضخم. لم أذهب في الأيام التالية إلى الجامعة، خوفاً من كسر ذلك السحر، وواصلت تعرق قطرات من الحسد إلى أن نشر إدواردو ثالاميا بوردا، على صفحات ملحقه الأدبي، ملاحظة متفجعة، يتحسر فيها من أن جيل الكتّاب الكولومبيين الجدد يفتقر إلى أسماء يمكن تذكرها، وأنه ليس هناك ما يُلمح في المستقبل، ويمكنه التعويض وتعديل تلك الحال. لا أدري بأي حق أحسست أنني المعني، باسم أبناء جيلي، بما تتضمنه الملاحظة من تحدٍ، فعدت إلى تناول القصة المهجورة، في محاولة لإصلاح الحيف. صغتُ الفكرة المحورية للجثة الواعية في "المسخ"، إنما متخلصة من أسرارها الزائفة وأحكامها الأنطولوجية المسبقة.

كنت أشعر بانعدام الثقة، إلى حدّ لم أجرأ معه على التشاور في الأمر مع أي واحد من زملاء منضدتي في المقهى. ولا حتى مع غونثالو ماياريتو، زميلي في كلية الحقوق، الذي كان القارئ الوحيد لما أكتبه من نثر غنائي يعينني على تحمل ضجر الدروس. أعدت قراءة القصة وتصحيحها حتى الإنهاك، ثم كتبتُ أخيراً، ملاحظة شخصية موجهة إلى إدواردو ثالاميا - ولم أكن قد رأيته قط - ولست أذكر من الملاحظة نفسها الآن، حرفاً واحداً. ووضعت كل شيء في مغلف أخذته بنفسي، إلى حجرة الاستقبال، في جريدة الاسبيكتادور. سمح لي البواب بالصعود إلى الطابق الثاني، لتسليم الرسالة إلى ثالاميا نفسه، بجسده

وروحه. ولكن الفكرة بحد ذاتها، أصابتني بالشلل. فتركت المغلف على منضدة البواب، ومضيت هارباً.

حدث ذلك في يوم الثلاثاء. ولم أكن أشعر بأدنى قدر من القلق على مصير قصتي القصيرة. ولكنني كنت واثقاً من أنه في حال نشرها، لن يكون ذلك في وقت قريب جداً. وفي أثناء ذلك، تسكعت متنقلاً من مقهى إلى آخر، طوال أسبوعين، لأشغل نفسي عن لهفة أيام السبت مساء، حتى يوم الثالث عشر من أيلول، حين دخلت إلى مقهى الطاحونة، واصطدمت، مواجهة، بعنوان قصتي على كامل عرض الاسبيكتادور التي صدرت لتوها: "الاستسلام الثالث".

كان ردّ فعلي الأول هو اليقين الساحق بعدم امتلاكي خمسة سنتات لشراء الصحيفة. وقد كان ذلك هو الرمز الأكثر جلاء للفقر، لأن أشياء كثيرة أساسية من متطلبات الحياة اليومية، فضلاً عن الصحيفة، كانت تكلف خمسة سنتات: الترام، والهاتف العمومي، وفنجان القهوة، ومسح الحذاء. انطلقت إلى الشارع، دون حماية من رذاذ المطر المتواصل. ولكنني لم أجد في المقاهي المجاورة أحداً من معارفي، يمكنه أن يمنحني قطعة نقد كصدقة. كما أنني لم أجد أحداً في النزل، في تلك الساعة الميتة من يوم السبت، اللهم إلا صاحبة النزل. وهذا كأن تقول لا أحد، لأنني كنتُ مديناً لها بخمسة سنتات مكرورة ستمئة وعشرين مرة، مقابل أجرة السرير والخدمة لشهرين. عندما رجعتُ إلى الشارع، مستعداً للإقدام على أي شيء، وجدت رجلاً أرسلته العناية الإلهية، يترجل من سيارة تكسي، وفي يده جريدة الاسبيكتادور، فطلبت منه، مواجهة، أن يهديها إليّ.

هكذا استطعت قراءة قصتي الأولى مطبوعة، مع رسم توضيحي لهيرمان ميرينو، رسام الجريدة الرسمي. قرأت القصة مختبئاً في حجرتي، بقلب جامح، وفي نفس واحد متواصل. لقد كنتُ أكتشف، في كل سطر، القدرة الساحقة للكلمة المطبوعة. فما بنيته بكثير من الحب والألم، كمحاكاة خاضعة لعبقري عالمي، تكشف لي عندئذ على أنه مونولوج متشابك وهش، يستند بمشقة على ثلاث أو أربع جمل تمنح العزاء. كان لا بد من مرور عشرين سنة، قبل أن أتجرأ على قراءتها مرة ثانية. وكان حكمي آنذاك - دون أن تخفف منه الشفقة كثيراً - أقل رضى بكثير.

أصعب ما في الأمر، كان تدفق الأصدقاء الذين داهموا الغرفة، حاملين نسخاً من الجريدة، وإطراء مبالغاً فيه للقصة التي لم يفهموها بكل تأكيد. وكان هناك، بين أصدقائي في الجامعة، من ثمنوا القصة، وآخرون فهموها بقدر أقل، وغيرهم - وهم محقون - لم يتجاوزوا السطر الرابع؛ أما غونثالو ميّارينو الذي لم يكن من السهل وضع أحكامه الأدبية موضع الشك، فقد أثنى عليها، دون تحفظ.

كانت لهفتي الكبرى في معرفة رأي خورخي ألفارو إسبينوسا، لأن مبضعه النقدي هو الأشد رهبة، حتى في ما هو أبعد من محيطنا. كنت أشعر بمزاج متناقض: فأنا أريد رؤيته فوراً، ولكنني كنت خائفاً، في الوقت نفسه، من فكرة مواجهته. اختفى حتى يوم الثلاثاء. ولم يكن ذلك بالأمر الغريب، على قارئ نهم مثله. وعندما عاد للظهور في مقهى الطاحونة، لم يبدأ الحديث معي عن القصة، وإنما عن جرأتي.

- أظن أنك مدرك للوضع الذي أدخلت نفسك فيه - قال لي ذلك

وهو يصوب عينيه الخضراوين، كعيني الكوبرا الملكية، إلى عينيّ، وأضاف:- أنت الآن في واجهة الكتاب المعترف بهم. وعليك بذل جهد كبير لتكون جديراً بذلك.

بقيت متحجراً حيال الرأي الوحيد الذي يمكن له أن يهمني بقدر ما يهمني رأي أوليسيس. ولكن قبل أن ينهي كلامه، صممت أن أسبقه بما كنت، وما زلت أعتبره الحقيقة:

– هذه القصة ليست سوى براز.

فردّ عليّ بهدوء، دون أن يطرأ عليه أي تبدل، بأنه لا يستطيع أن يقول شيئاً حتى الآن، لأنه لم يكد يجد الوقت إلا لقراءة مستعجلة. ولكنه أوضح لي أنه حتى لو كانت القصة سيئة جداً مثلما أقول، فإنها ليست سيئة إلى الحد الذي أضحي فيه بالفرصة الذهبية التي وفرتها لي الحياة. وانتهى إلى القول:

– هذا أمر آخر، لأن هذه القصة صارت من الماضي. والمهم الآن هو القصة القادمة.

أصابني الارتباك. وارتكبت حماقة البحث عن حجج مضادة، إلى أن اقتنعت بأنني لن أسمع نصيحة أذكى من نصيحته. وقد توسع في فكرته الثابتة بأنه لا بد، أولاً، من وضع تصور للقصة. وبعد ذلك يأتي الأسلوب. بيد أن استناد كل منهما إلى الآخر، في عبودية متبادلة، هو عصا الكلاسيكيين السحرية. وقد استوقفني قليلاً برأيه الذي طالما ردده، بأنني بحاجة إلى قراءة معمقة وشاملة للكتّاب الإغريق، لا تقتصر على هوميروس وحده، وهو الوحيد الذي قرأته مضطراً، ضمن منهاج الثانوية. وعدته بذلك، ورغبت في سماع أسماء أخرى. ولكنه غيّر

الموضوع للحديث عن "مزيفو النقود" لأندريه جيد، وكان قد قرأها في نهاية ذلك الأسبوع. لم أجد، قط، الحماس لأن أقول له إن محادثتنا تلك، ربما هي التي حسمت مسار حياتي. أمضيت تلك الليلة ساهراً، أدون ملاحظات من أجل قصتي التالية، دون تلويات تنميق القصة الأولى وزخرفها.

كانت تراودني الشكوك في أن من حدثوني عن القصة، لم يكونوا مبهورين بها – وربما لم يقرؤوها، وهم لم يفهموها بكل تأكيد – وإنما فعلوا ذلك لأنها نُشرت باهتمام غير مألوف في صفحة بتلك الأهمية. ومن أجل أن أبدأ، لاحظتُ أن نقيصتيّ الكبريين هما الأخطر: رعونة الكتابة وجهل القلب البشري. وقد بدا ذلك جلياً في قصتي الأولى التي كانت تأملاً تجريدياً مشوشاً، زاد من سوئها التعسف المفرط في استغلال المشاعر المختلقة.

وبينما أنا أبحث في ذاكرتي عن مواقف من الحياة الواقعية، من أجل القصة الثانية، تذكرت أن إحدى أجمل النساء اللواتي تعرفت إليهن في طفولتي، قالت لي إنها ترغب في أن تكون داخل قط ذي جمال غريب، كانت تداعبه في حضنها. فسألتها لماذا، وردّت علي: "لأنه أجمل مني". عندئذ وجدت نقطة إسناد للقصة الثانية، وعنواناً جذاباً: "حواء داخل قطها". وما تبقى، كما في القصة الأولى، اختلقته من العدم، وللسبب نفسه – مثلما كان يروق لنا أن نقول آنذاك – كانت القصتان كلتاهما تحمل في أحشائها بذرة دمارها.

نُشرت هذه القصة بالإبراز نفسه الذي نُشرت به القصة الأولى، في يوم السبت، الخامس والعشرين من تشرين الأول ١٩٤٧، يزينها رسم

بريشة نجم صاعد في سماء الكاريبي: الرسام إنريكي غراو. ولفت انتباهي أن أصدقائي تلقوا القصة كأمر روتيني من كاتب مكرس. أما أنا بالمقابل، فتألمت للأخطاء، وتشككت بما هو صواب. ولكنني توصلت إلى إبقاء روحي معلقة في الهواء. وجاءت الضربة الكبرى بعد عدة أيام من ذلك، في ملاحظة نشرها إدواردو ثالاميا، باسمه المستعار المعهود "أوليسيس"، وفي عموده اليومي في صحيفة الإسبيكتادور. وقد توجه مباشرة إلى ما يريد قوله: "لا بد أن قراء (نهاية الأسبوع)، ملحق هذه الصحيفة الأدبي، قد لاحظوا ظهور موهبة جديدة، أصيلة، وذات شخصية قوية". ويواصل بعد ذلك: "ضمن التخيل القصصي، يمكن حدوث كل شيء، إنما بمعرفة كيفية إظهار اللؤلؤة التي يمكن استخراجها منه، بصورة طبيعية، ببساطة، ودون أي تصنع. وهذا أمر لا يمكن أن يتوصل إليه كل الشبان الذين هم في العشرين من عمرهم، ويبدؤوا، للتو، علاقاتهم بالأدب". وينتهي إلى القول دون تحفظ: "مع غارسيا ماركيز يولد كاتب جديد وبارز".

لقد سببت لي الملاحظة – وكيف لا! – صدمة سعادة. ولكنني ذهلت في الوقت نفسه، لأن ثالاميا لم يترك لنفسه سبيلاً للتراجع. فكل شيء صار ناجزاً؛ ولا بد لي من أن أفسر أريحيته تلك، على أنها دعوة لضميري، على مدى الحياة. وقد كشفت لي الملاحظة كذلك، أن أوليسيس قد اكتشف هويتي الحقيقية، من خلال أحد زملائه في التحرير. وفي تلك الليلة، علمت أن من فعل ذلك هو غونثالو غونثالث، ابن عم قريب لأبناء عمي الأقرباء؛ وهو من كتب، طوال خمس عشرة سنة، في الصحيفة نفسها، بالاسم المستعار "غوغ"، وبشغف

متواصل، عموداً يرد فيه على أسئلة القراء، على بعد خمسة أمتار من منضدة إدواردو ثالاميا. ولحسن الحظ أن هذا الأخير لم يبحث عني، ولم أبحث أنا عنه أيضاً. رأيته مرة على مائدة الشاعر دي غريف، وعرفتُ صوته وسعاله الجاف كمدخن مدمن، ثم رأيته عن قرب في عدة أنشطة ثقافية. غير أن أحداً لم يحاول أن يُعرِّف أحدنا على الآخر. لأن البعض ما كانوا يعرفوننا، بينما يظن آخرون بأنه من غير الممكن ألا يكون كل منا على معرفة بالآخر.

من الصعب تصور إلى أي حد كانت الحياة تعاش، آنذاك، في ظل الشعر. لقد كان الشعر شغفاً جنونياً، طريقة أخرى في الحياة، كرة من لهب تتدحرج تلقائياً في كل الاتجاهات. نفتح الجريدة، حتى في الصفحة الاقتصادية والصفحة القضائية، أو نقرأ بقايا القهوة في قعر الفنجان، فنجد أن ما ينتظرنا هو الشعر، ليتولى مسؤولية أحلامنا. وهكذا، كانت بوغوتا، في نظرنا نحن جميع الريفيين، هي عاصمة البلاد ومقر الحكومة. ولكنها قبل كل شيء، المدينة التي يعيش فيها الشعراء. ولم نكن نؤمن بالشعر، ونموت من أجله وحسب، وإنما كنا نعلم علم اليقين – مثلما كتب ذلك لويس كاردوثا إي اراغون – أن "الشعر هو الدليل الملموس الوحيد على وجود الإنسان".

لقد كان العالم للشعراء. وكان جديدهم، في نظر أبناء جيلي، أهم من الأخبار السياسية المخيبة للآمال، أكثر فأكثر. كان يضيء سماء الشعر الكولومبي، في القرن التاسع عشر، نجم وحيد هو خوسيه أسونثيون سيلفا، الرومانسي الأعلى الذي أطلق، وهو في الحادية والثلاثين، رصاصة مسدس على منتصف الدائرة التي رسمها له الطبيب

بالبود، في موضع القلب. ولم أولد في الوقت المناسب لأتعرف على رافائيل بومبو أو على إدواردو كاستيّو - الغنائي الكبير -، الذي يصفه أصدقاؤه بأنه شبح هارب من القبر عند الغروب، بعباءة من طبقتين، وبشرة مائلة إلى الخضرة بفعل المورفين، وبروفيل نسر رخمة: التمثيل الجسدي للشعراء الملعونين. لقد مررت في عصر أحد الأيام، قبالة منزل ضخم في الشارع السابع، ورأيت عند البوابة أشد الرجال الذين رأيتهم في حياتي مهابة، ببدلة لا تشوبها شائبة، وقبعة إنكليزية، ونظارة سوداء لعينيه اللتين بلا نور، وعباءة أهالي السهوب. كان ذلك، الشاعر ألبيرتو آنخل مونتويا، وهو رومانسي على شيء من الأبهة، نشر بعض القصائد المهمة في زمنه. وقد كان أولئك الشعراء جميعهم، بالنسبة إلى جيلي، أشباحاً من الماضي الغابر، باستثناء المعلم ليون دي غريف الذي رصدته وراقبته طوال سنوات، في مقهى الطاحونة.

ولكن أياً منهم لم يستطع بلوغ المجد الذي بلغه غييرمو بالينثيا، وهو أرستقراطي من بوبايان، فرض نفسه قبل بلوغه الثلاثين، حبراً أعظم لشعراء جيل المئوية الذين عُرفوا بهذا الاسم، لأن تجمعهم في عام ١٩١٠، توافق مع مرور القرن الأول على الاستقلال الوطني. ولم يحصل معاصراه إدواردو كاستيّو وبورفيريو باربا خاكوب، الشاعران الكبيران ضمن السلالة الرومانسية، على الإنصاف النقدي الذي يستحقانه بجدارة، في بلاد مبهورة بالخطابية الرخامية لشعر بالينثيا الذي سدَّ، بظله الأسطوري، الطريق في وجه ثلاثة أجيال من الشعراء. الجيل التالي مباشرة، وقد برز في العام ١٩٢٥، باسم واندفاع "الجُدد"، كان لديه شعراء رائعون مثل رافائيل مايا، وليون غريف مرة أخرى، لم يُعترف

بعظمتهم كلها طوال الوقت الذي تربع فيه بالينثيا على عرشه. وقد تمتع هذا الأخير حتى ذلك الحين، بأمجاد خاصة مميزة، رفعته محمولاً حتى أبواب رئاسة الجمهورية نفسها.

الوحيدون الذين تجرؤوا على اعتراض طريقه، طوال نصف قرن، هم جماعة "حجر وسماء" بدفاترهم الشبابية. وكانت ميزتهم الوحيدة المشتركة في نهاية المطاف، هي عدم كونهم من أتباع بالينثيا: إدواردو كارانثا، ألاتورو كاماتشو راميريث، أوريليو أرتورو وخورخي روخاس نفسه الذي موّل نشر قصائدهم. لم يكونوا متشابهين في الشكل ولا في الإلهام، ولكنهم زعزعوا، معاً، أطلال البرناسيين الأثرية، وأيقظوا إلى الحياة شعراً جديداً صادراً من القلب؛ بأصداء متعددة، من خوان رامون خيمينث، أو روبين داريو، أو غارسيا لوركا، أو بابلو نيرودا، أو فيثنتي هويدوبرو. التقبل الشعبي لم يكن فورياً، وكان يبدو أنهم هم أنفسهم غير واعين أنه يُنظر إليهم كمبعوثين من العناية الإلهية، من أجل كنس بيت الشعر. ومع ذلك، فإن دون بادوميرو سانين كانو، الدارس والناقد الأوسع احتراماً في تلك السنوات، سارع إلى كتابة مقال حاسم ليقطع الطريق على أي محاولة للنيل من بالينثيا. فاختلت موازينه ومقاساته النقدية التي كانت مضرب المثل. وبين أحكامه الحاسمة الكثيرة، كتب أن بالينثيا قد "تمكن من العلوم القديمة، ليعرف روح العصور الماضية المغرقة في القدم؛ وتأمل في النصوص المعاصرة، ليفاجئ، بالتناظر، روح الإنسان كلها". وكرّسه مرة أخرى كشاعر بلا زمان وبلا حدود، وصنفه بين أولئك الشعراء "من أمثال لوكريشيو، ودانتي، وغوته، الذين حفظوا الجسد لإنقاذ الروح". ولابد أن أكثر من شخص قد فكر آنذاك، بأن بالينثيا، بوجود أصدقاء مثل ذاك، لن يكون بحاجة إلى أعداء.

ردّ إدواردو كارانثا على سانين كانو، بمقال يقول كل شيء من العنوان: "حالة شاعر واحد أحد". وكانت تلك هي الهجمة الأولى والموفقة لوضع بالينثيا ضمن حدوده، واختصار قاعدة تقديسه إلى مكانها وحجمها الحقيقيين. اتهمه بأنه لم يشعل في كولومبيا شعلة الروح، وإنما تجبير عظام للكلمات؛ ووصف أشعاره بأنها أشعار حرفي متحذلق، وبارد، وحاذق، ونحات مجتهد. وكانت النتيجة التي توصل إليها هي سؤال وجهه إلى نفسه بالذات، وبقي في جوهره كإحدى قصائده الجيدة: "إذا لم ينفع الشعر في تسريع دمي، في أن يفتح لي النوافذ فجأة على الغموض، في مساعدتي على اكتشاف العالم، في مرافقة هذا القلب المحزون في الوحدة وفي الحب، في الاحتفال وفي الكراهية، فما هي فائدة الشعر؟". وينتهي قائلاً: "أما أنا – وأعوذ من قول أنا! – فأرى أن بالينثيا ليس أكثر من شاعر مقبول".

نُشرَ "حالة شاعر واحد أحد" في ملحق "قراءات أحدية"، الصادر عن جريدة التيمبو، وكانت واسعة الانتشار آنذاك، أثار هزة اجتماعية. وكانت نتيجته العجيبة، في الوقت نفسه، هي إعادة تقييم معمقة للشعر في كولومبيا، من أصوله. وهو ما لم يجر بجدية، منذ أن كتب دون خوان دي كاستيانوس إحدى عشارياته المئة والخمسين، في "مراثي رجال بلاد الهند البارزين".

صار الشعر، منذ ذلك الحين، مكشوفاً في العراء، ليس فقط لجماعة "الجُدد" الذين اصبحوا رائجين، وإنما لآخرين كذلك، برزوا فيما بعد، وراحوا يتنافسون على مكانتهم بالمناكب. وبلغت شعبية الشعر حداً لم يعد بالإمكان اليوم، فهم إلى أي حد كان يعيش كل عدد من ملحق

"قراءات أحدية" الذي يشرف عليه كارانثا، أو من مجلة "السبت" التي كان يديرها آنذاك كارلوس مارتين، مدير معهدنا القديم. وفضلاً عن أشعاره، فرض كارانثا بأمجاده طريقته في أن يكون شاعراً في الساعة السادسة مساء، في الشارع السابع في بوغوتا، حيث يتمشى كما لو أنه في واجهة زجاجية طولها عشر كوادرات، وفي يده كتاب مسند إلى قلبه. لقد كان نموذجاً لجيله، وكوّن مدرسته من الجيل التالي، كل واحد على طريقته.

في أواسط تلك السنة جاء إلى بوغوتا الشاعر بابلو نيرودا، بقناعته بأنه لا بد للشعر من أن يكون سلاحاً سياسياً. وعلم خلال مسامراته البوغوتية بمدى رجعية لاوريانو غوميث. وعلى سبيل الوداع، كتب على شرفه، بسرعة القلم تقريباً، ثلاث سونيتات هجاء عقابية. الأبيات الأربعة الأولى منها تمنح البقية إيقاعها ونبرتها:

وداعاً يا لاوريانو الذي لن يكلل بالغار أبداً،

أيها المرزبان الحزين والملك الوصولي.

وداعاً يا إمبراطور طابق رابع،

قبل موعده، ويا مأجوراً على الدوام.

على الرغم من ميول كارانثا اليمينية، وصداقته الشخصية مع لاوريانو غوميث نفسه، إلا أنه أبرز سونيتات بابلو نيرودا في صفحاته الأدبية. وفعل ذلك كسبق صحفي، أكثر مما هو موقف سياسي. ولكن الاستنكار جاء بالإجماع تقريباً. ولا سيما بسبب نشرها المخالف للمنطق، في جريدة يملكها ليبرالي ذو عظم أحمر، مثلما هو الرئيس السابق إدواردو سانتوس، المعارض لفكر لاوريانو غومث الرجعي، بقدر

معارضته لفكر بابلو نيرودا الثوري. وجاء أشد ردود الفعل صخباً، من جانب من لم يتسامحوا حيال إقدام أجنبي على السماح لنفسه بمثل ذلك التمادي. إن مجرد تمكن ثلاث سونيتات، وجدانية تعتمد الصنعة أكثر منها شاعرية، من إثارة مثل تلك الضجة، كان دليلاً ساطعاً على سلطة الشعر في تلك السنوات. ولكن نيرودا مُنع فيما بعد، على أي حال، من الدخول إلى كولومبيا. ومن منعه هو لاوريانو غوميث نفسه، حين صار رئيساً للجمهورية، والجنرال غوستافو روخاس بينيّا في حينه. لكن نيرودا نزل مع ذلك، في كارتاخينا وفي بوينافينتورا عدة مرات، أثناء توقفه العابر في رحلات بحرية، بين تشيلي وأوروبا. وكان كل عبور له، في الذهاب والإياب، احتفالاً كبيراً بالنسبة لأصدقائه الذين كان يخبرهم، مسبقاً، بمروره.

عندما دخلتُ كلية الحقوق، في شباط ١٩٤٧، كان توافقي مع جماعة "حجر وسماء" لا يزال سارياً. ومع أنني كنت قد تعرفت على أبرزهم في بيت كارلوس مارتين، في ثيباكيرا، إلا أنني لم أجد الجرأة على أن أذكّر بذلك حتى كارانثا، وكان أكثر من يسهل الوصول إليه منهم. في إحدى المرات وجدته قريباً جداً ووحيداً في مكتبة غرانكولومبيا، فوجهت إليه تحية معجب به. رد علي بلطف شديد، ولكنه لم يتذكرني. أما المعلم ليون دي غريف بالمقابل، فنهض في مناسبة أخرى عن مائدته في مقهى الطاحونة، وجاء يحييني على طاولتي، عندما أخبره أحدهم بأنني قد نشرتُ قصصاً في الاسبيكتادور، ووعدني بأن يقرأها. ولسوء الحظ أنه بعد أيام قليلة من ذلك، وقعت أحداث التاسع من نيسان الشعبية، واضطررت إلى هجر المدينة التي كان

الدخان ما يزال يتصاعد منها. وعندما رجعت إليها، بعد أربع سنوات، كان مقهى الطاحونة قد اختفى تحت رماده، والمعلم قد انتقل بقضه وقضيضه، وبطانة أصدقائه إلى مقهى "إل أوتوماتيكو"، حيث صرنا أصدقاء، كتب وخمر، وعلمني كيف أحرك أحجار الشطرنج، دون فن ولا حظ.

كان أصدقاء مرحلتي الأولى يستغربون انكبابي على كتابة القصص القصيرة. وأنا نفسي لم أكن أجد تفسيراً لذلك، في بلاد يعدّ الشعر فيها هو الفن الأكبر. وقد كنتُ أعرف ذلك منذ طفولتي المبكرة، بسبب النجاح الساحق لقصيدة "بؤس بشري"، تلك القصيدة الشعبية التي كانت تباع في كراريس صغيرة من ورق أسمر، أو تُلقى مقابل سنتين اثنين في أسواق ومقابر قرى منطقة الكاريبي. أما الرواية بالمقابل، فكانت نادرة جداً. فمنذ رواية "ماريا" لخورخي إساكس، كُتبت روايات كثيرة لم تُحدث صدى يذكر. وكان خوسيه ماريا بارغاس بيلا ظاهرة فريدة بكتابته اثنتين وخمسين رواية موجهة مباشرة إلى قلوب الفقراء. كان رحالة لا يكل. أمتعته المفرطة هي كتبه نفسها التي تُعرض وتنفد مثل الخبز عند أبواب الفنادق، في أميركا اللاتينية وإسبانيا. وقد مزقت روايته الفلكية "أورا أو زهور البنفسج" من القلوب، أكثر بكثير من روايات أخرى أفضل منها لمعاصريه.

الروايات الوحيدة التي استطاعت البقاء، حية بعد زمنها، هي "الخروف" التي كتبها الكاتب الإسباني خوان رودريغيث فريلي، بين عامي ١٦٠٠ و١٦٣٨، في أوج العهد الاستعماري. وهي قصة شديدة الشطط في المبالغة والتحرر من القيود، حول تاريخ غرناطة الجديدة

(كولومبيا)، مما حولها إلى عمل روائي بارع؛ ورواية "ماريا" لخورخي إساكس، في سنة ١٨٦٧؛ و"الدوامة" لخوسيه إوستاسيو ريفيرا، سنة ١٩٢٤؛ و"مركيزة يولومبو" لتوماس كاراسكيّا، سنة ١٩٢٦؛ و"أربع سنوات على متن نفسي" لإدواردو ثالاميا، سنة ١٩٥٠. ولم تستطع أي من هذه الروايات بلوغ المجد الذي كان الشعر يتمتع به، بحق أو دون حق. وبالمقابل، كانت القصة القصيرة – مع سابقة بارزة مثلها كاراسكيّا نفسه، كاتب أنتيوكيا الكبير – غارقة في بلاغية منبوشة ومنقب عنها بجهد، ودون روح.

والدليل على أنه كانت لدي ميول قصّاص فقط، هو الأشعار المبعثرة التي خلّفتها في المعهد، دون توقيع أو بأسماء مستعارة، لأنني لم أكن مستعداً على الإطلاق، للموت من أجلها. بل أكثر من ذلك: فعندما نشرت قصصي الأولى في الاسبيكتادور، كان كثيرون يتنازعون هذا الجنس الأدبي، ولكن دون إمكانيات كافية. وأنا أفكر اليوم في أنه يمكن فهم ذلك، لأن الحياة في كولومبيا، من وجهات نظر متعددة، كانت ما تزال في القرن التاسع عشر. وبخاصة في بوغوتا الأربعينيات الكئيبة التي كانت لا تزال تحن إلى العهد الاستعماري، عندما أنجزت تسجيلي، دون ميول ولا رغبة، في كلية الحقوق بالجامعة الوطنية.

وللتأكد من ذلك يكفي الغوص في المركز العصبي لتقاطع الشارع السابع مع جادة خيمينث دي كيسادا. وهو التقاطع الذي اعتبرته المبالغة البوغوتية أفضل ناصية في العالم. فعندما تعلن الساعة العامة، في برج كنيسة سان فرانثيسكو، الثانية عشرة ظهراً؛ يتوقف الرجال في الشارع، أو يقطعون أحاديثهم في المقاهي، ليضبطوا ساعاتهم على

ساعة الكنيسة الرسمية. وفي ما حول ذلك التقاطع والشوارع المجاورة، كانت تقع أكثر الأماكن ارتياداً، حيث يلتقي، مرتين في اليوم، التجار والسياسيون والصحفيون – والشعراء بالطبع –، وجميعهم يرتدون السواد حتى أقدامهم، مثل مولانا ملك إسبانيا دون فيليبي الرابع.

وفي أزمنتي كطالب، كانت لا تزال تُقرأ، في ذلك المكان، جريدة ربما لم يوجد الكثير مثلها في العالم. إنها سبورة سوداء كالتي في المدارس، تُعلق على شرفة الاسبيكتادور في الساعة الثانية عشرة ظهراً، ثم في الساعة الخامسة مساء. وقد كُتبت عليها آخر الأخبار بالطباشير. عندئذ يصبح مرور حافلات الترام صعباً، إن لم يكن مستحيلاً، بسبب عرقلة الحشود التي تنتظرها بفارغ الصبر. وكان يمكن لقراء الشارع أولئك، أن يصفقوا بحماس، للأخبار التي تبدو لهم جيدة، وأن يصفروا أو يقذفوا الحجارة على السبورة، عندما لا تروقهم الأخبار. لقد كانت طريقة في المشاركة الديمقراطية الفورية، تحصل الاسبيكتادور من خلالها، على ميزان حرارة أكثر فعالية من أي ميزان آخر لقياس درجة حرارة الرأي العام.

لم يكن التلفزيون قد وجد بعد. وكانت هناك نشرات أخبار إذاعية كاملة جداً، ولكنها تُبث في ساعات محددة وثابتة. وهكذا كان المرء، قبل أن يذهب لتناول الغداء أو العشاء، ينتظر ظهور السبورة، ليذهب إلى البيت، ولديه رواية أكثر تكاملاً عن حال الدنيا. هناك عُرف وتُوبع بصرامة نموذجية لا تُنسى خبر الطيران الوحيد للكابتن كونتشا بينيغاس، بين ليما وبوغوتا. فعندما تكون ثمة أخبار مثل هذا الخبر، يجري تبديل السبورة عدة مرات، في غير الموعد المحدد، لتغذية نهم الجمهور بملاحق

استثنائية. لم يكن أي واحد من قراء تلك الجريدة الشوارعية الفريدة، يعرف أن مبتكر الفكرة، وعبدها، يدعى خوسيه سالغار. وهو محرر رائد في الاسبيكتادور، توصل وهو في العشرين من عمره، لأن يكون صحفياً من الكبار، دون أن يكون قد تجاوز مرحلة الدراسة الابتدائية.

المؤسسة التي كانت تشكل علامة بوغوتا المميزة، هي مقاهي مركز المدينة. وفيها تصب عاجلاً أو آجلاً شؤون حياة البلاد بأسرها. وكان كل مقهى منها يتمتع، في زمانه، باختصاص محدد - سياسي، أدبي، مالي - بحيث أن قسماً كبيراً من تاريخ كولومبيا، في تلك السنوات، كان مرتبطاً بها بطريقة ما. فكل شخص له مقهاه المفضل، كعلامة مؤكدة لشخصيته.

فكتّاب وسياسيو النصف الأول من القرن - بمن فيهم بعض رؤساء الجمهورية - درسوا في مقاهي الشارع الرابع عشر، قبالة مدرسة روساريو. وكان مقهى إلوندزور الذي عاش مرحلة ارتياد السياسيين المشهورين له، أحد أكثر المقاهي استمرارية. وكان ملاذ رسام الكاريكاتير الكبير ريكاردو ريندون الذي أنجز هناك عمله الأكبر، ثم ثقب جمجمته العبقرية، بعد سنوات من ذلك، برصاصة مسدس، في الحجرة الخلفية لمقهى غران بيبا.

الوجه الآخر لأمسيات ضجري الكثيرة، كان اكتشافي، مصادفة، لقاعة موسيقى مفتوحة للجمهور في المكتبة الوطنية. فجعلت منها ملاذي المفضل لأقرأ في كنف كبار الموسيقيين الذين كنا نطلب أعمالهم خطياً من موظفة فاتنة. وقد اكتشفنا، بين الرواد المعهودين تشابهات، من كل صنف من خلال نوع الموسيقى التي نفضلها. وهكذا عرفت معظم

مؤلفي الموسيقى المفضلين، من خلال أذواق الآخرين، على كثرتهم وتنوعهم، وسئمت شوبان لسنوات طويلة، بسبب هاوٍ للموسيقى يطلبه في كل يوم تقريباً، دون أي رحمة.

في أحد الأيام، وجدتُ القاعة مقفرة، لأن جهاز الموسيقى معطل. ولكن المديرة سمحت لي بالجلوس للقراءة وسط الصمت. أحسست في البدء كما لو أنني في بركة سلام راكدة. ولكنني لم أتمكن، قبل مرور ساعتين، من التركيز، بسبب ومضات جزع تعرقل قراءتي، وتُشعرني بأنني غريب عن جلدي. وقد احتجت إلى عدة أيام لكي أدرك أن علاج جزعي، ليس صمت القاعة، وإنما جو الموسيقى الذي صار منذ ذلك الحين، وإلى الأبد، شغفاً شبه سري.

في أمسيات أيام الآحاد، عندما كانوا يغلقون قاعة الموسيقى، كانت متعتي المثمرة هي ركوب حافلات الترام ذات الزجاج الأزرق التي تجول الشوارع دون توقف، مقابل خمسة سنتافو، من ساحة بوليفار حتى جادة تشيلي، وكنت أقضي فيها أمسيات مراهقة تبدو كأنها تجر وراءها ذيلاً بلا نهاية من أيام آحاد أخرى ضائعة. الشيء الوحيد الذي كنت أقوم به، خلال جولات الحلقات المفرغة تلك، هو قراءة كتب أشعار، ربما كوادرا من المدينة مقابل كل كوادرا من الشعر، إلى أن تضاء أول الأنوار تحت رذاذ المطر الأبدي. عندئذ ألجأ إلى المقاهي الهادئة في الأحياء القديمة، بحثاً عمن يقدم لي صدقة تبادل النقاش معي، حول القصائد التي انتهيت من قراءتها. كنت أجد، في بعض الأحيان، من يفعل ذلك - وهو دائماً من الرجال - فنبقى إلى ما بعد منتصف الليل، في حجرة بائسة، نجهز على أعقاب السجائر التي كنا قد دخناها نحن أنفسنا،

ونتحدث عن الشعر، بينما الإنسانية في ما تبقى من العالم بأسره، تمارس الحب.

في ذلك الزمان كان الجميع شباباً. ولكننا كنا نجد دوماً آخرين أكثر شباباً منا. كانت الأجيال بدفع بعضها بعضاً، وبخاصة بين الشعراء والمجرمين. ولا يكاد أحدهم يفعل شيئاً إلا ويظهر له من يتوعد بأنه قادر على عمل ذلك بصورة أفضل. إنني أجد بين أوراقي القديمة أحياناً بعض الصور التي كان يلتقطها لنا مصورو الشوارع الجوالون، عند مدخل كنيسة سان فرانثيسكو. فلا أستطيع أن أكبح إحساساً بالشفقة، لأنها لا تبدو صوراً لنا، وإنما لأبنائنا بالذات، في مدينة أبواب مغلقة، حيث لا وجود لشيء سهل، ولا سيما البقاء على قيد الحياة دون حب، في أمسيات أيام الآحاد. وهناك تعرفت مصادفة، على خالي خوسيه ماريا بالديبلانكيث، عندما ظننت أنني أرى جدي يشق طريقه، حاملاً مظلة بين حشود يوم الأحد الخارجة من القداس. فخامة ملابسه لم تخف شيئاً من هويته: كان يرتدي بدلة كاملة من الجوخ الأسود، وقميصاً أبيض بياقة من السيلولويد، وربطة عنق ذات خطوط مائلة، وصداراً بسلسلة ساعة، وقبعة قاسية، ونظارة مذهبة. كان تأثري كبيراً إلى حدّ قطعت عليه الطريق دون أن أنتبه. فرفع المظلة متوعداً، وأوقفني على بُعد شبر عن عينيه:

– هل يمكنني المرور؟

فقلت له خجلاً:

– اعذرني. لقد حسبتك جدي.

واصل تفحصي بنظرة عالم فلكي، وسألني بسخرية خبيثة:

– وهل يمكنني أن أعرف من هو جدك الشهير هذا؟

ولاضطرابي من وقاحتي المتهورة، أخبرته باسمه كاملاً. فأنزل عندئذ المظلة، وابتسم بمزاج طيب قائلاً:

– هناك سبب إذن للتشابه. فأنا ابنه البكر.

الحياة اليومية كانت أقل وطأة في الجامعة الوطنية. ومع ذلك، لا أتوصل إلى أن أجد في ذاكرتي واقع ذلك الزمن، لأنني لا أصدق أني كنت طالباً ولو ليوم واحد، بالرغم من أن درجاتي في السنة الأولى – وهي السنة الوحيدة التي أنهيتها في بوغوتا – تتيح التفكر في عكس ذلك. لم يكن هناك الوقت ولا الفرصة لإقامة علاقات شخصية كتلك التي توصلت إليها في المعهد. كما أن زملاء الدراسة يتفرقون في أنحاء المدينة، بعد انتهاء الدروس. أما مفاجأتي الكبرى فتمثلت في أن الأمين العام لكلية الحقوق، هو الكاتب بيدرو غوميث بالديراما، وكانت لدي أخبار عنه من خلال مشاركاته المبكرة في الصفحات الأدبية. وقد بقي واحداً من أصدقائي المقربين حتى موته المبكر.

أما زميلي الأكثر مواظبة، منذ السنة الأولى، فكان غونثالو مايّارينو بوتيرو، الوحيد المعتاد على الإيمان بأن بعض أعاجيب الحياة حقيقية، حتى وإن لم تكن صحيحة. وكان هو من علمني أن كلية الحقوق ليست جدباء إلى الحدّ الذي أظنه. فمنذ اليوم الأول، أخرجني من درس الإحصاء والسكان، في الساعة السابعة صباحاً، وتحداني في مبارزة شخصية بالشعر، في مقهى المدينة الجامعية. وكان في ساعات الصباح الميتة، يتلو من الذاكرة، أشعار الكلاسيكيين الإسبان، فأرد عليه بقصائد للشعراء الشباب الكولومبيين الذين فتحوا النار على ذبول القرن السابق البلاغيين.

دعاني في أحد أيام الآحاد إلى بيته، حيث كان يعيش مع أمه وأخواته وأخوته، وسط توترات أخوية مثل تلك التي ببيت أبوي. فالأخ الأكبر، فيكتور، كان رجل مسرح طوال الوقت، ومغني أوبرا معترفاً به في ميدان اللغة الإسبانية. منذ أن هربت من وصاية أبوي، لم أشعر قط أنني في بيتي، إلى أن تعرفت إلى بيبا بوتيرو، أم الأخوة مايارينو، وهي أنتيوكية[١] لم يروضها العيش في نخاع الأرستقراطية البوغوتية الكتيم. وكانت، بذكائها الفطري وطريقتها العجيبة في الكلام، تمتلك قدرة لا تنضب على معرفة المكان الدقيق الذي عليها أن تستعيد فيه الكلمات البذيئة لسلالتها الثيرفانتسية. كانت أمسيات لا تُنسى، مع رؤية الغروب على زمرد السهب غير المحدود، ودفء الشوكولاته المعطرة في المعجنات الساخنة. ما تعلمته من بيبا بوتيرو، برطانتها المكشوفة، وطريقتها في قول أشياء الحياة العادية، لم يكن يُثمن، في التعرف على بلاغة الحياة الواقعية.

وكان من الزملاء الآخرين المشابهين، غييرمو لوبيث غيرا وألفارو بيدال بارون. وكانا مواطنَين معي في معهد ثيباكيرا. ومع ذلك، فقد كنتُ في الجامعة، أقرب إلى لويس بيّار بوردا وكاميلو توريس ريستريبو، اللذين كانا ينجزان بالأظفار، وحباً بالفن، الملحق الأدبي لجريدة "لاراثون"، وهي صحيفة شبه سرية، كان يديرها الشاعر والصحفي خوان لوثانو إي لوثانو. وعشية صدور كل عدد من الملحق، كنتُ أذهب معهما إلى مكاتب التحرير، وأقدم لهما مساعدة الساعة

(١) أنتيوكية antioquena، تنتسب إلى مقاطعة أنتيوكيا Antioquia (انطاكية) الكولومبية.

الأخيرة. وقد التقيت في بعض المرات مع مدير الجريدة، وكنتُ معجباً بسونيتاته، وأكثر منها بترجمة لحياة الشخصيات الوطنية التي كان ينشرها في مجلة "السبت". وكان يتذكر، بشيء من الغموض، الملاحظة التي كتبها أوليسيس عني، ولكنه لم يقرأ أي قصة من قصصي. وقد تهربتُ من الموضوع، لأنني كنت متأكداً من أنها لن تروقه. ومنذ اليوم الأول، قال لي وهو يودعني، إن صفحات جريدته مفتوحة لي. ولكنني اعتبرت ذلك مجرد مجاملة بوغوتية.

في مقهى أستورياس، عرّفني زميلاي في كلية الحقوق، كاميلو توريس ريستريبو ولويس بيّار بوردا، على بلينيو أبوليو ميندوثا الذي نشر، مذ كان في السادسة عشرة، مجموعة من نصوص النثر الغنائي، هذا الجنس الأدبي الرائج آنذاك، بعد أن فرضه إدواردو كارانثا، من خلال الصفحات الأدبية لصحيفة التيمبو. كان ذا بشرة مدبوغة، وشعر داكن وأملس، يُبرز مظهره كهندي. وكان قد توصل، على الرغم من سنه، إلى جعل مقالاته تُعتمد في مجلة السبت الأسبوعية التي أسسها أبوه بلينيو ميندوثا نيرا، وهو زير حرب قديم وصحفي كبير، ربما لم يكتب سطراً كاملاً واحداً طوال حياته. ومع ذلك، فقد علّم كثيرين الكتابة في الصحف التي كان يؤسسها بكل أبهة، ويهجرها إلى مناصب سياسية رفيعة، أو لإقامة مؤسسات أخرى هائلة وكارثية. أما ابنه فلم أره سوى مرتين أو ثلاث مرات في تلك الفترة، ودوماً مع زملاء لي. وقد أذهلني أنه في سنه تلك، كان يحاكم الأمور كعجوز مسن. ولكن لم يخطر لي آنذاك أننا سنتعاون، بعد سنوات، في جولات صحافة جريئة، لأنني لم أكن قد فكرت بعد، في غواية الصحافة كمهنة. أما اهتمامي بها كعلم، فكان أقل من اهتمامي بالحقوق.

لم أفكر، في الواقع قط، أن الصحافة ستكون موضع اهتمامي يوماً، حتى ذلك اليوم الذي قامت فيه إلفيرا ميندوثا، شقيقة بلينيو، بإجراء مقابلة عاجلة مع مغنية الأوبرا الأرجنتينية بيرتا سينغرمان، فبدلت تماماً أحكامي المسبقة ضد المهنة، وكشفت عن ميل مجهول لدي. فالمقابلة التي بدت أبعد ما يكون عن مقابلات الأسئلة والأجوبة التقليدية – وهو النمط الذي كان، ولا زال، يخلف لدي الكثير من الشكوك – كانت واحدة من أكثر المقابلات التي نُشرت في كولومبيا أصالة. وبعد سنوات من ذلك، عندما صارت إلفيرا ميندوثا صحفية عالمية مكرسة، وإحدى أفضل صديقاتي، أخبرتني بأن ما فعلته يومذاك، إنما كان وسيلة يائسة لإنقاذ إخفاقها.

لقد كان وصول المغنية بيرتا سينغرمان حدث ذلك اليوم. فطلبت إلفيرا – وكانت مسؤولة القسم النسائي في مجلة السبت – أن تُكلف بإجراء مقابلة معها. وقد تلقت التكليف، مع بعض التحفظات من جانب أبيها، بسبب ضآلة خبرتها في ذلك النوع من العمل الصحفي. كانت مكاتب تحرير مجلة السبت آنذاك مركز اجتماع أشهر مثقفي تلك السنوات، فطلبت منهم إلفيرا أن يقدموا لها بعض الأسئلة للمقابلة. ولكنها بلغت حافة الهلع عندما لاحظت الاستخفاف الذي استقبلتها به بيرتا سينغرمان، في الجناح الرئاسي في فندق غرانادا.

فقد وجدت المغنية متعة، منذ السؤال الأول، في استنكار الأسئلة باعتبارها حمقاء، وغبية، دون أن يخطر لها بأن وراء كل سؤال منها كاتباً جيداً من الكتّاب الكثيرين الذين عرفتهم وقدّرتهم خلال زياراتها المتعددة إلى كولومبيا. وكان على إلفيرا، المعروفة دوماً بطبعها الحي،

أن تبتلع دموعها، وأن تتحمل بترقب قلق تلك الكارثة. ولكن دخول زوج بيرتا سينغرمان المفاجئ أنقذ تحقيقها الصحفي، بعد أن أوشك على التحول إلى حادث خطير. فقد تكفل الزوج بتحريك الوضع بلمسة عذبة وحسن سخرية طيب.

لم تكتب إلفيرا الحوار الذي تصورته مسبقاً، من أجوبة مغنية الأوبرا، وإنما كتبت ريبورتاجاً عن مصاعبها معها. واستغلت تدخل الزوج الذي وفرته لها العناية الإلهية، وحولته إلى البطل الحقيقي في اللقاء. وقد ثارت ثائرة بيرتا سينغرمان، في واحدة من نوبات غضبها التاريخية، عندما قرأت المقابلة. ولكن السبت كانت المجلة الأسبوعية الأوسع انتشاراً، وقد ارتفع توزيعها الأسبوعي إلى مئة ألف نسخة، في مدينة عدد سكانها ستمئة ألف نسمة.

برود الأعصاب والذكاء، اللذان استغلت بهما إلفيرا خواء بيرتا سينغرمان، لتكشف حقيقة شخصيتها، دفعاني إلى التفكير، للمرة الأولى، في إمكانيات الريبورتاج الصحفي، ليس كوسيلة باهرة لتقديم المعلومات، وإنما أكثر من ذلك: كجنس أدبي. ولن تنقضي سنوات طويلة قبل أن أخوض تلك التجربة بنفسي، وأن أتوصل إلى الإيمان، مثلما أؤمن اليوم أكثر من أي وقت آخر، بأن الرواية والريبورتاج الصحفي هما ابنان للأم نفسها.

لم أكن قد جازفت حتى ذلك الحين، إلا بكتابة الشعر: أشعار ساخرة في مجلة مدرسة سان خوسيه، ونثر غنائي أو سونيتات غراميات متخيلة على طريقة شعراء "حجر وسماء" في العدد الوحيد من الجريدة الأدبية، في مدرسة المعهد الوطني. وقبل ذلك بقليل، كانت سيسيليا غونثالث، المتواطئة معي في ثيباكيرا، قد أقنعت الشاعر والباحث

دانييل أرانغو بأن ينشر أغنية قصيرة كتبتُها باسم مستعار، وقد نُشرت بحروف طباعية "نمرة سبعة"، في ركن غير ظاهر من ملحق يوم الأحد لجريدة التيمبو. ولم يجعلني نشرها أنبهر، ولا أن أشعر بأنني شاعر أكثر مما كنتُ عليه. أما ريبورتاج إلفيرا بالمقابل، فقد جعلني أعي الصحفي الهاجع في قلبي، وتشجعت على إيقاظه. بدأتُ بقراءة الصحف بطريقة أخرى. وكان كاميلو توريس ولويس بيَار بوردا متفقين معي، فكررا العرض الذي قدمه دون خوان لوثانو، بالكتابة في صفحات جريدته "لاراثون". غير أنني لم أتجرأ إلا على نشر قصيدتين تقنيتين، لم أعتبرهما لي قط. اقترحا عليّ أن يكلما بلينيو أبوليبو ميندوثا للكتابة في مجلة "السبت". ولكن حيائي الوصي، نبهني إلى أنني ما زلتُ بحاجة إلى الكثير، قبل أن أجازف، تحت أضواء مطفأة، في مهنة جديدة. ومع ذلك، فقد كان لاكتشافي الذي توصلتُ إليه، فائدة فورية. ففي تلك الأيام كنت مشوشاً بإدراكي أن كل ما أكتبه، نثراً أو شعراً، بما في ذلك واجباتي المدرسية في المعهد، ما هي إلا محاكاة بليدة لجماعة "حجر وسماء". وطرحت على نفسي مهمة إجراء تحول حاسم، ابتداء من قصتي التالية. وقد انتهت التجربة إلى إقناعي بأن ظروف الحال الناجزة في الذهن، ما هي إلا نقيصة مُفقرة، فبدأت بقمعها، أينما اعترضت طريقي، وفي كل مرة كان ذلك الهوس يجبرني على إيجاد أشكال أخرى أكثر غنى وقدرة على التعبير. ومنذ زمن طويل لم يعد يرد في كتبي ظرف منها، اللهم إلا في استشهادات مقتبسة بنصها. ولست أدري بالطبع، إذا ما كان مترجمو أعمالي قد التقطوا ذلك هذا الهوس الأسلوبي، وأصيبوا بعدواه، بسبب طبيعة مهنتهم.

سرعان ما تجاوزت صداقتي لكاميلو توريس وبيَار بوردا، حدود قاعات الدرس والتحرير. وصرنا نقضي معاً في الشارع، وقتاً أطول من الذي نقضيه في الجامعة. وكلاهما كان يغلي على نار هادئة، في استياء قاس من وضع البلاد السياسي والاجتماعي. أما أنا المتضمخ بأسرار الأدب، فلم أكن أحاول حتى فهم تحليلاتهم الدورانية وتوقعاتهم القاتمة. غير أن آثار صداقتهم فاقت أحب صداقاتي وأكثرها فائدة في تلك السنوات.

أما في الدروس الجامعية بالمقابل، فكنت غارقاً في ورطة. وقد ندمت دوماً على قلة وَرَعي تجاه جدارة الأساتذة ذوي الأسماء الكبيرة الذين كانوا يتحملون نفورنا من الدروس. وكان منهم ألفونسو لوبيث ميتشيلسين، ابن الرئيس الكولومبي الوحيد الذي أعيد انتخابه مرة ثانية في القرن العشرين. وأظن أن ذلك هو مبعث الانطباع العام الذي كان شائعاً، بأنه هو أيضاً مرصود، منذ مولده، ليكون رئيساً. وهو ما صار إليه فعلاً. كان يصل إلى منبر أستاذيته في مادة "مدخل إلى الحقوق" بدقة تثير الغيظ، مرتدياً سترات كشميرية بديعة مصنوعة في لندن. ويلقي دروسه دون أن ينظر إلى أحد، بذلك المظهر السماوي لحسيري النظر الأذكياء ممن يبدون دوماً، كما لو أنهم يمشون عبر أحلام الآخرين. كانت دروسه تبدو لي مونولوجات رتيبة على وتيرة واحدة، مثلما هو بالنسبة لي أي درس آخر غير الشعر. إلا أنه كان لرتابة صوته المضجر، ميزة القدرة على التنويم التي يتمتع بها حاوي الأفاعي. وكانت ثقافته الأدبية الواسعة تستند، منذ ذلك الحين، إلى أسس راسخة، يعرف كيف يستخدمها كتابة أو بصوته الحي مباشرة. ولكنني لم ابدأ بتقديره إلا عندما عدنا للتعارف بعد سنوات من ذلك، وصرنا صديقين بعيداً عن

سبات الدروس الجامعية. كانت سمعته، كسياسي صلب، تتغذى من فتنة شخصية سحرية، ومن صفاء ذهن وبصيرة خطيرة في اكتشاف الزوايا الخفية للناس، وخاصة من يحبهم أقل. ومع ذلك، فإن فضيلته الأكثر تميزاً، كشخصية عامة، هي قدرته المذهلة على خلق أوضاع تاريخية بجملة واحدة.

توصلنا مع مرور الزمن إلى صداقة جيدة. ولكنني لم أكن في الجامعة من أكثر الطلاب دأباً ومواظبة. وكان خجلي الذي لا مفر منه، يبقيني على مسافة لا يمكن لي تجاوزها، خاصة مع الناس الذين أقدرهم وأحترمهم. ولهذا فوجئت كثيراً عندما استدعاني إلى الامتحان النهائي للسنة الأولى، بالرغم من أن كثرة غيابي عن الدروس جعلتني جديراً بلقب الطالب الخفي. لجأت إلى حيلتي القديمة في تحويل اتجاه الحديث حول الموضوع بأساليب بلاغية. ولاحظت أن الأستاذ واعٍ لحيلتي، ولكنه ربما قدّرها كتسلية أدبية. وكانت الزلة الوحيدة هي استخدامي في الامتحان النهائي كلمة تَقَادُم (prescripcion)، فسارع هو إلى الطلب مني أن أحدد معناها، ليتأكد من أنني أعرف ما الذي أقوله.

فقلت له:

– الفعل تقادم prescribir يعني اكتساب خواص معينة مع مرور الزمن.

فسألني على الفور:

– اكتسابها أم فقدانها؟

إنه الشيء نفسه[1]، ولكنني لم أناقشه في ذلك، بسبب عدم يقيني الفطري. وأظن أن تلك كانت واحدة من مداعباته الشهيرة التي

(١) الفعل prescribir، يتضمن معنيين متناقضين، فهو يعني، في الوقت نفسه، اكتساب مزية بالتقادم أو افتقادها.

يوجهها بعد الامتحان، لأنه لم يحاسبني عليها ولم يتقاضَ مني ذلك الدين عند وضع درجة التقويم. وقد حدثته بعد سنوات من ذلك، عن الواقعة، فلم يتذكرها بالطبع. ولكننا لم نكن عندئذ، أنا وهو، متأكدين من أن تلك الحادثة كانت صحيحة.

لقد وجد كلانا في الأدب، ملاذاً طيباً لتناسي السياسة وأسرار "التقادم"، واكتشفنا بالمقابل كتباً مذهلة وكتّاباً منسيين في محادثات لانهائية أدت، في بعض الأحيان، إلى إفساد زيارات، وإثارة حفيظة زوجتينا. أقنعتني أمي بأننا قريبان، وقد كان الأمر كذلك بالفعل. ومع ذلك، فإن ما كان يحدد هويتنا، أفضل من أي رابطة غائمة، هو شغفنا المشترك بأغاني منطقة بايّاتو.

وكان هناك قريب عارض آخر، من جهة أبي، هو كارلوس هـ. باريخا، أستاذ الاقتصاد السياسي وصاحب مكتبة غرانكولومبيا، المكتبة المفضلة لدى الطلاب، بسبب عادتها الحميدة في عرض الكتب الجديدة لكبار الكتاب على مناضد مكشوفة ودون مراقبة. فكنا، حتى نحن طلابه، نغزو المحل في سهو الغروب، ونسرق الكتب بفنون خفة الأصابع. وكانت سرقة الكتب تعتبر، حسب العرف المدرسي، جريمة؛ ولكنها ليست خطيئة. أما دوري في عمليات السرقة تلك، فكان يقتصر، ليس بدافع الفضيلة وإنما بسبب الخوف الجسدي، على حماية ظهر من هم أكثر مهارة؛ شريطة أن يسرقوا، فضلاً عن الكتب التي يريدونها لأنفسهم، بعض الكتب الأخرى التي أطلبها أنا. وفي مساء أحد الأيام، وكان أحد زملائي المتواطئين قد انتهى للتو من سرقة "المدينة دون لاورا" لفرانثيسكو لويس بيرناردیث، عندما أحسست بقبضة قوية تمسك بكتفي، وبصوت رقيب يقول:

– أخيراً.. يا للعنة!

التفتُّ مذعوراً، ووجدت نفسي وجهاً لوجه مع الأستاذ كارلوس هـ. باريخا، بينما كان ثلاثة من شركائي يهربون متدافعين. ولحسن الحظ أنني انتبهت، قبل أن أتمكن من الاعتذار، إلى أن الأستاذ لم يفاجأ لأنه ضبطني كلص، وإنما لأنه لم يرني في دروسه منذ أكثر من شهر. وبعد تأنيب أقرب إلى العادي، سألني:

– هل أنت ابن غابرييل إليخيو حقاً؟

كان ذلك صحيحاً، ولكنني أجبته أن لا، لأنني كنت أعرف أن أباه وأبي قريبان بعيدان بحادثة شخصية لم أفهمها قط. ولكنه عرف الحقيقة فيما بعد. ومنذ ذلك اليوم صار يعاملني بتمييز، في المكتبة وفي الدروس، باعتباري ابن أخ له. وقد احتفظنا بعلاقة سياسية أكثر مما هي أدبية، بالرغم من أنه كان قد كتب ونشر عدة كتب شعرية متفاوتة القيمة، بالاسم المستعار "سيمون اللاتيني". ولكن وعي صلة القرابة أفاده هو فقط، لأنني لم أعد أقوم بدور المتستر على سرقة الكتب.

أستاذ آخر رائع هو دييغو مونتانيا كويّار. وكان نقيض لوبيث ميتشيلسين. ويبدو أنهما كانا على خصومة سرية. لوبيث كليبرالي مشاكس ومونتانيا كويّار كيساري راديكالي. لقد أقمت مع هذا الأخير علاقة جيدة خارج الجامعة. وبدا لي على الدوام أن لوبيث ميتشيلسين ينظر إليّ، على أنني فرخ شاعر، بينما يرى في مونتانيا كويّار داعية جيداً لمعتقداته الثورية.

تعاطفي مع مونتانيا كويّار بدأ بمشكلة تعرض لها مع ثلاثة ضباط شباب، من المدرسة العسكرية، كانوا يحضرون دروسه بزي المراسم.

وكانوا يواظبون على الدروس بدقة الثكنة، ويجلسون معاً على المقاعد الجانبية نفسها، ويدونون ملاحظات متقنة لا تشوبها شائبة، ويحصلون على درجات يستحقونها بجدارة في الامتحانات الصارمة. نصحهم دييغو مونتانيا كويّار بعدم المجيء إلى الدروس بالزي العسكري. فقالوا له بأكثر أساليبهم تهذباً إنهم ينفذون أوامر عليا. ولم يفوتوا فرصة لجعله يشعر بذلك. ومع ذلك، وعلى الرغم من غرابة سلوكهم، فقد كان الضباط الثلاثة، في نظر الطلاب والأساتذة، طلاباً نجيبين.

كانوا يأتون بزيهم العسكري المتشابه، والمتقن، معاً على الدوام، وفي الموعد الدقيق، ويجلسون جانباً. لقد كانوا أكثر الطلاب جدية ومنهجية. ولكنني كنت أرى على الدوام أنهم في عالم مختلف عن عالمنا. فإذا ما توجه أحد إليهم الكلام، يُبدون الاهتمام واللطف، ولكن بصورة رسمية وشكلية لا يمكن التغلب عليها: فهم لا يقولون أكثر مما يُسألون عنه. وفي أزمنة الامتحانات، كنا نحن المدنيين نتوزع في جماعات من أربعة طلاب لندرس في المقاهي. وكنا نلتقي في حفلات الرقص أيام السبت، وفي المبارزات الطلابية، وفي الحانات الهادئة ومواخير ذلك العصر الكئيبة. ولكننا لم نكن نلتقي قط، بزملائنا العسكريين.

لم أكد أتبادل معهم التحية، خلال السنة الطويلة التي أمضيناها معاً في الجامعة. فضلاً عن أنه لم يكن هناك متسع لذلك، لأنهم كانوا يحضرون إلى الدروس في الموعد المحدد بدقة، ويغادرون مع آخر كلمة ينطق بها الأستاذ، دون أن يتعاملوا مع أحد، اللهم إلا مع شبان عسكريين آخرين في السنة الثانية. يجتمعون وإياهم معاً في الاستراحات. لم أعرف أسماءهم قط، ولم أحصل على أي خبر عنهم

فيما بعد. وأنتبه اليوم إلى أن أكبر الموانع لم تكن من جانبهم، بقدر ما هي من جانبي، لأنني لم أستطع قط أن أتجاوز المرارة التي كان جداي يستذكران بها حروبهما المحبطة والمذابح الفظيعة في مناطق الموز.

كان أستاذ مادة القانون الدستوري، خورخي سوتو دل كورال، مشهوراً بأنه يعرف عن ظهر قلب، كل دساتير العالم. وكان يبهرنا، في دروسه، بذكائه وعلومه الحقوقية، التي لا يعكرها إلا ضعف حس الدعابة لديه. وأظن أنه كان واحداً من الأساتذة الذين يبذلون ما أمكنهم من جهد كيلا تظهر اختلافاتهم السياسية في الجامعة. ولكنها كانت تبدو بوضوح أكبر مما يظنون، حتى من خلال إيماءات أيديهم ونبرة التفخيم لأفكارهم. ذلك أن الجامعة هي المكان الذي كان يلمس فيه، أكثر من سواه، النبض العميق للبلاد التي كانت على حافة حرب أهلية جديدة، بعد بضع وأربعين سنة من السلام المسلح.

على الرغم من غيابي المزمن وإهمالي القانوني، فقد نجحت في المواد السهلة من سنة الحقوق الأولى، بفضل تحميات في اللحظة الأخيرة؛ ونجحت بأصعبها، بفضل حيلتي القديمة في تحاشي الموضوع المطلوب بوسائل مستنبطة. والحقيقة أنني لم أكن مرتاحاً داخل جلدي، ولم أكن أعرف كيف أواصل المشي بالتلمس في ذلك الطريق المسدود. فقد كان فهمي للحقوق قليلاً، واهتمامي به أقل بكثير من أي مادة دراسية في المعهد. كما أنني صرت أشعر بأني قد نضجت بما يكفي لاتخاذ قراراتي بنفسي. وأخيراً، بعد ستة عشر شهراً من البقاء حياً، بأعجوبة، لم يبق لي إلا جماعة من الأصدقاء الجيدين الذين سيبقون كذلك مدى الحياة.

ضآلة اهتمامي بالدراسة تضاءلت أكثر بعد ملاحظة أوليسيس، وبخاصة في الجامعة، حيث بدأ بعض زملائي بمنحي لقب أستاذ وتقديمي ككاتب. وتوافق ذلك مع تصميمي على تعلم بناء بنيان يكون في الوقت نفسه، محتملاً وخيالياً، إنما دون فجوات؛ وفق نماذج كاملة الإتقان وصعبة، مثل أوديب ملكاً لسوفوكليس، حيث يبحث بطلها عن قاتل أبيه، وينتهي إلى اكتشاف أنه هو نفسه القاتل؛ ومثل "قائمة القرد" و. و. جاكوب W.W. Jacob، هذه القصة المحكمة، حيث كل ما يجري هو مصادفة. ومثل "كتلة الشحم"، لموباسان، وغيرهم كثير من الخطأة الكبار الذين أرجو أن يحفظهم الرب في ملكوته. وكنتُ أفكر في هذا الأمر، في ليلة يوم أحد جرى لي فيها أمر يستحق أن يروى. كنت قد أمضيت ذلك النهار بطوله في تهوية إحباطاتي، ككاتب، مع غونثالو مايّارينو، في بيته في جادة تشيلي. وأثناء عودتي إلى النزل، في الترام الأخير، صعد "فونوس"[1] من لحم وعظم في محطة تشابينيرو. لم أخطئ القول: فونوس. لاحظتُ أن أحداً من ركاب منتصف الليل القلائل، لم يفاجأ برؤيته، فدفعني ذلك إلى التفكير في أنه واحد آخر ممن يتنكرون بهيئات مختلفة، في أيام الآحاد، ليبيعوا كل شيء في حدائق الأطفال. ولكن الواقع أقنعني بأنه لا يمكنني الشك، لأن له قرني تيس ولحيته، حتى إنني أحسست لدى مروره، برائحة شعره الماعزي. وقبل بلوغنا الشارع ٢٦، وهو شارع المقبرة، نزل بمظهر رب أسرة طيب، واختفى بين أشجار الحديقة.

(١) فونوس Fauno أو Faunus : إله الغابات والمراعي وحامي القطعان والزراعة عند الرومان ، يمثل بهيئة عفريتية وبرأس ذي قرنين ، وله لحية وقدما تيس ، وشعر كشعر الماعز .

استيقظتُ بعد منتصف الليل، من نومي القلق في فراشي. فسألني دومنغو مانويل بيغا عما أصابني. "لقد صعد فونوس إلى الترام". قلت له ذلك وأنا بين النوم واليقظة. فردّ علي، وهو مستيقظ تماماً، بأنه إذا كان كابوساً فلا بد أن السبب هو سوء هضم من الذي يصيب المرء في يوم الأحد. أما إذا كان موضوعاً لقصتي القصيرة القادمة، فإنه يبدو له موضوعاً رائعاً. ولم أعد أدري، في الأيام التالية، إذا ما كنت قد رأيت حقاً "فونوساً" في الترام أو أنها مجرد أضغاث أحلام أحدية. وبدأت أتقبل أنني قد نمتُ تحت تأثير إرهاق ذلك اليوم، ورأيت حلماً واضحاً جداً لا يمكن فصله عن الواقع. ولكن الجوهري بالنسبة لي لم يكن بهل كان الفونوس حقيقياً، وإنما بما إذا كان كذلك. وبالتالي - سواء أكان حقيقياً أم حلماً - لم يكن من المشروع اعتباره سحراً من المخيلة، وإنما كتجربة عجيبة في حياتي.

وهكذا كتبتُ القصة في اليوم التالي، دفعة واحدة، ووضعتها تحت الوسادة، وقرأتها وأعدت قراءتها طوال ليال عديدة قبل النوم، أو لدى استيقاظي صباحاً. كانت القصة وصفاً خارجياً وحرفياً لواقعة الترام، مثلما جرت تماماً، وبأسلوب بالغ البراءة، مثل خبر تعميد طفل في صفحة الأخبار الاجتماعية. وأخيراً، وبدافع شكوك أخرى، قررتُ إخضاع القصة لتجربة الكلام المطبوع الحتمية. ولكن ليس في جريدة الاسبيكتادور، وإنما في الملحق الأدبي لجريدة التيمبو. وربما كانت تلك هي الطريقة لمعرفة وجهة نظر أخرى، مختلفة عن رأي إدواردو ثالاميا، دون أن أورطه في مغامرة ليس هناك ما يستدعي إشراكه فيها. أرسلت القصة مع زميل في النزل، ومعها رسالة، إلى دون خيمي بوسادا، المدير

الجديد والشاب جداً لـ "الملحق الأدبي" في جريدة التيمبو. ولكن القصة لم تُنشر مع ذلك، ولم أتلق رداً على الرسالة.

قصص تلك المرحلة، وفق تسلسل كتابتها ونشرها في ملحق "نهاية الأسبوع"، اختفت من أرشيف جريدة الاسبيكتادور خلال الهجوم على هذه الجريدة وإحراقها، على يد جموع الشغب الرسمية في السادس من أيلول ١٩٥٢ . أنا نفسي، لم تكن لدي نسخة منها، ولم تكن كذلك لدى أصدقائي المهتمين. ولهذا ظننت، بشيء من الراحة، أن النسيان قد ابتلعها. ومع ذلك، فقد كانت بعض الملاحق الأدبية المحلية في الأقاليم، قد أعادت نشرها في حينها دون إذن، ونُشر بعضها كذلك في مجلات مختلفة، إلى أن جمعتها في كتاب دار نشر "ألفيل" في مونتيفيديو سنة ١٩٧٢، وأصدرتها بعنوان قصة منها: "نابو، الزنجي الذي جعل الملائكة ينتظرون".

وكانت تنقصها قصة واحدة لم تُضم إلى الكتاب، ربما بسبب الافتقار إلى نسخة موثوقة منها: "توبال كاين يصوغ نجمة"، التي نُشرت في الاسبيكتادور يوم ١٧ كانون الثاني ١٩٤٨، واسم البطل، مثلما لا يعرف الجميع، هو اسم حداد توراتي ابتدع الموسيقى. لقد كانت ثلاث حكايات، وبقراءتها وفق الترتيب الذي كُتبت ونُشرت فيه، بدت لي معدومة الترابط وتجريدية، بعضها غير معقول، ولا تستند أي واحدة منها إلى مشاعر حقيقية. ولم أستطع قط، أن أتبين وجهة النظر التي قرأها بها ناقد بالغ الصرامة مثل إدواردو ثالاميا. ومع ذلك، فإنها تتمتع في نظري، بأهمية لا يراها أحد سواي. ذلك أن في كل واحدة منها شيئاً يتناسب مع تطور حياتي السريع في ذلك الحين.

كثير من الروايات التي كنتُ أقرؤها آنذاك، وأقدرها، كانت تشد اهتمامي بما تتضمنه من تعليم تقني فقط. أي ما فيها من صنعة سرية. فمن التجريد الميتافيزيقي في القصص الثلاث الأولى، حتى قصص ذلك الحين الثلاث الأخيرة، وجدت دروباً محددة ومفيدة جداً للتكوين الأولي للكاتب. لم تكن قد وردت إلى خاطري، فكرة ارتياد أشكال أخرى. فقد كنت أفكر في أن القصة والرواية ليسا جنسين أدبيين مختلفين وحسب، وإنما هما جسدان من طبيعتين مختلفتين، وسيكون الخلط بينهما وخيماً. وما زلتُ اليوم أؤمن بذلك، مثلما كنتُ أؤمن به آنذاك. وصرتُ أكثر اقتناعاً بتفوق القصة القصيرة على الرواية.

سبب لي النشر في الاسبيكتادور، على هامش النجاح الأدبي، مشاكل أخرى أكثر دنيوية ودعابة. فقد صار أصدقاء غافلون يوقفونني في الشارع، ليطلبوا مني أن أقرضهم نقوداً منقذة، فما كان بإمكانهم أن يصدقوا أن كاتباً يمثل ذلك الانتشار، لا يتلقى مبالغ مالية ضخمة مقابل قصصه. وقلة قليلة فقط هم الذين كانوا يصدقون أنه لم يُدفع لي مقابل نشرها سنت واحد؛ وأنني أنا نفسي، لم أكن أنتظر أن يُدفع لي، لأن ذلك لم يكن شائعاً في صحافة البلاد. والأخطر من ذلك، هو خيبة أمل أبي عندما اقتنع بأنني لن أتمكن من تغطية نفقاتي الخاصة، في الوقت الذي كان يدرس فيه ثلاثة من أخوتي الأحد عشر الذين كانوا قد ولدوا جميعُهم. كانت الأسرة ترسل لي ثلاثين بيزو في الشهر. وكان النزل وحده يكلفني ثمانية عشر بيزو، دون أن يكون لي الحق بالحصول على بيضة على الفطور. وكنت أجد نفسي غير قادر على استكمال المبلغ على الدوام، بسبب نفقات طارئة. ولحسن الحظ، لا أدري من أين

أصابتني عدوى الرسم، وأنا ساه، على هوامش الصحف، وعلى المناديل الورقية في المطاعم، وعلى موائد الرخام في المقاهي. وأتجرأ على الاعتقاد بأن تلك الرسوم هي سليلة مباشرة لما كنتُ أرسمه، وأنا طفل، على جدران مشغل صياغة الجد. وربما كانت صمامات أمان سهلة للتفريج عن النفس. كان لأحد رواد مقهى الطاحونة الطارئين، وساطة في إحدى الوزارات، فعُيّن رساماً فيها دون أن تكون لديه أدنى دراية بالرسم. وعرض عليّ أن أقوم بالعمل بدلاً منه، ونتقاسم الراتب في ما بيننا. لم أقترب طوال ما تبقى من حياتي قط إلى ذلك الحد من الفساد، ولكنني لم أقترب منه آنذاك، إلى الحد الذي أندم عليه.

تزايد اهتمامي بالموسيقى أيضاً، في تلك الفترة التي كانت فيها أغاني الكاريبي الشعبية - التي رضعتها منذ الصغر - تشق طريقها في بوغوتا. كان البرنامج الإذاعي الأوسع رواجاً هو ساعة ساحلية الذي ينشطه دون باسكوال ديلفيتكيو. وكان بمثابة قنصل موسيقي من ساحل الأطلسي إلى العاصمة. وقد حاز البرنامج على شعبية واسعة في أيام الآحاد صباحاً، إلى حد أننا، نحن الطلاب الكاريبيين، كنا نذهب للرقص في مكاتب محطة البث الإذاعي، حتى وقت متقدم من بعد الظهر. كان ذلك هو منشأ الشعبية الواسعة لموسيقانا في مناطق البلاد الداخلية، ثم بعد ذلك في أقصى أركانها، وتنشيطاً اجتماعياً للطلاب الساحليين في بوغوتا.

أما العائق الوحيد، فكان شبح الزواج الإجباري. ولست أدري ما هي السوابق السيئة التي أدت إلى أن يزدهر في الساحل، الاعتقاد بأن الفتيات البوغوتيات يسعدن بالشبان الساحليين وينصبون لنا الحبائل ليتزوجن منا بالقوة. ليس بدافع الحب، وإنما بحلم العيش في بيت تطل

نافذته على البحر. لم تراودني هذه الفكرة قط. بل على العكس، فأكثر الذكريات غير المرغوبة في حياتي هي المواخير المشؤومة خارج أسوار بوغوتا، حيث كنا نذهب لنقيؤ سكراتنا المكفهرة. وقد أوشكت، في أكثرها قذارة، على التخلي عن بصيص الحياة الضئيل المتبقي في داخلي، عندما ظهرت امرأة، كنتُ معها للتو، عارية في الممر، وهي تصرخ قائلة إنني سرقت اثني عشر بيزو من درج خوان زينتها. طرحني اثنان من العاملين في المحل أرضاً باللكمات، ولم يكتفيا بانتزاع آخر بيزوين متبقيين في جيوبي، بعد ممارستي حباً مشؤوماً، وإنما عرياني حتى من الحذاء، وراحا يفتشانني بأصابعهما بحثاً عن النقود المسروقة. وكانا قد قررا عدم قتلي على أي حال، وإنما تسليمي إلى الشرطة، عندما تذكرت المرأةُ أنها بدلت مخبأ نقودها في اليوم السابق، ووجدتها كاملة، دون نقصان.

بين الصداقات المتبقية لي من الجامعة، لم تكن صداقتي لكاميلو توريس هي الأقل عرضة للنسيان فقط، وإنما الأكثر دراماتيكية في شبابنا. في أحد الأيام تغيب عن الدروس لأول مرة. فانتشر السبب مثل نُثار البارود. لقد رتب أشياءه وقرر الهرب من بيته للذهاب إلى مدرسة تشيكينكيرا الإكليريكية، على بعد أكثر من مئة كيلومتر عن بوغوتا. أدركته أمه في محطة القطار وحبسته في مكتبتها. وقد زرته هناك، كان شاحباً أكثر من المعتاد، بغفارة بيضاء، وطمأنينة دفعتني لأول مرة إلى التفكير في حالة الرضى الرباني. لقد قرر الالتحاق بالمدرسة الإكليريكية، استجابة لميول كان يخفيها جيداً، ولكنه مصمم على الانصياع لها حتى النهاية.

قال لي:

- لقد انقضى أصعب ما في الأمر.

وكانت تلك هي طريقته في القول لي إنه قد فارق خطيبته، وإنها قد احتفت بقراره. وبعد أمسية خصبة، قدم لي هدية لا يمكن فك رموز اختيارها: أصل الأنواع لداروين. ودعته، يراودني يقين غريب بأنه وداع إلى الأبد.

لم أره طوال فترة وجوده في المدرسة الدينية. وبلغتني أخبار غامضة عن أنه قد ذهب إلى لوفاينا، مدة ثلاث سنوات، للإعداد اللاهوتي، وأن استسلامه الديني لم يبدل روحه الطلابية وأساليبه العلمانية، وأن الفتيات كن يتنهدن من أجله، يعاملنه كما لو أنه ممثل سينمائي جعلته المسوح أعزل.

بعد عشر سنوات من ذلك، عندما رجعتُ إلى بوغوتا، كان قد تسنم جسداً وروحاً طبيعة مكانته، إلا أنه بقي يحتفظ بأفضل فضائله، كمراهق. وكنتُ أنا آنذاك كاتباً وصحفياً دون شهادة، متزوجاً ولدي ابن واحد، رودريغو، الذي ولد يوم ٢٤ آب ١٩٥٩ في مستشفى باليرمو في بوغوتا. وقررنا في الأسرة، أن يكون كاميلو هو من يتولى تعميد ابننا؛ وأن يكون العراب هو بلينيو أبوليو ميندوثا الذي كنا أنا وزوجتي، قد أقمنا معه صداقة عرابين من قبل. أما العرابة فكانت سوزانا لينارس، زوجة خيرمان بارغاس الذي نقل إليّ فنونه، كصحفي جيد وصديق مفضل. كان كاميلو أقرب إلى بلينيو مما هو إلينا، وعلاقته به أقدم بكثير. ولكنه لم يشأ قبوله كعراب، بسبب اتصالاته آنذاك مع الشيوعيين، وربما كذلك بسبب روحه الساخرة التي يمكن لها أن تسيء

إلى وقار الطقوس المقدسة. فتعهدت سوزانا بأن تتولى بنفسها أمر تكوين الطفل روحياً؛ ولم يجد كاميلو، أو لم يشأ أن يجد، حججاً أخرى لقطع الطريق على العرّاب.

جرت طقوس التعميد في مصلى مستشفى باليرمو، في شبه الظلمة الجليدية للساعة السادسة مساء، دون وجود أحد سواي أنا والعرّابان، وفلاح عباءة جبلية وصندلاً، اقترب منا لحضور القداس كما لو أنه يطفو فوق الأرض، دون أن يكشف عن حضوره. وعندما وصلت سوزانا ومعها الوليد، أفلت العراب الذي لا سبيل إلى إصلاحه استفزازه الأول ساخراً:

– سنجعل من هذا الطفل رجلَ حرب عصابات جيداً.

فرد عليه كاميلو الذي كان يعدّ حوائج الطقس المقدس، بهجوم مضاد بالنبرة نفسها: "أجل، ولكنه سيكون محارباً في سبيل الرب". وباشر الطقوس بقرار من أكبر العبارات مقاساً، وغير مألوف تماماً في تلك السنوات:

– سوف أعمده بالإسبانية، لكي يفهم الجاحدون ما الذي يعنيه هذا السر المقدس.

راح صوته يرنّ بقشتالية مدوية، تابعتها من خلال لاتينية سنوات صباي، كخادم كاهن في آراكاتاكا. وفي لحظة الرش بالماء، ودون أن ينظر إلى أحد بعينه، ابتدع كاميلو صيغة استفزازية أخرى:

– فليركع كل من يؤمن بأن الروح القدس سينزل الآن، على هذا الطفل.

بقيت أنا والعرابان واقفين، وربما متضايقين قليلاً من مكر صديقنا

الخوري، بينما الطفل يزعق تحت رشاش الماء البارد. والشخص الوحيد الذي جثا راكعاً هو الفلاح ذو الصندل. لقد ظلت صدمة هذه الواقعة، واحدة من العبر القاسية في حياتي، لأنني اعتقدت دوماً، بأن كاميلو هو من جاء بالفلاح، بتخطيط مسبق، لمعاقبتنا بدرس في الإذلال، أو في حسن التربية على الأقل.

عدتُ للقاء به مرات قليلة. ودائماً لسبب قوي أو قاهر، يكون مرتبطاً على الدوام تقريباً، بأعمال إحسانه لمصلحة المطاردين السياسيين. وفي أحد الأيام حضر إلى بيتي، ومعه لص سطو على المنازل أنهى حكماً بالسجن، ولكن الشرطة لم تمنحه الراحة وتخفف من وطأتها عنه؛ فكان رجال الشرطة يستولون على كل ما يملكه. في إحدى المرات، أهديتُ إليه حذاء كشاف، في أسفل نعله رسم خاص من أجل مزيد من الأمان. وبعد أيام قليلة، تعرفت خادمة البيت على النعل، في صورة جائع مشرد عُثر عليه ميتاً، في تصفية حسابات. لقد كان ذلك القتيل هو اللص الصديق.

لست أزعم أنه كان لتلك الواقعة علاقة بالمصير النهائي الذي صار إليه كاميلو. ولكنه بعد شهور قليلة من ذلك، دخل إلى المستشفى العسكري لزيارة صديق مريض. ولم يعد يعرف أي شيء عنه، إلى أن أعلنت الحكومة أنه ظهر كمقاتل حرب عصابات عادي، في صفوف جيش التحرير الوطني. وقد مات في الخامس من شباط ١٩٦٦، في السابعة والثلاثين من عمره، خلال معركة حامية مع دورية عسكرية.

تزامن التحاق كاميلو بالمدرسة الدينية مع قراري الخاص بعدم مواصلة إضاعة الوقت في كلية الحقوق. ولكنني لم أجد الشجاعة

لمواجهة أبوي بذلك، دفعة واحدة. وقد علمت من خلال أخي لويس إنريكي – الذي جاء إلى بوغوتا في وظيفة جيدة في شهر شباط ١٩٤٨ – أن أبوي راضيان جداً عن نتائجي في الثانوية وسنة الحقوق الأولى. وقد أرسلا إليّ هدية مفاجئة، هي أخف وأحدث آلة كاتبة معروضة في السوق. كانت تلك هي أول آلة كاتبة أحصل عليها في حياتي، وأكثرها سوء طالع في الوقت نفسه، لأنني رهنتها في ذلك اليوم بالذات مقابل اثني عشر بيزو من أجل مواصلة حفلة الترحيب بأخي مع زملائي في النزل. وفي اليوم التالي، بينما آلام الرأس تسبب لنا الجنون، ذهبنا إلى بيت الرهونات للاطمئنان إلى أن الآلة الكاتبة لا تزال هناك وأن خاتم تغليفها لم يمس، وللتأكد من أنها لا تزال في حالة جيدة، ريثما تسقط علينا من السماء النقود اللازمة لتخليصها. وقد واتتنا فرصة طيبة بفضل ما دفعه لي شريكي الرسام المزيف، ولكننا قررنا في اللحظة الأخيرة، التخلي عن فك الرهن إلى ما بعد. وكلما مررنا أمام بيت الرهونات، أنا وأخي، معاً أو منفصلين، كنا نتأكد ونحن في الشارع، من أن الآلة الكاتبة ما تزال في مكانها، مغلفة مثل جوهرة بورق السيلوفان، مع شريط من الحرير، وسط صفوف من الأجهزة المنزلية المحمية جيداً. بعد مرور شهر، لم تتحقق الحسابات السعيدة التي كنا قد أجريناها في نشوة السكر. ولكن الآلة الكاتبة بقيت في مكانها دون أن تمس، ويمكن لها أن تبقى هناك إلى أن ندفع، في الوقت المناسب، الفوائد الفصلية عن قيمة الرهن.

أظن أننا لم نكن نعي بعدُ، التوترات السياسية الرهيبة التي بدأت تعكر صفو البلاد. وعلى الرغم من سمعة المحافظ المعتدل التي وصل بها

أوسبينا بيريث إلى السلطة، فإن أغلبية حزبه كانت تعرف أن فوزه لم يكن ممكناً إلا بانقسام الليبراليين. وكان هؤلاء، وقد أفقدتهم الضربة صوابهم، يؤنبون ألبيرتو يراس على حياديته الانتحارية التي سمحت بوقوع الهزيمة. أما الدكتور غابرييل طربيه المثقل بمزاجه المعكر، أكثر من ضيقه من الأصوات المعادية، فقد غادر إلى أوروبا دون وجهة ولا معنى، بحجة تخصص عالٍ في أمراض القلب. ومات وحيداً تحت وطأة ربو الهزيمة، بعد سنة ونصف، بين الأزهار الورقية الذاوية في فندق بلاس آتينيه الباريسي. أما خورخي إليسير غايتان بالمقابل، فلم يقطع، يوماً واحداً، حملته الانتخابية من أجل الدورة التالية، وإنما جذّرها بعمق، ببرنامج إصلاح أخلاقي للجمهورية تجاوز انقسام البلاد التاريخي بين الليبراليين والمحافظين، وعمقه بشرخ أفقي وأكثر واقعية، بين المستغِلين والمستغَلين: البلد السياسي والبلد الوطني. وبصرخته التاريخية – "إلى الهجوم!" – نثر بحماسه فوق الطبيعي، بذرة المقاومة حتى في أقصى الأركان، عبر حملة تحريض ضخمة راحت تكسب أرضية صلبة، خلال أقل من سنة، حتى وصلت إلى عشية ثورة اجتماعية حقيقية.

وهكذا فقط، وعينا أن البلاد بدأت تنحدر في مهاوي الحرب الأهلية نفسها التي بقيت لنا، منذ الاستقلال عن إسبانيا، وراحت تصل إلى الجيل الثاني من أحفاد أبطالها الأصليين. فالحزب المحافظ الذي استعاد الرئاسة من الفريق الليبرالي، بعد أربع دورات متتالية، كان مصمماً على عدم فقدانها من جديد، مهما كلف الأمر. وللتوصل إلى ذلك، استبَقَت حكومة أوسبيبو بيريث الأمور، بانتهاج سياسة أرض محروقة أدمت البلاد، ووصلت إلى الحياة اليومية في البيوت.

لم أستطع بانعدام وعيي السياسي، ومن ضبابيتي الأدبية، أن ألمح ذلك الواقع الجلي، حتى ليلة كنتُ عائداً فيها إلى النزل، والتقيت بشبح وعيي. كانت المدينة مقفرة، تعصف فيها رياح جليدية تهب من المضايق الجبلية، يحاصرها صوت خورخي إليسير غايتان المعدني ونبرة تفخيمه الشعبية المتعمدة، في خطابه الدوري الصارم، كل يوم جمعة في المسرح البلدي. لم تكن طاقة المكان الاستيعابية تزيد على ألف شخص متزاحمين، ولكن الخطاب كان ينتشر في موجات متحدة المركز، أولاً من مكبرات الصوت في الشوارع المجاورة، وبعد ذلك من أجهزة المذياع التي تلعلع بأعلى صوت، مثل ضربات مدوية في أجواء المدينة الذاهلة، وتستحوذ لثلاث ساعات، وحتى لأربع ساعات، على الاستماع الوطني.

راودني في تلك الليلة الإحساس بأنني الوحيد في الشوارع، اللهم إلا عند ناصية تقاطع جريدة التيمبو، المحروسة كما في كل يوم جمعة، بفصيلة من رجال الشرطة المسلحين كما لو أنهم في حالة حرب. لقد كان ذلك كشفاً أتاح لي عجرفة عدم الإيمان بخورخي غايتان؛ فقد أدركتُ فجأة، في تلك الليلة، أنه قد تجاوز البلد الذي خلفته إسبانيا، وأنه يخترع لغة صريحة للجميع. ليس من خلال ما تعنيه الكلمات بقدر ما هو بسبب الهياج الذي يبثه، والدهاء الذي في صوته. لقد كان هو نفسه، في خطاباته الملحمية، ينصح مستمعيه بنبرة أبوية ماكرة، بأن يعودوا بسلام إلى بيوتهم، فيترجموا نصيحته بصورة سوية على أنها أمر مشفر للإعراب عن رفضهم لكل ما يمثله التفاوت الاجتماعي وسلطة الحكومة الجائرة. وحتى رجال الشرطة أنفسهم الذين يتوجب عليهم حفظ النظام، كانوا يجدون تبريراً لأنفسهم، من خلال تنبيه يفسرونه معكوساً.

كان موضوع الخطاب في تلك الليلة، سرداً مكشوفاً للأضرار والخسائر التي أحدثها العنف الرسمي، بانتهاج سياسة الأرض المحروقة من أجل تدمير المعارضة الليبرالية، وما أسفرت عنه من عدد لم يحدد بعد من القتلى على يد قوات الأمن العام في المناطق الريفية، وتحول سكان قرى بكاملها إلى لاجئين في المدن، دون سقف ودون خبز. وبعد تعداد مرعب للاغتيالات وخرق القوانين، بدأ غايتان برفع صوته، متلذذاً بما يقوله كلمة كلمة، جملة جملة، بإعجاز بلاغي مبهرج وصائب. كان توتر الجمهور يتزايد على إيقاع صوته، حتى بلغ انفجاراً نهائياً في أجواء المدينة، ودوى عبر الإذاعة في أقصى أركان البلاد.

اندفعت الحشود الغاضبة إلى الشارع، في معركة حامية وغير دامية، وسط تسامح سري من جانب الشرطة. وأظن أنني فهمت أخيراً، في تلك الليلة، إحباطات جدي وتحليلات كاميلو توريس ريستريبو الثاقبة. ما فاجأني هو أن طلاب الجامعة الوطنية بقوا منقسمين إلى ليبراليين وقوطيين (محافظين)، مع وجود حلقات شيوعية. ولكن الثغرة التي كان يشقها غايتان في البلاد لم تتجاوز ذلك. وصلتُ إلى النزل ذاهلاً من صدمة تلك الليلة، ووجدت زميلي في الغرفة يقرأ في سريره بسلام، كتاباً لأورتيغا آي غاسيت، فقلت له:

– لقد جئت متحولاً إلى شخص آخر جديد يا دكتور بيغا. فقد عرفت الآن كيف ولماذا كانت تبدأ حروب الكولونيل نيكولاس ماركيز.

بعد أيام قليلة من ذلك – في السابع من شباط ١٩٤٨ – أقام غايتان أول مهرجان سياسي حضرته في حياتي: مسيرة حداد على ضحايا العنف الرسمي في البلاد الذين لم يُعرف عددهم، وقد شارك

فيها أكثر من ستين ألف امرأة ورجل يرتدون ملابس الحداد، ويرفعون رايات الحزب الحمراء، ورايات الحداد الليبرالي السوداء. وكان شعار المسيرة الوحيد هو: الصمت المطلق. وقد طُبّق الشعار بدرامية لا يمكن تصورها، حتى في شرفات المنازل والمكاتب التي شهدت مرورنا عبر الإحدى عشرة كوادرا المزدحمة في الجادة الرئيسية. وكانت هناك إلى جانبي، امرأة تدمدم بترتيلة من بين أسنانها. فنظر إليها باستغراب رجل يسير بجوارها:

- أرجوك يا سيدتي.

فأصدرت المرأة زفرة أسف، وغرقت وسط بحر الأشباح الصامتة. ومع ذلك، فإن ما جرجرني إلى حافة البكاء هو احتراس الخطوات وهي تطأ الأرض، وأنفاس الحشود في صمتها الخارق. لقد انضممتُ إلى المسيرة دون أية قناعة سياسية، يجتذبني فضول الصمت. وفجأة داهمتني عقدة البكاء الحبيسة في حنجرتي. ذلك الخطاب الذي ألقاه غايتان في ساحة بوليفار، من فوق شرفة دار البلدية، كان صلاة مأتمية ذات شحنة انفعالية تبعث على القشعريرة. وعلى خلاف تنبؤات حزبه المشؤومة، أنهى خطابه بالشرط الأكثر ملاءمة لشعار المسيرة: ولم يكن هناك أي تصفيق.

هكذا كانت "مسيرة الصمت"، الأكثر إثارة للمشاعر، بين كل المسيرات التي جرت في كولومبيا. الانطباع الذي تبقى من تلك الأمسية التاريخية، بين المناصرين والمعادين، هو أن انتخاب غايتان صار أمراً محتماً لا يمكن وقفه. وقد كان المحافظون يعرفون ذلك أيضاً، بسبب درجة التلوث التي بلغها العنف في كل أنحاء البلاد، وبسبب شراسة

شرطة النظام ضد الليبرالية العزلاء، وبسبب سياسة الأرض المحروقة. والتعبير الأكثر ضبابية عن حالة البلاد المعنوية، عاشه في عطلة نهاية الأسبوع تلك، من حضروا مصارعة الثيران في ميدان المصارعة في بوغوتا، حيث انقض جمهور المدرجات على الحلبة بسخط، وقد استثارته وداعة الثور وعجز المصارع عن الإجهاز عليه. فمزقت الحشود الغاضبة الثور حياً. صحفيون وكتّاب كثيرون ممن عاشوا ذلك الرعب أو سمعوا به، فسروه على أنه العارض الأشد هولاً للغضب الهمجي الذي كان يعتمل في البلاد.

في مناخ التوتر العالي ذاك، افتتح في بوغوتا المؤتمر التاسع لعموم أميركا، في الثلاثين من آذار، الساعة الرابعة والنصف مساء. كان قد جرى تجديد شباب المدينة بكلفة باهظة، وبالرؤية الجمالية الباذخة لوزير الخارجية لاوريانو غوميث الذي كان، بحكم منصبه، رئيساً للمؤتمر. وحضره وزراء خارجية جميع بلدان أمريكا اللاتينية، وشخصيات بارزة من ذلك الزمن. وكان جميع السياسيين الكولومبيين البارزين ضيوف شرف، باستثناء، وحيد وذي مغزى لخورخي إليسير غايتان، إذ ألغيت دعوته، دون ريب، بالفيتو ذي المغزى الكبير الذي فرضه لاوريانو غوميث، وربما بعض القادة الليبراليين أيضاً، ممن كانوا يكرهونه لمهاجمته الأوليغارشية في كلا الحزبين. أما نجم القطب في المؤتمر فكان الجنرال جورج مارشال، مندوب الولايات المتحدة والبطل الأكبر للحرب العالمية المنتهية حديثاً، والمتألق كفنان سينمائي مبهر في قيادته إعادة إعمار أوروبا التي دمرتها الحرب.

ومع ذلك، فقد كان خورخي إليسير غايتان هو رجل اليوم، في

الأخبار، في ذلك التاسع من نيسان، لأنه توصل إلى إصدار حكم بتبرئة الملازم خيسوس ماريا كورتيس بويدا، المتهم بقتل الصحفي إدواردو غالارثا أوسا. كان قد وصل ممتلئاً بالنشوة إلى مكتبه كمحام، في التقاطع المزدحم للشارع السابع مع جادة خيمينث كيسادا، قبل الساعة الثامنة صباحاً بقليل، على الرغم من أنه كان قد بقي في المحاكمة حتى الفجر. وكانت لديه مواعيد عديدة للساعات التالية، ولكنه تقبل فوراً، الدعوة إلى الغداء، التي وجهها إليه بلينيو ميندوثا نيرا، قبل الساعة الواحدة بقليل، مع ستة أصدقاء، شخصين وسياسيين، ذهبوا إلى مكتبه لتهنئته بالفوز الحاسم الذي لم تتمكن صحف ذلك اليوم من نشره. وكان بينهم طبيبه الخاص، بيدرو إليسيو كروث، وهو في الوقت نفسه أحد أفراد بطانته السياسية.

في ذلك الجو المتوتر، جلستُ لتناول الغداء في قاعة الطعام، في النزل الذي أعيش فيه، على بعد أقل من ثلاث كوادرات. لم يكن الحساء قد قُدم إليّ بعد، عندما وقف ويلفريدو ماتيو أمام المنضدة، وقال لي:

– لقد تخوزقت هذه البلاد؛ فقد قتلوا للتو غايتان، قبالة "القط الأسود".

كان ماتيو طالب طب وجراحة مثالياً، ينحدر من سوكري مثل نزلاء آخرين في النزل، ويعاني من نبوءات مشؤومة. وقد أخبرنا أقل من أسبوع، بأشد نبوءاته هولاً وأقربها إلى الحدوث، بسبب عواقبها المدمرة، وهي احتمال أن يجري اغتيال خورخي إليسير غايتان. غير أن ذلك ما كان ليدهش أحداً، لأنه لم تكن هناك حاجة إلى النبوءات من أجل توقع حدوثه.

استجمعتُ أنفاسي بصعوبة لأجتاز، بأقصى سرعة، جادة خيمينث دي كيسادا، طائراً. ووصلت منقطع الأنفاس، قبالة مقهى القط الأسود، عند ناصية التقاطع مع الشارع السابع تقريباً. كانوا قد نقلوا الجريح للتو، إلى المستشفى المركزي، على بعد حوالي أربع كوادرات من المكان، وكان لا يزال حياً إنما دون أمل بالنجاة. وكانت هناك جماعة من الرجال يغمسون مناديلهم في بركة الدم الدافئ؛ ليحتفظوا بها كأثر تاريخي. وزمجرت امرأة تضع منديلاً أسود وتنتعل صندلاً، كانت بين النساء اللواتي يبعن أشياء رخيصة في ذلك المكان، وهي ترفع المنديل الدامي:

– لقد قتله أبناء العاهرة!

حاولت زمر ماسحي الأحذية، المسلحين بصناديقهم الخشبية، أن يحطموا الستارة المعدنية لصيدلية "نويفا غرانادا"، حيث كان عدد قليل من رجال الشرطة قد احتجزوا المعتدي، لحمايته من الجموع المتأججة غضباً. وكان هناك رجل طويل القامة، شديد الثقة بنفسه، يرتدي بدلة رمادية متقنة، كما لو أنه في حفل زفاف، يحرض الجموع بصرخات محسوبة جيداً. وقد كان لصرخاته مفعولها، مما اضطر صاحب الصيدلية إلى رفع ستارة الباب المعدنية، خوفاً من أن يقدموا على إحراقها. أما المعتدي، فقد انهار هلعاً، في مواجهة الحشد الغاضب الذي اندفع باتجاهه، فتشبث بأحد رجال الشرطة، وهو يتوسل دون صوت تقريباً:

– لا تدعهم يقتلوني أيها الشرطي.

لن أستطيع نسيانه إلى الأبد. كان شعره مشعثاً، وذقنه لم تحلق منذ يومين، يغطي وجهه شحوب الموت، وعيناه جاحظتان من الرعب.

وكان يرتدي بدلة جوخ بنية مستخدمة طويلاً، ذات خطوط رأسيه، وقد تمزقت ياقتها مع أول أعمال شدّ وتجاذب الجموع له. كانت رؤية خاطفة وأبدية، لان ماسحي الأحذية انتزعوه من الشرطة بضربات صناديقهم، وأجهزوا عليه ركلاً بالأقدام. ومنذ تعثره الأول، فقد إحدى فردتي حذائه.

صرخ الرجل ذو البدلة الرمادية الذي لم تُحدد هويته قط:

- إلى القصر! إلى القصر !

انصاع له أشد الناس اندفاعاً. أمسكوا جسد القاتل الدامي وسحلوه في الشارع السابع، باتجاه ساحة بوليفار، بين آخر حافلات الترام التي عرقل الخبر مسيرها، مطلقين سباب وشتائم الحرب ضد الحكومه. ومن الأرصفة والشرفات، كانوا يحشونهم بالصرخات والتصفيق، بينما الجثة الممزقة بالضرب، تخلف نتفاً من الملابس والجسد على حجارة الشارع. انضم كثيرون إلى المسيرة، وخلال اجتياز أقل من ست كوادرات، صارت أشبه بانفجار حرب في اتساع حجمها وقوتها. ولم يبق على الجسد الممزق سوى سرواله الداخلي وفردة من الحذاء .

أما ساحة بوليفار التي أعيد تصميمها حديثاً، فلم تكن لها مهابة وجلال أيام الجمعة التاريخية الأخرى، فالأشجار جُردت من ملائكيتها، ونصبت التماثيل الفظة المعبرة عن الجماليات الرسمية الجديدة. وفي مبنى الكابيتوليو الوطني (البرلمان)، حيث أقيم قبل عشرة أيام، مؤتمر عموم أمريكا، كان المندوبون قد غادروا لتناول الغداء. وهكذا واصلت الجموع مسيرها حتى قصر الرئاسة، وكان أيضاً بلا حراسة. وهناك تركوا ما تبقى من الجثة التي لم يعد عليها من الملابس، سوى مزق من السروال الداخلي وفردة الحذاء اليسرى وربطتي عنق لا تفسير لهما، معقودتين

عند العنق. بعد دقائق، وصل رئيس الجمهورية ماريانو اوسبينا بيريث وزوجته لتناول الغداء، بعد أن افتتحا معرضاً للثروة الرعوية والماشية في بلدة إنغاتيفا. وكانا يجهلان حتى تلك اللحظة، خبر الاغتيال، لأن جهاز المذياع في السيارة الرئاسية، كان مطفأ.

بقيتُ في مكان الجريمة حوالي عشر دقائق أخرى، مذهولاً من السرعه التي تتبدل فيها روايات الشهود، شكلاً ومضموناً، إلى أن تفقد أي تشابه لها مع الواقع. كنا في تقاطع جادة خيمينيث والشارع السابع، في الوقت الذي بلغ فيه تجمع الناس ذروته، على بعد خمسين خطوه من صحيفة التيمبو. وعرفنا عندئذ أن من كانوا يرافقون غايتان، عند خروجه من مكتبه، هم بيدرو إليسيو كروث، واليخاندرو باييخو، وخورخي باديا، وبيلينو ميندوثا نييرا، وزير الحرب في حكومة ألفونسو لويث بوماريخو الأولى. وكان هذا الأخير هو من دعاهم إلى الغداء. لقد خرج غايتان من البنا، الذي يوجد فيه مكتبه، دون أي نوع من الحراسة، وسط جماعة متراصة من الأصدقاء. وما إن بلغوا الرصيف، حتى أمسكه ميندوثا من ذراعه، وتقدم به خطوة عن الآخرين، وقال له :

- ما أريد أن أقوله لك.. هو أمر تافه.

لم يستطع قول المزيد. فقد غطى غايتان وجهه بذراعه، وسمع ميندوثا الطلقه الأولى قبل أن يرى في مواجهتهم الرجل الذي سدد مسدسه، وأطلق النار ثلاث مرات على رأس الزعيم، ببرود أعصاب قاتل محترف. بعد لحظه من ذلك، كان هناك حديث عن طلقة رابعة أطلقت دون اتجاه، وربما عن خامسة أيضاً.

بيلينيو ابوليو ميندوثا الذي وصل مع أبيه وأختيه، إلفيرا وروسا

إنيس، تمكن من رؤية غايتان مطروحاً على ظهره على الرصيف، قبل دقيقة واحدة من نقله إلى المستشفى. وقد أخبرني بعد سنوات من ذلك: "لم يكن يبدو ميتاً. كان أشبه بتمثال مهيب ممدد على ظهره فوق الرصيف، بجوار بقعة دم صغيرة، وبحزن عظيم في عينيه المفتوحتين والثابتتين." في لحظات الاضطراب تلك، فكرت أختاه في أن أباهما قد مات أيضاً، وكانتا ذاهلتين إلى حد أن بيلينيو ابوليو صعد بهما إلى أول ترام مر من هناك، ليبعدهما عن المكان. لكن السائق أدرك ما حدث بالكامل، فألقى قبعته على الأرض، وغادر الترام في وسط الشارع، لينضم إلى صرخات التمرد الأولى. بعد دقائق كان ذلك الترام هو الأول الذي قلبته الحشود التي أصابها الجنون.

كانت هناك خلافات لا حل لها، حول عدد المشاركين في الاغتيال وأدوارهم؛ فقد أكد أحد الشهود أنهم كانوا ثلاثة، وتوالوا على إطلاق النار. وقال آخر إن القاتل الحقيقي قد اندس بين الجموع الهائجة، وصعد دون تسرع إلى ترام سائر. ولم يكن ما أراد ميندوثا نييرا طلبه من غايتان، عندما اقتاده من ذراعه، أي شيء من الأشياء الكثيرة التي قيلت منذ ذلك الحين؛ وإنما أراد إبلاغه بمنحه الموافقة على إنشاء معهد لإعداد القادة النقابيين. أو "مدرسة لتعليم السائقين الفلسفة"، مثلما سخر منه حموه قبل أيام من ذلك. ولكنه لم يتمكن من قول ذلك له، عندما دوت أمامهما الرصاصة الأولى.

بعد مرور خمسين سنة، ما زالت راسخة في ذاكرتي، صورة الرجل الذي بدا أنه يحرض الناس أمام الصيدلية، ولم أعثر عليه في أي واحدة من الشهادات الكثيرة التي قرأتها عن ذلك اليوم. لقد رأيته عن قرب،

بملابس من النوع الفاخر، وبشرة من المرمر، وسيطرة محكمة على تصرفاته. وقد لفت انتباهي إلى حد بقيتُ معه أتابعه إلى أن التقطته سيارة جديدة تماما فور سحل جثة القاتل. ومنذ تلك اللحظة، بدا ممحواً من الذاكرة التاريخية، وحتى من ذاكرتي، إلى ما بعد سنوات طويلة، في أزمنة عملي كصحفي، حين داهمتني فجأة فكرة أن ذلك الرجل قد تمكن من دفع الجموع إلى قتل قاتل مزيف ليخفي هوية القاتل الحقيقي.

وقد كان وسط تلك الفوضى المنفلتة من عقالها، القائد الطلابي الكوبي فيديل كاسترو، في العشرين من عمره، مندوباً عن جامعة هافانا إلى مؤتمر طلابي، انعقد كرد ديمقراطي على مؤتمر عموم أمريكا. كان قد حضر قبل حوالي ستة أيام، برفقة ألفريدو غيفارا، وإنريكي اوفاريس، ورفائيل دل بينو – وهم طلاب جامعيون كوبيون مثله – وكانت إحدى مساعيه الأولى، طلب موعد للقاء مع خورخي اليسير غايتان، وكان معجبا به. بعد يومين من وصوله، التقى كاسترو بغايتان، وحدّد له هذا الأخير موعداً لمقابلته يوم الجمعة التالي. وقد سجل غايتان، شخصياً، هذا الموعد في مفكرة مكتبه، في الصفحة الموافقة ليوم التاسع من نيسان: "فيدل كاسترو، في الثانية بعد الظهر".

ووفق ما قاله فيدل نفسه لوسائل إعلام عديدة، وفي مناسبات مختلفة، وفي استعادتنا معاً، مرات لا حصر لها، لتلك الأحداث على امتداد صداقتنا القديمة، فقد سمع بأول خبر عن الجريمة، بينما كان يتجول قريباً من المكان، لكي لا يتخلف عن موعده في الساعة الثانية. وفاجأته بغتة أول الجماعات التي كانت تركض غاضبة، ومطلقة الصّيحة العامة:

– لقد قتلوا غايتان!

لم يتنبه فيديل كاسترو، إلا في ما بعد، إلى أنه ما كان يمكن له إنجاز موعده، بأي حال من الأحوال، قبل الساعة الرابعة أو الخامسة، بسبب دعوة الغداء الطارئة التي قدمها ميندوثا نيبرا لغايتان.

لم يكن هناك متسع لأي شخص آخر في موقع الجريمة. فقد كانت حركة المرور متوقفة، وعربات الترام مقلوبة. فتوجهتُ إلى النزل لأنهي غدائي، عندما اعترض طريقي أستاذي كارلوس هـ. باريخا أمام باب مكتبه، وسألني إلى أين أنا ذاهب. فقلت له:

– إنني ذاهب لتناول الغداء.

فقال بطلاقته الكاريبية المتمادية:

– يا للعنة! كيف يخطر لك تناول الغداء، وقد قتلوا لتوهم غايتان؟

ودون أن يمنحني وقتاً لقول أي شيء آخر، أمرني بأن أذهب إلى الجامعة، وأن أقف على رأس حركة الاحتجاج الطلابي. الغريب أنني انصعت له على خلاف طبيعتي. واصلتُ مسيري عبر الشارع السابع باتجاه الشمال، وهو عكس اتجاه الحشد الذي كان يتراكض نحو الناصية التي وقعت فيها الجريمة، بفضول وألم وغضب. كانت حافلات الجامعة الوطنية، يقودها طلاب هائجون، تتقدم المسيرة. وفي حديقة سانتاندير، على بعد مئة متر من ناصية الجريمة، كان الموظفون يغلقون بأقصى سرعة بوابات فندق غرانادا – أفخم فنادق المدينة –، حيث كان ينزل في تلك الأيام بعض وزراء الخارجية وضيوف مؤتمر عموم أمريكا.

راحت جمهرة جديدة أخرى من الفقراء، تبرز من كل النواحي، في وضع قتالي. كثيرون منهم جاؤوا مسلحين بمناجل متشيتي سُرقت للتو،

في أول هجمات على المتاجر. وكانت تبدو عليهم اللهفة إلى استخدامها. لم تكن لدي رؤية واضحة لنتائج الاغتيال المحتملة؛ وواصلت طريقي مفكراً في الغداء، أكثر من تفكيري في الاحتجاج. وهكذا رجعتُ ثانية باتجاه النزل. صعدت الدرج قفزاً وأنا واثق من أن أصدقائي المسيسين يقفون على أهبة الحرب. لكن الأمر لم يكن كذلك؛ فقد كانت قاعة الطعام لا تزال مقفرة، وكان أخي وخوسيه بالنثيا – اللذان يقيمان في الغرفة المجاورة – يغنيان مع أصدقاء آخرين في غرفة النوم. فصرختُ بهم:

– لقد قتلوا غايتان!

أومؤوا إلي بأنهم يعرفون ذلك. ولكن مزاجهم جميعاً كان أقرب إلى الاحتفالية منه إلى المأتمية، ولم يقطعوا غناءهم. بعد ذلك جلسنا لتناول الغداء في قاعة الطعام الخاوية، مقتنعين بأن الأمر لن يتجاوز الحد الذي بلغه، إلى أن رفع أحدهم صوت المذياع ليسمعه غير المبالين. وأكد كارلوس هـ. باريخا، عبر المذياع، على ما كان قد نبهني إليه قبل ساعات؛ فأعلن أنه جرى تشكيل مجلس حكومي ثوري مكوّن من أبرز ليبراليي اليسار، ومنهم الكاتب والسياسي الأوسع شهرة، خورخي ثالاميا. وكان أول اتفاق توصل المجلس إليه هو تشكيل اللجنة التنفيذية، وقيادة الشرطة الوطنية وكل الأجهزة اللازمة للدولة الثورية. ثم تحدث بعد ذلك أعضاء اللجنة الآخرون بشعارات أكثر فأكثر تمادياً.

كان أول ما خطر لي، في وقار المهرجان، هو ما الذي يمكن لأبي أن يفكر فيه عندما يعلم، وهو المحافظ الصلب، أن ابن عمه هو الزعيم الأكبر لثورة اليسار المتطرف. فوجئت صاحبة النزل، حيال كثرة أسماء

الأساتذة الجامعيين، ورأت أنهم لا يتصرفون كأساتذة، وإنما كطلاب سيئي التربية. كان يكفي تجاوز رقمين على مؤشر المذياع، ليجد أحدنا نفسه في بلد مختلف. ففي الإذاعة الوطنية، كان دعاة الليبرالية يدعون إلى الهدوء، وفي إذاعات أخرى يحرضون ضد الشيوعيين الموالين لموسكو، بينما كبار زعماء الليبرالية الرسمية يتحدون أخطار الشوارع التي في حالة حرب، محاولين الوصول إلى القصر الرئاسي ليتفاوضوا على تسوية وحدة مع الحكومة المحافظة.

بقينا حائرين من تلك البلبلة الجنونية إلى أن صرخ ابن صاحبة النزل، فجأة، بان البيت يحترق. وبالفعل، كانت قد انفتح شق في الجدار الرخامي في أقصى البناء، وبدأ دخان أسود كثيف يخلخل هواء غرف النوم. لا شك أنه كان يأتي من مبنى الإدارة الحكومية – المجاور للنزل – الذي أحرقه المتظاهرون. ولكن الجدار بدا قوياً بما يكفي للصمود. وهكذا نزلنا الدرج قافزين، ووجدنا أنفسنا وسط مدينة في حالة حرب. كان المهاجمون المندفعون يلقون من نوافذ المبنى الحكومي، كل ما يجدونه في المكاتب. وكان دخان الحرائق يعبق في الهواء، وبدت السماء المكفهرة بالدخان كأنها غطاء مشؤوم. بينما كانت الشراذم الغاضبة، المسلحة بمناجل المتشيتي وكل أنواع الأدوات المسروقة من محلات الخردوات، تنقض على متاجر الشارع السابع والشوارع المجاورة، وتضرم فيها النار، بمساعدة رجال الشرطة المتمردين. وكانت نظرة آنية واحدة، كافية لندرك أن الوضع قد خرج عن السيطرة. وسبق أخي تفكيري، مطلقاً صرخة:

– يا للعنة! الآلة الكاتبة.

ركضنا باتجاه بيت الرهونات الذي ما زال سليماً، وبوابته ذات القضبان الحديدية محكمة الإغلاق. ولكن الآلة الكاتبة لم تكن في المكان الذي كانت فيه دائماً. لم نقلق، وفكرنا في أنه يمكننا استعادتها في الأيام التالية، دون أن يدور في خلدنا أنه لن تكون هناك، بعد تلك الكارثة الفظيعة، أية أيام تالية.

اكتفت حامية بوغوتا العسكرية بحماية المراكز الرسمية والمصارف. وبقي الأمن العام على عاتق لا أحد. تحصن عدد كبير من كبار قادة الشرطة في مقر الفرقة الخامسة، منذ الساعات الأولى، ولحق بهم الكثير من رجال شرطة الشوارع، مع شحنات أسلحة جمعوها من الطرق. وقد أطلق بعضهم، وكانوا يضعون عصابة المتمردين الحمراء على أذرعهم، زخات من رصاص بنادقهم قريباً منا؛ فأحسستُ بها تدوي في صدري. ومنذ ذلك الحين صرت على قناعة بأنه يمكن للبندقية أن تقتل بالدوي وحده.

لدى رجوعنا من بيت الرهونات، رأينا اجتياح وتدمير متاجر الشارع الثامن في دقائق. وكانت تلك هي أغنى المتاجر في المدينة. المجوهرات الثمينة، والأجواخ الإنكليزية، وقبعات بوند ستريت التي كنا، نحن الطلبة الساحليين، ننظر إليها بإعجاب في واجهات المتاجر البعيدة عن متناولنا، صارت جميعها حينذاك، في متناول يد الجميع، أمام الجنود غير المبالين الذين يحرسون المصارف الأجنبية. وكان مقهى سان مارينو الراقي، حيث لم نستطع الدخول قط، مفتوحاً ومخرباً، ولأول مرة دون البوابين ذوي السموكينغ الذين كانوا يبادرون إلى منع الطلاب الكاريبيين من الدخول.

بعض من كانوا يخرجون محملين بالملابس الفاخرة، ولفائف أقمشة الجوخ الكبيرة على أكتافهم، لا يلبثون أن يتركوها في الشارع. التقطتُ واحدة منها، دون أن يخطر لي أنها ثقيلة إلى ذلك الحد، واضطررت إلى التخلي عنها بالرغم من ألم روحي. كنا نتعثر في كل مكان، بأجهزة منزلية ملقاة في الشارع. ولم يكن من السهل المشي بين زجاجات ويسكي من أفخر الأصناف، وكل أنواع المشروبات الغريبة التي كان الجموع تذبحها بضربات المتشيتي. وجد أخي لويس إنريكي وخوسيه بالينثيا ما تبقى من نهب أحد متاجر الثياب الجيدة، وكانت بينها بدلة زرقاء، سماوية من قماش جيد جداً، ومناسبة تماماً لمقاس والدي الذي استخدمها طوال سنوات في المناسبات المهيبة. أما غنيمتي الوحيدة التي وفرتها لي العناية الإلهية، فكانت حافظة أوراق من جلد البقر، وجدتها في أغلى قاعة شاي في المدينة. وقد أفادتني في حمل مخطوطاتي تحت إبطي، خلال ليالي السنوات التالية الطويلة التي لم أكن أجد فيها مكاناً أنام فيه.

كنت أمضي مع جماعة تشق طريقها في الشارع الثامن، متوجهة إلى الكابيتوليو، عندما كنست زخة من رصاص رشاش، أولَ من أطلوا على ساحة بوليفار. القتلى والجرحى الذين سقطوا فوراً متكومين في منتصف الشارع، جعلونا نتوقف فجأة. خرج زاحفاً من ذلك الكوم، محتضرٌ مضرج بالدماء، وأمسك بساق بنطالي، وصرخ بتوسل مؤثر يمزق القلب:

– حباً بالرب أيها الشاب، لا تتركني أمت!

هربتُ خائفاً. ومنذ ذلك الحين تعلمت نسيان أهوال أخرى، خاصة بي أو بالآخرين؛ ولكنني لن أنسى أبداً خذلان تينك العينين في وميض

الحرائق. ومع ذلك، ما زال يفاجئني أنني لم أفكر لحظة واحدة، أنه كان يمكن لنا، أنا وأخي، أن نموت في ذلك الجحيم الذي تداخلت فيه المواقع.

كان المطر قد بدأ بالهطول متقطعاً، منذ الساعة الثالثة بعد الظهر، ولكنه انفلت بعد الخامسة في وابل توراتي أطفأ الكثير من الحرائق الصغرى، وخفف من حدة اندفاع التمرد. عمدت حماية بوغوتا ضئيلة العدد إلى تفكيك غضب الشوارع، لعجزها عن مواجهته. ولم يتم تعزيزها إلى ما بعد منتصف الليل، بقوات طوارئ من المقاطعات المجاورة، وبخاصة من بوياكا، ذات السمعة السيئة، باعتبارها مدرسة العنف الرسمي. وكانت الإذاعة حتى ذلك الحين تحث وتحض، ولكنها لا تقدم أخباراً. ولهذا لم يكن هناك منشأ أصلي لأي نبأ. وكان من المستحيل معرفة الحقيقة. عند الفجر، استعادت القوات التي أحضرت حديثاً، السيطرة على المركز التجاري الذي دمرته الجموع، ولم يبق فيه وسيلة إنارة سوى الحرائق. ولكن المقاومة المسيسة تواصلت لعدة أيام بعد ذلك، مع وجود قناصين متمركزين في الأبراج وعلى الأسطح. أما عدد القتلى في تلك الساعة، فكان لا يحصى.

عندما رجعنا إلى النزل، كانت ألسنة اللهب تتصاعد من معظم أجزاء مركز المدينة. وكانت هناك حافلات ترام مقلوبة، وأنقاض سيارات تستخدم كمتاريس عارضة. دسنا في حقيبة، أشياءنا القليلة التي تستحق أن تحمل، ولم أنتبه إلا في ما بعد، إلى أنه بقيت لي هناك مسودة قصتين أو ثلاث قصص قصيرة غير منشورة، ومعجم الجد الذي لم أسترده قط، وكتاب ديوجين ليرسيو الذي تلقيته كمكافأة، في سنة دراستي الثانوية الأولى.

الشيء الوحيد الذي خطر لنا، أنا وأخي، هو طلب اللجوء في بيت الخال خوانيتو. وكان لا يبعد سوى أربع كوادرات عن النزل. في شقة طابق ثانٍ، مؤلفة من صالة، وغرفة طعام وحجرتي نوم، حيث يعيش الخال مع زوجته وأبنائه إدواردو، ومارغريتا، ونيكولاس. وكان أكبرهم قد أمضى بعض الوقت معي في النزل. كان المكان يكاد لا يتسع، إلا أن آل ماركيز كابيرو كانوا طيبين إلى حد أنهم ارتجلوا أماكن حيث لا مكان، حتى في غرفة الطعام، ليس لنا وحسب، وإنما كذلك للعديد من أصدقائنا وزملائنا في النزل: خوسيه بالينثيا، دومينغو مانويل بيغا، كارميلو مارتينيث – جميعهم من سوكري – وآخرون كنا لا نكاد نعرفهم.

قبيل منتصف الليل بقليل، عندما توقف المطر، صعدنا إلى السطح لنشاهد المنظر الجهنمي للمدينة المضاءة ببقايا الحرائق. بدا جبلا مونسرات وغوادالوبي، في أقصى المشهد، مثل كتلتي ظلال على خلفية السماء الغائمة بالدخان. ولكن الشيء الوحيد الذي كنت ما أزال أراه في الغمام الكثيب هو الوجه الهائل للمحتضر الذي زحف نحوي ليتوسل مساعدة مستحيلة. كانت عمليات الصيد الشوارعي قد تقلصت، ولم يعد يُسمع في الصمت الرهيب، سوى صوت طلقات متفرقة من القناصين الكثيرين المنتشرين في كل أنحاء مركز المدينة، وجلبة القوات التي تصفي شيئاً فشيئاً بقايا المقاومة المسلحة أو العزلاء، للسيطرة على المدينة. وقد أعرب الخال خوانيتو، المتأثر بمشهد الموت، في زفرة واحدة عن مشاعر الجميع:

– رباه، يبدو هذا أشبه بحلم!

لدى الرجوع إلى الصالة المعتمة، انهرتُ على الأريكة. كانت النشرات الرسمية من الإذاعات التي احتلتها الحكومة، ترسم بانوراما عودة تدريجية إلى الهدوء. لم تعد هناك خطابات، ولكن لم يكن ممكناً التمييز بدقة بين الإذاعات الرسمية، وتلك التي ما زالت تحت سيطرة المتمردين. وحتى هذه الأخيرة، كان من المستحيل تمييزها وسط وابل بريد الساحرات الجارف. قيل إن كل السفارات تغص باللاجئين، وإن الجنرال جورج مارشال يقيم في سفارة الولايات المتحدة، تحت حماية حرس شرف من المدرسة العسكرية. وقد التجأ لاوريانو غوميث كذلك إلى السفارة نفسها، منذ الساعات الأولى، وأجرى من هناك اتصالات هاتفية مع رئيسه، محاولاً الحيلولة دون دخول الرئيس في مفاوضات مع الليبراليين، في ظل وضع يتلاعب به، حسب رأيه، الشيوعيون. أما الرئيس السابق ألبيرتو ييراس، وهو يومذاك أمين عام اتحاد عموم أميركا، فقد نجا بحياته بأعجوبة، حين تم التعرف عليه وهو في سيارته غير المصفحة، عندما غادر مبنى الكابيتوليو، وحاولوا أن يجبروه على الموافقة على تنازل المحافظين عن السلطة وتسليمها بصورة شرعية. وعند منتصف الليل كان معظم المندوبين المشاركين في مؤتمر عموم أميركا، قد صاروا في أماكن آمنة.

ووسط الأخبار الكثيرة، أُعلن أن غييرمو ليون بالينثيا، ابن الشاعر الذي يحمل الاسم نفسه، قد رُجم بالحجارة حتى الموت، وأن جثته معلقة في ساحة بوليفار، ولكن فكرة أن الحكومة تسيطر على الوضع، بدأت تتضح عندما راح الجيش يستعيد محطات البث الإذاعي التي سيطر عليها المتمردون. وبدلاً من صرخات الحرب، صارت الأخبار ترمي عندئذ

إلى طمأنة البلاد بعزاء، أن الحكومة هي سيدة الموقف، بينما كانت القيادات الليبرالية العليا تتفاوض مع رئيس الجمهورية على نصف السلطة.

الحقيقة أن الوحيدين الذين بدا أنهم يعملون بحس سياسي، هم الشيوعيون. وكانوا قلة ومتحمسين؛ فقد خرجوا إلى الشوارع وسط الفوضى، ليوجهوا الحشود - مثل شرطة المرور - ويقودوها نحو مراكز السلطة. أما الليبرالية بالمقابل، فكشفت انقسامها إلى النصفين اللذين ندد بهما غايتان في حملته الانتخابية: القادة الذين يتفاوضون على حصة من السلطة مع القصر الرئاسي، وجمهور منتخبيهم الذين خاضوا المقاومة، كيفما استطاعوا وإلى حيث استطاعوا، من فوق الأبراج والأسطح.

أول الشكوك التي برزت في شأن مقتل غايتان، كانت حول هوية قاتله. وليست هناك، حتى يومنا هذا، قناعة إجماعية بأن القاتل هو خوان روا سييرا، رجل المسدس المنفرد الذي أطلق النار عليه بين الحشود في الشارع السابع. وما يصعب فهمه هو أن يكون قد تصرف من تلقاء نفسه، مادام يبدو بلا ثقافة ذاتية تمكنه من اتخاذ قرار تلك الميتة المدمرة، في ذلك اليوم، وفي تلك الساعة، وفي ذلك المكان، وبتلك الطريقة نفسها. أمه إنكارناثيون سييرا، أرملة روا، وكانت آنذاك في الثانية والخمسين من عمرها، علمت من الإذاعة بمقتل غايتان، بطلها السياسي. وكانت تصبغ أفضل ثوب لديها بالأسود من أجل الحداد. ولم تكن قد انتهت من عمل ذلك، عندما سمعت بأن القاتل هو خوان روا سييرا، الابن الثالث عشر بين أبنائها الأربعة عشر. لم يكن أي واحد

منهم قد تخطى المدرسة الابتدائية، وأربعة منهم - طفلان وطفلتان - ماتوا مبكراً.

وقد صرحت بأنها لاحظت، منذ حوالي ثمانية أشهر، تبدلاً غريباً في سلوك خوان. كان يتكلم وحيداً، ويضحك دون سبب. وفي إحدى المرات اعترف للأسرة باعتقاده بأنه تجسيد للجنرال فرانسيسكو دي باولا سانتاندير، بطل استقلالنا. ولكنهم ظنوا أنها مجرد دعابة سكير سيئة. لم يخطر لها قط أنه يمكن لابنها أن يسيء إلى أحد. وكان قد توصل إلى الحصول على توصيات من أناس يتمتعون ببعض النفوذ، من أجل الحصول على وظيفة. وكان يحمل واحدة من تلك التوصيات في محفظته، عندما قتل غايتان. وقبل ستة شهور من ذلك، كتب رسالة بخط يده إلى الرئيس أوسبينو بيريث، يلتمس فيها أن يقابله ليطلب منه توفير عمل له.

أعلنت الأم للمحققين أن ابنها قد طرح مشكلته على غايتان شخصياً كذلك، ولكن هذا لم يمنحه أي أمل. لم يُعرف عنه أنه أطلق النار من سلاح في حياته، ولكن الطريقة التي استخدم به سلاح الجريمة، كانت أبعد ما تكون عن مبتدئ. فقد كان المسدس من عيار ٨٣، طويلاً، قديماً ومستهلكاً، إلى حد أن عدم انحراف أي طلقة عن هدفها، بدا مثيراً للدهشة.

أعرب بعض موظفي المبنى عن اعتقادهم بأنهم رأوه، عشية الاغتيال، في الطابق الذي توجد فيه مكاتب غايتان. وأكد البواب، دون أي مجال للشك، بأنه رآه صباح التاسع من نيسان يصعد السلالم، ثم ينزل بعد ذلك في المصعد مع شخص مجهول. وبدا له أن كليهما قد

انتظرا عدة ساعات بالقرب من مدخل المبنى، ولكن روا كان وحيداً إلى جانب البوابة، عندما صعد غايتان إلى مكتبه، قبل الساعة الحادية عشرة بقليل.

غابرييل ريستريبو، وهو صحفي في جريدة لاخورنادا - صحيفة حملة غايتان الانتخابية -، وضع قائمة بالوثائق الشخصية التي كان روا سييرا يحملها عند اقتراف الجريمة. وهي لا تترك مجالاً للشك حول هويته ووضعه الاجتماعي. فقد كان في جيوب بنطاله، اثنان وثمانون سنتافو على شكل قطع معدنية مختلفة، في الوقت الذي كانت فيه أشياء كثيرة، من مستلزمات الحياة اليومية، تكلف خمسة سنتافو. وكان يحمل في جيب سترته الداخلي، محفظة من جلد أسود، فيها ورقة نقدية من فئة البيزو الواحد. وكان يحمل كذلك، شهادة تؤكد حسن سيرته، وأخرى من الشرطة تشير إلى أنه بلا سوابق جنائية، ووثيقة ثالثة عليها عنوانه في حي الفقراء الذي يسكنه: الشارع الثامن، الرقم ٣٠-٧٣ . وحسب دفتر الخدمة العسكرية، كاحتياطي من الدرجة الثانية، الذي كان يحمله في الجيب نفسه، فهو ابن رافائيل روا وإنكارناثيون سييرا. وقد ولد قبل إحدى وعشرين سنة من ذلك: في الرابع من تشرين الثاني ١٩٢١ .

كل شيء كان يبدو عادياً، اللهم إلا كونه رجلاً ذا وضع بائس ودون سوابق جنائية، يحمل معه كل تلك الأدلة على حسن سيرته وسلوكه. ومع ذلك، فإن الشيء الوحيد الذي خلّف لدي أثراً من الشك، لم أستطع تجاوزه أبداً، هو الرجل المتأنق ذو الملابس الجيدة الذي حرض عليه الشراذم الغاضبة، ثم اختفى إلى الأبد، في سيارة فخمة.

وسط جلبة المأساة، وبينما كان يجري تحنيط جثمان الزعيم المقتول،

اجتمعت قيادة الليبراليين في قاعة الطعام، في المستشفى المركزي، للاتفاق على صيغ طوارئ. وكانت أكثر تلك الصيغ إلحاحاً، هي التوجه إلى القصر الرئاسي، دون طلب مسبق، لمناقشة رئيس الدولة في صيغة طوارئ يمكن لها أن تدرأ خطر الكارثة التي تهدد البلاد. هدأ هطول المطر قبل الساعة التاسعة بقليل، وشق أول المندوبين الليبراليين طريقهم كيفما استطاعوا، عبر الشوارع التي حولتها الثورة الشعبية إلى أنقاض، وبين الجثث التي اخترقها رصاص القناصين الطائش من الشرفات والأسطح.

مع نهاية المساء، كان الرئيس قد فقد الاتصال مع أشد الأماكن حرجاً وخطورة. وكان يحاول مع قادة عسكريين ووزراء، وراء أبواب مغلقة، تقويم وضع الأمة. أخذته زيارة القادة الليبراليين على حين غرة، قبيل الساعة العاشرة ليلاً، ولم يشأ أن يقابلهم دفعة واحدة، وإنما كل اثنين منهم على حدة. ولكنهم صمموا أن أياً منهم لن يدخل بتلك الطريقة. فتنازل الرئيس، ولكن الليبراليين رأوا في الأمر مبرراً للبأس.

وجدوه جالساً على رأس منضدة اجتماعات طويلة، ببدلة لا تشوبها شائبة، ودون أدنى ملمح من الجزع. وكان الشيء الوحيد الذي يشي ببعض التوتر، هو طريقته المتواصلة والشرهة، في التدخين؛ فكان في بعض الأحيان يطفئ السيجارة وهي في منتصفها، لكي يُشعل واحدة أخرى. وقد أخبرني أحد الزائرين بعد سنوات من ذلك، عن الوقع الذي خلفه في نفسه وميض الحرائق المتعالية، وراء رأس الرئيس الفضي غير المبالي. فقد كان جمر الأنقاض تحت السماء الملتهبة، يُلمح من خلال واجهات المكتب الرئاسي الزجاجية الكبيرة، ممتداً حتى أطراف الدنيا.

ما هو معروف عن ذلك الاجتماع، تدين به للقليل الذي رواه أبطاله،

واعترافات بعضهم السرية النادرة، وتخيلات آخرين الكثيرة، وإلى إعادة تركيب فتات ما جرى في تلك الأيام المشؤومة، على يد الشاعر والمؤرخ أرتورو ألابي، وهو الذي أتاح إلى حد كبير، تماسك هذه المذكرات.

كان الزائرون هم: دون لويس كانو، مدير جريدة الاسبيكتادور المسائية، وبيلينو ميندوثا نييرا الذي نشّط ذلك الاجتماع، وثلاثة آخرون من أنشط قادة الليبراليين وأكثرهم فعالية: كارلوس بيراس ريستريبو، داريو إتشانديا، وألفونسو آراوخو. وفي سياق النقاش، دخل وخرج ليبراليون آخرون بارزون.

ووفقاً للاستذكارات الواضحة التي سمعتها، بعد سنوات، من بيلينو ميندوثا نييرا، في منفاه الضجر، في كاراكاس، لم تكن لدى أي واحد منهم خطة جاهزة بعد. وكان هو نفسه الشاهد الوحيد بين الحضور، على عملية اغتيال غايتان. وقد روى ما جرى، خطوة خطوة بغنونه كراوٍ فطري وصحفي مزمن. استمع إليه الرئيس باهتمام مهيب، ثم طلب في النهاية أن يعرب الزائرون عن أفكارهم من أجل حلّ عادل ووطني لذلك الوضع الطارئ الخطير.

فرد عليه ميندوثا، المشهور بين أصدقائه وأعدائه بصراحته البعيدة عن المجاملة، بأن تفوض الحكومة سلطاتها إلى القوات المسلحة، بسبب الثقة التي توليها إليها الشعب في تلك اللحظات. فقد كان وزيراً للحرب مؤخراً، في حكومة الليبرالي ألفونسو لوبث بوماريخو، ويعرف العسكريين جيداً من الداخل، ويرى بأنهم هم وحدهم من يستطيعون إعادة الأمور إلى نصابها. ولكن الرئيس لم يوافق على واقعية هذه الصيغة، ولم يؤيدها كذلك الليبراليون أنفسهم.

المداخلة التالية قدمها دون لويس كانو، المعروف جيداً ببريق حذره وتعقله. كان يحس بمشاعر شبه أبوية تجاه الرئيس. واكتفى بعرض استعداده للقبول بأي قرار سريع وعادل يوافق عليه الرئيس أوسبينا، ويحظى بتأييد الأغلبية. فأكد له هذا الأخير على ضرورة التوصل إلى الإجراءات الضرورية للعودة بالأوضاع إلى حالتها الطبيعية؛ ولكن مع التمسك بالدستور دوماً. ثم ذكّرهم بسخرية غير مكبوحة تماماً، وهو يشير من النوافذ إلى الجحيم الذي يلتهم المدينة، بأن الحكومة ليست من تسببت بكل ذلك.

كان مشهوراً باعتداله وحسن تربيته، على نقيض صخب وزير خارجيته لاوريانو غوميث، وغطرسة آخرين من محازبيه المحافظين، الخبراء، في الانتخابات المركبة. ولكنه أثبت في تلك الليلة التاريخية، أنه غير مستعد لأن يكون أقل منهم عناداً. وهكذا امتد النقاش حتى منتصف الليل، دون التوصل إلى أي اتفاق. وكانت تقطعه بين حين وآخر، زوجة الرئيس، دونيا بيرتا دي أسبينا، حاملةً إليه أخباراً مروعة، إلى هذا الحد أو ذلك.

كانت أعداد القتلى عندئذ لا تحصى في الشوارع. وكذلك أعداد القناصين الذين يتمركزون في مواقع لا يمكن الوصول إليها، وأعداد الحشود التي أفقدها صوابها الحزنُ والغضب وأصناف الخمر الغالية المسلوبة من المتاجر الفخمة. كان مركز المدينة مهدماً، والحرائق ما زالت تشتعل فيه. كما هدمت أو أحرقت دكاكين بيع الكتب والأشياء الدينية، وقصر العدل، ودار الحكومة، وأبنية تاريخية أخرى كثيرة. لقد كان الواقع هو الذي يضيّق، دون رحمة، دروب التوصل إلى اتفاق هادئ بين عدة رجال ضد رجل واحد، في جزيرة المكتب الرئاسي المعزولة.

داريو إتشانديا، الذي ربما كان صاحب أعلى سلطة. لكنه بدا أقل الحضور تكلماً. فقد اكتفى بتعليقين أو ثلاثة تعليقات ساخرة حول الرئيس، وعاد يلوذ بعالمه الضبابي. كان يبدو المرشح المؤكد للحلول محل أوسبينا بيريث في رئاسة البلاد. ولكنه لم يفعل في تلك الليلة شيئاً يجعله جديراً بالمنصب أو يجنبه إياه. أما الرئيس الذي اعتبر محافظاً معتدلاً، فقد صار يبدو أقل فأقل اعتدالاً. لقد كان حفيد وابن أخي رئيسين سابقين في قرن واحد، ورب أسرة، ومهندساً متقاعداً، ومليونيراً منذ الأزل، فضلاً عن أشياء أخرى كان يمارسها دون أدنى ضجيج. حتى إنه كان يقال، دون الاستناد إلى أي أساس، إن من يحكم في الواقع، سواء في البيت أو في القصر، هي زوجة الرئيس التي امتشقت السلاح. ومع ذلك، انتهى الرئيس إلى القول، بسخرية فظة، إنه لا يجد غضاضة في تقبل الاقتراح، غير أنه يشعر بالراحة في قيادته الحكومة من المقعد الذي يجلس عليه بمشيئة الشعب.

كان يتكلم مستقوياً، دون شك، بخبر لا يعرفه الليبراليون: فهو مطلع تماماً وبدقة على الوضع الأمني العام في البلاد. وكان يعرف ذلك طوال الوقت، من خلال المرات العديدة التي خرج فيها من المكتب للحصول على معلومات معمقة. لم تكن حامية بوغوتا تزيد على الألف رجل. وكانت هناك أخبار خطرة إلى هذا الحد أو ذاك، تصل من كل القطاعات. إلا أن كل شيء، لا يزال تحت السيطرة، إضافة إلى وراء القوات المسلحة. وفي مقاطعة بوياكا المجاورة، المشهورة بتيارها الليبرالي التاريخي، وتيارها المحافظ الشرس، لم يكن حاكم المقاطعة خوسيه ماريا بيياريال - وهو قوطي قلباً وقالباً - قد أفلح في قمع

أعمال الشغب المحلية، منذ وقت مبكر وحسب، وإنما راح يرسل قوات أفضل تسليحاً لإخضاع العاصمة. وهكذا فإن الشيء الوحيد الذي كان الرئيس يحتاج إليه، هو إلهاء الليبراليين باعتداله المحسوب جيداً، بالتكلم قليلاً والتدخين ببطء. لم ينظر في أي لحظة إلى ساعته، ولكنه كان يقدر جيداً دون ريب، الوقت الذي ستكون فيه المدينة محمية جيداً، بقوات المدد الإضافية والمجربة في أعمال القمع الرسمي.

وبعد تبادل طويل لصيغ تجريبية، اقترح كارلوس بيراس ريستريبو الصيغة التي اتفق عليها القادة الليبراليون في المستشفى المركزي، واحتفظوا بها كوسيلة أخيرة قصوى: الاقتراح على الرئيس بأن يسلم السلطة إلى داريو إتشانديا، في سبيل الوئام السياسي والسلام الاجتماعي. ولا بد أن الفكرة كانت ستلقى القبول دون تحفظ، من جانب إدواردو سانتوس وألفونسو لوبيث بوماريخو، الرئيسين السابقين اللذين يتمتعان برصيد سياسي كبير، ولكنهما كانا خارج البلاد في ذلك اليوم.

ومع ذلك، فإن إجابة الرئيس التي قالها بالبطء نفسه الذي كان يدخن به، لم تكن ما يرجى انتظاره منه. فهو لم يبدد تلك الفرصة ليكشف عن طبعه الحقيقي، وكان من يعرفونه قلة حتى ذلك الحين. فقد قال إن الأمر المريح له ولأسرته، هو التخلي عن السلطة والعيش في الخارج، على ثروته الشخصية، بعيداً عن الهموم السياسية. إلا أن ما يقلقه هو ما يمكن أن يعنيه للبلاد، خروج الرئيس المنتخب هارباً من منصبه ومسؤولياته. فالحرب الأهلية ستكون حتمية عندئذ. وحيال إلحاح جديد من جانب بيراس ريستريبو، حول تخلي الرئيس عن السلطة، سمح هذا الأخير لنفسه بالتذكير بواجبه في الدفاع عن الدستور والقوانين،

وبأنه يعاهد وطنه فقط على ذلك، وإنما عاهد عليه أيضاً ضميره والله.
وعندئذ نطق، كما يقال، بالجملة التاريخية التي يبدو أنه لم يقلها قط.
ولكنها بقيت مسجلة باسمه إلى أبد الآبدين: "الديمقراطية الكولومبية
تنتفع برئيس ميت، أكثر من انتفاعها برئيس هارب".

لا يتذكر أي واحد من الشهود أنه سمعها من فمه، ولا من فم أي
شخص آخر. وقد نُسبت مع مرور الزمن إلى موهوبين عديدين، بل
نُوقشت كذلك مزاياها السياسية، وقيمتها التاريخية. ولكن دون أن
يُطرح رونقها الأدبي للنقاش قط. وقد صارت هذه الجملة، منذ ذلك
الحين، هي العلامة المميزة لحكومة أوسبينا بيريث، وأحد أعمدة مجدها.
ووصل الأمر إلى نسبة صياغتها إلى صحفيين محافظين مختلفين،
ووجدت مبررات أكبر لنسبتها إلى الكاتب والسياسي المعروف، وزير
المناجم والنفط الحالي، خواكين إدواردو مونسالفي. وكان موجوداً
يومذاك في القصر الرئاسي بالفعل. ولكن ليس في قاعة الاجتماعات.
وبقيت الجملة للتاريخ على أي حال، مقولة بلسان من كان عليه أن
يقولها، في مدينة مدمرة، حيث بدأ الرماد يتجمد، وفي بلاد لن تعود
أبداً لأن تكون هي نفسها.

ولكن كفاءة الرئيس وأهليته لم تتجليا في ابتكار عبارات تاريخية،
وإنما في إلهاء الليبراليين بسكاكر منوِّمة إلى ما بعد منتصف الليل،
حين وصلت قوات النجدة الإضافية، لتقمع تمرد العامة، وتفرض السلام
المحافظ. عندئذ فقط، في الساعة الثامنة من صباح العاشر من نيسان،
أيقظ داريو إتشانديا بكابوس أحد عشر رنيناً من الهاتف، وأبلغه
بتعيينه وزير دولة في نظام مواساة من الحزبين. وعمد لاوريانو غوميث

المستاء من هذا الحل، والقلق على أمنه الشخصي، إلى السفر إلى
نيويورك مع أسرته، بينما كانت الشروط متوفرة لتحقيق رغبته الأبدية
في أن يكون رئيساً.

أما أحلام التحول الاجتماعي العميق الذي مات غايتان من أجلها،
تلاشت كلها وسط أنقاض مدينة يتصاعد منها الدخان. وزاد عدد
القتلى، ممن سقطوا في شوارع بوغوتا، وتواصل سقوطهم على يد القمع
الرسمي في السنوات التالية، على المليون، فضلاً عن بؤس ونفي
الكثيرين، وقبل وقت أبعد بكثير من بدء القادة الليبراليين، في
الحكومة العليا، بالانتباه إلى أنهم قد جازفوا بدخول التاريخ،
كمتواطئين.

بين الشهود التاريخيين الكثيرين على ذلك اليوم في بوغوتا، كان
هناك اثنان لا يعرف أحدهما الآخر. ولكنهما سيكونان بعد سنوات من
أعظم أصدقائي. أحدهما هو لويس كاردوثا أي أراغون، الشاعر
والكاتب السياسي والأدبي الغواتيمالي. وكان يحضر مؤتمر عموم أميركا
بصفته وزير خارجية بلاده ورئيس وفدها. والآخر هو فيدل كاسترو. وقد
اتهم كلاهما، فوق ذلك، في أحد الأوقات، بالتورط في أحداث الشغب.

فقد قيل عن كاردوثا أي أراغون تحديداً، إنه كان واحداً من
المحرضين، متستراً بأوراق اعتماده كمندوب خاص لحكومة خاكوبو آربنز
التقدمية، في غواتيمالا. لا بد أن ندرك أنه لا يمكن لكاردوثا أي
أراغون، وهو مندوب حكومة تاريخية، وشاعر كبير في لغتنا، أن يقدم
أبداً على مثل تلك المغامرة الجنونية الطائشة. لقد كانت أشد الذكريات
ألماً في كتاب مذكراته البديع، هي الاتهام الذي وجهه إليه إنريكي

سانتوس مونتيخو، الملقب "كاليبان"، في عموده المشهور في جريدة إلتيمبو، "رقصة الساعات"، حين نسب إليه أنه مكلف رسمياً بمهمة اغتيال الجنرال جورج مارشال. وقد بذل عدد من المندوبين إلى المؤتمر، مساعيهم لكي تقوم الصحيفة بتصويب تلك الإشاعة الهذيانية المختلقة. ولكن ذلك لم يكن ممكناً. أما جريدة السيغلو، لسان المحافظين الذين في السلطة، فأعلنت في الرياح الأربع، بأن كاردونا أي أراغون، هو المحرض على الفتنة.

لقد تعرفتُ عليه بعد سنوات طويلة من ذلك، في مدينة مكسيكو، مع زوجته ليا كوستاكوسكي، في بيته في كويواكان، المترع بصور ذكرياته، والأكثر تجملاً بأعمال أصلية لرسامين من زمانه. وكنا نحن الأصدقاء، نمضي هناك ليالي الأحد، في سهرات حميمة ذات أهمية بلا مزاعم. لقد كان يعتبر نفسه ناجياً من الموت، أولاً عندما تعرضت سيارته لرصاص رشاشات القناصين، بعد ساعات قليلة من وقوع الجريمة، ثم بعد أيام من ذلك، وكان قد تم القضاء على التمرد، عندما اعترض طريقه سكير في الشارع، وأطلق النار على وجهه من مسدس استعصى معه مرتين. وقد كان التاسع من نيسان موضوعاً متواتراً في أحاديثنا، حيث كان يختلط الغضب بالحنين إلى السنوات الضائعة.

وكان فيدل كاسترو بدوره، ضحية لكل أنواع الاتهامات العبثية، بسبب بعض الأعمال المتصلة بوضعه كناشط طلابي. في تلك الليلة السوداء، وبعد يوم رهيب بين الجموع الصاخبة، انتهى به المطاف إلى ثكنة فرقة الشرطة الوطنية الخامسة، بحثاً عن طريقة يكون فيها مفيداً في وضع حد لمذبحة الشوارع. ولا بد من معرفته لتصور ما كان عليه

قنوطه في تلك الثكنة المتمردة حيث بدا من المستحيل، فرض وجهة نظر جماعية مشتركة.

قابل قادة الحامية وغيرهم من الضباط المتمردين، وحاول، دون جدوى، إقناعهم بأن كل قوة تعتصم بثكنتها هي قوة مهدورة. اقترح عليهم أن يُخرجوا رجالهم للنضال في الشوارع، من أجل الحفاظ على الأمن، ومن أجل نظام أكثر عدالة. وحثهم بكل أنواع السوابق التاريخية، ولكنهم لم يسمعوا نصيحته، بينما كانت القوات والدبابات الرسمية تطلق النار على الثكنة. وأخيراً قرر أن يربط مصيره بمصير الآخرين.

وفي الفجر، جاء بيلينو ميندوثا نييرا إلى مقر الفرقة الخامسة، ومعه تعليمات من قيادة الليبراليين، للتوصل إلى استسلام سلمي، ليس فقط للضباط والشرطيين المتمردين، وإنما كذلك للعديد من الليبراليين العاديين الذين كانوا ينتظرون الأوامر للبدء بالتحرك. وخلال الساعات الطويلة التي استغرقتها مفاوضات الاتفاق، بقيت راسخة في ذاكرة ميندوثا نييرا، صورة ذلك الطالب الكوبي، المربوع والمحب للجدال، الذي توسط عدة مرات، في المحادثات بين القياديين الليبراليين والضباط المتمردين، ببعد بصر فاق الجميع. ولم يعرف من هو إلا بعد عدة سنوات من ذلك، لأنه رآه مصادفة في كاراكاس، في صورة فوتوغرافية من صور الليلة الرهيبة، بعد أن كان فيدل كاسترو قد بدأ نضاله في جبال سييرا مايسترا في كوبا.

أما أنا فتعرفت عليه بعد إحدى عشرة سنة، عندما سارعتُ بالذهاب كصحفي، لدى دخوله الظافر إلى هافانا. وتوصلنا مع مرور

الزمن، إلى صداقة شخصية صمدت عبر السنين، لما لا حصر له من العثرات. وفي أحاديثي الطويلة معه، حول كل ما هو إلهي وبشري، كان يوم التاسع من نيسان موضوعاً كثير التواتر. لا يتوانى فيدل كاسترو عن تذكره كأحد المآسي الحاسمة في تكوينه. وخاصة الليلة التي أمضاها في ثكنة الفرقة الخامسة، حيث انتبه إلى أن معظم المتمردين الذين يدخلون ويخرجون، كانوا يحطون من قيمة أنفسهم، في أعمال السلب والنهب، بدل أن يُصروا في ممارستهم، على ضرورة الإسراع في التوصل إلى حل سياسي.

بينما كان هذان الصديقان شاهدين على الأحداث التي قسمت تاريخ كولومبيا إلى قسمين، بقيتُ أنا وأخي على قيد الحياة، في الظلمات، مع اللاجئين الآخرين في بيت الخال خوانيتو. لم أعِ في أي لحظة آنذاك، أنني صرت كاتباً متدرباً، وأنني سأحاول في أحد الأيام، أن أعيد، من الذاكرة، تركيب شهادتي عن الأيام الرهيبة التي كنا نعيشها. فقد كان همي الوحيد حينذاك هو أكثر الهموم دنيوية: إخبار أسرتنا بأننا ما زلنا على قيد الحياة – حتى تلك اللحظة على الأقل – وأن نعرف في الوقت نفسه، أخبار أبوينا وأخوتنا، وخاصة أكبرهم، مارغوت وعايدا، الطالبتين الداخليتين بمدرستين في مدينتين بعيدتين.

لقد كان ملجأ الخال خوانيتو أشبه بمعجزة. وقد كانت الأيام الأولى شاقة بسبب تبادل إطلاق النار المتواصل، والافتقار إلى أية أخبار موثوقة. ولكننا، شيئاً فشيئاً، رحنا نرتاد المتاجر القريبة، وتمكنا من شراء أطعمة نأكلها. كانت الشوارع محتلة بقوات عسكرية لديها أوامر حازمة بإطلاق النار. تنكر خوسيه بالاثبوس الذي لا سبيل إلى إصلاحه

بملابس عسكرية، لكي يتجول دون قيود، معتمراً قبعة كشاف، وبطماق وجده في صندوق قمامة. وقد هرب بأعجوبة من أول دورية اكتشفته.

أخضعت محطات البث الإذاعي التجارية التي أسكتت قبل منتصف الليل، لرقابة الجيش. أما التلغراف والهواتف البدائية والقليلة، فكانت محجوزة لقوات الأمن العام. ولم تكن هناك وسائل أخرى للاتصال. كانت صفوف الانتظار أبدية أمام مكاتب التلغراف المزدحمة. ولكن محطات الإذاعة رتبت خدمة رسائل عبر الأثير، موجهة إلى من يحالفهم الحظ بالتقاط بثها. وقد بدت لنا هذه الوسيلة هي الأسهل والأضمن، وإليها توجهنا دون آمال كبيرة.

خرجت أنا وأخي إلى الشارع، بعد ثلاثة أيام من الحبس في البيت. كان المشهد مرعباً؛ فالمدينة تحولت إلى أنقاض، بدت غائمة وعكرة بالمطر المتواصل الذي خفف من استشراء الحرائق، ولكنه أخر استرداد المدينة. كثير من الشوارع كانت مغلقة بأعشاش القناصين، على أسطح مباني مركز المدينة. فكان لا بد من القيام بالتفافات بلا معنى، استجابة لأوامر الدوريات المسلحة، كما لو أنها في حرب عالمية. كانت رائحة الموت في الشوارع لا تطاق. ولم تتمكن شاحنات الجيش من تحميل أكوام الجثث المتراكمة على الأرصفة، فكان على الجنود أن يواجهوا جماعات اليائسين الآتين للتعرف على جثث أقربائهم.

في أطلالِ ما كان المركزَ التجاريَّ، لم تكن النتانة تسمح بالتنفس، حتى إن أسراً كثيرة اضطرت إلى التخلي عن البحث عن جثث مفقوديها. وفي أحد أهرامات الجثث الكبيرة، برزت جثة حافية ودون بنطال. أما سترتها فلم تكن تشوبها شائبة. وعلى الرغم من مرور ثلاثة أيام، كان

الرماد لا يزالا يطلق نتانة الأجساد التي لا أهل لها، متعفنة بين الأنقاض أو مكومة على الأرصفة.

وفي وقت لم يكن يخطر ببالنا، أوقفت أنا وأخي فجأة، بتهيئة بندقية مؤكدة وراء ظهرينا، وصوت يأمر بحزم:

– ارفعا أيديكما!

رفعتُ يدي دون تفكير، وقد جمدني الرعب، إلى أن أعادتني إلى الحياة، قهقهة صديقنا آنخل كاسيخ، وكان قد استجاب لنداء القوات المسلحة، باعتباره احتياطياً من الدرجة الأولى. وبفضلة تمكنا، نحن اللاجئين في بيت الخال خوانيتو، من إرسال رسالة عبر الأثير، بعد يوم من الانتظار أمام الإذاعة الوطنية. سمع أبي الرسالة في سوكري، بين ما لا حصر له من الرسائل التي كانت تُقرأ نهاراً وليلاً، طوال أسبوعين. أحسست أنا وأخي بأننا سنكون ضحية لا مفر منها، لنزوات الأسرة التخمينية، فبقينا خائفين من أنه يمكن لأمنا أن تفسر الخبر على أنه صدقة طمأنة من الأصدقاء، ريثما يهيئونها لما هو أسوأ. ولكننا أخطأنا في تفكيرنا قليلاً؛ إذ كانت أمنا قد حلمت، منذ الليلة الأولى، بأننا نحن، ابنيها الكبيرين، قد غرقنا في بحر من الدم، خلال أعمال الشغب. ولا بد أنه كان كابوساً مقنعاً جداً، إلى حد أنها عندما عرفت الحقيقة عبر وسائل أخرى، قررت ألا تسمح لأحد منا بالعودة أبداً إلى بوغوتا، حتى لو اضطررنا إلى البقاء في البيت، والموت جوعاً. ولا بد أن ذلك القرار كان قاطعاً، لأن الأمر الوحيد الذي تلقيناه من أبوينا في برقيتهما الأولى، هو السفر إلى سوكري، بأسرع ما يمكن، للبت في شأن المستقبل.

وفي توتر الانتظار، زين لي عدد من الزملاء، إمكانية مواصلة الدراسة في مدينة كارتاخينا دي إندياس، مفكرين بأن بوغوتا ستتمكن من الخروج من بين أنقاضها. ولكن البوغوتيين لن يشفوا أبداً من رعب المجزرة وهولها. وأخبروني بأن هناك في كارتاخينا، جامعة عريقة واسعة الشهرة، مثل أوابدها التاريخية، وكلية حقوق بالحجم الإنساني، سينظرون فيها إلى نتائجي السيئة في جامعة بوغوتا، على أنها جيدة.

لم أشأ استبعاد الفكرة، قبل أن أغليها أولاً، على نار حامية، ولا أن أذكرها لأبوي، قبل أن أذهب وأتأكد من ذلك، بنفسي. أخبرتهما فقط، بأنني سأسافر إلى سوكري بالطائرة عن طريق كارتاخينا، لأنه يمكن لنهر مجدلينا أن يكون طريقاً انتحارياً في ظل تلك الحرب الحامية. أما لويس إنريكي من جانبه، فأخبرهما بأنه سيسافر إلى بارانكيًا للبحث عن عمل، بعد أن يصفي حساباته مع رب عمله في بوغوتا.

لقد كنتُ أعرف، على أي حال، أنني لن أصير محامياً في أي مكان. وما كنتُ أريده هو كسب قليل من الوقت لإلهاء أبوي. ويمكن لكارتاخينا، بالتالي، أن تكون محطة فنية جيدة للتفكير في الأمر. ولكن ما لم يخطر لي على بال مطلقاً، هو أن تلك الحسابات العقلانية ستقودني إلى أن أقرر، وقلبي في يدي، أن ذلك هو المكان الذي أرغب في أن أواصل فيه حياتي.

الحصول في تلك الأيام، على خمسة أماكن في طائرة متوجهة إلى أي مكان على الساحل، كان واحدة من مآثر أخي. بعد الوقوف في صفوف انتظار لانهائية وخطرة، والركض من مكان إلى آخر، طوال يوم بكامله، في مطار طوارئ، وجد الأماكن الخمسة في ثلاث طائرات

مختلفة، وبمواعيد غير مؤكدة، ووسط إطلاق نار وانفجارات غير مرئية. ثبتوا لي ولأخي، أخيراً، حجز مقعدين في الطائرة نفسها، إلى بارانكيا. ولكننا غادرنا في النهاية، في طائرتين مختلفتين. كان رذاذ المطر والضباب المتواصلين في بوغوتا منذ يوم الجمعة السابق يعبقان برائحة البارود والأجساد المتفسخة. ومن البيت إلى المطار، جرى استجوابنا في حاجزين عسكريين متتاليين، كان جنودهما مرتبكين من الرعب. وعند الحاجز الثاني انبطحوا أرضاً وجعلونا ننبطح مثلهم بسبب انفجار تلاه تراشق إطلاق نار من أسلحة ثقيلة، تبين بعد ذلك أنه تسرب غاز صناعي. وقد تفهمنا نحن المسافرين، ذلك عندما قال لنا أحد الجنود إن مأساته هي في وجوده هناك منذ ثلاثة أيام، في نوبة حراسة متواصلة، دون بديل؛ ولكن دون ذخيرة أيضاً، لأن الذخائر قد نفدت في المدينة. لم نكد نتجرأ على الكلام منذ أن أوقفونا. وقد جاء رعب الجو ليجهز علينا. ومع ذلك، بعد الإجراءات الرسمية للتثبت من الهوية وأسباب السفر، أحسسنا بالعزاء حين علمنا أنه علينا البقاء هناك، دون الخضوع لأي إجراءات أخرى، إلى أن يقتادونا إلى الطائرة. وكان كل ما دخنته، خلال الانتظار هو سيجارتين من السجائر الثلاث التي تصدّق بها أحدهم عليّ. واحتفظت بالسيجارة الثالثة لتساعدني على تحمل رعب الرحلة.

وبما أنه لم تكن هناك هواتف، فقد كان الإعلان عن الرحلات، وعن التبدلات الطارئة الأخرى، يُعرف في مواقع المفارز العسكرية المتباعدة، بوساطة مراسلين عسكريين على دراجات نارية. في الساعة الثامنة صباحاً، استدعوا جماعة من الركاب للصعود فوراً إلى طائرة، غير

طائرتي، متوجهة إلى بارانكيا. وقد علمتُ بعد ذلك أن أصدقاءنا الثلاثة وأخي قد سافروا عبر موقع مفرزة عسكرية أخرى. كان بقائي في الانتظار وحيداً، علاجاً حمارياً لخوفي الفطري من الطيران، لأن السماء في لحظة صعودنا إلى الطائرة، كانت ملبدة برعود وعرة. كما أن سلم طائرتنا كان قد نُقل إلى طائرة أخرى، فاضطر جنديان إلى مساعدتي على الصعود، باستخدام سلّم بنّاء. وكان ذلك في المطار نفسه، والساعة نفسها التي صعد فيها فيدل كاسترو إلى طائرة أخرى متوجهة إلى هافانا، محملة بثيران مصارعة - مثلما أخبرني هو نفسه، بعد سنوات من ذلك.

ومن حسن - أو سوء - الحظ، أن طائرتي كانت من نوع DC-3، تعبق برائحة طلاء طري وتشحيم حديث، دون أنوار فردية، وبلا تهوية منتظمة في كابينة الركاب. وكانت قد أعدّت لنقل قوات عسكرية؛ فبدلاً من مقاعدها الثلاثية المتالية، كما في الرحلات السياحية، كان هناك مقعدان طوليان من ألواح خشبية عادية، مثبتة جيداً بالأرضية. وكانت كل أمتعتي في حقيبة واحدة من الكتان، فيها غياران أو ثلاثة غيارات من الملابس المتسخة، وكتب شعر وقصاصات من ملاحق أدبية تمكن أخي لويس إنريكي من إنقاذها. جلسنا نحن الركاب، في صفين متقابلين يمتدان من كابينة القيادة حتى الذيل. وبدلاً من أحزمة الأمان، كان هناك حبلان من القنب المستخدم في ربط السفن، يشكلان حزامي أمان طويلين جماعيين، في كل جانب. أما أقسى ما حدث لي، فهو أنني ما كدت أشعل السيجارة الوحيدة التي استبقيتها لتساعدني على اجتياز الرحلة، حتى أعلن لنا الطيار من كابينته بأنه ممنوع علينا

التدخين، لأن خزانات وقود الطائرة موجودة عند أقدامنا، تحت أرضية الألواح الخشبية. فكانت ثلاث ساعات من الطيران غير النهائي.

توافق وصولنا إلى بارانكيّا، مع هطول مطر من ذاك الذي لا يهطل إلا في نيسان، مع وجود بيوت منبوشة من جذورها، يجرفها التيار في الشوارع، ومرضى متوحدين يغرقون في أسرتهم. فكان علي أن أنتظر توقف المطر، في المطار المضطرب من الفيضان. وتوصلت بصعوبة إلى معرفة أن طائرة أخي ومرافقيه قد وصلت في موعدها. ولكن الثلاثة سارعوا إلى مغادرة المطار قبل أول رعود وابل المطر الأول.

احتجت إلى ثلاث ساعات أخرى للوصول إلى وكالة السفر. ولم أستطع اللحاق بالحافلة الأخيرة التي خرجت إلى كارتاخينا، قبل موعدها، بسبب اقتراب العاصفة. لم أشعر بالقلق، لأني ظننت أن أخي كان هناك. ولكنني أحسست بالخوف على نفسي، حيال فكرة اضطراري لقضاء ليلة دون نقود في بارانكيّا. وأخيراً، حصلتُ بفضل خوسيه بالينثيا، على ملجأ طوارئ في بيت الأختين الجميلتين إيلسي وليلا ألباراثيا، وبعد ثلاثة أيام من ذلك، سافرتُ إلى كارتاخينا، في حافلة وكالة البريد المخلعة. أما أخي لويس إنريكي فسيبقى بانتظار العثور على عمل في بارانكيّا. لم يبق لي أكثر من ثمانية بيزوات، ولكن خوسيه بالاثيوس وعدني بإحضار بعض النقود الأخرى لي، في حافلة الليل. لم أجد مكاناً شاغراً في الحافلة، ولا حتى وقوفاً على الأقدام. ولكن السائق وافق على حمل ثلاثة ركاب على السطح، جالسين على أمتعتهم وحمولتهم، وبربع قيمة التعرفة النظامية. في ذلك الوضع الغريب، وتحت الشمس الساطعة، أظن أنني أدركت أن ذلك التاسع من نيسان لعام ١٩٤٧، هو بداية القرن العشرين في كولومبيا.

٦

في نهاية رحلة من الارتجاج والخضخضة المميتة، عبر طريق للبغال، أطلقت حافلة وكالة البريد آخر أنفاسها، في مكان يليق بها، متوقفة في مستنقع أشجار مانغلي نتن ذي أسماك متعفنة، على بعد نصف فرسخ من كارتاخينا دي إندياس. وتذكرتُ بذاكرة جدي: "من يسافر في الحافلة، لا يدري أين يموت". الركاب المخبولون، بعد ست ساعات من الشمس العارية ورائحة عفونة المستنقع، لم ينتظروا إنزال السلم لكي يترجلوا، بل سارعوا يلقون، من فوق الحافلة، بأقفاص الدجاج، وحزم الموز وكل أصناف مواد البيع أو الموت التي استخدموها للجلوس على سطح الحافلة. قفز السائق من مقعده وأعلن بصرخة لاذعة:

– البطلة!

وهذا هو الاسم الرمزي الذي تُعرف به مدينة كارتاخينا دي إندياس، لأمجادها الغابرة. ولا بد أن المدينة كانت هناك، ولكنني لم أرها، لأني كنت أكاد لا أستطيع التنفس، في بدلة الجوخ السوداء، التي أرتديها منذ التاسع من نيسان. أما البدلتان الأخريان اللتان كانتا في خزانتي، فلقيتا المصير نفسه الذي لقيته الآلة الكاتبة في محل رهونات "مونتي دي بيداد". إلا أن الرواية الجديدة بالاحترام التي قدمتُها لأبوي، هي أن

الآلة الكاتبة، وأشياء شخصية أخرى غير ذات قيمة، قد اختفت مع الملابس، في فوضى الحريق. السائق المتغطرس الذي سخر، خلال الرحلة، من مظهري كقاطع طريق، أوشك على التفجر بهجة، عندما واصلت الدوران حول نفسي، دون أن أعثر على المدينة. فصرخ بي، ليُسمع الجميع:

– إنها في طيزك! وكن حذراً، فإنهم هناك يقلدون أوسمة للحمقى.

وبالفعل، كانت كارتاخينا دي إندياس في مكانها، وراء ظهري، منذ أربعمئة سنة. ولكنني لم أستطع تصور أن تكون على بعد نصف فرسخ من منبت أشجار المانغلي، متوارية وراء السور الأسطوري الذي أبقاها بمنجى من الوثنيين والقراصنة، في سنوات عظمتها. وانتهى بها الأمر إلى الاختفاء، تحت آجام ملتفة من الأغصان المشعثة، وصفوف طويلة متدلية من أزهار الجرس الصفراء. انضممتُ إلى جلبة المسافرين الآخرين، وسحبتُ الحقيبة عبر دغل تغطي أرضه سرطانات حية، تتهشم دروعها القشرية كأنها المفرقعات تحت نعال الأحذية. كان من المستحيل، ألا أتذكر عندئذ، صرة الأمتعة التي ألقى بها رفاقي إلى نهر مجدلينا، خلال رحلتي الأولى، أو الصندوق الجنائزي الذي جرجرته عبر نصف البلاد، وأنا أبكي من القهر، في سنواتي الأولى في المعهد، ثم ألقيت به أخيراً في أحد مهاوي جبال الأنديز، على شرف إنهائي الدراسة الثانوية. لقد بدا لي، على الدوام، أن هناك شيئاً غريباً في قدري، في تلك الحمولات الزائدة التافهة. ولم تكف سنوات حياتي الطويلة لتفنيد ذلك الإحساس.

ما إن بدأنا نلمح بروفيل بعض قباب الكنائس والأديرة في غبش

الغروب، حتى خرجت للقائنا عاصفة خفافيش تطير فوق رؤوسنا، ولا تطرحنا أرضاً بفضل حكمتها فقط. كانت أجنحتها تئز مثل دوي الرعد، مخلفة وراءها نتانة قاتلة. أرعبتني المفاجأة، فأفلتُ الحقيبة وتكورت على نفسي، فوق الأرض، حامياً رأسي بذراعي، إلى أن صرخت بي امرأة متقدمة في السن، كانت تمشي بجانبي:

– صلِّ صلاة التعظيمة!

وهي تعني تلك الصلاة السرية، للتخلص من هجمات الشيطان، المكروهة من الكنيسة، ولكنها مكرسة من قبل كبار الملحدين، عندما لا يجدون ما يكفي من التجديف. انتبهت المرأة إلى أنني لا أعرف كيف أصلي، فأمسكت حقيبتي من حزامها الآخر، لتساعدني في حملها. وقالت لي:

– صلِّ معي. ولكن عليك أن تفعل ذلك بإيمان كبير.

وهكذا راحت تملي عليَّ التعظيمة بيتاً فبيتاً، فرددتها بصوت عالٍ، وبورع لم أعد إلى الشعور بمثله قط. تلاشى خفق أجنحة الخفافيش، وإن كنتُ أجد اليوم مشقة في تصديق ذلك، واختفت جميعها من السماء، قبل أن ننتهي من الصلاة. ولم يعد يُسمع عندئذ، سوى صخب البحر المدوي في وهاد الشاطئ.

كنا قد وصلنا إلى بوابة الساعة الكبرى. لقد كان هناك، منذ مئة سنة، جسر متحرك يصل المدينة القديمة بضاحية جشيماني وبحي الفقراء المزدحم في منابت أشجار المانغلي، ولكنهم كانوا يرفعون الجسر، منذ التاسعة ليلاً حتى فجر اليوم التالي. فيبقى الأهالي معزولين، ليس عن بقية العالم وحسب، وإنما عن التاريخ أيضاً. ويقال إن الإسبان قد أقاموا

ذلك الجسر، خوفاً من أن يتسلل إليهم فقراء الأرباض في منتصف الليل، ليذبحوهم وهم نائمون. ومع ذلك، فقد بقي للمدينة شيء من أبهتها، لأن خطوة واحدة خطوتُها داخل الأسوار، كانت كافية لرؤيتها، بكل عظمتها، على ضوء الساعة السادسة مساء، الخبازي. ولم أستطع كبح إحساسي بأنني قد ولدت من جديد.

هذا أقل ما يمكن أن يقال. ففي بداية ذلك الأسبوع، خلّفت بوغوتا تتخبط في بركة من الدم والوحل، ولا تزال فيها أكوام جثث مجهولة الهوية، ومهجورة بين أنقاض يتصاعد منها الدخان. وفجأة، تغيرت الدنيا وصارت عالماً آخر في كارتاخينا. لم يكن هناك أي أثر للحرب التي تعصف بالبلاد. وقد وجدت مشقة في تصديق أن تلك الوحدة دون ألم، وذلك البحر غير المنقطع، وذلك الإحساس الفسيح بأنني قد وصلت، كانت تحدث لي في الحياة نفسها، بعد انقضاء أقل من أسبوع.

لكثرة ما سمعت من أحاديث عنها، منذ ولادتي، تعرفتُ فوراً على الساحة الصغيرة التي كانت تتوقف فيها عربات الخيول، وعربات الحمولة التي تجرها الحمير، وفي أقصاها رواق القناطر، حيث تصبح السوق الشعبية أشد ازدحاماً وصخباً. ومع أنه لم يكن معترفاً به، على أنه كذلك، في الوعي الرسمي، إلا أن ذلك المكان هو القلب النابض الأخير للمدينة، منذ أصولها. فخلال العهد الاستعماري، سمي "ميدان التجار". ومن هناك كانت تُحرك الخيوط غير المرئية لتجارة العبيد، وتتأجج المشاعر بالحماس ضد السيطرة الإسبانية. ثم سمي، فيما بعد، "ميدان الكتبة العموميين"، بسبب الخطاطين قليلي الكلام الذين كانوا يرتدون صدارات من الجوخ، وأكماماً مستعارة، ويكتبون رسائل حب،

وكل أنواع الوثائق لغير المتعلمين الفقراء. كثيرون منهم كانوا باعة كتب مستعملة من تحت الطاولة، وخاصة الكتب التي تدينها محاكم التفتيش. ويُعتقد بأنهم كانوا متنبئين بمؤامرات الكريوليين المحليين ضد الإسبان. وقد اعتاد أبي، في مطلع القرن العشرين، أن يخفف من غلواء اندفاعه الشعري، في فن كتابة رسائل الحب في تلك الساحة. والواقع أنه لم يزدهر في هذا العمل أو ذاك، لأن بعض الزبائن الماكرين – أو البائسين حقاً – لم يكونوا يكتفون بطلب كتابة الرسائل كصدقة، وإنما يطلبون منه كذلك خمسة ريالات لدفع أجور البريد.

قبل عدة سنوات، كان المكان يسمى "ميدان الحلويات"، بمظلاته العفنة، والمتسولين الذين يأتون ليأكلوا فضلات السوق، وصرخات عرّافي الهنود المشؤومة الذين يتقاضون أجراً غالياً مقابل امتناعهم عن إطلاع الزبون على يوم وساعة موته. وكانت سفن الكاريبي الشراعية تتأخر في الميناء، لشراء حلويات ذات أسماء تخترعها لها النساء اللواتي يصنعنها، ويَنظُمها الباعة المنادون في نداءات مغناة: "البسكويت المحشو بمهلبية ولوز، مأكول القرود" أو "حلوى الشوكولاته للرضع المصاصين" أو "حلوى جوز الهند للمجانين"، أو "بسكويت الفانيلا لمانويلا". وهكذا ظلت الساحة، في الخير والشر، مركز المدينة الحيوي، حيث تُكشف أمور الدولة من وراء ظهر الحكومة، والمكان الوحيد في العالم الذي تعرف فيه بائعات المعجنات المقلية، من سيكون حاكم المقاطعة القادم، قبل أن يخطر ذلك لرئيس الجمهورية في بوغوتا.

بهرني اللغط والصخب على الفور، فشققت طريقي متعثراً، وأنا أجر حقيبتي بين جموع السادسة مساء. كان هناك عجوز بأسمال لبس

في جسمه سوى العظم، ينظر إليّ، دون أن يرف له جفن، من فوق منصة ماسحي الأحذية، بعيني باشق جامدتين. اعترض طريقي فجأة. فما إن رأى أنني رأيته حتى عرض علي أن يحمل لي الحقيبة. شكرته، ولكنه حدد بلسانه الأمومي ما يريده مقابل ذلك:

– ثلاثون جَدياً.

مستحيل. ثلاثون سنتافو مقابل حمل حقيبة هو قضم للبيزوات الأربعة الوحيدة المتبقية لدي، إلى أن أتلقى مدداً من أبوي في الأسبوع التالي. فقلت له:

– هذا المبلغ يساوي الحقيبة وكل ما فيها.

أضف إلى ذلك، أن النزل الذي يجب أن تكون شلة بوغوتا فيه ليس بعيداً جداً. رضي العجوز بثلاثة جديان، فعلق حول عنقه، صندله الجلدي الذي كان ينتعله، وحمل الحقيبة على كتفه، بقوة لا تُصدق، بالنظر إلى هشاشة عظامه، واندفع راكضاً مثل رياضي بقدمين عاريتين، في متاهة بيوت كولونيالية متداعية بفعل قرون من الإهمال. كاد قلبي أن يطفر خارجاً من فمي، على الرغم من سنوات عمري العشرين، وأنا أحاول ألا يغيب عن ناظري، ذلك العجوز الأولمبي الذي لم تبق له ساعات كثيرة في الحياة. وبعد اجتياز خمس كوادرات، دخل من بوابة الفندق الكبيرة، وصعد درجات السلم، مثنى مثنى، ثم وضع الحقيبة على الأرض، بأنفاس هادئة، ومدّ لي راحة يده:

– ثلاثون جَدياً.

ذكّرته بأنني قد دفعت له أجره، ولكنه أصر على أن الثلاثة سنتافو التي تقاضاها في الساحة لا تتضمن صعود الدرج. وأيدت كلامه

صاحبة الفندق التي خرجت لاستقبالنا: فأجرة صعود الدرج تُدفع على حدة. وقدمت لي المرأةُ نبوءة ستنفعني مدى الحياة:

– سوف ترى أن كل شيء مختلف في كارتاخينا.

وكان عليّ أن أواجه كذلك الخبر السيئ بأن أياً من أصدقائي، في نزل بوغوتا، لم يصل بعد، على الرغم من أن هناك حجزاً مؤكداً في الفندق لأربعة أشخاص، بمن فيهم أنا. البرنامج الذي اتفقنا عليه هو أن نلتقي في الفندق، قبل الساعة السادسة من مساء ذلك اليوم. ومع أن تبديل الحافلة النظامية بحافلة وكالة البريد التعسة، قد أخرني ثلاث ساعات، إلا أنني كنتُ أكثرهم جميعاً، دقة في الوصول، دون أن أتمكن من عمل أي شيء، بأربعة بيزوات نقصت ثلاثة وثلاثين سنتافو. فقد كانت صاحبة الفندق أماً لطيفة، ولكنها عبدة لأنظمتها التي فرضتها بنفسها، مثلما سأتأكد من ذلك. خلال أكثر من شهرين أمضيتهما في فندقها، وهكذا لم توافق على تسجيلي كنزيل، ما لم أدفع أجرة الشهر الأول مقدماً: ثمانية عشر بيزو مقابل وجبات الطعام والنوم في غرفة لستة أشخاص.

لم أكن آمل بوصول مساعدة أبوي قبل انقضاء أسبوع. ولهذا لن تتجاوز حقيبتي صحن الدرج ما لم يصل أصدقائي الذين يمكن لهم أن يساعدوني. جلست أنتظر على متكأ يليق بمطران، مزين برسوم زهور كبيرة، بدا لي كما لو أنه نزل من السماء، بعد يوم كامل تحت شمس ساطعة، في حافلة نكبتي. الحقيقة أن أحداً لم يكن متأكداً من شيء في تلك الأيام. واتفاقنا على اللقاء هناك، في يوم معين وساعة محددة، كان بلا معنى في الواقع، لأننا لم نكن نتجرأ على القول حتى لأنفسنا،

إننا في بلاد تعيش حالة حرب دامية، مستترة في الأقاليم، منذ عدة سنوات، ومكشوفة وقاتلة في المدن، منذ نحو أسبوع.

بعد ثماني ساعات من الانتظار، وبينما أنا مأزوم في فندق كارتاخينا، لم أستطع تصور ما الذي يمكن أن يكون قد حدث لخوسيه بالينثيا وأصدقائه، وبعد ساعة انتظار أخرى دون تلقي أي خبر، خرجت للتسكع في الشوارع المقفرة. الظلام يخيم في شهر نيسان باكراً. وقد كانت الأنوار العامة مضاءة، غير أن نورها شحيح جداً إلى حد يمكن الظن معه أنها نجوم باهتة بين الأشجار. قمت بجولة أولية من خمس عشرة دقيقة، دون وجهة محددة، في تعرجات القطاع الكولونيالي المرصوفة، وكانت كافية لأن أكتشف، بإحساس عظيم بالراحة، أن تلك المدينة الغريبة ليست لها أي علاقة بالمستحاثة المعلبة التي يصفونها لنا في المدرسة.

لم تكن هناك نفس واحدة في الشوارع، فالجموع التي تأتي من الضواحي عند الفجر، للعمل أو البيع، تعود متعجلة إلى أرباضها، في الساعة الخامسة مساء. أما سكان المدينة داخل السور، فيلوذون ببيوتهم، ليتناولوا العشاء ويلعبوا الدومينو حتى منتصف الليل. لم تكن عادة السيارات الشخصية قد شاعت بعد. وسيارات الخدمة القليلة كانت تبقى خارج السور. وحتى أرفع الموظفين منزلة، كانوا يأتون حتى ساحة العربات، في حافلات النقل المحلية المزركشة. ومن هناك يشقون طريقهم إلى مكاتبهم، أو يقفزون فوق دكاكين البضائع الرخيصة، المعروضة على الأرصفة العامة. وقد تباهى أحد أكثر حكام المدينة تكلفاً، في تلك السنوات المأساوية، بمواصلته التنقل من حيه الراقي إلى ساحة العربات، في الحافلات نفسها التي كان يذهب فيها إلى المدرسة.

التخفيف من وطأة السيارات، كان اضطرارياً، لأنه وجودها مخالف للواقع التاريخي؛ إذ لا تتسع لها شوارع المدينة الضيقة والمتعرجة، حيث يتردد في الليل، وقع حوافر الخيول الضامرة غير المحذية. وفي أزمنة الحر الشديد، عندما تُفتح الشرفات لتدخل برودة الحدائق، تُسمع رشقات من أكثر الأحاديث حميمية، برنة شبحية. ويَسمع الأجداد المتناومون، وقع خطوات تنسلّ خفية في الشوارع الحجرية، فيتابعونها باهتمام، دون أن يفتحوا أعينهم، إلى أن يتعرفوا على أصحابها، ويقولوا بخيبة أمل: "إنه خوسيه أنطونيو ذاهباً إلى حيث تشابيلا". والواقع أن الشيء الوحيد الذي كان يُخرج المؤرقين عن طورهم، هو ضربات الفيشات، على طاولة الدومينو، التي تدوي في كل أرجاء المنطقة المسوّرة.

لقد كانت ليلة تاريخية بالنسبة لي. وكنت أكاد لا أتعرف، في أرض الواقع، إلا بصعوبة، على تخيلات الكتب المدرسية التي هزمتها الحياة. لقد هزني الانفعال حتى الدموع، وأنا أرى أن قصور المركيزين القديمة نفسها، موجودة أمام عيني، مخلعة الأبواب، ينام المتسولون في مداخلها. رأيتُ الكاتدرائية بلا نواقيسها التي انتزعها القرصان فرانسيس دراك، ليصنع منها مدافع. أما النواقيس القليلة التي نجت من الهجوم، فقد طُهِّرت بعد أن حكم عليها سحرة المطران بالمحرقة، بسبب رنينها الخبيث الذي يستدعي الشيطان. رأيتُ الأشجار الذاوية، وتماثيل الشخصيات المرموقة التي لا تبدو منحوتة من المرمر الميت، وإنما هي نفسها ميتة بلحمها. ذلك أنها لم تكن محمية، في كارتاخينا، من صدأ الزمن، بل على العكس تماماً؛ فالزمن يحافظ على نفسه في الأشياء التي ما زالت تمتلك عمرها الأصلي، بينما القرون تهرم. هكذا، في ليلة

وصولي بالذات، تكشفت لي المدينة، في كل خطوة، بحياتها الخاصة، ليس باعتبارها مستحاثة الكرتون الحجري، مثلما يصفها المؤرخون، وإنما كمدينة من لحم وعظم، لم تعد تستند إلى أمجادها الحربية، وإنما إلى هيبة أطلالها.

بهذا النفس الجديد، رجعت إلى النزل، عندما دقت ساعة البرج معلنة العاشرة. أخبرني الحارس شبه الغافي بأن أحداً من أصدقائي لم يأت، ولكن حقيبتي صارت في مكان آمن في مستودع الفندق. عندئذ فقط، تنبهت إلى أنني لم أتناول طعاماً أو شراباً منذ الفطور السبئ في بارانكيا. تراخت ساقاي من الجوع، ولكنني اكتفيتُ بأن تقبل السيدة إيداع حقيبتي، وتتركني أنام في الفندق، تلك الليلة فقط، ولو على أريكة الصالة. ولكن الحارس سخر من براءتي، وقال لي بكاريبية فجة:

– لا تكن أبله! فهذه "المدامة" (1)، بفضل أكوام المال التي تملكها، تنام منذ الساعة السابعة، ولا تستيقظ إلا في الساعة الحادية عشرة، من اليوم التالي.

شعرتُ أنها حجة مقبولة، وخرجت للجلوس على مقعد في حديقة بوليفار، في الجهة الأخرى من الشارع، بانتظار مجيء أصدقائي، دون أن أزعج أحداً. كانت الأشجار الذاوية تُرى بصعوبة على أنوار الشارع، لأن مصابيح الحديقة لا تضاء إلا في أيام الآحاد والأعياد. كان على مقاعد الرخام، آثار كتابات محاها وأعاد كتابتها شعراء صفيقون، مرات ومرات. وفي قصر محكمة التفتيش، وراء الواجهة الكولونيالية المنحوتة من الحجر البكر، وبوابتها التي كبوابة كنيسة متقدمة، كان

(1) المدامة: استخدام عامي لكلمة مدام "سيدة" الفرنسية.

يُسمع أنين لا عزاء له، يصدره طائر مريض لا يمكن له أن يكون من هذا العالم. عندئذ، داهمتني فجأة، الرغبة في التدخين وفي القراءة، في آن واحد، وهما آفتان أدمنت عليهما، واختلطت إحداهما بالأخرى في شبابي، بسبب إلحاحهما وعنادهما. كانت رواية ألدوس هكسلي "مباراة شعرية" التي لم يُتح لي الخوف الجسدي مواصلة قراءتها في الطائرة، ترقد حبيسة وراء قفل في حقيبتي. وهكذا أشعلت السيجارة الأخيرة بإحساس غريب من الراحة والرعب، ثم أطفأتها في منتصفها، كاحتياط لليلة بلا غد.

وعندما كنت قد تهيأت معنوياً، للنوم على المقعد الذي أجلس عليه، بدا لي أن هناك شيئاً مختبئاً في الظلمة الدامسة، بين الأشجار. إنه تمثال سيمون بوليفار، ممتطياً صهوة جواد. لا أقل من ذلك، الجنرال سيمون خوسيه أنطونيو دي لا سانتيسيما ترينيداد بوليفار آي بالاثيوس، بطلي المفضل منذ أن أمرني جدي بذلك، مرتدياً بدلة المراسم، وبرأس إمبراطور روماني، يغطيه براز طيور السنونو.

كان لا يزال شخصيتي التي لا تُنسى، على الرغم من تناقضاته المستحكمة، أو ربما بسببها. وهي في نهاية المطاف، مماثلة لتلك التي توصل جدي بفضلها، إلى رتبة كولونيل، وقامر بحياته، مرات عديدة، في الحرب التي شنها الليبراليون ضد الحزب المحافظ الذي أسسه بوليفار نفسه وقواه. كنت مستغرقاً في تلك الأفكار الضبابية، عندما أعادني إلى أرض الواقع، صوت حازم وراء ظهري:

– ارفع يديك!

رفعتهما بإحساس بالراحة، واثقاً من أن أصدقائي قد وصلوا أخيراً.

ولكنني وجدت نفسي، حين استدرت، في مواجهة رجلي شرطة فطنين، وبملابس أقرب إلى الأسمال، يصوبان بندقيتيهما الجديدتين باتجاهي. أرادا أن يعرفا لماذا خرقتُ حظر التجوال الذي بدأ قبل ساعتين من ذلك. لم أكن أعرف أنه قد فُرض منذ يوم الأحد السابق، مثلما أخبراني هما. ولم أسمع بوقاً أو نواقيس أو أي إشارة أخرى تتيح لي أن أدرك سبب عدم وجود أحد في الشوارع. وكان الشرطيان أكثر تكاسلاً وأقل تفهماً عندما رأيا أوراقي الثبوتية، بينما أنا أشرح لهما سبب وجودي هناك. أعادا إلي الوثائق دون أن يتفحصاها. سألاني كم من النقود معي، فأخبرتهما بأن ما أملكه لا يصل إلى أربعة بيزوات. عندئذ طلب مني أشدهما تصميماً أن أعطيه سيجارة، فأريتهما عقب السيجارة المطفأ الذي كنت أنوي تدخينه قبل أن أنام. فانتزعه مني ودخنه حتى لامست جمرته ظفريه. ثم اقتادني الشرطيان بعد ذلك، من ذراعي، على امتداد الشارع، وهما متلهفان إلى التدخين أكثر من حرصهما على تطبيق القانون، بحثاً عن محل مفتوح لشراء بضع سجائر، من تلك التي تباع كل واحدة منها بسنتافو. كان الليل قد تحول شفافاً وبارداً تحت القمر المكتمل، وبدا الصمت مادة غير مرئية، يمكن تنفسه كما الهواء. عندئذ فهمت ما كان يرويه لنا أبي كثيراً، دون أن نصدقه، من أنه كان يتمرن على العزف على الكمان فجراً، في صمت المقبرة، لكي يشعر بأن أنغام الحب التي يعزفها، يمكن أن تُسمع في كل أجواء منطقة الكاريبي.

بعد أن تعبنا من البحث عن سجائر، خرجنا إلى خارج السور، حتى مرفأ مراكب رحلات قصيرة، يعيش حياته الخاصة وراء السوق العام، حيث ترسو سفن شراعية من جزر كوراساو وآروبه وغيرها من جزر

الأنتيل الصغرى. إنه مكان سهر أكثر الناس مرحاً وفائدة في المدينة بأسرها، ممن يملكون حق الحصول على تصريحات لخرق منع التجوال، بسبب طبيعة أعمالهم. إنهم يأكلون حتى الفجر، في مطاعم في الهواء الطلق، بأسعار مناسبة ورفقة طيبة؛ إذ لا يذهب إلى هناك، الموظفون الليليون وحدهم، وإنما كل من يرغب في الأكل، عندما لا يكون ثمة مكان يمكن تناول الطعام فيه. لم يكن للمكان تسمية رسمية، بل يُعرف باسم لا يناسبه بأي حال: الكهف.

وصل إليه الشرطيان وكأنهما يصلان إلى بيتهما. وكان واضحاً أن الزبائن الجالسين إلى الموائد يعرف بعضهم بعضاً منذ الأزل، ويشعرون بالسعادة لوجودهم معاً. وكان من المستحيل معرفة كنياتهم الأسرية، لأن الجميع يتعاملون بألقابهم المدرسية، ويتكلمون بأصوات صارخة في وقت واحد، دون أن يفهموا أو ينظروا مع من يتكلمون. وكانوا بملابس العمل، باستثناء ستيني ذي رأس ثلجي، يرتدي سموكنغ من أزمنة أخرى، مع امرأة ناضجة ما زالت تحتفظ بجمال باهر، ترتدي فستاناً مزيناً بالبرق، ومستهلكاً من كثرة الاستخدام، وتضع الكثير من الحلي الأصلية. يمكن لوجودهما هناك أن يكون إشارة حية إلى حقيقة وضعهما، لأنه من النادر، وجود نساء يسمح لهن أزواجهن بالظهور في تلك الأماكن سيئة السمعة. وكان بالإمكان الظن أنهما سائحان، لولا نزقهما ولكنتهما المحلية، وتآلفهما مع الجميع. وقد علمت، في ما بعد، أنهما لا يمتان بصلة إلى ما يبدوان عليه، وإنما هما زوجان ساهيان من كارتاخينا، ينتهزان أي ذريعة لارتداء ملابسهما الاحتفالية من أجل تناول العشاء خارج البيت، وقد وجدا المضيفين، في تلك الليلة، نائمين، والمطاعم مغلقة بسبب حظر التجوال.

وكانا هما من دعوانا للعشاء. أفسح لنا الآخرون مكاناً في المكان، وجلسنا نحن الثلاثة، محشورين ومتلاصقين بعض الشيء. وكانوا يتعاملون كذلك، مع الشرطيين، بتآلف الخدم. وقد كان أحد الشرطيين جدياً ومنفلتاً في الكلام، وله ردود أفعال طفل مؤدب على المائدة. أما الآخر، فكان حريصاً، اللهم إلا في الأكل والتدخين. وقد طلبتُ أطباقاً أقل منهما، بدافع الخجل أكثر مما هو بدافع التأدب والاعتدال. وعندما انتبهت إلى أنني سأبقى بأكثر من نصف جوعي، كان الآخران قد انتهيا.

صاحب المطعم، وكان الخادم الوحيد في الكهف، يدعى خوسيه دولوريس، وهو زنجي شبه مراهق، له جمال مثير للقلق، يتلفع بملاءات مسلم ناصعة البياض، ويضع طوال الوقت زهرة قرنفل نضرة على أذنه. ولكن أكثر ما يلفت الانتباه فيه هو ذكاؤه المفرط، ومعرفته كيف يستخدم ذكاءه دون تحفظ، ليكون سعيداً وليُسعد الآخرين. كان واضحاً أنه لا ينقصه إلا القليل جداً ليكون امرأة، وله سمعة راسخة بأنه لا ينام إلى مع "رجله". لم يداعبه أحد قط بالسخرية من وضعه، لأنه كان يتمتع بظرف وسرعة بديهة في الرد، لا يترك معهما صنيعاً دون شكر، ولا إساءة دون ردّ يناسبها. وكان هو وحده يقوم بكل شيء، ابتداء من طبخه الصائب لما يعرف أنه يروق كل واحد من زبائنه، حتى قلي شرائح الموز الأخضر بإحدى يديه، وإجراء الحسابات بيده الأخرى، دون أي مساعدة إلا تلك الضئيلة التي يقدمها له صبي في حوالي السادسة، ويدعوه "ماما". عندما ودعناه، أحسستُ بالتأثر لتلك اللقية، ولكنني لم أتصور أن ذلك المكان الذي يرتاده متأخرون في السهر متمادون، سيكون أحد الأماكن التي لا تُنسى في حياتي.

بعد الانتهاء من تناول الطعام، رافقت الشرطيين ليستكملا جولاتهما المتأخرة. كان القمر طبَقاً ذهبياً في السماء. وكان الهواء قد بدأ يشتد ويجرجر معه، من بعيد جداً، نتفاً من الموسيقى وصرخات نائية من حفلة كبيرة. كان الشرطيان يعرفان أن أحداً، في أحياء الفقراء، لا يذهب إلى النوم بسبب حظر التجوال، وإنما يقيمون هناك كل ليلة حفلات رقص يساهمون جميعهم في نفقاتها، في بيوت بعيدة، لا يخرجون منها إلى الشارع حتى الفجر.

عندما أعلنت الساعة الثانية، طرقنا باب فندقي، واثقين من أن أصدقائي سيكونون قد حضروا. ولكن الحارس صرخ باستياء بأن نذهب إلى الجحيم، لأننا أيقظناه دون مبرر. عندئذ انتبه الشرطيان إلى أنه لا يوجد لدي مكان أنام فيه، وقررا أخذي إلى السجن. بدا لي ذلك سخرية شديدة الوقاحة، ففقدتُ طيب مزاجي ووجهت إليهما شتيمة. فوجئ أحدهما من رد فعلي الصبياني، فأعادني إلى الانضباط بتوجيه فوهة البندقية إلى معدتي، وقال لي وهو يوشك على الموت من الضحك:

– دعك من البلاهة. وتذكر أنك لا تزال معتقلاً، لأنك خرقت منع التجوال.

وهكذا، تمت ليلتي الأولى في كارتاخينا، في زنزانة تتسع لستة أشخاص، وعلى حصيرة متخمرة بعرق غريب.

الوصول إلى روح المدينة، كان أسهل علي بكثير من تجاوز اليوم الأول حياً. وقبل انقضاء أسبوعين، كنت قد استعدت الاتصال بوالديَّ، وقد وافقا دون تحفظ، على قراري بالعيش في مدينة لا حرب فيها. أما صاحبة الفندق التي ندمت لأنها حكمت علي بقضاء ليلة في السجن،

فقد أسكنتني مع عشرين طالباً آخر في مهجع بني حديثاً على سطح بيتها البديع، المشيد على الطراز الكولونيالي. لم أجد سبباً للاحتجاج، لأن المهجع كان نسخة كاريبية عن قاعة النوم في المعهد الوطني، وكلفته أقل من نزل بوغوتا، مع تضمنه الطعام وكل شيء.

مسألة التسجيل في كلية الحقوق، حُلت خلال ساعة، بامتحان قبول أجراه أمين الكلية إغناسيو فيليث مارتينيث، وأستاذ في الاقتصاد السياسي لم أتمكن من العثور على اسمه في ذكرياتي. ومثلما كانت العادة المتبعة، جرى الامتحان بحضور طلاب السنة الثانية كلهم. وقد لفت انتباهي، منذ اللحظة الأولى، وضوح أحكام الأستاذين ودقة لغتهما، في منطقة مشهورة في أنحاء البلاد الداخلية، باضطراب نطقها. كان الموضوع الأول، في القرعة، هو الحرب الأهلية في الولايات المتحدة. وهو ما كنتُ أعرف عنه أقل من لا شيء بقليل. ومن المحزن أنني لم أكن قد قرأت بعد، الروائيين الأمريكيين الجدد الذين بدأت بعض أعمالهم بالوصول إلينا آنذاك. ولكن الحظ حالفني حين بدأ الدكتور فيليث مارتينيث بإشارة عرضية إلى "كوخ العم توم". وكنتُ أعرفها منذ الثانوية. فالتقطتُ الإشارة بسرعة خاطفة. ولا بد أن الأستاذين قد أصيبا بصدمة حنين، ذلك أن الستين دقيقة المخصصة للامتحان انقضت كلها في تحليل، يطغى عليه التأثر والانفعال، لعار نظام العبودية في جنوبي الولايات المتحدة. ولم نتجاوز ذلك الموضوع. وهكذا، فإن ما كان يبدو لي نوعاً من الروليت الروسي، تكشف عن محادثة ممتعة استحققت عليها تقديراً جيداً، وبعض التصفيق الودي.

بهذه الطريقة، دخلتُ الجامعة لأنهي سنة الحقوق الثانية، مع الشرط

الذي لم أنجزه قط، بأن أتقدم لامتحان تأهيل في مادة أو مادتين لم أكن قد أنهيتهما من السنة الأولى في بوغوتا. تحمس بعض زملاء الدراسة لطريقتي في ترويض الموضوعات والالتفاف عليها؛ إذ كانت تنتشر بينهم فكرة النضال من أجل حرية الإبداع، في جامعة أصابتها الصرامة الأكاديمية بالجمود. وقد كان ذلك هو حلمي المتوحد منذ معهد الثانوية، ليس بدافع رفض مجاني للتقاليد، بل لأنه الأمل الوحيد للتمكن من النجاح في الامتحانات، دون أن أدرس. ومع ذلك، فإن من كانوا يطالبون باستقلالية وجهات النظر في قاعات الدرس، ما كانوا يجدون مفراً من الاستسلام للقدر، والصعود إلى منصة إعدام الامتحان، وقد حفظوا، عن ظهر قلب، مجلدات النصوص الضخمة الموروثة من العهد الاستعماري. ومن حسن الحظ أنهم كانوا أساتذة متمرسين في فن تنشيط حفلات الرقص المساهمة أيام الجمعة، على الرغم من مخاطر القمع الذي صار أكثر فأكثر، تمادياً، في ظل حالة الطوارئ. تواصلت إقامة حفلات الرقص، باتفاق غير معلن مع سلطات حفظ الأمن العام، خلال الوقت الذي استمر فيه منع التجوال. وعندما رُفع، انبعثت الحفلات من احتضارها بقوة أكبر من السابق، ولا سيما في ضاحية توريثس أو جَشيماني أو عند أطراف "لابوبا"، أكثر الأحياء صخباً احتفالياً في تلك السنوات المكفهرة. كان يكفي أن نطل من النافذة لاختيار الحفلة التي ستروقنا أكثر من سواها. ومقابل خمسين سنتافو، كان يمكن لنا الرقص حتى الفجر، على وقع أشد إيقاعات الموسيقى الكاريبية سخونة، مُضخمة بدوي مكبرات الصوت. أما الفتيات المدعوات مجاناً، فكن الطالبات أنفسهن اللواتي نلتقيهن خلال الأسبوع، لدى الخروج من

المدارس، غير أنهن يذهبن بملابس قداس يوم الأحد، ويرقصن كنساء الحياة الطيبات، تحت نظرات متيقظة من عمات مرافقات أو أمهات متحررات. في إحدى ليالي الصيد الأكبر تلك، كنتُ أمضي في حي جَثيماني الذي كان حياً للعبيد، خلال العهد الاستعماري، عندما أحسست بتربيت على ظهري، وفرقعة صوت يقول، كما لو أنها كلمة سر:

- يا قاطع الطريق!

كان مانويل زاباتا أوليفيا، ساكن شارع "الشقاوة" المتهور، حيث عاشت أسرة أجداده الأفارقة. وكنا قد التقينا من قبل في بوغوتا، وسط أوار التاسع من نيسان. وكانت دهشتنا الأولى عند لقائنا مجدداً في كارتاخينا، هي معرفة كل منا أن الآخر لا يزال حياً. وقد كان مانويل، فضلاً عن أنه طبيب إحسان، روائياً، وناشطاً سياسياً، ومنشطاً لموسيقى الكاريبي، غير أن ميله الساحق كان السعي إلى حلّ مشاكل الجميع. وما كدنا ننتهي من تبادل الحديث عن تجربتنا في يوم الجمعة العصيب، وعن خططنا للمستقبل، حتى اقترح عليّ أن أجرب حظي في الصحافة. قبل شهر من ذلك، كان الزعيم الليبرالي لوبيث إسكاورياثا قد أسس صحيفة الأونيفرسال، وكان رئيس تحريرها هو كليمنتي مانويل ثابالا. وكنتُ قد سمعت شيئاً عن هذا الأخير، ليس كصحفي، وإنما كعلامة في الموسيقى، وشيوعي كامن. أصر زاباتا أوليفيا على أن نذهب لمقابلته، إذ كان يعرف أنه يبحث عن أناس جدد، لكي يُنشّط نمطاً من الصحافة الخلاقة، في مواجهة الصحافة الروتينية المنقادة، السائدة في البلاد، وخاصة في مدينة كارتاخينا، وهي آنذاك إحدى أكثر المدن تخلفاً.

كنتُ أدرك بوضوح، أن الصحافة ليست مهنتي. فأنا أريد أن أصير كاتباً مختلفاً. ولكنني أحاول ذلك بمحاكاة كتّاب آخرين لا علاقة لهم بي. وقد كنتُ في تلك الأيام في استراحة تأمل؛ إذ بعد قصصي الثلاث الأولى التي نُشرت في بوغوتا، ولقيتُ بسببها، إطراء إدواردو ثالاميا ونقاد آخرين وأصدقاء طيبين وسيئين، شعرت بأنني وصلت إلى طريق مسدود. فألح زاباتا أوليفيا، مفنداً حججي، على أن الصحافة والأدب سينتهيان عما قريب ليكونا الشيء نفسه، وأنه يمكن لارتباطي بجريدة الأونيفرسال، أن يضمن لي ثلاثة مصائر في الوقت نفسه: حل شؤوني الحياتية بصورة كريمة ونافعة. و الدخول في عالم أحترفُ فيه عملاً هو بحد ذاته مهنة مهمة. والعمل مع كليمنتي مانويل ثابالا، أفضل معلم صحافة يمكن تخيله. كان يمكن لكابح الحياء الذي أثاره في ذلك التبرير شديد البساطة، أن ينجيني من المصيبة. ولكن زاباتا أوليفيا لم يكن قادراً على تقبل الإخفاق في مساعيه، فطلب مني الحضور في اليوم التالي، الساعة الخامسة مساء، إلى الرقم ٣٨١ بشارع سان خوان دي ديوس، حيث مقر الصحيفة.

نمت تلك الليلة قلقاً. وفي اليوم التالي، سألتُ صاحبة الفندق، أثناء تناول الفطور، أين هو شارع سان خوان دي ديوس، فأشارت بإصبعها من النافذة، وقالت لي:

- هناك بالذات، بعد شارعين.

وهناك كان مقر الأونيفرسال، قبالة الجدار الحجري الضخم والمزخرف لكنيسة سان بيدرو كلافير، أول قديس في أميركا، والذي ما زال جثمانه غير المتفسخ معروضاً، منذ مئة سنة، تحت مذبح الكنيسة الكبير،

كانت مكاتب الجريدة في بناء قديم من الطراز الكولونيالي، موشى بترميمات جمهورية، وبوابتين كبيرتين وبعض النوافذ التي يظهر من خلالها كل ما كانت عليه الجريدة. ولكن رعبي الحقيقي كان يقبع وراء شرفة من خشب دون سحج، على بُعد نحو ثلاثة أمتار من النافذة: إنه رجل ناضج ومتوحد، يرتدي بدلة قطنية بيضاء وربطة عنق، وله بشرة قاتمة وشعر هندي قاس وأسود. يكتب بقلم رصاص، وراء مكتب عليه أكداس أوراق متأخرة. مررت ثانية بالاتجاه المعاكس، بافتتان طاغٍ؛ ثم أعدت الكرة مرتين أخريين. وفي المرة الرابعة، مثلما في المرة الأولى، لم يراودني الشك في أن ذلك الرجل هو كليمنتي مانويل ثابالا، تماماً مثلما توقعته، ولكن أشد رهبة. وبينما الرعب يملؤني، اتخذت القرار البسيط بعدم الذهاب إلى الموعد، في ذلك المساء، مع رجل تكفي رؤيته من النافذة، لاكتشاف أنه يعرف أكثر مما يجب عن الحياة وعن مهنته. رجعتُ إلى الفندق، وأهديت يوماً آخر من أيامي، بلا ندم، وأنا مستلق على السرير، لقراءة "مزيفو النقود" لأندريه جيد، والتدخين دون توقف. في الخامسة مساء، اهتز باب الحجرة بصفعة قوية كأنها رصاصة بندقية، وصرخ بي زاباتا أوليفيا من المدخل:

– هيا بنا، يا للعنة! ثابالا ينتظرك، وليس هناك في هذه البلاد من يسمح لنفسه بترف التخلف عن موعد معه وتركه معلقاً.

كانت البداية أصعب مما يمكن لي أن أتخيله في كابوس. استقبلني ثابالا دون أن يدري ما يفعله. وكان يدخن دون توقف، باضطراب يزيد الحر من حدته. أرانا كل شيء: رئاسة التحرير والإدارة في جانب، وفي الجانب الآخر قاعة التحرير والورشة، وفيهما ثلاث مناضد غير مشغولة

في تلك الساعة المبكرة. وفي أقصى المكان مطبعة دوارة ناجية من فتنة، وآلتا تنضيد وحيدتان من نوع لينوتيب.

وكانت مفاجأتي الكبرى أن ثابالا قرأ قصصي الثلاث، وبدت له الملاحظة التي كتبها ثالاميا منصفة. فقلت له:

– أما أنا فلا أرى ذلك. القصص لم تعجبني. لقد كتبتها بدوافع غير واعية إلى حد ما. وبعد أن قرأتها مطبوعة، لم أعد أدري من أين سأواصل.

استنشق ثابالا الدخان عميقاً، وقال لزاباتا أوليفيا:

– إنها بادرة طيبة.

فالتقط مانويل الفرصة بسرعة، وقال له إنني قد أكون مفيداً له في الصحافة، خلال وقت فراغي من الجامعة. فقال ثابالا إنه فكر في الشيء نفسه عندما طلب منه مانويل موعداً لي. وقد قدمني إلى المدير العام، الدكتور لوبيث إسكاورياثا، على أنني المساعد المحتمل الذي حدثه عنه في الليلة السابقة.

– سيكون ذلك رائعاً – قال المدير بابتسامته الأبدية، كسيد نبيل على الطريقة القديمة.

لم نتفق على شيء، غير أن المعلم ثابالا طلب مني الرجوع في اليوم التالي، ليقدمني إلى هيكتور روخاس هيراثو، وهو شاعر ورسام من الجيدين، وكاتب عمود لامع في الجريدة. لم أقل له إنه كان أستاذي في الرسم، في مدرسة سان خوسيه، بسبب خجل يبدو لي اليوم غير قابل للتفسير. وفور الخروج من هناك، قفز مانويل قفزة طرب في ساحة الجمارك، قبالة واجهة كنيسة سان بيدرو كلافير المهيبة، وهتف بفرح مبكر:

- أرأيت أيها النمر، لقد أنجز الأمر!

تجاوبت معه بمجاراته في عناق ودي، كيلا أخيب أمله. ولكنني كنت أحتفظ بشكوك جدية حول مستقبلي. سألني مانويل عندئذ، كيف بدا لي ثابالا، وأجبته بالحقيقة: لقد بدا لي صياد أرواح. وربما كان هذا هو السبب الحاسم في أن الجماعات الشبابية تتغذى على عقله ودهائه. واختتمت قائلاً، بتقويم عجوز مبكر، وزائف دون ريب، إن طريقته تلك قد تكون هي التي حالت دون توليه دوراً حاسماً في حياة البلاد العامة.

اتصل بي مانويل ليلاً، وهو يكاد يموت من الضحك، بسبب محادثة دارت بينه وبين ثابالا. فقد حدثه هذا الأخير عني بحماس شديد، وأكد على ثقته بأنني سأكون مكسباً مهماً لصفحة الافتتاحيات. وكان المدير متفقاً معه في الرأي. غير أن السبب الحقيقي لاتصاله كان رغبته في إخباري بأن الشيء الوحيد الذي يُقلق المعلم ثابالا، هو أنه يمكن لحيائي المرضي أن يشكل عقبة كبيرة في حياتي.

وإذا كنتُ قد قررت في اللحظة الأخيرة، العودة إلى الصحيفة، فلأن زميلاً في الحجرة، فتح عليّ الباب، وأنا أستحم في صباح اليوم التالي، ووضع أمام عيني صفحة التعليقات الافتتاحية في الأونيفرسال. كانت هناك ملاحظة مرعبة عن وصولي إلى المدينة، تورطني بكوني كاتباً قبل أن أصير كذلك، وبأنني صحفي لامع قبل مرور أقل من أربع وعشرين ساعة على رؤيتي، أول مرة، جريدة من الداخل. أنّبتُ مانويل الذي اتصل بي فوراً بالهاتف، لتهنئتي، دون أن أداري غضبي من كتابته مثل تلك الملاحظة غير المسؤولة دون أن يخبرني بها مسبقاً. ومع ذلك، فإن شيئاً قد تغير في، وربما إلى الأبد، عندما

علمت أن المعلم ثابالا نفسه، هو الذي كتب تلك الملاحظة. وهكذا حزمت بنطالي ورجعت إلى تحرير الجريدة لأقدم له الشكر. لم يكد يهتم بشكري. وقدمني إلى هيكتور روخاس هيرائو الذي كان يرتدي بنطالاً خاكياً وقميصاً مزيناً بزهور أمازونية. ويتكلم كلمات ضخمة يطلقها بصوت راعد، ولا يستسلم في المحادثات إلى أن يقتنص طريدته. لم يتعرف عليّ بالطبع، كواحد آخر من تلاميذه في مدرسة سان خوسيه في باراناكيا.

وضعنا المعلم ثابالا - مثلما كان يدعوه الجميع - في مداره، بذكريات عن صديقين أو ثلاثة أصدقاء مشتركين، وعن آخرين يتوجب عليّ أن أتعرف عليهم. ثم تركنا وحدنا، ورجع إلى الحرب الضارية التي يخوضها بقلمه الرصاص المتوقد، على أوراقه المستعجلة، وكأنه لم تكن له قط، أي علاقة بنا. واصل هيكتور حديثه إليّ، على وقع آلتي اللينوتيب الرتيب الخافت، وكأنه هو أيضاً لم تكن له أي علاقة بثابالا. لقد كان محدثاً لا نهائياً، يتمتع بذكاء تعبيري مبهر، ومغامراً في التخيل، يختلق وقائع لا تُصدَّق، ينتهي به الأمر، هو نفسه، إلى تصديقها. تبادلنا الحديث طوال ساعات، عن أصدقاء آخرين، أحياء وميتين، وعن كتب ما كان يجب كتابتها أبداً، وعن نساء نسيننا، لكننا لم نستطع نسيانهن، وعن شواطئ حالمة في فردوس تولو الكاريبي - حيث ولد هو - وعن سحرة معصومين عن الخطأ، ونكبات آراكاتاكا التوراتية. وعن كل ما كان وما سيكون، دون شرب أي شيء، ودون أن نكاد نتنفس، ونحن ندخن حتى المرفقين، خوفاً من ألا تمتد بنا الحياة للتحدث عن كل ما نحتاج إلى التحدث عنه.

في الساعة العاشرة ليلاً، عندما أغلق تحرير الصحيفة، ارتدى المعلم ثابالا سترته، وعقد ربطة عنقه. وبخطوة باليه راقصة لم يبق فيها إلى القليل من الشباب، دعانا لتناول الطعام. ومثلما هو متوقع، ذهبنا إلى الكهف، حيث فوجئ بأن خوسيه دولوريس وعدداً من زبائن آخر الليل، تعرفوا عليَّ كزبون قديم. وازدادت مفاجأته عندما مرّ أحد الشرطيين اللذين رافقاني في زيارتي الأولى للمطعم، ومازحني بدعابة مستترة عن ليلتي السيئة في الحبس، وصادر مني علبة سجائر كنتُ قد فتحتها للتو. وبدوره، أثار هيكتور مبارزة كلامية مزدوجة المعنى مع خوسيه دولوريس، أثارت ضحك الزبائن، أمام صمت المعلم ثابالا السعيد. وتجرأت أنا على التدخل بردٍّ لا ظرف فيه، أفادني على الأقل في أن أكون معترفاً بي كواحد من الزبائن القليلين الذين يقدم لهم خوسيه دولوريس الطعام ديناً، حتى أربع مرات في الشهر.

بعد الانتهاء من تناول الطعام، واصلت أنا وهيكتور حديثنا الذي بدأناه مساء، في شارع الشهداء، قبالة الخليج النتن بفضلات السوق العام الجمهوري. كانت ليلة رائعة في منتصف العالم، بينما أول سفن كوراساو الشراعية تُقلع خفية. في ذلك الفجر، قدّم لي هيكتور أول الإضاءات، حول تاريخ كارتاخينا الخفي، والمغطى ببحار من الدموع، وربما بدت أقرب إلى الحقيقة من خيال الأكاديميين المجامل. حدثني عن حياة الشهداء العشرة الذين تنتصب تماثيلهم النصفية على جانبي ممر الساحة، تخليداً لبطولتهم. الرواية الشعبية -وهي تبدو كما لو أنها من بنات أفكاره- تقول إنه عند وضع التماثيل في أماكنها الأصلية، لم ينقش النحاتون أسماء الشهداء وتاريخ ميلادهم على التماثيل نفسها،

وإنما على القواعد التي استقرت عليها. ولهذا، عندما رفعوها من أماكنها لتنظيفها بمناسبة الذكرى المئوية لاستشهادهم، لم يعودوا يعرفون لمن تتبع الأسماء والتواريخ، واضطروا إلى إعادة وضع التماثيل على القواعد، كيفما اتفق، لأن أحداً لم يكن يعرف اسم أحد. كانت الحادثة متداولة كدعابة، منذ سنوات طويلة. ولكنني فكرت بالمقابل، بأنها حققت العدالة التاريخية بتكريسها أولئك الأعيان دون أسماء، لأنهم لم يُخلدوا بسبب حياتهم التي عاشوها، بقدر ما هو بسبب مصيرهم المشترك.

تكررت ليالي السهر تلك، بصورة يومية تقريباً، خلال سنواتي في كارتاخينا. ولكنني منذ الليلتين أو الثلاث الأولى، انتبهت إلى أن هيكتور يتمتع بقدرة على الإغواء المباشر، مع حس صداقة شديد التعقيد، لا يمكن إلا لنا نحن الذين نحبه كثيراً، أن نتفهمه دون تحفظ. فقد كان رقيقاً جداً، إلا أنه قادر في الوقت نفسه، على اجتراح غضبات صاخبة، وأحياناً كارثية، ثم يحتفل بنفسه، بعد ذلك، بصفح، كأنه الطفل يسوع. عندئذ يفهم أحدنا حقيقته، ويفهم لماذا يفعل ثابالا كل ما هو ممكن لكي نحبه كثيراً بقدر ما نحبه. في الليلة الأولى، مثلما في ليال كثيرة أخرى تالية، بقينا حتى الفجر في شارع الشهداء، محتمين من حظر التجوال، بوضعنا كصحفيين. كان صوت هيكتور وذاكرته لا يزالان على خير ما يرام، حين رأى بريق النهار الجديد في أفق البحر، وقال:

– عسى أن تنتهي هذه الليلة كما في "كازابلانكا".

لم يقل أي شيء آخر. ولكن صوته أعادني إلى كل بهاء صورة

همفري بوغارت وكلود رينس، وهما يمضيان كتفاً إلى كتف، في الفجر الضبابي، باتجاه تألق الأفق المشع، والجملة التي صارت نائية عن تلك النهاية المأساوية السعيدة: "هذه بداية صداقة عظيمة".

بعد ثلاث ساعات من ذلك، أيقظني المعلم ثابالا هاتفياً، بعبارة أقل سعادة:

– أين وصلت في هذا المقال العظيم؟

احتجتُ إلى بضع لحظات لكي أدرك أنه يعني مساهمتي في الجريدة لليوم التالي. لا أتذكر أننا توصلنا إلى أي اتفاق، أو أنني قلت نعم أو لا، عندما طلب مني أن أكتب مساهمتي الأولى. ولكنني كنت أشعر، في ذلك الصباح، بأنني قادر على أي شيء، بعد المحادثة الأولية في الليلة السابقة. ولا بد أن ثابالا فهم الأمر على ذلك النحو، إذ كان قد أشار إلى بعض الموضوعات التي سيجري تناولها في ذلك اليوم. واقترحتُ عليه موضوعاً آخر بدا لي أكثر راهنية: حظر التجوال.

لم يقدم لي أي توجيه. وكنتُ أنوي رواية مغامرة ليلتي الأولى في كارتاخينا. وهذا ما فعلته، بخط يدي، لأنني لم أستطع التفاهم مع الآلات الكاتبة الخرافية في قاعة التحرير. كان مخاضاً استمر نحو أربع ساعات، راجعه المعلم أمامي دون أي ملمح أو تعبير يكشف عما يفكر فيه، إلى أن وجد أقل الأساليب مرارة ليقول لي:

– ليس سيئاً، ولكن من المستحيل نشره.

لم يفاجئني. بل على العكس، فقد كنت أتوقع الأمر، وحررني من ذلك الهم الثقيل في أن أصير صحفياً. ولكن أسبابه الحقيقية التي كنت أجهلها، كانت حاسمة: فمنذ التاسع من نيسان، صار هناك في كل

صحيفة في البلاد، رقيب من الحكومة، يقبع وراء منضدة في قسم التحرير، كما لو أنه في بيته، منذ الساعة السادسة مساء، ويتمتع بالإرادة والسلطة في عدم السماح بنشر أي حرف يمكن له أن يمس الأمن العام.

كانت مبررات ثابالا أشد وطأة عليّ، من مبررات الحكومة، لأنني لم أكن قد كتبت تعليقاً صحفياً، وإنما إعادة سردٍ ذاتية لحدث خاص، دون أية مزاعم بأنه تعليق صحفي. كما أنني لم أتعامل مع حظر التجوال كوسيلة شرعية تتخذها الدولة، وإنما كحجة يتذرع بها بعض الشرطيين الأفظاظ لكي يحصلوا على سجائر من تلك التي تساوي كل واحدة منها سنتافو واحداً. ولحسن الحظ أن المعلم ثابالا، قبل أن يحكم عليّ بالإعدام، أعاد إليّ الملاحظة التي يجب إصلاحها من ألفها إلى يائها، ليس من أجله هو، وإنما من أجل الرقيب، وأنعم علي بحكم ذي حدين قائلاً:

– أنت تمتلك الكفاءة الأدبية، وهذا أمر لا شك فيه. ولكننا سنتحدث في ذلك فيما بعد.

هكذا كان هو. فمنذ يومي الأول في الصحيفة، عندما تحدث ثابالا معي ومع زاباتا أوليفييا، لفتت انتباهي عادته الفريدة بالتحدث إلى أحدنا، وهو ينظر إلى وجه الآخر، بينما أظفاره تحترق بجمرة سيجارته. لقد سبب لي ذلك، في البدء، قلقاً مزعجاً. والأمر الأقل حماقة الذي خطر لي، بدافع الحياء المحض، هو الاستماع إليه بانتباه حقيقي واهتمام هائل، ولكن دون النظر إليه، وإنما إلى مانويل، لكي أستخلص نتائجي من كليهما. وبعد ذلك، عندما تبادلنا الحديث مع روخاس هيراثو، ثم مع

المدير لوبيث إسكاوريثا فيما بعد، ومع كثيرين غيرهما، أدركت أن تلك هي طريقة ثابالا الخاصة، عندما يتحدث ضمن جماعة. فهمتُ الأمر على هذا النحو، وعلى هذا النحو استطعنا، أنا وهو، تبادل الأفكار والمشاعر من خلال النظر إلى شركاء غافلين ووسطاء بريئين. وعندما استقرت الثقة المتبادلة بيننا، مع مرور السنوات، تجرأت على التحدث إليه عن انطباعي ذاك، فأوضح لي دون استغراب، بأنه إنما ينظر إلى محدثه بصورة مائلة تقريباً، كيلا ينفث دخان سيجارته في وجهه. لقد كان هكذا: لم أتعرف قط، على أحد، بطبع شديد الوداعة والتكتم مثله، ومزاج مدني مثل مزاجه، لأنه عرف أن يكون على الدوام، ما يريد أن يكونه: حكيماً في الظل.

الحقيقة أنني كنت قد كتبتُ خطابات، وأشعاراً مبكرة في معهد ثيباكيرا، ونداءات وطنية ومذكرات احتجاج على سوء الطعام، وكتابات قليلة أخرى، دون حساب الرسائل إلى الأسرة التي كانت أمي تعيدها إليّ، وقد صححت ما فيها من أخطاء إملائية، حتى بعد أن صرتُ كاتباً معترفاً به. لكن المقالة التي نُشرت أخيراً في صفحة التعليقات الافتتاحية، لم تكن لها علاقة بما كتبته. فما تبقى مني، بين ترقيعات المعلم ثابالا والرقيب، هو مجرد نتف نثر غنائي بلا وجهة نظر ولا أسلوب، أجهز عليها مصحح التجارب بتعصبه النحوي. اتفقنا في نهاية المطاف على أن أتولى كتابة عمود يومي، ربما لتحديد المسؤوليات، يُنشر باسمي الكامل، وبعنوان دائم: "نقطة، وسطر جديد".

تمكن ثابالا وروخاس هيرائو، المجربان جيداً في الاستنزاف اليومي، من مواساتي من الضيق الذي سببه لي ما حل بمقالتي الأولى. وهكذا

تجرأت على المواصلة، بكتابة مقالة ثانية وثالثة، لم تكونا أوفر حظاً. بقيتُ في التحرير قرابة سنتين، أنشر حتى زاويتين صحفيتين يومياً، وأتمكن من كسبهما من الرقابة، بتوقيع ودون توقيع، حتى أوشكت على الزواج من ابنة أخي الرقيب.

ما زلت حتى اليوم أتساءل، كيف كان يمكن لحياتي أن تكون، من دون قلم المعلم ثابالا، ومشدّ الرقيب الذي كان مجرد وجوده تحدياً خلاقاً. ولكن الرقيب كان يعيش باحتراس أكثر منا، بسبب هوسه في الملاحقة. فالاقتباسات من كبار الكتّاب، تبدو له مكايد مريبة. وهي كذلك بالفعل، في أحيان كثيرة. لقد كان يرى أشباحاً. فهو كويتب تافه، يفترض معاني متخيلة. وفي إحدى ليالي سوء طالعه اضطر إلى الذهاب إلى المرحاض، كل ربع ساعة، إلى أن تجرأ على القول لي، إنه يوشك على أن يصاب بالجنون، لما تسببه له من الرعب، وصرخ:

– يا للعنة! بمثل هذا الذهاب والإياب، سأبقى دون مؤخرة!

كانت قد جرت عسكرة الشرطة، كدليل آخر على صرامة الحكومة تجاه العنف السياسي الذي كان يدمي البلاد، مع شيء من الاعتدال على ساحل الأطلسي. ومع ذلك، فقد أطلقت الشرطة النار في أوائل شهر أيار، دون سبب، على موكب الأسبوع المقدس، في شوارع بلدة كارمن دي بوليفار، على مسافة نحو عشرين فرسخاً من كارتاخينا. كنت أشعر بضعف عاطفي تجاه تلك البلدة، حيث ترعرعت العمة "ماما". وحيث ابتكر الجد نيكولاس أسماكه الذهبية الشهيرة. فطلب مني المعلم ثابالا، المولود في قرية سان خاثينتو المجاورة، بإصرار غريب، أن أتناول الخبر بمقالة افتتاحية، دون أن أولي اهتماماً للرقابة ولكل ما سيترتب على

ذلك، من نتائج. فطالبتُ الحكومة في مقالتي الأولى المغفلة من التوقيع، في صفحة الافتتاحية، بفتح تحقيق معمق حول الاعتداء، ومعاقبة من قاموا به. وأنهيت المقالة بسؤال يقول: "ما الذي حدث في كارمن دي بوليفار؟". وحيال التجاهل الرسمي، وفي حرب صريحة ضد الرقابة، واصلنا ترديد السؤال في تعليق يومي في الصفحة نفسها، بحماس متنامٍ، وباستعداد لإثارة حفيظة الحكومة، أكثر مما كانت عليه. بعد ثلاثة أيام من ذلك، طلب مدير الجريدة من ثابالا تأكيداً بأنه تشاور في الأمر مع هيئة التحرير بكاملها. وكان هو نفسه موافقاً على وجوب مواصلتنا للموضوع، وهكذا واصلنا توجيه السؤال. وفي أثناء ذلك، كان الشيء الوحيد الذي عرفناه عن موقف الحكومة هو ما جاءنا من خلال وشاية: لقد أصدروا الأوامر بتركنا نردد موضوعنا كمجانين طلقاء، إلى أن يصيبنا الملل. لم يكن ذلك سهلاً، فسؤالنا اليومي كان ينتشر في الشارع كتحية شعبية: "مرحباً يا أخي، ما الذي حدث في كارمن دي بوليفار؟".

وفي ليلة لا تخطر على بال، ودون أي إنذار مسبق، أغلقت دورية عسكرية شارع سان خوان دي ديوس بجلبة أصوات وقعقعة أسلحة، ودخل الجنرال أرنستو بولانيا بوبو، قائد الشرطة المجيشة، إلى مبنى جريدة الأونيفرسال، وهو يطأ الأرض بقوة. كان يرتدي الزي العسكري الأبيض المخصص للمناسبات الكبرى، وطماقاً ملمعاً بالورنيش، بينما السيف معلق إلى جانبه بحبل من الحرير، وأزراره وشاراته تلمع كأنها من الذهب. لم يكن ينتقص مقدار ذرة من سمعته كمتأنق وجذاب، وإن كنا نعرف أنه رجل صلب في السلام والحرب، وهو ما أثبته بعد سنوات

من ذلك بقيادته للفرقة الكولومبية، في حرب كوريا. لم يتحرك أحد خلال الساعتين المتوترتين من محادثة، على انفراد، مع المدير. تناولا اثنين وعشرين فنجان قهوة سوداء، دون سجائر ودون كحول، لأنهما كليهما كانا متحررين من آفة الإدمان. ولدى خروجه، بدا الجنرال أكثر توتراً وهو يصافحنا فرداً فرداً. وقد تأخر أكثر قليلاً في مصافحتي. نظر إلى عيني مباشرة بعينيه الثاقبتين، وقال لي:

- أنت ستصل بعيداً.

طفر قلبي من مكانه، فقد فكرت في أنه ربما يعرف كل شيء عني، وأن البعيد الذي سأصل إليه، في نظره، قد يكون الموت. وعندما اجتمع المدير مع ثابالا على انفراد، ليطلعه على محادثته مع الجنرال، كشف له عن أن الجنرال يعرف من يكتب كل تعليق في الجريدة، باسمه وكنيته. وقد قال له المدير، بإيماءة خاصة تميزه، إن كل ما يكتب يتم بأمر منه، وإن الأوامر في الصحف، تنفذ مثلما في الثكنات العسكرية. ولكن الجنرال نصح المدير، على أي حال، بأن يهدئ الحملة، فقد يظهر متوحش، من رجال الكهوف، راغب في إحقاق العدالة باسم حكومته. فهم المدير المغزى من ذلك، وفهمنا جميعنا حتى ما لم يقله. وكان أكثر ما فاجأ المدير هو تباهي الجنرال بمعرفة تفاصيل الحياة الداخلية في الجريدة، كما لو أنه يعيش فيها. جميعنا كنا موقنين بأن عميله السري هو الرقيب، على الرغم من أن هذا الأخير أقسم برفات أمه، أنه ليس الواشي. الشيء الوحيد الذي لم يحاول الجنرال الإجابة عليه، خلال زيارته، هو سؤالنا اليومي. وقد نصحنا المدير، المعروف بحكمته، بأن نصدق ما قاله لنا، لأنه يمكن للحقيقة أن تكون أسوأ بكثير.

منذ أن التزمت بالحرب ضد الرقابة، لم أعد أعبأ بالجامعة، ولا بالقصص القصيرة. ولحسن الحظ، أن معظم الأساتذة لم يكونوا يجرون تفقداً للحضور، مما كان يسهل حضور الدروس والتغيب عنها. أضف إلى ذلك أن الأساتذة الليبراليين الذين يعرفون مشاكلي مع الرقابة، كانوا يعانون أكثر مني وهم يبحثون عن طريقة لمساعدتي في الامتحانات. واليوم، بينما أنا أحاول رواية تلك الأحداث، لا أجد أثراً لتلك الأيام في ذاكرتي. وقد انتهى بي الأمر إلى الإيمان بالنسيان أكثر من الذاكرة.

نام أبواي مطمئنين، منذ أن أعلمتهما بأنني أكسب في الجريدة، ما يكفيني للعيش. لم يكن ذلك صحيحاً. فراتبي الشهري كمتدرب، لم يكن يكفيني أسبوعاً. وقبل انقضاء ثلاثة شهور، تركت الفندق بديون لا يمكنني تسديدها. وقد قايضتني عليها صاحبة الفندق، فيما بعد، بنشر ملاحظة في صفحة المجتمع عن عيد ميلاد حفيدتها الخامس عشر. ولكنها لم توافق على مثل تلك الصفقة، سوى مرة واحدة.

مكان النوم الأكثر ارتياداً وبرودة في المدينة، كان لا يزال شارع الشهداء، حتى في أزمنة حظر التجوال. فقد كنت أنام هناك جالساً، بعد أن تنتهي السهرات التي تستمر حتى الفجر. وفي أحيان أخرى، كنت أنام في مستودع الجريدة، فوق لفافات الورق، أو أذهب حاملاً أرجوحة نومي الشبكية، تحت إبطي، إلى غرف طلاب آخرين عاقلين، ما داموا قادرين على تحمل كوابيسي وعادتي السيئة بالتكلم نائماً. هكذا عشت تحت رحمة الحظ والقدر، آكل ما أجده وأنام حيث يشاء الله، إلى أن اقترحت عليّ قبيلة آل فرانكو مونيرا الإنسانية، أن تقدم لي الوجبتين اليوميتين بسعر أقرب إلى الإحسان. كان والد القبيلة –بوليفار فرانكو

باريخا – معلماً تاريخياً في المدارس الابتدائية، ورب أسرة مرحة ومتعصبة، تضم فنانين وكتاباً. فكانوا يجبرونني على أن آكل، أكثر مما كنتُ أدفعه لهم، كيلا يجف دماغي. وفي أحيان كثيرة، لم يكن لدي ما أدفعه، ولكنهم كانوا يكتفون بأشعار ألقيها عليهم بعد تناول الطعام. وكانت نسبة كبيرة من تلك الصفقة المشجعة، هي مقاطع لدون خورخي مانريكي في موت أبيه، و"أغنيات الغجر" لغارسيا لوركا.

المواخير المكشوفة في العراء، على شواطئ تيسكا، بعيداً عن صمت سور المدينة المُغلق، كانت أكثر ضيافة من فنادق السباح على الشواطئ. وكنا حوالي ستة طلاب جامعيين نلتقي في "البجعة" منذ ليلة التحضير للامتحانات الأولى، تحت أنوار فناء الرقص المبهرة. كان نسيم البحر وجزار السفن عند الفجر، يواسينا من صخب النحاسيات الكاريبية، ومن إثارة الفتيات اللواتي يرقصن دون سراويل داخلية، وبتنانير واسعة جداً، يرفعها هواء البحر حتى خصورهن. وبين حين وآخر، تدعونا عصفورة تحنّ إلى أبيها، للنوم مع نزر الحب اليسير المتبقي لديها، عند الفجر. إحداهن، وما زلت أتذكر اسمها وحجمها جيداً، أسلمت نفسها لإغواء الادعاءات المتبجحة التي كنت أرويها لها، وأنا نائم. وبفضلها نجحت بمادة القانون الروماني، دون تلاعبات لفظية؛ وأفلتُ من عدة مداهمات، عندما حظرت الشرطة النوم في الحدائق. كنا متفاهمين كزوجين منتفعين، ليس في السرير فقط، وإنما كذلك، في الأعمال المنزلية التي كنتُ أقوم بها بدلاً منها، في الفجر، لكي تتمكن هي من النوم بضع ساعات إضافية.

في أثناء ذلك، بدأتُ أستقر جيداً في عملي، في كتابة التعليقات الافتتاحية. وكنتُ أعتبره على الدوام، شكلاً أقرب إلى الأدب، منه إلى

الصحافة. كانت بوغوتا كابوساً من الماضي، على مسافة مئتي فرسخ، وعلى ارتفاع أكثر من ألفي متر فوق سطح البحر، لا أتذكر منها إلا عفونة رماد التاسع من نيسان. وكنتُ ما أزال غارقاً في حمى الفنون والآداب، لا سيما في مسامرات منتصف الليل. ولكنني بدأت أفقد الحماس في أن أصير كاتباً. وكان ذلك صحيحاً إلى حد أنني لم أعد إلى كتابة قصة واحدة، بعد القصص الثلاث التي نُشرت في الاسبكتادور، إلى أن عثر عليّ إدواردو ثالاميا في أوائل شهر تموز، وطلب مني، بوساطة من المعلم ثابالا، أن أرسل إليه قصة أخرى لنشرها في جريدته، بعد ستة شهور من الصمت. ولأن الطلب جاء منه، استجمعت، كيفما اتفق، بعض الأفكار الضائعة في مسوداتي، وكتبت "الضلع الآخر للموت"، وكانت أكثر قليلاً من الشيء نفسه. أتذكر جيداً أنه لم يكن لها أي موضوع مسبق، فرحت أختلقه في أثناء كتابتها. وقد نُشرت يوم الخامس والعشرين من تموز ١٩٤٨، في ملحق "نهاية الأسبوع"، مثل سابقاتها. ولم أعد إلى كتابة مزيد من القصص، حتى السنة التالية، عندما كانت حياتي قد تبدلت. لم يكن ينقصني إلا التخلي عن دروس الحقوق القليلة التي أتابعها، بين حين وآخر، ولكنها كانت الوسيلة الوحيدة لإلهاء حلم أبويّ.

لم أكن أنا نفسي، أتصور آنذاك، أنني سأكون عما قريب، طالباً أفضل مما كنته في أي وقت آخر، في مكتبة غوستافو إيبارا ميرلانو، وهو صديق جديد، عرفني عليه ثابالا وروخاس هيراثو بحماس كبير. كان قد رجع لتوه من بوغوتا، بشهادة من دار المعلمين العليا، وانضم فوراً إلى مسامرات الأصدقاء، في الأونيفرسال، ومناقشات الفجر في

شارع الشهداء. وبين طلاقة لسان هيكتور البركانية وارتيابية ثابالا الخلاقة، أسهم غوستافو بإضافة الصرامة المنهجية التي كانت تفتقدها كثيراً، أفكاري المرتجلة والمشعثة، وخفة قلبي. وكل هذا وسط رقة كبيرة وطبع حديدي.

منذ اليوم التالي، دعاني إلى بيت أبويه على شاطئ مارببيا، حيث يشكل البحر الفسيح فناء خلفياً. وكانت فيه مكتبة تغطي جداراً كاملاً طوله اثنا عشر متراً، جديدة ومرتبة، تحفظ فيها الكتب التي لا بد من قراءتها من أجل عيش الحياة دون تأنيب ضمير. كانت هناك طبعات لأعمال الكلاسيكيين الإغريق، واللاتينيين، والإسبان، معتنى بها جيداً كما لو أنها لم تُقرأ، لكن هوامش صفحاتها تحمل خربشة ملاحظات حكيمة، بعضها باللاتينية. وكان غوستافو يقرؤها بأعلى صوته. وحين ينطق بها يحمر خجلاً، حتى جذور شعره، ويحاول هو نفسه أن يجد مخرجاً لها بسخريات لاذعة. لقد قال لي عنه أحد الأصدقاء، قبل أن أتعرف إليه: "هذا الشخص خوري". وسرعان ما أدركت السبب في سهولة تصديق ذلك، على الرغم من أنه، بعد التعرف إليه، كان من شبه المستحيل، تصديق أنه ليس كذلك.

في تلك الليلة الأولى، تبادلنا الحديث، دون توقف، حتى الفجر. وعرفت أن قراءاته كانت طويلة ومتنوعة، ولكنها مدعمة بمعرفة متعمقة لأعمال المثقفين الكاثوليكيين المعاصرين، ممن لم أكن قد سمعت بهم قط. كان يعرف كل ما يجب معرفته عن الشعر، خاصة أشعار الكلاسيكيين الإغريق واللاتينيين الذين يقرأ أعمالهم في طبعات أصلية. وكانت لديه، أحكام تستند إلى معطيات جيدة، عن أصدقائنا

المشتركين. وقد قدّم لي معلومات ثمينة، لكي أحبهم أكثر. وأكد لي كذلك، أهمية التعرف على صحفيي بارانكيا الثلاثة - سيبيدا، وبارغاس، وفوينمايور -، الذين طالما حدثني عنهم روخاس هيراثو والمعلم ثابالا. وقد لفت انتباهي أنه، فضلاً عن كل مزاياه الفكرية والتمدنية، يتقن السباحة، كبطل أولمبي، بجسدٍ مصاغ ومدرب ليكون كذلك. وكان أكثر ما أقلقه بشأني، هو ازدرائي للكلاسيكيين الإغريق واللاتينيين الذين يبدون لي، مملين وغير مفيدين، باستثناء الأوديسة التي كنت قد قرأتها وأعدت قراءتها، متفرقة، عدة مرات في المعهد. وهكذا، وقبل أن يودعني، اختار من المكتبة، كتاباً مجلداً بالجلد، وقدمه إليّ، بنوع من الوقار قائلاً: "يمكن لك أن تصير كاتباً جيداً، ولكنك لن تكون جيداً جداً على الإطلاق، ما لم تتعرف بعمق، على الكلاسيكيين الإغريق." كان الكتاب هو الأعمال الكاملة لسوفوكليس. وكان غوستافو، منذ تلك اللحظة، أحد الأشخاص الحاسمين في حياتي، لأن أوديب ملكاً تكشفت لي من القراءة الأولى، عن أنها العمل كامل الإتقان.

لقد كانت ليلة تاريخية بالنسبة لي، لأنني اكتشفت فيها غوستافو إيبارا وسوفوكليس في الوقت نفسه، ولأنه كان يمكن لي، بعد ساعات من ذلك، أن أموت ميتة سيئة في حجرة خطيبتي السرية في "البجعة". أتذكر كما لو أن ذلك حدث بالأمس، عندما قام وصي قديم عليها، كانت تظنه ميتاً منذ أكثر من سنة، بتحطيم باب غرفتها ركلاً، وهو يصرخ بشتائم من به مس. تعرفتُ فيه فوراً على زميل طيب من زملائي في مدرسة أراكاتاكا الابتدائية، عائد والسخط يملؤه ليستعيد موقعه

في فراشها. لم يكن أحدنا قد رأى الآخر منذ ذلك الحين، وقد أبدى سلامة ذوق، بتجاهله ما جاء من أجله، عندما تعرف عليّ وأنا عارٍ، يضمخني الرعب في السرير.

تعرفتُ في تلك السنة أيضاً على راميرو وأوسكار دي لا إسبريياً، وهما محدثان لا يملان الحديث، ولا سيما في البيوت التي تحظرها الأخلاق المسيحية. كلاهما كان يعيش مع أبويه في تورباكو، على بعد ساعة من كارتاخينا، ويظهران كل يوم تقريباً، في مسامرات الكتّاب والفنانين في صالة أميركانا للمثلجات. كان راميرو، خريج كلية الحقوق في بوغوتا، مقرباً من جماعة جريدة الأونيفرسال. وفيها كان ينشر عموداً طوعياً. كان أبوه محامياً صلباً وليبرالياً غير متزمت، وكانت زوجته امرأة محببة، ولا تستطيع أن تكتم سراً. وكلاهما يتمتع بالعادة الحميدة في تبادل الحديث مع الشباب. وقد قدما لي، خلال محادثاتنا الطويلة، تحت أشجار الدردار الوارفة في تورباكو، معلومات لا تثمن حول حرب الألف يوم، ذلك المعين الأدبي الذي جف بعد موت الجد. ومنهما ما زلتُ أحتفظ إلى الآن، بالرؤية التي أظنها أكثر دقة للجنرال رافائيل أوريبي أوريبي، بحضوره المهيب ومقاس معصميه.

أفضل شهادة عن الوضع الذي كنا عليه، أنا ورامون، في تلك الأيام، جسدته في لوحة زيتية على القماش، الرسامةُ سيسيليا بوراس التي كانت تشعر، في حفلات الرجال الصاخبة، كما لو أنها في بيتها، على الرغم من استنكار وسطها الاجتماعي. كانت اللوحة رسماً لنا نحن الاثنين، جالسين إلى طاولة المقهى الذي كنا نلتقي فيه معها ومع أصدقاء آخرين، مرتين كل يوم. عندما أراد كل واحد منا، أنا ورامون،

أن يمضي في طريق مختلف، دار بيننا جدل لا مجال فيه للاتفاق، حول من هو صاحب اللوحة. وقد حلّت سيسيليا الأمر بالمعادلة السليمانية، إذ قصت اللوحة إلى نصفين بمقص تقليم أشجار، وأعطت كل واحد منا قسمه. بقي النصف الخاص بي ملفوفاً، لسنوات بعد ذلك، في خزانة شقة في كاراكاس، ولم أستطع استرداده قط.

على خلاف بقية أنحاء البلاد، لم يخلّف العنف الرسمي تأثيره في كارتاخينا حتى بدايات تلك السنة، عندما جرى اختيار صديقنا كارلوس أليمان نائباً في المجلس البلدي المحلي، عن دائرة مومبوكس الانتخابية الموقرة جداً. كان محامياً خارجاً لتوه من الفرن، وذا طبع مرح؛ ولكن الشيطان مازحه بتلك الدعابة الخبيثة، حيث جرى في الجلسة الافتتاحية، تبادل إطلاق نار بين الحزبين المتضادين، وأحرقت رصاصة طائشة كتفية سترته. ولا بد أن أليمان قد فكر، بمبررات حميدة، في أن سلطة تشريعية غير ذات نفع، مثلما هي عندنا، لا تستحق أن يضحي المرء بحياته من أجلها. وفضل أن يُنفق حميته مقدماً، مع صحبة طيبة من أصدقائه.

كان أوسكار دي لا إسبرييًا، وهو محب من الطراز الأول للهو والقصف، يتفق مع وليم فوكنر في أن الماخور هو أفضل مقر إقامة للكاتب، لأن الصباحات فيه تكون هادئة، وهناك حفلة في كل ليلة، وعلاقة جيدة بالشرطة. وقد تبنى النائب أليمان ذلك الرأي بحذافيره، وصار ضيفنا طوال الوقت. ومع ذلك، فقد ندمتُ في إحدى تلك الليالي، لأنني صدقت أوهام فوكنر؛ عندما اندفع حام قديم لصاحبة الماخور، ماري ريس، وحطم الباب ليأخذ ابنهما الذي كان يعيش معها،

وعمره حوالي خمس سنوات. فخرج حاميها الحالي، وهو ضابط شرطة، من غرفة النوم بسرواله الداخلي، ليدافع عن شرف وممتلكات البيت، بمسدسه النظامي، فاستقبله الآخر برشقة رصاص دوت مثل قذيفة مدفع في قاعة الرقص. فارتعب رقيب الشرطة، ولاذ بغرفته للاختباء. وعندما خرجتُ من غرفتي، وأنا نصف عار، كان النزلاء العابرون يراقبون من غرفهم، الطفل الذي يبول في نهاية الممر، بينما الأب يمسد له شعره بيده اليسرى، ويمسك بيده اليمنى، المسدس الذي مازال الدخان يتصاعد منه. ولم تكن تُسمع في أجواء البيت سوى شتائم ماري، وهي تؤنب الرقيب لأنه جبان يفتقر إلى خصيتين.

في تلك الأيام بالذات، دخل إلى مكاتب الأونيفرسال، رجل مارد، خلع قميصه بحس مسرحي كبير، وراح يتمشى في قاعة التحرير ليفاجئنا بظهره وذراعيه المغطاة بقروح تبدو كما لو أنها من الاسمنت. وأوضح لنا بصوت راعد، وهو منفعل من الدهشة التي أثارها فينا، سبب تلك الآثار التي في جسده:

- إنها خرمشات أسود!

الرجل هو إيميليو رازوري. وكان قد وصل لتوه إلى كارتاخينا، للإعداد لموسم السيرك الشهير الذي يملكه، وهو أحد أكبر سيركات العالم. كان السيرك قد غادر هافانا في الأسبوع السابق، في عابرة المحيطات أوسكيرا التي ترفع العلم الاسباني. ومن المنتظر وصوله يوم السبت التالي. وكان رازوري يتباهى بأنه وُجد في السيرك منذ ما قبل مولده، ولم تكن ثمة حاجة لرؤية استعراضه لاكتشاف أنه مروض حيوانات ضارية. كان يدعوها بأسمائها الخاصة، مثلما يدعو أفراد

أسرته، فترد عليه بمعاملة حميمة وفظة في الوقت نفسه. فهو يدخل أعزلَ إلى أقفاص النمور والأسود، ليقدم إليها طعامها بيده. وقد احتضنه، في إحدى المرات، دبه المدلل في عناق حب أبقاه في المستشفى ربيعاً كاملاً. ومع ذلك، لم يكن هو نفسه جاذبية السيرك الكبرى، ولا عرض آكل النار كذلك، وإنما الرجل الذي كان يفك رأسه ويتمشى حول الحلبة، واضعاً الرأس تحت إبطه. ما لا يمكن نسيانه من إميليو رازوري، هو تمسكه الراسخ بالحياة. وبعد الاستماع إليه بانبهار، على امتداد ساعات طويلة، نشرتُ في الأونيفرسال تعليقاً افتتاحياً عنه، تجرأت فيه على الكتابة بأنه "أكثر الرجال الذين عرفتهم هولاً في إنسانيته". ولم يكن من تعرفت إليهم كثيرين، وأنا في الحادية والعشرين من عمري. ولكن تلك الجملة ما تزال صالحة، على ما أظن، حتى الآن. كنا نتناول طعامنا في "الكهف" مع العاملين في الصحيفة، وقد صار محبوباً هناك أيضاً بقصصه عن الضواري المؤنسنة بالحب. وفي واحدة من تلك الليالي، بعد طول تفكير في الأمر، تجرأت على الطلب منه بأن يأخذني في سيركه، ولو لتنظيف الأقفاص، عندما لا تكون النمور بداخلها. لم يقل لي شيئاً، ولكنه مدّ لي يده بصمت. ففهمت ذلك على أنه كلمة سر خاصة بالسيرك، واعتبرت الاتفاق ناجزاً. الشخص الوحيد الذي اعترفت له بذلك، كان سلفادور ميسا نيتشويس، وهو شاعر انتيوكي (من أنتيوكيا)، يعشق خيمة السيرك إلى حد الجنون، حضر لتوه إلى كارتاخينا كشريك محلي لرازوري. وكان هو نفسه قد ذهب مع سيرك كذلك، عندما كان في مثل سني، فحذرني من أن من يرون المهرجين، يبكون أول مرة، يرغبون في الذهاب معهم، ولكنهم

يندمون في اليوم التالي. ومع ذلك، لم يكتف بتأييد قراري وحسب، بل أقنع المروض به، شريطة أن نتكتم على السر، بصورة مطلقة، كيلا يتحول إلى خبر قبل أوانه. فتحول انتظاري السيرك إلى رغبة جامحة، بعد أن كان انفعالياً حتى ذلك الوقت.

لم تصل السفينة إوسكيرا في الموعد المحدد. وكان من المستحيل الاتصال بها. وبعد مرور أسبوع آخر، أقمنا من الجريدة خدمة هواة راديو لتتبع الظروف المناخية في الكاريبي. ولكننا لم نتمكن من الحيلولة دون بدء الصحافة والإذاعة في التفكير حول احتمالات الخبر المرعب. بقيت أنا وميسا نيتشويس في تلك الأيام، متوترين مع إميليو رازوري، دون أكل ولا شرب، في غرفته في الفندق. رأيناه ينهار، يضمر حجماً وقدرة في الانتظار غير النهائي، إلى أن أكد القلب لنا جميعاً أن إوسكيرا لن تصل أبداً إلى أي مكان، ولن تتوفر أية أخبار عن مصيرها. بقي مروض الوحوش يوماً آخر معتكفاً في غرفته، وحيداً. وفي اليوم التالي، زارني في الصحيفة ليقول لي إنه لا يمكن لمئة سنة من المعارك اليومية، أن تتلاشى وتختفي في يوم واحد. ولهذا فإنه سيذهب إلى ميامي، دون مال ودون أسرة، لكي يعيد بناء السيرك الغارق، قطعة قطعة، انطلاقاً من العدم. لقد أذهلني تصميمه على تجاوز المأساة، فرافقته إلى بارانكيا لكي أودعه في الطائرة الذاهبة إلى فلوريدا. وقبل أن يصعد إلى الطائرة، شكرني على قراري بالانضمام إلى سيركه، ووعدني بأن يبعث في طلبي فور أن يتوفر لديه شيء ملموس. ودعني بعناق مستهتر، فهمت به من أعماق روحي، كيف هو حب أسوده. ولم أعد أعرف أي شيء عنه منذ ذلك الحين.

أقلعت الطائرة إلى ميامي في الساعة العاشرة من اليوم نفسه الذي ظهر فيه تعليقي عن رازوري في الجريدة: يوم السادس عشر من أيلول ١٩٤٨ . وكنت أستعد للعودة إلى كارتاخينا في مساء ذلك اليوم بالذات، عندما خطر لي زيارة إلناسيونال، الجريدة المسائية التي يكتب فيها خيرمان بارغاس وألفارو سيبيدا، صديقا أصدقائي في كارتاخينا. كانت مكاتب تحرير الجريدة في بناء متآكل في المدينة القديمة، تتألف من صالة طويلة فارغة، يقسمها حاجز شرفة خشبي. وكان في أقصى الصالة، رجل شاب أشقر، يرتدي قميصاً قصير الكمين، ويكتب على آلة كاتبة تدوي ملامسها كأنها المفرقعات في الصالة المقفرة. اقتربت على رؤوس أصابعي تقريباً، مفزعاً من طقطقة خشب الأرضية الكئيب، وانتظرت عند الشرفة إلى أن نظر إليّ، وقال لي بجفاء، وبصوت مذيع محترف، متناسق:

– ماذا تريد؟

كان شعره قصيراً، ووجنتاه قاسيتين. وبدت لي عيناه الصافيتان والحادتان متضايقتين من المقاطعة. فأجبته كيفما استطعت، وحرفاً حرفاً:

– أنا غارسيا ماركيز.

ولدى سماعي اسمي منطوقاً بتلك القناعة، أدركتُ أنه يمكن لخيرمان بارغاس ألا يعرف من أكون، بالرغم من أن كثيرين في كارتاخينا، أخبروني بأنهم قد تحدثوا عني كثيراً مع أصدقائهم في بارانكيا منذ أن قرؤوا قصتي القصيرة الأولى. وكانت جريدة إلناسيونال قد نشرت تعليقاً متحمساً، كتبه خيرمان بارغاس الذي لا يتساهل مع المستجدات الأدبية. ولكن الحماس الذي قابلني به أكد لي أنه يعرف

جيداً من أكون، وأن عاطفته أكثر صدقاً مما قيل لي. بعد ساعات من ذلك، تعرفت على ألفونسو فوينمايور وألفارو سيبيدا في مكتبة "موندو"، وتناولنا المقبلات معاً في مقهى كولومبيا. أما دون رامون فينيس، الحكيم الكتلاني الذي كنت أرغب، بلهفة ورهبة شديدتين، في التعرف إليه، فلم يحضر في مساء ذلك اليوم إلى جلسة الأصدقاء، في الساعة السادسة. عندما خرجنا من مقهى كولومبيا، بعد تناول خمسة كؤوس من الشراب، كنا نبدو كأننا أصدقاء يعرف بعضنا بعضاً منذ سنوات.

لقد كانت ليلة طويلة من البراءة. فألفارو، السائق العبقري الأكثر ثقة بنفسه، والأكثر حذراً، كلما زاد في الشراب، قام باجتياز طريق المناسبات التاريخية. ففي "لوس ألمندروس"، وهي حانة في الهواء الطلق، تحت أشجار لوز مزهر، لا يستقبلون فيها سوى مشجعين متعصبين لنادي جونيور الرياضي، نشب نزاع بين عدة زبائن، أوشك أن ينتهي باللكمات. فحاولت تهدئتهم إلى أن نصحني ألفونسو بعدم التدخل، لأن رواد ذلك المكان هم دكاترة في كرة القدم، ويستاؤون جداً من تدخل دعاة السلام. وهكذا أمضيت تلك الليلة في مدينة مختلفة تماماً، عن تلك التي عرفتها من قبل، وعن التي عرفها أبواي في سنواتهما الأولى، وعن مدينة سنوات الفقر التي عشناها مع أمي، وعن مدينة مدرسة سان خوسيه؛ إنها بارانكيا الأولى الخاصة بي، كبالغ، في فردوس مواخيرها.

كان الحي الصيني عبارة عن أربعة شوارع تضج بموسيقى معدنية ترج الأرض، إلا أن فيه كذلك، منعطفات خدمة منزلية تقارب الإحسان.

كان هناك مواخير أسرية يعكف أصحابها، مع نسائهم وأبنائهم، على خدمة زبائنهم المجربين، وفق قواعد الأخلاق المسيحية وتمدن دون مانويل أنطونيو كارينيو. ويعمل بعضهم كفيلاً لكي توافق الفتيات المستجدات على مضاجعة الزبائن المعروفين بالدين. وكانت أقدمهن، مارتينا ألفارادو، تملك باباً سرياً وتعرفة إنسانية خاصة بالكهنة التائبين. لم تكن هناك مشروبات مزيفة، ولا حسابات سكر، ولا مفاجآت أمراض زهرية. وكانت آخر الخبيرات الفرنسيات اللواتي جئن خلال الحرب العالمية الأولى، معتلات وكئيبات، يجلسن منذ الغروب، عند أبواب بيوتهن، تحت بقعة ضوء المصابيح الحمراء، بانتظار جيل ثالث من الزبائن، يؤمن بالقدرة الشبقية لواقياتهنّ الذكرية. وكانت هناك بيوت فيها صالونات مبردة لاجتماعات المتآمرين، ولتوفير ملاذ للعمد الهاربين من زوجاتهم.

كان ماخور "القط الأسود"، مع فناء رقص تحت عريشة نبات متسلقة، فردوس البحرية التجارية، منذ أن اشترته غواخيرية ذات بشرة برونزية تغني بالإنكليزية، وتبيع من تحت الطاولة مراهم هذيانية للسيدات والسادة. وفي ليلة تاريخية من حولياته، لم يستطع ألفارو سيبيدا وكيكي سكوبيل تحمل عنصرية اثني عشر بحاراً نرويجياً، يقفون بالدور أمام حجرة المومس الزنجية الوحيدة، بينما هناك ست عشرة بيضاء يشخرن جالسات في الفناء، فتحدياهم باللكمات. وخاض الاثنان مواجهة، بالقبضات وحدها، ضد الاثني عشر بحاراً، وأجبروهم على الفرار بمساعدة المومسات البيضاوات اللواتي استيقظن سعيدات، وأجهزن عليهم بالضرب بالكراسي. وأخيراً، في ترضية هذيانية، توجوا الزنجية، وهي عارية، ملكة على النرويج.

كانت هناك، خارج الحي الصيني، بيوت علنية أو سرية أخرى، وجميعها على علاقة جيدة بالشرطة. أحدها كان فناء أشجار لوز كبيرة مزهرة في حي فقراء، فيه خيمة بائسة ومخدع بسريرين ضيقين للإيجار. أما بضاعته فكانت صغيرات مصابات بفقر الدم من الجوار، يكسبن مبلغ بيزو، دفعة واحدة من السكارى فاقدي الرشد. لقد اكتشف ألفارو سيبيدا المكان مصادفة، في مساء يوم ضلَّ فيه الطريق، خلال وابل مطر تشريني، واضطر إلى اللجوء إلى الخيمة. فدعته صاحبة المحل لتناول البيرة، وعرضت عليه طفلتين بدلاً من واحدة، مع الحق بأن يكرر ذلك ريثما يتوقف المطر. وقد واصل ألفارو دعوة الأصدقاء لتناول البيرة المثلجة تحت أشجار اللوز، ليس من أجل مضاجعة الفتيات الصغيرات، وإنما لتعليمهن القراءة. وقد تمكن من الحصول على منح لأكثرهن مواظبة، كي يدرسن في المدارس الرسمية. وصارت واحدة منهن ممرضة في مستشفى الإحسان، بعد عدة سنوات. وأهدي البيت إلى السيدة، وحمل بيت الصغيرات البائس ذاك حتى انقراضه الطبيعي، اسماً مغرياً: "بيت الفتيات اللواتي يضاجعن بدافع الجوع".

لم يختاروا لليلتي التاريخية الأولى في بارانكيا، سوى بيت الزنجية أوفيميا، بفنائه الإسمنتي الفسيح المخصص للرقص، بين أشجار تمر هندي وارفة، وبأكواخه التي تؤجر بخمسة بيزوات في الساعة، وموائده وكراسيه المطلية بألوان زاهية، تتمشى في ما بينها الكروانات على هواها. وكان أوفيميا الهائلة والمئوية، تستقبل بنفسها الزبائن وتنتقيهم عند المدخل، وراء منضدة مكتب لا يوجد عليه سوى شيء واحد – لا تفسير له – هو مسمار ضخم من مسامير الكنيسة. وكانت هي

نفسها تتولى اختيار الفتيات، وفقاً لحسن تربيتهن ومفاتنهن الطبيعية. وتختار كل واحدة من الفتيات لنفسها الاسم الذي يروقها. وبعضهن كن يفضلن الأسماء التي يطلقها عليهن ألفارو سيبيدا، والمستمدة من ولعه بالسينما المكسيكية: إيرما الخبيثة، سوزانا الشقية، عذراء منتصف الليل.

كان يبدو، من المستحيل، تبادل الحديث بوجود أوركسترا كاريبية منتشية، بأعلى صوتها، بأغنيات المامبو الجديدة التي يغنيها بيريث برادو، ولفرقة غناء بوليرو، لنسيان الذكريات السيئة. ولكننا كنا جميعنا خبراء في تبادل الحديث والنقاش، صارخين. وكان خيرمان وألفارو هما من أثارا موضوع النقاش في تلك الليلة، حول العناصر المشتركة في الرواية والريبورتاج الصحفي. وكانا متحمسين للريبورتاج الذي نشره للتو، جون هيرسي حول قنبلة هيروشيما الذرية. أما أنا فكنت أفضل "يوميات سنة الطاعون" كشهادة صحفية مباشرة، إلى أن أوضح لي الآخرون بأن دانييل ديفو، لم يكن قد تجاوز الخامسة أو السادسة من عمره، عند انتشار الطاعون في لندن. وهي الحالة التي استخدمها كنموذج.

وعبر هذا الطريق، وصلنا إلى لغز الكونت دي مونت كريستو. وكان الثلاثة قد خاضوا حوله مناقشات سابقة، باعتباره أحجية للروائيين: كيف تمكن ألكسندر دوماس من جعل بحار ساذج، وجاهل، وفقير، ومسجون دون قضية، يتمكن من الهرب من قلعة محصنة، ويتحول إلى أغنى رجال عصره، وأكثرهم ثقافة؟ وكان الجواب هو أنه عندما دخل إدموند دانتس إلى قلعة إيف، كان قد تشكل فيه الأباتي فاريا، وهو

الذي نقل إليه في السجن، خلاصة حكمته ومعارفه، وكشف له عما يتوجب عليه معرفته في حياته الجديدة: المكان الذي يخبأ فيه كنزُ خرافي، وطريقة الهرب. هذا يعني أن دوماس قد صاغ شخصيتين مختلفتين، ثم عمد بعد ذلك، إلى تبديل مصيريهما. وهكذا، عندما هرب دانتس، كان قد صار شخصية ضمن شخصية أخرى. وكان الشيء الوحيد المتبقي منه هو جسده، كراو جيد.

كان من الواضح، لدى خيرمان، أن دوماس تعمد جعل شخصيته بحاراً، لكي يمكنه من الهرب من الكيس، والسباحة حتى الشاطئ، عندما يلقون به إلى البحر. أما ألفونسو واسع المعرفة وأكثر الثلاثة تمحيصاً، فقد ردّ بأن كون الشخصية بحاراً، لا يضمن ولا يعني أي شيء، لأن سبعين بالمئة من بحارة كريستوف كولومبس، ما كانوا يتقنون السباحة. لم يكن هناك ما يسعده أكثر من إلقاء ذرات الفلفل تلك، لكي يُفقد الطبيخ أي طعم من الحذلقة. وفي خضم حماسي للعبة الألغاز الأدبية تلك، رحتُ أحتسي دون حساب، كؤوساً من الروم مع الليمون، بينما كان الآخرون يتناوله في رشفات تذوق صغيرة. وكانت النتيجة التي توصل إليها الثلاثة هي أن موهبة دوماس، وتلاعبه بالمعطيات، في تلك الرواية، وربما في كل أعماله، هي أقرب إلى موهبة وتلاعب كاتب ريبورتاجات صحفية، منها إلى روائي.

وقد اتضح لي في النهاية، أن أصدقائي الجدد يقرؤون كيفيدو وجيمس جويس، بالجد والمنفعة نفسيهما اللذين يقرؤون بهما كونان دويل. وأنهم يتمتعون بحس دعابة لا ينضب، ويمكن لهم قضاء ليالٍ بطولها، وهم يغنون أغنيات بوليرو وفايناتو، أو يلقون عن ظهر قلب، ودون تلعثم،

أفضل أشعار العصر الذهبي. وقد توصلنا، عبر سبل مختلفة، إلى الاتفاق على أن ذروة الشعر العالمي هي مقاطع دون خورخي مانريكي في موت والده. تحولت الليلة إلى تسلية ممتعة، قوضت آخر الأحكام المسبقة التي يمكن لها أن تعكر صداقتي لتلك العصبة من المرضى الأدبيين. لقد أحسست معهم، ومع الروم، بأنني على أحسن حال؛ فأزحت عن نفسي قيود الحياء. دعتني سوزانا الشقية إلى الرقص، وكانت قد كسبت في شهر آذار من تلك السنة، مسابقة الرقص في الكرنفال. فأبعدوا الدجاج والكروانات من الحلبة، وأحاطوا بنا لتشجيعنا.

رقصنا مجموعة أغنيات المامبو الخامسة لداماسو بيريث برادو، واستوليت، بما تبقى لي من أنفاس، على الماراكا[1] من مصطبة الفرقة الموسيقية التروبيكالية، وغنيت طوال أكثر من ساعة، أغنيات بوليرو لدانييل سانتوس، وأغوسطين لارا، وبنبينيدو غرانادا، وكلما غنيت أكثر، أحسست بأنني أنتشي بنفحة حرية. لم أعرف قط، إذا ما كان الثلاثة فخورين بي أم خجلين مني. ولكنني، عندما رجعت إليهم على المائدة، استقبلوني كواحد منهم.

كان ألفارو قد بدأ، عندئذ، موضوعاً لم يناقشه الآخرون من قبل: السينما. فكان بالنسبة لي، أشبه بلقية وفرتها العناية الإلهية، لأنني كنت أعتبر السينما على الدوام، فناً فرعياً يتغذى على المسرح أكثر من تغذّيه على الرواية. أما ألفارو بالمقابل، فكان يرى فيه إلى حد ما، ما أراه أنا في الموسيقى: فناً مفيداً لكل الفنون الأخرى.

(١) – الماراكا las maracas : آلة موسيقية كاريبية، تتألف من نبتة قرع مجوفة تزود بمقبض، وتوضع فيها أحجار.

عند الفجر، كان ألفارو يقود السيارة المترعة بكتب حديثة الصدور، وملاحق نيويورك تايمز الأدبية، وهو بين النائم والمخمور، مثل سائق تكسي محترف. أوصلنا خيرمان وألفونسو إلى بيتيهما، وأصر ألفارو على أن يأخذني إلى بيته، لكي أتعرف على مكتبته التي تغطي ثلاثة جدران، من حجرة النوم، حتى السقف. وقد أشار بسبابته إلى الكتب، بحركة دائرية كاملة، وقال لي:

– هؤلاء هم الكتاب الوحيدون في العالم الذين يعرفون كيف يكتبون.

كنتُ في حالة انتشاء، جعلتني أنسى ما كان يعنيه الجوع والنعاس بالأمس. كان الكحول لا يزال حياً في داخلي، كأنه حالة نعمة ربانية. أراني ألفارو كتبه المفضلة، بالإسبانية والإنكليزية. وكان يتحدث عن كل واحد منها بصوته الصدئ، وشعره المشعث، وعينيه الزائغتين أكثر من أي وقت آخر. تكلم عن أثورين وعن سارويان – وهما نقطتا ضعف لديه – وعن آخرين، يعرف حيواتهم العامة والخاصة، حتى سراويلهم الداخلية. وكانت تلك هي المرة الأولى التي أسمع فيها باسم فيرجينيا وولف. وكان هو يسميها العجوز وولف، مثل العجوز فوكنر. وقد استثاره ذهولي حتى بلغ حد الهذيان. تناول كدسة الكتب التي أراني إياها، على أنها كتبه المفضلة، وضعها بين يدي قائلاً:

– لا تكن أبله. خذها كلها، وعندما تنتهي من قراءتها سنذهب لإحضارها أينما تكون.

لقد كانت تلك الكتب بالنسبة لي، ثروة لا يمكن تصورها، فلم أجرأ على المجازفة بأخذها، وأنا لا أملك حجرة صغيرة بائسة أضعها فيها.

واكتفى أخيراً بأن يهدي إلي الترجمة الإسبانية لرواية فيرجينيا وولف "السيدة دلووي"، مرفقاً ذلك بتبوح لا تقبل الاستئناف، بأنني سأحفظها عن ظهر قلب.

كان الفجر يبزغ. وكنت أرغب في العودة إلى كارتاخينا في أول حافلة. ولكن ألفارو أصر على أن أنام في السرير المجاور لسريره. وقال بآخر نفس لديه:

– يا للعنة! ابق للعيش هنا، وغداً نجد لك وظيفة رائعة.

استلقيت بملابسي على السرير، وعندئذ فقط أحسست، في جسدي، بالثقل الهائل لكوني حياً. وفعل هو الشيء نفسه، وبقينا نائمين حتى الحادية عشرة صباحاً، عندما أقدمت أمه، سارا ساموديو المحبوبة والخجولة، على طرق الباب بقبضتها، معتقدة أن ابن حياتها الوحيد قد مات.

– لا تهتم بها يا معلم – قال لي ألفارو من أعماق حلمه، وأضاف:– إنها تقول الشيء نفسه صباح كل يوم. والخطير هو أن ذلك سيكون صحيحاً في أحد الأيام.

رجعتُ إلى كارتاخينا بمزاج شخص اكتشف العالم. لم تعد جلسات ما بعد تناول الطعام، في بيت آل فرانكو مونيرا تمضي، عندئذ، في قراءة أشعار العصر الذهبي الإسباني و"عشرون قصيدة حب وأغنية يائسة" لنيرودا، وإنما في قراءة مقاطع من "السيدة دلووي" وهذيانات شخصيتها المؤثرة سيبتيموس وارن سمث. لقد صرتُ شخصاً آخر، جزعاً وصعباً، إلى حد أن هيكتور والمعلم ثابالا رأيا في ذلك، محاكاة واعية لألفارو سيبيدا. أما غوستافو إيبارا، برؤيته المشفقة كقلب كاريبي، فقد

استمتع بقصتي عن ليلة بارانكيا، بينما هو يقدم لي جرعات أكثر فأكثر حكمة من الشعراء الإغريق، مع الاستثناء الواضح وغير المفسر أبداً، لأعمال يوربيديس. كشف لي عن ملفيل: مأثرة "موبي ديك"، والموعظة العظيمة حول يونس، من خلال صيادي الحيتان المجربين في كل بحار العالم، تحت القبة الهائلة المشيدة من أضلاع الحيتان. وأعارني "البيت ذو الأسقف السبعة" لناثانيال هوثورن الذي أثر بي مدى الحياة. وحاولنا معاً، التوصل إلى نظرية حول حتمية الحنين في تيه إوليسيس الأوديسي، وضربه في الآفاق، حيث ضعنا ولم نجد مخرجاً. ولكنني وجدته محلولاً بعد نصف قرن من ذلك، في نص لميلان كونديرا.

وإلى تلك المرحلة بالذات، يعود لقائي الوحيد مع الشاعر الكبير لويس كارلوس لوبيث، المشهور بلقب "الأعور"، والذي ابتكر طريقة مريحة ليكون ميتاً دون أن يموت، ومدفوناً دون أن يُدفن، وبلا خطابات تكريم قبل ذلك كله. كان يعيش في مركز المدينة التاريخي، في بيت تاريخي يقع في شارع تابلون التاريخي، حيث ولد ومات دون أن يزعج أحداً. كان يُرى مع قلة من الأصدقاء الدائمين، بينما كانت سمعته كشاعر كبير، تواصل التعاظم في حياته، مثلما تتعاظم أمجاد ما بعد الموت وحدها.

سمي الأعور، دون أن يكون كذلك، لأنه كان في الواقع، أحول وحسب. ولكن بطريقة مختلفة كذلك، ومن الصعب تمييزها. وكان أخوه دومنغو لوبيث إسكاوريانا، مدير جريدة الأونيفرسال، يرد بالجواب نفسه دوماً، على من يسأله عنه:

– إنه هناك.

الجواب يبدو متهرباً، ولكنه الحقيقة الوحيدة: فقد كان هناك. حياً أكثر من أي شخص آخر، ولكن مع مزية كونه حياً دون أن يُعرف الأمر كثيراً، متنبهاً إلى كل شيء، ومصمماً على الذهاب للدفن بقدميه. كان الكلام يدور عنه، كما عن أثر تاريخي، ولا سيما بين من لم يسمعوه قط. ولهذا لم أحاول رؤيته منذ وصولي إلى كارتاخينا، احتراماً لامتيازاته كرجل خفي. كان عمره آنذاك ثمانية وستين عاماً، ولم يكن هناك من يخامره الشك في أنه أحد كبار شعراء اللغة، في كل العصور، مع أننا لم نكن كثيرين، نحن الذين نعرف قيمته وسبب تلك القيمة. ولم يكن من السهل، تصديق ذلك، بسبب نوعية أشعاره الغريبة.

ثالابا، وروخاس هيراثو، وغوستافو إيبارا، وجميعنا، كنا نحفظ قصائد من شعره عن ظهر قلب، وكنا نرددها دوماً دون تفكير، بصورة عفوية وصائبة، لكي تدخل الإشراق إلى أحاديثنا. لم يكن منعزل الطباع وإنما خجولاً. لا أتذكر أنني رأيت حتى الآن، صورة له، إذا كان له صورة ما. وإنما بعض رسوم الكاريكاتير السهلة التي كانت تنشر مكان الصورة. وأظن أننا نسينا أنه ما يزال حياً، بسبب عدم رؤيته. وفي أحد الأيام، بينما كنت أنهي مقالتي اليومية، سمعت صرخة ثالاما المختنقة:

- يا للعنة. إنه الأعور!

رفعت بصري عن الآلة الكاتبة، ورأيت أغرب رجل شاهدته في حياتي. أقصر بكثير مما كنا نتصوره، وبشعر شديد البياض إلى حد يبدو معه أزرق، وشديد التشعث، بحيث يبدو مستعاراً. لم يكن أعور العين اليسرى، وإنما مثلما يشير لقبه، بصورة أفضل: أحول. وكان يرتدي ملابس، كما لو أنه في البيت: بنطال من قماش قطني رقيق وقاتم،

وقميص مخطط، يده اليمنى على مستوى الكتف، ومبسم فضي مع سيجارة مشتعلة لا يدخنها، ويسقط رمادها دون نفضه، عندما لا يعود تماسكه ممكناً.

مرّ، عَرَضاً، حتى مكتب أخيه، وخرج بعد ساعتين من ذلك، عندما لم يبق أحد سواي، أنا وثالاما في قاعة التحرير، ننتظر مصافحته. وقد مات بعد حوالي سنتين من ذلك. والهزة المؤثرة التي خلفها في الموالين له، لم تكن بسبب الإحساس بالأسى لموته، وإنما انبعاثه. ففي أثناء عرضه في التابوت، لم يكن يبدو ميتاً أكثر مما كان عليه، وهو حي.

في تلك الفترة نفسها، ألقى الكاتب الإسباني داماسو ألونسو وزوجته، الروائية إولاليا كالفارياتو، محاضرتين في مدرج الجامعة الكبير. المعلم ثابالا الذي لم يكن يروقه أن يزعج حياة الآخرين، تغلب في تلك المرة، على تحفظه، وطلب منهما لقاء. ورافقناه أنا وغوستافو إيبارا، وهيكتور روخاس هيراثو. وقد حدث تفاعل فوري معهما. بقينا قرابة أربع ساعات في قاعة خاصة، في فندق الكاريبي، نتبادل الانطباعات حول رحلتهما الأولى إلى أميركا اللاتينية، وأحلامنا ككتاب جدد. قدم إليهما هكتور كتاب أشعار، وقدمت أنا إليهما نسخة مصورة من إحدى قصصي المنشورة في الاسبيكتادور. وكان أكثر ما أثار اهتمامنا، نحن الإثنين، هو صراحة تحفظاتهما، لأنهما يستخدمانها كتأكيد موارب للمديح.

في شهر أكتوبر، وجدت في الأونيفرسال، رسالة من غنثالو مايارينو يقول لي فيها، إنه ينتظرني مع الشاعر ألفارو موتيس في فيلا توليبان، وهو نزل لا ينسى في منتجع بوكاغراندي البحري، على

بعد أمتار قليلة من المكان الذي هبط فيه الطيار تشالز ليندبيرغ، قبل نحو عشرين سنة. وكان غونثالو - شريكي في جلسات إلقاء الشعر الخاصة في الجامعة - محامياً ممارساً، وقد دعاه موتيس ليتعرف على البحر، بوصفه مدير العلاقات العامة في شركة LANSA، وهي شركة طيران محلية أسسها طياروها بالذات.

كان قد تصادف، مرة واحدة على الأقل، نشر قصائد لموتيس وقصص لي في ملحق "نهاية الأسبوع". وكان لقاؤنا كافياً لأن نبدأ محادثة لم تنته، في أماكن لا حصر لها من العالم، طوال أكثر من نصف قرن. وكثيراً ما سألنا أولادنا أولاً، ثم أحفادنا بعد ذلك، عم نتكلم بكل ذلك الشغف الضاري. وكنا نجيبهم بالحقيقة: إننا نتكلم دوماً، في الموضوع نفسه.

صداقاتي الإعجازية مع ناضجين في عالم الفنون والآداب، منحتني الحماس لمواصلة العيش في تلك السنوات التي ما زلت أتذكرها، على أنها أكثر سنوات حياتي التباساً وتقلباً. في العاشر من تموز، نُشرت آخر مقالة لي في زاوية "نقطة وسطر جديد" في الأونيفرسال، بعد ثلاثة شهور عسيرة لم أستطع خلالها، تجاوز حواجزي كمتدرب مبتدئ، وفضلت قطعها والخروج بالميزة الوحيدة المتوفرة، ألا وهي الهرب قبل فوات الأوان. لذت بالإفلات من المسؤولية، في تعليقات الصفحة الافتتاحية، دون توقيع، اللهم إلا عندما يتوجب تضمينها لمسة شخصية. واظبت عليها بروتينية محض، حتى أيلول ١٩٥٠، حيث أنهيتها بمقالة رنانة عن إدغار آلان بو، ميزتها الوحيدة هي كونها الأسوأ.

كنت ألح، طوال تلك السنة، على أن يعلمني المعلم ثابالا أسرار

كتابة الريبورتاجات الصحفية. ولكنه، بطبعه الغامض، لم يحسم الأمر. غير أنه أبقاني مشوشاً بلغز طفلة في الثانية عشرة من عمرها، دفنت في دير سانتا كلارا، ونما شعرها بعد موتها، أكثر من مئتي متر، خلال قرنين. لم أتصور مطلقاً أنني سأعود إلى الموضوع نفسه، بعد أربعين سنة، لأقصه في رواية رومانسية ذات تداخلات مشؤومة. ولكن تلك الأزمنة لم تكن أفضل أزمنتي للتفكير. فقد كنت أغضب لأتفه الأسباب، وأتغيب عن العمل دون تفسير، إلى أن يرسل المعلم ثابالا من يكبح جماحي ويروضني. نجحت في الامتحانات النهائية لسنة الحقوق الثانية، بضربة حظ، مع حملي مادتين اثنتين، واستطعت التسجيل في السنة الثالثة. وقد انتشرت إشاعة تقول إنني توصلت إلى ذلك النجاح، بفعل ضغوط سياسية من جانب الجريدة. وكان على المدير أن يتدخل، عندما جرى اعتقالي لدى الخروج من السينما، ومعي دفتر تجنيد مزيف. وكانوا قد أدرجوا اسمي في قائمة لتكليفي بمهمات أمن عام تأديبية.

وبسبب غشاوتي السياسية في تلك الأيام، لم أعلم حتى بأن حالة الطوارئ قد فُرضت من جديد، في البلاد، بسبب تردي الأمن العام. شددت الرقابة من قبضتها على الصحافة. وتخلخلت الأجواء، كما في أسوأ الأزمنة، وراحت شرطة سياسية معززة بمجرمين عاديين، تزرع الرعب في الأرياف. أجبر العنف الليبراليين على هجر أراضيهم ومنازلهم. أما مرشحهم المحتمل، داريو إتشانديا، وهو أستاذ أساتذة في القانون المدني، متشكك بالولادة وقارئ مدمن للكتاب الإغريق واللاتينيين، فأعلن عن تأييده لامتناع الليبراليين عن خوض الانتخابات. صار الطريق مفتوحاً لانتخاب لاوريانو غوميث الذي بدا أنه يحرك الحكومة، بخيوط غير مرئية، من نيويورك.

لم أكن أعي بوضوح، في ذلك الحين، أن تلك الأحداث العارضة المشؤومة، ليست مجرد مخاز مشينة يقترفها المحافظون، وإنما هي أعراض تبدلات خبيثة ستطرأ على حياتنا، إلى أن خطر لي في واحدة من ليالينا الكثيرة في الكهف، أن أتباهى بمشيئتي في عمل ما أرغب فيه. فأبقى المعلم ثابالا ملعقة الحساء معلقة في الفضاء، بعد أن كان على وشك تناولها، ونظر إليّ من فوق قوس نظارته، وأوقفني بجفاء:

– قل لي يا غابرييل: وسط كل الحماقات التي تمارسها، هل استطعت أن تلاحظ أن هذه البلاد آخذة بالدمار؟

أصاب السؤال الهدف. وبينما أنا مخمور حتى النخاع، استلقيت لأنام عند الفجر، على مقعد في شارع الشهداء، فحولني مطر توراتي إلى ما يشبه حساء عظام. بقيت أسبوعين في المستشفى مصاباً بالتهاب رئوي مقاوم لأول المضادات الحيوية المعروفة. وكانت تتمتع بالسمعة السيئة في أنها تسبب أعراضاً جانبية مخيفة، مثل العجز المبكر. صرت أكثر شحوباً وأقرب إلى هيكل عظمي مما أنا عليه عادة، فاستدعاني أبواي إلى سوكري، من أجل ترميم صحتي من العمل المجهد – حسب ما قالاه في رسالتهما –. وقد مضت الأونيفرسال أبعد من ذلك، بنشرها تعليق وداع، كرّستني فيه صحفياً وكاتباً بارعاً. وفي تعليق آخر اعتبرتني فيه مؤلف رواية لم يكن لها وجود قط، وبعنوان لم يكن لي: "لقد قطعنا الحشيش". والأغرب أن ذلك جاء في وقت لم تكن لدي فيه، أية نوايا للعودة إلى التورط في القصص التخيلي. الحقيقة أن من اخترع ذلك العنوان الغريب عني تماماً، هو هيكتور روخاس هيرازو، بسرعة الآلة الكاتبة، على أنه مساهمة أخرى من سيسر غيرا بالديس،

وهو كاتب وهمي من أنقى السلالات الأمريكية اللاتينية، اختلقه هيكتور نفسه لإغناء مناظراتنا. كان قد نشر في الأونيفرسال خبراً عن وصوله إلى كارتاخينا. وكتبت أنا تحية موجهة إليه في زاويتي "نقطة وسطر جديد" على أمل نفض الغبار عن الوعي الهاجع لرواية قارية حقيقية. وعلى كل حال، فقد جرت الإشارة بعد سنوات، في مقالة حول كتبي، لا أدري أين أو لأي سبب، إلى الرواية الوهمية ذات العنوان الجميل الذي أبدعه هيكتور، باعتبارها أحد الأعمال الأساسية في الأدب الجديد.

الجو الذي وجدته آنذاك في سوكري، كان ملائماً جداً لأفكاري في تلك الأيام. كتبت إلى خيرمان بارغاس، طالباً منه أن يرسلوا لي كتباً.. الكثير من الكتب.. أكبر عدد ممكن منها، لأغرق في أعمال بارزة، خلال فترة نقاهة مقدر لها أن تستمر ستة شهور. كانت القرية في حالة فيضان. وكان أبي قد تخلص من عبودية الصيدلية، وشيد عند مدخل القرية، بيتاً يتسع للأبناء. وكنا قد صرنا أحد عشر ابناً منذ مولد إليخيو، قبل ستة عشر شهراً من ذلك. بيت كبير يغمره الضوء، مع شرفة لاستقبال الزوار، مفتوحة على نسمات كانون الثاني. كانت في البيت، ست غرف نوم جيدة التهوية، مع سرير لكل واحد منا، وليس كل اثنين في سرير، كما هو الحال في السابق. وكانت هناك حلقات لتعليق أراجيح النوم على مستويات متعددة، حتى في الممرات. أما الفناء غير المسيج، فيمتد حتى الجبل، وفيه أشجار مثمرة متروكة تحت تصرف العموم، وحيوانات لنا وللآخرين، تتجول في الحجرات. ذلك أن أمي التي كانت تحن إلى أفنية طفولتها في بارانكيا وآراكاتاكا، تعاملت مع

البيت الجديد، كما لو أنه مزرعة، فيه دجاج وبط دون قن، وخنازير متهتكة تتسل إلى المطبخ لتأكل الأطعمة المعدة للغداء. وكان لا يزال بالإمكان، استغلال فصول الصيف للنوم والنوافذ مفتوحة، مع همهمة الربو التي يصدرها الدجاج من فوق المشاجب، ورائحة ثمار الغواناباتا الناضجة التي تسقط عن الأشجار عند الفجر، وتتفزر بفرقعة آنية وقوية. "تبدو كأنها أطفال"، هذا ماكانت تقوله أمي لدى سماعها. أما أبي، فقد قصر الاستشارات، في الفترة الصباحية، على قلة من المؤمنين بالطب التجانسي، وواصل قراءة أية ورقة مطبوعة تصل إليه، وهو مستلق في أرجوحة نوم يعلقها بين شجرتين. وأصيب بعدوى حمى التسلية بالبلياردو لتحمل كآبة الغروب. وكان قد تخلى كذلك، عن ارتداء ملابسه القطنية البيضاء وربطة العنق، وصار يمضي في الشارع، مثلما لم أره من قبل: بقمصان شبابية قصيرة الأكمام.

كانت الجدة ترانكيلينا إغوران قد ماتت قبل شهرين، عمياء وخرفة. وقد واصلت في صحو الاحتضار، الوعظ، بصوتها المشرق ونطقها السليم، معلنة أسرار الأسرة. وكان موضوعها الأبدي، حتى النفس الأخير، هو راتب الجد التقاعدي. هيأ أبي الجثة بعيدان الند الحافظة، وغطاها بالكلس داخل التابوت، من أجل تفسخ هادئ. لقد كانت لويسا سنتياغا تقدر على الدوام، شغف أمها بالورود الحمراء، فغرست لها حديقة منها في أقصى الفناء، كيلا تفتقدها أبداً، وهي في قبرها. وقد حققت تلك الورود بهاء رائعاً في تفتحها، حتى إن الوقت لم يعد يكفي لإرضاء الغرباء الذين يأتون من بعيد، متلهفين لمعرفة إذا ما كانت كل تلك الأزهار الباهرة، من شؤون الرب أم الشيطان.

تلك التبدلات في حياتي وفي أسلوبي، في العيش، كانت تستجيب للتبدلات التي طرأت على أسرتي. ففي كل زيارة، تبدو لي الأسرة مختلفة، بفعل إصلاحات وتحولات أبوي، وبسبب الأخوة الذين يولدون ويكبرون متشابهين جداً، إلى حد يسهل معه الخلط بينهم، أكثر من التعرف عليهم. فأخي خيمي، وكان في العاشرة من عمره، هو أكثر من تأخر في مفارقة الحضن الأمومي، بسبب وضعه كخديج. ولم تكد أمي تتوقف عن إرضاعه، حتى ولد هيرناندو (نانتشي). وبعد ثلاث سنوات من ذلك، ولد ألفريدو ريكاردو (كوكي). وسنة ونصف، بعدها، إليخيو (يويو)، الأخير، وكان خلال إجازتي تلك، قد بدأ باكتشاف معجزة الحبو.

وكنا نحصي كذلك، أبناء أبي قبل وبعد زواجه: كارمن روسا، في سان ماركوس، وآبيلاردو اللذان كانا يأتيان لقضاء فترات في سوكري؛ وخيرمان هاناي (إيمي) الذي تبنته أمي، كما لو كان ابنها، وسط رضى الأخوة. وأخيراً أنطونيو ماريا كلاريت (تونيو) الذي تربى في كنف أمه في سينثي، وكان يزورنا بكثرة. خمسة عشر ابناً في المحصلة، نأكل كأننا ثلاثون، عندما يكون هناك ما يؤكل، ونحن نجلس حيثما نستطيع.

الروايات التي صاغها أخوتي الكبار عن تلك السنوات، تقدم فكرة شاملة عما كان عليه البيت الذي لم تكن تنتهي فيه تربية ابن إلا ويأتي آخر. لقد كانت أمي نفسها واعية لذنبها، وكانت تتوسل إلى بناتها لكي يتولين أمر الصغار. وقد كانت مارغوت تموت رعباً عندما تكتشف أن أمها حبلى من جديد، لأنها تعرف أن الأم لن تجد، وحدها، الوقت الكافي لتربيتهم جميعاً. ولهذا رجت أمها بجدية مطلقة، قبل أن تذهب إلى المدرسة الداخلية في مونتيريا، بأن يكون الأخ التالي هو الأخير.

وقد وعدتها أمي بذلك، كالعادة، ولو لمجرد إرضائها، لأنها كانت واثقة من أن الرب، بحكمته الواسعة، سيحل المشكلة بأفضل طريقة ممكنة.

كانت الوجبات على المائدة كارثية، لأنه لم تكن هناك طريقة لجمع الكل معاً. فكانت أمي وأختي الكبيرتان تقدمان الطعام كلما حضر الآخرون، إلا أنه لم يكن مستغرباً أن يحضر أحدهم متأخراً بعد البدء بتناول الحلوى، ليطالب بوجبته. وخلال الليل يأخذ الصغار بالانتقال إلى سرير الوالدين، لأنهم لا يستطيعون النوم بسبب البرد أو الحر، بسبب ألم الأضراس أو الخوف من الموتى، بدافع حب الأبوين أو الغيرة من الآخرين. ويطلع الصباح عليهم جميعاً، متكومين في السرير الزوجي. وإذا لم يولد أحد بعد إليخيو، فإن الفضل في ذلك يعود إلى مارغوت التي فرضت سلطتها، بعد عودتها من المدرسة الداخلية، وجعلت أمي تنجز وعدها بعدم إنجاب مزيد من الأبناء.

لسوء الحظ، أن الواقع وجد متسعاً من الوقت ليفرض خططاً أخرى على شقيقتي الكبيرتين، فبقيتا عازبتين مدى الحياة. فقد انضمت عايدا، كما في الروايات الوردية، إلى دير، مصدرة على نفسها حكماً بالمؤبد، ولكنها تخلصت منه بعد اثنتين وعشرين سنة، بكل قانونية. وعندها لم تجد رافائيل نفسه، أو أي آخر سواه في متناول يدها. أما مارغوت، بطبعها الصلب، ففقدت رافائيلها بسبب خطأ من كليهما. وخلافاً لهذه السوابق الحزينة، تزوجت ريتا من أول رجل أعجبها، وعاشت سعيدة مع خمسة أبناء وتسعة أحفاد. أما الأختان الأخريان – ليخيا وإيمي – فتزوجتا ممن أرادتا، بعد أن تعب الأبوان من الصراع ضد الحياة الواقعية.

كانت كروب أسرتي تبدو كأنها جزء من الأزمة التي تعيشها البلاد، بفعل انعدام اليقين الاقتصادي، والنزف في العنف السياسي الذي وصل إلى سوكري، مثل موسم مشؤوم، ودخل البيت على رؤوس أصابعه، إنما بخطوات واثقة. كنا قد أكلنا آنذاك الاحتياطي الضئيل، وصرنا فقراء جداً مثلما كنا عليه في بارانكيا، قبل الرحيل إلى سوكري. ولكن أمي لم تشعر بالقلق، ليقينها المجرب بأن كل طفل يأتي إلى الدنيا وخبزه تحت إبطه. كان هذا هو وضع البيت، عندما أتيت من كارتاخينا، للنقاهة من الالتهاب الرئوي. غير أن الأسرة كانت قد تواطأت، منذ زمن، كيلا يظهر عليها ذلك.

الموضوع الذي كان يشغل الجميع، في القرية، هو العلاقة المزعومة بين صديقنا كايتانو خينتيلي ومعلمة مدرسة، في دسكرة تشابارال المجاورة؛ وهي فتاة جميلة، وضعها الاجتماعي مختلف عن وضعه. إلا أنها جدية جداً، ومن أسرة محترمة. لم يكن ذلك غريباً؛ فقد كان كايتانو صاحب غراميات متنقلة على الدوام، ليس في سوكري وحدها، وإنما كذلك، في كارتاخينا، حيث درس الثانوية وبدأ بدراسة الطب. ولكن، لم يكن يُعرف أن له خطيبة معينة في سوكري، ولا رفيقات مفضلات في حفلات الرقص.

في إحدى الليالي رأيناه آتياً من مزرعته، على متن أفضل جواد لديه. وكانت المعلمة تجلس على السرج، ممسكة الأعنة في قبضتها، وهو على ردف الحصان، محتضناً خصرها. لم نفاجأ بمدى الحميمية التي بلغاها، وإنما بجرأتهما في الدخول من ممر الساحة الرئيسية، في ساعة الحركة القصوى، وفي قرية سيئة الظنون. وقد أوضح كايتانو لمن رغب

في سماعه، بأنه وجدها عند باب مدرستها، بانتظار أحد يحسن إليها بإيصالها إلى القرية، في تلك الساعة من الليل. فنبهتُهُ مازحاً بأنه سيستيقظ، في صباح أحد الأيام، ليجد منشوراً على باب بيته، فهز كتفيه بحركة تميز بها، وأطلق دعابته المفضلة:

- لا يتجرؤون على عمل ذلك مع الأغنياء.

بالفعل، كانت موضة المنشورات قد اختفت فجأة، مثلما جاءت، وشاع الظن بأنها، ربما كانت عارضاً آخر، على سوء المزاج السياسي الذي يعصف بالبلاد. وعادت الطمأنينة إلى أحلام من كانوا يخشونها. ومع ذلك، فقد أحسستُ بعد أيام قليلة من مجيئي، بأن تغيراً قد طرأ تجاهي في مزاج بعض محازبي أبي، ممن اعتبروني كاتب مقالات معادية للحكومة المحافظة، نُشرت في جريدة الأونيفرسال. لم يكن ذلك صحيحاً. وإذا ما اضطررت، في بعض الأحيان، إلى كتابة تعليقات سياسية، فإنها كانت تنشر دوماً، دون توقيع، وتحت مسؤولية الإدارة، منذ أن تقرر إلغاء السؤال عما حدث في كارمن دي بوليفار. لقد كانت المقالات التي تحمل توقيعي، في عمودي اليومي، تكشف دون شك، عن موقف واضح، حيال حالة البلاد المتردية، وعار العنف والجور، إنما دون التزامات حزبية. وعملياً، لم أكن آنذاك، ولا في أي وقت آخر، عضواً في أي حزب. أثارت تلك الاتهامات ذعر أبوي، وبدأت أمي بإشعال الشموع للقديسين، خاصة عندما أتأخر، خارج البيت. فأحسست لأول مرة بأن جواً من التعسف يحيط بي، وقررت عدم الخروج من البيت، إلا في أضيق الحدود.

وكان أن حضر إلى عيادة أبي، في تلك الآونة، رجل مثير للدهشة،

يبدو كأنه شبح نفسه. له بشرة شفافة يظهر من خلالها، لون عظامه، وبطن منتفخ ومشدود مثل طبل. وكانت جملة واحدة قالها كافية لأن تحوله إلى شخص لا يمكنني نسيانه، مطلقاً، وإلى الأبد:

- إنني آت يا دكتور لكي تُخرج قرداً جعلوه ينمو في بطني.

وبعد أن قام أبي بفحصه، أدرك أن تلك الحالة ليست ضمن إمكانياته العلمية؛ فأرسله إلى زميل جراح، لم يجد القرد الذي ظن المريض أنه موجود، بل وجد مسخاً بلا شكل، غير أنه حي بذاته. ومع ذلك، فإن ما أثار اهتمامي ليس البهيمة التي في البطن، وإنما قصة المريض عن عالم لاسيربي السحري، وهو بلد أسطوري ضمن حدود سوكري نفسها، لا يمكن الوصول إليه إلا عبر مخاضات موحلة، يتصاعد منها البخار، حيث أشد الأمور عادية هو الانتقام، من إهانة، بسحر خبيث، مثل ذاك الذي ولّد مخلوقاً شيطانياً، في البطن.

وسكان لاسيربي هم كاثوليك مؤمنون. غير أنهم يعيشون الدين على طريقتهم، وبترتيلات سحرية خاصة لكل مناسبة. وهم يؤمنون بالرب، وبالعذراء، وبالثالوث المقدس، ولكنهم يمارسون عبادتهم من خلال أي شيء يرون أنه يكشف عن قدرات إلهية. وما يمكن أن يكون غير معقول في نظرهم، هو أن تبلغ عقلانية من نمت في بطنه دابة شيطانية، حد اللجوء إلى الاستعانة بهرطقة جراح.

وسرعان ما فُوجئت بأن الجميع، في سوكري، يعلمون بوجود لاسيربي، كحقيقة واقعة. ومشكلتها الوحيدة هي أن الوصول إليها يتم عبر كل أصناف العقبات الجغرافية والذهنية. ثم اكتشفت في اللحظة الأخيرة، وبالمصادفة، أن المعلم الضليع في موضوع لا سيربي، هو آنخل

كاسيخ الذي كنت قد رأيته آخر مرة، يغني ضمن فرقة موسيقية، في الحي الصيني، في بارانكابيرميخا، في رحلتي الثانية أو الثالثة، عبر نهر مجدلينا. وجدته أكثر تعقلاً مما كان عليه في تلك المرة، ولديه قصة مهلوسة عن رحلاته العديدة إلى لاسيربي. وقد عرفت عندئذ، كل ما يمكن معرفته عن المركيزيتا، مالكة وسيدة تلك المملكة الفسيحة، التي تعرف ترتيلات سرية من أجل فعل الخير والشر، أو من أجل إنهاض محتضر من فراشه، دون معرفة أي شيء عنه سوى وصف جسده، والمكان الدقيق الذي هو فيه، أو من أجل إرسال أفعى، عبر المستنقعات، تسبب الموت لعدو، بعد ستة أيام.

الشيء الوحيد المحجوب عنها، هو بعث الموتى، لأنها قدرة تخص الرب وحده. وقد عاشت كل السنوات التي شاءتها. ويعتقد أنها بلغت مئتين وثلاثاً وثلاثين سنة، ولكن دون أن تهرم يوماً واحداً، بعد بلوغها السادسة والستين. وقبل موتها، جمعت قطعانها الخرافية، وجعلتها تدور طوال يومين وليلتين، حول بيتها، إلى أن تشكل مستنقع لاسيربي، وهو بحر بلا حدود، تغطيه سجادة من شقائق النعمان الفوسفورية. ويقال إن في منتصفها، شجرة تحمل ثمار يقطين من الذهب، ويربط إلى جذعها زورق، يندفع مبحراً بمفرده في الثاني من تشرين الثاني، كل عام، وهو يوم الموتى، تحرسه تماسيح بيضاء، وحيات ذات جلاجل ذهبية، حتى الضفة الأخرى، حيث دفنت المركيزيتا ثورتها الهائلة غير المحدودة.

منذ أن روى لي آنخل كاسيخ هذه القصة الخيالية، بدأت أختنق باللهفة لزيارة فردوس لاسيربي الجانح في دنيا الواقع. جهزنا كل شيء: خيولاً محصنة بترتيلات معكوسة، زوارق غير مرئية، وخبراء ساحرين، وكل ما هو ضروري لكتابة تحقيق صحفي عن واقع خارق.

ومع ذلك، فقد بقيت البغال مسرجة تنتظر؛ إذ إن نقاهتي البطيئة من الالتهاب الرئوي، وسخريات الرفاق في حفلات الرقص، في الساحة، وعبر الأصدقاء الكبار المرعبة، اضطرتني إلى تأجيل الرحلة حتى موعد تال لم يحن قط. ومع ذلك، فإنني أتذكر ذلك الآن، كحدث حسن الطالع، لأنني بافتقاد المركيزيتا الخيالية، انغمست منذ اليوم التالي، بعمق، في كتابة روايتي الأولى، وهي التي لم يبق لي منها سوى العنوان: "البيت".

كانت الرواية تطمح إلى أن تكون دراما من حرب الألف يوم، في منطقة الكاريبي الكولومبية. وقد تحدثتُ عنها مع مانويل زاباتا أوليفيا، خلال زيارة سابقة إلى كارتاخينا. ففي تلك المناسبة، ودون أن تكون للأمر أي علاقة بمشروعي، أهدى إلي كتيباً كتبه أبوه عن محارب قديم ممن خاضوا تلك الحرب، فذكرتني صورته المطبوعة على الغلاف، بالسترة شبه العسكرية والشارب المحترق بالبارود، بجدي، بطريقة ما. لقد نسيت اسمه الأول، أما كنيته فظلت معي إلى أبد الآبدين: بوينديا. ولهذا فكرت في كتابة رواية بعنوان البيت، عن ملحمة أسرة، يمكن لها أن تتضمن الكثير من ملامح أسرتنا، خلال حرب الكولونيل نيكولاس ماركيز القاحلة.

كان العنوان يستند إلى النية في عدم خروج الأحداث مطلقاً، خارج البيت. كتبتُ عدة مطالع، ومخططات لشخصيات جزئية كنت أضع لها أسماءها الأسرية. وقد استخدمتها، فيما بعد، في كتب أخرى. إنني متحسس للضعف تجاه جملة، تنتهي كلمتان متقاربتان فيها، بالقافية نفسها، حتى ولو كانت قافية صوتية. وأفضل عدم نشرها ما لم أتمكن

من إيجاد حل لها. ولهذا السبب، كنت على وشك التخلي، في مرات كثيرة، عن كنية بويندبا، بسبب قافيتها التي لا مهرب منها مع صيغة الفعل الماضي الناقص. ومع ذلك، فقد فرض اللقب نفسه عليّ، لأني كنت قد توصلت إلى تكوين هوية مقنعة له.

لقد كنت مستغرقاً في هذا الأمر، عندما طلع الصباح في البيت، في سوكري، على صندوق خشبي بلا أي كتابة أو إشارة. وقد استلمته أختي مارغوت دون أن تدري ممن، مقتنعة بأنه بقية متأخرة من الصيدلية المباعة. وقد ظننت أنا الشيء نفسه، وتناولت الفطور مع الأسرة، وقلبي مستقر في مكانه. وأوضح أبي بأنه لم يفتح الصندوق لأنه فكر في أنه بقية أمتعتي، دون أن يتذكر أنه لم يبق لدي بقية من أي شيء في هذا العالم. وعندئذ قرر أخي غوستافو، وكان لديه، وهو في الثالثة عشرة، ما يكفي من الخبرة العملية لتسمير أي شيء أو انتزاع المسامير منه، أن يفتح الصندوق دون الحصول على إذن بذلك. وقد سمعنا بعد دقائق، صرخته:

– إنها كتب!

قفز قلبي، قبلي. وكانت بالفعل كتباً دون أي أثر يدل على المرسل، معلبة بيد خبيرة حتى حافة الصندوق، ومعها رسالة يصعب حل رموزها، بسبب خطها الهيروغليفي وغنائية خيرمان بارغاس المحكمة: "ها قد وصلتك هذه اللعنة يا معلم. فلتر إن كنت ستتعلم أخيراً". وكانت تحمل كذلك، توقيع ألفونسو فوينمايور، وخربشة عرفت أنها بخط دون رامون فينيس الذي لم أكن قد تعرفت عليه بعد. والشيء الوحيد الذي ينصحونني به هو عدم الإقدام على اقتراف أي انتحال يكون ملحوظاً

جداً. وكانت هناك، داخل كتاب لفوكنر، ملاحظة من ألفارو سيبيدا، بخطه العويص، وقد كُتبت فوق ذلك بأقصى سرعة؛ يخبرني فيها أنه سيسافر في الأسبوع التالي مدة سنة، لاتباع دورة خاصة في مدرسة الصحافة بجامعة كولومبيا في نيويورك.

كان أول ما فعلته هو عرض الكتب على منضدة غرفة الطعام، بينما كانت أمي ترفع بقايا الفطور. وكان عليها أن تتسلح بمكنسة، لإبعاد أبنائها الصغار الذين أرادوا قص الصور بمقص لتقليم الأشجار، والكلاب الشاردة التي راحت تتشمم الكتب، كأنها شيء يؤكل. وأنا أيضاً، كنت أشمها، مثلما أفعل دوماً بكل كتاب جديد. تصفحتها جميعها، دون تعيين، لأقرأ منها بانتباه فقرات متفرقة. بدلت مكاني ثلاث أو أربع مرات، في الليل، لأني لم أكن أجد الراحة أو لأن ضوء ممر الفناء الشاحب كان ينفد. واستيقظت، وقد أصبت بالتواء في ظهري، ودون أن تكون قد تشكلت لدي أدنى فكرة بعد، عن الفائدة التي يمكن لي أن أجنيها من تلك المعجزة.

كانت ثلاثة وعشرين عملاً مميزاً لمؤلفين معاصرين، كلها بالاسبانية، ومختارة بنية واضحة، وهي أن تُقرأ من أجل هدف وحيد: تعلم الكتابة. وبينها ترجمات حديثة جداً مثل "الصخب والعنف" لوليم فوكنر. لقد صار من المستحيل، بعد مرور خمسين سنة، أن أتذكر القائمة الكاملة. كما أن الأصدقاء الأبديين الثلاثة الذين يعرفونها، لم يعودوا هنا ليتذكروها. كنت قد قرأت اثنين منها فقط: السيدة دلووي للسيدة وولف، و"مباراة شعرية" لألدوس هاكسلي. والكتب التي أتذكرها أكثر من سواها، هي أعمال وليم فوكنر: البيت الريفي، والصخب والعنف،

وبينما أرقد محتضرة، والنخلات المتوحشات. وكذلك مانهاتن ترانسفير، وربما كتاب آخر لجون دوس باسوس؛ وأورلاند لفيرجينيا وولف؛ وفئران ورجال، وعناقيد الغضب لجون شتاينبيك، وصورة جيني لروبيرت ناثان، وطريق التبغ لإرسكين كالدويل. وبين العناوين التي لا أتذكرها عن مسافة نصف قرن، كان هناك، على الأقل، كتاب لهيمنغواي، ربما هو قصص قصيرة، لأنها كانت أكثر أعماله محطاً لإعجاب أصدقاء بارانكيا الثلاثة. وكتاب آخر لخورخي لويس بورخيس، لا شك في أنه كتاب قصص قصيرة أيضاً. وربما كتاب آخر لفيليسبيرتو هيرنانديث، القصاص الأرغوائي الوحيد الذي كان أصدقائي قد اكتشفوه للتو، بإعجاب. قرأتها جميعها في الشهور التالية. بعضها بصورة جيدة وأخرى أقل من ذلك. وبفضلها استطعت الخروج من الليمبوس الإبداعي الذي كنت عالقاً فيه.

مُنعت من التدخين، بسبب النزلة الصدرية. ولكنني كنت أدخن في الحمام، كما لو أنني أختبئ من نفسي. لاحظ الطبيب ذلك وكلمني بجدية. ولكنني لم أتمكن من الانصياع له. وعندما كنت في سوكري، بينما أنا أحاول أن أقرأ، دون هوادة، الكتب التي تلقيتها، كنت أشعل سيجارة من عقب أخرى، إلى أن لم أعد قادراً على المزيد. وكلما حاولت ترك التدخين، كنت أدخن أكثر. وصلت إلى تدخين أربع علب سجائر في اليوم. وكنت أقطع وجبات الطعام لكي أدخن، وأحرق ملاءات السرير لأنني أغفو، والسيجارة مشتعلة. وكان الخوف من الموت، يوقظني في أي ساعة من ساعات الليل، فلا أستطيع التغلب عليه إلا بمزيد من التدخين، إلى أن قررت أنني أفضل الموت على ترك التدخين.

بعد أكثر من عشرين سنة من ذلك، وكنت قد تزوجت وصار لي ابنان، واصلت التدخين. وحين رأى طبيب رئتي على الشاشة، قال لي مذعوراً إنني لن أتمكن من التنفس، بعد سنتين أو ثلاث سنوات. أصابني الرعب، وبلغ بي الأمر حد البقاء جالساً لساعات وساعات دون أن أفعل شيئاً آخر، لأنني لم أعد أستطيع القراءة، أو الاستماع إلى الموسيقى، أو تبادل الحديث مع الأصدقاء، أو الأعداء، دون تدخين. وفي إحدى الليالي، خلال عشاء عارض في برشلونة، كان طبيب نفساني صديق يشرح لآخرين أنه، ربما كان التدخين هو الإدمان الذي يصعب التخلص منه أكثر من سواه. فتجرأت على سؤاله عن السبب العميق وراء ذلك، فكان رده تبسيطاً يبعث على القشعريرة:

– لأن ترك التدخين سيكون بالنسبة لك، أشبه بقتل كائن عزيز.

ما حدث كان أشبه بتفجر بصيرة. لم أعرف السبب قط، ولم أشأ معرفته. لكنني سحقت، في المنفضة، السيجارة التي كنت قد أشعلتها للتو، ولم أعد للتدخين بعدها، بلا جزع ولا أسف، طوال ما تبقى من حياتي.

الإدمان الآخر، لم يكن أقل إلحاحاً. في مساء أحد الأيام، دخلت إحدى خادمات البيت المجاور. وبعد أن تكلمت إلى الجميع، جاءت إلى الشرفة. وباحترام كبير، طلبت مني الإذن بالتكلم معي. لم أقطع القراءة إلى أن سألتني:

– هل تتذكر ماتيلدي؟

لم أتذكر من تعني. لكنها لم تصدقني.

– لا تتظاهر بالغباء يا سيد غابيتو – قالت لي ذلك، بتفخيم واش، وأضافت: – إنها نيغرو–ما–تا.

والحقيقة أن نيغروماتا كانت حينئذ امرأة طليقة، لديها ابن من الشرطي الميت. وكانت تعيش بمفردها، مع أمها وآخرين من أسرتها في البيت نفسه، إنما في حجرة منعزلة، لها مخرج خاص يؤدي إلى طرف المقبرة. ذهبتُ لرؤيتها، وألح عليَّ اللقاء المتجدد مدة تزيد على الشهر. وكنت في كل مرة، أؤجل العودة إلى كارتاخينا، وأريد البقاء في سوكري إلى الأبد. حتى كان فجر يوم فاجأتني فيه، وأنا في بيتها، عاصفة رعود وبروق، مثل ليلة الروليت الروسي. حاولتُ الاحتماء تحت أفاريز البيوت، ولكنني عندما لم أعد أستطع ذلك، اندفعت إلى منتصف الشارع، حيث بلغ الماء ركبتي. وقد حالفني الحظ بوجود أمي وحدها في المطبخ، فأخذتني إلى غرفة النوم، عبر الحديقة، كيلا يعلم والدي بالأمر. وما إن انتهت من مساعدتي على خلع القميص المبلل، حتى أبعدته بمد ذراعها بعيداً، وهي تمسك به بالسبابة والإبهام، وألقت به إلى الركن بحركة قرف، وقالت:

- كنتَ مع الساقطة.

أصابني الجمود.

- وكيف تعرفين!

فقالت بهدوء أعصاب:

- لأنها الرائحة نفسها التي جئت بها في تلك المرة. لحسن الحظ أن الرجل قد مات.

فاجأني إظهارها تلك القسوة، لأول مرة في حياتها. ولا بد أنها لاحظت ذلك، لأنها عززت قولها، دون تفكير في الأمر:

- إنها الميتة الوحيدة التي أسعدتني، عندما علمت بها.

- وكيف عرفت من تكون!

فتنهدت:

- آي بني، الرب يخبرني بكل ما له علاقة بكم.

ساعدتني أخيراً على خلع البنطال المبلل، وألقت به إلى الركن، مع بقية الملابس. "جميعكم ستكونون مثل أبيكم". قالت لي ذلك فجأة بهمسة عميقة، بينما هي تمسح ظهري بمنشفة من القنب. وانتهت إلى القول من روحها:

- عسى أن يجعلكم الرب أزواجاً صالحين مثله.

لا بد أن الرعاية الدراماتيكية التي أخضعتني لها أمي قد أعطت أكلها في تحاشي عودة الالتهاب الرئوي. إلى أن انتبهت إلى أنها كانت تعقد تلك الرعاية دون سبب، لتمنعني من العودة إلى فراش رعود وبروق نيغراماتا. فلم أعد إلى رؤيتها قط.

رجعت إلى كارتاخينا مستعيداً عافيتي وسعيداً، وحاملاً خبر أنني أكتب "البيت". وكنت أتحدث عنها، كما لو أنها عمل ناجز، منذ أن كنت في فصلها الأولى. استقبلني ثابالا وهيكتور مثلما يستقبلان ابناً ضالاً. ويبدو أن أساتذتي الطيبين في الجامعة، قد استسلموا لتقبلي على ما أنا عليه. وواصلت في الوقت نفسه، كتابة تعليقات عارضة جداً، كانوا يدفعون مقابلها بالقطعة في الأونيفرسال. أما مسيرتي كقصاص، فتواصلت بالقليل الذي استطعت كتابته، من أجل إرضاء المعلم ثابالا تقريباً: "حوار المرآة" و"مرارة المسرنمين الثلاثة". نشرتا في الاسبكتادور. مع أنه كان يُلحظ فيهما تخففٌ من البلاغة الابتدائية التي تبدت في القصص الأربع السابقة، إلا أنني لم أستطع الخروج من المستنقع.

كانت كارتاخينا قد أصيبت آنذاك، بعدوى التوتر السياسي الذي يعم بقية أرجاء البلاد. وكان لا بد من اعتبار ذلك نبوءة شؤم، وإشارة إلى أن شيئاً خطيراً سيحدث. في أواخر تلك السنة، أعلن الليبراليون مقاطعتهم التامة للانتخابات، بسبب وحشية الاضطهاد السياسي، لكنهم لم يتخلوا عن مخططاتهم السرية لإسقاط الحكومة. اشتد العنف في الأرياف، فهرب الناس إلى المدن، لكن الرقابة كانت تجبر الصحافة على الكتابة الملتوية. ومع ذلك، فقد كان معروفاً للجميع، أن الليبراليين الملاحَقين قد شكلوا وحدات حرب عصابات في أماكن مختلفة من البلاد. ففي السهوب الشرقية – وهذه محيط فسيح من أعشاب خضراء يغطي أكثر من ربع مساحة التراب الوطني – صارت تلك الوحدات أسطورية. وكان ينظر إلى قائدها العام، غوادالوبي ساليدو، كشخصية خرافية، حتى من قبل الجيش. فكانت صوره توزع سراً، وتنسخ بالمئات وتضاء لها الشموع على المذابح.

كان الأخوة دي إسبريا يعرفون، كما يبدو، أكثر مما يقولونه، وكان الحديث داخل منطقة السور، يجري بصورة طبيعية عن انقلاب وشيك ضد النظام المحافظ. لم أكن أعرف أية تفاصيل. ولكن المعلم ثابالا نبهني إلى وجوب الحضور فوراً إلى الجريدة، إذا ما لاحظتُ وقوع أية اضطرابات في الشوارع. لقد كان التوتر شديداً إلى حد يمكن معه لمسه باليد. عندما دخلت، لإنجاز موعد في محل مثلجات أميركانا، في الساعة الثالثة، بعد الظهر. جلست أقرأ على منضدة معزولة، ريثما يأتي الشخص المنتظر. فقال لي أحد زملائي القدماء، وهو يمر، ولم أكن قد تحدثت معه في السياسة قط:

– اذهب إلى الجريدة، فالأمر على وشك الحدوث.

فعلت عكس ما قاله: كنت أريد أن أعرف كيف سيحدث ذلك في مركز المدينة بالذات، بدلاً من أن أحبس نفسي في قاعة التحرير. بعد دقائق من ذلك، جلس إلى طاولتي، ضابط من مكتب الصحافة الحكومي، وكنت أعرفه جيداً. ولم يخطر لي بأنهم كلفوه بتحييدي. تبادلت الحديث معه نحو نصف ساعة، بأقصى حالات البراءة. وعندما نهض لينصرف، اكتشفت أن صالة محل المثلجات الفسيحة قد أخليت بالكامل، دون أن ألحظ ذلك. تابع هو نظرتي في المكان، وتأكد من الوقت: الواحدة وعشر دقائق. ثم قال لي براحة مكبوتة:

– لا تقلق. لن يحدث أي شيء.

وبالفعل، فقد كان أبرز قادة الليبراليين، ممن أصابهم العنف الرسمي بالقنوط، قد اتفقوا مع عسكريين ديمقراطيين من أعلى المراتب، لوضع حد للمذبحة التي يقترفها، في كل أنحاء البلاد، النظام المحافظ المستعد للاحتفاظ بالسلطة بأي ثمن. كان معظمهم قد شارك في اتصالات التاسع من نيسان، من أجل التوصل إلى السلام، من خلال اتفاق أبرموه مع الرئيس أوسبينا بيريث. ولم يكد يمر عشرون شهراً على ذلك، حتى أدركوا، بعد فوات الأوان، أنهم كانوا ضحية خدعة هائلة. وهكذا، فإن العملية الانقلابية المحبطة التي كان مخططاً لها أن تتم في ذلك اليوم، صادق عليها رئيس الإدارة الليبرالية شخصياً، كارلوس ييراس ريستريبو، من خلال بلينيو ميندوثا نييرا الذي تربطه علاقات ممتازة بالقوات المسلحة، مذ كان وزيراً للحربية، في ظل الحكومة الليبرالية. وكان يتوجب بدء العملية التي نسقها ميندوثا نييرا، بالتعاون المتكتم

مع محازبين في كل أنحاء البلاد، في فجر ذلك اليوم، بقصف القصر الرئاسي بطائرات القوات الجوية. وكان التحرك يلقى دعم القاعدتين البحريتين في كارتاخينا وأبياي، ومعظم الحاميات العسكرية في البلاد، والمنظمات النقابية المصممة على تولي السلطة لإقامة حكومة مدنية تتولى المصالحة الوطنية.

بعد إخفاق العملية فقط، عُرف أن الرئيس السابق إدواردو سانتوس، كان قد جمع في بيته في بوغوتا، قبل يومين من الموعد المقرر، القادة الليبراليين وقادة الانقلاب من أجل مراجعة نهائية للمشروع. وفي أثناء المناقشة، وجه أحدهم السؤال التقليدي:

– هل ستحدث إراقة دماء؟

ولم يكن هناك أحد ساذج أو صفيق إلى حد القول: لا. وأوضح قادة آخرون بأنه تم اتخاذ أقصى الاحتياطات كيلا تكون هناك إراقة دماء، إلا أنه لا توجد وصفات سحرية للحيلولة دون حدوث ما هو غير متوقع. فأصدرت الإدارة الليبرالية، المرعوبة من مؤامرتها بالذات، الأوامر بإلغاء العملية. عدد كبير من المتراطئين الذين لم يُبلَّغوا بالأمر في الوقت المناسب، جرى اعتقالهم أو قتلهم أثناء المحاولة. ونصح آخرون ميندوثا بأن يواصل العملية وحده حتى الاستيلاء على السلطة. فأحجم عن فعل ذلك لأسباب أخلاقية أكثر منها سياسية. ولكن لم يتوفر له الوقت ولا الوسائل لإخبار جميع المشاركين بإلغاء العملية. وقد تمكن من اللجوء إلى سفارة فنزويلا. وعاش أربع سنوات منفياً في كاراكاس، بعيداً عن المجلس الحربي الذي حكم عليه غيابياً، بخمس وعشرين سنة سجناً بتهمة التمرد. والآن، بعد اثنين وخمسين سنة من

ذلك، لا يرتعش نبضي وأنا أكتب – دون إذن منه – بأنه أحس بالندم طوال ما تبقى من حياته، في منفاه في كاراكاس، بسبب حصيلة القتلى الذين حصدهم الحزب المحافظ وهو في السلطة: ليس أقل من ثلاثمئة ألف قتيل، خلال عشرين سنة.

لقد كانت لحظة حاسمة، بطريقة ما، بالنسبة لي أنا أيضاً. فقبل شهرين من ذلك، كنت قد تخليت عن دراستي لسنة الحقوق الثالثة، ووضعت حداً لالتزامي مع جريدة الأونيفرسال، لأنني لم ألمح لي مستقبلاً في أي منهما. وكانت الذريعة هي تحرير وقتي، من أجل كتابة الرواية التي لم أكد أبدأ بها، مع أنني كنت أعرف، في أعماق روحي، بأن ذلك لم يكن صدقاً ولا كذباً، وإنما تكشف لي مشروع الرواية، فجأة، على أنه صيغة بلاغية، فيها شيء قليل جداً من الجيد الذي استطعت استخلاصه من فوكنر، وكل ما هو سيئ من انعدام تجربتي. وسرعان ما تعلمت أن رواية قصص موازية للقصص التي يكتبها أحدنا – دون الكشف عن جوهرها – هو جزء ثمين التصور والكتابة. ولكن لم تكن هذه هي حالتي آنذاك، وإنما كان افتقاري إلى شيء محدد أعرضه، هو ما دفعني إلى اختلاق رواية محكية، ألهي بها المستمعين وأخدع نفسي.

أجبرني وعي ذلك، على إعادة التفكير في المشروع الذي لم يزد قط عن أربعين صفحة غير مؤكدة، من أقصاه إلى أقصاه. ومع ذلك، فقد ذُكر في مجلات وصحف – ومن قبلي أنا أيضاً –، بل نُشرت عنه، مسبقاً، بعض المقالات النقدية شديدة الرصانة، كتبها قراء واسعو المخيلة. أما توجهي نحو عادة رواية مشاريع موازية لما أكتبه، فلم يكن يستحق، في العمق، اللوم، وإنما الشفقة، لأنه يمكن لرعب الكتابة أن

يكون غير محتمل مثل رعب عدم الكتابة. يضاف إلى ذلك، في حالتي، أنني مقتنع بأن رواية القصة الحقيقية هو مجلبة لسوء الطالع. ومع ذلك، فإنني أجد العزاء في أنه يمكن للقصة المحكية، أن تكون أحياناً أفضل من المكتوبة، وأننا نقوم كذلك، دون أن ندري، باختراع جنس أدبي جديد يحتاج الأدب إليه: تخيل التخيل.

حقيقة الحقيقة هي أنني لم أكن أعرف كيف سأواصل العيش. نقاهتي في سوكري أفادتني في إدراك أنني لا أعرف أين أمضي في الحياة. غير أنها لم تمنحني إشارة لتوجه صائب، ولا حجة واحدة جديدة أقنع بها أبوي بأنهما لن يموتا إذا ما سمحت لنفسي بحرية اتخاذ القرار بنفسي. وهكذا ذهبت إلى بارانكيا، ومعي مئتا بيزو أعطتني إياها أمي قبل عودتي إلى كارتاخينا، مختلسة من الرصيد العائلي.

في الخامس عشر من كانون الأول ١٩٤٩، دخلتُ إلى مكتبة موندو، في الساعة الخامسة مساء، لأنتظر الأصدقاء الذين لم أعد لرؤيتهم، منذ ليلتنا في شهر أيار، عندما ذهبت مع السيد رازوري الذي لا يُنسى. لم أكن أحمل معي سوى حقيبة شاطئ، فيها غيار ملابس آخر، وبعض الكتب وحافظة الأوراق الجلدية التي تضم مسوداتي. بعد دقائق من وصولي جاؤوا جميعهم إلى المكتبة، واحداً بعد الآخر. وكان ترحيباً صاخباً لم يحضره ألفارو سيبيدا الذي كان لا يزال في نيويورك. وعندما اكتملت الجماعة، ذهبنا لتناول المقبلات. وكان تناولها قد تحول من مقهى كولومبيا المجاور للمكتبة، إلى فناء مسور يرتاده الأصدقاء المقربون على الرصيف المقابل: مقهى جابي.

لم تكن لي وجهة محددة، لا في تلك الليلة ولا في بقية حياتي.

والغريب أنني لم أفكر، قط، في أنه يمكن لتلك الوجهة أن تكون بارانكيا. وإذا كنتُ قد ذهبت إلى هناك، فإنما للتحدث في الأدب وحسب، وتقديم الشكر، بجسدي الحاضر، على إرسالية الكتب التي بعثوا بها، إليّ في سوكري. بالنسبة إلى الأمر الأول، توصلنا إلى فائض منه. أما الثاني فلا شيء، بالرغم من محاولاتي الكثيرة المتكررة، لأن الجماعة كانت تخاف خوفاً طقسياً من تقديم الشكر وتلقيه فيما بين أفرادها.

ارتجل خيرمان بارغاس في تلك الليلة، طعاماً لاثني عشر شخصاً، كان بينهم أناس من كل الأوساط، ابتداء من صحفيين ورسامين وموثقي عقود، حتى حاكم القطاع، وهو من المحافظين التقليديين في بارانكيا، له طريقته الخاصة في التمييز والحكم. وقد انسحب معظمهم بعيد منتصف الليل، وراح الآخرون ينصرفون فرادى، إلى أن لم يبق سوى ألفونسو وخيرمان وأنا، ومعنا الحاكم، وهو لا يزال يحافظ، إلى هذا الحد أو ذاك، على سلامة أحكامه، مثلما اعتدنا أن نكون عند الفجر في سن المراهقة.

وخلال تبادلنا الطويل للأحاديث في تلك الليلة، تلقيت درساً مفاجئاً، حول طريقة حكام المدينة في التصرف، في السنوات الدامية. فقد كان الحاكم يقدر أن أضعف الناس أملاً، وسط أضرار تلك السياسة الهمجية، هو عدد مثير للدهشة من اللاجئين في المدينة، يعيشون دون سقف ولا خبز. وانتهى إلى القول:

– إذا ما استمرت الحال على هذا النحو، فإن حزبي سيبقى، بقوة السلاح، دون خصم ينافسه في الانتخابات القادمة، وسيكون سيد البلاد المطلق.

الاستثناء الوحيد هو بارانكيا، فاستناداً إلى ثقافة تعايش سياسي ينتهجها المحافظون المحليون، تحولت المدينة إلى ملاذ آمن في قلب الإعصار. أردتُ أن أورد اعتراضاً أخلاقياً، إلا أنه أوقفني بحركة فظة من يده، وقال:

– المعذرة. هذا لا يعني أننا على هامش الحياة الوطنية. بل على العكس: بسبب ميولنا السلمية تحديداً، راحت مأساة البلاد الاجتماعية بالتسلل إلينا، على رؤوس أصابعها، من الباب الخلفي. وقد صارت موجودة عندنا الآن، هنا في الداخل.

وعرفتُ عندئذ، أن هناك حوالي خمسة آلاف لاجيء، آتين من المناطق الداخلية، في أسوأ حالات البؤس. وأنهم لا يعرفون كيف يعيدون تأهيلهم، ولا أين يخفونهم حتى لا تظهر المشكلة أمام الملأ. وللمرة الأولى في تاريخ المدينة، كانت هناك دوريات عسكرية تقوم بالحراسة في أماكن حساسة، وكان الجميع يرونها، ولكن الحكومة تنكر ذلك. وتمنع الرقابة كشفه في الصحافة.

عند الفجر، وبعد أن غادر السيد الحاكم، بما يشبه الجرجرة، ذهبنا إلى تشوب سويي، مكان فطور الناس المبكرين جداً. اشترى ألفونسو من الكشك الذي على الناصية، ثلاث نسخ من الهيرالدو. وكان في صفحة التعليقات الافتتاحية، ملاحظة بتوقيع "بوك"، وهو اسمه المستعار في مقاله اليومي. وكانت الملاحظة تحية لي وحسب. لكن خيرمان سخر منها، لأنها تقول إنني موجود هناك، في إجازة غير رسمية.

– كان من الأجدر، القول إنه سيبقى للعيش هنا، من أجل كتابة ملاحظة ترحيب، ثم أخرى بعد ذلك للوداع – قال خيرمان ساخراً، وأضاف:– فهذا أقل كلفة، لجريدة شديدة البخل مثل الهيرالدو.

وكان ألفونسو قد بدأ يفكر، جدياً، في أنه لن يكون من السيئ، ضم كاتب عمود آخر، إلى قسم التعليقات الافتتاحية الذي يُشرف عليه. ولكن خيرمان كان جامحاً على ضوء الفجر.

– سيكون خامس كتّاب الأعمدة، لأن لديكم أربعة.

لم يستطع أي منهما موقفي، مثلما كنتُ أرغب، لكي أقول لهما أجل. ولم يجر مزيد من الحديث في الأمر، ولم تكن ثمة حاجة لذلك، لأن ألفونسو أخبرني في تلك الليلة، بأنه تحدث مع إدارة الجريدة، وبدت لهم فكرة كاتب العمود الجديد مقبولة. ولكنهم لا يستطيعون البت في الأمر، على أي حال، قبل أعياد رأس السنة. وهكذا بقيتُ هناك بحجة الوظيفة، على الرغم من أنهم أبلغوني رفضهم، في شهر شباط.

الاستثناء الوحيد هو بارانكيّا، فاستناداً إلى ثقافة تعايش سياسي ينتهجها المحافظون المحليون، تحولت المدينة إلى ملاذ آمن في قلب الإعصار. أردتُ أن أورد اعتراضاً أخلاقياً، إلا أنه أوقفني بحركة فظة من يده، وقال:

– المعذرة. هذا لا يعني أننا على هامش الحياة الوطنية. بل على العكس: بسبب ميولنا السلمية تحديداً، راحت مأساة البلاد الاجتماعية بالتسلل إلينا، على رؤوس أصابعها، من الباب الخلفي. وقد صارت موجودة عندنا الآن، هنا في الداخل.

وعرفتُ عندئذ، أن هناك حوالي خمسة آلاف لاجيء، آتين من المناطق الداخلية، في أسوأ حالات البؤس. وأنهم لا يعرفون كيف يعيدون تأهيلهم، ولا أين يخفونهم حتى لا تظهر المشكلة أمام الملأ. وللمرة الأولى في تاريخ المدينة، كانت هناك دوريات عسكرية تقوم بالحراسة في أماكن حساسة، وكان الجميع يرونها، ولكن الحكومة تنكر ذلك. وتمنع الرقابة كشفه في الصحافة.

عند الفجر، وبعد أن غادر السيد الحاكم، بما يشبه الجرجرة، ذهبنا إلى تشوب سوبي، مكان فطور الناس المبكرين جداً. اشترى ألفونسو من الكشك الذي على الناصية، ثلاث نسخ من الهيرالدو. وكان في صفحة التعليقات الافتتاحية، ملاحظة بتوقيع "بوك"، وهو اسمه المستعار في مقاله اليومي. وكانت الملاحظة تحية لي وحسب. لكن خيرمان سخر منها، لأنها تقول إنني موجود هناك، في إجازة غير رسمية.

– كان من الأجدر، القول إنه سيبقى للعيش هنا، من أجل كتابة ملاحظة ترحيب، ثم أخرى بعد ذلك للوداع – قال خيرمان ساخراً، وأضاف: – فهذا أقل كلفة، لجريدة شديدة البخل مثل الهيرالدو.

وكان ألفونسو قد بدأ يفكر، جدياً، في أنه لن يكون من السيئ، ضم كاتب عمود آخر، إلى قسم التعليقات الافتتاحية الذي يُشرف عليه. ولكن خيرمان كان جامحاً على ضوء الفجر.

– سيكون خامس كتّاب الأعمدة، لأن لديكم أربعة.

لم يستطلع أي منهما موقفي، مثلما كنتُ أرغب، لكي أقول لهما أجل. ولم يجر مزيد من الحديث في الأمر، ولم تكن ثمة حاجة لذلك، لأن الفونسو أخبرني في تلك الليلة، بأنه تحدث مع إدارة الجريدة، وبدت لهم فكرة كاتب العمود الجديد مقبولة. ولكنهم لا يستطيعون البت في الأمر، على أي حال، قبل أعياد رأس السنة. وهكذا بقيتُ هناك بحجة الوظيفة، على الرغم من أنهم أبلغوني رفضهم، في شهر شباط.

٧

هكذا نُشرت مقالتي الأولى في صفحة الافتتاحيات بجريدة الهيرالدو في بارانكيا، يوم الخامس من كانون الثاني ١٩٥٠. لم أشأ توقيعها باسمي لكي أخرج سليماً، إذا ما عجزتُ عن إيجاد طريق للاستمرار، مثلما جرى لي في جريدة الأونيفرسال. ولم أتردد وأفكر مرتين، في اختيار الاسم المستعار الذي سأكتب به: "سيبتيموس"، المأخوذ من سيبتيموس وارنر سميث، شخصية فيرجينيا وولف المهووس في رواية السيدة دلووي. أما عنوان العمود - "الزرافة" - فكان لقباً سرياً، لا يعرفه أحد سواي، لرفيقتي الوحيدة في الرقص في حفلات سوكري.

بدا لي أن رياح كانون الثاني تهب في تلك السنة، أقوى منها في أي وقت آخر. حتى إن المرء يجد صعوبة في المشي بعكس اتجاهها، في الشوارع التي تضربها الرياح حتى الفجر. فكان موضوع الأحاديث عند الاستيقاظ، هو الأضرار التي سببتها الريح المجنونة خلال الليل، وما تذروه معها من أحلام وأقنان دجاج، وتحويلها ألواح توتياء السقوف إلى مقاصل طائرة.

إنني أفكر اليوم، في أن تلك الرياح المجنونة كانت تكنس بقايا

ماض قاحل، وتفتح لي أبواب حياة جديدة. لم تعد علاقتي بالجماعة متدفقة بتلقائية، وتحولت إلى تواطؤ مهني. في البدء كنا نناقش الموضوعات التي نفكر فيها، أو نتبادل ملاحظات ليس فيها شيء من الحذلقة، ولكنها من النوع الذي لا يُنسى. وقد كانت المناقشة الحاسمة، بالنسبة لي، هي التي جرت في صباح يوم دخلتُ فيه إلى مقهى جابي، بينما كان خيرمان بارغاس ينهي بصمت، قراءة "الزرافة" في قصاصة من صحيفة ذلك اليوم. وكان أفراد الجماعة الآخرون، حول المنضدة، ينتظرون حكمه، بنوع من الرعب التوقيري، يزيد دخان الصالة من كثافته. وعندما انتهى خيرمان من القراءة، وحتى دون أن ينظر إليّ، مزق القصاصة إلى نتف صغيرة، دون أن ينطق بكلمة واحدة، ونثرها بين قمامة أعقاب السجائر وأعواد الثقاب المحروقة في المنفضة. لم يقل أحد شيئاً، ولم يتبدل المزاج على المنضدة، ولم يجر التعليق على الحادث، في أي وقت آخر. ولكن الدرس ما زال ينفعني حتى الآن، كلما داهمني، بسبب الكسل أو التسرع، إغواء كتابة فقرة متسرعة، لكي أخرج من مأزق.

في فندق لانثي، الذي عشت فيه قرابة السنة، انتهى الأمر بأصحابه إلى معاملتي كفرد من الأسرة. كانت ثروتي الوحيدة آنذاك، هي صندلي التاريخي، وغياران من الملابس، أغسلهما تحت الدوش، عند الاستحمام، وحقيبة الجلد التي سرقتها من صالة الشاي الأكثر أبهة في بوغوتا، خلال أحداث التاسع من نيسان. كنتُ أحملها معي أينما ذهبت، وأضع فيها أصول ما أكتبه. وهي الأشياء الوحيدة التي يمكن لي أن أفقدها. ولم أكن لأجازف بتركها، ولو وراء سبعة أقفال، في صندوق

مصفح في أحد المصارف. والشخص الوحيد الذي كنتُ أأتمنه عليها في لياليّ الأولى، هو لاثيديس المتكتم، بواب الفندق الذي تقبلها مني كضمان لأجرة الغرفة. فقد ألقى نظرة ثاقبة على قصاصات الورق المكتوبة على الآلة الكاتبة، والمتشابكة بالتصحيحات، وخبأها في درج منضدة الكونتوار. افتديتها في اليوم التالي، في الساعة الموعودة، وواصلت دفع أجر الغرفة بصرامة. وكان يتقبل الحقيبة كرهن عن مبيتي مدة تصل إلى ثلاث ليال. وبلغ الأمر حد اتفاق جدي، إذ كنت أضعها أحياناً، على منضدة الكونتوار، دون أن أقول له شيئاً سوى طابت ليلتك، وأتناول بنفسي المفتاح، من لوحة المفاتيح، وأصعد إلى حجرتي.

كان خيرمان يتابع، على الدوام، حالات عوزي، حتى إنه كان يعرف إذا ما كنت لا أجد مكاناً أنام فيه، فيعطيني خفية، عندئذ، مبلغ البيزو والنصف من أجل دفع أجرة السرير. لم أدرِ، قط، كيف كان يعرف ذلك. وبفعل حسن سلوكي، كسبت ثقة العاملين في الفندق. حتى إن العاهرات الصغيرات كن يعرنني صابونهن الخاص، لأستحم. وفي موقع القيادة، كانت صاحبة الفندق وسيدته، كاتالينا الكبرى، بثدييها المهيبين ورأسها اليقطيني، هي التي تترأس الحياة فيه. أما فحلها، الخلاسي جوناس سان فيثنتي، فكان عازف ترومبون راقياً إلى أن تهشمت أسنانه المذهبة في عملية سطو تعرض لها، لسرقة تلبيسة أسنانه الذهبية. فاضطر إلى تغيير مهنته، بسبب تكسر فكه وفقدانه القدرة على النفخ. ولم يستطع العثور، لنبُوته ذي الست بوصات، على ما هو أفضل من سرير كاتالينا الكبرى الذهبي. وكانت هي نفسها تملك كذلك، كنزها الحميم الذي أفادها في الصعود، خلال سنتين، من ليالي المرفأ النهري البائسة، إلى

عرشها كأم كبرى. وقد حالفها الحظ بالتعرف على موهبة وأريحية المكانتين، من أجل إسعاد أصدقائها. ولكنهم لم يستطيعوا هناك، أن يفهموا قط، سبب افتقادي البيزو ونصف البيزو، لدفع أجرة الغرفة، على الرغم من أن أشخاصاً من علية الناس، يأتون لأخذي في سيارات ليموزين رسمية.

خطوة سعيدة أخرى في تلك الأيام، هي توصلي إلى أن أكون الريان المساعد الوحيد لمونو غيرا. وهو سائق سيارة تكسي شديد الشقرة إلى حد يبدو معه أنه أمهق، وبالغ الذكاء، واللطف إلى حد يمكن معه، للناس، أن يختاروه عضواً في المجلس البلدي، دون حملة انتخابية. كانت سهراته حتى الفجر في الحي الصيني، تبدو سينمائية، لأنه هو نفسه كان يتولى إثراءها - وجعلها جنونية أحياناً - بنزوات غير متوقعة. وعندما يرغب في أن يقضي ليلة على هواه، يخبرني بذلك، ونذهب لقضائها معاً في مواخير الحي الصيني المتردي، حيث تعلم آباؤنا وآباء آبائنا كيف يصنعوننا.

وسط حياة بمثل تلك البساطة، لم أعرف، قط، سبب غرقي المفاجئ في حالة فتور طارئة. فروايتي التي كنت أكتبها - البيت - بدت لي، بعد ستة شهور من البدء بها، مهزلة غير موفقة. وكان كلامي عنها أكثر مما أكتبه فيها. والحقيقة أن الشيء المتماسك القليل الذي توصلت إليه، هي المقطوعات التي نشرتها، قبل وبعد ذلك، في "الزرافة" وفي مجلة كرونيكا. كلما وجدت نفسي بلا موضوع أكتب عنه. في وحدة عطلات نهاية الأسبوع، عندما يلوذ الآخرون ببيوتهم، كنت أبقى وحيداً، أكثر مما هي عليه اليد اليسرى، في المدينة الخاوية. لقد كنت في حالة فقر

مدقع، وخجل طائر سماني. أحاول أن أعارض ذلك بعجرفة لا تطاق، وصراحة فظة. كنتُ أشعر بأنني فائض عن الحاجة في كل مكان. وكان بعض المعارف يُشعرونني بذلك. وبدا الأمر أشد حرجاً في قاعة تحرير الهيرالدو، حيث كنت أكتب أحياناً طوال عشر ساعات متواصلة، في ركن منعزل، دون أن أخالط أحداً. يلفني دخان السجائر الرخيصة التي أدخنها دون توقف، في عزلة بلا عزاء. كنت أكتب بأقصى سرعة، وفي أحيان كثيرة حتى الفجر، على شرائح ورق طباعة أحمله معي إلى كل مكان في حقيبتي الجلدية.

في واحدة من لحظات السهو الكثيرة في تلك الأيام، نسيت الحقيبة في سيارة تكسي، واعتبرت الأمر مزحة أخرى من مقالب سوء الطالع الذي يلاحقني. لم أقم بأي جهد لاستردادها. لكن ألفونسو فوينمايور، المذعور من تهاوني، حرر ونشر ملاحظة في نهاية زاويتي: "يوم السبت الماضي، نُسيت حافظة أوراق في سيارة أجرة عامة. ونظراً لأن صاحب حافظة الأوراق تلك، وكاتب هذه الزاوية هما، بالمصادفة، الشخص نفسه، فإنهما يشكران من يتلطف بالاتصال بأي واحد منهما. علماً أن حافظة الأوراق لا تحتوي أي شيء ذا قيمة على الإطلاق: وإنما زرافات غير منشورة وحسب". بعد يومين من ذلك، ترك أحدهم مسوداتي عند بواب الهيرالدو، ولكن دون الحقيبة، بعد أن صحح ثلاثة أخطاء إملائية فيها، بخط جميل جداً، وبحبر أخضر.

الأجر اليومي كان يكفيني، بالضبط، لدفع إيجار الغرفة. ولكن أقل ما كان يقلقني، في تلك الأيام، هو هاوية الفقر. وفي المرات الكثيرة التي لم أستطع فيها دفع أجرة الغرفة، كنت أذهب للقراءة في

مقهى روما، مثلما أنا في الواقع: متوحداً وهائماً على وجهي في ليل شارع بوليفار. كنتُ أوجه التحية، من بعيد، لأي شخص أعرفه، إذا ما تنازلتُ بالنظر إليه. وأواصل قدماً حتى مكاني المحجوز المعهود، حيث أظل أقرأ في بعض الأحيان إلى أن "تكشني" الشمس. فقد كنتُ ما أزال آنذاك، قارئاً نهماً، دون أي تكوين منهجي، وخاصة للشعر، بما في ذلك الشعر السيئ؛ لأنني في أسوأ لحظات انحطاط معنوياتي، كنت مقتنعاً بأن الشعر الرديء يؤدي، عاجلاً أو آجلاً، إلى الجيد.

كنتُ أبدو، في زاويتي "الزرافة"، متحمساً جداً للثقافة الشعبية، على خلاف قصصي القصيرة التي تبدو أشبه بأحجيات كافكاوية، يكتبها شخص لا يدري في أي بلاد يعيش. ومع ذلك، فإن حقيقة روحي هي أن مأساة كولومبيا كانت تصلني كما في رجع بعيد، ولا تستثيرني إلا عندما تطفح الأنهار بالدم. كنت أشعل سيجارة قبل أن أنهي السيجارة السابقة، وأعب الدخان بلهفة الحياة التي يعبّ بها المصابون بالربو الهواء، وكانت علب السجائر الثلاث التي أستهلكها، كل يوم، تظهر على أظفاري، وفي سعال الكلب العجوز الذي عكر سنوات شبابي. وباختصار، كنت خجولاً وكئيباً، مثل أي كاريبي طيب، وشديد الغيرة على حميميتي إلى حد الرد على أي سؤال عنها، بعبارة سفاهة بليغة. وكنت مقتنعاً من أن سوء طالعي خِلقي، ولا خلاص لي منه، خاصة مع النساء والنقود. ولكن ذلك لم يكن يهمني، لأنني كنت أؤمن بأني لا أحتاج إلى حسن الطالع كي أكتب بصورة جيدة. لم أكن أحفل بالمجد، ولا بالمال، ولا بالشيخوخة، لأني كنتُ واثقاً من أنني سأموت شاباً فتياً ومتشرداً في الشارع.

الرحلة مع أمي لبيع البيت في آراكاتاكا، أنقذتني من تلك الهاوية. وكشف لي يقين الرواية الجديدة، مستقبلاً مختلفاً. لقد كانت رحلة حاسمة بين الرحلات الكثيرة في حياتي، لأنها أثبتت لي بالتجربة، أن الكتاب الذي حاولت كتابته، ما هو إلا مجرد اختلاق بلاغي، ليس له أي استناد إلى حقيقة شعرية. وقد تفتت المشروع شظايا بالطبع، عند مواجهته بالواقع الذي تكشف لي في تلك الرحلة.

ما كان يمكن لنموذج ملحمة كالذي كنتُ أحلم به، أن يكون غير نموذج أسرتي بالذات، وهي أسرة لم تكن قط بطلة، أو حتى ضحية شيء محدد بعينه. وإنما مجرد شاهدة بلا فائدة، وضحية لكل شيء. بدأتُ بكتابتها منذ لحظة عودتي بالضبط، إذ لم يعد يفيدني، في شيء، الشغل بأدوات مصطنعة. وإنما الشحنة الانفعالية التي أجرجرها دون أن أدري، والتي انتظرتني سليمة في بيت الجدين. فمنذ خطواتي الأولى على رمال القرية الملتهبة، أدركتُ أن منهجي لم يكن هو الأكثر ملاءمة لرواية ذلك الفردوس الأرضي من الخراب والحنين، بالرغم من أنني أنفقت الكثير من الوقت والعمل، للعثور على المنهج الصحيح. ولم تكن مشاغل كرونيكا التي على وشك الصدور تشكل عائقاً، بل على العكس تماماً: لقد شكلت كابحاً للجزع.

وباستثناء ألفونسو فوينمايور - وقد فاجأني وأنا في حمى الإبداع، بعد ساعات من بدني الكتابة - ظل بقية أصدقائي يعتقدون، لوقت طويل، أنني ما زلت أواصل العمل في مشروع "البيت" القديم. فقررت أن أبقي الأمور على ذلك النحو، بسبب الخوف الطفولي من أن يُكتشف إخفاق فكرة كنت قد تكلمت عنها طويلاً، كما لو أنها عمل

خالد، ولكنني فعلت ذلك أيضاً، لاعتقاد خرافي ما زلت أؤمن به، بوجوب رواية قصة، وكتابة أخرى مختلفة كيلا يُعرف أي منهما هي الصحيحة. ولاسيما في المقابلات الصحفية، وهي في نهاية المطاف جنس تخييل خطير بالنسبة لكتاب خجولين لا يريدون أن يقولوا أكثر مما يجب عليهم قوله. ومع ذلك، لا بد أن خيرمان بارغاس قد اكتشف الأمر بفطنته الغريبة؛ فبعد شهور من سفر دون رامون إلى برشلونة، قال له في إحدى رسائله: "أظن أن غابيتو قد تخلى عن مشروع البيت. وهو منهمك الآن في رواية أخرى". وكان دون رامون يعرف ذلك بالطبع، قبل أن يغادر.

لقد كنت أشعر، منذ السطر الأول، بأنه لا بد للكتاب الجديد من أن يستند إلى ذكريات طفل في السابعة، ناج من مجزرة عام ١٩٢٨ العامة في منطقة الموز. ولكنني سرعان ما استبعدت ذلك، لأن القصة ستبقى محدودة ضمن وجهة نظر شخصية، ليس لديها ما يكفي من الموارد الشعرية لروايتها. وعندئذ وعيت أن مغامرتي بقراءة أوليسيس، وأنا في العشرين من عمري، ثم الصخب والعنف فيما بعد، كانت جرأة مبكرة بلا مستقبل؛ فقررت إعادة قراءتهما بنظرة أقل احتراساً. وبالفعل، فقد تكشف لي عندئذ، كثيرٌ مما بدا لي متحذلقاً ومغلقاً، عند جويس وفوكنر، عن جمال وبساطة جارفتين. فكرتُ في جعل المونولوج متعدد الأصوات، يشمل القرية كلها، مثل كورال إغريقي راوٍ، على طريقة بينما أرقد محتضرة، حيث تتوالى تأملات أسرة كاملة تحيط بمحتضرة. لم أتجرأ على تكرار أسلوبها البسيط في الإشارة إلى أسماء الأبطال، عند كل تكلم، مثلما في النصوص المسرحية. ولكنها أمدتني

بفكرة الاقتصار على استخدام ثلاثة أصوات، الجد والأم والطفل، يمكن لنبراتها ومصائرها المختلفة جداً، أن تحدد هوية المتكلم تلقائياً. والجد في الرواية لن يكون أعور مثل جدي، وإنما أعرج. وستكون الأم ذاهلة، ولكنها ذكية، مثل أمي. والطفل جامد، مرعوب ومتأمل، مثلما كنتُ وأنا في مثل سنه. لم يكن كل ذلك لقية إبداعية بأي حال، وإنما مجرد وسيلة تقنية.

لم يتعرض الكتاب الجديد لأي تغير معمق خلال كتابته، ولا لأي نسخة مختلفة عن الأصلية، باستثناء بعض الحذف والترقيع على امتداد سنين، قبل صدور طبعته الأولى، ربما بسبب إدماني عادة مواصلة التصحيح حتى الموت. أما القرية - وهي مختلفة تماماً عن تلك التي كانت لدي في المشروع السابق - فقد رأيتها رؤية العيان في الواقع، عند عودتي إلى آراكاتاكا مع أمي، غير أن هذا الاسم - مثلما نبهني دون رامون الحكيم جداً - بدا لي غير ملائم، مثله مثل بارانكيّا. وكان يخلو كذلك، من النفحة الأسطورية التي أبحث عنها للرواية. وهكذا قررت تسمية القرية بالاسم الذي كنت أعرفه، دون شك، منذ طفولتي؛ ولكن شحنته السحرية لم تتكشف لي حتى ذلك الحين: ماكوندو.

كان عليّ أن استبدل عنوان "البيت" - وهو مألوف جداً آنذاك بين أصدقائي - لأنه لا علاقة له بالمشروع الجديد. ولكنني اقترفت الخطأ بأن رحت أدون، على دفتر مدرسي، كل عنوان يخطر لي، بينما أنا أكتب. وقد تجمع لدي أكثر من ثمانين عنواناً. وأخيراً، وجدته دون أن أبحث عنه، في النسخة الأولى شبه المكتملة، عندما استسلمت لإلحاح كتابة مقدمة من المؤلف. لقد قفز العنوان في وجهي، كأكثر التسميات أنفة

وأكثرها إشفاقاً في الوقت نفسه، بين تلك التي أطلقتها جدتي، بما تبقى لديها من ترسبات أرستقراطية، على بقايا اليونايتد فروت كومباني: عاصفة الأوراق[1].

الكتّاب الذين حفزوني أكثر من غيرهم على كتابتها، هم الروائيون الأمريكيون، وخاصة أولئك الذين أرسل لي أعمالهم إلى سوكري، أصدقائي في بارانكيا. ولا سيما بسبب تشابهات من كل نوع كنت أجدها بين ثقافات أعماق الجنوب الأمريكي وثقافة الكاريبي التي أتوحد معها توحداً مطلقاً وجوهرياً وغير قابل للتبدل، في تكويني ككائن بشري وكاتب. مذ وعيت ذلك، بدأت أقرأ ككاتب حرفي حقيقي، ليس للمتعة فقط، وإنما بدافع فضول لا يرتوي إلى اكتشاف كيف كُتبت أعمال الحكماء تلك. قرأتها أولاً بصورة سوية، ثم بالمقلوب، وأخضعتها لنوع من نزع الأحشاء الجراحي، بغية التوغل في أشد أسرار بنائها خفية. وبالتوجه نفسه، لم تكن مكتبتي قط، سوى أداة عمل، حيث يمكنني أن أجد في الحال، فصلاً لدوستويفسكي، أو التأكد من معلومة حول صرع يوليوس قيصر أو حول آلية مُفحِّم سيارة. ولدي، فوق ذلك، مرجع في اقتراف الاغتيالات المحكمة، إذ قد يحتاج إليه أحد شخوصي المعوزين. أما ما عدا ذلك، فأنجزه أصدقائي الذين كانوا يوجهونني في قراءاتي، ويعيرونني الكتب التي عليّ قراءتها في الوقت المناسب، والذين قاموا بالقراءات القاسية لأصول كتبي قبل نشرها.

لقد أمدتني تلك النماذج بوعي جديد لنفسي بالذات. وانتهى

[1] عنوان الرواية في الأصل La hojarasca، أي الأوراق الذابلة المتساقطة، ولكن الرواية تُرجمت إلى العربية، وعرفت بعنوان "عاصفة الأوراق"، وهو عنوان موفق.

مشروع مجلة كرونيكا إلى منحى أجنحة. كانت معنوياتنا مرتفعة إلى حدّ توصلنا معه، على الرغم من العوائق الجسيمة، إلى امتلاك مكتب خاص بالمجلة، في طابق ثالث بلا مصعد، بين نداءات الباعة المتجولين والحافلات المتشابكة في شارع سان بلاس الذي كان مهرجاناً صاخباً، منذ الفجر حتى الساعة السابعة ليلاً. لم يكن المكتب يكاد يتسع لنا. ولم يكن فيه هاتف بعد، أما جهاز تكييف الهواء، فكان حلماً يمكن له أن يكلفنا أكثر من كلفة المجلة الأسبوعية. ولكن فوينمايور وجد الوقت الكافي لملء المكتب بموسوعاته المهلهلة، وقصاصاته من صحف بكل اللغات، ومراجعه الشهيرة حول مهن غريبة. وعلى منضدته كمدير، كان يقبع "تاريخ أندروود" الذي أنقذه، مجازفاً بحياته، من حريق في إحدى السفارات. وهو اليوم درة في متحف بارانكيا الرومانسي. أما المنضدة الوحيدة الأخرى، فكنتُ أشغلها أنا، وعليها آلة كاتبة مستعارة من الهيرالدو، بحكم منصبي اللامع كرئيس للتحرير. وكانت هناك طاولة رسم مخصصة لأليخاندرو أوبريغون، وأورلاندو غيرا، وألفونسو ميلو، ثلاثة رسامين مشهورين التزموا، وهم بكامل وعيهم، بوضع رسوم توضيحية للمساهمات الكتابية. وهذا ما فعلوه، أولاً بدافع من كرمهم الفطري، وأخيراً لأننا لم نكن نملك فلساً فائضاً لنا نحن بالذات. أما المصور الأكثر مواظبة وتضحية، فكان كيكي سكوبيل.

فضلاً عن عملي في التحرير المرتبط بمنصبي، كان علي أن أتابع، كذلك، عملية تنضيد المواد، ومساعدة مصحح التجارب، على الرغم من إملائي الهولندي. ولأنني حافظت على التزامي مع الهيرالدو، بمواصلة كتابة "الزرافة"، لم أجد متسعاً كبيراً من الوقت، للمشاركة في

مساهمات منتظمة في كرونيكا. ولكنني كنت أجد وقتاً مع ذلك، لكتابة قصصي القصيرة، في ساعات الفجر الميتة.

وضع ألفونسو، الخبير في كل الأجناس الكتابية، ثقل إيمانه في القصص البوليسية، وكان مولعاً بها إلى حد التعطش. فكان يترجمها أو ينتقبها، ثم أخضعها أنا إلى عملية تبسيط شكلية ستفيدني فيما بعد، في مهنتي. وكان ما أفعله يتلخص في الاقتصاد في المساحة، ليس فقط بحذف الكلمات غير الضرورية، وإنما كذلك، الأحداث الفائضة عن الحاجة، إلى أن تبقى القصة في جوهرها الخالص، دون الانتقاص من قدرتها على الإقناع. هذا يعني شطب كل ما يمكن أن يكون فائضاً عن الحاجة في جنس كتابي جائر، يتوجب على كل كلمة فيه أن تتكامل مع البناء كله. وقد كان ذلك من أكثر ممارساتي العملية فائدة في تحرياتي الموازية لتعلم تقنية حكاية قصة.

لقد أنقذتنا بعض أفضل قصص خوسيه فيلكس فوينمايور، عدة سبوت. ولكن تداول المجلة بقي راكداً. ومع ذلك، فإن خشبة النجاة الأبدية ظلت تتمثل في صلابة ألفونسو فوينمايور الذي لم يُعرف عنه قط، تمتعه بمزايا رجل مقاولات. وقد انكب على العمل في مؤسستنا بعناد يفوق قواه، كان هو نفسه يحاول كسره في كل خطوة، بحس سخريته الرهيب. لقد كان يقوم بكل شيء، ابتداء من كتابة أكثر الافتتاحيات بُعد نظر، حتى أقل الملاحظات فائدة، بالجلد نفسه الذي يسعى به إلى الحصول على إعلانات، وقروض لا تخطر على بال، وأعمال حصرية من كتّاب يصعب إقناعهم. ولكنها كانت معجزات قاحلة. وعندما يرجع الباعة بالكمية نفسها من النسخ التي تسلموها

للبيع، كنا نحاول التوزيع الشخصي في الحانات المفضلة، ابتداء من حانة الرجل الثالث، حتى حانات الميناء النهري المكفهرة، حيث كان علينا أن نتقاضى الفوائد القليلة عيناً، بمقادير من الكحول.

تبين أن أحد أكثر المساهمين مواظبة في الكتابة، والمقروء أكثر من الجميع دون ريب، هو فاتي أوسيو. فمنذ عدد كرونيكا الأول، كان أحد أكثر المواظبين. وقد انتهى عموده "يوميات كاتب آلي"، الموقع بالاسم المستعار دولي ميلو، إلى الاستحواذ على قلوب القراء. لم يكن هناك من يصدق أن كل تلك المهن قد مارسها، بكل ذلك اللطف، الرجل نفسه.

وكان يمكن لبوب بريتو، من جانبه، أن يمنع غرق كرونيكا بأي لقية طبية أو فنية من العصر الوسيط. إلا أنه في موضوع العمل، كانت له قاعدة تتميز بالشفافية: إذا لم تدفعوا، فلن أقدم نتاجاً. وبالطبع، سرعان ما لم يعد الدفع ممكناً، رغم حسرة أرواحنا.

ومن خوليو ماريو سانتودومنغو، توصلنا إلى نشر أربع قصص ألغاز كتبها بالإنكليزية. وكان ألفونسو يترجمها بلهفة صياد يعاسيب، في آجام معاجمه النادرة، ويزينها أليخاندرو أوبريغون برهافة رسام كبير. لكن خوليو ماريو كان كثير السفر، وفي اتجاهات كثيرة متناقضة. حتى صار شريكاً غير مرئي. وقد كان ألفونسو فوينمايور هو الوحيد الذي عرف أين يجده. وكشف لنا ذلك بجملة مثيرة للقلق:

– كلما أرى طائرة تمر، أفكر في أن خوليو ماريو سانتودومنغو موجود فيها.

أما بقية الكتّاب فكانوا مساهمين مؤقتين، يُبقون أرواحنا معلقة حتى لحظة إغلاق العدد، أو الدفع.

تقربت بوغوتا منا، كأنداد، ولكن لم يبذل أي من الأصدقاء النافعين جهوداً من أي نوع، لإبقاء أسبوعيتنا طافية. باستثناء خورخي ثالاميا الذي أدرك التشابه بين مجلته ومجلتنا، فاقترح علينا اتفاق تبادل للمواد، أعطى نتائج طيبة. إلا أنني أعتقد أن أحداً لم يقدر، في الواقع، ما الذي كانت تمثله كرونيكا من معجزة. كان مجلس التحرير مؤلفاً من ستة عشر عضواً، اخترناهم لمزايا كل واحد منهم المعترف بها. وجميعهم كانوا من لحم وعظم، ولكنهم متنفذون ومشغولون إلى حد يمكن الشك بوجودهم.

لقد كان لكرونيكا، بالنسبة لي، أهمية جانبية، في أنها أجبرتني على ارتجال قصص مستعجلة لملء فراغات طارئة عند إغلاق العدد. كنت أجلس إلى الآلة الكاتبة، بينما عمال اللينوتيب والإخراج يقومون بعملهم، فأخترع من العدم، قصة بحجم الفراغ المتبقي. على هذا النحو كتبت، "عن كيف قامت ناتانال بزيارة"، وحلّت لي مشكلة مستعجلة عند الفجر؛ وقصة "عينا الكلب الأزرق" بعد خمسة أسابيع من ذلك.

أول هاتين القصتين، كانت أصل سلسلة قصص بالشخصية الرئيسية نفسها. وقد أخذتُ اسمها، دون إذن، من أندريه جيد. وكتبتُ فيما بعد "نهاية ناتانال" لكي أحل مأساة أخرى، في اللحظة الأخيرة. وشكلت القصتان كلتاهما جزءاً من مشهد من ست قصص، أرشفتها دون ألم عندما أدركتُ أنه ليس لها أي علاقة بي. وأتذكر مما بقي منها، واحدة ليست لدي أي فكرة عن موضوعها، بعنوان: "عن كيف ارتدت ناتانال ملابس العروس". الشخصية لا تبدو لي اليوم شبيهة بأحد عرفته، ولم تكن تستند إلى معايشاتي الخاصة أو معايشات آخرين، ولا

يمكنني حتى أن أتصور كيف أمكن لقصة لي، أن تتناول مثل ذلك الموضوع الخاطئ جداً. لقد كانت ناتانال، في نهاية المطاف، مجازفة أدبية دون أية أهمية إنسانية. غير أنه من المناسب، تذكر تلك النكبات، كيلا ننسى أن الشخصية لا تُخلق من الصفر، مثلما أردت أن أفعل بناتانال. ولحسن الحظ، أن المخيلة لم تتح لي المضي بعيداً جداً عن نفسي. ولسوء الحظ، أنني كنتُ مقتنعاً كذلك، بأنه لا بد من أن يُدفع للعمل الأدبي أجر جيد، مثلما يُدفع لبنّاء الأجر. وإذا كنا ندفع جيداً، وفي الموعد المحدد، لعمال الطباعة، فأولى بنا أن ندفع كذلك، للكتّاب.

أفضل صدى كنا نتلقاه عن عملنا في كرونيكا، كان يأتي في رسائل دون رامون التي يرسلها إلى خيرمان بارغاس. لقد كان يهتم بأدنى الأخبار التي لا تخطر على بال، وبالأصدقاء، والأحداث في كولومبيا. وكان خيرمان يرسل إليه قصاصات من الصحف، ويروي له في رسائل لانهائية، الأخبار التي تمنعها الرقابة. هذا يعني أنه كان يتلقى كرونيكا مزدوجة: المجلة التي نحررها نحن، وتلك التي يلخصها له خيرمان في نهاية كل الأسبوع. وقد كانت تعليقات دون رامون المتحمسة أو القاسية حول مقالاتنا، هي تهمنا الأكثر.

بين الأسباب العديدة التي أرادوا أن يفسروا، من خلالها، عثرات كرونيكا، وحتى تردد الجماعة، عرفتُ مصادفة أن البعض يعزونها إلى سوء طالعي الخلقي والمعدي. وكدليل دامغ على ذلك، كانوا يذكرون تحقيقي الصحفي عن بيراسكوتشيا، لاعب كرة القدم البرازيلي، الذي أردنا المصالحة من خلاله، بين الرياضة والأدب في جنس كتابي جديد، وكان إخفاقاً مدوياً. عندما علمت بسمعتي الشنيعة، كان الأمر قد انتشر

بين زبائن مقهى جابي. فأقدمت، وقد وهنت عزيمتي حتى النخاع، على طرح الأمر مع خيرمان بارغاس؛ وكان مطلعاً على ما يقال، مثل بقية أفراد الجماعة، فقال لي دون أدنى تردد:

– اطمئن يا معلم. فكتابة مثل كتابتك، لا يمكن تفسيرها إلا بحسن طالع لا يمكن لأحد أن يهزمه.

لم تكن الليالي كلها سيئة. فليلة السابع والعشرين من تموز ١٩٥٠، في دار حفلات نيغرا إوفيميا، كان لها نوع من القيمة التاريخية في حياتي ككاتب. لا أدري لأي سبب، أمرت صاحبةُ المحل بطهي وجبة سانكوتشو ملحمية بأربعة أصناف من اللحوم. وقد ضاعفت الكروانات التي شوشتها الروائح الحادة، من نعيبها حول الموقد. فأمسك زبون هائج بعنق كروان منها، وألقى به حياً، في قدر الطبيخ الذي يغلي. لم يستطع الحيوان أن يطلق أكثر من صرخة ألم مع خفقة أخيرة من جناحيه، وغرق في أعماق الجحيم. حاول القاتل الهمجي أن يمسك كرواناً آخر، لكن نيغرا إوفيميا نهضت عن عرشها، بكل ما لديها من سلطة، وصرخت:

– يا للعنة! اهدؤوا، وإلا ستقلع الكروانات عيونكم!

لم يهتم أحد سواي بذلك، لأنني الوحيد الذي لم تتحمل روحه تذوق السانكوتشو المدنس. وبدلاً من أن أذهب للنوم، سارعت بالذهاب إلى مكتب كرونيكا، وكتبتُ في نفس واحد، قصة قصيرة عن ثلاثة زبائن في ماخور، تقتلع الكروانات عيونهم، ولا يصدق ذلك أحد. كان حجم القصة أربع صفحات من القطع الرسمي، وبفراغ مزدوج بين الأسطر. وكانت مروية بصيغة المتكلم المفرد، وهو في هذه المرة دون اسم. إنها

قصة ذات واقعية شفافة، وهي مع ذلك أكثر قصصي لغزية. وقد جعلتني أتوغل في اتجاه كنتُ أوشك أن أهجره، لأنني لم أعد قادراً على مواصلته. بدأتُ الكتابة في الساعة الرابعة فجراً، من يوم الجمعة، وانتهيتُ في الثامنة صباحاً، يعذبني انبهار عراف. وبتواطؤ منه من جانب بورفيريو مينديوثا، منضد الهيرالدو التاريخي، أعدت تنظيم مخطط طبعة كرونيكا التي ستوزع في اليوم التالي. وفي اللحظة الأخيرة، بينما أنا قانط من مقصلة إغلاق العدد، أمليت على بورفيريو العنوان النهائي الذي تمكنتُ، أخيراً، من العثور عليه. وقد كتبه هو مباشرة، بالرصاص المصهور: "ليلة الكروانات".

لقد كانت هذه القصة بالنسبة لي، بداية مرحلة جديدة، بعد تسع قصص لا تزال في الليمبوس الميتافيزيقي، وفي وقت لم يكن لدي فيه أي مشروع لمواصلة التقدم في جنس أدبي لم أستطع الإمساك به. أعاد خورخي ثالاميا نشر القصة، في الشهر التالي، في مجلة كريتيكا، وهي مجلة ممتازة للشعر الكبير. وقد عدت لقراءتها، بعد خمسين سنة من ذلك، قبل أن أكتب هذه الفقرة بالذات. وأظن أنني غير مستعد لاستبدال فاصلة واحدة منها. ووسط الفوضى التي كنت أعيش فيها دون بوصلة، كانت تلك القصة هي بداية ربيع.

أما البلاد، بالمقابل، فكانت تعيش في دوامة. فقد رجع لاوريانو غوميث من نيويورك، ليُعلن أنه المرشح المحافظ لرئاسة الجمهورية. امتنع الليبراليون عن خوض الانتخابات حيال سيطرة العنف، فاختير غوميث رئيساً في السابع من آب ١٩٥٠ . وبما أن الكونغرس كان مغلقاً، فقد تولى المنصب أمام محكمة العدل العليا.

لم يكد يمارس الحكم بجسده الحاضر، إذ أنه استقال من الرئاسة، بعد خمسة عشر شهراً، لأسباب صحية حقاً. وحلّ محله الحقوقي والبرلماني المحافظ روبيرتو أوردانيتا أربيلايز، بوصفه المسمى الأول لخلافة رئيس الجمهورية. وقد فسر الليبراليون ذلك، على أنه صيغة تليق تماماً بسلوك لاوريانو غوميث، إذ تتيح له ترك السلطة في أيدٍ أخرى، ولكن دون أن يفقدها، ويواصل الحكم من بيته عبر شخص وسيط. وعبر الهاتف، في الحالات المستعجلة.

أظن أن عودة ألفارو سيبيدا بشهادته من جامعة كولومبيا، قبل شهر من التضحية بالكروان، كانت حاسمة لتجاوز أقدار تلك الأيام المشؤومة. لقد عاد أقصر شعراً، ودون شاربه الذي كالفرشاة، وأكثر فظاظة مما كان عليه عند ذهابه. كنت أنا وخيرمان بارغاس ننتظره منذ عدة شهور، والخوف يتملكنا من أن يكونوا قد هدّؤوا طباعه في نيويورك. وكدنا نموت من الضحك عندما رأيناه ينزل مرتدياً سترة وربطة عنق، ويلوح محيياً من سلم الطائرة، برواية هيمنغواي حديثة الصدور: عبر النهر وبين الأشجار. انتزعت الكتاب من يديه، وداعبت حافتيه. وعندما أردت أن أسأله شيئاً، سبقني ألفارو إلى القول:

– إنه براز!

غصّ خيرمان بارغاس بالضحك، وهمس لي: "لقد رجع مثلما ذهب". ومع ذلك، فقد أوضح لنا ألفارو، بعد ذلك، أن حكمه على الكتاب مجرد مزاح، لأنه بدأ بقراءته، خلال الرحلة، من ميامي فقط. وما رفع معنوياتنا، على أي حال، أنه جاء حاملاً معه، بصخب أكثر من السابق، حصية الصحافة والسينما والأدب. وخلال الشهور التالية، بينما هو يستعيد التأقلم، كان يبقينا محمومين بأربعين درجة مئوية.

لقد كانت العدوى مباشرة؛ فزاويتي "الزرافة" التي كانت، منذ شهور، تدور حول نفسها، وتضرب خبط عشواء، بدأت تتنفس من مقطعين مستلين من مسودة "البيت". أحدهما "ابن الكولونيل" الذي لم يولد قط، والآخر "ني"، عن طفلة متهربة، طرقتُ بابها مرات كثيرة، بحثاً عن دروب مختلفة، ولم تجبني قط. واستعدت كذلك، اهتمام صباي بالرسوم المتسلسلة، ليس كتسلية ليوم الأحد، وإنما كجنس أدبي جديد محكوم عليه، دون مسوغ، بالبقاء في حجرة الأطفال. وكان بطلي، بين الأبطال الكثيرين، هو "ديك تراكي". واستعدت فضلاً عن ذلك، وكيف لا، ولعي بالسينما الذي غرسه فيّ الجدُ، وغذاه دون أنطونيو داكونتي في آراكاتاكا، وحوله ألفارو سيبيدا إلى شغف إنجيلي، في بلاد تُعرف فيها أفضل الأفلام، من خلال ما يرويه الرحالة. وكان من حسن الحظ، أن رجوعه توافق مع عرض فيلمين بارعين: Intruder in the Dust، من إخراج كلارنس براون عن رواية لوليم فوكنر، وصورة جيني، من إخراج وليم ديتيرل عن رواية لروبرت ناثان. وقد علقتُ على الفيلمين في "الزرافة"، بعد مناقشات مطولة مع ألفارو سيبيدا. وواظبت على الاهتمام، إلى أن بدأت أنظر إلى السينما برؤية جديدة. قبل أن أتعرف عليه، لم أكن أعرف أن اسم المخرج هو الأهم، مع أنه آخر من يظهر في "التيترات". فقد كانت السينما، في نظري، مجرد كتابة سيناريو وتحريك ممثلين. وما سوى ذلك ينجزه بقية أعضاء الفريق الكثيرين. عندما رجع ألفارو سيبيدا، قدم لي دورة تعليمية كاملة، عمادها الصراخ والروم الأبيض حتى الفجر، على موائد أسوأ الحانات؛ لكي يعلمني، بالضرب، ما علموه إياه في الولايات المتحدة، عن السينما. وكان يطلع علينا الفجر ونحن نحلم، مستيقظين، بصنع سينما في كولومبيا.

وما خلا هذه الانفجارات المضيئة، كان انطباعنا، نحن الأصدقاء الذين نتبع ألفارو في سرعة الطواف التي ينطلق بها، هو أنه لا يمتلك السكينة ليجلس ويكتب. ولا يمكن لنا، نحن الذين عايشناه عن قرب، أن نتصوره جالساً لأكثر من ساعة، إلى أي منضدة. ومع ذلك، بعد شهرين أو ثلاثة شهور من رجوعه، اتصلت بنا تيتا مانوتاس - خطيبته لسنوات طويلة، وزوجته مدى الحياة - مذعورة، لتخبرنا بأن ألفارو قد باع شاحنته الصغيرة التاريخية، وأنه نسي في محفظتها، أصول قصصه القصيرة غير المنشورة، والتي لا توجد نسخة أخرى منها. لم يبذل ألفارو أي جهد للبحث عنها، متعللاً بذريعة خاصة به تماماً، بأنها "ست أو سبع قصص برازية". انهمكنا، نحن الأصدقاء والمراسلين، في مساعدة تيتا في البحث عن الشاحنة التي أعيد بيعها، عدة مرات على امتداد ساحل الكاريبي والأراضي الداخلية حتى ميدلين. وأخيراً وجدناها في ورشة، في سينثيليخو، على بعد نحو مئتي كيلومتر. سلمنا الأصول المكتوبة على شرائح ورق طباعة، وكانت مجعدة وناقصة، إلى تيتا، خوفاً من أن يضيعها ألفارو مرة أخرى، سهواً أو عمداً.

نُشرت قصتان من تلك القصص في كرونيكا، واحتفظ خيرمان بارغاس بالأخريات بضع سنوات، ريثما يجد حلاً لنشرها. وقامت الرسامة سيسليا بوراس، الوفية للجماعة دوماً، بتزيينها برسوم ملهمة، هي صورة شعاعية لألفارو، مرتدياً كل ما هو ممكن في آن واحد: زي سائق شاحنة، مهرج مهرجان، شاعر مجنون، طالب في جامعة كولومبيا أو أي مهنة أخرى، باستثناء إظهاره كرجل عادي وسوي. وقد تولت مكتبة "موندو" نشر الكتاب بعنوان جميعنا كنا بالانتظار. وكان حدثاً

أدبياً، لم يتجاهله سوى النقد الأكاديمي وحده. وقد كان في نظري - وهو ما كتبته آنذاك - أفضل كتاب قصص قصيرة، يُنشر في كولومبيا، حتى ذلك الحين.

أما ألفونسو فوينمايور، من جانبه، فكان كاتب تعليقات نقدية، ومعلم أدب في الصحف والمجلات. ولكنه يخجل كثيراً من جمع كتاباته تلك، في كتاب. وكان قارئاً استثنائياً في نهمه الذي يكاد لا يقارن إلا بنهم ألفارو موتيس أو إدواردو ثالاميا. وقد كان هو وخيرمان بارغاس، ناقدين بارعين، لا سيما في نقد قصصهما أكثر من نقد قصص الآخرين. ولكن نزوتهما في العثور على قيم أدبية شابة، لم تخطئ التوجه قط. كان ذلك في الربيع الذي سرت فيه شائعة ملحة بأن خيرمان يتأخر في السهر، وأنه يكتب قصصاً بارعة. غير أنه لم يُعرف شيء عنها إلا بعد سنوات طويلة، عندما حبس نفسه في غرفة نومه، في بيت أبويه، وأحرق تلك القصص، قبل ساعات من زواجه من اشبيتني سوزانا ليناريس، ليتأكد من أن أحداً، بمن في ذلك هي نفسها، لن يتمكن من قراءتها. ويُعتقد أنها كانت قصصاً قصيرة ودراسات، وربما مسودة رواية، لكن خيرمان لم يقل قط، كلمة واحدة عنها، لا قبل ولا بعد. وعشية زفافه فقط، اتخذ الاحتياطات المشؤومة كيلا يعرف أحد شيئاً عنها، بمن في ذلك المرأة التي ستصير زوجته، منذ اليوم التالي. لقد انتبهت سوزانا إلى ما يفعله، ولكنها لم تدخل الغرفة لمنعه، لأن حماتها ما كانت لتسمح لها بذلك. وقد قالت لي سوزي بعد سنوات، بمزاح متهور: "لم يكن بإمكان الخطيبة، في تلك الأزمنة، أن تدخل، قبل الزفاف، إلى غرفة نوم خطيبها".

لم تكن قد انقضت سنة، عندما بدأت رسائل دون رامون تصير أقل وضوحاً، وأشد كآبة وندرة. دخلتُ إلى مكتبة موندو، يوم السابع من أيار ١٩٥٢، في الثانية عشرة ظهراً، ولم يكن على خيرمان أن يقول لي شيئاً لأعرف أن دون رامون قد مات، قبل يومين من ذلك، في برشلونة أحلامه. وكان تعليقنا الوحيد، مع توالي وصولنا إلى المقهى عند الظهيرة، هو تعليق الجميع:

– يا للخسارة!

لم أكن واعياً، آنذاك، أنني أعيش سنة مختلفة من حياتي. ولم يعد لدي شك اليوم، في أنها كانت سنة حاسمة. لقد قنعت حتى ذلك الحين، بمظهري المهمل. كنتُ محبوباً ومحترماً من كثيرين، وألقى تقدير البعض، في مدينة يعيش كل امرئ فيها على طريقته وهواه. وكنت أمارس حياة اجتماعية مكثفة، وأشارك في مناظرات فنية واجتماعية بصندل الحاج الذي أنتعله، والذي بدا كما لو أنه اشتُرِيَ لمحاكاة ألفارو سيبيدا. ولم يكن لديّ سوى بنطال واحد من الكتان، وقميصين أغسلهما تحت الدوش، أثناء الاستحمام.

وبين ليلة وضحاها، لأسباب متعددة – بعضها بالغ الابتذال – بدأت ملابسي تتحسن. وقصصتُ شعري كالمجندين، وشذبت شاربي وجعلته رفيعاً، وتعلمت انتعال حذاء سيناتور أهداه إليّ الدكتور رافائيل مارياغا، رفيق طريق للشلة، ومؤرخ المدينة، لأنه كبير على مقاس قدميه. وبفعل دينامية وصولية غير واعية، بدأت أشعر بأني أختنق من الحر، في حجرة الفندق الذي أسميناه "ناطحة السحاب"، كما لو أن آراكاتاكا موجودة في سيبيريا، وأعاني من زبائن الفندق العابرين الذين

يتكلمون بصوت عالٍ، عند استيقاظهم. ولا أكفُّ من التذمر لأن عصفورات الليل يواصلن اقتياد زمر كاملة من بحارة المياه العذبة، إلى حجراتهن.

وأنا أدرك اليوم، أن مظهري كمتسول، لم يكن بسبب فقري أو لكوني شاعراً، وإنما لأن طاقاتي كانت مركزة بعمق، على الإصرار على تعلم الكتابة. وما إن لمحت الطريق الصحيح، حتى هجرت "ناطحة السحاب" وانتقلت إلى حي برادو الهادئ، في الجانب الأقصى الآخر، عمرانياً واجتماعياً، على بعد كوادرتين من بيت ميرا ديلمار، وعلى مسافة خمس كوادرات من الفندق التاريخي، حيث يرقص أبناء الأغنياء مع حبيباتهم العذراوات، بعد قداس يوم الأحد. أو أنني، مثلما قال خيرمان: بدأت أتحسن إلى الأسوأ.

سكنت في بيت الأخوات آبيلا – إستير، ومايتو، وتونيا –، وكنتُ قد تعرفتُ عليهن في سوكري. وكن منهمكات منذ زمن، في محاولة إنقاذي من الضياع. وبدلاً من حجيرة الكرتون التي فقدت فيها الكثير من حراشف المخنث المدلل، صار لي حينئذ، غرفة نوم خاصة بي، لها حمام خاص ونافذة مطلة على الحديقة، مع تقديم الوجبات اليومية الثلاث، مقابل أجر يزيد قليلاً عن راتبي. اشتريت بنطالاً ونصف دزينة من القمصان التروبيكالية المزينة برسوم أزهار وطيور، استحققت عليها، لبعض الوقت، سمعة سرية بأنني مخنث سفينة. وبدأت ألتقي عندئذ، في كل مكان، بأصدقاء قدماء، لم يكونوا يصادفونني في أي مكان من قبل. واكتشفتُ ببهجة أنهم يحفظون، عن ظهر قلب، حماقات "الزرافة"، وأنهم متعصبون لمجلة كرونيكا بسبب ما يسمونه، هم، كبرياءها

الرياضي. بل إنهم كانوا يقرؤون قصصي كذلك، دون أن يتمكنوا من فهمها. وجدت ريكاردو غونثالث ريبول، جاري في قاعة النوم في المعهد الوطني، وكان قد استقر في بارانكيا بشهادته كمهندس معماري. وخلال أقل من سنة، حلّ شؤون الحياة، باقتنائه سيارة شيفروليه "ذيل البطة"، ذات عمر غير محدد. وكان يحشر فيها، عند الفجر، حتى ثمانية ركاب. وقد اعتاد أن يأتي ليأخذني من البيت، في بداية الليل، ثلاث مرات كل أسبوع، كي نذهب للسهر مع أصدقاء جدد مهووسين في تقويم حال البلاد، بعضهم بصبغ السحر السياسي، وآخرون بتبادل اللكمات مع الشرطة.

عندما علمت أمي بأمر هذه المستجدات، أرسلت لي رسالة شفهية تعبر تماماً عن شخصيتها: "المال يستدعي المال". أما جماعة الشلة، فلم أخبرهم بأي شيء، عن انتقالي، إلى أن وجدتهم في إحدى الليالي، حول المنضدة، في مقهى جابي، فأمسكت بصيغة لوبي دي بيغا البارعة: "ورتبت نفسي، بما يلائم ترتيبي لفوضاي". ولست أتذكر صفير استهجان مماثلاً حتى في ستاد كرة القدم. وقد راهن خيرمان على أنني لن أستطيع وضع تصور لأي فكرة، بعيداً عن "ناطحة السحاب". ورأى ألفارو أنني لن أحتمل مغص ثلاث وجبات يومية في موعدها الدقيق. وعلى خلافهما، احتج ألفونسو إساءة تدخلهما في حياتي الخاصة، واستبعد الموضوع بفتح جدال عن الحاجة الملحة إلى اتخاذ قرارات جذرية بشأن كرونيكا. أظنهم كانوا يشعرون، في أعماقهم، بأنهم مذنبون بشأن فوضاي، ولكنهم كانوا على درجة من الوقار لا تتيح لهم أن يشكروني على قراري بإطلاق زفرة راحة.

وخلافاً لما يمكن توقعه، فإن حالتي الصحية والمعنوية قد تحسنت. صرت أقرأ أقل، بسبب ضيق وقتي. ولكنني رفعت من نبرة "الزرافة"، وأجبرت نفسي على مواصلة كتابة عاصفة الأوراق في غرفتي الجديدة، مستخدماً الآلة الكاتبة الحجرية التي أعارتني إياها ألفونسو فوينمايور، خلال ساعات الفجر التي كنتُ أبددها من قبل مع مونو غيرا. وصرت قادراً، في مساء عادي، في الجريدة، على كتابة "الزرافة"، وتعليق افتتاحي، وبعض الأخبار الكثيرة التي تُنشر دون توقيع، وتكثيف قصة بوليسية، وكتابة ملاحظات اللحظة الأخيرة من أجل إغلاق تحرير كرونيكا. ولحسن الحظ، أن الرواية التي كنت أكتبها، بدلاً من أن تصبح أسهل مع الأيام، راحت تفرض عليّ رؤاها الخاصة المخالفة لوجهات نظري. وكنت ساذجاً إلى حد فهمت معه ذلك، على أنه أمارة رياح مواتية.

كانت همتي متوثبة، حتى إنني ارتجلت بصورة مستعجلة، قصتي القصيرة العاشرة - "أحدهم يُفسد ترتيب هذه الأزهار" -، لأن المعلق السياسي الذي حجزنا له ثلاث صفحات من كرونيكا، من أجل مقال اللحظة الأخيرة، أصيب بنوبة قلبية خطرة. وعندما قمت بتصحيح تجارب قصتي المطبوعة فقط، انتبهت إلى أنها دراما ساكنة أخرى، من تلك التي كنت أكتبها، دون أن ألاحظ ذلك. وقد أدى هذا التناقض إلى زيادة حدة تأنيب ضميري، لأنني أيقظت صديقاً قبيل منتصف الليل، لكي يكتب لي المقال، خلال أقل من ثلاث ساعات. بهذه الحالة المعنوية من الندم، كتبت القصة في الوقت نفسه. وعدت يوم الاثنين، في اجتماع هيئة التحرير، إلى طرح مسألة الضرورة الملحة لخروجنا إلى الشارع، من

أجل إخراج المجلة من ركودها، بريبورتاجات صدامية. ومع ذلك، فإن الفكرة - وهي فكرة الجميع - رُفضت مرة أخرى، بالحجة المفضلة لسعادتي: إذا ما خرجنا إلى الشارع، بمفهومنا الغنائي المثالي عن الريبورتاج، فإن المجلة لن تصدر في موعدها - إذا صدرت -. وكان عليّ أن أفهم ذلك على أنه ثناء. غير أني لم أستطع أن أتجاوز، قط الفكرة الخبيثة بأن السبب الحقيقي هو الذكرى المشؤومة لتحقيقي الصحفي عن بيراسكوتشيا.

وكان العزاء الطيب في تلك الأيام، هو المكالمة الهاتفية التي تلقيتها من رافائيل إسكالونا، مؤلف الأغنيات التي كانت تُغنى، وما زالت تغنى، في هذا الجانب من العالم. لقد كانت بارانكيًا مركزاً حيوياً، لكثرة ما يتردد عليها عازفو الأكورديون البارعون الذين كنا نعرفهم في حفلات آراكاتاكا، ولسعة انتشارهم في إذاعات ساحل الكاريبي. وكان غييرمو بويتراغو، أحد المغنين المعروفين جداً آنذاك، يتباهى بأنه يطلع أولاً بأول، على مستجدات بروفينثيا. وكان هناك مغن آخر واسع الشعبية يدعى كريسنثيو سالسيدو، وهو هندي حافٍ، اعتاد الوقوف عند ناصية محل أميركانا للمأكولات الخفيفة، ليغني، دون أي مرافقة موسيقية، حصاد أغنياته وأغنيات آخرين، بصوت فيه شيء من الصفيح، إنما بفن خاص تفرد به، وفرضه على الجموع اليومية في شارع سان بلاس. وقد أمضيت شطراً لا بأس به من شبابي المبكر، واقفاً إلى جانبه، حتى دون أن أحييه، ودون أن أجعله يراني، إلى أن أحفظ عن ظهر قلب، أغنيات الجميع التي يغنيها.

وقد بلغتُ ذروة ذلك الشغف، في مساء يوم قائظ، قاطعني فيه

الهاتف، بينما أنا أكتب "الزرافة"، وحياني صوت، مثل أصوات كثيرين من أصدقاء طفولتي، دون العبارات والصيغ المتداولة:

- ما أخبارك يا أخي. أنا رافائيل إسكالونا.

بعد خمس دقائق، التقينا في مقهى روما لنبدأ صداقة ستستمر مدى الحياة. ما إن انتهينا من تبادل التحية، حتى بدأتُ بمحاصرة إسكالونا لكي يغني لي أغنياته الأخيرة. وقد غنى أبياتاً متفرقة منها، بصوت خافت جداً وموزون بدقة، رافقه بالقرع بأصابعه على المائدة. كان شعر منطقتنا الشعبي يخطر بزي جديد في كل مقطع يغنيه. وقد غنى: "سأقدم لك باقة من أزهار (لا تنسيني) لتعملي بمعناها". وبينت له أنا من جهتي، أنني أعرف، عن ظهر قلب، أفضل أغنيات منطقته، وأنني التقطتها منذ طفولتي المبكرة من نهر التقاليد الشفوية الصاخب. لكن أكثر ما فاجأه، هو أنني أتكلم عن بروفينثيا، وكأنني أعرفها.

قبل أيام من ذلك، كان إسكالونا قد سافر بالحافلة، من بيّانويفا إلى بايِّدوبار، بينما هو يؤلف، ذهنياً، موسيقى وكلمات أغنية جديدة من أجل الكرنفال، في يوم الأحد التالي. كان ذلك هو منهجه البارع، لأنه لم يكن يعرف كيفية كتابة الموسيقى، ولا العزف على أية آلة موسيقية. وفي إحدى قرى الطريق، صعد إلى الحافلة مغني تروبادور جوال، ينتعل صندلاً جلدياً ويحمل أكورديوناً. واحدٌ من أولئك المغنين الذين كانوا يجوبون المنطقة للغناء، متنقلين من مهرجان شعبي إلى آخر. أجلسه إسكالونا إلى جانبه، وغنى له بصوت هامس، المقطعين الناجزين من أغنيته الجديدة.

نزل العازف سعيداً في بيّانويفا، بينما واصل إسكالونا طريقه في

الحافلة إلى بايِّدوبار، حيث اضطر إلى النوم ليتعرق حمى الأربعين درجة التي سببها له رشح عادي. وبعد ثلاثة أيام من ذلك، كان يوم أحد الكرنفال، فكنست أغنية إسكالونا، غير المكتملة التي غناها، همساً، للصديق الطارئ، كل الموسيقى القديمة والجديدة، من بايِّدوبار حتى رأس لابيلا. ولم يعرف أحد سواه، من الذي نشر الأغنية، بينما هو يتعرق حمى كرنفاله، ومن هو الذي وضع لها اسم: "سارة العجوز".

القصة صحيحة، ولكنها ليست غريبة ولا نادرة، في تلك المنطقة وفي أوساط نقابة المغنين تلك، حيث العجيب المدهش هو أكثر الأمور طبيعية. فالأكورديون الذي لا يعتبر آلة موسيقية خاصة بكولومبيا أو شائعة فيها، يتمتع بشعبية واسعة في مقاطعة بايِّدوبار. وربما يكون قد جيء به إليها من جزيرتي آروبة أو كوراساو. وخلال الحرب العالمية الثانية، توقف الاستيراد من ألمانيا، وبقيت الأكورديونات التي في المقاطعة على قيد الحياة، بفضل عناية أصحابها المحليين بها. وكان أحدهم لياندرو ديات، وهو نجار لم يكن مؤلف موسيقى، عبقرياً، ومعلم أكورديون وحسب، وإنما الوحيد الذي عرف كيف يصلح تلك الآلات، طوال فترة الحرب، على الرغم من أنه كان أعمى منذ الولادة. لقد كان أسلوب حياة أولئك العازفين المتجولين، هو التنقل من قرية إلى قرية، وغناء أحداث ووقائع قصص الحياة اليومية الظريفة والعادية، في حفلات دينية أو دنيوية، ولا سيما في هرج ومرج الكرنفالات. أما رافائيل إسكالونا، فكان حالة مختلفة. فهو ابن الكولونيل كليمنتي إسكالونا، وابن أخت المطران المشهور سيليدون، وهو فوق ذلك حاصل على الثانوية من معهد سانتا مارتا الذي يحمل اسمه. بدأ بتأليف

الموسيقى، منذ طفولته المبكرة، وسط استنكار الأسرة التي تعتبر الغناء وعزف الأكورديون من أعمال المعوزين. ولم يكن عازف الأكورديون الجوال الوحيد الحاصل على الثانوية وحسب، وإنما أحد القلة الذين يتقنون القراءة والكتابة في تلك الأزمنة، والرجل الأكثر كبرياء، وسهولة في الوقوع في الحب على الإطلاق. ولكنه لم يكن، ولن يكون الأخير؛ فهناك منهم الآن بالمئات، وهم أكثر فتوة وشباباً في كل مرة. وقد فهم بيل كلينتون الأمر على هذا النحو، في الأيام الأخيرة من رئاسته، عندما استمع لجماعة أطفال مدرسة ابتدائية، سافروا من بروفينشيا، لكي يغنوا له في البيت الأبيض.

في أيام حسن الطالع تلك، التقيت مصادفة، بميرثيديس بارتشا، ابنة صيدلي سوكري التي عرضتُ عليها الزواج مذ كانت في الثالثة عشرة من عمرها. وعلى خلاف المرات الأخرى السابقة، وافقت يومذاك، على دعوتي لها إلى الرقص، يوم الأحد التالي في فندق برادو. وقد علمتُ عندئذ فقط، أنها قد انتقلت مع أسرتها إلى بارانكيا، بسبب الوضع السياسي الذي تزداد وطأة طغيانه أكثر فأكثر. لقد كان أبوها، ديميتريو، ليبرالياً متشدداً لم تُرهبه التهديدات الأولى التي كانت توجه إليه كلما اشتدت الملاحقة، ولا عار المنشورات الاجتماعي. ولكنه حيال ضغط أسرته، صفى ما تبقى له من ممتلكات قليلة في سوكري، وأقام صيدليته في بارانكيا، على مقربة من فندق برادو. ومع أنه كان في سن والدي، إلا أنه احتفظ على الدوام، بصداقة شبابية معي، اعتدنا أن نعيد تحميتها في الحانة المقابلة. وانتهى بنا المطاف أكثر من مرة، إلى سكرات مجدفي سفن، مع شلة الأصدقاء بكاملها، في حانة "الرجل الثالث".

كانت ميرثيديس تدرس، آنذاك، في ميديلين، ولا تأتي للعيش مع أسرتها إلا خلال عطلة أعياد الميلاد. لقد كانت مرحة ولطيفة في تعاملها معي، على الدوام، ولكنها تمتلك موهبة مشعوذٍ في التملص من الأسئلة والإجابات، وعدم الالتزام بأي شيء محدد. وكان عليّ أن أتقبل ذلك، على أنه استراتيجية أكثر رحمة من عدم المبالاة أو الصد. وكنت أكتفي بالتقائي مع أبيها وأصدقائه في الحانة المقابلة. وإذا كان هو نفسه لم ينتبه إلى اهتمامي بإجازات ابنته التي أنتظرها بلهفة، فلأن السر كان أفضل الأسرار صوناً خلال العشرين قرناً الأولى من التقويم المسيحي. لقد تباهى مرات عديدة، في "الرجل الثالث"، بالجملة التي ذكرتها هي نفسها في حفلة رقصنا الأولى في سوكري: "أبي يقول إنه لم يولد بعد، الأمير الذي سيتزوجني". ولم أعرف إذا ما كانت تؤمن فعلاً بذلك، ولكنها كانت تتصرف كما لو أنها تؤمن به، حتى عشية عيد الميلاد ذاك الذي وافقت فيه على أن نلتقي يوم الأحد التالي، في حفلة الرقص الصباحية في فندق برادو.

إني أؤمن بالخرافات، إلى حد أني عزوت قرارها بالقبول، إلى طريقة الفنانين التي قص بها الحلاق شعري وشاربي، وإلى بدلة الكتان الخام وربطة العنق الحريرية اللتين اشتريتهما للمناسبة، من تصفية أتراك. ولأنني كنتُ واثقاً من أنها ستحضر مع أبيها، مثلما تفعل حين تذهب إلى أي مكان، فقد دعوتُ كذلك، أختي عايدا روسا، وكانت تُمضي إجازتها معي. ولكن ميرثيديس حضرت وحيدة بروحها، ورقصت بصورة طبيعية وبكثير من المرح، بحيث يمكن لأي عرض جدي أن يبدو لها مضحكاً. في ذلك اليوم دُشّن الموسم الذي لا ينسى لصديقي باتشو

غالان، المبدع المجيد لموسيقى "ميركومبري" التي بقي الناس يرقصون على إيقاعها طوال سنوات، وكانت أصل ألحان كاريبية جديدة لا تزال حية حتى الآن. كانت ميرثيديس ترقص جيداً على إيقاع الموسيقى الرائجة، وتستغل مهارتها لتتهرب، بتحايلاتها السحرية، من العروض التي كنتُ أحاصرها بها. بدا لي أن تكتيكها يرمي إلى جعلي أظن أنها لا تأخذني على محمل الجد، ولكنني كنتُ أتمكن، بالمهارة التي أجدها دوماً، من العثور على طريقة للمواصلة قدماً.

أصابها الرعب في الساعة الثانية عشرة تماماً، بسبب مرور الوقت، فتركتني وحيداً في منتصف الرقصة. ولكنها لم توافق على أن أرافقها، ولو حتى الباب. وقد بدا ذلك التصرف غريباً جداً لأختي، فأحست بأنها المذنبة بطريقة ما. وما زلتُ أتساءل حتى الآن، عما إذا لم يكن لذلك المثال السيئ، علاقة ما بقرارها المفاجئ في الانضمام إلى دير الراهبات الساليسيانات، في ميدلين. وقد انتهى بنا الأمر، أنا وميرثيديس، منذ ذلك اليوم، إلى اختراع رموز خاصة، نتفاهم بوساطتها دون أن نقول شيئاً، وحتى دون أن يرى أحدنا الآخر.

عدت إلى تلقي معلومات منها، بعد شهر من ذلك، في الثاني والعشرين من كانون الثاني من السنة التالية، برسالة مقتضبة تركتها لي في الهيرالدو: "لقد قتلوا كايتانو". وهذا لا يمكن له، بالنسبة لنا، إلا أن يكون شخصاً واحداً: كايتانو خينتيلي، صديقنا في سوكري، وهو طبيب لامع، ومنشط حفلات رقص، وعاشق بالمهنة. كانت الرواية المباشرة تقول إنه قد قُتل طعناً بسكين على يد أخوي معلمة "مدرسة تشاپارال" التي رأيناه يأتي بها على حصانه. وخلال ذلك اليوم، بين برقية وأخرى، حصلت على القصة كاملة.

لم تكن أزمنة الهواتف السهلة قد بدأت بعد، وكانت المكالمات الشخصية البعيدة يُتفق عليها ببرقيات مسبقة. وقد كان ردّ فعلي الأول هو ردّ فعل كاتب التحقيقات الصحفية. قررت السفر إلى سوكري لكتابة ريبورتاج صحفي. ولكنهم فسروا ذلك في الجريدة، على أنه اندفاع عاطفي. وأنا أتفهم اليوم ذلك؛ لأننا نتهمك، نحن الكولومبيين، منذ ذلك الحين، في قتل بعضنا بعضاً لأي سبب. وقد تختلق الأسباب اختلاقاً في بعض الأحيان لكي نقتتل؛ بينما تبقى الجرائم العاطفية ترفاً مقتصراً على الأغنياء، في المدن. بدا لي أنه موضوع أبدي، ورحت أسجل المعلومات من الشهود، إلى أن اكتشفت أمي نواياي الخفية، فتوسلت إليّ ألا أكتب ذلك الريبورتاج. على الأقل ما دامت دونيا خوليتا تشيمنتو، أم كايتانو، على قيد الحياة؛ لأنها كانت، وهذه ذروة الأسباب، أم ابنها الروحية، باعتبارها عرابة تعميد هيرناندو، الثامن في الترتيب بين أخوتي. أما مبررها – وهو ما لا بد من ذكره في أي ريبورتاج صحفي – فكان من الوزن الثقيل. ذلك أن أخوي المعلمة لحقا بكايتانو، عندما حاول أن يهرب إلى بيته، لكن دونيا خوليتا، أمه، سارعت إلى إغلاق الباب الخارجي، لأنها ظنت أن ابنها موجود في غرفة نومه. وهكذا، فإن من لم يستطع الدخول، كان هو ابنها نفسه، وقد تمكنا من قتله بالسكاكين، عند الباب المغلق.

كان ردّ فعلي الفوري هو الجلوس لكتابة الريبورتاج عن الجريمة. ولكنني واجهت كل أنواع العوائق. لم يعد ما يهمني هو الجريمة بحد ذاتها، وإنما الموضوع الأدبي عن المسؤولية الجماعية. إلا أن أمي لم تقتنع بأي حجة. وبدا لي أن الكتابة دون موافقتها، هي ضرب من إساءة

الاحترام. ومنذ ذلك الحين، لم يمر يوم واحد إلا وكانت أصابعي تتحرق لهفة إلى كتابة ذلك التحقيق. وكنت قد بدأت أستسلم، بعد سنوات طويلة من ذلك، بينما أنا أنتظر طائرة مغادرة في مطار الجزائر. وفجأة فُتح باب الدرجة الأولى، ودخل أمير عربي بعباءة قشيبة من عباءات بني قومه، وعلى قبضته أنثى صقر جوال بديعة. وبدلاً من غمامة الجلد التقليدية التي توضع للبيزان المروضة، كانت على أنثى الصقر تلك واحدة، من الذهب مرصعة بالماس. لقد تذكرتُ، بالطبع، كايتانو خينتيلي الذي كان قد تعلم من أبيه، فنون التصقر الجميلة؛ في البدء ببواشق محلية، وبعد ذلك، بنماذج بديعة من الصقور المجلوبة من بلاد العرب السعيدة. وكان يملك في مزرعته، عند موته، محترفاً لتربية الصقور، فيه ذكر وأنثيان مروضة ومدربة على اصطياد الحجل، وصقر اسكتلندي مدرب على الدفاع الشخصي. وكنت أعرف، آنذاك، المقابلة التاريخية التي أجراها جورج بليمبتون مع إرنست همنغواي في مجلة "ذي باريس ريفيو"، وسأله فيها عن عملية تحويل شخصية من الحياة الواقعية إلى شخصية روائية. وقد رد عليه همنغواي: "إذا ما شرحت كيف أفعل ذلك، فسوف أتحول، في أحد الأيام، إلى مرجع للمحامين المتخصصين في قضايا القدح والتشهير". ومع ذلك، ومنذ ذلك الصباح الذي وفرته لي العناية الإلهية في مدينة الجزائر، كان وضعي معكوساً تماماً: لم أعد أشعر بأنني سأجد الحماسة على مواصلة العيش بسلام، ما لم أكتب قصة موت كايتانو.

واصلت أمي التمسك بإصرارها على منع ذلك، مهما كانت الذرائع، إلى ما بعد ثلاثين سنة من المأساة؛ عندما اتصلت هي نفسها بي، وأنا

في برشلونة، لتطلعني على الخبر السيئ بأن خوليتا تشيمينتو، أم كايتانو، قد ماتت دون أن تستعيد توازنها لفقدان ابنها. ولكن أمي لم تجد، في هذه المرة، بأخلاقها المجرية، مبررات لمنعي من كتابة الريبورتاج. فقالت لي:

- إنني أرجو منك، كأم، شيئاً واحداً فقط. تعامل مع الموضوع، كما لو أن كايتانو هو ابني.

نُشرت القصة التي تحمل عنوان "قصة موت معلن"، بعد سنتين من ذلك. ولم تقرأ أمي الكتاب لسبب أحتفظ به، في متحفي الشخصي، كجوهرة أخرى منها: "إن أمراً حدث بمثل ذلك السوء في الحياة، لا يمكن له أن يكون جيداً في كتاب".

رنّ الهاتف على منضدة عملي، في الساعة الخامسة مساء، بعد أسبوع من موت كايتانو. وكنت قد بدأت بكتابة واجبي اليومي في الهيرالدو. كان المتصل هو أبي. وقد وصل، لتوه، إلى بارانكيا، دون إشعار مسبق. وكان ينتظرني بصورة مستعجلة في مقهى روما. أرعبني تهدج صوته، ولكنني ذُعرت أكثر، حين رأيته مثلما لم أره من قبل: مشعث المظهر وبذقن غير حليقة، يرتدي بدلة التاسع من نيسان الزرقاء السماوية، وقد لاكها الحر وطريق السفر. ولا يكاد يستند إلا إلى سكينة المهزومين.

سيطر عليّ ضيق لا أشعر معه بأنني قادر على نقل الغم والبراعة اللذين أطلعني بهما أبي، على الكارثة الأسرية. فبلدة سوكري، فردوس الحياة السهلة، والفتيات الجميلات، قد انساقت لتيار العنف السياسي المتلاطم. ولم يكن موت كايتانو سوى أحد أعراضه.

قال لي:

- أنت لا تدرك ما هو ذلك الجحيم، لأنك تعيش في واحة السلام هذه. أما نحن، فما زلنا أحياء هناك، لأن الرب يعرفنا.

كان واحداً من أعضاء الحزب المحافظ القليلين الذين لم يضطروا إلى التواري عن أنظار الليبراليين المتأججين غضباً، بعد التاسع من نيسان؛ أما جماعته الذين كانوا يلوذون في ظله، فقد نبذوه الآن، بسبب فتور حماسته. رسم لي لوحة بالغة الرعب - وبالغة الواقعية - تسوغ تماماً قراره المتسرع بالتخلي عن كل شيء، والانتقال بالأسرة إلى كارتاخينا. لم تكن لدي حجة عقلانية أو عاطفية ضده، ولكنني فكرت في أنه قد يفهم ذلك على أنه حلّ أقل جذرية من الانتقال الفوري.

كان لا بد لي من كسب الوقت للتفكير. تناولنا شراباً مرطباً ونحن صامتان، كل منا مستغرق في أفكاره. وقد استرد هو مثاليته المحمومة قبل الانتهاء، وشلّ قدرتي على الكلام حين قال، وهو يطلق زفرة رهيبة: "عزائي الوحيد في كل هذا الأمر، هو سعادتي في أنك ستتمكن أخيراً من إنهاء دراستك." لم أخبره قط، بالتأثر الذي سببته لي سعادته الوهمية تلك، بقضية على ذلك القدر من الابتذال. أحسست بنفحة جليدية في بطني، تفجرها الفكرة الخبيثة بأن رحيل الأسرة ليس سوى حيلة منه لإجباري على أن أصير محامياً. نظرت مباشرة إلى عينيه وكانتا بركتين ذاهلتين. إنه ينبهني إلى أنه في حالة من الخذلان والجزع، لن يجبرني معها على شيء، ولن يرفض لي رأياً. ولكن إيمانه بنصيبه من العناية الإلهية، كان كافياً لأن يعتقد بأنه يمكن لي أن أستسلم من التعب. بل أكثر من ذلك: فقد كشف لي بالحماسة الأسرة نفسها، أنه قد

حصل لي على وظيفة في كارتاخينا، وأن كل شيء جاهز لأبدأ عملي يوم الاثنين التالي. إنها وظيفة كبيرة، أوضح لي، لا يتوجب علي الذهاب إليها إلا مرة كل خمسة عشر يوماً، لقبض راتبي.

كان ذلك أكثر بكثير مما أستطيع هضمه. ضغطت على أسناني، وأنا أقدم له مسبقاً، بعض التحفظات لتهيئته من أجل رفض نهائي. أخبرته بمحادثتي الطويلة مع أمي، خلال الرحلة إلى آراكاتاكا التي لم أتلق منه أي تعليق حولها. ولكنني فهمت أن تجاهله الموضوع، هو أفضل إجابة. وكان المحزن في الأمر هو أنني ألاعبه، وأنا أدرك مسبقاً أن النتيجة محسومة، لأني كنتُ أعرف أنني لن أقبل في الجامعة، بعد أن خسرت مادتين من السنة الثانية، لم أنجح فيهما قط، فضلاً عن مادتين أخريين لا يمكن لا سبيل إلى استيفائهما من السنة الثالثة. وقد أخفيت الأمر عن الأسرة لكي أجنبها غماً لا طائل منه، ولم أشأ أن أتصور ما سيكون عليه رد فعل والدي، إذا ما أخبرته بالحقيقة في ذلك المساء. كنت قد صممت، عند بدء المحادثة، على ألا أخضع لأي ضعف قلب، لأنني كنت سأتألم لرؤية رجل طيب مضطر إلى الظهور أمام أبنائه، بمثل ذلك المظهر من الهزيمة. ومع ذلك، فقد بدا لي أنني أمنح قدراً أكبر من الثقة للحياة. ثم استسلمتُ أخيراً، للمعادلة السهلة بتبديد ليلة رحمة وغفران، للتفكير في الأمر. فقال لي:

– موافق، شريطة ألا تتوارى عن الأنظار، لأن مستقبل الأسرة بين يديك.

إنه شرط كاف. فقد كان يعي جيداً نقطة ضعفي، حتى إني عندما ودعته في الحافلة الأخيرة، في الساعة السابعة ليلاً، اضطررت إلى كبح

قلبي كيلا أذهب معه في المقعد المجاور. كان واضحاً بالنسبة لي، أن الدورة قد اكتملت، وأن الأسرة ستعود فقيرة إلى حد لا يمكنها معه الحفاظ على بقائها إلا بتعاون الجميع.

لم تكن الليلة مناسبة لاتخاذ أي قرار. فقد أخلت الشرطة، بالقوة، عدة أسر من اللاجئين القادمين من المناطق الداخلية، ممن أقاموا مخيمهم في حديقة سان نيكولاس، هرباً من العنف في الأرياف. ومع ذلك، كان السلام المنيع يسيطر على مقهى روما. وكان اللاجئون الإسبان يسألونني دوما عن أخبار دون رامون فينيس، فأرد عليهم على الدوام ممازحاً، بأن رسائله لا تتضمن أخباراً عن إسبانيا وإنما أسئلة متلهفة عن بارانكيا. ومنذ أن مات، لم يعودوا إلى ذكر اسمه، ولكنهم أبقوا كرسيه شاغراً على المنضدة. هنأني أحد الرواد على "الزرافة" المنشورة في اليوم السابق، لأنها ذكّرته بطريقة ما، برومانسية مريانو خوسيه دي لارا المؤثرة. ولم أدر قط، سبب ذلك. وقد أخرجني الأستاذ بيريث دومينش من المأزق، بإحدى عباراته التي تأتي في وقتها المناسب: "آمل ألا تحذو كذلك حذو مثله السيئ، بإطلاق رصاصة على نفسك". وأظن أنه ما كان ليقول ذلك، لو أنه عرف إلى أي حد، كان قوله صحيحاً في تلك الليلة.

بعد نصف ساعة من ذلك، اقتدتُ خيرمان بارغاس من ذراعه إلى عمق مقهى جابي. وما إن قُدم لنا ما طلبناه، حتى قلت له إنني أريد استشارته في أمر مستعجل. بقي هو ممسكاً بالفنجان الذي كان يوشك أن يتذوقه – مثل دون رامون بالضبط –، وسألني مذعوراً:

– إلى أين ستذهب؟

أدهشتني بصيرته، فقلت له:

– وكيف عرفت!

لم يكن يعرف، ولكنه توقع ذلك، وكان يرى أن رحيلي سيعني نهاية كرونيكا، وأنه انعدام حس بالمسؤولية خطير سيثقل عليَّ طوال ما تبقى من حياتي. وأوحى إليَّ بأن ذلك لا يقل إلا قدراً قليلاً عن الخيانة. ولم يكن هناك من له الحق أكثر منه في أن يقول لي ذلك. لم يكن أحد منا يعرف ما الذي سنفعله بمجلة كرونيكا، ولكننا جميعنا كنا ندرك أن ألفونسو قد حافظ على بقائها في لحظة مصيرية، وتحمل نفقات تفوق إمكانياته. ولهذا لم أستطع قط أن أنتزع من رأس خيرمان الفكرة الخبيثة بأن ذهابي الذي لا مفر منه، هو بمثابة الحكم بالموت على المجلة. إنني واثق من أنه، هو الذي يفهم كل شيء، كان يعرف أن مبرراتي قاهرة. ولكنه أنجز واجبه الأخلاقي بأن قال لي ما يفكر فيه.

في اليوم التالي، وبينما ألفارو سيبيدا يوصلني إلى مكتب كرونيكا، قدم لي دليلاً مؤثراً على القشعريرة التي تسببها له تقلبات الأصدقاء الحميمة. مما لا شك فيه أنه كان على علم، من خلال خيرمان، بقراري في المغادرة. وقد أنقذنا، نحن الاثنين، خجله النموذجي، من أي ذرائع متكلفة. فقد قال لي:

– يا للعنة. الذهاب إلى كارتاخينا لا يعتبر ذهاباً إلى أي مكان. الفظاعة هي في الذهاب إلى نيويورك، مثلما حدث لي. أما هنا فأنا على أحسن حال.

كان هذا هو نوع الردود الحكيمة التي تفيده في حالات كحالتي، ليتجاوز الرغبة في البكاء. وللسبب نفسه، لم تفاجئني رغبته في التحدث للمرة الأولى، عن مشروع صنع سينما في كولومبيا، والذي

سنواصله دون التوصل إلى نتائج، طوال ما تبقى من حياتنا. تطرق إلى الموضوع كطريقة مواربة لتركي مع شيء من الأمل. وضغط مكبح السيارة فجأة، بين الجموع المتوقفة والحانات الصغيرة، في شارع سان بلاس، ثم صرخ بي من نافذة السيارة:

– لقد أخبرتُ ألفونسو بأن يرسل هذه المجلة إلى الجحيم، ولتصنع واحدة مثل التايم!

المحادثة مع ألفونسو، لم تكن سهلة لي وله على السواء؛ إذ كانت هناك مسألة تحتاج إلى توضيح من كلينا، منذ نحو ستة شهور، وكلانا كنا نعاني نوعاً من التلعثم الذهني في المناسبات الصعبة. فقد حدث في إحدى نوبات غضبي الصبيانية، ونحن في غرفة الإخراج، أن حذفتُ اسمي ومنصبي من قائمة هيئة تحرير كرونيكا، ككناية عن استقالة رسمية. وعندما مرت العاصفة، نسيت إعادة إدراجهما. لم ينتبه أحد إلى ذلك قبل خيرمان بارغاس، بعد مرور أسبوعين. وقد تحدث في الأمر مع ألفونسو الذي فوجئ به أيضاً. وقد أخبرهما بورفيريو، مسؤول قسم الإخراج، كيف حدثت المشكلة؛ فاتفقا على ترك الأمور على حالها، إلى أن أعرض عليهما وجهة نظري ومبرراتي. ولسوء حظي أنني نسيت الأمر تماماً، حتى اليوم الذي توصلت فيه أنا وألفونسو إلى الاتفاق على أن أترك كرونيكا. وعندما انتهينا، ودعني وهو يكاد يموت من الضحك، بمداعبة من مداعباته، وكانت قوية ولكنها لا تقاوم، إذ قال:

– لحسن الحظ، أننا لن نضطر حتى إلى حذف اسمك من هيئة التحرير.

عندئذ فقط، استعدت الحادث كضربة سكين، وأحسست أن الأرض

تغور تحت قدمي، ليس بسبب ما قاله ألفونسو بطريقة مناسبة تماماً، وإنما لأنني نسيت توضيح الأمر في حينه. ومثلما هو مأمول منه، قدم لي ألفونسو تفسيرَ شخص ناضج. إذا كان ذلك هو الخلاف الوحيد الذي لم نوضحه، فليس من اللائق تركه معلقاً في الفضاء، دون تفسير. وما تبقى سيقوم به ألفونسو مع ألفارو وخيرمان، وإذا كان لا بد من إنقاذ المركب، بتعاون الجميع، فإنه يمكن لي أنا أيضاً، أن أعود خلال ساعتين. وكنا نضع في اعتبارنا، كاحتياطي أخير، الاستعانة بمجلس التحرير؛ كنوع من العناية الإلهية، وإن لم نتمكن قط، من جمعه للجلوس على جانبي منضدة خشب الجوز التي تُتخذ عليها القرارات الكبرى.

منحتني تعليقات خيرمان وألفارو الشجاعة التي كنت أفتقدها من أجل المغادرة. وقد تفهم ألفونسو مبرراتي وتقبلها بأريحية، ولكنه لم يُلمِّح بأي شكل، إلى أنه يمكن لمجلة كرونيكا أن تنتهي باستقالتي. بل على العكس، فقد نصحني بأن أتناول الأزمة بهدوء، وطمأنني بفكرة تشييد قاعدة راسخة للمجلة، مع مجلس التحرير، وأنه سيخبرني عندما يتمكن من تحقيق شيء يستحق العناء فعلاً.

كان تلك هي أول إشارة ألحظها في أن ألفونسو يضع في اعتباره الاحتمال غير المعقول، في أنه يمكن لمجلة كرونيكا أن تنتهي. وهذا ما حدث، دون أحزان ولا أمجاد، في الثامن عشر من حزيران، بعد مئة وثمانية أعداد، في أربعة عشر شهراً. ومع ذلك، لدي انطباع، بعد انقضاء نصف قرن، بأن المجلة كانت حدثاً مهماً في الصحافة الوطنية. لم تبق منها مجموعة كاملة، وإنما الأعداد الستة الأولى فقط، وبعض القصاصات في مكتبة دون رامون فينيس الكتلانية.

ومن محاسن المصادفات، أن أصحاب البيت الذي كنت أعيش فيه آنذاك، أرادوا استبدال أثاث الصالة، وعرضوه علي بسعر زهيد. وعشية السفر، عند تصفية حساباتي في الهيرالدو، وافقوا على منحي أجر ستة شهور من "الزرافة" مقدماً. فاشتريت بجزء من تلك النقود أثاث مابيتو لبيتنا في كارتاخينا، لأنني كنت أعلم أن الأسرة لن تأتي معها بأثاث بيتنا في سوكري، وليس لديها موارد لشراء أثاث آخر. ولا يمكنني أن أتجاهل أن ذلك الأثاث لا يزال، بعد خمسين سنة أخرى من الاستخدام، في حالة جيدة، وفي الخدمة، لأن الأم الممتنة لم تسمح ببيعه.

بعد أسبوع من زيارة أبي، انتقلتُ إلى كارتاخينا بحمولة الأثاث وحدها، وشيء أكثر بقليل من الملابس التي كنت أرتديها. وعلى خلاف المرة الأولى، كنت أعرف كيف أفعل كل ما يجب فعله، وعلى دراية بكل ما أحتاج إليه في كارتاخينا. وكنت أرغب من كل قلبي، في أن تمضي أمور الأسرة على أحسن حال، وأن تكون سيئة بالنسبة لي، كعقاب على افتقادي للعزيمة.

كان البيت في موقع جيد من حي لابوبا، في ظل الدير التاريخي الذي يبدو، على الدوام، أنه على وشك أن ينهار. وكانت غرف النوم الأربع والحمامان في الطابق السفلي، محجوزة للأبوين والأبناء الأحد عشر: أنا أكبرهم، في السادسة والعشرين من عمري تقريباً؛ وإليخيو أصغرهم، في الخامسة. وقد تربى الجميع جيداً على ثقافة الكاريبي ذات أراجيح النوم والحصائر على الأرض، والأسرّة لمن وجدوا لها مكاناً.

أما في الطابق العلوي، فكان يعيش العم هيرموخينس سول، شقيق أبي، مع ابنه كارلوس مارتينث سيماهان. لم يكن البيت بكامله كافياً

لكل ذلك العدد، إلا أن قيمة الإيجار كانت معتدلة بفضل علاقات العم مع مالكة البيت التي لم تكن نعرف عنها سوى أنها امرأة غنية جداً، وتدعى لابيبا. وسرعان ما وجدت الأسرةُ، بموهبتها في السخرية، عنواناً بارعاً للبيت، له إيقاع أغنية: "بيت لابيبا في حي لابوبا".

ما زال انتقال القبيلة، بالنسبة لي، مجرد ذكرى يلفها الغموض. كان النور قد انقطع عن نصف المدينة. وكنا نحاول أن نهيئ البيت في العتمة، لكي ينام الصغار. وكنا نحن الأخوة الكبار يتعرف بعضنا على بعض، من أصواتنا. أما الصغار فكانوا قد تبدلوا كثيراً منذ زيارتي الأخيرة، حتى إن عيونهم الهائلة والحزينة كانت ترعبني على ضوء الشموع. عانيت من فوضى الصناديق، والحزم، وأراجيح النوم المعلقة في الظلام، وأحسست كما لو أنني أعيش تاسعاً من نيسان منزلياً. ومع ذلك، فإن تأثري الأكبر أحسست به عندما حاولت تحريك كيس بلا شكل راح يفلت من يدي. وكان ما يحتويه هو رفات الجدة ترانكيلينا. فقد نبشت عنها أمي، وجاءت بها معها لتودعها في مقبرة سان بيدرو كلافير، حيث توجد رفات أبي والخالة إلفيرا كاريّو في المدفن نفسه.

لقد كان عمي هيرموخينس سول رجلَ العناية الإلهية في حالة الطوارئ تلك. فقد عُيّن أميناً عاماً لإدارة الشرطة في كارتاخينا. وكان تدبيره الجذري الأول هو فتح ثغرة بيروقراطية لإنقاذ الأسرة. بمن فيهم أنا، الضال السياسي، ذو السمعة الشيوعية التي لم أكسبها بأيديولوجيتي، وإنما لطريقي في الملبس. كانت هناك وظائف للجميع. فقد مُنح أبي منصباً إدارياً دون مسؤولية سياسية. وعُين أخي لويس إنريكي محرياً، ومُنحت أنا وظيفة براتب وبلا عمل في مكاتب الإحصاء،

الوطني الذي انكبت الحكومة المحافظة على إنجازه، ربما لتتوفر لها فكرة عن عددنا، نحن الخصوم المتبقين على قيد الحياة. وقد كانت الكلفة الأخلاقية لتلك الوظيفة، أشد خطراً بالنسبة لي من كلفتها السياسية، لأني كنت أقبض راتبي كل أسبوعين، ولا أظهر في القطاع بقية الشهر، تفادياً للتساؤلات. وكان التبرير الرسمي، ليس لي وحدي، وإنما لأكثر من مئة موظف آخر، هو أننا في مهمة خارج المدينة.

كان مقهى موكا، قبالة مكاتب الإحصاء، يزدحم بموظفين زائفين من القرى المجاورة، ممن يأتون لقبض رواتبهم وحسب. لم يكن يتبقى فلس واحد لاستخدامي الشخصي، خلال الفترة التي وقعت فيها جدول الرواتب، لأن راتبي كان مهماً، ويذهب بكامله إلى الموازنة المنزلية. وفي أثناء ذلك، حاول أبي إعادة تسجيلي في كلية الحقوق، وصُدم بالحقيقة التي أخفيتها عنه. وقد أحسست بالسعادة، كما لو أنني نلت الشهادة، لمجرد أنه عرف بالأمر. وكانت سعادتي أكثر جدارة من ذلك، لأنني وجدت الوقت والمكان أخيراً، وسط كل تلك التناقضات والمشاحنات، لأنهي الرواية.

لدى دخولي إلى جريدة الأونيفرسال، جعلوني أشعر كما لو أنني قد رجعت إلى البيت. كانت الساعة السادسة، أشد الساعات نشاطاً وحركة. غير أن الصمت الوعر الذي فرضه دخولي على آلات اللينوتيب والآلات الكاتبة، شكل عقدة في حنجرتي. بدا لي كما لو أنه لم تمض لحظة واحدة على فراقي للمعلم ثابالا، بخصل شعره الهندي. وقد طلب مني، كما لو أنني لم أغادر قط، معروفاً بأن أكتب له تعليقاً افتتاحياً مستعجلاً. كان يشغل آلتي الكاتبة مراهقٌ مبتدئ، تعثر بتعجله المرتبك وهو يخلي لي

المقعد. وكان أول ما فاجأني هو صعوبة كتابة تعليق مغفل التوقيع، بالرصانة التي تتطلبها الافتتاحية، بعد حوالي سنتين من تجاوزي كل الحدود في "الزرافة". كنت قد أنهيت كتابة صفحة عندما اقترب المدير لوبيث إسكاورياثا لتحيتي. فتوره البريطاني كان موضوعاً شائعاً في مسامرات الأصدقاء، ورسوم الكاريكاتير السياسية. وقد أثر بي خجل سعادته، وهو يحييني معانقاً. عندما أنهيت كتابة التعليق، كان ثابالا ينتظرني، ومعه قصاصة ورقة أجرى عليها المدير بعض الحسابات، ليقترح عليّ راتباً من مئة وعشرين بيزو، في الشهر، مقابل كتابة تعليقات افتتاحية. أذهلني الرقم، وهو غير المعقول في ذلك الزمان وذلك المكان، حتى إنني لم أجب ولم أقدم الشكر، وإنما جلست لأكتب تعليقين آخرين، ثملاً بالإحساس بأن الأرض تدور فعلاً حول الشمس.

بدا ذلك كما لو أنني قد عدت إلى الأصول. فالموضوعات نفسها التي يصححها المعلم ثابالا بالحبر الأحمر، وتحذف منها الرقابةُ نفسها كلمات من خلال رقيب هزمه تحايل المحررين؛ وأنصاف الليل نفسها، العابقة بعفونة الحبل ورائحة القلقاس في مطعم الكهف؛ وموضوع الحديث نفسه عن إعادة تركيب العالم، حتى الفجر في شارع الشهداء. كان روخاس هيراثو قد أمضى سنة في بيع اللوحات كي ينتقل إلى أي مكان آخر، إلى أن تزوج من روسا إيسابيل العظيمة، وانتقل إلى بوغوتا. كنت أجلس في آخر الليل، لأكتب "الزرافة" التي أرسلها إلى الهيرالدو بالوسيلة الوحيدة الحديثة في ذلك الحين، ألا وهي البريد العادي. وكان يتخلل ذلك تخلفي، في أحيان قليلة، عن كتابتها لأسباب قاهرة، إلى أن أكملت سداد الدين.

الحياة مع الأسرة بكاملها، وفي ظروف يتحكم بها القدر، ليس مجالها الذاكرة، وإنما المخيلة. كان الأبوان ينامان في حجرة، في الطابق السفلي، مع بعض الصغار. وكانت الأخوات الأربع يشعرن بأن لهن الحق في حجرة لكل واحدة منهن. وفي الحجرة الثالثة، كان ينام هيرناندو وألفونسو ريكاردو، حيث يرعيان الصغير خيمي الذي يبقيهما في حالة تأهب بمواعظه الفلسفية والرياضية. أما ريتا ذات الأربع عشرة سنة، فكانت تدرس حتى منتصف الليل، أمام الباب الخارجي، تحت نور مصباح الشارع، لكي تقتصد في نور البيت. كانت تحفظ الدروس عن ظهر قلب، وتغنيها بصوت عال، بالظرف والإلقاء الجيد اللذين ما زالت تحتفظ بهما. غرائب كثيرة في كتبي مصدرها تمارين قراءتها، عن البغلة التي تمضي إلى الطاحونة، وشوكولاته الصبي ذي البرنيطة الصغيرة، والعراف الذي ينغمس في الشراب. كان البيت أكثر حياة، وأكثر إنسانية قبل ذلك، منذ منتصف الليل، ما بين الذهاب إلى المطبخ لشرب الماء، أو الذهاب إلى المرحاض، لقضاء حاجات سائلة أو صلبة مستعجلة، أو في تعليق أراجيح النوم متقاطعة على مستويات مختلفة في الممرات. كنت أعيش في الطابق الثاني مع غوستافو ولويس إنريكي – عندما انتقل العم وابنه للاستقرار في بيتهما الأسري –، بعد ذلك مع خيمي الخاضع لوقف مواعظه حول أي شيء، بعد الساعة التاسعة ليلاً. وفي إحدى الليالي، أبقانا ثغاء باهت ومتناوب، يطلقه حمل يتيم، مستيقظين عدة ساعات. فقال غوستافو حانقاً:

– يبدو كما لو أنه فنار.

لم أنس ذلك قط، لأنه كان نوعاً من التشبيهات التي كنتُ أتلقفها

في تلك الأزمنة، على الطاير، من الحياة الواقعية، لأضمنها روايتي الوشيكة.

كان البيت الأكثر حيوية بين بيوت كارتاخينا الحيوية العديدة التي سكناها، والتي راح مستواها ينخفض، باطراد، مع تقلص موارد الأسرة. ففي بحثنا عن بيوت أرخص، راح مستوانا ينحدر حتى وصلنا إلى بيت توربل، حيث كان يظهر في الليل، شبحُ امرأة. وقد حالفني حسن الحظ بعدم وجودي هناك، ولكن شهادات الأبوين والأخوة وحدها، سببت لي قدراً من الذعر، يعادل كوني موجوداً. كان أبواي يتناومان في الليلة الأولى، على الصوفا في الصالة، ورأيا تلك الرؤيا التي مرت دون النظر إليهما، تتنقل من حجرة نوم إلى أخرى، بفستان مزين بزهور حمراء وشعر قصير معقود وراء الأذنين، بشرائط ملونة. وقد وصفتها أمي بتفصيل لم يفتها فيه شكل فستانها وطراز حذائها. أما أبي، فأنكر أنه رآها، كيلا يسبب مزيداً من الذهول لزوجته، والخوف لأبنائه. ولكن الألفة التي كانت المرأة الشبح تتحرك بها في أرجاء البيت، منذ الغروب، لم تكن تسمح بتجاهلها. فقد استيقظت أختي مارغوت في فجر أحد الأيام، ورأتها عند طرف سريرها، تتفحصها بنظرة حادة. ولكن أكثر ما أثر بها، هو رعب كونها مرئيةً من حياة أخرى.

وفي يوم الأحد، لدى الخروج من القداس، أكدت إحدى الجارات لأمي أن أحداً لم يسكن ذلك البيت، منذ سنوات طويلة، بسبب تمادي المرأة الشبح التي ظهرت مرة في غرفة الطعام، في وضح النهار، بينما الأسرة تتناول الغداء. وفي اليوم التالي، خرجت أمي مع اثنين من أخوتي الصغار، بحثاً عن بيت ننتقل إليه. وقد وجدته بعد أربع

ساعات. ومع ذلك، فقد تكلف معظم أخوتي مشقة في استبعاد فكرة أن شبح المرأة الميتة قد انتقل معهم.

في البيت الذي على سفح لابوبا، وعلى الرغم من الوقت الطويل المتوفر لي، كانت لدي رغبة كبيرة في الكتابة. حتى إني كنت أشعر بأن الأيام قصيرة. وهناك عاد للظهور في أحد الأيام، راميرو ديلا إسبرييا، بشهادته كدكتور في القانون، سياسياً أكثر مما كان عليه في أي وقت مضى، ومتحمساً بقراءته لروايات حديثة الصدور، لا سيما رواية "الجلد" لكورتيو مالابارتي التي تحولت في تلك السنة، إلى كتاب حاسم لأبناء جيلي. فقد كانت تأسرنا فعالية النثر، وحدة الذكاء، والرؤية الفظة للتاريخ المعاصر، فتجتذبنا ونستغرق في قراءتها حتى الفجر. ولكن الزمن أثبت لنا، مع ذلك، أنه كان مقدراً لمالابارتي أن يكون نموذجاً جيداً لمواصفات مختلفة عن التي أرغب فيها. وانتهى الأمر بتلك الميزات، إلى استبعاد صورته. فكان حالة مناقضة تماماً لما جرى لنا، في الوقت نفسه تقريباً، مع ألبير كامو.

كان الأخوة ديلا إسبرييا يعيشون آنذاك قريباً منا، وكان لديهم قبوٌ لتخزين الخمر، يسرقون منه زجاجات بريئة ليأتوا بها إلى بيتنا. وعلى عكس نصيحة دون رامون فينيس، كنتُ أقرأ لهم ولأخوتي آنذاك، مقاطع مطولة من مسوداتي، في الحالة التي كانت عليها دون تشذيب، وعلى شرائح ورق المطبعة نفسها التي كتبتُ عليها كل ما كتبته في ليالي الأرق، في الأونيفرسال.

في تلك الأيام رجع ألفارو موتيس وغونثالو ماياريناس. ولكنني كنتُ محظوظاً بامتلاك الحياء، الذي يمنعني من أن أطلب منهما قراءة

المخطوط غير المنتهي، والذي لا يزال بلا عنوان. كنت أريد الاعتكاف دون راحة، لأنجز النسخة الأولى من المخطوط على ورق نظامي، قبل التصحيح الأخير. كان لدي حوالي أربعين ورقة زيادة على النسخة المترقعة. ولكنني كنت ما أزال أجهل أنه يمكن لذلك أن يكون عثرة خطرة. وسرعان ما أدركت أنه كذلك: فأنا عبد لصرامة في الدقة والكمال، تضطرني إلى إجراء حساب مسبق لطول الكتاب، وإلى ضبط عدد الصفحات بدقة، في كل فصل، وفي الكتاب بمجمله. وكان خطأ واحد بارز في هذه الحسابات، يجبرني على إعادة النظر في كل شيء؛ بل إن وجود خطأ في الكتابة، على الآلة الكاتبة، يثير ذعري كما لو أنه خطأ إبداعي. كنت أظن أن هذا المنهج المطلق يستند إلى رؤية متشددة في المسؤولية، ولكنني أعرف اليوم أنه كان مجرد رعب رقابي خالص.

غير أنني تجاهلت مرة أخرى، بالمقابل، نصيحة دون رامون فينييس، وأوصلتُ إلى غوستافو إيبارا، نسخة كاملة من الرواية، وإن كانت ما تزال دون عنوان، عندما اعتبرتها منتهية. بعد يومين من ذلك، دعاني إلى بيته. وجدته يجلس على كرسي هزاز من الخيزران، على الشرفة المطلة على البحر، يعرض جسده للشمس، ويسترخي بملابس البحر، وقد تأثرتُ للرقة التي كان يداعب بها أوراقي، بينما هو يكلمني. إنه معلم حقيقي، لم يملِ علي محاضرة حول الكتاب، ولم يقل لي إنه يراه جيداً أو سيئاً، وإنما جعلني أعي قيمه الأخلاقية. وعندما انتهى، تفحصني راضياً، وانتهى إلى القول ببساطته اليومية:

- إنها أسطورة أنتيغون.

أدركَ من ملامحي، أنني فقدت أتزاني، فتناول من رفوفه، كتاب

سوفوكليس، وقرأ لي ما الذي يعنيه. وبالفعل، كانت الحالة الدرامية في روايتي، في جوهرها، مطابقة لأنتيغون المحكوم عليها بترك جثة أخيها بولينيس دون دفن، بأمر من عمهما الملك كريون. كنتُ قد قرأت أوديب في كرلون من المجلد الذي أهداه إليّ غوستافو نفسه، في الأيام الأولى لتعارفنا. ولكنني لم أكن أتذكر أسطورة أنتيغون بصورة واضحة، تتيح لي إعادة بنائها من الذاكرة، ضمن مأساة منطقة الموز، ولم أكن قد لمحت التشابهات الانفعالية بينهما حتى تلك اللحظة. أعدت في تلك الليلة، قراءة العمل، بمزيج غريب من الفخر لتوافقي، حسن النية، مع كاتب بمثل تلك العظمة، والألم من أن يلحق بي عار الانتحال أمام الملأ. بعد أسبوع من أزمة التشوش، قررت إجراء بعض التغيرات المعمقة التي تتيح لي إنقاذ حسن نواياي، دون أن أدرك أبعاد الزهو الذي يفوق طاقة البشر، وأنا أعمد إلى تعديل كتاب لي، كيلا يبدو أنه لسوفوكليس. وأخيراً أحسست - مستسلماً - بأن لي الحق الأخلاقي في استخدام جملة له، كخاتمة توقيرية. وهذا ما فعلته.

الانتقال إلى كارتاخينا حمانا، في الوقت المناسب، من تردي سوكري الحرج والخطر. ولكن معظم الحسابات بدت أحلاماً، سواء بسبب شح الموارد أو بسبب حجم الأسرة. كانت أمي تقول إن أبناء الفقراء يأكلون أكثر من أبناء الأغنياء، ويكبرون أسرع منهم. ولكي تثبت ذلك يكفيها مثال أسرتها. فرواتبنا جميعنا لم تكن تكفي لكي نعيش دون مفاجآت.

وقد تولى الزمن كل ما عدا ذلك. فأخي خيمي، وفي تواطؤ أسري آخر، صار مهندساً مدنياً. فكان المجاز الوحيد في أسرة تنظر إلى

الشهادة الجامعية، كما لو أنها لقب نبالة. وصار لويس إنريكي معلماً في المحاسبة، وتخرج غوستافو طبوغرافياً، وبقي كلاهما عازف الجيتار والمغني نفسه في سيرنادات الآخرين. وفاجأنا يِّو، منذ طفولته المبكرة، بميول أدبية واضحة، وبقوة شخصيته التي قدم لنا دليلاً مبكراً عنها، وهو في الخامسة من عمره، عندما باغتوه وهو يحاول إضرام النار في خزانة ملابس، ليحقق حلمه برؤية رجال المطافئ، وهم يطفئون الحريق في البيت. وفيما بعد، عندما دعاه، هو وأخوه كوكي، زملاءُ أكبر منهما سناً، لتدخين الماريجوانا، رفض يِّو ذلك مذعوراً. أما كوكي بالمقابل، وكان فضولياً ومتهوراً، فدخنها بعمق. وحين غرق، بعد سنوات من ذلك، في هول المخدرات، أخبرني أنه قال لنفسه منذ تلك المرة الأولى: "يا للعنة! لا أريد أن أفعل شيئاً آخر غير هذا في حياتي". ولم يفعل شيئاً آخر، خلال الأربعين سنة التالية، بشغف دون مستقبل، سوى إنجاز وعده لنفسه بالموت ضمن قوانينه. وفي الثانية والخمسين من عمره، تجاوز الحد في فردوسه المصطنع، وقضت عليه سكتة قلبية.

أما نانتشي – أكثر الرجال حباً للسلام في العالم – فبقي في الجيش، بعد إنهاء خدمته العسكرية الإجبارية، وأتقن استخدام كل أنواع الأسلحة الحديثة، وشارك في العديد من المناورات العسكرية. ولكن لم تُتح له الفرصة قط، للمشاركة في واحدة من حروبنا المزمنة. وهكذا قنع أخيراً بمهنة رجل المطافئ، عندما خرج من الجيش. ولكنه لم يجد الفرصة هناك أيضاً، لإطفاء حريق واحد طوال أكثر من خمس سنوات. غير أنه لم يشعر قط بالاحباط، بفعل حس سخرية كرسه ضمن الأسرة، أستاذاً في الدعابة الفورية، وأتاح له أن يكون سعيداً لمجرد كونه حياً.

عمل يِّو، في أقسى سنوات الفقر، كاتباً وصحفياً بجهوده الخالصة، دون أن يدخن قط، أو يشرب قطرة واحدة أكثر مما يجب في حياته. وقد استطاعت ميوله الأدبية الجارفة، وإبداعه المتكتم أن تفرض نفسها وتتغلب على المصاعب والعقبات. ومات، وهو في الرابعة والخمسين من عمره، بعد أن أتيح له الوقت لينشر كتاباً من أكثر من ستمئة صفحة، تضم تحريات بارعة حول الحياة السرية لرواية "مئة عام من العزلة". وقد اشتغل في الكتاب، طوال سنوات، دون أن أعرف ذلك، ودون أن يسألني قط، بصورة مباشرة، عن أية معلومات.

عرفت أختي ريتا، وكانت لا تزال في سن المراهقة تقريباً، كيف تستفيد من عبرة التنكيل بغيرها. فعندما رجعتُ إلى بيت والدي، بعد فترة غياب طويلة، وجدتها تعاني اجتياز المطهر نفسه الذي عانت منه أخواتها الأخريات، بسبب وقوعها في غرام شاب أسمر رشيق، جدّي، ووقور. والشيء الوحيد فيه غير الملائم لها، هو طول قامته الذي يزيد عنها شبرين ونصف الشبر. وجدتُ أبي، في تلك الليلة بالذات، يستمع إلى الأخبار، وهو في أرجوحة النوم المعلقة في مخدعه. أخفضتُ صوت المذياع، وجلست على السرير المقابل، وسألته بحقي، كابن بكر، عما يحدث بشأن غراميات ريتا. فأطلق في وجهي الجواب الذي كان قد أعده، دون شك، منذ الأزل:

– الشيء الوحيد الذي يحدث هو أن الرجل لص.

وهذا هو بالضبط ما كنتُ أنتظره منه. فسألته:

– ماذا تعني بلص؟

فقال لي، دون أن ينظر إليّ:

– لص. لص.

– وما الذي سرقه؟ – سألته دون رحمة.

وواصل هو عدم النظر إليّ. ثم تنهد أخيراً:

– حسن. ليس هو، ولكن له أخاً سجيناً بسبب السرقة.

– ليست هناك مشكلة إذن – قلت له ببلاهة سهلة –، لأن ريتا لا تريد الزواج منه، وإنما من الآخر غير السجين.

لم يجب. لأن نزاهته التي لا يرقى إليها الشك، تجاوزت الحدود، منذ الجواب الأول في ذلك اليوم، فقد كان يعرف عدم صحة الإشاعة عن الأخ السجين. وحين لم يبق لديه مزيد من الحجج، حاول التشبث بأسطورة الكرامة.

– لا بأس. ولكن عليهما أن يتزوجا بأسرع ما يمكن، لأنني لا أريد فترات خطوبة طويلة في هذا البيت.

وكان ردي فورياً، وبانعدام رحمة لم أغفره لنفسي قط:

– غداً، في أول ساعات الصباح.

– يا رجل! يجب عدم المبالغة أيضاً – ردّ عليّ أبي متفاجئاً، لكنه أظهر ابتسامته الأولى، وأضاف:– لا يوجد لدى هذه البنت ما ترتديه حتى الآن.

المرة الأخيرة التي رأيتُ فيها العمة "با"، وهي في التسعين من عمرها تقريباً، كانت حين جاءت إلى البيت في كارتاخينا، في مساء ذي حر مُذِل، دون إشعار مسبق؛ قادمة من ريوهاتشا في سيارة تكسي إكسبريس، ومعها حقيبة تلميذ؛ مرتدية ملابس حداد، وعمامة من قماش أسود. دخلت سعيدة، بذراعين مفتوحين، وصاحت بالجميع:

– إنني آتية لأودعكم، لأنني سأموت.

احتضناها، ليس لما تمثله لنا وحسب، وإنما لأننا كنا نعلم كذلك، مدى معرفتها لشؤونها مع الموت. بقيت في البيت، منتظرة ساعاتها في غرفة الخدمة، وهي الغرفة الوحيدة التي قبلت النوم فيها. وهناك ماتت، عابقة برائحة العفة، عن عمر قدرناه بمئة سنة وسنة.

كانت تلك الفترة هي الأشد زخماً في الأونيفرسال. فقد كان ثابالا يوجهني بحكمته السياسية لكي تقول مقالاتي ما يجب أن تقوله، دون أن تصطدم بقلم الرقابة. وأبدى للمرة الأولى، اهتمامه بفكرتي القديمة، في كتابة ريبورتاجات للصحيفة. وسرعان ما برز الموضوع الرهيب للسائحين الذين هاجمتهم أسماك القرش على شواطئ ماريبًا. ومع ذلك، فإن أكثر الحلول الذي خطر للبلدية أصالة، هو عرض مبلغ خمسين بيزو مقابل كل سمكة قرش تُقتل. وفي اليوم التالي، لم تعد أغصان أشجار اللوز تكفي لعرض الأسماك التي قُتلت خلال الليل. وقد كتب هيكتور روخاس هيراثو من بوغوتا، وهو يكاد يموت من الضحك، في عموده الجديد في جريدة إلتيمبو، ملاحظة ساخرة حول الفكرة غير الموفقة، بتطبيق ذلك المبدأ الخاطئ، وفق أسلوب اقتلاع الفجل من أوراقه، على صيد أسماك القرش. وقد وفر لي ذلك فكرة كتابة ريبورتاج عن الصيد الليلي. ساندني ثابالا بحماس، لكن إخفاقي بدأ منذ لحظة صعودي المركب، عندما سألوني عما إذا كنتُ أصاب بدوار البحر، وأجبت أن لا؛ وعما إذا كنتُ أخاف البحر. والحقيقة أنني كنت أخافه، ولكنني قلت لا. ثم سألوني أخيراً، إذا ما كنت أعرف السباحة – وكان عليهم أن يوجهوا هذا السؤال أولاً – ولم أجرأ على الكذب بأنني أعرف. ولكنني علمت

على أي حال، وأنا على اليابسة، من خلال محادثة مع بعض البحارة، بأن الصيادين يذهبون إلى بوكاس دي ثينيثا، على بعد تسعة وثمانين ميلاً بحرياً عن كارتاخينا، ويعودون محملين بأسماك قرش بريئة ليبيعوها، على أنها الأسماك المجرمة، بخمسين بيزو. غير أن هذا الخبر العظيم انتهى في اليوم نفسه، وانتهى بالنسبة لي الحلم بكتابة الريبورتاج. فنشرتُ بدلاً منه قصتي الثامنة: "نابو، الزنجي الذي جعل الملائكة ينتظرون". وقد رأى ناقدان جديان على الأقل، وأصدقائي الصارمون في بارانكيا، أن القصة تشكل تحولاً طيباً في توجهي.

لا أظن أن نضجي السياسي كان كافياً للتأثير عليّ، ولكنني عانيت في الحقيقة، انتكاسة مماثلة للسابقة. فقد أحسست أنني غارق في الوحل، إلى حد أن متعتي الوحيدة كانت تتمثل في طلوع الفجر عليّ، وأنا أغني مع السكارى في عقود قباب السور التي كانت مواخير للجنود، خلال العهد الاستعماري، ثم تحولت فيما بعد إلى سجن سياسي مشؤوم. وقد قضى الجنرال فرانثيسكو دي باولا سانتاندير فيها حكماً بالسجن لمدة ثمانية أشهر، قبل أن ينفيه رفاقه، في القضية والسلاح، إلى أوروبا.

القيم على تلك الآثار التاريخية، كان عامل لينوتيب متقاعداً، يجتمع معه، كل يوم، زملاؤه الذين ما زالوا يمارسون المهنة، بعد أن ينتهوا من طباعة الصحف، للاحتفال باليوم الجديد، بدمجانة من الروم الأبيض السري، المركّب بفنون المحتالين البارعين في غش الخمور. لقد كانوا عمال طباعة مثقفين، عبر تقاليد أسرية، ونحويين دراميين، وشرّيبين عظماء، أيام السبت. وقد انضممتُ إلى نقابتهم.

أصغرهم سناً كان يدعى غييرمو دافيلا. وكان قد توصل إلى مأثرة الحصول على عمل في منطقة الساحل، على الرغم من تشدد بعض القادة المحليين الذين يعارضون قبول الكاتشاكو في نقابتهم، وربما توصل إلى ذلك بفن من فنونه السحرية، إذ كان، فضلاً عن تمرسه الجيد في المهنة ولطفه الشخصي، مشعوذ أعاجيب. وكان يبهرنا بألاعيبه السحرية في إخراج عصافير حية من أدراج المكاتب، أو تَبييض الصفحة التي نكون قد انتهينا من كتابة تعليق افتتاحي عليها، وسلمناها للتو، بينما نحن على وشك إغلاق الطبعة. فكان المعلم ثابالا، الصارم جداً في الواجب، ينسى للحظة، باديرفسكي والثورة البروليتارية، ويطلب منا التصفيق للساحر، مع تنبيهه المتكرر، والذي لا يتم التقيد به دوماً، بأنها المرة الأخيرة. أما أنا، فرأيت أنني قد اكتشفت الواقع أخيراً، بمشاطرتي ذلك الساحر، روتين الحياة اليومية.

في فجر أحد تلك الأيام، في قباب السور، أخبرني دافيلا بفكرته في إصدار جريدة من قَطع خمسة وعشرين بخمسة وعشرين سنتيمتراً - أي بحجم نصف صفحة نظامية - توزع مجاناً في المساء، في ساعة الازدحام عند إغلاق المتاجر. ستكون أصغر جريدة في العالم، يمكن قراءتها في عشر دقائق. وهذا ما حدث. وقد أسميت "المضغوطة"، وكنت أتولى كتابتها خلال ساعة من الوقت، في الحادية عشرة صباحاً، بينما يتولى دافيلا تنضيدها وطباعتها خلال ساعتين، ويوزعها بائع صحف جريء، لم يكن يتاح له الوقت لينادي عليها مرتين.

صدرت الجريدة يوم الثلاثاء، الثامن عشر من أيلول ١٩٥١، ومن المستحيل تصور نجاح ساحق أكبر، وأمد حياة أقصر: ثلاثة أعداد في

ثلاثة أيام. وقد اعترف لي دافيلا بأنه ما كان ليتصور، ولو بقدرات السحر الأسود، تحقيق فكرة بمثل تلك العظمة، ومثل تلك الكلفة المنخفضة، يتسع لها مكان بمثل ذلك الصغر، وتُنفذ بمثل ذلك الوقت القصير، وتنفد بمثل تلك السرعة. الأمر الأكثر غرابة هو أنني توصلت إلى التفكير للحظة، في اليوم الثاني – وكنتُ ثملاً بتخاطف الجريدة في الشوارع، وتحمس المتعصبين – في أنه يمكن لها ببساطة، أن تكون الحل لحياتي. استمر الحلم حتى يوم الخميس، عندما بيّن لنا المدير الإداري أن إصدار عدد آخر سيودي بنا إلى الإفلاس، حتى ولو قررنا نشر إعلانات تجارية. لأن الإعلانات ستكون صغيرة جداً، وغالية إلى حد لا يمكن إيجاد حل عقلاني له. فكفكرة الجريدة نفسها، المستندة أساساً إلى حجمها، تحمل معها – رياضياً – جرثومة دمارها: إذ أنها تصير أقل مردوداً كلما زادت مبيعاتها.

بقيت كمن هو معلق بالمصباح. فقد كان الانتقال إلى كارتاخينا مناسباً ومفيداً، بعد تجربة كرونيكا، فضلاً عن أنه وفر لي أجواء ملائمة جداً لمواصلة كتابة عاصفة الأوراق، ولا سيما وسط حمى الإبداع التي كنت أعيشها في بيتنا، حيث تبدو أشد الأمور الغريبة وغير المألوفة، محتملة دائماً. ويكفي أن أستذكر غداء كنا نتحدث فيه مع والدي، حول الصعوبة التي يواجهها كتّاب كثيرون في كتابة مذكراتهم، عندما يفقدون القدرة على تذكر أي شيء. فخرج علينا كوكي ببساطة، ولم يكن قد أكمل السادسة من عمره، بالنتيجة الباهرة حين قال:

– يجب على الكاتب إذن، أن يبدأ بكتابة مذكراته أولاً، وهو ما يزال يتذكر كل شيء.

لم أتجرأ على الاعتراف بأن ما يحدث لي في عاصفة الأوراق هو الشيء نفسه الذي كان يحدث لي في "البيت": فقد بدأت أهتم بالتقنية أكثر من الموضوع. وبعد سنة من العمل بكثير من البهجة، تكشف لي أن ما أكتبه هو متاهة دائرية بلا مدخل ولا مخرج. وأظن أنني أعرف السبب اليوم؛ فتيار تصوير العادات والتقاليد الاجتماعية الذي قدم نماذج تجديد جيدة في بداياته، انتهى به الأمر إلى التحجر في الموضوعات الوطنية الكبرى التي حاول أن يشق بها مخرج طوارئ. وتحويلها بدورها إلى مستحاثات. والواقع أنني لم أكن أحتمل لحظة أخرى من التردد. ولم يكن ينقصني سوى التحقق من المعلومات وإحكام الأسلوب، قبل أن أضع نقطة النهاية، بالرغم من أنني لم أكن أشعر بأن العمل يتنفس. ولكنني كنت متورطاً بعد كل ذلك الوقت من العمل في الظلمات، وكنت أرى أن الكتاب يغرق، دون أن أكتشف أين هي الشقوق فيه. والأسوأ من ذلك، أنني وصلت إلى مرحلة في الكتابة لا تفيدني فيها مساعدة أحد، لأن الخلل لم يكن في النص، وإنما في داخلي؛ ولا يمكن لأحد سواي أن يمتلك عيوناً ترى ذلك الخلل، أو قلباً يعانيه. وربما لهذا السبب بالذات توقفت، دون تردد، عن كتابة "الزرافة"، بعد أن انتهيت من تسديد سلفة الهيرالدو التي اشتريت بها الأثاث.

لسوء الحظ أنه لم يكن بمقدور الذكاء، ولا الصمود، ولا الحب، أن تهزم الفقر. وبدا كما لو أن كل شيء يعمل لمصلحته. فقد انتهى العمل في جهاز الإحصاء بعد سنة، ولم يكن راتبي في الأونيفرسال كافياً لتعويضه. لم أرجع إلى كلية الحقوق، على الرغم من تحايل بعض الأساتذة ممن تواطؤوا لدفعي قدماً، على الرغم من عدم اهتمامي

باهتمامهم وعلمهم. لم تعد نقود الجميع قادرة على تغطية نفقات البيت. وكانت الفجوة كبيرة، بحيث أن مساهمتي لم تكن كافية قط، وكان شح الأحلام يؤثر بي أكثر من شح النقود.

وفي أحد الأيام، قلتُ أثناء تناول الغداء:

– إذا كنا سنغرق جميعنا، فدعوني أنجُ لعلي أحاول أن أرسل إليكم ولو زورق تجديف صغيراً.

وهكذا ذهبتُ مجدداً، في الأسبوع الأول من كانون الأول، إلى بارانكيا، بموافقة الجميع، وباليقين بأن زورقاً ما سيصلهم. ولا بد أن ألفونسو فوينمايور قد تصور ذلك منذ النظرة الأولى، عندما رآني أدخل، دون إشعار مسبق، إلى مكتبنا القديم في الهيرالدو؛ ذلك أنه لم تعد هناك موارد للإبقاء على مكتب كرونيكا. نظر إليّ كما لو أنه ينظر إلى شبح من وراء الآلة الكاتبة، وهتف مذعوراً:

– أية لعنة تفعلها هنا دون إنذار مسبق!

وقليلة هي المرات التي أجبت بها، في حياتي، برد قريب إلى ذلك الحد من الحقيقة:

– إنني غارق تماماً، يا معلم.

استعاد ألفونسو الطمأنينة:

– آه، جيد – ردّ بموهبته الدائمة، وأردف ببيت الشعر الأكثر كولومبية في النشيد الوطني:- الإنسانية بأسرها تئن هكذا، لحسن الحظ، في السلاسل.

لم يُبدِ أدنى قدر من الفضول حول سبب رحلتي. وبدت له نوعاً من التخاطر، لأنه كان يرد على كل من يسأله عني، خلال الشهور الأخيرة،

بأنني قد أصل في أي لحظة، لأبقى هناك. نهض سعيداً من وراء المنضدة، بينما هو يرتدي سترته، لأنني جئته مصادفة، كما لو أنني أسقط عليه من السماء. فقد كان لديه موعد، تأخر عنه نصف ساعة، لكي ينهي كتابة مقالته الافتتاحية لعدد اليوم التالي، فطلب مني أن أنهيها. ولم أكد أتمكن من سؤاله سوى عن موضوعها، فأجابني من العتبة، على طريقتنا كأصدقاء، وهو يغادر مسرعاً، بنضارته التقليدية:

– اقرأ ما كتبته، وستعرف.

وفي اليوم التالي كانت هناك، من جديد، آلتان كاتبتان متقابلتان في مكتب الهيرالدو، وكنتُ أكتب من جديد "الزرافة"، للصفحة المعهودة نفسها. و – كيف لا! – بالأجر نفسه. وفي الظروف الخاصة نفسها، بيني وبين ألفونسو، حيث تظهر في كثير من المقالات، فقرات لأحدنا أو للآخر، من المستحيل تمييزها. وقد رغب بعض طلاب الصحافة أو الأدب في تمييزها بينها، في الأرشيف، ولم يجدوا سبيلاً إلى ذلك، اللهم إلا في بعض الموضوعات المحددة، ليس من خلال الأسلوب وإنما من خلال المعلومات الثقافية.

وفي حانة الرجل الثالث، أحزنني الخبر المشؤوم عن مقتل صديقنا اللص. فقد خرج في إحدى الليالي كعادته، لممارسة مهنته. والشيء الوحيد الذي عُرف عنه بعد ذلك، دون مزيد من التفاصيل، هو أنه تعرض لطلق ناري في القلب، داخل البيت الذي سطا عليه. طالبت بجثمانه أخته الكبرى، وهي العضو الوحيد من أسرته، ولم يحضر جنازه سوانا نحن وصاحب الحانة.

رجعتُ إلى بيت الأخوات أفيلا. وواصلت ميرا ديلمار، وقد عادت

جارة من جديد، تطهير لياليَّ السيئة في القط الأسود، بسهراتها المسكّنة. وكانت تبدو، هي وأختها أليسيا، توءمين في طريقتهما في الحياة، وفي تمكنهما من جعل الزمن يصير دائرياً، عندما نكون معهما. وقد بقيتا، بطريقة خاصة جداً، ضمن الجماعة. فقد ظلتا تدعواننا، مرة واحدة في السنة على الأقل، إلى وليمة من لذائذ المأكولات العربية التي كانت تغذي روحنا. وكانت تقام في بيتهما سهرات مفاجئة لزائرين بارزين، ابتداء من فنانين كبار في أي نوع من الفنون، حتى شعراء تائهين. وأظن أنهما هما من نظمتا ميولي الموسيقية المشوشة، وضمتاني إلى عصبة المركز الفني السعيدة.

يبدو لي اليوم، أن بارانكيا قد وفرت لي أفقاً أفضل لرواية عاصفة الأوراق؛ ذلك أنني ما إن امتلكت منضدة، عليها آلة كاتبة، حتى بدأت التصحيح باندفاع متجدد. وفي تلك الأيام، تجرأتُ على عرض النسخة الأولى القابلة للقراءة، وأنا أعرف أنها غير منتهية، على شلة الأصدقاء. كنا قد تحدثنا عنها كثيراً إلى حد أن أي تنبيه كان يبدو فائضاً عن الحاجة. بقي ألفونسو يومين، يكتب قبالتي، دون أن يأتي على ذكرها. وفي اليوم الثالث، عندما أنهينا مهامنا في آخر المساء، وضع المخطوط مفتوحاً فوق المنضدة، وقرأ صفحات كان قد أشّر عليها بقصاصات ورقية متطاولة. وكان يبدو مترصداً لنقاط عدم الترابط، ومنقياً للأسلوب، أكثر منه ناقداً. كانت ملاحظاته بالغة الصواب، وقد أخذتُ بها كلها، باستثناء واحدة بدت له مقحمة دون مسوغ، حتى بعد أن أثبتُ له أنها حادثة واقعية من طفولتي. فقال، وهو يكاد يموت من الضحك:

– حتى الواقع نفسه يخطئ عندما يكون الأدب رديئاً.

أما منهج خيرمان بارغاس فيتلخص في أنه لا يقدم تعليقات فورية إذا كان النص جيداً، وإنما يقدم فكرة مطمئنة ينهيها بإشارة تعجب:

– بديع!

ولكنه يواصل في الأيام التالية، إطلاق وابل من الأفكار المتفرقة حول الكتاب، ينهيها في أي ليلة عربدة، بحكم سديد. أما إذا بدا له المخطوط غير جيد، فإنه يتفق مع المؤلف على موعد، على انفراد، ويطلعه على رأيه بكل صراحة، وبلطف بالغ، لا يبقى معه للمتدرب من مخرج سوى تقديم الشكر إليه من كل قلبه، على الرغم من إحساسه بالرغبة في البكاء. ولكن لم تكن هذه هي حالتي. ففي يوم لا يخطر على بال، قدم لي خيرمان، بين المزاح والجد، تعليقاً حول مخطوطتي، أعاد الروح إلى جسدي.

كان ألفارو قد اختفى من مقهى جابي، دون أدنى إشارة إلى أنه حي. وبعد أسبوع تقريباً، حين لم أكن أنتظر رؤيته، سدّ عليّ الطريق بسيارته في شارع بوليفار، وصرخ بي بأفضل مزاج لديه:

– اصعد يا معلم، سوف أخوزقك لفظاظتك.

كانت تلك هي عبارته التخديرية. قمنا بعدة جولات، دون وجهة محددة، في المركز التجاري الملتهب قيظاً، بينما ألفارو يطلق، بالصراخ، تحليلاً لقراءته أقرب إلى الانفعالي، غير أنه مؤثر. وكان يقطع كلامه كلما رأى أحد معارفه على الرصيف، ليصرخ مرحباً إليه بعبارة مداعبة متوددة أو ساخرة، ثم يواصل محاكمته العقلانية بحماس، بصوت

متهدج من الجهد، وشعر مشعث، وبتينك العينين الزائغتين اللتين تبدوان، كما لو أنهما تنظران إليّ من خلال مشهد عام وشامل. وانتهى بنا المطاف إلى تناول بيرة مثلجة على رصيف مقهى لوس ألميندروس، يُثقل علينا صخب مشجعي فريقي جونيور وسبورتينغ المتعصبين في ستاد كرة القدم، على الرصيف المقابل؛ وأخيراً داهمنا تدافع الممسوسين الخارجين من الستاد، قانطين بسبب التعادل المشين بهدفين لهدفين. أما الحكم الحاسم الوحيد حول مخطوط كتابي، فقد صرخ به ألفارو في اللحظة الأخيرة، من خلال نافذة السيارة:

- ما زال لديك، على كل حال يا معلم، الكثير من رواية العادات والتقاليد!

وقد تمكنت، شاكراً، من القول له صارخاً:

- ولكنه من جيد فوكنر!

فوضع هو حداً لكل ما لم يقل وما لم يُفكر فيه، بقهقهة مدوية:

- لا تكن ابن عاهرة!

بعد خمسين سنة من ذلك، وكلما تذكرت ذلك المساء، أعود لسماع القهقهة المدوية التي رنت بطعم الحجارة، في الشارع الملتهب.

صار واضحاً لدي، أن الرواية قد أعجبت الثلاثة، مع تحفظاتهم الشخصية، وربما العادلة؛ ولكنهم لم يقولوا ذلك بصراحة كاملة، ربما لأنه يبدو لهم وسيلة سهلة. لم يتكلم أي واحد منهم عن نشرها، وكان هذا أيضاً من طباعهم. فالمهم في نظرهم، هو الكتابة بصورة جيدة. أما ما عدا ذلك فهو شأن الناشرين.

وباختصار: لقد كنتُ مرة أخرى، في مدينتنا بارانكيا المعهودة، إلا

أن نكبتي تمثلت في الوعي بأنني لن أجد الحماسة، في هذه المرة، للمواظبة على كتابة "الزرافة". والحقيقة أن زاويتي الصحفية كانت قد أنجزت مهمتها في فرض حِرفية الكتابة اليومية عليَّ، من أجل تعلم الكتابة من الصفر، بالعناد والطموح الضاري لأن أكون كاتباً مختلفاً. لم أكن قادراً في أحيان كثيرة، على التعامل مع الموضوع. وكنت أستبدله بموضوع آخر، عندما أدرك أنه ما زال كبيراً على مقاسي. وقد كانت على أي حال، رياضةً أساسية لتكويني ككاتب، مع اليقين المريح بأنها ليست سوى مادة غذائية دون أي التزام تاريخي.

مجرد البحث عن موضوع يومي، ملأ شهوري الأولى تلك بالغم. لم يكن ذلك البحث يترك لي متسعاً من الوقت لعمل شيء آخر؛ فقد كنتُ أضيع ساعات في تفحص الجرائد الأخرى، وأدون ملاحظات من المحادثات الشخصية الخاصة، وأهيم في تخيلات تقلق أحلامي؛ إلى أن واجهتني الحياة الواقعية. فكانت تجربتي الأكثر سعادة في هذا الاتجاه، هي رؤيتي في مساء أحد الأيام، وأنا أمر في الحافلة، إعلاناً بسيطاً على باب بيت: "تبيع سعفَ نخيل جنائزياً".

كان أول ما تبادر إلى ذهني، هو طرق الباب لتحري معلومات عن تلك اللقية. ولكن الحياء تغلب علي. وهكذا علمتني الحياة نفسها أن أحد أكثر الأسرار فائدة، في الكتابة، هو تعلم قراءة رموز الواقع دون توجيه أسئلة. وقد اتضح لي ذلك بصورة أكبر بينما أنا أعيد، قبل سنوات قليلة، قراءة أكثر من أربعمئة "زرافة" منشورة، ومقارنتها مع بعض النصوص الأدبية التي نشأت عنها.

في عطلة أعياد الميلاد، جاء أعضاء هيئة أركان جريدة

الاسبيكتادور، ابتداء من المدير العام، دون غابرييل كانو، مع كل أبنائه: لويس غابرييل، الوكيل؛ وغييرمو، وهو نائب المدير آنذاك؛ وألفونسو، نائب الوكيل؛ وفيدبل، أصغرهم سناً، وكان يتدرب على كل شيء. وجاء معهم إدواردو ثالاميا، الملقب أوليسيس، وكانت له مكانة خاصة بالنسبة لي، لأنه نشر قصصي القصيرة وملاحظة تقديمه لها. وكانوا معتادين على التمتع معاً، كعصبة، بالأسبوع الأول من العام الجديد، في منتجع برادومار، على بعد عشرة فراسخ عن بارانكيا، حيث كانوا يقتحمون البار معاً، بجلبة. الشيء الوحيد الذي أتذكره من ذلك الصخب، بشيء من الدقة، هو أن أوليسيس، شخصياً، كان إحدى أكبر المفاجآت في حياتي. لقد كنت أراه بكثرة في بوغوتا، في البدء في مقهى الطاحونة، ثم بعد سنوات من ذلك، في مقهى الأوتوماتيكو، وأحياناً في مسامرات المعلم دي غريف. كنت أتذكره بطبعه المتعزل وصوته المعدني. ومنهما خرجت باستنتاج أنه شخص نزق. وهذه كانت سمعته في الحقيقة، بين القراء الجيدين في المدينة الجامعية. ولهذا تجنبته في مناسبات عديدة كيلا ألطخ الصورة التي اختلقتها له من أجل استخدامي الشخصي. وكنتُ على خطأ. فقد كان واحداً من أكثر الكائنات التي أتذكرها وداً وبذلاً لخدماته، مع تفهمي بأنه يحتاج إلى مبرر خاص، نابع من العقل أو من القلب، لإظهار ذلك. لم يكن، في مادته البشرية، شيء من مادة دون رامون فينيس، أو الفارو موتيس، أو ليون دي غريف، ولكنه يشاطرهم الكفاءة والقابلية الفطرية في أن يكون معلماً في كل حين، وبأنه حظي بحسن حظ نادر أتاح له قراءة كل الكتب التي لا بد من قراءتها.

أما أبناء كانو الشباب - لويس غابرييل، وغييرمو، وألفونسو، وفيدبل - فتوصلت إلى أن أكون أكثر من صديق لهم، عندما عملتُ محرراً في جريدة الاسبيكتادور. وسيكون من المجازفة، تذكر حوار ما من تلك الأحاديث التي كان الجميع يخوضونها ضد الجميع في ليالي برادومار. ولكن من الصعب في الوقت نفسه، نسيان إلحاحها غير المحتمل على مرض الصحافة والأدب القاتل. لقد جعلوني واحداً منهم، وأشبه بحكائهم الشخصي الذي اكتشفوه وتبنوه بأنفسهم، ومن أجلهم. ولكنني لا أتذكر - مثلما قلت كثيراً - أن أباً منهم اقترح عليَّ الذهاب للعمل معهم. لم أتأسف لذلك، لأنه لم تكن لدي، في ذلك الوقت الرديء، أدنى فكرة عما سيؤول إليه مصيري، ولا إذا ما كانوا سيتيحون لي اختياره.

رجع ألفارو موتيس، المتحمس لحماسة آل كانو، إلى بارانكيا لدى تعيينه مديراً للعلاقات العامة في شركة "إسو الكولومبية"، وحاول إقناعي بالذهاب للعمل معه في بوغوتا. غير أن مهمته الحقيقية مع ذلك، كانت أكثر دراماتيكية بكثير: فبسبب خطأ رهيب ارتكبه أحد المتعهدين المحليين، ملؤوا خزانات الوقود في المطار ببنزين سيارات، بدلاً من بنزين الطائرات، ولم يكن هناك ريب في أنه لا يمكن لطائرة مزودة بذلك الوقود الخاطئ، أن تصل إلى أي مكان. وكانت مهمة موتيس تتمثل في إصلاح الخطأ، بسرية مطلقة، قبل حلول الفجر، دون أن يعلم بذلك موظفو المطار، وأقل منهم بكثير الصحافة. وهذا ما فعله. فقد تم استبدال الوقود بآخر جيد، خلال أربع ساعات من الويسكي تخللتها محادثة جيدة في المطار المحلي. لقد كان لدينا فائض من الوقت للتحدث

في كل الأمور. ولكن الموضوع الذي ما كنتُ قادراً على تصوره، هو أنه يمكن لدار نشر لوسادا في بوينس آيرس، أن تنشر روايتي التي كنت على وشك الانتهاء منها. وكان ألفارو موتيس يعرف ذلك، مباشرة، من المدير الجديد لفرع الدار في بوغوتا، خوليو سيسر فييغاس، وهو وزير سابق في البيرو، ملتجئ منذ وقت قريب، في كولومبيا.

لستُ أتذكر تأثراً أشد حدّة؛ فقد كانت لوسادا واحدة من أفضل دور النشر في مدينة بوينس آيرس التي ملأت فراغ النشر الذي سببته الحرب الأهلية الإسبانية. كان ناشروها يغذوننا، يومياً، بمستجدات بالغة الأهمية والتشويق، يكاد لا يتاح لنا الوقت لقراءتها. وكان وكلاء مبيعاتها يأتوننا، في مواعيد دقيقة، بالكتب التي نوصي عليها، ونتلقاهم كمبعوثي السعادة. ومجرد التفكير في أن واحدة من دور النشر تلك يمكن لها أن تنشر عاصفة الأوراق، أوشك أن يزعزعني ويحدث فيّ اختلالاً. فلم أكد أنتهي من توديع موتيس، وهو يسافر في طائرة مزودة بوقود سليم، حتى هرعتُ إلى الصحيفة، لأقوم بمراجعة معمقة لأصول الرواية.

انكببتُ، بكامل جسدي، في الأيام التالية، على تفحص مهووس لنص يمكن له أن يخرج من بين يدي. لم يكن أكثر من مئة وعشرين صفحة، مطبوعة على الآلة الكاتبة بفراغ مزدوج بين السطور، ولكنني قمت بعمليات ضبط، وتبديل، واختلاق لم أعد أعرف معها إذا ما صار النص أفضل أو أسوأ مما كان عليه. أعاد خيرمان وألفونسو قراءة أكثر الأجزاء حساسية، وكانا طيبي القلب إلى حد أنهما لم يوجها إليّ ملاحظات وتحفظات لا خلاص منها. في تلك الحالة من الجزع، راجعت

النسخة النهائية، وروحي في يدي، واتخذت القرار بعدم نشرها. وسيصبح ذلك، في المستقبل، هوساً لدي. فكلما أحسست بالرضى عن كتاب ناجز، يراودني شعور محزن بأنني سأكون عاجزاً عن كتابة آخر أفضل منه.

ولحسن الحظ، أن الشكوك راودت ألفارو موتيس حول سبب تأخري، فرجع إلى بارانكيا، ليأخذ نسخة الأصل الوحيدة المبيضة، ويرسلها إلى بوينس آيرس، دون أن يتيح لي الوقت لقراءة أخيرة. لم يكن التصوير الفوتوكوبي التجاري قد وُجد بعد. وكان الشيء الوحيد المتبقي لدي، هو المسودة الأولى المصححة، على الهوامش وبين السطور، بأحبار متنوعة الألوان، لتفادي البلبلة والاختلاط. ألقيت بتلك المسودة إلى القمامة، ولم أستعد الطمأنينة على مدى أكثر من شهرين، تطلبهما تلقي الجواب.

وفي أحد الأيام، سلموني في الهيرالدو، رسالة كانت قد اختلطت بأوراق أخرى، على منضدة رئيس التحرير. جمّد قلبي مرأى عنوان دار نشر لوسادا في بوينس آيرس، على المغلف؛ ولكن الحياء منعني من فتحها هناك بالذات، فلم أفعل إلا في حجيرتي الخاصة. وبفضل تصرفي هذا، واجهت دون شهود، الخبر المقتضب بأن عاصفة الأوراق قد رُفضت. ولم أجد نفسي مضطراً إلى قراءة الحكم كاملاً، لأشعر بالصدمة القاسية، في تلك اللحظة، وبإحساسي بأنني سأموت.

كانت الرسالة هي القرار السامي للسيد غييرمو توري، رئيس مجلس إدارة النشر، مدعماً بمجموعة من الحجج البسيطة التي يرن فيها تفخيم، وكفاءة، وخطابة أناس قشتالة البيض. وكان العزاء الوحيد هو التساهل الأخير المفاجئ: "لا بد من الاعتراف للمؤلف، بمواهبه

الاستثنائية في كراصد وشاعر". ومع ذلك، ما زلت أفاجأ حتى اليوم، بصرف النظر عن ذهولي وخجلي، بأن أشد الاعتراضات فجاجة، تبدو لي مناسبة.

لم أحتفظ قط، بنسخة من الرسالة. ولم أدر أين صارت بعد أن تداولها، طوال عدة شهور، أصدقائي في بارانكيا الذين لجؤوا إلى كل أنواع المبررات البلسمية، في محاولة التسرية عني. والحقيقة أنني عندما حاولت الحصول على نسخة من الرسالة، من أجل توثيق هذه المذكرات، بعد انقضاء خمسين سنة، لم يجدوا لها أثراً في دار النشر في بوينس آيرس. لست أدري إذا ما كانت قد نُشرت كخبر، رغم أنني لم أحاول أن تكون خبراً قط. ولكنني أعرف أنني احتجت إلى وقت لا بأس به، كي أستعيد حماستي بعد أن تهجمتُ على هواي، وكتبتُ رسالة غاضبة، نُشرت دون إذن مني. وقد سبب لي سوء الائتمان ذاك، حزناً كبيراً، لأن ردّ فعلي النهائي كان استغلال ما هو مفيد في الحكم، وتصحيح كل ما يمكن تصحيحه، وفق وجهة نظري، والمواصلة قُدماً.

أفضل تشجيع هو الذي وفره لي خيرمان بارغاس، وألفونسو فوينمايور، والفارو سيبيدا. لقد وجدتُ ألفونسو في إحدى حانات السوق العام، حيث اكتشف واحة للقراءة وسط جلبة حركة التجارة. استشرته إذا ما كان عليّ، ترك روايتي على حالها، أم أنه يتوجب عليّ إعادة كتابتها في بناء جديد، ولا سيما أنني كنت أرى أنها تفتقد، في نصفها الثاني، الزخم الذي يسود نصفها الأول. استمع ألفونسو إليّ، بشيء من نفاد الصبر، وأصدر لي حكمه:

- انظر يا معلم - قال لي أخيراً، كمعلم بكل معنى الكلمة -،

السيد غيبرمو دي توريّ شخص محترم جداً إلى الحد الذي يظنه هو نفسه، ولكنه لا يبدو لي مطلعاً تماماً على ما وصلت إليه الرواية اليوم.

وفي محادثات خرقاء، أخرى في تلك الأيام، وجدتُ العزاء في سابقة أن غيبرمو دي توريّ كان قد رفض، من قبل، أصول ديوان "إقامة في الأرض" لبابلو نيرودا، عام ١٩٢٧. وكان فوينمايور يفكر في أن مصير روايتي سيكون مختلفاً، لو أن مَن قرأها هو خورخي لويس بورخيس؛ ولكن الضرر سيكون أكبر أيضاً لو أنه هو الذي رفضها.

وانتهى ألفونسو فوينمايور إلى القول:

- ولهذا، دعك من الإلحاح والإزعاج. فروايتك جيدة مثلما بدت لنا، والشيء الوحيد الذي عليك عمله، منذ الآن، هو مواصلة الكتابة.

أما خيرمان - الوفي لأسلوبه المتزن - فقد طلب مني أن أقدم المعروف بعدم المبالغة. وكان يفكر في أن الرواية ليست سيئة إلى حد عدم الموافقة على نشرها، في قارة يعاني فيها هذا الجنس من أزمة. وليست جيدة إلى حد إثارة فضيحة دولية، الخاسر الوحيد فيها سيكون كاتباً مبتدئاً ومجهولاً. بينما لخص ألفارو سيبيدا حكم غيبرمو دي توريّ بواحدة من عباراته المزهرة:

- المسألة هي أن الإسبان أناس شديدو الفظاظة.

وعندما انتبهت إلى أنني لا أملك نسخة مبيضة من الرواية، أعلمتني دار النشر لوسادا، عبر شخص ثالث أو رابع، أنها وفق أنظمتها، لا تعيد النصوص الأصلية إلى أصحابها. ولحسن الحظ أن خوليو سيسر بييّغاس كان قد استنسخ نسخة قبل إرسال نسختي إلى بوينس آيرس، فأوصلها إليّ. عكفتُ عندئذ على تصحيح جديد

بالاستناد إلى النتائج التي توصل إليها أصدقائي. ألغيت مقطعاً مطولاً عن البطلة التي تتأمل من ممر أزهار البيجونيا، وابل مطر يستمر ثلاثة أيام، وهو المقطع الذي تحوّل، فيما بعد، إلى القصة القصيرة "مونولوج لإيزابيل وهي ترى هطول المطر في ماكوندو". وحذفتُ حواراً غير ضروري للجد مع الكولونيل أوريليانو بوينديا، قبل مذبحة شركات الموز، وحوالي ثلاثين صفحة تشوش، شكلاً ومضموناً، البناء الموحد للرواية. وبعد عشرين سنة من ذلك تقريباً، حين كنتُ أظن أنني قد نسيتها، ساعدتني أجزاء من تلك المقاطع، في تدعيم حالات الحنين، على طول مئة عام من العزلة وعرضها.

كنت على وشك تجاوز الصدمة، عندما نُشر الخبر القائل إن الرواية الكولومبية التي اختيرت للنشر، بدل روايتي، في دار نشر لوسادا، هي رواية إدواردو كابابيرو كالديرون "المسيح مولياً ظهره". لقد كان خطأ أو حقيقة تنز سوء نية، لأن المسألة لم تكن مسابقة، وإنما برنامجُ دار النشر لوسادا من أجل الدخول إلى السوق الكولومبية بمؤلفين كولومبيين. وروايتي لم تُرفض في منافسة مع رواية أخرى، وإنما لأن غييرمو دي توريّ لم يجدها صالحة للنشر.

طاش صوابي أكثر مما اعترفتُ به أنا نفسي آنذاك. ولم أجد الجرأة على معاناة ذلك الوضع، دون أن أقنع نفسي به. ولهذا سقطتُ، دون إشعار مسبق، على صديقي منذ الطفولة، لويس كارميلو كوريّا، في مزرعة الموز في سيبيا - على بعد بضعة فراسخ عن كاتاكا - حيث كان يعمل في تلك السنوات مراقباً للطقس، ومراجع ضرائب. وبقينا يومين نسترجع مرة أخرى، كما هي عادتنا، طفولتنا المشتركة. كانت ذاكرته،

وبداهته، وصراحته تبدو لي كاشفة إلى حد تسبب لي شيئاً من الرعب. وبينما نحن نتبادل الحديث، كان يقوم، مستخدماً صندوق عدّته، بإصلاح أعطال البيت، بينما أنا أستمع إليه من أرجوحة نوم تهزها نسمات المزارع الخفيفة. وكانت زوجته، نينا سانتشيث، تصحح هذياناتنا ونسياناتنا، وهي تموت من الضحك، في المطبخ. وفي النهاية، في جولة مصالحة في شوارع آراكاتاكا المقفرة، أدركتُ إلى أي حد كنت قد استعدت صحتي المعنوية، ولم يبق لدي أدنى شك في أن عاصفة الأوراق - سواء أرفضت أم لم ترفض - ليست الكتاب الذي نويت كتابته بعد الرحلة مع أمي.

ومتحمساً بتلك التجربة، ذهبت بحثاً عن رافائيل إسكالونا في فردوسه في بايدوبار، محاولاً التنقيب عن عالمي حتى الجذور. لم أفاجأ، لأنني أحسست أن كل ما وجدته، كل ما كان يحدث، وكل الناس الذين عرفُوني عليهم، هي أمور تبدو، كما لو أنني قد عشتها، ليس في حياة أخرى، وإنما في الحياة التي أعيشها. في ما بعد، في واحدة من رحلاتي الكثيرة، تعرفت على الكولونيل كليمنتي إسكالونا، والد رافائيل، الذي أدهشني منذ اليوم الأول، بوقاره وسلوكه كبطريرك على الطريقة القديمة. لقد كان نحيلاً ومستقيماً كقصبة بامبو، له بشرة مدبوغة وعظام متينة، ويتمتع بوقار تجاوز كل التجارب. لقد لاحقني، منذ صباي، موضوع اللهفة والوقار اللذين انتظرَ بهما جداي حتى نهاية حياتيهما المديدة، تقاعد المحارب القديم. ومع ذلك، عندما كتبتُ أخيراً، الكتاب في فندق قديم في باريس، بعد مرور أربع سنوات، لم تكن الصورة الراسخة في ذهني، طوال الوقت هي صورة جدي، وإنما صورة دون كليمنتي إسكالونا، كإعادة جسدية للكولونيل الذي لا يكاتبه أحد.

عرفتُ من رافائيل إسكالونا أن مانويل ثاباتا أوليفيا قد استقر كطبيب فقراء في بلدة لاباث، على بعد كيلومترات قليلة من بايدوبار، فذهبنا إلى هناك. وصلنا عند الغروب، وكان هناك في الجو، شيء خانق يضيق أنفاسي. ذكّرني ثاباتا وإسكالونا بأن القرية وقعت، قبل حوالي عشرين يوماً، ضحية هجوم شنته الشرطة التي كانت تزرع الرعب في المنطقة، لتفرض الإرادة الرسمية. لقد كانت ليلة رعب، قتلوا الناس دون تمييز، وأضرموا النار في خمسة عشر بيتاً.

ولم نعرف تلك الحقيقة بسبب الرقابة الحديدية. ومع ذلك، لم تُتح لي الفرصة آنذاك لتصورها. كان خوان لوبيث، أفضل موسيقي في المنطقة، قد غادر دون عودة، منذ الليلة السوداء. وقد طلبنا من أخيه الأصغر بابلو، في بيته، أن يعزف لنا شيئاً، فقال لنا ببساطة حاسمة:

– لن أعود إلى الغناء في حياتي، إلى الأبد.

عندئذ علمنا أن جميع موسيقيي البلدة، وليس هو وحده، قد خبّؤوا أكورديوناتهم، وطبولهم، وآلاتهم الموسيقية الأخرى، ولم يعودوا إلى الغناء، حزناً على موتاهم. لقد كان ذلك مفهوماً، حتى إن إسكالونا نفسه الذي كان معلم كثيرين، وثاباتا أوليفيا الذي بدأ يصير طبيب الجميع، لم يتمكنا من جعل أحد بأن يغني.

حيال إلحاحنا، توافد الجيران ليعرضوا مبرراتهم، ولكنهم كانوا يشعرون، في أعماق روحهم، بأنه لا يمكن للحداد أن يستمر أكثر. "هذا يبدو كما لو أن أحدنا قد مات مع من ماتوا"، قالت ذلك امرأة تضع وردة حمراء على أذنها. وقد أيدها آخرون. عندئذ أحس بابلو لوبيث بأنه مخوّل بأن يلوي عنق أحزانه، إذ دخل إلى بيته دون أن يقول كلمة واحدة،

وخرج منه حاملاً الأكورديون. غنى، كما لو يغنِّ قط. وبينما هو يغني، بدأ موسيقيون آخرون بالتوافد. فتح أحدهم الحانة المقابلة وقدم شراباً على حسابه. وما لبثت الحانات الأخرى أن شرّعت أبوابها، بعد شهر من الحداد، وأضيئت الأنوار، واستغرقنا جميعنا في الغناء. بعد نصف ساعة من ذلك، كانت القرية بأسرها تغني. وخرج في الساحة المقفرة أول مخمور منذ شهر، وراح يغني بأعلى صوته، إحدى أغنيات إسكالونا، مهداة إلى إسكالونا نفسه، تكريماً لمعجزته في بعث الحياة في القرية.

لحسن الحظ، أن الحياة كانت تتواصل في بقية العالم. وبعد شهرين من رفض أصول روايتي تعرفت على خوليو سيسر بييغاس، وكان قد قطع علاقاته بدار نشر لوسادا، وعُيِّن ممثلاً في كولومبيا لدار النشر غونثالث بورتو، المتخصصة في بيع موسوعات وكتب علمية وتقنية، بالتقسيط. لقد كان بييغاس أطول الرجال قامة، وأقواهم بنية، والأوسع حيلة في مواجهة أسوأ عثرات الحياة الواقعية. وكان مستهلكاً مفرطاً لأغلى أنواع الويسكي ثمناً، ومحدثاً لا سبيل للتهرب منه، وراوية بارعاً لحكايات الصالونات. في ليلة لقائنا الأول، في الجناح الرئاسي في فندق برادو، خرجتُ متعثراً، وأنا أحمل حقيبة بائع متجول مترعة بنشرات دعائية ونماذج من موسوعات مصورة، وكتب في الطب والحقوق والهندسة، من مطبوعات دار نشر غونثالث بورتو. فقد وافقتُ، منذ كأس الويسكي الثاني، على التحول إلى بائع كتب بالتقسيط، في مقاطعة باديّا، ابتداء من بايدوبار حتى غواخيرا. وكان مكسبي هو سلفة تدفع نقداً بقيمة عشرين بالمئة من المبيعات، يجب أن تكفيني للعيش دون ضائقات، بعد دفع نفقاتي، بما في أجرة الفندق.

هذه هي الرحلة التي حركتها أنا نفسي، إلى أسطورية بسبب نقيصتي غير القابل للإصلاح في عدم تقدير أهدافي في الوقت المناسب. الأسطورة هي أنه جرى التخطيط للرحلة، على أنها حملة خرافية للبحث عن جذوري في أراضي أسلافي، متتبعاً الطريق الرومانسي نفسه الذي قطعته أمي عندما اقتادتها أمها لإبعادها عن عامل تلغراف آراكاتاكا. والحقيقة أن رحلتي لم تكن واحدة، وإنما برحلتين قصيرتين جداً وطائشتين.

ولم أرجع في الثانية منهما إلا إلى القرى المحيطة بابايدوبار. وعندما صرت هناك، كنت قد قررت مسبقاً بالطبع، أن أواصل قدماً، حتى رأس بيلا، على الطريق نفسه الذي اجتازته أمي العاشقة. ولكنني لم أصل إلا إلى ماناوري دي لا سييرا، ولاباث، وبييّانويفا، على بعد فراسخ قليلة من بابيدوبار. لم أتعرف آنذاك على سان خوان دي سيسر، ولا على بارانكاس، حيث تزوج جدّاي ووُلدت أمي، وحيث قتل الكولونيل نيكولاس ماركيز ميدرادو باتشيكو. ولم أتعرف على ريوهاتشا، وهي جنين قبيلتي، حتى عام ١٩٨٤، عندما أرسل الرئيس بيليساريو بيتانكور من بوغوتا، جماعة من الأصدقاء المدعوين لافتتاح مناجم الحديد في ثيريخون. كانت تلك هي رحلتي الأولى إلى غواخيرا، غواخيراي المتخيلة، التي بدت لي أسطورية مثلما وصفتها في مرات كثيرة، قبل أن أتعرف عليها. ولكنني لا أظن أن السبب هو ذكرياتي الزائفة، وإنما ذاكرة الهنود الذين كان جدي يشتري كل واحد منهم بمئة بيزو من أجل الخدمة في بيت آراكاتاكا. وكانت مفاجأتي الأولى، بكل تأكيد، هي رؤيتي الأولى لريوهاتشا، مدينة الرمل والملح، حيث ولد

أسلافي منذ جدي الثالث، وحيث رأت جدتي عذراء المعجزات تطفئ الفرن بنفخة جليدية، حين أوشك خبزها أن يحترق، وحيث خاض جدي حربه وعانى السجن بسبب جريمة غرامية، وحيث حبلت بي أمي خلال شهر عسل أبويّ.

لم يُتح لي كثير من الوقت لبيع الكتب في بابيدوبار. كنت أسكن في "فندق ويلكَم"، وهو بيت كولونيالي بديع مُحتفظ به في إطار الساحة الكبرى. في فنائه صف طويل متشابك من أشجار النخيل، وموائد حانة خشنة، وأراجيح نوم معلقة بأعمدة الدعائم. وكان صاحب المحل، فيكتور كوين، يحرس نظام البيت كأنه سيربير[1]، مثلما يحرس سمعته الأخلاقية التي يتهددها الغرباء المتهتكون. وكان في الوقت نفسه، من دعاة نقاء اللغة، ينشد ثيربانتس عن ظهر قلب، بشاءات قشتالية، ويطرح أخلاقيات غارسيا لوركا على بساط البحث. وقد أقمت علاقة طيبة معه لتعمقه في أعمال أندريس بيّو[2]، ولإلقائه الصارم لقصائد الرومانسيين الكولومبيين؛ وعلاقات سيئة جداً، كذلك، لهوسه في منع مخالفة الأنظمة الأخلاقية في أجواء الفندق المطهرة. وقد بدأ كل ذلك بصورة بالغة السهولة، لكونه صديقاً قديماً لخالي خوان دي ديوس، يُسعده استحضار ذكرياته عنه.

لقد كان فناء الفندق بالنسبة لي، ضرباً من اليانصيب، لأنني كنت

(١) سيربير Cerbero أو Cancerbero، في الأساطير الإغريقية، وحش بجسم كلب، له ثلاثة رؤوس ورقبة أفعى وأسنان مسمومة، يحرس مدخل الجحيم.

(٢) أندريس بيّو Andres Bello، كاتب ولغوي وسياسي أمريكي لاتيني، ولد في كاراكاس (١٧٨١)، وتوفي في سنتياغو دي تشيلي (١٨١٠)، أسس جامعة تشيلي، ووضع قانون الأحوال المدنية في تلك البلاد.

أقضي فيه الساعات الطويلة الفائضة، وأنا أقرأ في أرجوحة نوم، تحت قيظ الظهيرة. وقد وصل بي الأمر في أيام السغب، إلى أن أقرأ ابتداء من أبحاث في الجراحة وحتى مراجع في المحاسبة، دون أن يخطر لي أنها ستفيدني فيما بعد، في مغامراتي ككاتب. كان العمل يجري بصورة تلقائية تقريباً، لأن معظم الزبائن كانوا يمرون بطريقة ما من غربال آل إغواران أو آل كوتيس، فكانت تكفيني زيارة، تمتد حتى موعد الغداء، أستحضر خلالها حبلاً أسرية. وكان البعض يوقّعون العقد دون قراءته، لكي نصل في الوقت المناسب، إلى حيث بقية أفراد القبيلة الذين ينتظروننا، لتناول الغداء في ظل الأكورديونات. وما بين باييدوبار ولاباث، جنيت محصولي الوفير خلال أقل من أسبوع، ورجعت إلى بارانكيّا وأنا أشعر، متأثراً، بأنني كنت في المكان الوحيد في العالم الذي أفهمه حقاً.

يوم الثالث عشر من حزيران، وبينما أنا ذاهب في الصباح الباكر في الحافلة، إلى مكان لا أدري ما هو، علمت أن القوات المسلحة قد استولت على السلطة، بسبب الفوضى التي تسود الحكومة والبلاد بأسرها. ففي السادس من أيلول من السنة السابقة، قامت زمر من المحافظين، في بوغوتا، بإضرام النار بمبنيي التيمبو والاسبيكتادور، أهم صحيفتين في البلاد، وهاجمت بالرصاص، منزل الرئيس السابق ألفونسو لوبيث بوماريخا، وكارلوس ييراس ريستريبو، رئيس إدارة الحزب الليبرالي. وقد تمكن هذا الأخير، المعروف كسياسي صارم الطباع، من تبادل إطلاق النار مع المعتدين عليه. ولكنه اضطر في النهاية إلى الهرب عبر بيت مجاور. وكانت حالة العنف التي تعاني منها البلاد منذ

التاسع من نيسان، قد صارت لا تطاق. وظلت على تلك الحال، حتى فجر الثالث عشر من حزيران، عندما أقدم الجنرال غوستافو روخاس بينيّا على إخراج الرئيس المكلف، روبيرتو أوربانيتا أربيلايث، من القصر. عندئذ قام لاوريانو غوميث، الرئيس الوصي الذي كان ينعم بتقاعد طيب، باستعادة القيادة، وهو على كرسي ذي عجلات، بترتيب من أطبائه. وحاول القيام بانقلاب على نفسه، وممارسة الحكم خلال الخمسة عشر شهراً المتبقية على انتهاء ولايته الدستورية. ولكن الجنرال روخاس بينيّا كان قد استولى، مع أركانه العامة، على السلطة، ليحافظ على تمسكه بها.

جاء التأييد الوطني فورياً وإجماعياً لقرار الجمعية التأسيسية التي أضفت الشرعية على الانقلاب العسكري. ووُلّي الجنرال روخاس بينيّا السلطات حتى نهاية الفترة الرئاسية، في شهر آب من السنة التالية، بينما سافر لاوريانو غوميث مع أسرته إلى بينيدورم، على الساحل الشرقي الإسباني، مخلفاً وراءه الانطباع الواهم بأن أزمنة غضبه قد انتهت. أعلن الزعماء التقليديون الليبراليون تأييدهم للمصالحة الوطنية بنداء إلى محازبيهم الذين امتشقوا السلاح في كل أنحاء البلاد. والصورة ذات المغزى الكبير التي نشرتها الصحف في الأيام التالية، هي صورة الليبراليين الطليعيين الذين غنوا سيرِناد عشاق، تحت شرفة المخدع الرئاسي. وقد ترأس ذلك التكريم دون روبيرتو غارسيا بينيا، مدير جريدة إلتيمبو، وأحد أشد المعارضين للنظام البائد.

غير أن الصورة الأكثر وقعاً وتأثيراً في تلك الأيام، هي صورة رتل رجال حرب العصابات الليبراليين اللامتناهي، وهم يسلمون أسلحتهم في

السهوب الشرقية، يقودهم غوادالوبي سالثيدو الذي لمست صورته بعمق، كقاطع طريق رومانسي، قلوب الكولومبيين المعذبين بالعنف الرسمي. لقد كانت سلالة جديدة من رجال حرب العصابات المناهضين للنظام المحافظ؛ اعتُبروا بطريقة ما، بقية متأخرة من حرب الألف يوم، وكانوا يقيمون علاقات ليست سرية بأي حال، مع القادة الشرعيين للحزب الليبرالي.

كان على رأسهم، غوادالوبي سالثيدو قد أشاع لنفسه، في كل مستويات البلاد - بين الموالين والمعارضين - صورة أسطورية جديدة. وربما لهذا السبب، وبعد سبع سنوات من استسلامه، جرى قتله بالرصاص على يد الشرطة، في مكان ما من بوغوتا، لم يحدد بدقة قط؛ مثلما لم تتضح ظروف موته بصورة مؤكدة.

التاريخ الرسمي هو السادس من حزيران ١٩٧٧ . وقد أودع الجثمان، في احتفال رسمي مهيب، في مدفن مرقم في مقبرة بوغوتا المركزية، بحضور سياسيين معروفين. ذلك أن غوادالوبي سالثيدو، ومن مراكز قيادته الحربية، احتفظ بعلاقات ليست سياسية وحسب، وإنما اجتماعية أيضاً، مع قادة الاتجاه الليبرالي المنكوب. ومع ذلك، هناك ثماني روايات مختلفة، على الأقل، حول موته، ولا يخلو الأمر من مرتابين، في تلك الفترة وفي هذه، ما زالوا يتساءلون إذا ما كانت الجثة هي جثته حقاً، وإذا ما كان مدفوناً فعلاً في المدفن الذي ووري جثمانه فيه.

بتلك الحالة المعنوية، انطلقتُ في رحلة الأعمال الثانية إلى بروفينثيا، بعد التأكد مع بيبغاس، من أن كل شيء يسير على ما يرام. ومثلما في المرة السابقة، أنجزت مبيعاتي بسرعة كبيرة، في بايدوبار،

مع زبائن مقتنعين بالشراء مسبقاً. ذهبت مع رافائيل إسكالونا وبانتشو كورتيس إلى بييّانويفا، ولاباث، وباتيبال، وماناوري دي لا سييرا، لزيارة أطباء بيطريين ومهندسين زراعيين. وكان بعضهم قد تحدث مع بعض من اشتروا الكتب مني في الرحلتي السابقة، وكانوا ينتظرونني بطلبيات خاصة. وقد كانت أي ساعة من اليوم، مناسبة لإقامة حفلة مع الزبائن أنفسهم ورفاقهم المرحين. فيطلع علينا الفجر، ونحن نغني مع كبار عازفي الأكورديونات، دون الإخلال بأية التزامات أو دفعات مستحقة؛ إذ كانت الحياة اليومية كانت تواصل إيقاعها الطبيعي في حمى العربدة. كنا في بييانويفا مع عازف أكورديون وقارعي طبل، يبدو أنهم أحفاد بعض من كنا نستمع إليهم في طفولتنا في آراكاتاكا. وهكذا تكشف لي في تلك الرحلة، إن ما كان إدماناً طفولياً، هو مهنة ملهمة سترافقني إلى الأبد.

في هذه المرة تعرفت على ماناوري، قلب سلسلة الجبال. وهي قرية بديعة وهادئة، وتاريخية في الأسرة، لأنهم أخذوا إليها أمي للاستشفاء وهي طفلة، بعد إصابتها بحمى ثلاثية لم تنفع معها كل أنواع العقاقير. وكنتُ قد سمعت الكثير عن ماناوري؛ عن أمسياتها في أيار، وعن صيامها العلاجي، حتى إنني لاحظتُ عندما ذهبت إليها للمرة الأولى، أنني أتذكرها، كما لو أنني عرفتها في حياة سابقة.

كنا نتناول بيرة مثلجة في حانة القرية الوحيدة، عندما دنا من منضدتنا، رجل يبدو كأنه شجرة، يضع طِماق خيّال، ويعلق على خصره مسدساً حربياً. قام رافائيل إسكالونا بتعريف أحدنا على الآخر، فأمعن الرجل النظر إلى عيني، وهو ما يزال يمسك بيدي، وسألني:

– هل لك علاقة بالكولونيل نيكولاس ماركيز؟

فقلت له:

– إنه جدي.

فقال:

– جدك هذا إذن، هو من قتل جدي.

هذا يعني أنه حفيد ميداردو باتشيكو، الرجل الذي قتله جدي في مبارزة صريحة. لم يُتح لي الوقت للفزع، لأنه قال ذلك بنبرة دافئة جداً، كما لو أن القتل هو أيضاً طريقة للارتباط بصلة قرابة. بقينا معه في حفلة سكر استمرت ثلاثة أيام بلياليها، في شاحنة تحميل الأحجار التي يملكها، نشرب براندي ساخناً ونأكل سانكوتشو لحم جديان، تكريماً لذكرى جدينا الميتين. وقد انقضت عدة أيام قبل أن يعترف لي بالحقيقة: إذ كان قد اتفق مع إسكالونا على إخافتي، ولكن قلبه لم يطاوعه على مواصلة دعابات الجدين الميتين. والواقع أن اسمه كان خوسيه برودينثيو آغيلار. وكان عمله مهرباً، وهو شخص مستقيم وطيب القلب. وتكريماً له، وكيلا يكون أقل مكانة، عمَدتُ باسمه الخصم الذي قتله خوسيه أركاديو بوينديا بحربة في ميدان صراع الديكة، في رواية مئة عام من العزلة.

أما الأمر السيئ، فهو أن الكتب التي بعثها، لم تكن قد وصلت بعد، عند انتهاء رحلة الحنين تلك. ولا يمكن لي دون وصولها، أن أقبض سلفتي. لم يبق معي فلس واحد، بينما كان حساب الفندق يتزايد بسرعة أكبر من لياليّ المحمومة. وبدأ فيكتور كويين يفقد الصبر القليل المتبقي لديه، بسبب الشائعات بأنني أبدد نقود دينه على بنات هوى متردياتٍ،

وفي أوكار عربدة بائسة. وكان الشيء الوحيد الذي يبث فيّ بعض الطمأنينة، هو الغراميات المعاكسة في مسلسل "الحق بالولادة"، الرواية الإذاعية التي كتبها دون فيليكس ب. كايغنيت، وأنعشت الصدمة الشعبية التي أحدثتها، أحلامي القديمة بأدب الدموع. غير أن قراءتي غير المتوقعة لرواية هيمنغواي الشيخ والبحر، التي وصلت فجأة في مجلة لايف بالإسبانية، جاءت لتشفيني من كآباتي.

وفي البريد نفسه، وصلت شحنة الكتب التي عليّ تسليمها إلى أصحابها، كي أقبض سلفتي عنها. جميعهم دفعوا ما عليهم، لكنني كنتُ مديناً للفندق بضعف ما كسبته. وقد حذرني بيبغاس من أنني لن أحصل على أي شيء إضافي قبل مرور ثلاثة أسابيع. عندئذ تحدثتُ بجدية إلى فيكتور كويين، ووافق هو على قبول إيصال بوجود ضامن يكفلني. ولأن إسكالونا وعصبته لم يكونوا في متناول يدي، فقد قدم لي تلك الخدمة صديق وفرته العناية الإلهية، دون أي التزام من جانبي، ولمجرد أنه أعجب بقصة لي منشورة في كرونيكا. ولكنني لم أستطع مع ذلك، أن أدفع شيئاً لأحد، عندما أزفت ساعة الحقيقة.

وقد صار ذلك الإيصال تاريخياً، بعد سنوات، عندما أخذ فيكتور كويين يريه لأصدقائه وزواره، ليس كوثيقة اتهام وإنما كغنيمة. وفي المرة الأخيرة التي رأيته فيها، كان عمره مئة سنة تقريباً، وكان منتصب القامة، صافي الذهن، ودون تغيير في مزاجه. وأثناء تعميد أحد أبناء أختي بالمعمودية كونسويلو أراوخونوغيرا، وكنتُ عرابه، عدت لرؤية الإيصال غير المدفوع، بعد مرور قرابة خمسين سنة. فقد عرضه فيكتور كويين على كل من رغب في رؤيته، بظرفه وتهذيبه المعهودين. وفاجأتني

دقة الوثيقة التي حررها هو نفسه، والإرادة الهائلة بالدفع والسداد التي تتبدى في وقاحة توقعي. وقد احتفى به فيكتور في تلك الليلة، بأن رقص رقصة باسيو بايِّناتو، بتأنق كولونيالي، مثلما لم يرقصها أحد منذ سنوات فرانثيسكو الرجل. وفي النهاية شكرني أصدقاء كثيرون لأنني لم أدفع، في الموعد المحدد، قيمة ذلك الإيصال الذي أدى إلى تلك الليلة التي لا تقدر بثمن.

كانت شعوذة الدكتور بيبغاس المغرية تحتمل المزيد، ولكن ليس في ميدان بيع الكتب. فمن غير الممكن، نسيان البراعة النبيلة التي كان يناور بها الدائنين، والسعادة التي كانوا يتفهمون بها مبرراته كيلا يدفعوا في الوقت المناسب. وقد كان أكثر موضوعاته إغراء آنذاك، مرتبطاً برواية "لقد أغلقوا الدروب"، للكاتبة البارانكية أولغا سالثيدو دي ميدينا، التي أثارت ضجة اجتماعية أكثر منها أدبية، ولكن بسوابق محلية ضئيلة. وباستلهام نجاح المسلسل الإذاعي "الحق بالولادة" الذي تابعته باهتمام متزايد، طوال شهر بكامله، فكرتُ في أننا نشهد ظاهرة شعبية لا يمكن لنا، نحن الكتّاب، أن نتجاهلها. وقد طرحت الأمر على بيبغاس، لدى عودتي إلى بابيدوبار، دون أن أذكر الدين المتوجب عليّ. فاقترح عليّ كتابة الاقتباس بمكر يكفي لاجتذاب ثلاثة أضعاف جمهور المستمعين الواسع الذي تابع دراما فيليكس ب. كايغنيت الإذاعية.

قمتُ باقتباس الرواية للإذاعة خلال أسبوعين من الاعتكاف. وقد بدوا لي أكثر كشفاً بكثير مما توقعت، لأنه كان عليّ تقدير الحوارات، وتدرجات التوتر، وتدبر مواقف وأزمنة متفلتة لا تشبه في شيء، كلَّ ما كُتب من قبل. ولعدم خبرتي في شؤون الحوار - وهو ما زال نقطة

ضعفي -، كانت التجربة مفيدة ومحمودة في التعلم، أكثر مما هي في الكسب المادي. ومع ذلك، ما كان بإمكاني أن أشكو في هذا الشأن الأخير أيضاً، لأن بيبغاس دفع لي نقداً نصف الأجر مقدماً، ووعد بأن يعفيني من الديون المترتبة عليّ، مع حصوله على أول دخل من الرواية الإذاعية.

جرى التسجيل في إذاعة أتلانتيكو، مع أفضل توزيع محلي ممكن للأدوار، وبإخراج دون خبرة ولا إلهام، قام به بيبغاس نفسه. ولأداء دور الراوي، نصحوه بخيرمان بارغاس، كمذيع مختلف لتناقض بساطته واتزانه مع زعاق الإذاعة المحلية. وكانت المفاجأة الأولى في أن خيرمان وافق على العرض، أما المفاجأة الثانية فكانت في توصله هو نفسه، منذ التمرين الأول، إلى استنتاج أنه ليس الشخص المناسب. عندئذ تولى بيبغاس نفسه مسؤولية الراوي، بإيقاعه الرتيب وصفير صوته الأنديزي الذي قوض تلك المغامرة المتهورة.

بُثت الرواية الإذاعية كاملة، تكتنفها الأحزان أكثر من الأمجاد، وكانت درساً بليغاً لطموحاتي المتعطشة إلى أن أكون راوياً في أي جنس كتابي. حضرتُ عمليات التسجيل، وكانت تجري مباشرة على أسطوانة خام، وبإبرة محراث تخلف وراءها خيوطاً دقيقة سوداء، ولامعة، يكاد لمسها يكون متعذراً، كما لو أنها شعر ملاك. وفي كل ليلة، كنتُ أحمل معي حفنة لا بأس بها من تلك الخيوط لأوزعها على أصدقائي، كغنيمة غير مألوفة. ووسط تخبط وعثرات لا حصر لها، جرى بث الرواية الإذاعية، على الهواء، في موعدها المحدد، ورافقتها حفلة هائلة من تلك التي يتميز بها صاحب المشروع.

لم يستطع أحد أن يبتدع حجة مجاملة، يجعلني أصدق معها أن العمل قد أعجبه، ولكن المسلسل الإذاعي اجتذب جمهور مستمعين لا بأس به، وقدراً من الإعلانات كافياً لإنقاذ ماء الوجه. وقد منحني أنا، لحسن الحظ، همة جديدة لجنس كتابي بدا لي أنه ينطلق إلى آفاق لا يمكن توقع أبعادها. وقد بلغ إعجابي بدون فيليكس ب. كايغنيت ورواياته الإذاعي، حد الإقدام على طلب مقابلة خاصة معه، بعد نحو عشرة أعوام من ذلك، حين كنت أقضي بضعة شهور في هافانا، كمحرر في وكالة الأنباء الكوبية "برنسا لاتينا". ولكن، على الرغم من كل المبررات والحجج، لم يظهر لي قط. ولم يبق لدي منه سوى درس بليغ قرأته في مقابلة معه: "الناس يرغبون دوماً في البكاء؛ والشيء الوحيد الذي أفعله أنا، هو أنني أوفر لهم الذريعة". أما شعوذات بيبغاس بالمقابل، فلم تمض إلى ما هو أبعد من ذلك. وقد تعقدت أموره أيضاً مع دار نشر غونثاليث بورتو - مثلما حدث له من قبل مع لوسادا - ولم تكن ثمة طريقة لتصفية حساباتنا الأخيرة، لأنه تخلى عن أحلامه بالعظمة، لكي يعود إلى بلاده.

أخرجني ألفارو سيبيدا ساموديو من المطهر، بفكرته القديمة في تحويل إلناسيونال إلى صحيفة حديثة كتلك التي تعلم صنعها في الولايات المتحدة. ولم تكن حتى ذلك الحين، باستثناء مساهماته القليلة في كرونيكا، وهي مساهمات أدبية على الدوام، قد أتيحت له فرصة ممارسة العمل بشهادته التي حصل عليها من جامعة كولومبيا (في نيويورك)، إلا بتعليقات موجزة ونموذجية يرسلها إلى سبورتنغ نيوز في سانت لويز، بولاية ميسوري. وأخيرا، في عام ١٩٥٣، قام صديقنا

خوليان دافيس إتشانديا الذي كان أول رئيس لألفارو، باستدعائه لكي يتولى المسؤولية الكاملة عن جريدته المسائية إلناسيونال. وكان ألفارو نفسه قد استحثه بالمشروع الفلكي الذي قدمه إليه لدى عودته من نيويورك. ولكن ما إن أمسك بالمستيدون[1] حتى استدعاني لكي أساعده، دون ألقاب أو واجبات محددة، إنما بالراتب الأول المدفوع مقدماً، والذي كان يكفيني لأن أعيش حتى دون أن أتقاضاه كاملاً.

لقد كانت مغامرة قاتلة. كان ألفارو قد أعد الخطة كاملة، بالاستناد إلى نماذج من صحف الولايات المتحدة. ومثلما الرب في الأعالي، بقي دافيس إتشانديا، أحد رواد الأزمنة البطولية للصحافة المحلية الضخمة، وأقل الرجال الذين عرفتهم قابلية لحل لغز؛ طيب المولد وعاطفي أكثر مما هو رحيم. أما بقية المحررين فكانوا من كبار الصحفيين الصداميين، من جماعة الحصاد الباسل. وجميعهم أصدقاء فيما بينهم، وزملاء عمل منذ سنوات طويلة. وكان لكل واحد منهم، نظرياً، مداره المحدد؛ غير أنه فيما وراء النظرية، لم يُعرف قط من الذي جعل المستيدون التقني عاجزاً عن أن يخطو خطوته الأولى. الأعداد القليلة التي صدرت كانت نتاج عمل بطولي، إنما لم يُعرف قط من الذي كان ينجز ذلك العمل. ففي موعد إدخال صفائح الزنكوغراف إلى الطباعة، نجدها ملطخة بالشحم، أو تختفي المواد المستعجلة فجأة، ويسيطر علينا، نحن الغيورين، جنون الغضب. لا أتذكر مرة واحدة خرجت فيها الجريدة في موعدها، ودون إشكالات تسببها العفاريت القابعة في المطبعة. لم يُعرف قط، ما الذي كان يحدث. وربما كان التفسير الذي شاع هو الأقل توقعاً: لم يستطع

(١) المستيدون mastodonte ، حيوان منقرض شبيه بالفيل.

بعض قدماء المحررين المتخشبين التسامح مع ذلك النظام التجديدي، فتآمروا مع توائم أرواحهم إلى أن تمكنوا من تخريب المؤسسة.

غادر ألفارو الجريدة صافقاً الباب وراءه. أما أنا فكنتُ مرتبطاً بعقد عمل يمكن له، في الظروف العادية، أن يكون ضمانة لي. ولكنه في تلك الظروف السيئة، كان أشبه بقيد. وفي تلهفي لاستغلال الوقت الضائع، حاولت أن أولف، بالسرعة التي تتيحها الآلة الكاتبة، أي شيء نافع من المواد غير المكتملة المتبقية لدي من محاولات سابقة. نتف من "البيت"، محاكيات مريعة لفوكنر من نور في آب، ومن وابل مطر عصافير ناثانيل هوثورن الميتة، ومن القصص البوليسية المكرورة التي أضجرتني، ومن بعض الكدمات المتبقية لي من الرحلة مع أمي إلى آراكاتاكا. تركت كل ذلك يتدفق على هواه في مكتبي المقفر، حيث لم يبق سوى المنضدة المقشرة، وآلة الكتابة التي على آخر نفس، إلى أن وصلت في نفس واحد إلى العنوان النهائي: "يوم بعد السبت". وهي قصة أخرى من قصصي القليلة التي رضيت عنها منذ نسختها الأولى.

حاصرني في إلناسيونال بائع ساعات معصم متجول. لم أكن قد اقتنيت واحدة قط، لأسباب واضحة في تلك السنوات. وكانت الساعة التي عرضها عليّ فاخرة جداً وغالية الثمن. وقد اعترف لي بائع الساعات نفسه آنذاك، بأنه عضو في الحزب الشيوعي، مكلف ببيع ساعات كطُعم لاصطياد مموّلين للحزب. وقال لي:

– هذا يشبه شراء الثورة بالتقسيط.

فأجبته بطيب نية:

– الفرق الوحيد هو أنكم تعطونني الساعة فوراً، أما الثورة فلا.

لم ينظر البائع برضى كبير إلى دعابتي السيئة، وانتهى بي الأمر إلى شراء ساعة أرخص ثمناً، لكي أرضيه فقط، وبنظام أقساط يأتي هو ليتقاضاه كل شهر. كانت تلك هي أول ساعة أمتلكتها، وكانت بالغة الدقة والديمومة، حتى إنني لا زلت أحتفظ بها كلقية أثرية من تلك الأزمنة.

في تلك الأيام، عاد ألفارو موتيس حاملاً خبر تخصيص شركته لميزانية كبيرة من أجل تنشيط الثقافة، والظهور الوشيك لمجلة المصباح، لسان حالها الأدبي. وعندما دعاني إلى المشاركة في المجلة، اقترحت عليه مشروعاً مستعجلاً: أسطورة "لاسييربي". لقد فكرت في أنه إذا ما كان علي أن أرويها في أحد الأيام، فيجب ألا يكون ذلك عبر أي كتابة خطابية، وإنما باستخراج الأسطورة من المخيلة الجماعية، مثلما هي عليه: حقيقة جغرافية وتاريخية. هذا يعني أن تتحول – أخيراً – إلى ريبورتاج صحفي عظيم.

فقال لي موتيس:

– افعل ما يخرج معك من أي مكان. ولكن انجزه، فهذا هو الجو والإيقاع اللذان نبحث عنهما للمجلة.

وعدته بتسليمه الموضوع بعد أسبوعين. وقبل أن يذهب إلى المطار، اتصل بمكتبه في بوغوتا، وأمر بأن تُدفع لي المكافأة مقدماً. الشيك الذي وصلني بالبريد، بعد أسبوع، أفقدني أنفاسي. وأكثر من ذلك، عندما ذهبت لصرفه. فقد أقلق مظهري أمين الصندوق في المصرف. فأدخلوني إلى مكتب أعلى مرتبة، حيث سألني مدير بالغ اللطف، أين أعمل. أجبته بأنني أكتب في الهيرالدو، وفقاً لعادتي في الرد، وإن لم

يكن جوابي صحيحاً في ذلك الحين. لا شيء سوى ذلك. تفحص المدير الشيك على منضدته. أمعن النظر إليه بإحساس بعدم الثقة الشخصية، ثم أصدر حكمه أخيراً:

– إنها وثيقة صحيحة تماماً.

في مساء ذلك اليوم بالذات، وبينما كنت أبدأ في كتابة "لاسيبيري"، أخبروني بأن هناك اتصالاً من المصرف. وتوصلت إلى التفكير في أن الشيك لم يكن سليماً لسبب من الأسباب الكثيرة المحتملة في كولومبيا. ولم أكن قد ابتلعت بعدُ، العقدة التي تشكلت في حلقي، عندما اعتذر لي موظف المصرف، بإيقاع الأنديزين الرتيب، بأنه لم يعرف في الوقت المناسب، أن المتسول الذي قبض قيمة الشيك هو كاتب "الزرافة" نفسه.

رجع موتيس مرة أخرى في نهاية تلك السنة. ولم يكد يتذوق الغذاء، وهو يسعى لمساعدتي على التفكير في طريقة مستقرة ودائمة، لكي أكسب أكثر ودون تعب. والفكرة التي وجدها أفضل من سواها، ونحن نتناول التحلية، هي إخبار آل كانو بأنني سأكون تحت تصرف الاسبيكتادور، وإن كنت ما أزال أشعر بالقشعريرة لمجرد فكرة العودة إلى بوغوتا. ولكن ألفارو لم يكن يعرف الهدوء، ولا التراجع عندما يتعلق الأمر بمساعدة صديق.

– فلنتفق على أمر – قال لي –، سأرسل إليك تذكرة السفر لكي تذهب إلى بوغوتا، عندما تشاء وكيفما تشاء، لكي ترى ما الذي يمكن أن يخطر لنا.

كان العرض أكبر من أن أرفضه، ولكنني كنتُ واثقاً من أن آخر

طائرة في حياتي، هي تلك التي أخرجتني من بوغوتا، بعد التاسع من نيسان. أضف إلى ذلك أن المكافأة الضئيلة التي تلقيتها عن الرواية الإذاعية ونشر الفصل الأول من "لاسيبيري" بصورة بارزة، في مجلة "المصباح" أتاحت لي توفير أجر بعض النصوص الإعلانية، مما مكّنني من إرسال زورق نجدة إلى الأسرة في كارتاخينا. ولهذا قاومت مرة أخرى، إغراء الانتقال إلى بوغوتا.

حدثني ألفارو سيبيدا، وخيرمان، وألفونسو، ومعظم رواد مقهيي جابي وروما، بإطراء، عن "لاسيبيري" عندما نُشر الفصل الأول منها في المصباح. وكانوا متفقين على أن الصيغة المباشرة للريبورتاج، هي الأكثر ملاءمة للموضوع الذي كان على الحدّ الحرج لما يمكن تصديقه. وقد قال لي ألفونسو يومذاك، بأسلوبه بين الجد والهزل، شيئاً لم أنسه قط: "لأن المصداقية، يا معلمي العزيز، تعتمد إلى حد كبير، على الوجه الذي يبديه أحدنا وهو يروي ما يرويه". كنت على وشك أن أكشف لهم عن عرض العمل الذي قدمه لي ألفارو موتيس، ولكنني لم أتجرأ على ذلك. وأنا أعرف اليوم أن السبب هو خوفي من أن يؤيدوا ذلك. وقد عاد إلى الإلحاح عدة مرات، وحتى بعد أن حجز لي على الطائرة، وألغيتُ الحجز في اللحظة الأخيرة. أكد لي أنه لا يبذل، من وراء ظهري، أية مساع لدى الاسبيكتادور، ولا لدى أي وسيلة مقروءة أو منطوقة أخرى. وأن هدفه الوحيد – وقد أصر على ذلك حتى النهاية – هو تبادل الحديث حول مجموعة من المساهمات الثابتة للمجلة، ومراجعة بعض التفاصيل الفنية حول سلسلة "لاسيبيري" الكاملة، والتي كان فصلها الثاني سيُنشر في العدد الذي يوشك على الصدور. وأعرب ألفارو موتيس عن يقينه من

أنه يمكن لهذا النوع من الريبورتاجات، أن يكون وخزة تنفيس لتيار أدب العادات والتقاليد المسطح في ميدانه بالذات. ومن بين كل الأسباب الأخرى التي طرحها عليّ، حتى ذلك الحين، كان هذا هو السبب الوحيد الذي جعلني أستغرق في التفكير.

في يوم ثلاثاء ذي رذاذ مطر كئيب، أدركت أنه لا يمكنني الذهاب، حتى لو رغبت في ذلك، لأني لا أملك من الثياب أكثر من قمصاني المزركشة. لم أجد أحداً في الساعة السادسة، في مكتبة "موندو"، فبقيت أنتظر عند الباب، محتبساً كرة من الدموع على الغسق الحزين الذي بدأ بالتلاشي. وكانت هناك، على الرصيف المقابل، واجهة متجر ملابس رسمية لم أرها من قبل قط، بالرغم من أنها موجودة هناك منذ الأزل. ودون أن أفكر في ما أفعله، اجتزت شارع سان بلاس تحت رماد الرذاذ المطري، ودخلت بخطوات واثقة، إلى أغلى متجر في المدينة. اشتريت بدلة كهنوتية من جوخ أزرق قاتم، مناسبة تماماً لروح بوغوتا في تلك الأزمنة؛ وقميصين أبيضين صلبي الياقة، وربطة عنق ذات خطوط مائلة وحذاء، من تلك التي أشاع استخدامها الممثل خوسيه موخيكا، قبل أن يتحول قديساً. والوحيدون الذين أخبرتهم أنني ذاهب، هم خيرمان، وألفارو، وألفونسو، فأيدوا ذلك بقرار سديد يشترط عليّ ألا أرجع أبداً.

احتفلنا بذلك في الرجل الثالث مع الشلة كاملة، حتى الفجر. وكان احتفالاً مسبقاً بعيد ميلادي القريب. ذلك أن خيرمان بارغاس الذي كان حارس تقاويم المناسبات، أعلن أنني سأكمل في السادس من شهر آذار القادم، سبعاً وعشرين سنة من عمري. ووسط نبوءات أصدقائي الطيبة، أحسست أنني على استعداد لأن آكل، نيئة، الثلاث والستين سنة المتبقية لي، لكي أكمل المئة سنة الأولى من حياتي.

٨

استدعاني مدير جريدة الاسبيكتادور، غييرمو كانو، بالهاتف، عندما علم أنني في مكتب ألفارو موتيس، فوق أربعة طوابق من مكتبه، في مبنى دشنوه حديثاً، على بعد خمس كوادرات من مقر الجريدة القديم. كنت قد وصلت في العشية، وكنت أستعد لتناول الغداء مع جماعة من الأصدقاء. ولكن غييرمو أصرّ على أن أمر قبل ذلك لتحيته. وهذا ما حدث. بعد العناق الحار، على طريقة أهالي العاصمة، بالمعنى الطيب، وبعض التعليقات القصيرة حول خبر اليوم، أمسكني من ذراعي واقتادني بعيداً عن زملائه في هيئة التحرير، وقال لي ببراءة لا تطاق: "اسمع يا غابرييل. لماذا لا تقدم لي معروفاً صغيراً بأن تكتب لي مقالة افتتاحية قصيرة أحتاج إليها لإغلاق عدد الجريدة؟"، وأشار بسبابته وإبهامه إلى حجم نصف كأس من الماء، وأضاف:

– بهذا الحجم.

فسألته وأنا أكثر مرحاً منه، عن المكان الذي يمكنني أن أجلس فيه، فأشار إلى منضدة خاوية، عليها آلة كاتبة من أزمنة أخرى. جلست دون مزيد من الأسئلة، لأفكر في موضوع مناسب لهم. وبقيت جالساً هناك على الكرسي نفسه، وإلى المنضدة نفسها، والآلة الكاتبة نفسها، طوال الثمانية عشر شهراً التالية.

بعد دقائق من وصولي، خرج من المكتب المجاور إدواردو ثالاميا بوردا، نائب المدير، مستغرقاً في رزمة من الأوراق. وقد فزع لدى التعرف عليّ.

- يا رجل، دون غابو! - قال ذلك صارخاً تقريباً، وبالاسم الذي ابتدعه لي في بارانكيا، مقتطعاً من لقب غابيتو، ولم يكن يستخدمه أحد سواه. ولكن اللقب تعمم في ذلك اليوم، في مكاتب التحرير، وواصلوا استخدامه حتى في حروف الطباعة: غابو.

لستُ أتذكر موضوع الزاوية التي كلفني غييرمو كانو بكتابتها. ولكنني كنتُ أعرف على أحسن وجه، مذ كنت في الجامعة الوطنية، أسلوب جريدة الاسبيكتادور العريق. ولا سيما في زاوية "من يوم ليوم" في الصفحة الافتتاحية، وهو أسلوب يتمتع بشهرة يستحقها؛ وقد قررت محاكاته ببرود الأعصاب الذي كانت لويسا سانتياغا تواجه به شياطين الرزايا والملمات. أنهيتُ المقالة المطلوبة في نصف ساعة، ثم أضفت إليها بعض لمسات التصحيح بالقلم، وسلمتها إلى غييرمو كانو الذي قرأها واقفاً، من فوق قوس نظارة قصر البصر التي يضعها. لم يبد أن تركيزه في القراءة خاص به وحسب، وإنما هو تركيز سلالة من الأسلاف ذوي الشعور البيضاء، بدءاً من دون فيدل كانو، مؤسس الجريدة في العام ١٨٨٧؛ واستمر به من بعده أخوه دون لويس، ورسخه ابنه دون غابرييل؛ ثم تلقاه ناضجاً ومتدفق الحيوية، حفيده غييرمو الذي كان قد تسلم للتو، منصب المدير العام، وهو في الثالثة والعشرين من عمره. ومثلما كان أسلافه يفعلون، أجرى بعض المراجعات المقتنصة لعدة شكوك صغرى، وانتهى إلى أول استخدام عملي ومبسط لاسمي الجديد:

- جيد جداً يا غابو.

لقد انتبهت، منذ ليلة عودتي، إلى أن بوغوتا لن تعود لتكون هي نفسها في نظري، طالما ظلت ذكرياتي حية. ومثلما هو شأن الكوارث الكبرى الكثيرة في البلاد، كان أثر التاسع من نيسان في النسيان، أكبر منه في التاريخ. كان الفندق الكبير قد هدم في حديقته القديمة التي تعود إلى مئات السنين، وبدأ ينتصب مكانه، بناء جديد لمصرف الجمهورية. ولم تكن شوارع سنواتنا هناك تشبه أحداً باستثناء حافلات الترام المضاءة. وكانت ناصية الجريمة التاريخية قد فقدت عظمتها في الاتساعات الفسيحة التي قوضتها الحرائق. "لقد صارت تبدو الآن، مدينة كبيرة بالفعل"، قال ذلك أحد مرافقينا. ثم مزق قلبي بجملة طقوسية:

- لا بد من تقديم الشكر للتاسع من نيسان.

ولم أشعر قط، بالمقابل، بأنني لم أكن أحسن حالاً، في أي وقت على الإطلاق، مما كنتُ عليه في النزل الذي بلا اسم، حيث أنزلني ألفارو موتيس. إنه منزل جمّلته النكبة، يقوم إلى أحد جوانب الحديقة الوطنية، حيث لم أستطع، في الليلة الأولى، تحمل إحساسي بالحسد تجاه جاريّ في الحجرة المجاورة، اللذين يمارسان الحب، كما لو أنهما يخوضان حرباً سعيدة. وفي اليوم التالي، عندما رأيتهما يخرجان لم أستطع أن أصدق أن يكونا هما نفسيهما: بنية ضامرة بفستان دار أيتام عمومية، وسيد متقدم في السن، بلاتيني البشرة، وبقامة طولها متران، يمكن له أن يكون جدها. ظننت أنني أخطأت الظن بهما، ولكنهما تكفلا بتأكيد شكوكي، في الليالي التالية كلها، بموتهما في صراخ شيق حتى الفجر.

نشرت الإسبيكتادور مقالتي في صفحة الافتتاحيات، وفي مكان بارز منها. وقد أمضيتُ فترة الصباح، في شراء ملابس كان موتيس يفرضها عليّ باللكنة الإنكليزية الصاخبة التي يبتدعها، لكي يسلي البائعين. تناولنا الغداء، مع غونثالو مايّارينو وكتّاب شباب آخرين، جرت دعوتهم من أجل تقديمي إلى المجتمع. ولكنني لم أعد أعرف شيئاً عن غييرمو كانو إلا بعد انقضاء ثلاثة أيام، عندما اتصل بي في مكتب موتيس، وقال لي بصرامة سيئة المحاكاة لصرامة رئيس تحرير:

– اسمع يا غابو، ما الذي جرى لك؟ يوم أمس تأخرنا في إغلاق تحرير الصحيفة، بانتظار مقالتك.

نزلتُ إلى قاعة التحرير لأتحدث إليه، ولا زلتُ إلى الآن، لا أعرف كيف واصلت كتابة مقالات يومية دون توقيع، طوال أكثر من أسبوع، دون أن يكلمني أحد عن أية وظيفة أو أي راتب. كان المحررون في مسامرات الاستراحة، يعاملونني كواحد منهم، وقد كنتُ كذلك بالفعل، ولكن دون أن أتخيّل إلى أي حد.

صفحة "من يوم ليوم" التي لم تكن تحمل توقيع أحد قط، كان يتصدر عادة غييرمو كانو بزاوية سياسية. وكان يعلوها، وفق ترتيب مقرر من رئاسة التحرير، زاوية ذات موضوع حرّ، يكتبها غونثالو غونثاليث، فضلاً عن أنه كان يتولى، كذلك، أذكى صفحات الجريدة وأكثرها شعبية – "أسئلة وأجوبة" – حيث يحل أية شكوك تراود القراء، مستخدماً الاسم المستعار "غوغ"، ليس تيمناً بجيوفاني بابيني، وإنما اختصاراً لاسمه هو نفسه. ثم ينشرون بعد ذلك، مقالتي. وفي بعض المناسبات القليلة، ينشرون زاوية خاصة يكتبها إدواردو ثالاميا الذي

كان يحتل، يومياً، أفضل مساحة في صفحة الافتتاحيات بعنوان – "المدينة والعالم" – ويوقعها باسم أوليسيس، ليس تيمناً بهوميروس – مثلما اعتاد أن يقول –، وإنما تيمناً بجيمس جويس.

كان على ألفارو موتيس أن يقوم برحلة عمل إلى بورت دا برانس، في الأيام الأولى من السنة الجديدة، فدعاني لمرافقته. كانت هايتي في ذلك الحين، هي بلاد أحلامي، بعد أن قرأت رواية أليخو كاربينتير "مملكة هذا العالم". ولم أكن قد أجبته في الثامن عشر من شباط، عندما كتبتُ زاوية حول الملكة الأم في إنكلترا، الضائعة في عزلة قصر بيكينغهام المترامية الأطراف. ولفت انتباهي أنها نُشرت في الموقع الأول من صفحة "من يوم ليوم"، وجرى التعليق عليها بصورة جيدة في مكاتبنا. في تلك الليلة، في حفلة ضمت جماعة قليلة العدد، في منزل رئيس التحرير خوسيه سالغار، قدم إدواردو ثالاميا تعليقاً أكثر حماسة مما سبق. وقد أخبرني واش أريحي فيما بعد، بأن ذلك الرأي هو الذي أزال آخر الترددات لدى الإدارة، لتعرض عليّ رسمياً، وظيفة ثابتة في الجريدة.

في اليوم التالي، استدعاني ألفارو موتيس في وقت مبكر إلى مكتبه، لينقل إليّ الخبر المحزن بإلغاء الرحلة إلى هايتي. ولكن ما لم يقله لي هو أنه توصل إلى هذا القرار، على أثر حديث عارض مع غييرمو كانو، طالبه فيه هذا الأخير، من كل قلبه، بألا يأخذني إلى بورت دا برانس. فأراد ألفارو الذي لم يكن قد زار هايتي كذلك، أن يعرف السبب. فقال له غييرمو: "عندما تتعرف عليه، ستفهم أن هذه الرحلة هي أكثر ما يمكن أن يروق غابو في العالم." وأنهى ذلك المساء بإيماءة بارعة.

– إذا ما ذهب غابو إلى هايتي، فلن يعود منها أبداً.

فهم ألفارو المطلوب، وألغى الرحلة، وقال لي إنه قرار اتخذته شركته التي يعمل فيها. وهكذا، لم أتعرف قط، على بويرت دا برانس، ولكنني لم أعرف السبب الحقيقي إلا قبل سنوات قليلة، عندما أخبرني ألفارو ذلك، في واحدة من جلسات تذكرنا الطويلة كجدين. أما غييرمو من جانبه، وبعد أن قيدني بعقد عمل في الجريدة، ردد على مسامعي، طوال سنوات، بأن أفكر في ريبورتاج عظيم عن هايتي. ولكنني لم أستطع الذهاب قط، ولم أخبره بالسبب.

ما كان ليخطر ببالي أبداً، حلم العمل محرراً ثابتاً في الإسبيكتادور؛ فقد كنتُ أدركُ أنهم ينشرون قصصي القصيرة، بسبب ندرة هذا الجنس الأدبي وفقره في كولومبيا. ولكن الكتابة اليومية في جريدة مسائية، كان تحدياً مختلفاً تماماً بالنسبة لشخص ضئيل الخبرة في الصحافة الصدامية. فجريدة الاسبيكتادور التي كان عمرها نصف قرن، ونشأت في بيت مستأجر، وبفائض آلات إلتيمبو – الصحيفة الغنية والقوية والمتنفذة –، كانت جريدة مسائية متواضعة، في ست عشرة صفحة مزدحمة. غير أن نسخها الخمسة آلاف، غير المعدودة جيداً، يجري تلقفها من المنادين عند أبواب مطبعتها تقريباً، وتُقرأ خلال نصف ساعة، في المقاهي الهادئة في المدينة القديمة. كان إدواردو ثالاميا بوردا شخصياً، قد صرّح عبر الـ BBC اللندنية، بأن الاسبيكتادور أفضل جريدة في العالم. لكن الحرج الأكبر لم يكن في التصريح بحد ذاته، وإنما في أن جميع من يساهمون في صنع الجريدة تقريباً، ومعظم من يقرؤونها، كانوا مقتنعين بأن ذلك صحيح.

لا بد لي من الاعتراف بأن قلبي طفر من مكانه في اليوم التالي لإلغاء الرحلة إلى هايتي، عندما حدد لي المدير العام، لويس غابرييل كانو، موعداً في مكتبه. لم تستمر المقابلة، مع كل شكلياتها، أكثر من خمس دقائق. كان لويس غابرييل مشهوراً بأنه رجل متجهم، كريم كصديق وبخيل كمدير جيد، ولكنه بدا لي، وظل يبدو لي على الدوام، بالغ الدقة والحميمية. وكان اقتراحه، في خطوطه العامة، هو أن أبقى في الجريدة، كمحرر ثابت، لأكتب أخباراً عامة، ومقالات رأي، وكل ما يتطلبه الأمر في طوارئ اللحظة الأخيرة، براتب شهري قدره تسعمئة بيزو. فقدت القدرة على التنفس. وعندما استعدتها، سألته: كم؟ فأعاد عليّ حرفاً حرفاً: تسعمئة. كان تأثري شديداً إلى حد أن عزيزي لويس غابرييل، وبينما كنت أتكلم في هذا الأمر في حفلة، بعد بضعة شهور، كشف لي أنه فسّر ذهولي على أنه رفض للعرض. وقد أعرب دون غابرييل عن ارتيابه الأخير، بخوف له ما يبرره: "إنك نحيل وشاحب إلى حد يمكن لك معه أن تموت في المكتب". وهكذا انضممت كمحرر، إلى طاقم الإسبيكتادور، حيث استهلكت أكبر كمية من الورق في حياتي، خلال أقل من سنتين.

لقد كانت مصادفة حسنة الطالع. المؤسسة المرهوبة أكثر من سواها في الجريدة، هي دون غابرييل كانو، البطريرك، الذي حول نفسه بتصميم خاص، إلى حاكم تفتيش لا يرحم في هيئة التحرير. كان يقرأ بعدسته المكبرة الميلمترية، كل شيء، حتى الفاصلة التي لا تخطر ببال في الطبعة اليومية، ويشير بالحبر الأحمر إلى العثرات في كل مقالة، ويعرض في لوحة إعلان، المقاطع المعاقبة مع تعليقات قاسية ساحقة منه.

وقد فرضت لوحة الإعلان تلك نفسها، منذ اليوم الأول، على أنها "جدار العار". ولا أظن أن هناك محرراً واحداً أفلت من ريشته الدموية القاسية.

ترقية غييرمو كانو الاستعراضية إلى منصب مدير الاسبيكتادور، وهو في الثالثة والعشرين، لم تكن تبدو ثمرة مبكرة لمزاياه الشخصية، وإنما تنفيذ قدر مكتوب منذ ما قبل مولده. ولهذا كانت مفاجأتي الأولى هي التأكد من أنه كان المدير بكل معنى الكلمة، في الوقت الذي كان الكثيرون يفكرون، من الخارج، في أنه ليس أكثر من ابن مطيع. وكان أكثر ما شد انتباهي هو السرعة التي يتعرف بها على الخبر.

كان يضطر أحياناً إلى مواجهة الجميع، حتى عندما لا يكون لديه الكثير من الحجج، إلى أن يتمكن من إقناعهم بحقيقته. لقد كان زمن لا يجري فيه تعليم المهنة في الجامعات، وإنما يتم تعلمها عند قائمة البقرة، وباستنشاق حبر المطبعة، وكان في الاسبيكتادور أفضل الأساتذة وأطيبهم قلباً، إنما أشدهم صرامة في الوقت نفسه. وقد بدأ غييرمو التعلم هناك منذ حروفه الأولى، بمقالات عن مصارعة الثيران، باللغة الصارمة وواسعة الاطلاع، بدا معها أن ميله الغالب ليس التحول إلى صحفي وإنما إلى مربي عجول مصارعة. وهكذا، فإن أقسى تجربة في حياته، دون شك، هي صعوده، بين ليلة وضحاها، دون تدرجات وسيطة، من تلميذ ابتدائي إلى معلم كبير. وما كان بإمكان أحد لم يعرفه عن قرب، أن يلمح وراء أساليبه الرقيقة، وحتى المتهربة بعض الشيء، التصميم الرهيب في طبعه. وقد خاض بالشغف نفسه، معارك واسعة وخطرة، دون أن يتوقف أبداً أمام اليقين بأنه يمكن للموت أن يكون متأهباً بالمرصاد، وراء أشد القضايا نبلاً.

لم أتعرف في ما بعد، على شخص أشد منه رفضاً للانصهار في الحياة العامة، وأكثر من رافض للتشريفات الشخصية، وأكثر تهرباً من إغراءات السلطة. كان رجلاً قليل الأصدقاء، ولكن أولئك القلة كانوا طيبين جداً. وقد شعرت بأنني واحد منهم منذ اليوم الأول. وربما أسهم في ذلك كوني أحد الصغار سناً، في قاعة تحرير تضم محررين محترفين. وهو ما ولّد بيننا نحن الاثنين، شعوراً بالتواطؤ لم يضعف أبداً. وما كان مثالياً في هذه الصداقة، هو قدرتها على تجاوز كل تناقضاتنا. فالاختلافات السياسية كانت عميقة جداً، وراح عمقها يزداد أكثر فأكثر، مع تفسخ العالم. ولكننا كنا نجد على الدوام، أرضية مشتركة، يمكننا منها مواصلة النضال في سبيل القضايا التي نراها عادلة.

كانت قاعة التحرير فسيحة جداً، تضم مناضد على الجانبين، ويسودها جو من المزاج الطيب والدعابة القاسية. هناك كان داريو باوتيستا، وهو نوع نادر من نقيض وزير المالية، يعكف منذ أول صباح للديكة، على بعث المرارة في صباح أعلى الموظفين مرتبة، بتكهنات سحرية عن مستقبل مشؤوم، تكون صائبة في أغلب الأحيان. وكان هناك المحرر القانوني فيليبه غونثالث توليدو، كاتب التحقيقات بالولادة. وقد سبق في أحيان كثيرة التحريات الرسمية، في فن إحباط ضرر أو كشف النقاب عن جريمة. أما غييرمو لاناو الذي كان يغطي عدة وزارات، فقد حافظ على سرّ بقائه طفلاً حتى آخر طراوة عود شيخوخته. وكان روخيليو إتشيباريّا، وهو شاعر من الكبار، مسؤولاً عن الطبعة الصباحية، فلم نكن نراه أبداً على ضوء النهار. أما ابن عمي غونثالو

غونثالث، بساقه الملفوفة بالجبس، بسبب مباراة كرة قدم خبيثة، فكان عليه أن يدرس، لكي يرد على أسئلة حول أي شيء. وانتهى به الأمر إلى التحول إلى اختصاصي في كل شيء. وعلى الرغم من أنه كان لاعب كرة قدم من الطراز الأول، في الجامعة، فقد كان يؤمن إيماناً غير محدود، بالدراسة النظرية، لأي شيء، أكثر من إيمانه بالتجربة العملية. وقد قدم لنا الدليل الباهر على صحة رأيه في بطولة البولو للصحفيين، عندما عكف على دراسة قواعد اللعبة من مرجع مطبوع، بدل أن يمارسها مثلنا في الملاعب حتى الفجر، وأحرز بطولة تلك السنة.

بمثل هذه القائمة، كانت قاعة التحرير استراحة تسلية أبدية، خاضعة على الدوام لشعار داريو باوتيستا، أو فيليبه غونثالث توليدو: "من يتعهر يخوزق نفسه". جميعنا كنا نعرف الموضوعات التي يكتبها الآخرون، ويساعد بعضنا بعضاً إلى حيث يُطلب منا، أو إلى حيث تكون المساعدة ممكنة. وقد كانت المشاركة متبادلة إلى حد يمكن القول معه، إن العمل كان يجري بصوت عالٍ. ولكن عندما تشتد وطأة العمل، لا يعود يُسمع أي نفس. ومن المنضدة الوحيدة المستعرضة في أقصى القاعة، كان خوسيه سالغار يُصدر الأوامر. وقد اعتاد أن يتجول بين المحررين، ليُعلم ويستعلم عن كل شيء، بينما هو يطفئ روحه بعلاج بهلواني.

أظن أن اليوم الذي اقتادني فيه غييرمو كانو من منضدة إلى أخرى، على امتداد القاعة، ليقدمني إلى المجتمع، كان اختباراً بالنار لخجلي الذي لا سبيل إلى تجاوزه. فقدت القدرة على الكلام وخارت ركبتاي، عندما جأر داريو باوتيستا، دون أن ينظر إلى أحد، بصوته الراعد:

- لقد جاء العبقري!

فلم يخطر لي سوى الدوران في نصف التفاتة مسرحية، مادّاً ذراعي نحو الجميع. وقلت لهم أقل من خرج من روحي، ظرافة:

- في خدمتكم جميعاً.

وما زلت حتى الآن، أعاني من صدمة السخرية العامة. ولكنني أشعر كذلك، بالراحة للمعانقات والعبارات الطيبة التي قالها كل واحد منهم، وهو يرحب بي. منذ تلك اللحظة، صرت واحداً من جماعة النمور المشفقة تلك، بصداقة وروح فريق لم تخمد قط. فكل معلومة أحتاج إليها لمقالتي، مهما صغر شأنها، كنت أطلبها من المحرر المعني، ولم تكن تتأخر قط عن موعدها.

درسي الكبير الأول في كتابة الريبورتاجات، تلقيته من غييرمو كانو، وعاشته قاعة التحرير بكامل أفرادها في مساء يوم، هطل فيه على بوغوتا وابل من المطر، أبقاها في حالة فيضان كوني طوال ثلاث ساعات دون توقف. سيل الماء الجارف في جادة خيمينث دي كيسادا، جرف كل ما وجده في طريقه على السفوح، وخلّف في الشوارع آثار كارثة. ظلت السيارات مختلفة الأنواع، ووسائل النقل العام، مشلولة في الأماكن التي فاجأتها فيها حالة الطوارئ. والتجأ آلاف المارة متدافعين ومتعثرين، إلى العمارات الغارقة حتى لم يبق فيها متسع للمزيد. محررو الصحيفة الذين فاجأتهم الكارثة في لحظة إغلاق تحرير الجريدة، راحوا يتأملون المشهد الكئيب من النوافذ، دون أن يدروا ما الذي يمكنهم عمله، مثل أطفال معاقبين يضعون أيديهم في جيوبهم. وفجأة، بدا كما لو أن غييرمو كانو قد استيقظ من حلم بلا قاع، والتفت نحو المحررين المشلولين وصرخ:

– هذا الوابل من الأمطار خبر!

كان أمراً لم يُصدره، وجرى تنفيذه في الحال. ركضنا، نحن المحررين، إلى مواقعنا القتالية لكي نحصل، عبر الهاتف، على المعلومات المستعجلة التي يطلبها منا خوسيه سالغار، لنكتب معاً، وبالتجزئة، ريبورتاجاً صحفياً عن عاصفة القرن المطرية. سيارات الإسعاف ودوريات الشرطة اللاسلكية التي استدعيت من أجل الحالات المستعجلة، شُلّت حركتها بسبب السيارات العالقة في منتصف الشوارع. وكانت مجاري الصرف المنزلي مسدودة بالمياه. ولم تكف كل أطقم الإطفاء لدرء الخطر الطارئ. وتوجب إخلاء أحياء بكاملها، بالقوة، بسبب تصدع سدّ مديني مجاور. وفي أحياء أخرى، تفجرت المجاري. وكانت الأرصفة مشغولة بمسنين مشلولين وأطفال مختنقين. ووسط تلك الفوضى، نظم خمسة من مالكي الزوارق ذات المحرك، تستخدم عادة للصيد في عطلة نهاية الأسبوع، سباقاً في جادة كاراكاس، أكثر شوارع المدينة اختناقاً. راح خوسيه سالغار يوزع هذه المعطيات المتجمعة للتو، على المحررين الذين انهمكوا في إعدادها وصياغتها للطبعة الخاصة التي جرى ارتجالها في سياق العمل. وعكف المصورون المبللون، على الرغم من معاطفهم المطرية، على معالجة الصور على الساخن. وقبل الساعة الخامسة بقليل، كتب غييرمو كانو ملخصاً بارعاً عن أشد العواصف المطرية التي تتذكرها المدينة، دراماتيكية. وعندما توقف المطر أخيراً، كانت طبعة الاسبكتادور المرتجلة قد صارت قيد التداول، كما في كل يوم، مع تأخير يكاد لا يزيد على ساعة واحدة.

علاقتي الأولية مع خوسيه سالغار، كانت الأصعب، ولكنها الخلاقة

أكثر من أي علاقة أخرى. وأظن أنه كانت لديه مشكلة مناقضة لمشكلتي؛ فهو يحاول على الدوام، دفع كتّاب التحقيقات في القسم، إلى إطلاق أعمق صوت صدري، بينما كنتُ أتلهف إلى أن يضعني على الموجة الصحيحة. ولكن التزاماتي الأخرى مع الجريدة، كانت تقيدني، ولم يبق لي متسع من الوقت سوى في أيام الآحاد. أظن أن سالغار قد وضع عينه عليّ، لأكون كاتب تحقيقات، بينما وضع آخرون عيونهم عليّ، لأتخصص في الكتابة السينمائية، والتعليقات الافتتاحية، والشؤون الثقافية، لأنني عُرفت دوماً كقصاص. ولكني كنت أحلم، منذ خطواتي الأولى في الساحل، أن أصير كاتب تحقيقات. وكنتُ أعرف أن سالغار هو أفضل معلم، ولكنه كان يغلق الأبواب في وجهي، ربما على أمل دفعي إلى تحطيمها، والدخول عنوة. كنا نعمل على أحسن وجه، بمودة وديناميكية. وكلما قدمت إليه مادة صحفية، مكتوبة بالاتفاق مع غييرمو كانو أو حتى مع إدواردو ثالاميا، يوافق عليها دون تأخير، ولكنه لم يكن يتسامح مع الإخلال بالطقوس. كان يقوم بحركة انتزاع سدادة قارورة بالقوة، ويقول لي بجد أكبر مما يعتقده هو نفسه:

– إلوِ عنق هذه البجعة.

ولكنه لم يكن مع ذلك، عدوانياً قط. بل على العكس تماماً: كان رجلاً ودوداً، تصلب في نار متأججة، ارتقى سلّم الخدمة الجيدة، ابتداء من تقديم القهوة في المطبعة، وهو في الرابعة عشرة من عمره، حتى التحول إلى رئيس تحرير يتمتع بأوسع سلطة مهنية في البلاد. أعتقد أنه لم يكن قادراً على أن يغفر لي إسرافي في البهلوانيات الغنائية، في بلاد تفتقر إلى الكثير من كتّاب التحقيقات الصدامية. أما أنا بالمقابل،

فكنت أفكر في أنه ليس هناك جنس صحفي أفضل من التحقيقات، للتعبير عن الحياة اليومية. ومع ذلك، فإنني أعرف اليوم أن العناد الذي كنا نحاول به كلانا عمل ذلك هو أفضل حافز توفر لي من أجل تحقيق حلمي بأن أصير كاتب ريبورتاجات صحفية.

اعترضت الفرصة طريقي، في الساعة الحادية عشرة وعشرين دقيقة، من صباح التاسع من حزيران ١٩٥٤، بينما أنا راجع من زيارة صديق في سجن بوغوتا النموذجي. كانت هناك قوات من الجيش، مسلحة كما لو أنها في حالة حرب، تعترض حشداً طلابياً في الشارع السابع، على بعد كوادرتين من الناصية التي جرى فيها قبل ست سنوات، اغتيال خورخي إليسير غايتان. لقد كانت مظاهرة احتجاج على مقتل طالب، في اليوم السابق، على يد جنود من الفرقة الكولومبية التي دُربت من أجل الحرب في كوريا، وأول صدام في الشوارع يخوضه المدنيون ضد حكومة القوات المسلحة. لم تكن تُسمع، من المكان الذي أنا فيه، سوى صرخات الجدال بين الطلاب الذين يحاولون مواصلة مسيرتهم حتى القصر الرئاسي، والعسكريين الذين يمنعونهم. ولم نتمكن، وسط الحشود، من فهم ما يقولونه صارخين، ولكن التوتر كان ملموساً في الجو. وفجأة، ودون سابق إنذار، سُمعت رشقة رصاص من بندقية رشاشة، ثم تلتها رشقتان أخريان. سقط عدد من الطلاب وبعض العابرين، قتلى على الفور. والأحياء، الذين حاولوا حمل الجرحى إلى المستشفى، جرى إبعادهم بأعقاب البنادق. أخلت القوات العسكرية المنطقة، وأغلقت الشوارع. وأحسستُ في صدمة خاطفة، استمرت بضع ثوان، بأنني أعيش ثانية، كل هول التاسع من نيسان، في الساعة نفسها والمكان نفسه.

صعدتُ راكضاً، الكوادرات الثلاث، في الطريق الصاعد باتجاه مبنى الاسبيكتادور، ووجدت المحررين في معمعة التأهب لمعركة. رويت بمشقة، ما تمكنت من رؤيته في موقع المجزرة. ولكن أقل المحررين اطلاعاً على ما جرى، بدأ، بسرعة خاطفة، في إعداد التقرير الأول عن هوية الطلاب التسعة القتلى، وعن حالة الجرحى في المستشفيات. كنت موقناً من أنهم سيطلبون مني رواية الواقعة، لأنني الوحيد الذي شهدها. لكن غييرمو كانو وخوسيه سالغار كانا قد اتفقا على وجوب أن يكون التقرير جماعياً يضع فيه كل واحد ما لديه. ويتولى المحرر المسؤول، فيليبي غونثالث توليدو، بعد ذلك، صياغة الوحدة النهائية للموضوع. وقد قال لي فيليبي القلق، لما لمسه من خيبة أملي:

- اطمئن. فالناس يعرفون أننا جميعنا نعمل هنا في كل الموضوعات، وإن كانت لا تحمل توقيعاً.

وقد واساني أوليسيس، من جانبه، بفكرة أنه يمكن للتعليق الافتتاحي الذي يتوجب عليّ كتابته، أن يكون الأكثر أهمية، لأنه يتناول مشكلة خطيرة تتعلق بالأمن العام. وقد كان محقاً، ولكنه كان تعليقاً شديد الحساسية وبالغ التوريط لسياسة الجريدة، فكُتب بعدة أيدي من أعلى المستويات. أظن أنه كان درساً عادلاً للجميع، ولكنه بدا لي قاسياً جداً. كانت تلك هي نهاية شهر العسل، بين القوات المسلحة والصحافة الليبرالية، الذي بدأ قبل ثمانية شهور من ذلك، عندما تسلم السلطة الجنرال روخاس بينيا، وأتاح للبلاد إطلاق زفرة راحة بعد حمام دم الحكومتين المحافظتين المتتاليتين، واستمر حتى ذلك اليوم. وقد كان ذلك اليوم بالنسبة لي أيضاً اختباراً بالنار لأحلامي، ككاتب تحقيقات عادي.

بعد وقت قصير من ذلك، نُشرت صورة جثة طفل بلا أهل لم يتمكنوا من التعرف عليه في مشرحة الطب الشرعي. وقد بدت لي مشابهة لصورة طفل آخر ضائع، نُشرت قبل أيام. عرضتُ الصورتين على مسؤول الصفحة القضائية، فيليبي غونثالث توليدو، فاتصل بأم الطفل الأول الضائع الذي لم يكن قد عُثر عليه بعد. وكانت تلك الواقعة درساً تعلمته إلى الأبد. فقد انتظرتنا أمُّ الطفل، أنا وفيليبي، في فناء المشرحة. وبدت لي شديدة الفقر والضآلة إلى حد بذلتُ معه جهداً فائقاً من أعماق قلبي، كيلا تكون الجثة لطفلها. وفي القبو الجليدي الطويل، تحت إضاءة قوية، كانت هناك حوالي عشرين طاولة مصفوفة، عليها جثث كأنها أكوام حجارة، تحت ملاءات متسخة. لحقنا، نحن الثلاثة، بالحارس المتجهم حتى المنضدة قبل الأخيرة، في أقصى القاعة. كان يبرز من تحت طرف الملاءة نعلا حذاء كئيب، حذوتا كعبيه مستهلكتان جداً من كثرة الاستعمال. تعرفت المرأة عليهما، فشحب لونها، ولكنها تماسكت بآخر نفس لديها إلى أن نزع الحارس الملاءة بحركة مصارع ثيران. كان الجسد ذو التسع سنوات، بعينيه المفتوحتين والذاهلتين، مرتدياً الملابس الممزقة نفسها التي وُجد بها ميتاً قبل عدة أيام، في ساقية إلى جانب الطريق. أطلقت الأم ولولة، وانهارت على الأرض، وهي تطلق العويل والصراخ. ساعدها فيليبي على الوقوف، وهدّأها بعبارات مواساة هامسة، بينما كنتُ أتساءل عما إذا كان ذلك كله خليق بأن يكون العمل الذي أحلم به. وقد أكد لي إدواردو ثالاميا أن لا، إذ كان هو نفسه يفكر أيضاً، في أن التقارير الصحفية عن الجرائم والحوادث، المتجذرة جداً لدى القراء، هي اختصاص صعب يتطلب طبيعة خاصة، وقلباً قاسياً مجرباً. فلم أقرب ذلك العمل بعدها قط.

واقع آخر مختلف تماماً اضطرني إلى أن أصبح ناقداً سينمائياً. لم يكن قد خطر لي من قبل، أنني قد أفعل ذلك. ولكنني في مسرح أولمبيا الذي كان يملكه دون أنطونيو داكونتي في آراكاتاكا، وبعد ذلك في مدرسة ألفارو سيبيدا الجوالة، ألممت بالعناصر الأساسية لكتابة ملاحظات توجيهية سينمائية، برؤية أكثر فائدة من الشائعة آنذاك في كولومبيا. كان إرنستو فولكينينغ، وهو كاتب وناقد أدبي ألماني كبير، استقر في كولومبيا منذ الحرب العالمية الثانية، يبث من الإذاعة الوطنية تعليقاً حول العروض الافتتاحية للأفلام؛ غير أن ما يبثه كان مقتصراً على جمهور متخصص من المستمعين. وكان هناك معلقون آخرون جيدون، ولكنهم عارضون، حول المكتبي الكتلاني لويس فيثنس، المستقر في بوغوتا، منذ الحرب الأهلية الإسبانية. وكان هو نفسه من أسس أول نادٍ سينمائي، بالتواطؤ مع الرسام إنريكي غراو والناقد هيرناندو سالثيدو، وبمساع من الصحفية غلوريا فالنثيا دي كاستانيو كاستييو التي حصلت على بطاقة العضوية رقم واحد. كان هناك في البلاد، جمهور واسع لأفلام الحركة ومآسي الدموع. أما السينما النوعية، فكانت تقتصر على المثقفين الهواة. وكان أصحاب دور العرض يجازفون أقل فأقل، في عرض أفلام لا تستمر سوى ثلاثة أيام في اللائحة. فكان انتشال جمهور جديد من هذا الحشد الغفير الذي بلا وجه، يتطلب تربية شاقة، إلا أنها ممكنة، من أجل تشجيع الزبائن على ارتياد أفلام نوعية، ومساعدة أصحاب دور العرض الراغبين في ذلك، ولكنهم لا يستطيعون تمويله. كانت العقبة الكبرى في أن أصحاب دور العرض يُبقون التهديد بإلغاء إعلانات السينما، مسلطاً على الصحافة – وهي إعلانات تمثل

دخلاً كبيراً للصحف -، كعقوبة على النقد المضاد. وكانت الاسبكتادور هي أول صحيفة تحملت المجازفة، وكلفتني بمهمة التعليق على عروض الأسبوع الأولى، كرسالة أولية بسيطة موجهة إلى هواة السينما، أكثر منها موعظة استعراضية. وكان الاحتياط الذي اتخذ باتفاق مشترك، هو عدم استخدام بطاقة دخولي المجانية، كدليل على دخولي لمشاهدة العروض ببطاقة مشتراة من شباك التذاكر.

طمأنت المقالات الأولى أصحاب دور العرض، لأنها تناولت أفلاماً من السينما الفرنسية الجيدة، وكان منها بوتشيني Puccini، وهو استذكار مطول لحياة ذلك الموسيقي العظيم، وفيلم قمم مذهبة، وهو قصة بارعة عن المغنية غريس مور، وفيلم حفلة إتريكيتا، كوميديا سلمية لجين دلانوي. وكان أصحاب دور العرض الذين نلتقي بهم لدى الخروج من الصالة، يعربون لنا عن رضاهم عن مقالاتنا النقدية. أما ألفارو سيبيدا بالمقابل، فقد أيقظني في السادسة صباحاً، بمكالمة من بارانكيًا، عندما علم بأمر جرأتي. وصرخ بي على الهاتف، وهو يكاد يموت من الضحك:

- يا للعنة! كيف تفكر في نقد الأفلام، دون إذن مني، بالرغم من جلافتك في ما يتعلق بالسينما!

لقد تحول، بالطبع، إلى مساعدي الثابت، على الرغم من أنه لم يوافق، قطّ، على فكرة أن الأمر ليس تشكيل مدرسة نقدية، وإنما توجيه جمهور مبتدئ وبلا تكوين أكاديمي. ولم يكن شهر العسل مع أصحاب دور العرض كذلك حلواً كذلك، مثلما ظننا في البدء. فعندما واجهنا السينما التجارية الخالصة والمجردة، شكا حتى أكثرهم تفهماً، من قسوة

تعليقاتنا. وقد امتلك إدواردو ثالاميا وغييرمو كانو ما يكفي من المهارة لإلهائهم عبر الهاتف، حتى أواخر شهر نيسان، عندما اتهمنا أحدهم، بخيلاء زعيم، في رسالة مفتوحة، بأننا نفزع الجمهور لإلحاق الضرر بمصالحهم. بدا لي أن عقدة المشكلة هي في أن كاتب الرسالة لا يعرف معنى كلمة "يُفزع" (amendrentar)، غير أنني أحسست بأني على حافة الهزيمة، لأني لم أكن أظن، في ظل الأزمة المتعاظمة التي كانت تعيشها الصحيفة، أن دون غابرييل كانو سيتخلى عن الإعلانات السينمائية، في سبيل المتعة الجمالية المحض. وفي يوم تلقي تلك الرسالة، دعا أبناءه وأوليسيس إلى اجتماع مستعجل، فاعتبرتُ أن موت زاويتي السينمائية ودفنها صار أمراً واقعاً. ومع ذلك، ولدى مروره قبالة منضدتي، بعد انتهاء الاجتماع، قال لي دون غابرييل دون أن يحدد الموضوع، وبدهاء جد عجوز:

- اطمئن يا سمي.

وفي اليوم التالي، ظهر في زاوية "من يوم ليوم" الرد على المنتج، وقد كتبه غييرمو كانو بأسلوب أكاديمي متعمد. ونهايته تلخص كل شيء: "لا يوجد إفزاع للجمهور، ولا أي ضرر بمصالح أحد، في نشر الصحافة لنقد سينمائي جدي ومسؤول، يتشابه قليلاً مع ما هو عليه في بلدان أخرى، ويكسر النماذج القديمة والمؤذية في كيل المديح المفرط لما هو جيد، وبالقدر نفسه لما هو سيئ". لم تكن تلك هي الرسالة الأخيرة التي تلقيناها، ولا ردنا هو الرد الأخير. كان العاملون في دور السينما يستقبلوننا بمطالب قاسية. وكنا نتلقى متناقضة من قراء غافلين. ولكن كل ذلك كان بلا طائل: فقد عاش عمودي السينمائي إلى الوقت الذي لم

يعد فيه النقد السينمائي أمراً عارضاً في البلاد، وتحول إلى تقليد في الصحافة والإذاعة.

منذ ذلك الحين، وخلال أقل من سنتين، نشرتُ خمساً وسبعين ملاحظة نقدية، لا بد أن يضاف إليها الساعات الموظفة في مشاهدة الأفلام. فضلاً عن حوالي ستمئة تعليق افتتاحي، وخبر موقّع أو مغفل من التوقيع. وقد نُشرت المساهمات الأدبية، منذ ذلك الحين، في ملحق "مغازين الأحد"، التابع للجريدة نفسها. وكان بينها عدة قصص قصيرة وسلسلة ريبورتاجات "لاسيبربي" الكاملة، التي توقف نشرها في مجلة المصباح بسبب خلافات داخلية.

كانت تلك هي أول فترة رخاء في حياتي، ولكن دون أن يتاح لي الوقت للاستمتاع بها. الشقة التي استأجرتها مفروشة، مع خدمة الغسيل، لم تكن سوى حجرة نوم مع حمام، وهاتف وفطور في السرير، ونافذة واسعة مع رذاذ المطر الأبدي، في أكثر مدن العالم كآبة. لم أستخدمها إلا للنوم، منذ الساعة الثالثة فجراً، وبعد تمضية ساعة في القراءة، حتى نشرة الأخبار الإذاعية الصباحية، لأعرف مستجدات اليوم الجديد.

لم أتوقف عن التفكير، بشيء من القلق، في أنها أول مرة يكون لدي فيها مكان ثابت وخاص للعيش، ولكن دون أن يكون لدي وقت لملاحظة ذلك. كنتُ مشغولاً في تصريف شؤون حياتي الجديدة، إلى حد أن إنفاقي الوحيد البارز، كان يقتصر على زورق الإنقاذ الصغير الذي واظبت على إرساله بدقة، في نهاية كل شهر، إلى الأسرة. واليوم فقط، أنتبه إلى أنني كنت أكاد لا أجد الوقت الكافي للاهتمام بحياتي

الخاصة. ربما لأنه كانت تعشش في داخلي فكرة الأمهات الكاريبيات، عن أن الفتيات البوغوتيات يسلمن أنفسهن، دون حب، للشبان الساحليين، لمجرد تحقيق حلمهن في العيش قبالة البحر. ومع ذلك، فقد توصلت في شقتي الأولى، كعازب، في بوغوتا، إلى تحقيق مرامي دون مجازفة، منذ أن سألتُ البواب عما إذا كانت زيارة الصديقات عند منتصف الليل، مسموحاً بها.

– إنها ممنوعة يا سيدي، ولكنني لا أرى ما يجب عليّ ألا أراه.

في أواخر شهر آب، ودون إنذار مسبق، ظهر خوسيه سالغار أمام منضدتي، بينما أنا أكتب تعليقاً، ونظر إليّ بصمت طويل. قطعتُ الكتابة في منتصف جملة، وقلت له قلقاً:

– ما المشكلة!

لم يطرف له رمش. وكان يلعب بولبرو غير مرئي بقلمه الرصاص الأحمر، ويبتسم ابتسامة شيطانية تبدو نواياها مكشوفة. أوضح لي دون أن أسأله، بأنه لم يفوضني بكتابة ريبورتاج مذبحة الطلاب في الشارع السابع، لأنه خبر صعب على شخص مبتدئ. ولكنه عرض علي بالمقابل، بصورة مباشرة، إنما دون أدنى نية في التحدي، أن يمنحني على عاتقه ومسؤوليته، دبلوم كاتب الريبورتاجات، إذا كنت قادراً على أن أتقبل اقتراحاً قاتلاً منه:

– لماذا لا تذهب إلى ميدلين، وتروي لنا حقيقة اللعنة التي جرت هناك؟

لم يكن من السهل فهم ما يعنيه، لأنه كان يكلمني عن أمر حدث هناك، منذ أكثر من أسبوعين، مما يفسح المجال للظن بأنه يعرض عليّ

حدثاً بائناً لا خلاص لي منه. كان معروفاً أنه وقع، في الثاني عشر من تموز صباحاً، انهيار أرضي في "ميديا لونا"، وهو مكان وعر شديد الانحدار، إلى الشمال من ميدلين. ولكن الضجة التي أثارتها الصحافة، وتخبط السلطة، وهلع المتضررين، تسببت في إشاعة بلبلة إدارية وإنسانية، حالت دون رؤية الواقع على حقيقته. لم يطلب مني سالغار أن أحاول عرض ما حدث بأقصى ما يمكن من الدقة، وإنما أمرني مباشرة بأن أذهب لإعادة بناء الحقيقة كلها على الأرض، ولا شيء آخر سوى الحقيقة، وخلال أقصر وقت ممكن. ومع ذلك، فقد كان في طريقته في قول ذلك، شيء دفعني إلى التفكير في أنه سيفلت لي العنان، أخيراً.

الشيء الوحيد الذي كان يعرفه العالم بأسره، عن ميدلين، حتى ذلك الحين، هو أن المغني الأرجنتيني كارلوس غارديل، قد مات فيها، متفحماً في كارثة جوية. وأنا كنتُ أعرف كذلك، أنها أرض كتّاب وشعراء كبار، وأنه توجد فيها مدرسة "لابريسنتاثيون" التي بدأت ميرثيديس بارتشا الدراسة فيها، تلك السنة. وحيال مهمة هذيانية إلى ذلك الحد، لم أعد أشعر بأنه من غير الواقعي بأي حال، إعادة تصوير المجزرة التي تسبب بها انهيار الجبل، قطعة فقطعة. وهكذا حطت بي الطائرة في ميدلين، في الساعة الحادية عشرة صباحاً، وسط عاصفة رهيبة أوصلتني إلى التوهم بأن أكون آخر ضحايا الانهيار.

تركت حقيبتي في فندق نوتيبارا، وفيها ملابس ليومين، وربطة عنق للطوارئ، واندفعتُ إلى الشارع، في مدينة حالمة لا تزال تلفها نتائج العاصفة وحصادها. رافقني ألفارو موتيس لمساعدتي في تجاوز خوفي من الطائرة، ووفر لي عناوين أناس لهم مكانة جيدة في حياة

المدينة. ولكن الحقيقة الباعثة على القشعريرة، تمثلت في أنه ليست لدي أدنى فكرة من أين سأبدأ. مشيت على غير هدى في الشوارع المشرقة، تحت طحين الذهب الذي ترسله الشمس المشعة بعد العاصفة، ثم اضطررت، بعد ساعة، إلى أن ألوذ بأول متجر، لأن المطر عاد للهطول على الرغم من الشمس المشرقة. وعندئذ بدأتُ أشعر في قلبي، بأول خفقات الهلع. حاولت كبحها بمعادلة جدي السحرية وسط المعركة، ولكن الخوف من الخوف انتهى إلى التسبب في انهيار معنوياتي. أدركت أنني لن أتمكن قط، من إنجاز ما كُلّفت به، ولم أجد الشجاعة لقول ذلك. وأدركت عندئذ أن التصرف الوحيد العاقل، هو كتابة رسالة شكر إلى غييرمو كانو، والعودة إلى بارنكيّا، إلى حالة الرضى الربانية التي كنت عليها قبل ستة شهور.

وبالراحة الهائلة التي أحسست بها، لخروجي من الجحيم، ركبت سيارة تكسي، لأعود إلى الفندق. كانت نشرة أخبار الظهيرة تقدم تعليقاً مطولاً، بصوتين متناوبين، كما لو أن الانهيار قد حدث بالأمس. فراح السائق يُفرّج عن نفسه، بالصراخ تقريباً، ضد إهمال الحكومة وتهاونها، وسوء التصرف بالمساعدات للمتضررين. أحسستُ بأنني مذنب بطريقة ما، ومسؤول عن غضبه العادل. ولكن المطر توقف عندئذ، من جديد، وصار الهواء شفافاً يعبق بتفجر الزهور في حديقة بيرّيو. وفجأة، دون أن أدري كيف، أحسستُ بضربة مخلب الجنون. فقلت للسائق:

– قدم لي خدمة. قبل الذهاب إلى الفندق، خذني إلى موقع الانهيارات.

فقال هو:

– ولكن لا يوجد هناك ما يستحق المشاهدة. لا شيء سوى الشموع المضاءة فقط، والصلبان الصغيرة للموتى الذين لم يستطيعوا إخراجهم من بين الأنقاض.

وهكذا علمتُ أن الضحايا والناجين على السواء، هم من أماكن مختلفة من المدينة. وأن هؤلاء قد اجتازوها في جموع غفيرة لإخراج أجساد من سقطوا في الانهيار الأول. وكانت المأساة عندما ملأ الفضوليون المكان، وانزلق جزء آخر من الجبل في انهيار جارف. وهكذا فإن الوحيدين الذين بإمكانهم رواية الحكاية، هم القلة الذين أفلتوا من الانهيارات المتتالية، وما يزالون أحياء في طرف آخر من المدينة.

فقلت للسائق، وأنا أحاول السيطرة على ارتعاش صوتي:

– مفهوم. خذني إذن إلى حيث يوجد الأحياء الناجون.

قام بالدوران في منتصف الشارع، وانطلق في الاتجاه المعاكس. ولم يكن صمته نتيجة السرعة التي صار يمضي بها الآن، وإنما نتيجة الأمل بإقناعي بمبرراته.

بداية الخيط كانت طفلين في الثامنة والحادية عشرة من عمرهما، خرجا من بيتهما لقطع الحطب، يوم الثلاثاء، ١٢ تموز، في الساعة السابعة صباحاً. وكانا قد ابتعدا نحو مئة متر، عندما أحسا بدوي انهيار الأتربة والصخور التي اندفعت نحوهما من سفح الجبل. تمكنا من الهرب بصعوبة. وظلت أخواتهم الثلاث محتجزات، في البيت، ومعهن أمهما وأخوهما حديث الولادة. وكان الناجيان الوحيدان هما الطفلان اللذان خرجا قبل قليل، ورب الأسرة الذي غادر باكراً، إلى عمله في محجر للرمل، على بعد عشرة كيلومترات عن البيت.

كان المكان قفراً موحشاً على الطريق العام، بين ميدلين وريونغرو. وفي الساعة الثامنة صباحاً، لم يكن قد بقي فيه سكان لسقوط مزيد من الضحايا. نشرت المحطات الإذاعية الخبر بمبالغة أرفقتها بكثير من التفاصيل الدامية، ونداءات مستعجلة جعلت أول المتطوعين يصلون قبل رجال المطافئ. وعند الظهيرة، حدث انهياران آخران، دون وقوع ضحايا، فاقما حالة العصبية العامة، وأقامت محطة إذاعة محلية مركز بث مباشر من موقع الكارثة. وفي تلك الساعة كان قد احتشد هناك سكان القرى والأحياء المجاورة بمجملهم تقريباً، فضلاً عن الفضوليين القادمين من كل أرجاء المدينة، ممن اجتذبتهم نداءات الإذاعة، والمسافرين الذين كانوا يترجلون من حافلات السفر، ليسببوا عرقلة أكثر مما يقدمونه من العون. وإضافة إلى الأجساد القليلة التي طُمرت في الصباح، كان هناك عندئذ، ثلاثمئة جثة أخرى سببتها الانهيارات المتتالية. ومع ذلك، وقبيل الغروب بقليل، كان لا يزال هناك أكثر من ألفي متطوع عفوي، يقدمون مساعدات طائشة للناجين. وعند الغروب، لم يعد هناك متسع للتنفس. فقد كانت الحشود كثيفة وفوضوية في الساعة السادسة، عندما وقع انهيار ساحق آخر، قُدر بمئتي ألف متر مكعب، رافقه دوي هائل، وأوقع عدداً كبيراً من الضحايا، كما لو أنه قد حدث في حديقة بيريّو المزدحمة في ميدلين. وقد وقعت الكارثة بسرعة، إلى حد أن الدكتور خابيير مورا، سكرتير الأشغال العامة في البلدية، وجد بين الأنقاض، جثة أرنب لم يجد متسعاً من الوقت للهرب.

بعد أسبوعين من ذلك، عندما وصلتُ إلى المكان، لم يكن قد أخرج سوى أربع وسبعين جثة. وكان عدد كبير من الناجين قد أسعفوا وصاروا

بأمن. ولم يكن معظمهم ضحايا الانهيارات، وإنما ضحية التهور والتضامن غير المنظم. ومثلما في الزلازل، لم يكن بالإمكان كذلك، تقدير عدد الذين لديهم مشاكل خاصة، واستغلوا الفرصة للاختفاء دون أن يخلفوا أثراً، هرباً من الديون أو لاستبدال نسائهم. ومع ذلك، فقد أسهم حسن الحظ بدوره أيضاً، إذ أثبت تحقيق تالٍ أنه منذ اليوم الأول، بينما كانت تجري محاولات الإنقاذ، أوشكت على السقوط كتلة صخور أخرى، يمكن لها أن تسبب انهيار خمسين ألف متر مكعب. وبعد أكثر من خمسة عشر يوماً، وبمساعدة الناجين الذين استردوا عافيتهم، استطعت أن أعيد بناء القصة التي لم تكن روايتها ممكنة في حينها، بسبب عقبات الواقع واضطرابه.

لقد تلخصت مهمتي في استخلاص الحقيقة الضائعة، من بين خليط من الافتراضات المتناقضة، وإعادة تركيب المأساة الإنسانية، وفق التسلسل الذي جرت به، بعيداً عن أية حسابات سياسية أو عاطفية. وكان ألفارو موتيس قد وضعني على الطريق القويم، عندما أرسلني مع خبيرة الإعلان سيسيليا وارين التي نظمت لي ما رجعتُ به من معلومات، من موقع الكارثة. نُشر الريبورتاج على ثلاث حلقات، وكانت له على الأقل ميزة إيقاظ الاهتمام بخبر منسي، بعد أسبوعين من التأخير، وإعادة ترتيب فوضى المأساة.

ومع ذلك، فإن أفضل ذكرياتي عن تلك الأيام، لم يكن ما فعلته، وإنما ما كنت على وشك أن أفعله، بفضل المخيلة الهذيانية لزميلي القديم في بارانكيا، أورلاندو ريفيرا، الملقب "فيغوريتا"، الذي التقيتُ به فجأة، في إحدى لحظات التنفس القليلة، أثناء البحث والتحريات. كان

يعيش في ميدلين منذ بضعة شهور، وكان سعيداً ومتزوجاً حديثاً من سول سانتاماريا، وهي راهبة فاتنة وذات روح حرة، ساعدها على الخروج من دير مغلق، بعد أن أمضت هناك سبع سنوات من الفقر، والطاعة، والعفة. وفي واحدة من سكراتنا الشهيرة، كشف لي فيغوريتا عن أنه قد أعد مع زوجته، وعلى مسؤوليته، خطة محكمة لإخراج ميرثيديس بارتشا من مدرستها الداخلية. وأن كاهناً صديقاً له، مشهوراً بفنونه في عقد الزيجات، سيكون مستعداً لتزويجنا في أي وقت. وكان العائق الوحيد بالطبع، هو أن توافق ميرثيديس نفسها، ولكننا لم نجد طريقة للاستفسار منها، وهي ضمن جدران محبسها الأربعة. واليوم، أكثر من أي وقت آخر، ينهشني الغضب لأنني لم أمتلك الجرأة لعيش دراما المسلسلات تلك. أما ميرثيديس، فلم تعلم بأمر الخطة، إلا بعد بضع وخمسين سنة من ذلك، حين قرأت مسودات هذا الكتاب.

كانت تلك واحدة من آخر المرات التي رأيت فيها "فيغوريتا". ففي كرنفال ١٩٦٠، وكان متنكراً بهيئة نمر كوبي، انزلق عن عربة الكرنفال التي كانت تعيده إلى بيته في بارانوا، بعد مشاركته في معركة تقاذف الزهور، ودقّ عنقه على حجارة الشارع المفروشة بأنقاض وفضلات الكرنفال.

في الليلة الثانية من عملي في انهيارات ميدلين، وجدت بانتظاري في الفندق، محررين من صحيفة الكولومبيانو - وكانا فتيين إلى حد أنهما أكثر شباباً مني -، وقد صمما على إجراء مقابلة معي، حول قصصي المنشورة حتى ذلك الحين. لقد تكلفا جهداً في إقناعي، لأنه كان لدي منذ ذلك الحين، ولا يزال، حكم مسبق، ربما هو جائر، ضد المقابلات

الصحفية التي تجري على صورة جلسة أسئلة وأجوبة، حيث يبذل الطرفان جهداً لعقد محادثة كاشفة. لقد عانيت من هذا الحكم المسبق في الصحيفتين اللتين عملت فيهما، وعانيت بخاصة في كرونيكا، حيث حاولت أن أنقل عدوى تحفظاتي إلى المشاركين الآخرين في تحريرها. ولكنني وافقت، مع ذلك، على تلك المقابلة الأولى مع جريدة الكولومبيانو، وكانت صريحة إلى حد انتحاري.

لا حصر اليوم للمقابلات التي كنتُ ضحية لها على مدى خمسين سنة، وعلى امتداد نصف العالم. ولم أتمكن حتى الآن، من الاقتناع بفعالية هذا الجنس من الكتابة، بأي حال من الأحوال. الأكثرية الساحقة من المقابلات التي لم أستطع تفاديها، حول أي موضوع، يجب أن تُعتبر جزءاً هاماً من أعمالي التخيلية، لأنها ليست سوى هذا: تخيلات حول حياتي. ولكنني أرى بالمقابل، أنها ذات قيمة لا تُثمَّن، ليس للنشر، وإنما كمادة أولية للريبورتاج، وهو الجنس الكتابي الذي أقدره باعتباره الجنس الأبرز في أفضل مهنة في العالم.

لم تكن تلك الأزمنة مناسبة، على أي حال، للمهرجانات؛ فحكومة الجنرال روخاس بينيّا، وكانت قد دخلت في نزاع مفتوح مع الصحافة وجزء كبير من الرأي العام، توّجت شهر أيلول بقرارها في تقسيم مقاطعة تشوكو، النائية والمنسية، بين جاراتها الثلاث المزدهرة: أنتيوكيا، وكالداس، وريابي. ولم يكن الوصول إلى كيبدو، عاصمة المقاطعة، ممكناً إلى من ميدلين، عبر طريق باتجاه واحد، وبحالة بالغة السوء، مما يتطلب أكثر من عشرين ساعة، لقطع مئة وستين كيلومتراً. والظروف اليوم ليس بأفضل مما كانت عليه آنذاك.

وكنا نرى في الجريدة، كأمر واقع، أنه لا يمكن عمل الكثير، لمنع تقسيم المقاطعة الذي أقرته الحكومة دون اعتبار للصحافة الليبرالية. وقد أرسل بريمو غيريرو، مراسل الاسبيكتادور المجرب في كيبدو، أخباراً في اليوم الثالث، عن أن مظاهرة شعبية لأسر بكاملها، بمن في ذلك الأطفال، قد احتلت الساحة الرئيسية، مع التصميم على البقاء هناك، تحت الشمس والندى، إلى أن تتراجع الحكومة عن نواياها. راحت الصور الأولى، للأمهات المتمردات، وبين أذرعهن أطفالهن، تفتر مع مرور الأيام، بفعل الأضرار التي سببها سهر الأهالي في العراء. وكنا نعزز هذه الأخبار، كل يوم، في هيئة التحرير، بتعليقات افتتاحية أو بتصريحات لسياسيين أو مثقفين من مقاطعة تشوكو، يقيمون في بوغوتا. ولكن الحكومة بدت مصممة على كسب المعركة، بصم أذنيها وعدم المبالاة. وبعد عدة أيام مع ذلك، دنا خوسيه سالغار من منضدتي بقلمه الذي كعيدان مُحرك الدمى، واقترح عليّ أن أذهب لأتحرى عما يحدث فعلاً في تشوكو. حاولتُ أن أرفض، مستغلاً السلطة الضئيلة التي اكتسبتها بفضل ريبورتاج ميدلين، ولكن ذلك لم يفدني كثيراً. فقد صرخ غييرمو كانو الذي كان يكتب مديراً لنا ظهره، دون أن ينظر إليّ:

– اذهب يا غابو، ففتيات تشوكو أفضل من اللواتي كنت ترغب في رؤيتهن في هايتي!

وهكذا ذهبتُ دون أن أتساءل حتى عن كيف يمكن لي كتابة ريبورتاج عن مظاهرة احتجاجية ترفض اللجوء إلى العنف. رافقني المصور غييرمو سانتشيث الذي كان يضايقني منذ شهور، بمعزوفة دعوتي إلى أن نقوم معاً، بإعداد ريبورتاج عن الحرب. ولضجري من سماع ذلك منه، قلت له صارخاً:

– يا للعنة، أية حرب تعني!

فأفلت فجأة، الحقيقة في وجهي:

– لا تتظاهر بالغباء، يا غابو، فأنا أسمعك تردد منذ بعض الوقت، أن هذه البلاد تعيش حالة حرب منذ الاستقلال.

حضر في فجر يوم الثلاثاء، الحادي والعشرين من أيلول، وهو يرتدي ملابس محارب، أكثر مما هي ملابس مصور تحقيقات صحفية. وكان يحمل آلات التصوير، وتتدلى الجعب من كل أنحاء جسده، لكي نذهب لتغطية أخبار حرب يلفها الصمت. وكانت المفاجأة الأولى أنه يمكن الذهاب إلى تشوكو قبل مغادرة بوغوتا، عبر مطار ثانوي لا وجود فيه لخدمات من أي نوع، بين أنقاض شاحنات ميتة وطائرات صدئة. أما طائرتنا فكانت لا تزال حية بقدرة فنون السحر. فهي طائرة من طراز كاتالينا الأسطورية التي استخدمت في الحرب العالمية الثانية. وقد أعادت شركة مدنية تأهيلها لاستخدامها في الشحن. لم تكن فيها مقاعد. وكانت ضيقة وكالحة من الداخل، مع وجود نوافذ صغيرة غبشة، وحمولة من حزم ألياف تصنع منها المكانس. وقد كنا المسافرين الوحيدين فيها. أشار لنا مساعد الطيار ذو القميص قصير الأكمام، وهو شاب وأنيق مثل طياري السينما، بأن نجلس على حزم الحمولة التي بدت له أكثر راحة. لم يتعرف عليّ، ولكنني كنتُ أعرف أنه كان لاعب بيسبول بارزاً في فريق لاماتونا، في كارتاخينا.

كان الإقلاع مرعباً، حتى بالنسبة لمسافر محب للمجازفة، مثل المصور غييرمو سانتشيث، بسبب دوي المحركات الراعد، وقرقعة حدائد بدن الطائرة. ولكنها ما إن استقرت في سماء السهب الصافية، حتى

انسابت بقوة محارب مجرب. ومع ذلك، وبعد أن تجاوزنا استراحة ميدلين، فاجأنا وابل من المطر فوق غابة متشابكة بين سلسلتين جبليتين، واضطررنا إلى دخول تلك العاصفة مواجهة. وربما عشنا عندئذ، ما لم يعشه إلا قلة من البشر الفانين: تسرب المطر إلى داخل الطائرة من خلال ثقوب بدنها. وجاء مساعد الطيار الصديق قافزاً بين حزم المكانس، حاملاً إلينا صحف ذلك اليوم لنستخدمها كمظلات. فغطيتُ حتى وجهي بالصحيفة، ليس لأحميه من الماء، وإنما للحيلولة دون أن يروني أبكي من الرعب.

بعد نحو ساعتين من الاستسلام للحظ والقدر، مالت الطائرة على جانبها الأيسر، ونزلت في وضع الانقضاض على غابة كثيفة، ثم دارت دورتين حول ساحة كيبدو الرئيسية. استعد غييرمو سانتشيث لكي يلتقط، من الجو، صوراً للمظاهرة المستنفدة من الإنهاك والسهر، فلم يجد سوى الساحة المقفرة. قامت الطائرة البرمائية المخلعة بجولة أخيرة، للتأكد من أنه لا وجود لعوائق حية أو ميتة في نهر أتراتو الهادئ، وأكملت هبوطها السعيد في قيظ الظهيرة.

كانت الكنيسة المرقعة بألواح خشبية، والمقاعد الإسمنتية الملطخة ببقايا العصافير، وبغلة بلا صاحب تلبط أغصان شجرة عملاقة، هي الإشارات الوحيدة على الوجود البشري في الساحة المغبرة والمقفرة التي لا تشبه شيئاً أكثر مما تشبه عاصمة أفريقية. كان هدفنا الأول التقاط صور مستعجلة للحشود المحتجة، وإرسالها إلى بوغوتا في الطائرة العائدة، ريثما نجمع ما يكفي من المعلومات الجديدة وغير المعروفة، لنرسلها برقياً، كي تُنشر في طبعة اليوم التالي. لم يكن بالإمكان عمل شيء من ذلك، لأن شيئاً لم يكن يحدث.

اجتزنا، دون شهود، الشارع الطويل جداً بموازاة النهر. وكانت تحف به متاجر مغلقة من أجل الغداء، وبيوت ذات شرفات خشبية وسقوف صدئة. لقد كان المشهد مناسباً تماماً. إنما كانت تنقصه الدراما. كان زميلنا الخطيب بريمو غيربرو، مراسل الاسبيكتادور، ينام القيلولة دون هَمّ في أرجوحة نوم ربيعية، تحت عريشة بيته، كما لو أن الصمت الذي يحيط به هو سلام المقابر. وما كان يمكن للصراحة التي أوضح لنا بها إهماله وتهاونه، أن تكون أكثر موضوعية. فبعد مظاهرات الأيام الأولى، تراخت حدة التوتر بسبب الافتقار إلى موضوعات. عندئذ قام بترتيب تعبئة للقرية بأسرها، بتقنيات مسرحية، والتُقطت بعض الصور التي لم تُنشر، لأنها بدت غير مقنعة، وألقيت الخطابات الوطنية التي هزت البلاد فعلاً. ولكن الحكومة ظلت على عدم مبالاتها. غير أن بريمو غيربرو، وبمرونة أخلاقية ربما يكون الرب نفسه قد سامحه عليها، أبقى الاحتجاجات حية في الصحافة، بقدرة البرقيات وحدها.

كانت مشكلتنا المهنية بسيطة: فنحن لم نقم بتلك الرحلة الطرزانية، لكي نخبر الجريدة بأنه لا وجود للخبر. وكانت في متناول يدنا، بالمقابل، الوسائل لكي يكون الخبر صحيحاً، وينجز الهدف منه. عندئذ اقترح بريمو غيربرو أن ينظم مرة أخرى المظاهرة النقالة. ولم يخطر لأي منا فكرة أفضل من تلك. وكان أكثر مساعدينا في ذلك حماسة هو النقيب لويس آ. كانو، الحاكم الجديد المعيَّن بعد استقالة سلفه الساخطة. وقد كانت لديه الجرأة على تأخير إقلاع الطائرة، لكي تتلقى الجريدة صور غييرمو سانتشيث، في الوقت المناسب. وهكذا انتهى الأمر بالخبر المُختلق بدافع الحاجة، إلى أن يكون الخبر الوحيد الصحيح. فقد ضخمته الصحافة

والإذاعة في كل أنحاء البلاد؛ وسرعان ما تلقفته الحكومة العسكرية لتنقذ وجهها. في تلك الليلة بالذات، بدأت تعبئة عامة للسياسيين المنتمين إلى مقاطعة تشوكو – وكان لبعضهم نفوذ في بعض قطاعات البلاد – فما كان من الجنرال روخاس بينيّا، بعد يومين من ذلك، إلا الإعلان عن إلغاء قراره بتوزيع مقاطعة تشوكو بين جيرانها.

لم نرجع أنا وغييرمو سانتشيث إلى بوغوتا فوراً، لأننا أقنعنا الجريدة بأن تسمح لنا بالتجوال في مناطق تشاكو الداخلية، للتعرف بعمق على واقع ذلك العالم الخيالي. وبعد عشرة أيام من الصمت، عندما دخلنا إلى قاعة التحرير، وقد دبغت الشمس جلدنا، ونحن نكاد ننهار من النعاس، استقبلنا خوسيه سالغار سعيداً، ولكن على طريقته. فقد سألنا بتأكيد حاسم:

– هل تعلمان منذ متى انتهى خبر منطقة تشاكو؟

وقد وضعني السؤال مواجهة، للمرة الأولى، أمام شرط الفناء الذي يحكم الصحافة. وبالفعل، لم يعد هناك من يهتم بمنطقة تشاكو، منذ أن نُشر القرار الرئاسي بإلغاء تقسيمها. ومع ذلك، فقد أيدني خوسيه سالغار في المجازفة بطهو ما هو ممكن من تلك السمكة الميتة.

ما حاولنا نقله في أربع حلقات طويلة، هو اكتشاف بلاد أخرى لا يمكن تصورها داخل كولومبيا، ولم تكن لدينا أية معرفة بها. فهناك وطن سحري، تسوده الأدغال المزهرة والفيضانات الأبدية، حيث يبدو كل شيء كنسخة غير معقولة من الحياة اليومية. كانت العقبة الكبرى التي تعترض شق طرق برية، هي تلك الكمية الهائلة من الأنهار الجامحة. غير أنه لم يكن هناك سوى جسر واحد في المنطقة كلها. وجدنا طريقاً معبدة

بطول خمسة وسبعين كيلومتراً، عبر الغابة العذراء، مقامة بكلفة باهظة من أجل وصل بلدة إتسمينا ببلدة بوتو، ولكنها لا تمر من الأولى أو الثانية، كإجراء عقابي من المقاول الذي دخل في منازعات قضائية مع عمدتي البلدتين.

في إحدى قرى المنطقة الداخلية، طلب منا وكيل البريد أن نحمل، إلى زميله في إتسمينا، البريد المتراكم لديه منذ ستة أشهر. لقد كان ثمن علبة السجائر الوطنية هناك، ثلاثين سنتافو، مثلما هو في بقية أرجاء البلاد. ولكن عندما تتأخر الطائرة الصغيرة الأسبوعية التي تمون البلدة بالسجائر، يرتفع السعر عن كل يوم تأخير، إلى أن يجد الأهالي أنفسهم مضطرين إلى تدخين السجائر الأجنبية التي تصبح أرخص من الوطنية. أما كيس الرز، فيزيد سعره خمسة عشر بيزو عما هو عليه في مناطق الزراعة، لأنهم ينقلونه عبر ثمانين كيلومتراً من الغابات العذراء، على متن البغال التي "تتشعبط" كالقطط على الدروب الجبلية الضيقة. وتعمل نساء أشد القرى فقراً في غربلة الذهب والبلاتين في الأنهار، بينما ينصرف رجالهن إلى صيد السمك. وفي أيام السبت يبيعون للتجار المتجولين دزينة من الأسماك، وأربعة غرامات من البلاتين، بثلاثة بيزوات فقط.

كل هذا كان يحدث في مجتمع مشهور بلهفته إلى الدراسة والعلم. ولكن المدارس قليلة ومتباعدة. وعلى التلاميذ أن يقطعوا عدة فراسخ كل يوم، سيراً على الأقدام وفي الزوارق، من أجل الذهاب والإياب. وقد كانت بعض المدارس مزدحمة إلى حد أنهم كانوا يستخدمون البناء نفسه في أيام الاثنين والأربعاء والجمعة للذكور، وأيام الثلاثاء والخميس

والسبت للإناث. وللسبب نفسه، كانت تلك المدارس هي الأكثر ديمقراطية في البلاد، لأن ابن الغسالة الذي يكاد لا يجد ما يأكله، يرتاد المدرسة نفسها التي يذهب إليها ابن العمدة.

قلة قليلة من الكولومبيين كانوا يعرفون آنذاك، أنه هناك في أدغال تشوكو، تنتصب أكثر مدن البلاد حداثة. إنها مدينة تدعى أنداغويا، تقوم عند التقاء نهري سان خوان وكوندتو. وكان فيها نظام اتصال هاتفي متقن الكمال، وأرصفة لاستقبال السفن والمراكب، تعود ملكيتها للمدينة نفسها التي تشقها شوارع فسيحة ومشجرة. وكانت البيوت الصغيرة والنظيفة، ذات الأفنية الواسعة المسيجة والأدراج الخشبية البهية عند البوابات، تبدو مزروعة وسط العشب. وفي منتصف المدينة، كان هناك كازينو فيه مطعم-كباريه، وبار تُقدم فيه خمور مستوردة بأسعار أرخص من بقية أنحاء البلاد. إنها مدينة يقطنها أناس من كل أنحاء العالم، نسوا الحنين، ويعيشون هناك أفضل مما في بلادهم، تحت السلطة الكلية للجنرال المحلي لتشوكو باسيفيكو. لقد كانت أنداغويا، في الحياة الواقعية، بلداً أجنبياً وملكية خاصة، تجرف كراكاته قيعان الأنهار الخرافية، لتنهب الذهب والبلاتين، وتحمله في سفينة خاصة، تخرج به إلى العالم بأسره، دون مراقبة من أحد، عبر مصبات نهر سان خوان.

كانت تلك هي تشوكو التي أردنا كشفها للكولومبيين، ولكن دون أي نتيجة، لأن كل شيء عاد إلى ما كان عليه، بعد أن انقضى الخبر، وبقيت أكثر المناطق المنسية في البلاد. وأظن أن السبب واضح وجلي: فكولومبيا كانت على الدوام بلداً كاريبي الهوية، مفتوحاً على العالم من

خلال حبل الخلاص الذي تمثله بنما. وجاء اقتطاع بنما الإجباري وفصلها عن كولومبيا، ليحكم علينا بأن نكون ما نحن عليه اليوم: بلاداً أنديزية بالشروط المناسبة لكيلا تكون القناة بين المحيطين ملكاً لنا، وإنما للولايات المتحدة.

كان يمكن لإيقاع التحرير في الجريدة، أن يكون قاتلاً لولا أيام الجمعة مساء، بعد تحررنا من واجباتنا؛ إذ كنا نلتقي في بار فندق كونتيننتال، على الرصيف المقابل، في جلسات تفريغ عن النفس تستمر حتى الفجر. وقد عمّد إدواردو ثالاميا تلك الليالي باسم خاص: "الجمعة الثقافية". وكانت تلك الجلسات هي فرصتي الوحيدة لتبادل الحديث معه، كيلا يفوتني قطار مستجدات العالم الأدبية التي يتابعها، لحظة بلحظة، بقدرته كقارئ غير عادي. أما المواظبون المتمسكون بسهرات المشروبات الكحولية غير المتناهية، وذات النهايات غير المتوقعة تلك - فضلاً عن صديقين أو ثلاثة من أصدقاء أوليسيس الأبديين -، فكنا نحن المحررين الصحفيين الذين نخشى انتهاء الجلسة قبل حلول الفجر.

لقد لفت انتباهي على الدوام، أن ثالاميا لم يقدم قطّ، أي ملاحظة حول تعليقاتي الصحفية، بالرغم من أن معظمها كانت مستوحاة من تعليقاته ومقالاته. ومع ذلك، عندما استقرت لقاءات "الجمعة الثقافية"، أطلق العنان لأفكاره حول الزوايا الصحفية. وقد اعترف لي بأنه لا يتفق مع كثير من وجهات نظر تعليقاتي، واقترح عليّ غيرها، ولكن ليس بنبرة المعلم لتلميذه، وإنما كاتب لكاتب.

ملاذ آخر كنا نتردد عليه بكثرة، بعد تأسيس النادي السينمائي،

هو السهرات حتى منتصف الليل، في شقة لويس فيثنس وزوجته نانسي، على بعد كوادرات قليلة من الاسبيكتادور. وكان هو، الذي ساهم فيما مضى، في الكتابة مع مارسيل كولين ريفال، وترأس تحرير مجلة "السينما الفرنسية" في باريس، قد بدّل أحلامه السينمائية، وتحول إلى مكتبيٍّ جيد في كولومبيا، بسبب الحرب الأوروبية. كانت نانسي تتصرف كمضيفة سحرية، قادرة على تكبير غرفة طعام أربعة أشخاص، لتستوعب اثني عشر شخصاً. لقد تعارفا بعد وقت قصير من مجيئه إلى بوغوتا، سنة ١٩٣٧، خلال عشاء عائلي. لم يكن هنالك على المائدة، سوى مكان شاغر وحيد، إلى جانب نانسي، حين رأت برعب، دخول المدعو الأخير، بشعره الأبيض وبشرة متسلق الجبال الملوحة بالشمس. فقالت لنفسها: "يا لسوء الحظ! سيجلس الآن إلى جانبي هذا البولوني الذي لا يعرف حتى التكلم بالإسبانية". وكانت على صواب تقريباً، في ما يتعلق باللغة، لأن القادم الجديد كان يتكلم الإسبانية بكتلانية تيتة، مختلطة بالفرنسية. وكانت هي المتحدرة من مقاطعة بوياكا، متحذلقة اللغة وطليقة اللسان. ولكنهما تفاهما على أحسن وجه، منذ تبادلهما التحية الأولى إلى حد أنهما بقيا ليعيشا معاً إلى الأبد.

سهراتهما كانت تُرتجل بعد العروض السينمائية الافتتاحية الكبرى، في شقة مترعة بخليط من كل الفنون، حيث لم يكن هناك متسع لمزيد من الرسامين المبتدئين الكولومبيين، ممن سيصبح بعضهم مشهوراً في العالم بأسره. وكان المدعوون مختارين من بين أبرز أهل الفنون والآداب، وقد تظهر شلة بارانكيا هناك بين حين وآخر. دخلتُ إلى ذلك البيت، كما لو أنني في بيتي، منذ ظهور مقالتي الأولى في النقد السينمائي.

وعندما كنتُ أخرج من الجريدة قبل منتصف الليل، أقطع الكوادرات الثلاث ماشياً، وأجبرهما على السهر حتى وقت متأخر. وقد كانت المعلمة نانسي - فضلاً عن أنها طاهية رائعة - ساعية زواج ضارية، ترتجل ولائم عشاء بريئة، لتعرفني على أكثر فتيات عالم الفن جاذبية وتحرراً، ولم تغفر لي قط، عندما قلت لها، وأنا في الثامنة والعشرين، إن ميلي الحقيقي ليس أن أكون كاتباً ولا صحفياً، وإنما عازباً لا يُهزم.

في فجوات الفراغ التي تتبقى لألفارو موتيس، من رحلاته حول العالم، قام بإدخالي إلى أعلى مستويات المجتمع الثقافي وتعريفي عليه. فبحكم وضعه كمدير علاقات عامة لشركة إسو الكولومبية، كان ينظم ولائم غداء في أغلى المطاعم. وهو ما يوفر في الواقع، التأثير والوزن في عالم الفنون والآداب، وكان مدعووه في أحيان كثيرة، ضيوفاً من مدن أخرى في البلاد. الشاعر خورخي غايتان دوران الذي كانت تتسلط على ذهنه، فكرة إصدار مجلة أدبية كبرى، تتطلب ثروة باهظة، حلّ الأمر جزئياً، من أرصدة ألفارو موتيس المخصصة لتشجيع الثقافة. وكان ألفارو كاستانيو كاستيو وزوجته، غلوريا بالينثيا، يحاولان منذ سنوات، تأسيس محطة بث إذاعي، مكرسة بالكامل للموسيقى الجيدة، ولبرامج ثقافية في متناول اليد. وكنا جميعنا نسخر من عدم واقعية مشروعهما، باستثناء ألفارو موتيس الذي بذل كل ما يمكنه لمساعدتهما. وهكذا أسسا إذاعة HJCK، "العالم في بوغوتا" ببث قدرته ٥٠٠ واط، وهي الطاقة الدنيا في ذلك الحين. ومع أن التلفزيون لم يكن قد وُجد بعد في كولومبيا، إلا أن غلوريا بالينثيا اخترعت الأعجوبة الميتافيزيقية بتقديمها، عبر الإذاعة، برنامجاً عن عروض الأزياء.

الاستراحة الوحيدة التي كنت أبيحها لنفسي، في أيام الضيق تلك، هي أمسيات الآحاد في بيت ألفارو موتيس الذي علمني الاستماع إلى الموسيقى، دون أحكام طبقية مسبقة. كنا نستلقي على السجادة لنستمع بقلبنا، إلى كبار الموسيقيين، دون تأملات نظرية حكيمة. وكان ذلك هو أصل شغفي بالموسيقى الذي بدأ في القاعة الخفية، في المكتبة الوطنية، ولم ينسنا قط. لقد استمعت اليوم إلى كل ما استطعت الحصول عليه من الموسيقى، ولا سيما موسيقى الحجرة الرومانسية التي أعتبرها ذروة الفنون. أما في مكسيكو، بينما كنتُ أكتب مئة عام من العزلة - في عامي ١٩٦٥ و١٩٦٦ -، فلم يكن لدي سوى أسطوانتين اثنتين، استُهلكتا لكثرة ما استمعت إليهما: الاستهلالات لديبوسي، وبا لليلة ذلك اليوم لفرقة البيتلز. وفي ما بعد، عندما امتلكتُ في برشلونة الكثير من الأسطوانات، بقدر ما كنت أرغب على الدوام تقريباً، بدا لي أن التصنيف الأبجدي تقليدي جداً، فاخترت من أجل راحتي الخاصة، اتباع ترتيب يأخذ في الاعتبار الآلات الموسيقية: التشيلو، وهو المفضل لدي، من فيفالدي إلى براهمز؛ والكمان، من كوريلي حتى شونبرغ؛ الكلاف والبيانو، من باخ حتى بارتوك. إلى أن اكتشفتُ معجزة أن كل ما يرن هو موسيقى، بما في ذلك الأطباق وأدوات الطعام في المجلى، ما دامت تؤدي وهم إشعارنا بالمسار الذي تمضي فيه الحياة.

كنت أعاني من محدودية عدم قدرتي على الكتابة، بوجود الموسيقى، لأنني أولي انتباهي إلى ما اسمعه أكثر مما أوليه إلى ما أكتبه، وما زلت حتى اليوم لا أتردد إلا نادراً على الحفلات الموسيقية، لأنني أشعر أنه يقوم، في مقعد الصالة، نوع من الحميمية الوقورة مع

جيران غرباء. ومع ذلك، مع مرور الزمن وتوفر الإمكانيات لسماع موسيقى جيدة في البيت، تعلمت الكتابة بوجود خلفية موسيقية تتوافق مع ما أكتبه: نكتورنات شوبان للأحداث الهادئة، أو سداسيات براهمز للأمسيات السعيدة. ولم أعد أستمع، بالمقابل، إلى موزارت لسنوات طويلة، منذ أن داهمتني الفكرة الشيطانية بأن موزارت غير موجود، لأنه عندما يكون جيداً فهو بيتهوفن، وعندما يكون سيئاً يصير هايدن.

لقد توصلت، في السنوات التي أستحضر فيها هذه الذكريات، إلى معجزة عدم الشعور بالضيق من أي نوع من الموسيقى، وأنا أكتب؛ وربما دون أن أعي فضائلها الأخرى؛ ذلك أن المفاجأة الكبرى جاءتني من موسيقيين كتلانيين، شابين وذويين، يعتقدان بأنهما اكتشفا تشابهات مفاجئة بين خريف البطريرك، وروايتي السادسة، وكونشيرتو البيانو الثالث لبيلا بارتوك. صحيح أنني كنت أستمع إلى هذا الكونشيرتو دون توقف، بينما أنا أكتب، لأنه كان يولّد في حالة خاصة جداً من الحماسة، وغريبة بعض الشيء، ولكنني لم أفكر قط، في أنه يمكن لتلك الموسيقى أن تكون قد أثرت بي إلى الحد الذي تُلمح به في كتابتي. ولست أدري كيف علم أعضاء الأكاديمية السويدية بنقطة ضعفي تلك، فوضعوا تلك الموسيقى نفسها، كخلفية، عند تسليمي جائزتي. إنني أشكرهم من أعماق روحي بالطبع، على تلك اللفتة، ولكن لو أنهم سألوني – مع كل امتناني واحترامي لهم ولبيلا بارتوك – لكنت أحببت أن توضع إحدى مقطوعات فرانثيسكو الرجل، الرومانسية الطبيعية التي كانت تُعزف في طفولتي.

لم يكن هناك في كولومبيا، في تلك السنوات، مشروع ثقافي

يتحقق، أو كتاب يُكتب، أو لوحة تُرسم، دون المرور قبل ذلك، من مكتب موتيس. لقد كنتُ شاهداً على حواره مع رسام شاب لديه كل شيء جاهز من أجل رحلته البحرية التي لابد منها إلى أوروبا، ولكنه كان يفتقر إلى النقود اللازمة للرحلة. لم يكن ألفارو قد استمع إلى قصته كلها، عندما أخرج حقيبته السحرية من المنضدة، قائلاً له:

– ها هي ذي تذكرة السفر.

كنت أشهد مذهولاً، التلقائية التي يحقق بها تلك المعجزات، دون أدنى تفاخر سلطوي. ولهذا ما زلتُ أتساءل عما إذا لم تكن له علاقة بالطلب الذي عرضه عليّ، في إحدى حفلات الكوكتيل، سكرتير جمعية الكتّاب والفنانين الكولومبيين، أوسكار دبلغادو، لكي أشارك في مسابقة وطنية للقصة القصيرة، يوشكون الإعلان عن حجب جائزتها. وقد قال ذلك بأسلوب بالغ الاستخفاف إلى حد بدا لي الاقتراح معه مشيناً، على أن أحدهم سمعه، فأكد لي أنه لا يمكن للمرء، في بلاد مثل بلادنا، أن يصير كاتباً دون أن يعرف أن المسابقات الأدبية ليست سوى مسرحيات إيمائية اجتماعية: "بما في ذلك جائزة نوبل". أنهى كلامه بهذه العبارة دون أدنى قدر من الخبث؛ فوضعني منذ ذلك الحين، دون أن يكون قد فكر في الأمر، في حالة تأهب لاتخاذ قرار خطير آخر اعترضني بعد سبع وعشرين سنة من ذلك.

ضمت لجنة تحكيم مسابقة القصة القصيرة هيرناندو تيبث، وخوان لوثانو آي لوثانو، وبيدرو غوميث فالديراما وثلاثة كتّاب ونقاد آخرين من الوزن الثقيل. ولهذا لم أحسب حساباً للاعتبارات الأخلاقية والاقتصادية، وإنما أمضيت ليلة في التصحيح النهائي لقصة "يوم بعد

السبت" التي كنت قد كتبتها في بارانكيا، في ضربة إلهام فاجأتني في مكاتب جريدة إلناسيونال . وبعد نومها أكثر من سنة في الدرج، بدت لي قادرة على إبهار لجنة تحكيم جيدة. وهذا هو ما حدث، فضلاً عن حصولي على مكافأة مالية هائلة: ثلاثة آلاف بيزو.

في تلك الأيام بالذات، ودون أي علاقة بالمسابقة، جاءني إلى المكتب دون صامويل ليزمان باوم، الملحق الثقافي بسفارة إسرائيل، وكان قد افتتح للتو، مؤسسة للنشر بإصداره كتاب أشعار للمعلم ليون دي غريف : "أوراق الدفتر الخامس المختلطة". كانت الطبعة حسنة المظهر، والأخبار عن ليزمان باوم جيدة. وهكذا قدمت إليه نسخة مرقعة جداً من "عاصفة الأوراق"، وصرفته طيراناً مع الوعد بأن نتحدث في ما بعد. وبخاصة عن النقود. وكان هذا - بالفعل - هو الموضوع الوحيد الذي لم نتحدث فيه أبداً. وقد رسمت سيسيليا بوراس غلافاً تجديدياً - لم تتمكن من تقاضي ثمنه كذلك -، مستندة إلى وصفي لشخصية الطفل. وقدمت ورشة الزنكوغراف بصحيفة الاسبكتادور كليشيات الغلاف بأربعة ألوان، كهدية.

لم أعد إلى معرفة أي شيء، إلا بعد خمسة أشهر من ذلك، عندما اتصلت بي دار نشر سيبا في بوغوتا - ولم أكن قد سمعتُ باسمها من قبل - لتقول لي إن طبعة من أربعة آلاف نسخة جاهزة للتوزيع، لكنهم لا يعرفون ماذا يفعلون بها، لأن أحداً لا يعرف أين هو ليزمان باوم. ولم يستطع حتى كتبة الريبورتاجات في الجريدة أن يعرفوا أي شيء عنه، ولم يجده أحد حتى شمس هذا اليوم. فعرض أوليسيس على المطبعة أن تتولى بيع النسخ للمكتبات، بالاستناد إلى الحملة الصحفية التي بدأها

هو نفسه، بمقالة لم أشكره عليها حتى الآن. كان النقد رائعاً، لكن معظم الطبعة ظل في المستودع، ولم يُعرف قط، عدد النسخ التي بيعت، كما أنني لم أتلق من أحد سنتافو واحداً من حقوقي.

بعد أربع سنوات من ذلك، قام إدواردو كابايرو كالديرون، المشرف على سلسلة "المكتبة الأساسية للثقافة الكولومبية" بضم طبعة جيب من "عاصفة الأوراق" إلى مجموعة أعمال بيعت في أكشاك الشوارع، في بوغوتا ومدن أخرى. وقد دفع لي الحقوق المتفق عليها، وهي ضئيلة ولكن في موعدها المحدد. وكانت لها قيمة عاطفية لأنها أول نقود أحصل عليها مقابل كتاب. وقد تضمنت الطبعة، عندئذ، بعض التغيرات التي لم أتعرف عليها بأنها لي، ولم أهتم بعدم تضمينها في طبعات تالية. وبعد ثلاثة عشر عاماً تقريباً، عندما مررت بكولومبيا بعد إطلاق "مئة عام من العزلة" في بوينس ايرس، عثرتُ في أكشاك الشوارع، في بوغوتا، على أعداد من النسخ المتبقية من الطبعة الأولى من "عاصفة الأوراق" بسعر بيزو واحد للنسخة. فاشتريت منها كل ما استطعت حمله. ومنذ ذلك الحين، وجدت كميات أخرى متفرقة، في مكتبات متعددة في أمريكا اللاتينية، يحاولون بيعها على أنها كتب تاريخية. وقبل نحو عامين، باعت وكالة إنكليزية للكتب القديمة، بثلاثة آلاف دولار، نسخة تحمل توقيعي من الطبعة الأولي من "مئة عام من العزلة".

لم تحرفني أي واحدة من تلك الحالات، لحظة واحدة، عن انهماكي في الصحافة. فقد اضطرنا النجاح الأولي للتحقيقات الصحفية المتسلسلة، إلى البحث عن علف لتغذية وحش نهم لا يشبع. وكان التوتر

اليومي لا يُحتمل، ليس في تحديد الموضوعات والبحث عنها وحسب، وإنما كذلك في سياق كتابتها المهددة، على الدوام، بالافتتان بالخيال. لم تكن ثمة شكوك في الاسيكتادور، فالمادة الأولية في المهنة يجب أن تكون الحقيقة، ولا شيء سوى الحقيقة، وكان ذلك يبقينا في حالة توتر دائم. وانتهى بنا الأمر، أنا وخوسيه سالغار، إلى حالة من الإدمان لا تتيح لنا لحظة سلام حتى في عطلة أيام الآحاد.

شاع في عام ١٩٥٦ أن البابا بيو الثاني عشر يعاني من نوبة فواق يمكن لها أن تكلفه حياته. وكانت الحالة المماثلة الوحيدة سابقاً التي أتذكرها، هي قصة سومرست موم الرائعة "P & O"، التي مات بطلها وسط المحيط الهندي، بنوبة فواق، قضت عليه في خمسة أيام، بينما كانت تصله من العالم بأسره، كل أنواع الوصفات الغريبة، لكنني اعتقد بأنني لم أكن أعرف القصة في ذلك الحين. لم نكن نجرؤ، في عطلة نهاية الأسبوع، على الذهاب بعيداً في رحلاتنا إلى قرى السهب، لأن الصحيفة كانت تستعد لإصدار طبعة استثنائية خاصة إذا ما توفي البابا. وكنتُ أؤيد أن تكون لدينا طبعة جاهزة مسبقاً، تُبقي فيها فراغات تُملأ عند وصول أول البرقيات عن الوفاة. بعد سنتين من ذلك، وكنتُ قد صرت مراسلاً في روما، كان العالم لا يزال ينتظر نهاية فواق البابا.

مشكلة أخرى في الصحيفة، لم يكن هناك سبيل لمقاومتها، هي الميل إلى قصر الاهتمام على موضوعات مثيرة، يمكن لها أن تجتذب مزيداً من القراء. وكان لديَّ ميلي المتواضع بعدم فقدان جمهور آخر يفكر بالقلب فقط، ويتلقى قدراً أقل من الاهتمام. وبين الموضوعات القليلة

التي تمكنت من العثور عليها، ما زلت أتذكر الريبورتاج الأكثر بساطة، والذي شدني بصورة خاطفة من خلال نافذة الحافلة. فعلى باب بيت كولونيالي بديع، في الرقم ٥٦٧ في الشارع الثامن، في بوغوتا، كان هناك إعلان يقلل من شأن نفسه: "مكتب متأخرات البريد الوطني". لا أتذكر بأنني فقدت شيئاً في تلك المتاهات، ولكنني نزلت من حافلة الترام، وطرقت الباب. الرجل الذي فتح لي كان المسؤول عن المكتب مع ستة موظفين منهجيين، يغطيهم صدأ الروتين، تتمثل مهمتهم الرومانسية في العثور على من أرسلت إليه أي رسالة غير واضحة العنوان.

كان بيتا جميلاً، ضخما ومغبراً، له أسقف عالية وجدران متآكلة، وممرات قاتمة وردهات مترعة بأوراق لا صاحب لها. تدخله، وسطياً، مئة رسالة متأخرة كل يوم. عشر رسائل منها على الأقل، وُضعت عليها الطوابع، ولكن المغلف بقي أبيض لا يحمل حتى اسم المرسل. وكان رجال المكتب يسمونها "رسائل الرجل الخفي". ولا يتوانون عن بذل جهدهم من أجل تسليمها أو إعادتها. لكن طقوس فتحها للبحث عن مؤشرات، كانت عملية بيروقراطية صارمة وغير مجدية، إلا أنها تستحق التقدير.

نُشر الريبورتاج على صفحة واحدة، تحت عنوان "ساعي البريد يطرق الباب ألف مرة"، مع عنوان فرعي: "مقبرة الرسائل الضائعة". وقد قال لي سالغار عندما قرأه: "لا حاجة إلى ليِّ عنق هذه البجعة، لأنها ولدت ميتة". ونشر الريبورتاج على المساحة اللازمة له بالضبط، لا أكثر ولا أقل، ولكن كان يبدو عليه الشعور بالمرارة مثلي، لما كان يمكن للريبورتاج أن يكون عليه. أما روخيليو إتشيباريًا، ربما لأنه شاعر، فقد احتفى به

بمزاج طيب، وبجملة لن أنساها أبداً: "المسألة هي أن غابو يتمسك حتى بمسمار ساخن".

شعرت بالقنوط، فقررت أن أتولى بنفسي، وعلى مسؤوليتي – دون أن أخبر سالغار بذلك – العثور على صاحبة رسالة استحقت مني اهتماماً خاصاً. كانت مرسلة من مصحة الجذام "أغوا دي ديوس"، وموجهة إلى "سيده الحداد التي تذهب، كل يوم، إلى قداس الساعة الخامسة في كنيسة لاس أغواس". بعد أن قمت بكل أنواع التحريات غير المجدية، مع كاهن الكنيسة ومساعديه، واصلت اللقاء، عدة أسابيع، مع المؤمنين المواظبين على قداس الخامسة، ولكن دون نتيجة. وقد فوجئتُ بأن أكثر رواد القداس مواظبة، كن ثلاث متقدمات في السن، يأتين دائماً بملابس حداد كاملة، ولكن لا علاقة لأي واحدة منهن بمصحة الجذام "أغوا دي ديوس". كان إخفاقاً تطلب تجاوزه مني بعض الوقت، ليس بسبب الأنانية وحب الذات، ولا لأني قمتُ بعمل أقرب إلى الإحسان وحسب، وإنما لأنني كنت واثقا من أن هناك، وراء قصة امرأة الحداد تلك، قصة أخرى مؤثرة.

وكلما كنت أغوص في مستنقعات الريبورتاج الصحفي، كانت علاقتي بجماعة بارانكيا تزداد زخماً. لم تكن رحلاتهم إلى بوغوتا كثيرة، لكني كنت أنقضُّ عليهم هاتفياً في أي وقت، وحيال أي مشكلة، وبخاصة على خيرمان بارغاس، بسبب مفهومه التربوي للريبورتاج الصحفي. كنت أستشيرهم في كل مشكلة، وكانت المشاكل كثيرة، أو أنهم كانوا يتصلون بي لتهنئتي. لقد كنت أرى في ألفارو سيبيدا زميلاً يجلس على الكرسي المجاور. وبعد السخريات الودية

المتبادلة التي كانت تقليداً صارماً ضمن الجماعة، كان يُخرجني من المستنقع الذي أغوص فيه، ببساطة تثير دهشتي على الدوام. أما استشاراتي مع ألفونسو فوينمايور بالمقابل، فكانت أدبية أكثر من أي شيء آخر. فقد كان يمتلك تلك القدرة السحرية الصائبة على إنقاذي من كل ورطة، بأمثلة من كبار الكتّاب، أو ليملي عليّ اقتباساً منقذاً من ترسانة معارفه التي لا قرار لها. وكانت دعابته الكبرى، حين طلبت منه عنوانا لمقالة عن باعة الطعام في الشوارع الذين تطاردهم السلطات الصحية. فقد أفلت ألفونسو إجابته الفورية:

– من يبيع الطعام لا يموت جوعاً.

شكرته من كل أعماق روحي. وبدا لي العنوان مناسباً إلى حدّ لم أستطع معه منع نفسي من سؤاله عن قائله. فأوقفني ألفونسو، فجأة، بالحقيقة التي لم أكن أتذكرها:

– إنها لك يا معلم.

وبالفعل، كنت قد ارتجلت تلك العبارة في زاوية صحفية دون توقيع، ولكني نسيتها. وقد جرى تداول هذه الحكاية لسنوات عديدة، بين الأصدقاء، في بارانكيا الذين لم أستطع إقناعهم بأنها لم تكن دعابة على الإطلاق.

شغلتني لبضعة أيام، رحلة عارضة قام بها ألفارو سيبيدا إلى بوغوتا، وأخرجتني من دوامة الأخبار اليومية. جاء حاملاً فكرة إنجاز فيلم لم يكن لديه منه سوى العنوان: "الجرادة الزرقاء". كان خطأ صائباً، لأن لويس بيثينس وإنريكي غراو والمصور نيريو لوبيث أخذوا الأمر على محمل الجد. لم أعد أعرف شيئاً عن المشروع، إلى أن أرسل لي بيثينس

مسودة السيناريو لكي أضيف شيئاً مني إلى القاعدة الأصلية التي وضعها ألفارو. وقد أضفتُ شيئاً لم أعد أتذكره اليوم، لكن القصة بدت لي ممتعة، وتتضمن جرعة كافية من الجنون، لتبدو معها أنها من بنات أفكارنا.

لقد قدم كل واحد منا قليلاً من كل شيء، لكن أبا العمل الحقيقي، وصاحب الحق فيه، هو لويس بيثينس الذي فرض الكثير من الأشياء المتبقية لديه من بدايات تعلمه في باريس. أما مشكلتي، فتمثلت في أنني كنتُ مشغولاً بأحد تلك التحقيقات الصحفية المنهكة التي لا تترك لي وقتا للتنفس. وعندما تمكنتُ من الانتهاء منه، كان الفيلم في أوج عملية التصوير في بارانكيا.

لقد كان عملاً بدائياً، ميزته الكبرى، كما يبدو، هي سيطرة البديهة التي ربما كانت الملاك الوصي على ألفارو سيبيدا . ففي أحد عروض الفيلم المنزلية المتعددة في بارانكيّا، حضر المخرج الإيطالي انريكو فولكونوني، وفاجأنا بمدى تعاطفه: بدا له الفيلم جيداً . وبفضل تيتا مانوتاس، زوجة ألفار، وعنادها الحميد، جال ما تبقى من "الجرادة الزرقاء" العالم ليعرض في مهرجانات سينمائية جريئة.

كانت تلك الأمور تشغلنا أحياناً عن واقع البلاد، وهو واقع رهيب. لقد كانت كولومبيا تعتبر خالية من رجال حرب العصابات، منذ أن استولت القوات المسلحة على السلطة، تحت راية السلام والوفاق بين الأحزاب. لم يخامر الشك أحداً في أن شيئاً تغير، إلى أن وقعت مجزرة الطلاب في الشارع السابع. فالعسكريون الجزعون، لأسباب خاصة بهم، أرادوا أن يثبتوا لنا، نحن الصحفيين، بأن هناك حربا مختلفة عن تلك

الحرب الأزلية بين الليبراليين والمحافظين. وكنا في تلك الأجواء، عندما دنا خوسيه سالغار من مكتبي، بواحدة من أفكاره المرعبة:

– استعد للتعرف على الحرب.

وكنا، نحن المدعوين للتعرف عليها، دون كثير من التفاصيل، دقيقين بالحضور في الساعة الخامسة فجراً، للذهاب إلى قرية فيبّاريكا، على بعد مئة وثلاثة وثمانين كيلومتراً من بوغوتا. وكان الجنرال روخاس بينيّا ينتظر زيارتنا، في منتصف الطريق، في إحدى استراحاته الكثيرة في قاعدة ميلغار العسكرية. وكان قد وعد بعقد مؤتمر صحفي ينتهي قبل الساعة الخامسة مساء، مما يتيح لنا وقتاً كافيا للعودة بصور وأخبار طازجة.

كان مبعوثو التيمبو هم راميرو اندرادي والمصور خيرمان كايثيدو، إضافة إلى أربعة آخرين لم أستطع تذكرهم؛ ودانييل رودريغيث وأنا من الاسبكتادور. بعضنا كان يرتدي ملابس الميدان، إذ جرى تنبيهنا إلى أننا قد نضطر إلى التوغل بضع خطوات في الأدغال.

ذهبنا بالسيارة حتى ميلغار. وهناك توزعنا على ثلاث طائرات هيلوكبتر أخذتنا عبر ممر جبلي ضيق ومعزول في سلسلة الجبال الوسطى، تحيط به قمم شاهقة وحادة الحواف. وكان أكثر ما أثر بي، مع ذلك، هو توتر الطيارين الشباب الذين كانوا يتفادون مناطق معينة، أسقط فيها رجال حرب العصابات، في اليوم السابق، طائرة هيلوكبتر وأصابوا أخرى. وبعد نحو خمس عشرة دقيقة من التوتر، هبطنا في ساحة فيبّاريكا الفسيحة والمقفرة، وبدا كما لو أن سجادة أرضها الترابية غير قادرة على تحمّل ثقل الطائرة. كانت هناك في محيط الساحة، بيوت من

الخشب، فيها متاجر متحولة إلى أطلال، ومنازل لا يسكنها أحد، باستثناء منزل واحد حديث الطلاء، كان فندقَ القرية إلى ما قبل أن يسود الرعب.

وكانت تُلمح قبالة الهيلوكبتر، المرتفعات المنخفضة الموازية لسلسلة الجبال، وسقف من التوتياء للبيت الوحيد الذي يكاد لا يُرى في ضبابية السفح البعيد. وهناك، وفق ما قاله لنا الضابط المرافق، كان رجال حرب العصابات، ومعهم أسلحة قادرة على إصابتنا. ولهذا علينا أن نركض حتى الفندق بصورة متعرجة، ونحن نحني جذوعنا، كاحتياط أولي لتجنب إمكانية إصابتنا بطلقات تأتي من الجبال. ولم نكتشف أن الفندق قد تحول إلى ثكنة عسكرية، إلا بعد أن وصلنا إليه.

كان هناك عقيد بزي وأمتعة الميدان، له رشاقة فنان سينمائي، ولطف ذكي، أوضح لنا دون تهويل، بأن طليعة رجال حرب العصابات تتواجد، منذ عدة أسابيع، في ذلك البيت الذي على سلسلة الجبال، وأنهم حاولوا عدة مرات، انطلاقاً من هناك، القيام بغارات ليلية على القرية. وكان الجيش واثقاً من أنهم سيحاولون عمل شيء عندما يرون طائرات الهيليوكوبتر في الساحة، وكانت قوات الجيش على أهبة الاستعداد. ومع ذلك، وبعد حوالي ساعة من الاستفزازات، بما في ذلك، التحديات التي استخدم الجيش فيها مكبرات الصوت، لم يُبدِ رجال حرب العصابات ما يشير إلى وجودهم. عندئذ أرسل الكولونيل، وقد أصيب بالإحباط، دورية استطلاع للتأكد من أنه لا يزال هناك أحد في البيت.

خفّت حدة التوتر. وخرجنا، نحن الصحفيين، من الفندق، واستطلعنا الشوارع المجاورة، بما في ذلك أقلها حماية حول الساحة. بدأنا أنا

والمصور، مع آخرين، في الصعود إلى الجبل، عبر درب بغال وعر. وعند أول منعطف، كانت هناك جماعة من الجنود المنبطحين بين الشجيرات في وضعية الرمي. نصحنا أحد الضباط بالعودة إلى الساحة، لأنه يمكن حدوث أي شيء. لكننا لم نولِه اهتماماً. فقد كان هدفنا الصعود إلى أن نلتقي بطليعة متقدمة من رجال حرب العصابات، تنقذ يومنا بخبر كبير.

لم يُتح لنا الوقت. فقد سُمعت فجأة عدة أوامر متزامنة، وتلا ذلك مباشرة إطلاق نار من جانب العسكريين. انبطحنا أرضاً قرب الجنود، وفتح هؤلاء النار باتجاه البيت الذي على الجبل. وفي الفوضى الآنية، غاب عن نظري المصور رودريغيث الذي أسرع للبحث عن موضع استراتيجي لآلة تصويره. استمر إطلاق النار لوقت قصير، ولكنه كان كثيفاً جداً، ثم حل بعد ذلك صمت قاتل.

كنا قد رجعنا إلى الساحة، عندما رأينا دورية عسكرية تخرج من الغابة حاملة جسداً على نقالة. ولم يسمح لنا قائد الدورية الهائج بالتقاط الصور. بحثتُ بنظري عن رودريغيث، ورأيته يظهر على بعد خمسة أمتار إلى يميني، وآلة تصويره جاهزة لالتقاط صورة. لم تره الدورية. عندئذ عشتُ أشد اللحظات توتراً، موزعاً بين الشك في أن أصرخ به، طالباً منه عدم التقاط الصورة، خوفاً من أن يطلقوا عليه النار سهواً، وبين الغريزة المهنية لالتقاط الصورة، مهما كان الثمن. لم يُتح لي الوقت للاختيار، فقد سُمعت في تلك اللحظة نفسها، صرخة قائد الدورية المدوية:

- ممنوع التقاط هذه الصورة.

أنزل رودريغيث آلة التصوير ببطء، واقترب مني. مرّ موكب الجنود

على مقربة شديدة منا، أحسسنا معها بوميض المرارة المنبعث من الأجساد، وبصمت الجسد الميت. وبعد أن مروا، همس رودريغيث في أذني:

– لقد التقطتُ الصورة.

وكان ذلك صحيحاً، لكن الصورة لم تنشر قط. وقد انتهت تلك الدعوة بكارثة. فقد كان هناك جريحان آخران بين الجنود، وقتل اثنان على الأقل من رجال حرب العصابات، سُحبت جثتاهما إلى المخبأ. بدل العقيد حالته المعنوية مبدياً ملامح الأسى. وأخبرنا ببساطة بأن الزيارة قد ألغيت، وأن لدينا نصف ساعة لتناول الغداء، ثم العودة بعد ذلك مباشرة، إلى ميلغار عبر الطريق البري، لأن طائرات الهيلوكبتر محجوزة لنقل الجرحى والجثث. ولم يكشف عدد تلك الجثث وأولئك الجرحى قط.

لم يعد أحد إلى ذكر المؤتمر الصحفي المقرر عقده مع الجنرال روخاس بينيًا. مررنا أمام بيته في ميلغار، ونحن في سيارة جيب تتسع لستة أشخاص. ووصلنا إلى بوغوتا بعد منتصف الليل. كانت هيئة التحرير بكاملها بانتظارنا في قاعة المحررين. فقد اتصلوا بهم من مكتب الإعلام والصحافة التابع لرئاسة الجمهورية ليخبروهم، دون مزيد من التفاصيل، بأننا سنصل براً، لكنهم لم يحددوا إذا ما كنا سنصل أحياء أم ميتين.

كان تدخل الرقابة العسكرية الوحيد، حتى ذلك الحين، هو الذي جرى عند مقتل الطلاب في وسط بوغوتا. ولم يكن هناك رقيب في قاعة التحرير، بعد أن استقال آخر رقيب للحكومة السابقة وهو يكاد يبكي، عندما لم يعد قادراً على تحمّل الأخبار الزائفة ومكايد المحررين

الساخرة. كنا نعرف أن مكتب الإعلام والصحافة لم يكن يغمض عينيه عنا، وكثيراً ما كانوا يرسلون إلينا عبر الهاتف، تحذيرات ونصائح أبوية. أما العسكريون الذين أشاعوا في بداية حكومتهم، مودة أكاديمية مع الصحافة، فتحولوا إلى غير مرئيين أو متكتمين. ومع ذلك، فإن طرف خيط مفلت ظل ينمو وحيدا بصمت، وأشاع تأكيداً لم يُثبته ولم ينفه أحد قط، بأن زعيم بؤرة حرب العصابات تلك، في توليما هو شاب في الثانية والعشرين، حقق شهرة في ميدانه، وأن اسمه الذي لم يستطع أحد أن ينفيه أو يؤكده هو: مانويل مارولاندا فيليث أو بيدرو انطونيو مارين، الشهير بلقب "تيروفيخو". بعد أربعين سنة من ذلك، عندما سُئل مارولاندا عن هذه المعلومة، في معسكره الحربي، أجاب بأنه لا يتذكر في الواقع، إذا ما كان هو نفسه.

لم يكن ممكناً الحصول على خبر آخر. فكنت أحاول متلهفاً، أن أكتشفه منذ عودتي من بيياريكا، ولكنني لم أجد باباً يوصلني إليه. فقد كان مكتب الإعلام والصحافة الملحق برئاسة الجمهورية محظوراً علينا، بينما بقيت واقعة بيياريكا غير السارة، تقبع مدفونة تحت التكتم العسكري. كنت أعقد آمالي على سلة المهملات، عندما ظهر خوسيه سالغار أمام منضدتي، متظاهراً ببرود أعصاب لم يمتلكه قط، وأبرز لي برقية تلقاها للتو،وقال لي:

– ستجد هنا ما لم تره في بيياريكا.

لقد كانت مأساة حشد من الأطفال الذين انتزعتهم القوات المسلحة من قراهم ودساكرهم، دون خطة مسبقة، ودون موارد لإعالتهم، من أجل تسهيل حرب الإبادة ضد رجال حرب العصابات في توليما. لقد فصلوهم

عن آبائهم، دون أن يتاح الوقت لمعرفة أبناء من هم. ولم يكن كثيرون منهم يعرفون نطق أسمائهم. وقد بدأت المأساة بتجميع حشد من ألف ومئتي يافع، اقتيدوا إلى قرى عديدة في من توليما، بعد زيارتنا لبلغار، وجرى إسكانهم كيفما اتفق، والتخلي عنهم بعد ذلك لرحمة الله. كان عدد الأطفال الذين انتزعوا من آبائهم لاعتبارات لوجيستية محضة، ووزعوا على عدة ملاجئ في أنحاء البلاد، يصل إلى حوالي ثلاثة آلاف طفل، من مختلف الأعمار والظروف. ولم يكن بينهم سوى ثلاثين من أيتام الأب والأم، وبين هؤلاء، توءمان لم يمض على مولدهما سوى ثلاثة عشر يوماً. وقد جرت عملية جمع الأطفال بسرية مطلقة، في كنف الرقابة على الصحافة، إلى أن أرسل إلينا مراسل الإسبيكتادور، أول الإشارات من أمباليما التي تبعد مئتي كيلومتر عن بيباريكا.

عثرنا، خلال أقل من ست ساعات، على ثلاثمئة قاصر تقل أعمارهم عن خمس سنوات، في ملجأ "حماية الأطفال" في بوغوتا. وكان كثيرون منهم مجهولي الهوية. وقد تمكن هيلي رودريغيث، وكان في الثانية من عمره، من النطق باسمه بصعوبة. لم يكن يعرف شيئاً عن أي شيء، ولا أين هو موجود، أو لماذا هو موجود هناك، ولم يكن يعرف اسمي أبويه، ولم يستطع توفير أي إشارة تتيح العثور عليهما. عزاؤه الوحيد هو أن له الحق بالبقاء في الملجأ، إلى أن يبلغ الرابعة عشرة من عمره. وكانت ميزانية الملجأ تتمثل بثمانين سنتافو شهرياً لكل طفل، تقدمها حكومة الإقليم المحلية. وكان عشرة من أولئك الأطفال قد هربوا خلال الأسبوع الأول، وفي نيتهم التسلل مجاناً إلى القطارات المتوجهة إلى توليما. ولم نعثر لهم على أثر.

لقد أجري لكثيرين منهم تعميد إداري، فأطلقت عليهم أسماء، وكنيات من تلك الشائعة في المنطقة، من أجل التمكن من تمييزهم، ولكنهم كانوا كثيرين، وشديدي التشابه والحركة، بحيث يصعب التمييز بينهم في باحة الاستراحة، ولا سيما في شهور البرد، عندما يكون عليهم تدفئة أجسادهم بالجري في الممرات وعلى السلالم. وكان مستحيلاً ألا تدفعني تلك الزيارة المؤلمة إلى التساؤل إذا ما كانت جماعة حرب العصابات التي قتلت الجندي في المعركة، قد استطاعت أن تُلحق كل ذلك الأذى بأطفال بيباريكا.

نُشرت قصة تلك العملية اللوجستية الحمقاء، في عدة حلقات متتالية، دون استشارة أحد. احتفظت الرقابة بالصمت، ورد العسكريون بالتفسير الشائع: أحداث بيباريكا هي جزء من تحرك شيوعي واسع النطاق ضد حكومة القوات المسلحة. وهذه القوات مضطرة إلى التصرف باستخدام الوسائل الحربية. وكانت قراءة سطر واحد من ذلك البلاغ، كافية لأن تدفعني إلى التفكير في الحصول على معلومات مباشرة من غيلبيرتو فييرا، الأمين العام للحزب الشيوعي الذي لم أكن قد رأيته من قبل.

لستُ أتذكر إذا ما كنت قد قمت بالخطوة التالية، بتفويض من الجريدة، أم أنني فعلتُ ذلك بمبادرة خاصة مني. ولكنني أتذكر جيداً أنني قمت بمساع عديدة، غير مجدية، للتوصل إلى اتصال مع قيادي في الحزب الشيوعي السري، يمكنه أن يطلعني على الوضع في بيباريكا. كانت المشكلة الرئيسية التي واجهتني هي أن النظام العسكري كان يفرض حصاراً غير مسبوق على الشيوعيين السريين. عندئذ قمت

باتصالات مع صديق شيوعي. وبعد يومين من ذلك، ظهر أمام منضدتي بائع الساعات الذي كان يبحث عني ليتقاضى مني الدفعات التي لم أتمكن من دفعها في بارانكيا. دفعت له ما استطعت دفعه، وقلت دون مبالاة إنني بحاجة إلى التحدث، بصورة مستعجلة، مع أحد قادته الكبار؛ ولكنه ردّ علي بالصيغة المعروفة قائلاً إنه ليس الوسيلة لبلوغ ذلك، وليس بإمكانه أن يوصلني إلى من يمكنه تحقيق طلبي. غير أنني فوجئت في ذلك المساء بالذات، ودون إنذار مسبق، بصوت متناغم وغير قلق، يقول لي على الهاتف:

– مرحباً غابرييل، أنا غيلبيرتو فييرا.

وبالرغم من أنه أحد مؤسسي الحزب الشيوعي، إلا أن فييرا لم يكن قد تعرض، حتى ذلك الحين، للحظة واحدة من النفي أو السجن. ومع ذلك، وبالرغم من إمكانية أن يكون كلا الهاتفين مراقباً، فقد أعطاني عنوان بيته السري، لكي أزوره في ذلك المساء بالذات.

كان البيتُ شقةً مؤلفة من صالة صغيرة، مترعة بكتب سياسية وأدبية، وغرفتي نوم في طابق سادس؛ حيث الأدراج شديدة الانتصاب ومظلمة، يصل المرء وقد فقد أنفاسه، ليس بسبب الارتفاع فقط، وإنما ليقينه بأنه يدخل إلى أحد أكثر الأماكن سرية في البلاد. كان فييرا يعيش مع زوجته سيسيليا، وابنة حديثة الولادة. ولأن الزوجة لم تكن في البيت، فقد كان يُبقي مهد الطفلة في متناول يده، ويهزه هزاً خفيفاً كلما علا البكاء، خلال المعترضات الطويلة التي تخللت محادثتنا، وهي محادثة سياسية وأدبية على السواء، ولكنها تخلو إلى حد كبير من حس السخرية. كان من المستحيل تصور أن ذلك الأربعيني المتورد

والأصلع، ذا العينين الخضراوين الحادتين، والكلمات الدقيقة، هو الرجل الذي تبحث عنه الأجهزة السرية في البلاد، أكثر من أي رجل آخر.

لاحظتُ منذ البداية، أنه كان مطلعاً على حياتي أولاً بأول، منذ أن اشتريت الساعة في جريدة إلناسيونال في بارانكيا. وكان يقرأ ريبورتاجاتي في الاسبيكتادور، ويتعرف على مقالاتي التي بلا توقيع، في محاولة لاستكشاف ما تخفيه بين السطور. ومع ذلك، فقد كنتُ متفقاً معه على أن أفضل خدمة يمكن لي، أن أقدمها إلى البلاد، هي في حفاظي على الخط الذي أمضي فيه، دون أن أتورط مع أحد، بأي نوع من الانتماء السياسي.

وما إن أتيحت لي فرصة الكشف له عن سبب زياراتي، حتى دخل في الموضوع فوراً. لقد كان مطلعاً على الوضع في بيّاريكا، كما لو أنه موجود هناك، وهو الوضع الذي لم نستطع أن ننشر عنه سطراً واحداً بسبب الرقابة الرسمية. ومع ذلك، فقد قدم لي معطيات مهمة لفهم أن ذلك الوضع، ما هو إلا توطئة لحرب مزمنة، بعد قرن من المناوشات العابرة. وكانت مادة لغته في ذلك اليوم، وذلك المكان، تتضمن من خورخي إليسار غايتان أكثر مما تتضمن من ماركس الذي يحتفظ به قرب وسادته، من أجل التوصل إلى حلٍّ لا يبدو أنه استيلاء البروليتاريا على السلطة، وإنما هو نوع من تحالف المنسيين البائسين ضد الطبقات المهيمنة. ولم يكن الجيد في تلك المقابلة هو توضيح ما كان يجري وحسب، وإنما التعرف على منهج لفهمه بصورة أفضل. وهكذا أوضحتُ الأمر لكل من غييرمو كانو وثالاميا، وتركتُ الباب موارباً، على أمل أن أجد في أحد الأيام، نهاية ما لذلك الريبورتاج غير المكتمل. ولا حاجة إلى القول إنني

توصلت إلى علاقة صداقة جيدة مع فبيرًا، ستسهل اتصالاتنا حتى في أشد أزمنة سريّته قسوة.

وفي أثناء ذلك، كانت تتفاقم، تحت السطح، مأساة أخرى لأناس بالغين، ما لبثت الأنباء السيئة أن كشفت النقاب عنها، في شباط ١٩٥٤، عندما نُشر في الصحافة أن محارباً سابقاً، ممن شاركوا في حرب كوريا، قد رهن أوسمته لكي يأكل. لقد كان واحداً فقط، من أكثر من أربعة آلاف جُندوا كيفما اتفق، في واحدة أخرى من لحظات تاريخنا غير المعقولة، عندما كان يمكن لأي مصير أن يكون أفضل من لا شيء، في نظر الفلاحين الذين طردهم العنف الرسمي، بالرصاص، من أرضهم. لم تكن المدن المكتظة بالمبعدين عن قراهم، توفر أي بارقة أمل. لقد كانت كولومبيا، مثلما كان يتردد كل يوم تقريباً في التعليقات الافتتاحية، وفي الشوارع، والمقاهي، والأحاديث العائلية، جمهورية لا يمكن العيش فيها. فكانت الحرب الكورية في نظر الكثير من الفلاحين المبعدين، والعديد من الشبان الذين بلا أفق، هي الحل الفردي. وإليها ذهب خليط من كل نوع، دون أي تمييز محدد، اللهم إلا الحالة الجسدية، وهو ما يشبه، تقريباً، الظروف التي جاء بها الإسبان لاكتشاف أميركا. ولدى عودة أولئك المجندين إلى كولومبيا، قطرة قطرة، صار لتلك الجماعة غير المتجانسة، تسمية مشتركة في نهاية المطاف: "المحاربون القدماء". وكان يكفي أن يشتبك أحدهم في مشاجرة، حتى تقع جريرة سلوكه على الجميع. لقد أوصدت الأبواب في وجوههم، بالذريعة السهلة القائلة إنه لا حق لهم في العمل، لأنهم أعتبروا مضطربين عقلياً. ولم تكن هناك بالمقابل، دموع كافية لبكاء الكثيرين الذين رجعوا متحولين إلى ألفي رطل من الرماد.

خبر المحارب الذي رهن أوسمته، بدا مناقضاً بصورة قاسية لخبر آخر، نُشر قبل عشرة شهور من ذلك، عندما رجعت آخر دفعة من أولئك المحاربين إلى البلاد، ومعهم قرابة مليون دولار نقداً، أدت لدى تحويلها في المصارف، إلى انخفاض قيمة الدولار، في كولومبيا، من ثلاثة بيزوات وثلاثين سنتافو إلى بيزوين اثنين وتسعين سنتافو. ومع ذلك، كانت سمعة المحاربين تتردى أكثر كلما ازدادت مواجهتهم لواقع البلاد. فقبل عودتهم، نُشرت قصص متنوعة عن أنهم سيتلقون منحاً خاصة لتأهيلهم في مهن منتجة، وأنهم سيحصلون على تقاعد مدى الحياة، وتسهيلات تتيح لهم البقاء في الولايات المتحدة، والعيش فيها. ولكن الحقيقة كانت عكس ذلك؛ فبعد قليل من عودتهم، جرى تسريحهم من الجيش، والشيء الوحيد الذي تبقى في جيوب الكثيرين منهم، هو صور خطيباتهم اليابانيات اللواتي بقين ينتظرنهم في معسكرات اليابان، حيث كانوا يأخذونهم للاستراحة من الحرب.

كان من المستحيل ألا تذكّرني تلك المأساة الوطنية، بجدي الكولونيل ماركيز، في انتظاره الأبدي لتقاعده، كمحارب قديم. وتوصلتُ إلى التفكير في أن ذلك الإذلال، ما هو إلا عقوبة موجهة إلى كولونيل ناجٍ من الحرب الدامية ضد هيمنة المحافظين. أما الناجون من حرب كوريا بالمقابل، فقد قاتلوا ضد قضية الشيوعية، ولمصلحة جشع الولايات المتحدة الإمبريالي. ومع ذلك، لم تكن أخبارهم تظهر، بعد عودتهم، في صفحة المجتمع، وإنما في صفحة الجرائم. لقد أقدم أحدهم على قتل شخصين بريئين، بإطلاق الرصاص عليهما، وقد قال للقضاة: "لقد قتلتُ في كوريا مئة شخص، فلماذا لا يمكنني قتل عشرة في بوغوتا؟".

هذا الرجل، مثل مجرمين آخرين، كان قد وصل إلى الحرب، بعد أن جرى توقيع الهدنة. ومع ذلك، فإن كثيرين مثله كانوا ضحية حس الذكورة الكولومبي الذي تبدى في الظفر بقتل محارب سابق في كوريا. فلم تكد تمضي ثلاث سنوات على عودة الدفعة الأولى منهم، حتى تجاوز عدد من لقي، من أولئك المحاربين، مصرعه بصورة عنيفة، اثني عشر شخصاً. وقد قُتل عدد منهم، لأسباب مختلفة، في مشاجرات تافهة بعد وقت قصير من عودتهم. فقد مات أحدهم مطعوناً في مشاجرة لأنه كرر الأغنية نفسها، عدة مرات، في صندوق الموسيقى في إحدى الحانات. أما الرقيب كانتور الذي شرُف اسمه بالغناء، والعزف على الجيتار، في استراحات الحرب، فمات مقتولاً بالرصاص بعد أسابيع من عودته. ومات محارب آخر، طعناً بسكين أيضاً، في بوغوتا، وقد اضطر الجيران، من أجل دفنه، إلى جمع التبرعات فيما بينهم. والمحارب آنخل فابيو غوس الذي فقد عيناً وذراعاً في الحرب، قتله ثلاثة مجهولين، لم يُلق القبض عليهم قط.

أتذكر - كما لو أن ذلك حدث يوم أمس - أنني كنت أكتب الفصل الأخير من سلسلة التحقيقات تلك عن المحاربين القدماء، عندما رنّ الهاتف على مكتبي، وتعرفتُ فوراً، على صوت مارتينا فونسيكا المشرق.

- آلو؟

تركتُ المقال في منتصف الصفحة، بسبب طفرات قلبي، واجتزت الشارع لألتقي بها في فندق كونتيننتال، بعد اثنتي عشرة سنة دون رؤيتها. لم يكن من السهل التعرف عليها، من الباب، وهي بين النساء

الأخريات اللواتي يتناولن الغداء، في قاعة الطعام المزدحمة، لو لم تومئ لي هي نفسها، بقفازها. كانت ترتدي ملابسها بذوقها الشخصي المعهود: معطف من زمن سابق، وفرو ثعلب ذاوٍ على كتفها، وقبعة صياد. وقد بدأت السنون تُلحظ بوضوح على بشرة الخوخ، المتأثرة بالشمس، والعينين المنطفئتين. وبدت متضائلة بأول ملامح شيخوخة جائرة. كان لا بد لكلينا أن يدرك أن اثنتي عشرة سنة ليست بالأمر القليل في مثل سنها، ولكننا تحملناها على أحسن وجه. لقد حاولتُ تتبع آثارها، خلال سنواتي الأولى في بارانكيا، إلى أن عرفت أنها تعيش في بنما، حيث صار قبطانها يعمل دليلاً لتوجيه السفن في القناة. ولم يكن تطرقي لهذه النقطة بدافع المفاخرة، وإنما الخجل.

أظن أنها كانت قد تناولت الغداء، مع أحدٍ تركها وحيدة، لتلتقي بي على انفراد. تناولنا ثلاثة فناجين قهوة قاتلة، ودخنا معاً نصف علبة سجائر ثقيلة، باحثين، بالتلمس، عن طريق لتبادل الحديث دون كلام، إلى أن تجرأت هي على سؤالي إذا ما كنت قد فكرتُ فيها يوماً. وعندئذ فقط أخبرتها بالحقيقة: لم أنسها قط. إلا أن وداعها لي كان قاسياً، بحيث بدّل طريقتي في الوجود. وكانت هي أكثر رحمة مني:

- لا يمكنني أن أنسَ أبداً أنك كنتَ مثل ابن بالنسبة لي.

كانت قد قرأت مقالاتي الصحفية، وقصصي القصيرة، وروايتي الوحيدة. وحدثتني عن كل ذلك ببعد نظر لا يخلو من فطنة وصرامة. ولا يمكن أن يكون الدافع إليه إلا الحب أو الحقد. أما أنا فلم أفعل شيئاً، مع ذلك، سوى تجنب أحابيل الحنين، بذلك الجبن الخسيس الذي لا يقدر عليه غيرنا نحن الرجال. وعندما تمكنتُ أخيراً من تخفيف التوتر، تجرأت على

سؤالها عما إذا كانت قد أنجبت الابن الذي كانت ترغب فيه. فقالت بسعادة:

– لقد وُلد، وهو ينهي الآن المرحلة الابتدائية.

فسألتها بالمسكنة التي تميز الغيرة:

– وهل هو أسود مثل أبيه؟

فلجأت هي إلى حسن حسها الدائم، وقالت: "بل أبيض مثل أمه. أما أبوه فلم يكن من البيت، مثلما كنتُ أخشى، وإنما هو شخص أقرب إليّ." وحيال اختناقي الواضح، أكدت لي ظنوني، وهي تبتسم قائلة:

– لا تقلق: إنه منه. وكذلك ابنتان متشابهتان، كما لو أنهما واحدة.

أبدت سعادتها لمجيئي، واستوقفتني ببعض الذكريات التي لا علاقة لي بها. وراودني غرور التفكير في أنها تنتظر مني رداً أكثر حميمية. غير أنني، مثل كل الرجال، أخطأتُ أيضاً في الزمان والمكان. نظرت إلى ساعة يدها، عندما طلبتُ القهوة، للمرة الرابعة، وعلبة سجائر أخرى، ونهضت واقفة دون مقدمات.

– حسن يا صغيري، أشعر بالسعادة لأني رأيتك. – قالت ذلك، ثم أنهت كلامها: – لم أكن قادرة على تحمل قراءة كتاباتك دون أن أعرف كيف صرتَ الآن.

فتجرأتُ على سؤالها:

– وكيف أنا الآن؟

ضحكت من أعماق روحها:

– آه، لا! هذا لن تعرفه أبداً.

عندما استعدت أنفاسي قبالة الآلة الكاتبة فقط، انتبهت إلى مدى اللهفة التي كانت تسيطر عليّ دوماً لرؤيتها، وإلى الرعب الذي منعني من البقاء معها طوال ما تبقى من حياتنا. إنه الرعب الباعث على الكآبة نفسه الذي عدت إلى الإحساس به، مرات كثيرة، كلما رنّ الهاتف، منذ ذلك اليوم.

بدأ رأس سنة ١٩٥٥، بالنسبة للصحفيين، في الثامن والعشرين من شباط، بخبر يقول إن ثمانية بحارة من المدمرة كالداس التابعة للأسطول الوطني، قد سقطوا في البحر، واختفوا خلال عاصفة، حين لم يكن قد تبقى سوى أقل من ساعتين لوصول المدمرة إلى كارتاخينا. وكانت قد أبحرت قبل أربعة أيام من موبيل، في ألاباما، بعد أن أمضت عدة شهور هناك، من أجل إصلاحات روتينية.

بينما كانت هيئة التحرير بكاملها تستمع بصمت إلى التقرير الإذاعي الأول عن الكارثة، استدار غييرمو كانو، في كرسيه الدوار باتجاهي، وبقي ينظر إليّ، وهو يوشك أن يصدر أمراً على طرف لسانه. وتوقف خوسيه سالغار أيضاً، وهو في طريقه إلى المشغل، قبالتي بأعصاب صلّبها الخبر. كنتُ قد رجعت قبل ساعة من ذلك من بارانكيا، حيث أعددت تقريراً حول الدراما الأبدية في بوكاس دي ثينيثا. وقد بدأت أتساءل مرة أخرى عن الساعة التي تقلع بها الطائرة التالية إلى منطقة الساحل، لكي أكتب باكورة تحقيقاتي عن الغرقى الثمانية. ومع ذلك، سرعان ما تبين، في التقرير الإذاعي، أن المدمرة ستصل إلى كارتاخينا في الساعة الثالثة بعد الظهر، دون أي أخبار جديدة؛ ذلك أنهم لم يتمكنوا من العثور على البحارة الثمانية الغرقى. فخاب أمل غييرمو كانو، وقال:

– يا للخيبة يا غابو. لقد راحت علينا.

اختُزلت الكارثة إلى سلسلة من البيانات الرسمية، وأحيطت الأخبار بالتكريم الصارم للشهداء الذين سقطوا أثناء الخدمة، ولا شيء سوى ذلك. غير أن البحرية كشفت النقاب، في أواخر ذلك الأسبوع، عن أن واحداً منهم، ويدعى لويس أليخاندرو بيلاسكو، قد وصل منهوكاً إلى شاطئ في منطقة أورابا، مصاباً بضربة شمس؛ ولكن بالإمكان إنقاذه، بعد أن أمضى عشرة أيام تتقاذفه الأمواج، بلا طعام ولا شراب، في طوف دون مجاديف. وقد اتفق رأينا جميعاً على أنه يمكن له أن يكون ريبورتاج السنة، إذا ما قيض لنا الاستفراد به، ولو لنصف ساعة.

لم يكن ذلك ممكناً. فقد أبقته البحرية معزولاً، دون اتصال، ريثما يستعيد عافيته، في مستشفى البحرية في كارتاخينا. وهناك التقى به، للحظات عابرة، محرر ماكر من جريدة إلتيمبو، هو أنطونيو مونتانيا الذي تسلل إلى المستشفى متنكراً كطبيب. ومع ذلك، وبالنظر إلى النتائج، فإنه لم يحصل من الناجي من الغرق إلا على بعض الرسوم، بقلم الرصاص، حول المكان الذي كان فيه عندما طوحت به العاصفة، وبعض التصريحات غير المترابطة، اتضح منها أن لديه أوامر بألا يروي حكايات. وقد صرح بيلاسكو بعد أيام من ذلك: "لو كنت أعرف أنه صحفي لساعدته". وبعد أن استعاد عافيته، وكان لا يزال في كنف البحرية، وافق على إجراء مقابلة مع لائيديس أوروثكو، مراسل الاسبيكتادور في كارتاخينا، الذي لم يستطع الوصول إلى ما ترغب في معرفته، عن كيف أمكن لهبة ريح أن تسبب مثل تلك الكارثة التي أدت إلى موت سبعة بحارة.

وبالفعل، كان لويس أليخاندرو بيلاسكو خاضعاً لالتزام حديدي، يمنعه من التحرك أو التعبير بحرية، حتى بعد أن نقلوه إلى بيت أبويه في بوغوتا. وكان الملازم غييرمو فونسيكا يتولى الرّد، بتودد حميم ومتقن، على أي تساؤل تقني أو سياسي يخطر لنا. ولكنه كان يتجنب، بالتهذب نفسه، أية معلومات جوهرية حول الشيء الوحيد الذي كان يهمنا آنذاك: حقيقة تلك المغامرة. ومن أجل كسب الوقت فقط، كتبتُ سلسلة تعليقات عن أجواء عودة الناجي من الغرق إلى بيت أبويه، عندما منعني رفاقه في الزي، مرة أخرى، من التحدث إليه، بينما كانوا يسمحون له بمقابلة وحيدة مع إذاعة محلية. بدا واضحاً عندئذ، أننا بين أيدي أساتذة في فنون تبريد الخبر. وهزتني لأول مرة، فكرة أنهم يخفون عن الرأي العام شيئاً خطيراً بشأن الكارثة. وأنا أتذكر الآن ذلك اليوم، كما لو أنه نبوءة أكثر منه ارتياباً.

كان شهر آذار يعصف برياح جليدية. وكان رذاذ المطر المختلط بالغبار يزيد من شحنة إحساسي بتأنيب الضمير. وقبل أن أواجه قاعة التحرير، وأنا مثقل بالهزيمة، التجأت إلى فندق كونتيننتال المجاور، وطلبت كأساً مضاعفة عند كونتوار البار المقفر. كنتُ أتناول الشراب في رشفات بطيئة، دون أن أخلع معطفي السميك، عندما سمعتُ صوتاً عذباً يقول في أذني تقريباً:

– من يشرب وحيداً يمت وحيداً.

– فليستجب الله لقولك يا جميلتي – أجبتها وروحي بين شفتي، مقتنعاً بأنها مارتينا فونسيكا.

خلّف الصوت في الهواء، أثر أزهار ناردين دافئة، ولكنها لم تكن

هي. رأيتها تخرج من الباب الدوار، وتختفي بمظلتها الصفراء التي لا تُنسى، في الشارع الملطخ برذاذ المطر الموحل. وبعد أن تناولتُ كأساً أخرى، اجتزت الشارع بدوري، ووصلت إلى قاعة التحرير في الجريدة، مستنداً إلى قوة الكأسين الأولين. رآني غييرمو كانو، وأنا أدخل، فأطلق صرخة بهجة موجهة إلى الجميع:

- فلنر أي خير يحمله إلينا غابو العظيم!

فأجبته بالحقيقة:

- لا شيء أكثر من سمكة ميتة.

وانتبهت، عندئذ، إلى أن دعابات المحررين القاسية، قد تحولت إلى التودد، عندما رأوني أمر بصمت وأنا أجرجر معطفي المبلل. ولم يطاوع قلب أحد منهم البدء بالسخرية المعهودة.

واصل لويس أليخاندرو بيلاسكو التمتع بأمجاده المقموعة. فلم يسمح له موجهوه بالانغماس في كل أنواع الضلال الدعائي فقط، بل وفروا له الرعاية في ذلك. فقد تلقى خمسمئة دولار وساعة جديدة، مقابل تحدثه في الإذاعة عن حقيقة تَحمّل ساعة معصمه قسوة الأحوال الجوية العاتية. ودفع له مصنع للأحذية الرياضية، ألف دولار لكي يتحدث عن متانة حذائه الذي لم يستطع تمزيقه ليلهي جوعه بمضغ قطعة منه. وكان يلقي في أحد الاحتفالات، خطبة وطنية، ويسمح لملكة جمال بأن تقبله، ويُعرض على الأيتام، باعتباره نموذجاً ومثالاً للأخلاق الوطنية. وكنت قد بدأت بنسيانه في اليوم التاريخي الذي أخبرني فيه غييرمو كانو بأنه موجود في مكتبه، وأنه مستعد لتوقيع عقد لكي يروي مغامرته كاملة. أحسست بالمذلة والإهانة. وقلت بإصرار:

- لم يعد الآن سمكة ميتة، وإنما متعفنة.

ورفضت، لأول مرة، القيام بعمل للصحيفة، وهو من صلب واجبي. استسلم غييرمو كانو للواقع، وصرف الناجي من الغرق دون أي تفسير. وقد أخبرني فيما بعد، بأنه بعد أن ودعه في مكتبه، بدأ يفكر في الأمر. ولم يستطع أن يفسر لنفسه ما الذي فعله. عندئذ أمر البواب بأن يعيد إليه الناجي من الغرق. ثم اتصل بي هاتفياً لتبليغي، بقرار لا يقبل الاستئناف، بأنه قد اشترى الحقوق الحصرية للقصة الكاملة.

لم تكن تلك هي المرة الأولى، ولن تكون الأخيرة، التي يصر فيها غييرمو على قضية خاسرة تنتهي في آخر الأمر، إلى إظهار أنه على حق. نبهته بضيق، ولكن بأفضل أسلوب ممكن، إلى أنني سأنجز الريبورتاج، انصياعاً لواجبي في العمل فقط، ولكنني لن أوقعه باسمي. ودون أن أكون قد فكرت في الأمر، خرج مني ذلك القرار بصورة تلقائية عارضة، ولكنه كان صائباً من أجل الريبورتاج؛ إذ إنه يضطرني إلى رواية القصة على لسان المتكلم البطل، بأسلوبه الخاص وبأفكاره الشخصية، وتوقيع الريبورتاج باسمه. هذا يعني أن التحقيق الصحفي سيكون منولوجاً داخلياً عن مغامرة فردية، بكل معنى الكلمة، مثلما جرت في الحياة. لقد كان قراراً إعجازياً. إذ تكشف بيلاسكو عن رجل ذكي، ذي حساسية وتهذب لا يُنسيان، ويتمتع بحس سخرية في الوقت والمكان المناسبين. وكل هذا خاضع، لحسن الحظ، لشخصية متماسكة بلا شروخ.

كانت المقابلة طويلة، دقيقة، استغرقت ثلاثة أسابيع كاملة ومنهكة. وقد أجريتها وأنا أعرف أنها لن تُنشر كمادة خام، وإنما ستُطهى في قدر

ثانية: قدر الريبورتاج الصحفي. بدأتها بقليل من سوء النية، محاولاً دفع الناجي من الغرق إلى الوقوع في تناقض، لكي أكتشف حقائقه المستترة. ولكنني سرعان ما تأكدت من أنه ليس لديه ما هو مستتر. لم أضطر إلى الضغط عليه. وبدا لي الأمر كما لو أنني أتمشى في مرج من الزهور، مع تمتعي بمطلق الحرية في اختيار ما أفضله منها. كان بيلاسكو دقيقاً في المجيء إلى موعد اللقاء، الساعة الثالثة مساء، في مكتبي في قسم التحرير؛ فنراجع معاً الملاحظات السابقة، ونواصل تتبع خيط الأحداث وفق تسلسلها الزمني. وكل فصل يرويه لي، أقوم أنا بكتابته في الليل، ويُنشر في مساء اليوم التالي. لقد كان من الأسهل والأضمن، كتابة المغامرة بكاملها أولاً، ثم نشرها بعد ذلك، منقحة، بكل تفاصيلها الموثقة تماماً. ولكن لم يكن هناك متسع من الوقت. فقد كان الموضوع يفقد آنيته في كل لحظة، ويمكن لأي خبر صاخب آخر أن يقوضه.

لم نكن نستخدم آلة تسجيل، لأن آلات التسجيل كانت قد اختُرعت حديثاً. والجيدة منها كبيرة الحجم وثقيلة كأنها آلة كاتبة، وشريطها الممغنط يتشابك مثل حلوى "غزل البنات". وكان تفريغ التسجيل بحد ذاته مأثرة. وبالرغم من أننا نعرف اليوم أن آلات التسجيل مفيدة جداً للتذكر، إلا أنه يجب عدم التخلي أبداً عن الاهتمام بملامح وجه من نقابله؛ إذ يمكن لها أن تعبّر أكثر من الصوت بكثير، والعكس بالعكس أحياناً. كان عليّ أن أكتفي بالأسلوب التقليدي في تدوين ملاحظات على دفتر مدرسي. ولكنني بفضل هذا الأسلوب، لم أضيع، على ما أعتقد، كلمة واحدة، ولا أي نبرة من المحادثة. واستطعت

التعمق بصورة أفضل في كل خطوة. لقد واجهنا صعوبة في اليومين الأولين، لأن الناجي من الغرق أراد أن يروي كل الأشياء معاً. ومع ذلك، فقد تعلم بسرعة كبيرة، من خلال ترتيب أسئلتي ومداها، وكذلك من غريزته الخاصة كراوٍ، ومن السهولة الفطرية التي يتمتع بها في فهم حرفية المهنة.

ولكي نهيّئ القارئ، قبل أن نلقي به إلى الماء، قررنا بدء القصة من الأيام الأخيرة التي أمضاها البحار في موبيل. كما اتفقنا كذلك، على ألا تنتهي القصة عند لحظة بلوغه اليابسة، وإنما عند وصوله إلى كارتاخينا، وسط هتافات الحشود، وهي النقطة التي يمكن للقراء منها، متابعة خيط القصة التالي بأنفسهم، من خلال المعلومات المنشورة مسبقاً. وكان ذلك يتيح لنا كتابة أربعة عشر فصلاً للحفاظ على التشويق طوال أسبوعين.

نُشر الفصل الأول في الخامس من نيسان ١٩٥٥ . وقد نفدت طبعة الاسبيكتادور، وكان قد أعلن عنها في الإذاعة، خلال ساعات قليلة. وفي اليوم الثالث، طُرحت العقدة المتفجرة، عندما قررنا كشف السبب الحقيقي للكارثة، بعد أن كانت الرواية الرسمية تدعي أنه عاصفة. ففي أثناء بحثي عن تفاصيل محددة وأكثر دقة، طلبتُ من بيلاسكو أن يروي ما جرى بكل تفاصيله، وكان قد تآلف عندئذ مع منهجنا المشترك، فلمحتُ في عينيه وميض خبث قبل أن يجيبني:

– المشكلة هي أنه لم تكن هناك عاصفة.

ما حدث – قال محدداً – هو عشرون ساعة من الرياح القوية. وهي رياح معروفة في المنطقة، خلال تلك الفترة من السنة. ولكن المسؤولين

عن الرحلة لم يأخذوها في الاعتبار. كان البحارة قد تلقوا رواتب عدة شهور متأخرة قبل الإبحار، فأنفقوها في آخر لحظة، بشراء كل أنواع الأجهزة المنزلية، لحملها إلى بيوتهم. وكان الأمر مرتجلاً إلى حدّ أن أحداً لم يعترض عندما تجاوزت الحمولة الأماكن الداخلية الشاغرة في السفينة، وربطوا على السطح الصناديق الكبيرة: ثلاجات، غسالات كهربائية، مداقئ. وهي حمولة ممنوعة في سفينة حربية، وفي أماكن شغلت مساحات حيوية من السطح. ربما جرى التفكير في أنه يجب عدم التعامل بصرامة مبالغ فيها، ما دامت الرحلة ليست ذات طابع رسمي، ومدتها أقل من أربعة أيام، ووسط تنبؤات جوية ممتازة. كم من المرات فعلوا مثل ذلك، وما زالوا يفعلونه دون أن يحدث أي شيء؟ وكان سوء حظ الجميع هو أن رياحاً أقوى قليلاً من التنبؤات، حركت البحر تحت شمس رائعة، فأمالت السفينة أكثر مما هو متوقع بكثير، وتقطعت أحزمة تثبيت الحمولة سيئة التوضيب، ولو لم تكن السفينة متينة مثلما هي "كالداس"، لغاصت بكاملها إلى الأعماق دون رحمة، ولكن ثمانية من بحارة الحراسة على السطح، سقطوا عن الحافة. وهكذا فإن السبب الرئيسي للحادث، لم يكن عاصفة، مثلما أصرت المصادر الرسمية منذ اليوم الأول، بل ما صرح به بيلاسكو في ريبورتاجه: الحمولة الزائدة من الأجهزة المنزلية سيئة التوضيب، على سطح سفينة حربية.

كان هناك أمر آخر احتُفظ به تحت الطاولة، ألا وهو نوع الأطواف التي كانت في متناول يد من سقطوا في البحر، الذين لم ينجُ منهم سوى بيلاسكو. من المفروض أن يكون في السفينة نوعان من الأطواف النظامية، وأن تكون قد سقطت معهم. أطواف من الفلين وقماش الخيام،

طول الواحد منها متران، وعرضه متر ونصف، في منتصفه سطح آمن ومزود بمؤونة، وماء للشرب، ومجاديف، وعلبة إسعافات أولية، وأدوات صيد وملاحة، ونسخة من الكتاب المقدس. ويمكن في هذه الحالة لعشرة أشخاص البقاء على متنها طوال ثمانية أيام، حتى دون أدوات الصيد. ومع ذلك، فقد كان على متن السفينة "كالداس"، فوق ذلك، حمولة من الأطواف الصغرى، غير المزودة بأي مؤونة. وقد تبين من خلال أحاديث بيلاسكو أن طوفه كان خالياً من أية وسائل أو مؤن. والسؤال الذي بقي دون جواب إلى الأبد، هو كم من الغرقى تمكنوا من الإمساك بأطواف أخرى لم توصلهم إلى أي مكان.

لقد كانت هذه هي، دون شك، الأسباب الأكثر أهمية التي أخرت التوضيحات الرسمية لحادثة الغرق، إلى أن تبينوا أنه لا بد من تقديم توضيح، لأن بقية أفراد طاقم السفينة صاروا في بيوتهم. وهم يروون القصة في كل أنحاء البلاد. أصرت الحكومة حتى النهاية، على روايتها عن العاصفة، وأضفت عليها طابعاً رسمياً في تصريحات حاسمة، تضمنها بيان رسمي. لم يبلغ الأمر بالرقابة، حدّ حظر نشر الفصول المتبقية. وقد حافظ بيلاسكو من جانبه، إلى المدى الذي استطاعه، على غموض موالٍ. ولم يُعرف قط إذا ما كانوا قد ضغطوا عليه كيلا يكشف الحقائق. كما أنه لم يطلب منا ولم يمنعنا من الكشف عنها.

بعد الفصل الخامس، جرى التفكير في إصدار طبعة إضافية للفصول الأربعة الأولى، استجابة لطلب القراء الراغبين في جمع فصول القصة كاملة. أما دون غابرييل كانو الذي لم نكن قد رأيناه في قاعة التحرير، خلال أيام العمل المحموم تلك، فقد نزل من عش حمائمه، وجاء مباشرة إلى حيث منضدتي ليسالني:

– قل لي يا سمبي: من كم فصل ستكون قصة الغريق؟

كنا قد وصلنا إلى الحديث عن اليوم السابع، عندما أكل بيلاسكو بطاقة تعريف كان يحملها، لأنها الطعام الوحيد المتوفر له، ولم يستطع تمزيق حذائه بأسنانه ليحصل على شيء يمضغه. أي أن ما تبقى لنا هو سبعة فصول أخرى. فاستنكر دون غابرييل ذلك، وقال بتشنج:

– لا يا سمبي، لا. يجب أن تكون القصة من خمسين فصلاً على الأقل.

قدمتُ إليه حججي. لكن حججه كانت تستند إلى أن مبيعات الجريدة على وشك أن تتضاعف. ويمكن لها حسب تقديراته أن تبلغ رقماً لا سابق له في الصحافة المحلية. ارتجل اجتماعاً لهيئة التحرير، ودُرست التفاصيل الاقتصادية، والفنية، والصحافية، وتم الاتفاق على حد معقول من عشرين فصلاً، أي بإضافة ستة فصول إلى ما كان مقرراً.

على الرغم من أن توقيعي لم يكن يرد في الفصول المطبوعة، إلا أن منهج العمل المتبع كان قد شاع وانتشر. وفي إحدى الليالي، حين ذهبت لإنجاز واجبي كناقد سينمائي، جرت في بهو صالة السينما مناقشة حامية حول قصة الناجي من الغرق. وكان معظم المتحاورين أصدقاء، ممن أتبادل وإياهم الرأي من أجل مقالي النقدي السينمائي، بعد العروض السينمائية. كانت آراؤهم تساعدني في توضيح آرائي من أجل مقالتي النقدية الأسبوعية. وبالنسبة لقصة الغريق، كانت هناك رغبة عامة – مع استثناءات قليلة جداً – في إطالة القصة أكثر ما يمكن.

وأحد تلك الاستثناءات كان رجلاً ناضجاً ومهيباً، يرتدي معطفاً بديعاً من وبر الجمال، ويعتمر قبعة من اللبد، لحق بي حوالي أربع

كوادرات من المسرح، بينما أنا راجع بمفردي إلى الجريدة. كانت ترافقه امرأة باهرة الجمال، ترتدي ملابس لا تقل بذخاً عن ملابسه، ومعهما صديق أقل منهما تأنقاً. خلع قبعته لبحييني، وقدم نفسه باسم لم ألتقطه منه. ثم قال لي، دون مواربة، إنه لا يستطيع أن يوافق على الريبورتاج عن الغريق، لأنه ممالأة مكشوفة للشيوعية. فأوضحت له دون كبير مبالغة، أنني لستُ سوى ناقل القصة التي يرويها بطلها نفسه. ولكن كانت لدى الرجل أفكاره الخاصة. وكان يرى أن بيلاسكو ليس سوى متسلل إلى القوات المسلحة، لخدمة الاتحاد السوفييتي. خمنتُ عندئذ بأنني أتحدث مع ضابط كبير من الجيش أو البحرية، واستثارتني فكرة الحصول على توضيح منه. ولكنه كان يريد، كما يبدو، أن يقول لي ذلك وحسب. وقد أضاف:

– أنا لا أعرف إذا ما كنتَ تفعل هذا، بوعي أم دون وعي، ولكن مهما يكن الأمر، فإنك تسيء إلى البلاد، لمصلحة الشيوعيين.

أومأت زوجته المبهرة إيماءة ذعر، وحاولت اقتياده من ذراعه، متوسلة بصوت خافت جداً: "أرجوك يا روخيليو". فأنهى هو كلامه بالتهذب نفسه الذي بدأ به:

– أرجوك أن تصدق بأنني أسمح لنفسي بقول هذا، تقديراً مني لكتابتك.

كانت تلك أول حادثة من سلسلة حوادث دفعتنا إلى التفكير، جدياً، بأخطار الشارع. ففي حانة بائسة وراء مكاتب الجريدة، يرتادها حتى الفجر، عمال من الحي، حاول شخصان مجهولان قبل يومين من ذلك، الاعتداء، دون سبب، على غونثالو غونثالث حين كان يتناول هناك

فنجان قهوته الأخير، في تلك الليلة. لم يستطع أحد أن يتصور الأسباب التي دفعتهما إلى التهجم على الرجل المسالم أكثر من كل الرجال المسالمين في العالم، إلا كونهم أخطؤوا به معتقدين أنه أنا، بسبب تشابه أسلوبنا ومظهرنا الكاريبي، وتكرر حرف الـ "غ" في اسمه المستعار "غوغ". وقد نبهني أمن الصحيفة على أي حال، إلى أنه عليّ عدم الخروج وحيداً في الليل، في مدينة كانت تصبح أكثر فأكثر خطراً. غير أنني، على خلاف ذلك، كنتُ أجد طمأنينة في الذهاب ماشياً إلى شقتي، بعد انتهاء عملي في الجريدة.

في فجر أحد أيام التوتر تلك، أحسست بأن ساعتي قد أزفت حين تساقط فتات زجاج سببته طوبة أُلقيت من الشارع، على نافذة غرفة نومي. كان الفاعل هو ألبخاندرو أوبريغون، فقد أضاع مفاتيح بيته، ولم يجد أصدقاء مستيقظين أو مكاناً شاغراً في أي فندق. وبعد أن تعب من البحث عن مكان ينام فيه، ومن قرع جرس شقتي المعطل، حلّ أمر ليلته تلك بقطعة آجر من ورشة البناء المجاورة. وعندما فتحتُ له الباب، اكتفى بتوجيه تحية سريعة إليّ، كيلا يوقظني تماماً، ثم استلقى على الأرض العارية لينام حتى الظهيرة.

كان الازدحام لشراء الجريدة، عند أبواب الاسبيكتادور، قبل أن تخرج إلى الشارع، يتزايد أكثر فأكثر. وكان الموظفون في مركز المدينة التجاري يتأخرون، في الذهاب إلى بيوتهم، بعد خروجهم من العمل، لكي يشتروا الجريدة ويقرؤوا الفصل اليومي في الحافلات. وأظن أن اهتمام القراء بدأ لأسباب إنسانية، واستمر لأسباب أدبية، ثم لاعتبارات سياسية في النهاية. ولكنه كان يستند على الدوام، إلى زخم القصة

الداخلي. لقد روى لي بيلاسكو مقاطع راودني الشك في أنه اختلقها، وعثر على معان رمزية أو عاطفية لبعض الوقائع، كما هو شأن طائر النورس الأول الذي لم يشأ الابتعاد عنه. وكانت واقعة الطائرات التي راح يحصيها، ذات جمال سينمائي خالص. لقد سألني أحد الأصدقاء، كيف أمكن لي أن أعرف عالم البحر، بكل تلك الدقة، فأجبته بأنني لم افعل أكثر من استنساخ ملاحظات بيلاسكو حرفياً. وابتداء من نقطة معينة، لم أعد مضطراً إلى إضافة شيء لما يرويه.

قيادة البحرية لم تكن تتمتع بالمزاج نفسه. فقبل قليل من انتهاء الحلقات، وجهت إلى الصحيفة رسالة احتجاج، لأنها تعاملت بشيء من المتوسطية، وبصورة قليلة التهذب، مع مأساة يمكن لها أن تحدث في أي مكان تعمل فيه وحدات بحرية. وجاء في الرسالة: "على الرغم من الحداد والحزن اللذين يلفّان سبعة بيوت كولومبية، ورجال الأسطول كلهم، لم تتورع الجريدة عن التمادي إلى حد نشر قصة مسلسلة لكتّاب مبتدئين في الموضوع، تغص بكلمات ومصطلحات تخلو من الدقة التقنية والمنطقية، وتوضع على لسان البحار المحظوظ والجدير الذي استطاع إنقاذ حياته بشجاعة" ولهذا السبب طالبت قيادة الأسطول بتدخل مكتب الإعلام والصحافة في رئاسة الجمهورية، لكي يوقف - بمساعدة ضابط بحري - ما يُنشر عن الحادث في المستقبل. ولحسن الحظ أننا كنا قد وصلنا، عند تلقي الرسالة، إلى الفصل ما قبل الأخير، فتظاهرنا بعدم معرفتنا بأمرها حتى الأسبوع التالي.

وتحسباً لإمكانية نشر النص كاملاً بصورة نهائية، كنا قد طلبنا من الناجي من الغرق أن يساعدنا بتقديم قائمة من الصور التي التقطوها

خلال الرحلة. كانت هناك صور من كل نوع، ولكن معظمها لجماعات على سطح السفينة. وفي خلفيتها تظهر صناديق الأدوات المنزلية – ثلاجات، مدافئ، غسالات – وعليها ماركة الشركات الصانعة بصورة واضحة. فكانت ضربة الحظ هذه كافية لتكذيب التكذيبات الرسمية. كان ردّ فعل الحكومة فورياً وحاسماً، وقد تجاوز توزيع الملحق كل التوقعات، وكل الطبعات السابقة. غير أنه لم يؤرق غييرمو كانو وخوسيه سلغار، المتبعين، سوى سؤال واحد:

– والآن، أي لعنة يمكننا عملها؟

في لحظة دوار المجد تلك، لم يكن لدينا جواب على التساؤل. فكل الموضوعات بدت لنا تافهة.

بعد خمس عشرة سنة من نشر القصة في الاسبيكتادور، قامت دار نشر توسكيتس في برشلونة بإصدارها في كتاب ذي غلاف مُذهب، بيع كما لو أنه مادة للأكل. وبوحي من إحساسي بالعدالة، وتقديراً مني للبحار البطل، كتبتُ في نهاية المقدمة: "هناك كتب ليست لمن يكتبها، وإنما هي لمن يعانيها. وهذا الكتاب هو واحد منها. وبالتالي فإن حقوق المؤلف ستكون لمن يستحقها: مواطني المجهول الذي كان عليه أن يعاني على طوف، طوال عشرة أيام، دون أن يأكل أو يشرب، لكي يكون هذا الكتاب ممكناً".

لم تكن عبارة في الفراغ، إذ قامت دار النشر توسكيتس، وبتوجيه مني، بدفع حقوق الكتاب كاملة إلى لويس أليخاندرو بيلاسكو، طوال ثلاث عشرة سنة، إلى أن أقنعه المحامي غييرمو ثيا فيرنانديث، في بوغوتا، بأن حقوق المؤلف هي من حقه قانونياً، مع أنها لم تكن كذلك، إلا بقرار مني، تقديراً لبطولته، وموهبته في السرد، وصداقته.

رُفعت الدعوى ضدي في محكمة الجزاء المدنية الثانية والعشرين، في دائرة بوغوتا القضائية. عندئذ أصدر محاميَّ وصديقي ألفونسو غوميث مينديث الأمر إلى دار نشر توسكيتس، بحذف الفقرة الأخيرة من المقدمة في الطبعات التالية، وعدم دفع سنتافو واحد من حقوق المؤلف إلى خوسيه أليخاندرو بيلاسكو، إلى أن تحسم العدالة الأمر. وكان هذا ما حدث. فبعد مداولات طويلة، تضمنت أدلة وثائقية، وتقنية، وشهادات، قررت المحكمة أن مؤلف العمل الوحيد هو أنا. ولم تستجب للدعوى التي رفعها محامي بيلاسكو. وبالتالي، لم تعتبر الدفعات التي تقاضاها حتى ذلك الحين، بتنازل مني، دليلاً على الاعتراف بالبحار كمؤلف مشارك، وإنما نتيجة قرار إرادي وحر ممن كتب الكتاب. وهكذا تحولت حقوق المؤلف، منذ ذلك الحين، وبتنازل مني أيضاً، كتبرع إلى مؤسسة تعليمية.

لم يكن بإمكاننا العثور على قصة مثل تلك، لأنها لم تكن من القصص التي يمكن اختلاقها على الورق. فالحياة هي التي تختلقها، وبصورة مفاجئة على الدوام. لقد أدركنا ذلك في ما بعد، عندما حاولنا كتابة سيرة حياة الدراج العظيم رامون هويوس، وكان قد تُوج في تلك السنة، بطلاً وطنياً للمرة الثالثة. أطلقنا الريبورتاج بضجة دعائية كتلك التي تعلمناها من ريبورتاج البحار، وأطلناه حتى تسعة عشر فصلاً، قبل أن ننتبه إلى أن الجمهور يفضل رؤية رامون هويوس يصعد جبلاً ويصل قبل غيره، إلى خط النهاية، ولكن في الحياة الواقعية.

وقد لمحنا بارقة أمل ضئيلة في مساء أحد الأيام، عندما اتصل بي سلغار، هاتفياً، لكي أذهب للقاء به فوراً في بار فندق كونتيننتال.

وقد وجدته هناك، ومعه صديق قديم وجديّ، كان قد انتهى للتو من تعريفه على مرافقه، وهو أمهق بالكامل، ويرتدي ملابس عامل. لشعره وحاجبيه لون شديد البياض إلى حد يبدو معه مبهراً، حتى في عتمة البار الخفيفة. وقد قدمه صديق سلغار، وهو رجل أعمال معروف، على أنه مهندس مناجم، يقوم بحفريات تنقيب في أرض خلاء، على بعد مئتي متر عن الاسبيكتادور. بحثاً عن كنز خرافي كان يملكه الجنرال سيمون بوليفار. وأكد لنا مرافقه – وهو صديق مقرب من سلغار، مثلما صار صديقاً لي منذ ذلك الحين – صحة القصة. لقد كانت القصة مريبة بسبب بساطتها: عندما كان بطل التحرير يستعد لمواصلة رحلته الأخيرة من كارتاخينا، مهزوماً ومحتضراً، يفترض أنه فضل ألا يحمل معه كنزه الشخصي الضخم الذي جمعه في عوز حروبه، كاحتياط يستحقه من أجل شيخوخة لائقة. وعندما كان يستعد لمواصلة رحلته المريرة – ولم يُعرف قط إذا ما كان يريد الذهاب إلى كاراكاس أم إلى أوروبا – تعمد ترك ذلك الكنز مخبأ في بوغوتا، تحت حماية نظام رموز الشعوذة واسعة الشيوع في زمنه؛ لكي يجده عندما يحتاج إليه، ومن أي مكان في العالم. لقد تذكرتُ هذه الأخبار بلهفة لا تُقاوم، بينما أنا أكتب "الجنرال في متاهته"، حيث يمكن لقصة الكنز أن تكون أساسية؛ ولكنني لم أتوصل إلى ما يكفي من المعلومات لكي أجعلها قابلة للتصديق، وبدت لي بالمقابل أنها هشة في التخيل الروائي. وكانت تلك الثروة الخرافية التي لم يستعدها صاحبها، هي ما يبحث عنه الباحث بجدّ وصبر. لم أدر لماذا كشفا لنا ذلك السر، إلى أن أوضح لي سلغار بأن صديقه المتأثر جداً بقصة الغريق، أراد أن يقدم لنا الحيثيات والمقدمات،

لكي نواصل عملية البحث يوماً بيوم، إلى أن يصبح نشرها ممكناً بمثل ذلك الانتشار.

ذهبنا إلى قطعة الأرض المعنية. وكانت الأرض الخلاء الوحيدة إلى الغرب من حديقة الصحفيين، وقريبة جداً من شقتي الجديدة. وقد شرح لنا الصديق، على خريطة من العهد الاستعماري، إحداثيات الكنز بتفاصيل حقيقية في رابيتي مونتيسرات وغوادالوبي. لقد كانت القصة فاتنة، وجائزتها ستكون خبراً متفجراً مثل خبر الناجي من الغرق، وبانتشار عالمي أوسع.

واصلنا زيارة المكان بين حين وآخر، لكي نبقى مطلعين على ما يحدث. وكنا نستمع إلى المهندس طوال ساعات لانهائية، ونحن نتناول الخمر الممزوج بالليمون، ونشعر في مرة بأننا نبتعد أكثر فأكثر عن المعجزة، إلى أن مرّ وقت طويل، لم يبق معه لدينا حتى مجرد الحلم. والارتياب الوحيد الذي خامرنا في ما بعد، هو أن قصة الكنز ليست سوى ستارة لاستغلال منجم مادة ثمينة ما، في وسط العاصمة. وربما تكون هذه الشكوك نفسها مجرد ستارة أخرى أيضاً، للحفاظ على سرية كنز بطل التحرير.

لم تكن تلك هي أفضل الأوقات للحلم. فقد نصحوني، منذ قصة الغريق، بأن أذهب إلى خارج كولومبيا لبعض الوقت، ريثما يهدأ الوضع بسبب التهديدات بالموت، الحقيقية أو المتخيلة، التي كانت تصلنا عبر وسائل متعددة. وكان هذا هو أول ما فكرت فيه عندما سألني لويس غابرييل كانو، دون مقدمات، عما أنوي عمله يوم الأربعاء القادم. وبما أنه لم يكن لدي أي مشروع محدد، فقد طلب مني بفتوره المعهود، أن

أهيئ أوراقي من أجل السفر، كمبعوث خاص من الجريدة، إلى مؤتمر الأربعة الكبار الذين سيجتمعون الأسبوع التالي في جنيف.

أول ما فعلته هو الاتصال، هاتفياً، بأمي. بدا لها الخبر عظيماً، حتى إنها سألتني إذا ما كنتُ أعني مزرعةً ما تسمى "جنيف". فقلت لها: "إنها مدينة سويسرية". ودون أن تبدي تأثراً، بهدوئها غير المحدود في استيعاب شطط أبنائها الذي لا يخطر على بال، سألتني إلى متى سأبقى هناك. فأجبتها بأنني سأعود بعد أسبوعين على أبعد تقدير. الحقيقة أنني كنت ذاهباً لأربعة أيام، هي المدة التي سيستغرقها الاجتماع. ومع ذلك، ولأسباب لا علاقة لها بإرادتي، لم أتأخر أسبوعين، وإنما قرابة ثلاث سنوات. وعندئذ صرت أنا هو من يحتاج إلى زورق تجديف صغير، ولو من أجل التمكن من الأكل مرة واحدة. ولكنني توخيت عدم إشعار أسرتي بذلك. لقد حاول أحد أصدقائي في إحدى المناسبات، أن يستثير أمي من خيانة ابنها الذي يعيش مثل أمير في باريس، بعد أن خدعها بالقول إنه لن يبقى هناك أكثر من أسبوعين. فقالت له بابتسامة بريئة:

- غابيتو لا يخدع أحداً. وكل ما في الأمر أن الرب نفسه يضطر أحياناً إلى جعل الأسابيع سنين.

لم أكن قد أحسست قط، بأنني شخص مجهول الهوية، بصورة بالغة الواقعية، مثل ملايين المهجَّرين بفعل العنف. لم أكن قد شاركت بالتصويت في أي انتخابات، لأني لا أملك بطاقة الهوية الشخصية. ففي بارنكيا، كنتُ أثبت شخصيتي ببطاقتي كمحرر في جريدة الهيرالدو، وكان تاريخ ميلادي فيها مزوراً، لكي أتهرب من الخدمة

العسكرية التي تخلّفت عنها منذ عدة سنوات. وكنت أثبت شخصيتي، في حالات الطوارئ، ببطاقة بريد قدمتها إليّ موظفة التلغراف في ثيباكيرا. وضعني صديق وفرته العناية الإلهية، على اتصال بمعقب معاملات في إحدى وكالات السفر، ووعد بأن يمكنني من الصعود إلى الطائرة في الموعد المحدد، على أن أدفع مقدماً مبلغ مئتي دولار، وأن أضع توقيعي في ذيل عشر أوراق بيضاء مختومة. وهكذا عرفت، بالمصادفة، أن حسابي المصرفي قد بلغ رقماً مفاجئاً، لأنني لم أكن أجد الوقت للإنفاق، بسبب انشغالي في كتابة التحقيقات الصحفية. وكانت النفقات الوحيدة، فضلاً عن حاجاتي الشخصية التي لا تتجاوز نفقات طالب فقير، تقتصر على الدفعات الشهرية التي أرسلها كزورق نجاة صغير للأسرة.

عشية السفر، ردد معقب معاملات وكالة السفر، أمامي، اسم كل وثيقة وهو يضعها فوق المكتب، لكيلا أخلط بينها: بطاقة الهوية الشخصية، دفتر الخدمة العسكرية، إيصالات براءة الذمة من مكتب الضرائب، وثائق اللقاح ضد الجدري والحمى الصفراء. وطلب مني أخيراً، إكرامية خاصة لفتى هزيل أعطي له اللقاحان باسمي، مثلما كان يجري يومياً، منذ سنوات، تلقيح الزبائن المستعجلين.

سافرت إلى جنيف في الوقت المحدد لافتتاح مؤتمر إيزنهاور، وبولغانين، وإيدين، وفاور، دون معرفتي لأي لغة أخرى سوى الإسبانية، وبدفعة مالية من الجريدة تكفي للإقامة في فندق من الدرجة الثالثة. غير أني كنتُ أستند جيداً إلى حسابي المصرفي الاحتياطي. كان مقدراً لي أن أعود بعد حوالي خمسة أسابيع، ولكنني لا أعرف ما هو الهاجس

الغريب الذي دفعني إلى أن أوزع على الأصدقاء، كل ممتلكاتي في الشقة، بما في ذلك مكتبة سينمائية جيدة، كنتُ قد جمعتها على امتداد سنتين، بمساعدة من ألفارو سيبيدا ولويس فينيس.

جاء الشاعر خورخي غايتان دوران لوداعي، عندما كنتُ أمزق أوراقاً لا لزوم لها، فدفعه الفضول إلى تفحص سلة المهملات، لعله يجد شيئاً ينفع للنشر في مجلته. أخرج ثلاث أو أربع ورقات ممزقة من منتصفها، وقرأها بسرعة خاطفة، بينما هو يعيد تركيب أجزائها على المنضدة. سألني من أين أتت تلك الأوراق، وأجبته بأنها "مونولوج إيزابيل وهي ترى هطول المطر في ماكوندو"، وأنني قد حذفتها من المسودة الأولى لرواية عاصفة الأوراق. نبهته إلى أنها قد نُشرت سابقاً في كرونيكا وفي ملحق "مغازين الأحد" في الاسبيكتادور، بالعنوان نفسه الذي اخترته أنا، وبتفويض لا أتذكر أنني قدمته على عجل في مصعد ما. لم يهتم غايتان دوران بكل ذلك، ونشرها في العدد التالي من مجلة "ميتو".

الوداع في بيت غييرمو كانو، عشية سفري، كان صاخباً إلى حدّ أنني لم أصل إلى المطار إلا بعد مغادرة الطائرة المتوجهة إلى كارتاخينا، حيث سأقضي تلك الليلة كي أودع الأسرة. ولكنني لحقت لحسن الحظ، بطائرة أخرى عند الظهيرة. وقد أحسنت صنعاً، لأن توتر الجو المنزلي قد تراخى عما كان عليه في المرة الأخيرة، وكان أبواي وأخوتي يشعرون بأنهم قادرون على العيش دون زورق النجاة الذي سأكون بحاجة إليه، أكثر منهم، في أوروبا.

سافرتُ إلى بارنكيا براً، في اليوم التالي، منذ الصباح الباكر،

لكي ألحق بالطائرة المغادرة إلى باريس، في الساعة الثانية بعد الظهر. وفي محطة حافلات كارتاخينا، التقيت بلاثيديس، بواب "ناطحة السحاب" الذي لا يُنسى، ولم أكن قد رأيته منذ تلك الأيام. اندفع نحوي في عناق حقيقي، وبعينين ممتلئتين بالدموع، دون أن يدري ما يقول، أو كيف يعاملني. وبعد تبادل عبارات مستعجلة، لأن حافلته قد جاءت، وحافلتي تشرف على الانطلاق، قال لي بحماسة أصابت أعماق روحي:

- ما لا أفهمه يا دون غابرييل، هو لماذا لم تخبرني من تكون.

فأجبته، وأنا أكثر تألماً منه:

- آه يا عزيزي لاثيديس. لم أكن قادراً على أن أخبرك، لأنني أنا نفسي ما زلتُ حتى اليوم لا أعرف من أكون.

بعد ساعات، بينما أنا في سيارة الأجرة التي أقلتني إلى مطار بارانكيا، تحت السماء الجاحدة، والأكثر شفافية من أي سماء أخرى في العالم، انتبهت فجأة إلى أنني في جادة العشرين من تموز. وبحركة لا شعورية، صارت جزءاً من حياتي منذ نحو خمس سنوات، نظرتُ باتجاه بيت ميرثيديس بارتشا. وهناك كانت هي، تجلس أمام البوابة مثل تمثال، نحيلة ونائية، دقيقة في مجاراة أزياء السنة، بثوب أخضر موشى بتطريزات مذهبة، والشعر مقصوص على شكل أجنحة السنونو؛ وبالهدوء المتوتر لمن ينتظر أحداً لن يأتي. لم أستطع تفادي صوتٍ مدوٍ في داخلي، بأنني سأفقدها إلى الأبد، في ساعة مبكرة من يوم خميس تموزي؛ ففكرتُ للحظة بإيقاف سيارة التكسي كي أودعها، ولكنني فضلت ألا أتحدى، مرة أخرى، قدراً شديد الالتباس والثبات مثل قدري.

بقيتُ أعاني، في الطائرة المحلقة، آلام المغص والندم. وكانت ما

تزال شائعة آنذاك. العادة الحميدة بوضع شيء، على ظهر كل مقعد، يُسمى بغنائية طيبة: "أدوات كتابة"، مكوّنة من أوراق رسائل صغيرة ذات حواش مذهبة، ومغلف من الورق نفسه، بلون وردي، أو سكري، أو أزرق، ومعطر في بعض الأحيان. كنتُ أستخدم تلك الأوراق، في رحلاتي القليلة السابقة، لكتابة قصائد وداع أحولها إلى طيارات ورقية، وأقذف بها لتطير متهادية عند نزولي من الطائرة. اخترت ورقة زرقاء سماوية، وكتبت أول رسالة رسمية موجهة إلى ميرثيديس، الجالسة عند بوابة بيتها في السابعة صباحاً، بفستان عروس أخضر، وبشعر على شكل سنونوة غير مؤكدة؛ حتى إنني لم أفكر من أجل من ارتدت تلك الملابس، منذ الصباح. كنت قد كتبت إليها من قبل، ملاحظات مداعبة أخرى، ارتجلها كيفما اتفق، ولا أتلقى على الدوام، عندما نلتقي مصادفة، سوى إجابات شفهية ومتهربة. لم يكن ما كتبته أكثر من خمسة سطور، لأطلعها رسمياً على خبر سفري. ومع ذلك، فقد أضفت في نهايتها ملاحظة أبهرتني مثل وميض برق في الظهيرة، في لحظة التوقيع: "إذا لم أتلق جواباً على هذه الرسالة، قبل مرور شهر، فسوف أبقى لأعيش في أوروبا إلى الأبد". لم أكد أتيح لنفسي الوقت للتفكير في الأمر مرة أخرى، قبل أن ألقي الرسالة، في الساعة الثانية فجراً، في صندوق بريد مطار موتيو باي. وكان يوم الجمعة قد حلّ. وفي يوم الخميس من الأسبوع التالي، عندما دخلتُ إلى الفندق في جنيف، بعد جولة أخرى غير مجدية من عدم الوفاق الدولي، وجدت الرسالة الجوابية.